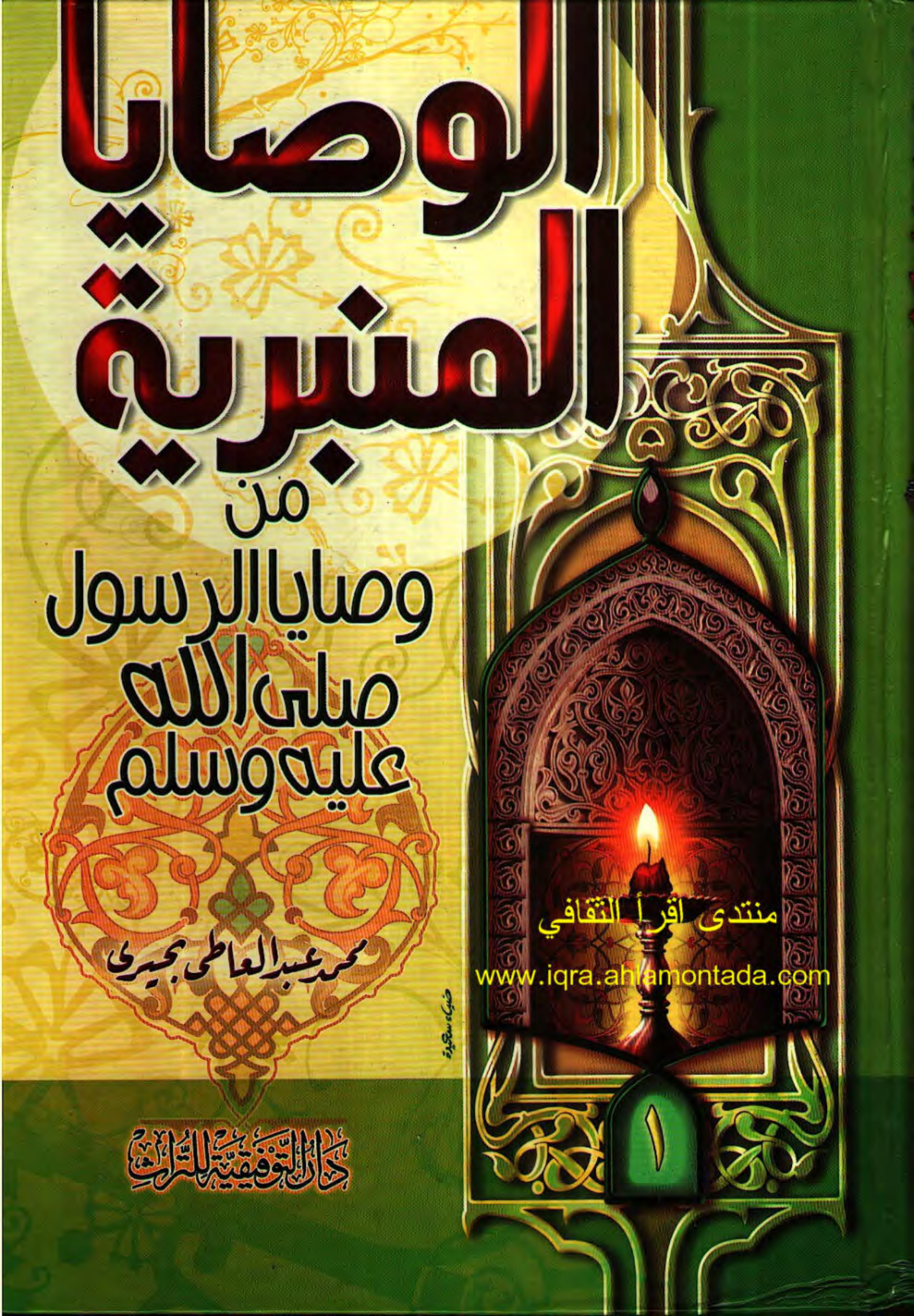

الوصايا المنبرية
من
وصايا الرسول صلى الله عليه وسلم
محمد عبد العاطي بحيري
١
دار التوفيقية للتراث
منتدى اقرأ الثقافي
www.iqra.ahlamontada.com

الوصايا المنبرية

من وصايا الرسول ﷺ

للخطباء والدعاة والوعاظ

بقلم

محمد عبد العاطي بحيري

الجزء الأول

دار التوفيقية للتراث

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾

الوصايا المنبرية [ج/١]

المؤلف: محمد عبد العاطي بحيري

الناشر: دار التوفيقية للتراث

رقم الإيداع: ١٦٦٣٢/٢٠٠٩

دار التوفيقية للتراث

١ درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر - القاهرة

تليفون : ٢٥١٠٥٦٦٢

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله. اللهم لك الحمد، وإليك المشتكى. أنت وحدك صاحب الأمر، وإليك المشتكى. إلهي: كيف أفتقر في غناك؟ وكيف أضل في هداك؟ وكيف أذل في عزك؟ وكيف أضام في سلطانك؟

وعزتك. لن أفتقر في غناك أبدًا. ولن أضل في هداك. ولن أذل في عزك، ولن أضام في سلطانك وأنت الله رب العالمين.

المعافى من عافيت، والمبتلى من ابتليت، والحكم ما قضيت. كل معبود سوى وجهك الكريم باطل، وكل ملك سوى ملكك الكبير زائل، وكل فضل سوى فضلك العظيم منقطع.

ليس سواك للمضطر عونا	إذا نزلت به الكرب العظام
وقفت بباب رحمتك ابتهالا	وفاض الدمع وانقطع الكلام
علمت بأنك الغفار ربي	ومن نعماك ينهمر الغمام
فإن تغفر وترحم يا إلهي	فليس يضير إن غضب الأنام

وأشهد أن لا إله إلا الله. بهرت عظمته عقول العارفين، وظهرت أنواره لبصائر السالكين. وظهرت بدائعه لنواظر المتأملين.

وأشهد أن سيدنا وحبيبنا محمدًا عبد الله ورسوله. أرسله ربه للإيمان مناديًا، وإلى الجنة داعيًا، وإلى الطريق المستقيم هاديًا، وفي مرضاته ساعيا، وبكل معروف آمرًا، وعن كل منكر ناهيًا. فرفع الله له ذكره. وشرح له صدره. ووضع عنه وزره، وجعل الذلة والمهانة على من خالف أمره.

اللهم صلِّ وسلم وبارك عليك يا سيدي يا رسول الله. يا من أتيتنا بكتاب كالشمس وضحاها، وسنة كالقمر إذا تلاها، فمن سار في ضوء الكتاب والسنة، سار في

ضوء النهار إذا جلاها ومن أعرض عنهما تخبط فى ظلمة الليل إذا يغشاها. نعم قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها. أما بعد.

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأوثق العرى كلمة التقوى، وخير الملل ملة إبراهيم، وأحسن السنن سنة محمد ﷺ، وخير الهدى هدى الأنبياء، وأشرف الحديث ذكر الله، وخير القصص القرآن، وخير الأمور عواقبها، وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار.

ولما كان خير الهدى هدى سيدنا محمد ﷺ، طلب منى الأستاذ/ عبد الحميد شعلان مدير «المكتبة التوفيقية» أن أكتب لنا كتابًا يحتوى على الوصايا المنبرية من «وصايا الرسول ﷺ» فقمت بتوفيق الله بكتابته وقسمته إلى جزءين: الجزء الأول يحتوى على اثنين وخمسين وصية، والجزء الثانى يحتوى على باقى الوصايا مما فتح الله به علينا وأعلم أنى لم يكن لى السبق إلى هذا الموضوع العظيم، ولكن سبقنى إليه أساتذة أجلاء، ومشايخ فضلاء، لكن كما قال سيد الكائنات ﷺ لأصحابه ولأمته من بعده «من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين وإنما أنا قاسم والله تعالى مُعط» وكلنا ننهل من جامعة الرسول المصطفى، ونقف على أبوابها متواضعين تلك الجامعة الَّتى تخرج فيها الرجال الفضلاء، والأساتذة الأعزاء. تخرج فيها المصلح القدير كأبى بكر الصديق، والعبقرى الفذ كعلىٍّ، والملهم القدير كعمر بن الخطاب والفيلسوف البارع كسلمان الفارسى، والحيىُّ الكريم كعثمان، والمحدث الجليل كأبى هريرة، والمفتى القدير كابن عباس، والأستاذ الزاهد كأبى ذر، والقائد المغوار كخالد بن الوليد. لو سألنا هؤلاء جميعًا من أى الجامعات تخرجتم لقالوا: تخرجنا فى جامعة كان عميدها إمام الأنبياء والمرسلين. وقائد الغر المحجلين. محمد ﷺ، ولما كان ذلك كذلك. ذهبت إلى بستان حول جامعة الرسول ﷺ، ذهبت إليه. فتنسمت منه عبيراً فواحًا. فوجدته مليئًا بالورود والرياحين. وجدته مليئًا بالثمار الرطبة. فاقتطفت منه ثمرات جنية. وزهرات ندية. اقتطفت منه زهرات فى العقيدة. وأخرى فى الأخلاق. وأخرى فى المعاملات. المعاملات التى تنظم العلاقة بين العبد وربه. وتنظم العلاقة بين العبد وإخوانه فى هذه الدنيا اقتطفت مائة زهرة فيها تحذيرات. وفيها بشارات. فيها وعد. وفيها وعيد.

ثم أخذت هذه الزهرات، ونظمتها عقودًا. توضع على صدور الموحدين العاملين، تناولت هذه القطوف الدانية بالشرح، وقفت مع كل منها وقفة متأملة، تارة أزينها بآيات من كتاب الله تعالى، وتارة بمواعظ السلف الصالح رضوان الله عليهم من

الصحابة والتابعين. أختم كل واحدة بموعظة. وأبين ما فيها من الفقه الميسر حتى يعم النفع بها.

فإن أكن قد وفقت فمن الله تعالى رب العالمين. وإن كانت الأخرى فمنى ومن نفسى، ومن الشيطان.

نسألك اللهم يا من أفاض خلع الإيمان على المؤمنين. ويا من ملأ من عطائه أكف السائلين. ارزقنا إيمانًا تخالط بشاشته قلوبنا. وهب لنا عطاء غير ممنون ولا محسوب.

اللهم بدوام غناك عن كل شيء. ارحم دوام افتقارنا إليك. وكما ضمنت لنا أرزاقنا، فاجعلنا بضمانك واثقين. وكما أنزلت علينا كتابك. وبعثت إلينا رسولك، فاجعلنا بكتابك عاملين. ولرسولك متابعين. واحشرنا يا ربنا مع إمام المرسلين. وشفيع المذنبين. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الوصية رقم (١)
تعلموا الفاتحة

عن أبى سعيد بن المعلى قال: كنت أصلى فدعانى رسول الله ﷺ، فلم أُجبْهُ حتى صليت، فأتيته، فقال: «**ما منعك أن تأتينى**» قال: قلت: يا رسول الله، إنى كنت أصلى قال: «**ألم يقل الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾** [الأنفال: ٢٤] ثم قال: «**لأعلمنَّكَ أعظم سورة فى القرآن أو من القرآن قبل أن تخرج من المسجد**» قال: **فأخذ بيدى، فلما أراد أن يخرج من المسجد، قلت: يا رسول الله، إنك قلت: لأعلمنك أعظم سورة فى القرآن. قال: «نعم، الحمد لله رب العالمين، هى السبع المثانى، والقرآن العظيم الذى أوتيته»**[١].

صدق رسول الله ﷺ

• فى رحاب هذه الوصية •

أخا الإسلام:

ها نحن نعيش بين يدى طالب علم، وأستاذ معلم، لكن الأستاذ المعلم من أعظم الأساتذة الذين عرفهم التاريخ، ومن أنبل معلمى الدنيا الذين عرفهم الزمان، إنه خير خلق الله محمد ﷺ وتلميذه النبيل «أبو سعيد بن المعلى» رضي الله عنه. يجده يومًا من الأيام يصلى، فيدعوه مناديًا عليه، لكن أبا سعيد آثر الصلاة لأنه كان قد شرع فيها، فلما أتمها إذ بالمعلم الأعظم يعاتبه: «**ما منعك أن تجيبنى؟**» فيرد عليه التلميذ فى أدب، ويقول: «كنت أصلى» فلم يمنعنى من الإجابة إلا الصلاة. فيقول النبى ﷺ له: «**ألم تقرأ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾**» [الأنفال: ٢٤] ثم يقول النبى ﷺ لتلميذه بأسلوب تربوى علمى على سبيل الاستفهام الذى ينبه الأذهان، ويلفت الأنظار، ويشوق النفوس والقلوب إلى ما بعد السؤال من الجواب، فيقول: «**ألا أعلمك أعظم سورة فى القرآن قبل أن تخرج من المسجد؟**» وقال له ذلك، ولم يعلمه بها ابتداء ليكون أدعى إلى تفريغ ذهنه لتلقيها، وإقباله عليها بالكلية[٢] ثم أعلمه بعد ذلك أن أعظم سور القرآن إنما هى سورة الفاتحة، لأنها جمعت جميع مقاصد القرآن، ولا ينافيه حديث: البقرة أعظم

---

(١) رواه البخارى (٤٤٧٤) فى كتاب التفسير، باب ما جاء فى فاتحة الكتاب، وأخرجه أيضًا فى فضائل القرآن (٦ ٥) ورواه أبو داود فى كتاب الصلاة (١٤٥٨) والنسائى (٩١٢) وابن ماجه (٣٧٨٥) وأحمد فى مسنده (١٧٧٧٧) وابن حبان فى صحيحه (٧٧٧) والطبرانى فى الكبير، والدارمى (٢٣٧١).

(٢) دليل الفالحين جـ٣/ ٣ ٥.

السور لأن المراد بـه ما عدا الفاتحـة من السور التى فـصلت فيهـا الأحكام، وضربت فيـها الأمثال، وأقيمت فيها الحجج، إذ لم تشتمل سورة على مثل ما اشتملت عليه سورة البقرة، ولذا سميت فسطاط القرآن، ثم ذكـر المعلم الأعظم ﷺ السبب فى تفـضيل هذه السورة العظيمة فقال: «.. **هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته**».

ولذلك يقول الحسـن البصرى -رحمه الله-: «**إن الله** أودع علوم الكتـب السابقة فى القرآن، ثم أودع علومه فى الفاتحة، فمن علم تفسيرها كان كمن علم تفسيره»[1].

وقد ورد عن علىٍّ ؓ: لو شئت أن أوقر على الفـاتحة سبعين وقرًا لأمكننى ذلك، وهو صحيح لجمعها سائر ما يتعلق بالموجودات دنيا وأخرى، أحكامًا وعقائد، وتفصيل كل ذلك وتوابعه على وجهها يستغرق العمر وزيادة[2].

• طاعة الرسول الأعظم •

تأمل أخى المسلم:

تأمل الآية التى وردت فـى نص الوصية التـى سنعيش معـها بقلوبنا، ونـسير معـها بعقولنا لتدبرها، ونتعلمها حق التعليم لأنها من الأهمية بمكان.

إن الآية تقول: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ**﴾ [الأنفال: ٢٤] أى أن الرسول إذا أمركم بأمر فسارعوا بـفعله، وإذا نهاكم عن أمر فاحذروا أن تقعوا فيه، فطاعته عليكم واجبة، وأنتم مأمورون بها فى الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿**قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ**﴾ [آل عمران: ٣٢]. كما جعل الله تعالى طاعة رسوله محمد ﷺ طاعة له قال سبحانه: ﴿**مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ**﴾ [النساء: ٨٠].

يقول ابن كثيـر: يخبر الله تعالى عن عبده ورسـوله محمد ﷺ بأن من أطاعه فقد أطاع الله، ومن عصـاه فقد عصى الله، ومـا ذاك إلا لأن الرسول الأعظم ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ** ③ **إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ**﴾ [النجم: ٣، ٤] وعن أبى هريـرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «**من أطاعنى دخل الجنة، ومن عـصانى فقد أبى. قـالوا: ومن يأبى أن يدخل الجنة يا رسول الله؟ قال: من أطاعنى دخل الجنة، ومن عصانى فقد أبى**»[3]

بل ولقد جعل رب العـزة جل وعلا طاعة رسوله ﷺ سببًا من الأسـباب التى توصل العبد للهداية بربه، والتى يطلبها من مولاه فى كل صلاة من الصلوات، وفى كل ركعة يقول:

(١)، (٢) المرجع السابق ٣/ ٤

(٣) رواه البخارى فى الاعتصام باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ.

﴿اهدنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ فقد قال جل شأنه: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: ٥٤] وقال سبحانه: ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف ١٥٨] وعلى العكس فإن عدم طاعة الرسول ﷺ ضلال وشقاء، قال ﷺ «**لو تركتم سنة نبيكم لضللتم**»[١] وفي رواية «**لكفرتم**».

ولقد كان صحابة النبي ﷺ أعظم رجال هذه الأمة، الرجال الذين اصطفاهم الله تعالى لصحبة نبيه، وإقامة دينه، فهيا بنا لنتعرف على سمعهم وطاعتهم للرسول الأعظم ﷺ، هيا بنا نقلب صفحات السيرة المباركة لنرى كيف كان هؤلاء يسمعون من الرسول ﷺ ويقولون: سمعنا وأطعنا.

١ **عبد الله بن مسعود** رضي الله عنه: فعن جابر رضي الله عنه قال: لما استوى رسول الله ﷺ يوم الجمعة قال: «**اجلسوا**» فسمع ذلك ابن مسعود، فجلس على باب المسجد، فرآه رسول الله ﷺ، فقال: **تعال يا عبد الله بن مسعود**[٢]

تأمل أخي الحبيب إن عبد الله بن مسعود لم يسمح لنفسه منذ أن سمع أمر الرسول اجلسوا أن يتوانى لحظات حتى يدخل المسجد، ثم يجلس، بل جلس فور سماعه الأمر. وهذا هو:

٢- **صديق الأمة (أبو بكر الصديق)**: تذكر كتب السنة أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان ينفق على رجل من فقراء المسلمين يسمى «مسطح بن أثاثة» وكان قريبًا له ذا رحم. وكان مسطح هذا ممن تكلم في حادثة الإفك، فلما تكلم مسطح في هذا الأمر، قطع عنه النفقة، فلما نزل قوله تعالى: ﴿وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور ٢٢] فبعث رسول الله ﷺ إلى أبي بكر، فقرأها عليه، فقال رضي الله عنه: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي، والله لأردن على مسطح ما كنت قطعته منه»[٣]

ما قال أبو بكر هو سبني في أعز ما أملك! ما قال هو لطخ عرضي، ودنس شرفي! ولكنه لم يتردد لحظة واحدة بل سمع وأطاع. وهذه هي الصديقة بنت الصديق.

٣- **عائشة** رضي الله عنها: ففي البخاري أنها رضي الله عنها أرادت أن تشتري أمة تسمى «**بريرة**» فأبى مواليها إلا أن يشترطوا الولاء، فذكرت ذلك للنبي ﷺ، فقال: «**اشتريها وأعتقيها فإنما الولاء لمن أعتق**» فاشترتها عائشة وأعتقتها، وكان لها زوج عبد يسمى «**مغيث**» ولما صارت

---

(١) رواه أبو داود مطولا وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٥٥) جـ١/ ١٦٤ ورواه مسلم (٦٥٤).

(٢) رواه أبو داود وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٩١ ١) جـ١/ ٣٠

(٣) رواه البخاري ومسلم.

حرة، خيرت بين أن تبقى مع زوجها، وبين أن تفارقه، لكنها اختارت الطلاق، وكان «مغيث» زوجها يحبها حبًّا جمًّا، لدرجة أنه كان يمشى وراءها فى سكك المدينة يبكى لفراقها، فلما رآه رسول الله ﷺ على هذه الحالة، قال لعمه العباس: **«يا عباس، ألا تعجب من حب مغيث بريرة، وبغض بريرة مغيثًا»** ثم قال لها: **«يا بريرة، لو راجعته»** قالت: يا رسول الله، أتأمر؟ قال: **«إنما أنا أشفع»**(١)

فتدبر أخى المسلم، إن المرأة تسأل الرسول أتأمر فيكون هذا الأمر واجبًا وعلىّ السمع والطاعة؟ أم أنك تشفع فيحق لى أن أختار؟ فلما قال الرسول ﷺ **«إنما أنا شافع»** قالت: يا رسول الله ما دام الأمر اختياريًا فلا حاجة لى فيه.

٤- جميع الصحابة رضوان الله عليهم: وعن أبى سعيد الخدري ﷺ قال: بينما رسول الله يصلى بأصحابه إذ خلع نعليه فوضعهما عن يساره، فلما رأى الصحابة ذلك خلعوا نعالهم، فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته سائلهم وقال: **«ما حملكم على إلقائكم نعالكم؟»** قالوا: رأيناك ألقيت نعليك، فألقينا نعالنا.

فقال رسول الله ﷺ **«إن جبريل أتانى فأخبرنى أن فيها قذرًا»** وقال: **«إذا جاء أحدكم إلى المسجد، فلينظر، فإن رأى فى نعليه قذرًا، أو أذى، فليمسحه وليصل فيهما»**(٢)

فتأمل أخى الحبيب كل ذلك، وقد كان بوسعهم -أى الصحابة- أن يتموا صلاتهم ثم يسألونه عن سر خلعه لنعليه، لكنهم امتثلوا وأطاعوا قبل أن يأمرهم، ثم بعد الصلاة وضح لهم الأمور كما ينبغى.

٥- وعن عبد الله بن عمر ﷺ قال: «اتخذ النبى ﷺ خاتمًا من ذهب فاتخذ الناس خواتيم من ذهب، فقال النبى ﷺ: **«إنى اتخذت خاتمًا من ذهب فنبذه، وقال: إنى لن ألبسه أبدًا، فنبذ الناس خواتيمهم»**(٣)

وهكذا كان صحابة النبى ﷺ يسارعون إلى الائتمار بأمره، والانتهاء بنهيه، فكانوا له مطيعين، وإلى طلب مرضاته مسارعين، فرضى الله عنهم أجمعين.

ولذلك يشبه الرسول ﷺ ويمثل لمن يطيعه، ولمن يعصاه بماذا؟ تأمل الحديث الذى رواه البخارى ومسلم من حديث أبى موسى الأشعرى ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«إنما مثلى ومثل ما بعثنى الله به كمثل رجل أتى قومًا، فقال: يا قوم، إنى رأيت الجيش بعينى، وإنى أنا النذير العُريان، فالنجاء النجاء، فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا فانطلقوا على مهلهم**

---

(١) رواه البخارى (٥٢٨٣) وأحمد (٤٨٥٥).

(٢) رواه أبو داود وصححه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود (٦٥٠) جـ١/ ١٩٢ باب الصلاة فى النعل.

(٣) رواه البخارى (٧٢٩٨).

فنجوا، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم، فصبحهم الجيش، فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعنى، فاتبع ما جئت به، ومثل من عصانى، وكذب بما جئت به من الحق»(١)

أخا الإسلام:

فإن أردت الفوز والنجاة فعليك بطاعة النبى المصطفى ﷺ إن أردت أن تصل إلى رب العالمين فعليك بطريق النبى الأمين، ولذلك يقول ابن القيم(٢): قال الجنيد بن محمد: «الطرق كلها مسدودة إلا طريق من اقتفى آثار النبى ﷺ، فإن الله عز وجل يقول: **«وعزتى وجلالى لو آتونى من كل طريق، واستفتحوا من كل باب، لما فتحت لهم حتى يدخلوا خلفك يا محمد»**.

إن أردت أن تشرب من حوض الرسول فعليك بطاعة الرسول ﷺ فهو القائل فى الحديث الذى رواه البخارى ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: **«أنا فرطكم على الحوض، وليختلجن رجال دونى، فأقول: يا رب أصحابى، فيقال: إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك. فأقول: سحقًا سحقًا لمن بدل بعدى»**(٣) فصلوات ربى وتسليماته عليك يا سيدى يا رسول الله.

أخا الإسلام:

هيا بنا بعدما وقفنا مع طاعة حبيبنا، ونور أبصارنا، وذهاب همومنا وغمومنا، وجلاء قلوبنا، هيا بنا إلى سورة ليس فى التوراة، ولا فى الإنجيل سورة مثلها.

هيا بنا لنذهب إلى أم القرآن والسبع المثانى لنتعرف على أسمائها، وأحكامها، وفضلها، ومكانتها بين سور القرآن فإلى هناك.

• ما جاء فى فضل سورة الفاتحة •

ولقد ورد فى سورة الفاتحة آثار تدل على عظم فضلها، ورفعة قدرها عند الله تعالى وسنذكر بعض ما جاء فى فضلها:

١- جاء فى رواية - بدلاً من **أبى سعيد بن المعلى** - عن أبى هريرة رضي الله عنه **أن رسول الله ﷺ خرج على أبى بن كعب، فقال: يا أبى وهو يصلى، فالتفت أبى فلم يجبه، وصلى أُبى فخفف، ثم انصرف إلى رسول الله ﷺ، فقال: السلام عليك يا رسول الله، فقال رسول الله: وعليك السلام، ما منعك يا أبى أن تجيبنى إذ دعوتك؟ فقال: يا رسول**

---

(١) رواه البخارى (٧٢٨٣)، ومسلم (٢٢٨٣).

(٢) طريق الهجرتين لابن القيم ص١١ المكتبة التوفيقية.

(٣) رواه أحمد فى مسنده (٣٢٢٧) ورواه مسلم (٢٢٩٠) والبخارى.

الله، إني كنت في الصلاة قال: **أفلم تجد فيما أوحى الله إليّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾** [الأنفال: ٢٤] قال: بلى، ولا أعود إن شاء الله. قال: **أتحب أن أعلمك سورة لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل، ولا في الزبور، ولا في الفرقان مثلها؟** قال: بلى يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: **«والذى نفسى بيده، ما أنزل الله فى التوراة، ولا فى الإنجيل، ولا فى الزبور، ولا فى الفرقان مثلها، وإنها لسبع من المثانى والقرآن العظيم الذى أعطيته»**(١)

٢- وعن **أبى هريرة** رضي الله عنه قال: **سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين، ولعبدى ما سأل، فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين. قال الله: حمدنى عبدى، فإذا قال: الرحمن الرحيم. قال: أثنى علىّ عبدى، فإذا قال: مالك يوم الدين. قال: مجدنى عبدى، فإذا قال: إياك نعبد، وإياك نستعين. قال: هذا بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل، فإذا قال: اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين. قال: هذا لعبدى ولعبدى ما سأل»**(٢)

٣- وعن **أنس** رضي الله عنه قال كان النبى ﷺ فى مسيرة، فنزل، ونزل رجل إلى جانبه، قال: فالتفت النبى ﷺ فقال: **ألا أخبرك بأفضل القرآن؟** قال: بلى، فتلا، الحمد لله رب العالمين(٣)

٤- وعن **ابن عباس** رضي الله عنهما قال. بينما جبريل عليه السلام قاعد عند النبى ﷺ سمع نقيضًا من فوقه، فرفع رأسه، فقال: **«هذا من باب من السماء فتح لم يفتح قط إلا اليوم فنزل منه ملك، فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم، فسلم، وقال: أبشر بنورين لم يؤتهما نبى قبلك، فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته»**(٤)

٥- وعن **واثلة بن الأسقع** رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«أعطيت مكان التوراة السبْع، وأعطيت مكان الزبور المئين، وأعطيت مكان الإنجيل المثانى، وفضلت بالمفصل»**(٥)

---

(١) رواه الترمذى وقال: حسن صحيح، ورواه ابن خزيمة، وابن حبان فى صحيحيهما، والحاكم مختصرا وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم قال المنذرى فى الترغيب ٢/٣٦٧

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه ابن حبان فى صحيحه، والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم.

(٤) رواه مسلم والنسائى، والحاكم وقال: صحيح على شرطهما.

(٥) رواه الإمام أحمد فى مسنده (١٦٩١٩) بإسناد حسن لأجل عمران القطان جـ/ ٢٢٢ ورواه الطبرانى فى الكبير (١٨٧) وذكره المنذرى فى الترغيب ٢/٣٦٨ وأشار إلى ضعف عمران القطان.

• ما ورد في أسمائها(*) •

لقد وردت لهذه السورة المباركة أسماء متعددة، وتعدد الأسماء يدل على شرف المسمى ولقد ذكر المفسرون أن من أسمائها:

١- **فاتحة الكتاب**: وهذا الاسم جوزه الجمهور، وسميت بذلك لأنها يفتتح بها فى المصاحف والتعليم، والقراءة فى الصلاة، وقيل: سميت بذلك لأن الحمد فاتحة كل كلام.

٢- **سورة الحمد**: لأنها ابتدأت بلفظ «الحمد لله رب العالمين».

٣- **أم القرآن**: وسميت بذلك لأن الأم أصل الشىء، ومقاصد القرآن فى أربعة: الإلهيات، المعاد، النبوات، إثبات القضاء والقدر لله تعالى.

فقوله: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ**﴾ تدل على الإلهيات.

وقوله: ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾ يدل على المعاد.

وقوله: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ يدل على إثبات القدر لله تعالى، ونفى الجبر.

وقوله: ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** .الخ﴾ يدل على قضاء الله وقدره، وعلى النبوات.

ولما اشتملت السورة على هذه المقاصد سميت باسم «أم القرآن».

٤- **أم الكتاب**: وهذا الاسم جوزه الجمهور، وكرمه أنس والحسن وابن سيرين، وقد ورد فى الحديث الصحيح: عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الحمد لله أم الكتاب والسبع المثانى**»(١) ولذلك سميت بـ...

٥- **السبع المثانى**: قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ**﴾ [الحجر: ٨٧] وفى تسميتها بالمثانى وجوه:

أ- لأنها تثنى فى كل ركعة من صلاة ذات ركوع.

ب- لأن نصفها ثناء العبد للرب، ونصفها عطاء الرب للعبد.

ج- لأنها مستثناه من سائر الكتب.

د- سميت مثانى لأنها سبع آيات، كل آية تعدل قراءتها سبع من القرآن، فمن قرأ الفاتحة أعطاه الله ثواب من قرأ كل القرآن.

هـ- لأنها أثنية على الله تعالى ومدائح له.

(*) اعتمدت فى هذا الموضوع على: تفسير القرطبى جـ١/ ١١١-١١٤ وتفسير الفخر الرازى ١/ ٢١٩-٢٢٣ وتفسير روح المعانى للألوسى ١/ ٩٥-٩٨

(١) رواه الترمذى وقال: حسن صحيح.

٦- تسمى «الوافية»: كان سفيان بن عيينة يسميها بهذا الاسم، قال الثعلبى: وتفسيرها أنها لا تقبل التنصيف، ألا ترى أن كل سورة من القرآن لو قرئ نصفها فى ركعة، والنصف الثانى فى ركعة أخرى لجاز، وهذا التنصيف غير جائز فى الفاتحة.

٧- تسمى «الكافية»: سميت بذلك لأنها تكفى عن غيرها، وأما غيرها فلا يكفى عنها.

٨- تسمى «الأساس»: وسميت بذلك لعدة وجوه:

أ- أنها أول سورة من القرآن، فهى كالأساس.

ب- أنها مشتملة على أشرف المطالب.

ج- أن أشرف العبادات بعد الإيمان بالله الصلاة، وقد اشتملت على ما لابد منه فيهما.

٩- تسمى بسورة الشفاء: فهى شفاء من كل داء، ولقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يرقون بها المريض، فيشفى بإذن الله.

عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه قال: «كنا فى مسير لنا، فجاءت جارية، فقالت: إن سيد الحى سليم «أى لديغ» وإن نفرنا غُيَّب فهل منكم راق؟ فقام معها رجل ما كنا نأبه برقيه، فرقاه فبرأ، فأمر له بثلاثين شاة، وسقانا لبنًا، فلما رجع قلنا له: أكنت تحسن؟ أو أكنت ترقى؟ قال: لا، ما رقيت إلا بأم الكتاب، قلنا: لا تحدثوا شيئًا حتى نأتى أو نسأل رسول الله ﷺ، فلما قدمنا المدينة، ذكرناه للنبى ﷺ فقال: **«وما كان يدريه أنها رقية؟ اقسموا واضربوا لى بسهم»**[1]

١٠- سورة الصلاة: لأنها تُقرأ فى كل صلاة، وللحديث السابق: **«قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين .. الخ»**.

١١- سورة الدعاء: لاشتمالها على قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

١٢- سورة الشكر: لأنها ثناء على الله تعالى بالفضل والكرم والإحسان.

١٣- سورة السؤال: لاشتمالها على ذلك.

وقد ذكر الإمام الألوسى فى روح المعانى أسماءً متعددة منها:

١٤، ١٥- سورة المناجاة، وسورة التفويض: لأن العبد يناجى ربه بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وبالثانى يحصل التفويض.

١٦- سورة النور: لظهورها بكثرة استعمالها، أو لتنويرها القلوب لجلالة قدرها، أو لأنها لما اشتملت عليه من المعانى عبارة عن النور بمعنى القرآن.

---

(١) رواه البخارى.

١٧- **سورة الكنز:** لما اشتملت عليه من الجواهر المكنوزة.

١٨- **سورة «القرآن العظيم».**

١٩- **الشافية:** فعن أبي سعيد الخدرى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«فاتحة الكتاب شفاء من كل سم»** ومرَّ بعض الصحابة على رجل مصروع فقرأ عليه سورة الفاتحة فبرأ، وشُفى، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال: **«هى أم القرآن وهى شفاء من كل داء».**

• وقفات مع أسرار الفاتحة •

١- **الوقفة الأولى: «عدد آياتها»:** قال الإمام القرطبى: أجمعت الأمة على أن فاتحة الكتاب سبع آيات، إلا ما روى عن حسين الجعفى: أنها ست، وهذا شاذ، وإلا ما روى عن عمرو بن عبيد، أنها ثمان وهذا شاذ، وقوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي**﴾ [الحجر: ٨٧] وقوله: «قسمت الصلاة» الحديث يرد هذين القولين.

فآياتها سبع، وأبواب النيران سبعة قال تعالى: ﴿**وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ**﴾ [الحجر: ٤٣، ٤٤] فمن قرأها بإخلاص غلقت عنه الأبواب السبعة.

وقال الإمام فخر الدين الرازى: قالوا: هذه السورة لم يحصل فيها سبعة من الحروف وهى: «الثاء، والجيم، والخاء، والزاى، والشين، والظاء، والفاء، والسبب فيه أن هذه الحروف مشعرة بالعذاب، فالثاء: تدل على الويل والثبور، قال تعالى: ﴿**لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا**﴾ [الفرقان: ١٤].

والجيم أول حرف اسم جهنم، قال تعالى: ﴿**وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾ [الحجر: ٤٣].

وأسقط حرف الخاء لأنه يشعر بالخزى، قال تعالى: ﴿**إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾ [النحل: ٢٧].

وأسقط حرف الزاى والشين لأنهما أول حروف الزفير والشهيق، قال تعالى: ﴿**فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ**﴾ [هود: ١٠٦].

والزاى أيضًا تدل على الزقوم، قال تعالى: ﴿**إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الأَثِيمِ**﴾ [الدخان: ٤٣، ٤٤].

والشين تدل على الشقاوة، قال تعالى: ﴿**فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ**﴾ [هود: ١٠٦].

وأسقط الظاء لأنها تدل على لظى، قال سبحانه: ﴿ كَلَّا إِنَّهَا لَظَىٰ ﴾ [المعارج: ١٥].
وأسقط الفاء لأنها تدل على الفراق، قال سبحانه: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ [الروم: ١٤].

خاصية العدد سبعة:

يقول الإمام ابن القيم -رحمه الله-[١]:
أما خاصية السبع، فإنها قد وقعت قدرًا وشرعًا:
فخلق الله عز وجل السمـوات سبعًا.
والأراضين سبعًا.
والإنسان كمل خلقه في سبعة أطوار.
وشرع الله سبحانه لعباده الطواف بالبيت سبعًا.
والسعي بين الصفا والمروة سبعًا.
ورمي الجمار سبعًا سبعًا.
وتكبيرات العيدين سبعًا في الأولى.
وقال النبي ﷺ: «**مروا أبناءكم بالصلاة لسبع**».
وإذا صار للغلام سبع خيِّر بين أبويه.
وأمر النبي ﷺ في مرضه أن يصب عليه من سبع قرب.
وسخر الله الريح على قوم عاد سبع ليال.
ودعا النبي ﷺ أن يعينه على قومه بسبع كسبع يوسف.
ومثَّل الله سبحانه ما يضاعف به صدقة المتصدق بحبة أنبتت سبع سنابل
والسنابل التي رآها صاحب يوسف سبع، والسنون التي زرعوها دأبًا سبع.
والبقرات السمان والعجاف سبع.
وتضاعف الصدقة إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.
ويدخل الجنة من هذه الأمة بغير حساب سبعون ألفًا. اهـ.
قلت: والعقيقة بعد سبع، والأعمال المحسوسة في الصلاة سبعة[٢]
والإناء يغسل من ولوغ الكلب سبعًا.
وأعضاء السجود التي تخشع لله في الصلاة سبعة.
والقرآن نزل على سبعة أحرف.
والمظللون في عرش الرحمن سبعة.

---

(١) زاد المعاد لابن القيم جـ٣
(٢) وهي القيام والركوع والانتصاب والسجود الأول والانتصاب منه، والسجود الثاني والقعدة.

والموبقات المذكورة فى الحديث سبع.

فلهذا العدد سبعة الذى هو عدد آيات سورة الفاتحة له أسراره فى الشريعة الإسلامية.

الوقفة الثانية: «مع الحمد»:

والحمد عبادة الأولين والآخرين، والملائكة المقربين، وعبادة الأنبياء، وعبادة أهل الأرض، وأهل الجنة.

فأما عبادة الأنبياء عليهم السلام فهو أن آدم عليه السلام لما عطس قال: الحمد لله ونوحًا عليه السلام لما أغرق الله قومه، وأنجاه ومن معه من المؤمنين، أمره الله تعالى بالحمد فقال له: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٨].

وإبراهيم عليه السلام لما رزقه الله بالولد قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

وداود عليه السلام لما أعطاه الله الملك وسخر له الإنس والجن والطير قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ١٥].

وأن أهل الجنة يحمدون الله تعالى فى خمسة مواضع

أحدها: عند قوله تعالى يوم القيامة للمجرمين: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩] فإذا امتازوا يقولون: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٨].

والثانى: حين يجاوزون الصراط يقولون: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر ٣٤].

والثالث: لما اغتسلوا بماء الحياة ينظرون إلى الجنة فيقولون: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

والرابع: حين يدخلون الجنة يقولون: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤].

والخامس: حين يستقرون فى منازلهم يقولون: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر ٧٥] ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١].

فأول كلمة ذكرها أبونا آدم هو قوله: الحمد لله، وآخر كلمة يذكرها أهل الجنة: الحمد لله ففاتحة العالم مبنية على الحمد، وخاتمته مبنية على الحمد.

فاجتهد أخا الإسلام ليكون أول أعمالك وآخرها مقرونًا بهذه الكلمة.

وقد افتتح مولانا تبارك وتعالى بالحمد فى خمس سور من القرآن الكريم ليعلم خلقه كيف يحمدونه، وليبين لهم أنه مستحق للحمد، فافتتح سورة الأنعام بقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١].

وافتتح بالحمد سورة الكهف فقال سبحانه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾ وافتتح سوة سبأ بالحمد فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ وافتتح سورة فاطر فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ [فاطر: ١].

الوقفة الثالثة: مع الأسماء الخمسة المذكورة فى الفاتحة:

١- أن سورة الفاتحة اشتملت على عشرة أشياء: منها خمسة من صفة الربوبية، وهى: «الله، والرب، والرحمن، والرحيم، والمالك».

وخمسة أشياء من صفات العبد: «العبودية، والاستعانة، وطلب الهداية، وطلب الاستقامة، وطلب النعمة».

فانطبقت تلك الأسماء الخمسة على هذه الأحوال الخمسة، فكأنه قيل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لأنك أنت الله ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لأنك أنت الرب ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ لأنك أنت الرحمن، وارزقنا الاستقامة لأنك أنت الرحيم، وأفض علينا بحال نعمك وكرمك، لأنك ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.

٢- الإنسان مركب من خمسة أشياء:- بدنه، ونفسه الشيطانية، ونفسه الشهوانية، ونفسه الغضبية، وجوهره الملكى العقلى، فتجلى الحق سبحانه بأسمائه الخمسة لهذه المراتب الخمسة، فتجلى اسم «الله» للروح الملكية العقلية، فخضع وأطاع كما قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] وتجلى للنفس الشيطانية بالبر والإحسان.

وهو اسم «الرب» فترك العصيان، وانقاد للواحد الديان.

وتجلى للنفس الغضبية السبعية باسم «الرحمن» فترك الخصومة.

وتجلى للنفس الشهوانية البهيمية باسم «الرحيم» فلان وترك العصيان.

وتجلى للأجساد والأبدان بقهر قوله: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.

فلما تجلى الحق بأسمائه الخمسة لهذه المراتب انغلقت أبواب النيران، وانفتحت أبواب الجنان.

٣- قال رسول الله ﷺ **«بنى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً»**(١)

أ- فشهادة أن لا إله إلا الله، حاصلة من تجلى نور اسم «الله».

---

(١) رواه البخارى.

ب- وإقام الصلاة من تجلى الرب، لأن الرب مشتق من التربية والعبد يربى إيمانه أى يزيده بمدد الصلاة(١).

ج- وإيتاء الزكـاة من تجلى اسم «الرحمن» لأن الرحمن مـبالغة فى الرحـمة، وإيتاء الزكاة لأجل الرحمة على الفقراء.

د- وصوم رمضان من تجلى اسم الرحيم، لأن الصـائم إذا جاع تذكر جوع الفقراء، فيـعطيهم ما يحـتاجون إليه، وأيـضًا إذا جاع حصل لـه فطام عن الالتذاذ بالمحسـوسات، فعندئذٍ يسهل عليه مفارقتها.

هـ- ووجوب الحج من تجلى اسم ﴿مالك يوم الدين﴾ لأنه عند الحج يجب هجرة الوطن ومفارقة الأهل والولد، وذلك يشبه سفر يوم القيامة.

٤- الحواس خمس:

أ- أدب البصر بقوله تعالى: ﴿فَاعتبروا يَا أُوْلِي الأَبْصارِ﴾ [الحشر: ٢].

ب- والسمع بقوله: ﴿الَّذين يسْتَمعُون الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحسنهُ﴾ [الزمر: ١٨].

ج- والذوق بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا من الطَّيِّبَات واعْمَلُوا صَالحًا﴾ [المؤمنون: ٥١].

د- والشم فى قوله: ﴿إِنِّي لأَجدُ رِيح يُوسُفَ لَوْلا أَن تُفَنِّدُونِ﴾ [يوسف: ٩٤].

هـ- واللمس فى قوله: ﴿وَالَّذِين هُم لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُون﴾ [المؤمنون: ٥].

فاستعن بأنوار هذه الأسماء الخمسة على دفع مضار هذه الأعداء الخمسة.

مرَّ أحد الصالحين على رجل، يذكر الله فيـقول: الحمد لله الذى عافانى مما ابتلى به كثيرًا من خلقه، فـنظر إليه فإذا هو فاقد البصر، مقعـد الرجلين، وقد شُـلت إحدى يديه، فقال له: علام الحمد؟ فقال: أحمده أن جعل لى لسانًا يذكره، وقلبًا يشكره، ثم قال:

حـمـدت الله ربى إذ هدانى ... إلى الإسـلام والديـن الحنـيف
فيـذكـره لسـانى كل وقـت ... ويـعـرفـه فـؤادى بـاللـطيـف

واعلم أخى المسلم: أن قوله: ﴿مَالك يَوْمِ الدِّينِ﴾ دل على أن العبـد منتقل من دار الدنيـا إلى دار الآخرة، ومـن دار الشرور إلى دار السـرور، فقـال: لابد لذلك اليـوم من زاد واستعداد، وذلك هو العبادة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ثم قال العبد. الذى اكتسبته بقولتى وقدرتى قليل لا يكفيـنى فى ذلك اليوم الطويل فـاستعان بـربه فقال: ما مـعى قليل، فأعطنـى من خزائن رحمتك ما يكفينـى فى ذلك اليوم الطويل، فقال: ﴿وَإِيَّاك نسْتَعِينُ﴾ ثم لما حصل الزاد ليوم

(١) تفسير الفخر الرازى جـ١/ ٣٤٦-٣٤٨

المعاد قال: هذا سفر طويل شاق، والطرق كثيرة، والخلق قد تاهوا فى هذه البادية، فلا طريق إلا أن أطلب الطريق ممن هو بإرشاد السالكين حقيق، فقال: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾. ثم إنه لابد لسالك الطريق من رفيق ودليل، فقال: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ والذين أنعم الله عليهم، هم النبيون، والصديقون، والشهداء، والصالحون[١].

• موعظة •

إخوانى:

بادروا بالصحة قبل السقم، وبالفراغ قبل الشغل، وبادروا بالحياة قبل الموت، كان شميط بن عجلان يعظ أصحابه فيقول:

بئس العبد عبدٌ خلق للعبادة فصدته الشهوات عن العبادة.

بئس العبد عبدٌ خلق للعاقبة فصدته العاجلة عن العاقبة، فزالت عنه العاقبة وشقى بالعاجلة[٢].

ووعظ إبراهيم بن أدهم رجلاً فقال له: إن الحزن على الدنيا طويل، والموت من الإنسان قريب، وللنفس منه فى كل وقت نصيب، وللبلى فى جسمه دبيب، فبادر بالعمل قبل أن تنادى بالرحيل، واجتهد فى العمل فى دار الممر قبل أن ترحل إلى دار المقر.

كم يوم غابت شمسه وقلبك غائب، وكم ظلام أسبل ستره وأنت فى عجائب، وكم أسبغت عليك نعمة، وأنت للمعاصى تواثب، وكم صحيفة قد ملأها بالذنوب الكاتب، وكم ينذرك سلب رفيقك وأنت لاعب[٣].

أفق من سكرتك قبل حسرتك على المعايب، وتذكر نزول حفرتك وهجران الأقارب، وانهض عن بساط الرقاد، وقل: أنا تائب.

وكان الحسن البصرى يقول. الثواء ها هنا قليل، وأنتم آخر أمتكم، وأمتكم آخر الأمم، ولقد أسرع بخياركم، فماذا تنتظرون إلا المعاينة. فكأنها والله قد كانت، ما بعد نبيكم نبى، ولا بعد كتابكم كتاب، ولا بعد أمتكم أمة، تسوقون الناس والساعة تسوقكم، وما ينتظر أولكم إلا أن يلحق آخركم.

اللهم بكرمك وفضلك وجودك فإنا نمد إليك يد الفاقة والافتقار، أن تمحو من صحائفنا ما سطرته يد الأوزار، اللهم لا تخزنا يوم الدين، واجعلنا من خوف الطرد من الآمنين، ربنا لا تجعل حظنا منك الحرمان، ولا تباعدنا عن بابك بالعصيان، وارحمنا وارحم آباءنا يا رب العالمين.

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ١/ ٣٥٠ (٢) صفة الصفوة ٣/ ١ ٢-٢ ٢
(٣) حلية الأولياء ٨/ ١٨

الوصية رقم (٢)
حافظوا على الصلوات الخمس

عن أبي الدرداء رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **«خمس من جاء بهن مع إيمان دخل الجنة: من حافظ على الصلوات الخمس، على وضوئهن، وركوعهن، وسجودهن ومواقيتهن، وصام رمضان، وحج البيت إن استطاع إليه سبيلاً، وأعطى الزكاة طيبة بها نفسه، وأدى الأمانة»**.

قالوا: يا أبا الدرداء! وما أداء الأمانة؟ قال: الغسل من اجنابة[1]

صدق رسول الله ﷺ

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: حافظوا على هؤلاء الصلوات الخمس حيث ينادى بهن، فإنهن من سنن الهدى، وإن الله شرع لنبيه سنن الهدى، ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق بينُ النفاق، ولقد رأيتنا وإن الرجل ليهادى بين الرجلين حتى يقام فى الصف، وما منكم من أحد إلا وله مسجد فى بيته، ولو صليتم فى بيوتكم وتركتم مساجدكم، تركتم سنة نبيكم، ولو تركتم سنة نبيكم لكفرتم[2]

• فى رحاب هذه الوصية •

أخا الإسلام:

وكما هى عادة النبى المصطفى ﷺ فى توجيه أتباعه إلى ما فيه صلاح دنياهم وآخرتهم، فقد كان ﷺ يوجه أحبابه إلى الوجهة التى توصلهم بربهم، وتربطهم بخالقهم، فقد أوصانا هنا فى هذه الوصية بخمس وصايا، لو تمسكنا بها، وعملنا على دربها، لسعدنا فى الدنيا والآخرة، فيقول على لسان أبى الدرداء رضي الله عنه: **«خمس من جاء بهن مع إيمان دخل الجنة...»** ما هى يا رسول الله؟

١- من حافظ على الصلوات الخمس على وضوئهن، وركوعهن، وسجودهن، ومواقيتهن وهذه هى الخصلة الأولى، فما هى الثانية والثالثة والرابعة والخامسة؟

٢- ومن صام رمضان.

٣- وحج البيت من استطاع إليه سبيلا

---

(١) رواه أبو داود فى سننه وحسنه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود (٤٢٩) جـ١/١٢٦، ١٢٧ وأخرجه أبو نعيم فى الحلية ٢/ ٢٣٤ وقال الهيثمى فى المجمع ١/ ٥٢ رواه الطبرانى فى الكبير وإسناده حسن وقال المنذرى فى الترغيب ١/ ٢٤١ رواه الطبرانى بسند جيد

(٢) رواه مسلم وابن ماجه والنسائى وأبو داود وصححه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود ١/ ١٦٣، ١٦٤ رقم (٥٥٠).

٤- وأعطى الزكاة طيبة بها نفسه.

٥- وأدى الأمانة.

ولأن الصحابة يعلمون تمام العلم أن الأمانة كلمة عامة وشاملة، أرادوا أن يتعرفوا على مقصود أستاذهم من كلمة «الأمانة»، فقالوا متسائلين: وما أداء الأمانة؟ فقال أبو الدرداء، وهو الذى نقل الحديث عن رسول الله، وفهم مراده: الأمانة هى الغسل من الجنابة. ونحن هنا نهتم بالخصلة الأولى والتى كانت الإشارة إليها بقوله: «**من حافظ على الصلوات الخمس**» ثم وضح ما يجب أن يحافظ عليه المسلم نحو هذه الصلاة فبين أربعة أمور:

١- الوضوء. ٢- الركوع. ٣- السجود.

٤- المواقيت الزمنية للصلاة.

وفى المذكرة التفسيرية لهذه الوصية بالخصلة الأولى يوصى سيدنا عبد الله بن مسعود بها فيقول: «**حافظوا على هؤلاء الصلوات الخمس**»، وهى التى فرضها الله تعالى علينا فى القرآن الكريم على طريق الإجمال فى قوله تعالى: ﴿**وأقيموا الصلاة...**﴾ وفصلتها السنة النبوية بقوله: «**خمس صلوات افترض الله على عباده، فمن جاء بهن تامات، ولم ينقصهن استخفافًا بحقهن، كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة، ومن تركهن استخفافًا بحقهن لم يكن له عند الله عهد، إن شاء رحمه، وإن شاء عذبه**»[1]

ثم يحذر عبد الله بن مسعود رضي الله عنه من يتخلف عن الصلوات، ويصفه بالنفاق فى قوله: «ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق بين النفاق» ثم يوضح مكانة الصلاة فى نفوس صحابة رسول الله ﷺ واهتمامهم بها، فيقول: «ولقد رأيتنا، وإن الرجل ليهادى بين الرجلين حتى يقام فى الصلاة» ثم يحذر ابن مسعود من ترك الصلاة فى المساجد جماعة لأنها من سنة النبى المصطفى ﷺ، ثم يحكم على تارك السنة دائمًا والمعرض عنها بالكفر والعياذ بالله.

فهيا بنا لنقف مع أعظم ركن من أركان الإسلام، وهو الصلاة.

• مكانة الصلاة فى الإسلام •

إن الصلاة هى الركن الثانى من أركان الإسلام، بل إنها جوهر الإسلام، وهى عماد الدين، وهى الفرقان بين الكفر والإيمان، وهى رأس القربات، ومصدر البر، ومبعث الخير، وطهرة القلوب من أدران الذنوب.

---

(١) رواه مالك فى الموطأ ١/ ٧٨ وأحمد فى مسنده (٢٢٥٩٢) وأبو داود فى سننه (١٤٢٠) والنسائى (١/ ٢٣٠) وابن ماجه (١ ١٤) وابن حبان (٢٥٢) والألبانى فى ص.ج (٣٢٤٣).

لذلك اهتم الرسول ﷺ بها غاية الاهتمام، وحرص عليها كل الحرص، وخاصة صلاة الجماعة، حتى وهو فى شدة المرض، وغاية الألم، يحاول أن يخرج إليها.

روى البخارى عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، قال: دخلت على عائشة ﵂ فقلت: «ألا تحدثينى عن مرض رسول الله ﷺ؟ قالت: بلى، ثقل النبى ﷺ، فقال: **«أصلى الناس؟»** قلنا: لا، هم ينتظرونك، قال: **«ضعوا لى ماء فى المخضب»**[1] قالت: ففعلنا، فاغتسل فذهب لينوء[2] فأغمى عليه، ثم أفاق ﷺ، فقال: **«أصلى الناس؟»** قلنا: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله، قال: **«ضعوا لى ماء فى المخضب»** قالت: فقعد فاغتسل، ثم ذهب لينوء فأغمى عليه، ثم أفاق فقال: **أصلى الناس؟** قلنا: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله، فقعد فاغتسل، ثم ذهب لينوء فأغمى عليه، ثم أفاق فقال: **«أصلى الناس؟»** فقلنا: لا، هم ينتظرونك لصلاة العشاء الآخرة، فأرسل النبى ﷺ إلى أبى بكر الصديق ﵁ بأن يصلى بالناس، فأتاه الرسول فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تصلى بالناس، فقال أبو بكر ﵁ -وكان رجلاً رقيقًا-: يا عمر، صل بالناس، فقال له عمر: صل فأنت أحق بذلك منى، فصلى أبو بكر بالناس. . ».

فتأمل أخى الحبيب، إلى أى مدى كان رسول الله ﷺ حريصًا على حضور الجماعة فى المسجد، وكيف يغشى عليه ثلاث مرات، فإذا ما أفاق قام فاغتسل، لينشط ويتمكن من الخروج إلى أصحابه ليصلى بهم العشاء، لكنه يجد نفسه غير قادر على الخروج، فيرسل إلى صديق الأمة الأكبر كى يصلى هو بالناس فماذا حدث بعد ذلك؟

تقول السيدة عائشة ﵂: ولما وجد فى نفسه خفة، خرج يهادى بين رجلين، وكأنى أنظر إلى رجليه تخطان من الوجع.

ولكنه مع هذا كله خرج إلى الصلاة، وما ذلك إلا لأن مكانة الصلاة مكانة عالية، ومنزلة سامية بين سائر العبادات.

بل تأمله ﷺ بعد ذلك وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، ويودع هذه الدنيا يقول لأصحابه، ختامًا لوصاياه: **«الصلاة..الصلاة»** فكانت آخر كلامه.

فعن أنس قال: كان عامة وصية رسول الله ﷺ حين حضره الموت: **«الصلاة وما ملكت أيمانكم»** حتى جعل رسول الله يغرغر بها صدره، وما يكاد يفيض بها لسانه[3]

---

(١) المخضب: الإجانة تغسل فيها الثياب ونحوه وهى ما يشبه الطست فى عصرنا.

(٢) لينوء: أى ليقوم

(٣) رواه الإمام أحمد فى مسنده بسند صحيح (١٢١٠٨) جـ١٠/ ٣٧٦ رواه ابن ماجه (١٩٢٥) والحاكم وصححه ٣/ ٥٧ وذكره الألبانى فى ص.ج برقم ٤٦١٦.

فالصلاة هى المعين الذى لا ينضب، والزاد الذى لا ينفد، والمعين الذى يجدد الطاقة والزاد الذى يزود القلب، إنها مفتاح الكنز الذى لا يفنى.

إنها الانطلاقة من حدود الواقع الأرضى الصغير إلى مجال الواقع الكونى الكبير إنها الروح والندى والظلال فى الهاجرة، إنها اللمسة الحانية للقلب المتعب المكدود إنها زاد الطريق ومدد الأرواح، وجلاء القلب، تفتح القلب، وتوثق الصلة، وتيسر الأمر، وتشرق بالنور، وتفيض بالعزاء والسلوى والراحة والاطمئنان[١]. ولأجل هذه المكانة الرفيعة للصلاة كانت أول شيء يُسأل عنه العبد يوم القيامة، كما فى حديث النبى ﷺ: «**أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة الصلاة، فإن صلحت صلح سائر عمله، وإن فسدت فسد سائر عمله**»[٢]

ومما يدل على عظمة وعلو منزلة الصلاة بين سائر العبادات أنها فرضت فى السماء ليلة الإسراء والمعراج، لتكون معراجًا لكل مؤمن يصلى، يرقى بها فى السماء كلما استبدت بهم شهوات النفس، فتسمو بها نفوسهم كل يوم خمس مرات، ومع ذلك نجد الكثير يتهاون بها مع أنها الصلة بين العبد وربه من أقامها أقام الدين.

«إن الصلاة لو لم تكن رأس العبادات لعدت من صالح العادات، رياضة أبدان، وطهارة أدران، وتهذيب وجدان، وشتى فضائل يشب عليها الجوارى والولدان، أصحابها هم الصابرون والمثابرون وعلى الواجب هم قادرون، عودتهم البكور وهو مفتاح باب الرزق، وخير ما يعالج به العبد مناجاة الرزّاق، وأفضل ما يريد به المخلوق التوجه إلى الخالق.

انظر إلى جلال الجمع، وتأمل أثرها فى المجتمع، وكيف ساوت العلِّية بالزّمع، مست الأرض الجباه، فالناس أكفاء وأشباه، الرعية والولاة شرعوا فى عتبة الله»[٣]

الصلاة بين سائر العبادات بمنزلة الرأس من الجسد، فإن كان الإسلام قد بنى على خمس فإن الصلاة قد جمعت هذه الأسس، وتلك القواعد.

يقول الشيخ الشعراوى -رحمه الله-:

وإذا نظرت إلى الصلاة وجدتها مع كونها لا تسقط، وفيها كل أركان الإسلام، لأنك لابد فى الصلاة أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فالركن الأول مكرر فيها وأيضًا إيتاء الزكاة، فما هى الزكاة؟ إن الزكاة هى شيء من مال يعطى للمحتاج، أى

(١) الجزاء من جنس العمل ١/ ٤٧٦، ٤٧٧

(٢) رواه النسائى وأحمد فى مسنده (٧٨٨٩) بسند صحيح ورواه الترمذى (٤١٣) والحاكم ١/ ٢٦٣ وصححه الألبانى فى ص.ج (٢٥٧٣).

(٣) فى رحاب التفسير للشيخ كشك -رحمه الله- جـ١/ ٨٣.

أن تضحى بشىء من مالك، والمال فى عرف الإسلام فرع الوقت، لأن العمل يحتاج إلى وقت، فكأنك ضحيت ببعض مالك الناتج من عملك الناتج من استغلال وقتك.

والصلاة لا تأخذ من المال، ولكن تأخذ من الوقت الذى يعمل فيه العمل الذى يأتى بالمال، فكأن الزكاة أخذت شيئًا من المال الناتج من العمل، والعمل ناتج عن الوقت، إلا أن الصلاة أخذت من الوقت نفسه، من الأساس الأصيل.

إذا حينما يأخذ من الأربع والعشرين ساعة، ساعة للصلاة، يكون قد اقتطع جزءًا من الوقت فجعله للصلاة، كما يقتطع جزءًا من المال. إذا ففيها زكاة أهم من المال. وأيضًا فيها صوم، وما هو الصوم؟ الصوم هو الإمساك عن شهوة البطن والفرج نهار رمضان، لكن أنا فى الصلاة أمسك عن شهوتى البطن والفرج وعن الحركة والكلام وعن كل شىء، إذا ففيها لون من الصيام متعلقاته فى المنع أوسع من متعلقات الصيام. وأيضًا فيها حج البيت. لأنك تستحضر وأنت تصلى فى بيت الله -سبحانه وتعالى- فتتجه إليه، وتتحرى عنه، ولما كانت الصلاة هى الركن الوحيد الذى لا يسقط عن المسلم جاءت فيه كل الأركان فى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ومن الزكاة بشىء أفيد من المال، بل بالوقت الذى يأتى بالمال، ومن صوم صمته فوق ما تصوم فى رمضان، واستحضار لبيت ربك فى كل وقت من الأوقات، فكأنك حججت بقلبك، وإن عجزت عن أن تحج بنفسك[1]

ألا إنّ فى الصلاة الخير والفضل أجمع	لأن بها الأرقاب لله تخضع
وأول فرض فى شريعة ديننا	وآخر ما يبقى إذ الدين يرفع
فمن قام للتكبير لاقته رحمة	وكان كعبد باب مولاه يقرع
وكان لرب العرش حين صلاته	نجيًّا فطوبى له حين يخشع

• الصلاة عبادة الأنبياء والمرسلين •

أخا الإسلام:

إن الصلاة كانت عبادة كل رسول، فنحن نرى أن الحق تبارك وتعالى يقول لإبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧] ماذا يقول بعد ذلك؟ يقول: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦] إذًا كان هناك ركوع وهناك سجود، من يوم أن خلق الله الرسالة، ومن يوم أن خلق الله التكاليف ويقول سبحانه عن إبراهيم عليه السلام: ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

---

(١) الإسراء والمعراج لفضيلة الشيخ الشعراوى رحمه الله ص٨٤، ٨٥ هدية مجلة الأزهر رجب سنة ١٤٢هـ

وهذا هو ولده إسماعيل عليه السلام؛ قد تحققت فيه دعوة أبيه إبراهيم عليه السلام، فكان من الذين يقيمون الصلاة، ويحافظون عليها، قال سبحانه:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ﴾ [مريم: ٥٤، ٥٥].

وهذا هو كليم الله موسى عليه السلام نجده أنه لما مرَّ به رسول الله ﷺ راجعًا من معراجه، استكثر علينا الصلاة أول الأمر، كما جاء في حديث المعراج كما في رواية مسلم وغيره: قال أنس بن مالك رضي الله عنه قال النبي ﷺ: «ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام، ففرض الله على أمتي خمسين صلاة في اليوم والليلة حتى مررت على موسى عليه السلام، فقال: ما فرض الله على أمتك قلت: فرض خمسين صلاة. قال: فارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك، فرجعت، فوضع شطرها، فرجعت إلى موسى، قلت: وضع شطرها، قال: فارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق، فراجعته، فقال: هي خمس في العمل، وخمسون في الأجر ما يبدل القول لدي، فرجعت إلى موسى، فقال: ارجع إلى ربك. قلت: فاستحييت من ربي...»[1] وكونه يطلب من الرسول ﷺ أن يرجع ليخفف عنا، ذلك لأنه علم من قومه عدم القيام بالصلاة مع أنها كانت أقل مما فرض علينا، وأبسط.

ونراه عليه السلام في أول لقاء له مع الأنوار الربانية على جبل الطور في سيناء، يأمره سبحانه بتوحيده، ثم يقرنه بالأمر بإقامة الصلاة، قال تعالى: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٣، ١٤] ثم يأخذ عليه وعلى قومه الميثاق بأن يعبدوه ويوحدوه، ويأمرهم بالإحسان إلى الوالدين وغير ذلك من الخير، ثم يأمره بعد ذلك بإقام الصلاة، فيقول: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ [البقرة: ٨٣].

وهذه هي مريم البتول -عليها السلام- يأمرها الله تعالى بالصلاة، فيقول جل وعلا: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣].

وهذا هو سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام، كان أول شيء نطق به لسانه وهو في المهد صغير كما حكى القرآن الكريم عنه: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٠، ٣١] إذن كانت الصلاة شرع من قبلنا، ولكنها كانت تختلف عن صلاتنا، فالصلاة التي أمرنا الله تعالى بها، وأمر بها نبينا وحبيبنا محمدًا ﷺ، كما في قوله تعالى: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ..﴾ [العنكبوت: ٤٥] خاصيتها أنها جمعت ميزات كل صلوات الرسل السابقين، فصلاة بعضهم كانت في بعض الأزمنة غدوة، وعشية، ركعتين في أول النهار، وركعتين في آخر

---

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

النهار، شكل خاص في القيام، وشكل خاص في الركوع، وشكل خاص في السجود، فَلِمَ كانت الصلاة التي أمرنا الله بها أخذت ميزات كل الصلوات السابقة؟

جاء في شرح المسند للرافعي:

إن الصبح كانت صلاة آدم عليه السلام، والظهر صلاة داود، والعصر صلاة سليمان، والمغرب صلاة يعقوب، والعشاء صلاة يونس، فجمع الله سبحانه وتعالى ذلك لنبينا محمد ﷺ تعظيمًا له، ولكثرة الأجور له ولأمته[1]

لذلك أمرنا الله تعالى بها وبالمحافظة عليها قال سبحانه: ﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ**﴾ [البقرة: ٤٣] وقال جل شأنه: ﴿**حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ**﴾ [البقرة: ٢٣٨].

وهذا هو لقمان عليه السلام يقول لولده موصيًا كما في القرآن: ﴿**يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ**﴾ [لقمان: ١٧] ويوصيه قائلاً: يا بني، أقم الصلاة فإن مثلها في دين الله كمثل عمود فسطاط، فإن العمود إذا استقام نفعت الأوتاد والأطناب والظلال، وإذا مال العمود أو تغير لم ينفع وتد ولا طنب ولا ظلال[2]

• ثواب من حافظ على الصلوات الخمس •

أخا الإسلام:

إن في الصلاة ثوابًا عظيمًا، لمن يحافظ عليها، فمن ذلك:

١- **أنها نور لأصحابها:** فعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله، والحمد لله تملآن ما بين السماء والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك**»[3]

٢- **الصلاة تحط الخطايا عن صاحبها:** فعن أبي عثمان النهدي -رحمه الله- قال: كنت مع سلمان الفارسي تحت شجرة وأخذ منها غصنًا يابسًا فهزه حتى تحات ورقه -أي سقط- ثم قال: يا أبا عثمان، ألا تسألني لم أفعل هذا؟ قلت: ولم تفعله؟ فقال: هكذا فعل بي رسول الله ﷺ وأنا معه تحت شجرة، فأخذ منها غصنًا يابسًا فهزه حتى تحات ورقه، فقال: يا سلمان، ألا تسألني لم تفعل هذا؟ قلت: ولم تفعله؟ قال: إن المسلم إذا توضأ، فأحسن الوضوء، ثم صلى الصلوات الخمس تحاتت خطاياه كما يتحات هذا الورق» ثم قرأ: ﴿**وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ**﴾ [هود: ١١٤][4]

---

(١) انظر الإقناع للشربيني الخطيب الشافعي جـ١

(٢) انظر من وصايا القرآن للمؤلف ٢/ ٧٣٩ (٣) رواه مسلم وأحمد (٢٢٨٠٠) بإسناد صحيح.

(٤) رواه أحمد في مسنده (٢٣٥٩٧) جـ١٧/ ٨٤، ٨٥ بإسناد حسن ورواه الدارمي رقم (٧١٩).

وعن أبى أيوب الأنصارى رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: **«إنّ كل صلاة تحط ما بين يديها من خطيئة»**(١)

٣- أن الصلاة تمحو السيئات وترفع الدرجات: فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: **«ما من عبد يسجد لله سجدة إلا كتب الله له بها حسنة، ومحا عنه بها سيئة، ورفع له بها درجة فاستكثروا من السجود»**(٢)

٤- أن الله تعالى يقبل على المصلى: فإذا كان مولاك يقبل عليك بفضله وكرمه ورحمته، فأقبل على ربك بقلب خاشع، وفؤاد ضارع.

عن أبى ذر الغفارى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«لا يزال الله عز وجل مقبلاً على العبد فى صلاته ما لم يلتفت، فإذا صرف وجهه عنه انصرف»**(٣) أيها المسلم. فإذا ما أقبلت على مولاك، فاسأله الرحمة والغفران، فإنك أقرب ما تكون إليه حين تكون ساجدًا خاشعًا **«أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء»**(٤).

٥- أنه سبحانه قد أخذ العهد على نفسه بأن من حافظ عليها أدخله الجنة؛ فعن أبى قتادة الربعى قال: قال رسول الله ﷺ: **«قال الله تعالى: إنى فرضت على أمتك خمس صلوات، وعهدت عندى عهدًا، أنه من جاء يحافظ عليهن لوقتهن، أدخلته الجنة، ومن لم يحافظ عليهن، فلا عهد له عندى»**(٥)

٦- أن الصلاة ترفع درجة صاحبها حتى تصل به إلى درجة الشهداء أو أعلى: عن أبى سلمة عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: كان رجلان من بنى قضاعة أسلما مع النبى ﷺ، واستشهد أحدهما، وأُخِّر الآخر سنة. قال طلحة بن عبيد الله: فأُريت الجنة، فرأيت فيها المؤخر منهما أدخل قبل الشهيد، فعجبت لذلك، فأصبحت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: **«أليس قد صام بعده رمضان، وصلى ستة آلاف ركعة، أو كذا وكذا ركعة صلاة السنة»**(٦)

---

(١) رواه أحمد فى مسنده (٢٣٣٩٥) جـ١٧/١٨ بإسناد صحيح وقال الهيثمى ١/٢٩٨ إسناده حسن وحسنه المنذرى فى الترغيب ١/٢٣٩ والطبرانى فى الكبير (٣٨٧٩).

(٢) قال المنذرى: رواه ابن ماجه بإسناد صحيح ١/٢٤٩ ورواه أحمد بإسناد صحيح (٢٢٣١٠) وصححه الألبانى فى ص.ج برقم ٥٦١٨

(٣) رواه أحمد فى مسنده (٢١٤) ١٥/٥٥١ بإسناد صحيح ورواه أبو داود فى سننه برقم (٩٠٩) ورواه الحاكم ١/٢٣٦ وصححه ووافقه الذهبى، ورواه النسائى (١١٩٥).

(٤) رواه مسلم (٤٨٢) وأحمد (٩٤١٥) وأبو داود فى سننه وصححه الألبانى (٨٧٥) جـ١/٢٤٨ والنسائى (١١٣٧).

(٥) رواه أبو داود فى سننه وحسنه الألبانى (٤٣) جـ١/١٢٧

(٦) رواه أحمد فى مسنده جـ٨ رقم (٨٣٨٠) بإسناد صحيح وصححه الألبانى فى صحيح ابن ماجه (٣١٧١) وذكره المنذرى فى الترغيب ١/٢٤٤ وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب.

٧- **أن الصلاة من أفضل الأعمال التى تقرب العبد إلى الله تعالى**: فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ، فسأله عن أفضل الأعمال؟ فقال رسول الله ﷺ: «**الصلاة**. قال: ثم مه؟ قال: **ثم الصلاة**. قال: ثم مه؟ قال: **ثم الصلاة** ثلاث مرات. قال: ثم مه؟ قال: الجهاد فى سبيل الله»(١) وفى رواية: «**استقيموا تفلحوا وخير أعمالكم الصلاة**»(٢)

٨- **الصلاة تحرق الذنوب**: ليس هناك شىء يحجب العبد عن مولاه، فإذا ما قام العبد إلى صلاته أحرقت ذنوبه، وصار العبد يتقرب بذلك إلى مولاه شيئًا فشيئًا حتى يملأ عليه نفسه وروحه، وحياته، فيمشى مراقبًا لله، ويأكل لله، ويشرب لله، ويتصدق لله، ويصلى لله، حتى يكون الله سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى عليها، كما فى حديثًا رب العالمين جل وعلا: «**ومازال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى عليها ولئن سألنى لأعطينه، ولئن استغفرنى لغفرت له**»(٣) ويروى لنا صاحب هذه الوصية حديث عن حرق الصلاة للذنوب، فيقول: قال رسول الله ﷺ: «**تحترقون تحترقون فإذا صليتم الصبح غسلتها، ثم تحترقون تحترقون، فإذا صليتم الظهر غسلتها، ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم العصر غسلتها، ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم المغرب غسلتها، ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم العشاء غسلتها ثم تنامون فلا يكتب عليكم حتى تستيقظوا**»(٤) وهذا كله إذا ما كان المسلم المصلى طاهرًا تائبًا من كبائر الذنوب وموبقاتها.

٩- **الصلاة تبلغ بالعبد منزلة الأنبياء بكثرة السجود، والإخلاص للملك المعبود**: عن ربيعة بن كعب رضي الله عنه قال: كنت أبيت مع رسول الله ﷺ فآتيه بوضوئه وحاجته، فقال لى: **سلنى**. فقلت: أسألك مرافقتك فى الجنة. قال: **أو غير ذلك**؟ قلت: هو ذاك. قال: **فأعنى على نفسك بكثرة السجود**(٥) الله أكبر. ربيعة بن كعب كان يصب الوضوء لرسول الله فى الليل، وابن مسعود فى النهار، وفى يوم يخرج الرسول الأعظم ﷺ فيجد ربيعة بن كعب رضي الله عنه قد غلبه النوم أمام حجرة الرسول، فيشفق عليه، فيقول له: اطلب شيئًا أحققه لك.

---

(١) رواه أحمد فى مسنده برقم (٦٦٠٢).

(٢) رواه أحمد فى مسنده (٢٢٣١٣) بإسناد صحيح

(٣) رواه البخارى.

(٤) رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط وإسناده حسن، ورواه فى الكبير موقوفا عليه، وهو أشبه ورواته محتج بهم فى الصحيح قاله المنذرى فى الترغيب ١/ ٢٣٤

(٥) رواه مسلم وأبو داود.

أترى أخي الحبيب، ماذا سيطلب ربيعة بن كعب رضي الله عنه؟ أتراه يطلب شيئًا من حطام الدنيا الفانية الزائلة؟! لقد ورد في بعض الروايات أنه طلب من رسول الله ﷺ أن يمهله إلى الغد لينظر ماذا يطلب من الرسول الأكرم ﷺ يقول: فتذكرت أن الدنيا فانية منقطعة، لكنه أراد أن يطلب أمرًا من أمور الآخرة الباقية، فطلب مرافقة الرسول ﷺ في الجنة.

هي القناعة فالزمها تعش ملكًا — لو لم يكن لك فيها إلا راحة البدن
وانظر لمن ملك الدنيا بأسرها — هل راح منها بغير القطن والكفن

فطلب من رسول الله ﷺ أن يكون مع الرسول ﷺ مرافقًا له في الجنة فأراد الرسول أن يعم الأمر، فقال له: «**أعني على نفسك بكثرة السجود**».

• كيف تستعد للقاء الله وأنت في الصلاة؟(*) •

أخا الإسلام:

قبل أن تصلي يلزمك عدة أمور:

الأول: قبل أن تدخل في الصلاة.

والثاني: عندما تشرع في الصلاة.

والثالث: وأنت مع مولاك في الصلاة.

أما الأول: قبل أن تدخل في الصلاة عليك أولاً بالطهارة، وقد قسم العلماء الطهارة إلى أقسام أربعة:

القسم الأول: طهارة الظاهر من الأحداث والأنجاس والفضلات، وإلى هذا كانت الإشارة بقول النبي المصطفى ﷺ: «**إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه خرجت من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينه مع الماء، أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل يديه خرجت من يديه كل خطيئة بطشتها يداه مع الماء أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء أو مع آخر قطر الماء، حتى يخرج نقيًا من الذنوب**»[1] وكانت الإشارة إليه بقوله تعالى: ﴿**وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ**﴾ [المدثر: ٤].

والقسم الثاني: تطهير الجوارح من الذنوب والآثام، وإليه كانت الإشارة بقوله تعالى: ﴿**إِنَّ السمع وَالْبَصر وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً**﴾ [الإسراء: ٣٦].

(*) انظر كتابنا من وصايا القرآن ١/ ٤٧

(١) رواه مسلم والترمذي وقال: حسن صحيح ورواه أحمد في مسنده (٢٢١٠٧) ومالك في الموطأ ١/ ٢١

١ - يقول ابن الجوزى[١]:

واعلم أن الجوارح كالسواقى توصل إلى القلب الصفو والكدر، فمن كفها عن الشر جلت معدة القلب بما فيها من الأخلاط فأذابتها، وكفى بذلك حمية، فإذا جاء الدواء صادف محلاً قابلا ومن أطلقها فى الذنوب أوصلت إلى القلب وسخ الخطايا، وظلم المعاصى، فلما وضع الدواء كان بينه وبين القلب حجاب، فلا تكاد الجوارح تسلم من الخطايا إلا بالعزلة.

والقسم الثالث: تطهير القلب من الأخلاق المذمومة كالحرص والحقد والحسد والكبر وغير ذلك، فكم من متعبد يبالغ فى كثرة الصلاة والصيام ولا يعانى صلاح القلب، وقد يكون عنده الكبر والرياء والنفاق والجهل بالعلم ولا يشعر بذلك.

فتطهير القلب فى هذا النوع يكون بتبديل الرياء إخلاصًا، وبالحقد والغل محبة ومودة، وبالكبر تواضعًا لله وللمسلمين، والحرص والبخل بالكرم والعطاء، والغفلة بالذكر.

والقسم الرابع: تطهير السر عما سوى الله تعالى[٢]، وتلك المرتبة هى أعلى مراتب الطهارة ولا تحصل إلا لمن تجلت له أوصاف الحبيب، فدخل فى دائرة المحبة.

والمقصود أن يطهر العبد قلبه بإخراج كل شىء منه سوى رب العالمين جل وعلا بحيث يطلع مولاك على قلبك فلا يجد فيه مكانًا لسواه.

قال سهل بن عبد الله التسترى: ما من ساعة إلا والله مطلع على قلوب العباد فأى قلب رأى فيه غيره سلط عليه إبليس.

وعن أحمد بن الحوارى قال: بات أبو سليمان ذات ليلة، فلما انتصف الليل قام ليتوضأ فلما أدخل يده فى الإناء بقى على حاله حتى انفلق الصبح، وكان وقت الإقامة، فخشيت أن تفوته صلاته، فقلت: الصلاة يرحمك الله، فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: يا أحمد أدخلت يدى فى الإناء، فعارضنى عارض من سرى يقول لى: هب أنك غسلت بالماء ما ظهر منك، فبماذا تغسل قلبك؟ فبقيت متفكرًا حتى قلت: بالهموم والأحزان فيما يفوتنى من الأنس بالله عز وجل.

يا هذا إذا توضأت بغير نية قيل للماء: ابذل له البلل لا الطهارة، فإذا نويت قيل له: طهر ظاهره، فإذا صفا قلبك، فقد حصلت على طهارتك حقيقة.

٢- ثم بعد أن تتطهر عليك أن تستحضر عظمة الله تعالى فى الوقوف بين يديه، وكأن هذه الصلاة هى آخر صلاتك فى الدنيا.

---

(١) التبصرة لابن الجوزى ٢/ ٢٢٦، ٢٢٧ بتصرف.

(٢) المرجع السابق وإحياء علوم الدين للإمام الغزالى، ومختصر منهاج القاصدين ص٣٨

فقد كان كثير من السلف الصالح رضوان الله عليهم ومنهم على بن أبى طالب رضي الله عنه كان يصفر لونه، فلما سئل فى ذلك قال لهم: أتدرون على من أقبل؟

وهذا هو «حاتم الأصم» يسأله عاصم بن يوسف: كيف تصلى؟ فماذا قال له؟ أتدرى أخا الإسلام كيف يصلى حاتم رحمه الله؟ أيصلى مثل صلاتنا؟ أيقبل على الله وقلبه ساه غافل، أيقبل على مولاه وقلبه مشغول بالدنيا؟ لا، وإنما يقبل عليه بقلب كله خشوع وخضوع لمن خلق السموات والأرض، تأمل ماذا قال حاتم. يقول: «أقوم بالأمر، وأمشى بالسكينة، وأدخل بالنية، وأكبر بالعظمة، وأقرأ بالترتيل والتفكر، وأركع بالخشوع، وأسجد بالتواضع، وأسلم بالنية، وأسلمها بالإخلاص لله عز وجل، وأخاف ألا تقبل منى»[1] بعد هذا كله يخاف ألا تقبل منه فما بالنا نحن، ماذا نفعل ونحن نصلى وقلوبنا لاهية ساهية، وأفئدتنا بحب الدنيا مليئة وندعى لأنفسنا القبول، والله لئن لم يرحمنا ربنا لنكونن من الخاسرين الهالكين. فكثير منا يصلى لكنه لا يعلم ماذا قرأ، ولا ماذا قال فيها؟! مع أنه لم يشرب خمرًا، وإنما أسكره جهله بربه وغفلته عن مولاه، واتباعه لهوى نفسه، وطاعته لشيطانه. أين نحن من صلاة كانت قرة عين رسول الله ﷺ، والتى كان يتشوق قلبه إليها حتى يقول لبلال بن رباح رضي الله عنه: «أرحنا بها يا بلال».

شتان ثم شتان بين من يقول: أرحنا بها، وبين من يقول: أرحنا منها!!.

لابد أن تقف أمام مولاك وقفة تليق بجلال ألوهيته، وذل عبوديتك.

يقول ابن الجوزى: رأت فأرة جملاً فأعجبها، فجرت خطامه، فتبعها، فلما وصلت إلى باب بيتها، وقف ونادى بلسان الحال: إما أن تتخذى دارًا تليق بمحبوبك، أو تتخذى محبوبًا يليق بدارك. فخذ من هذا إشارة، إما أن تصلى صلاة تليق بمعبودك، أو تتخذ معبودًا يليق بصلاتك[2]

أخا الإسلام:

إذا ما قمت بتطهير أعضائك وجوارحك بالوضوء، أو الغسل، وطهرت قلبك ووجدانك من دنس الذنوب والآثام، وظهرت ظاهرك بالماء، وباطنك بالتوبة والرجوع إلى مولاك، فماذا تفعل بعد ذلك؟

إن الفقهاء يقولون: إن من سنن الصلاة قبل الدخول فيها شيئين: ١- الأذان ٢- الإقامة فإذا ما سمعت المؤذن ينادى بالصلاة، فتمثل إسرافيل وهو ينادى للقيامة، فالمؤذن ينادى قائلاً: «حى على الصلاة» وإسرافيل ينادى: «أيتها العظام النخرة، أيتها اللحوم

(١) صفة الصفوة ٤/ ٨ ١ وحلية الأولياء ٨/ ٧٤

(٢) المدهش لابن الجوزى ص٤٧٢، ٤٧٣

المتناثرة، قومى لفصل القضاء بين يدى الواحد الديان» فشمر لإجابة الداعى، فإذا ما أقيمت الصلاة ووقف الإمام وخلفه صفوف إخوانك المسلمين، فتذكر يوم يقوم الناس لرب العالمين، تذكر يوم يشفع فيك النبى الأمين، بعدما يذهب العباد إلى أبى البشرية كلها -آدم عليه السلام- فيقولون له: يا آدم أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة بالسجود لك، فاشفع لنا عند ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ فيقول آدم: إن ربى غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهانى عن الشجرة، فعصيت، نفسى.. نفسى. نفسى. اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى نوح،... فيذهب الناس إليه، فيحيلهم على إبراهيم، فيقول مثل قال آدم ونوح ويحيلهم إلى موسى، ومن موسى إلى عيسى عليه السلام، فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وكلمت الناس فى المهد، فاشفع لنا عند ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم عيسى: إنَّ ربى قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله.. نفسى.. نفسى.. نفسى، اذهبوا إلى غيرى.

اذهبوا إلى محمد ﷺ فيأتون، فيقولون: يا محمد أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، لقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟! فيقوم نبينا محمدٌ ﷺ ونحن خلفه، والأمم كلها، فيأتى، فيسجد تحت العرش، فيفتح الله عليه، ويلهمه من محامده، وحسن الثناء عليه، ما لم يفتحه على أحد قبله، فيقال: يا محمد ارفع رأسك، اشفع تشفع، وسل تعطه، فيقول: رب أمتى أمتى رب أمتى أمتى، رب أمتى أمتى[1]

ويقول الفقهاء من شروط صحة الصلاة. ستر العورة. فإذا سترت عورتك، فاعلم أن المراد من ذلك تغطية فضائح البدن عن الخلائق، فتذكر عورات باطنك، وفضائح سرك التى لا يطلع عليها إلا ملك الملوك جل وعلا، واعلم أنك ستقف أمامه سبحانه، فيقول لك: «عبدى، أتذكر ذنب كذا، يوم كذا، ساعة كذا، حتى إذا أقررت بذنوبك أسبل عليك ستره وكنفه، وقال لك: لقد سترتها عليك فى الدنيا، وأنا اليوم أغفرها لك»[2].

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأحمد والترمذى وصححه، وذكره الألبانى فى ص. ج رقم ١٤٦٦

(٢) رواه البخارى بنحوه فى كتاب المظالم.

الوصية رقم (٣)
اجعلوا لبيوتكم نصيبًا من صلاتكم

عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«إذا صلى أحدكم الصلاة في مسجده، فليجعل لبيته نصيبًا من صلاته، فإن الله جاعل في بيته من صلاته خيرًا»**[(١)]

صدق رسول الله ﷺ

فكن أخا الإسلام منفذًا لهذه الوصية الحكيمة، والتي يوصيك فيها فقيه الإنسانية، وأستاذ البشرية محمد ﷺ، بأن تجعل من صلاتك شيئًا في بيتك، وقد حمل الجمهور الصلاة في هذه الوصية على صلاة النافلة، لكونه أخفى وأبعد من الرياء، وأصون من المحبطات، وليتبرك البيت بذلك، وتنزل فيه الرحمة، وينفر منه الشيطان، كما جاء في بعض الروايات فعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم، ولا تتخذوها قبورًا»**[(٢)] أي صلوا فيها النافلة، ولا تجعلوها مهجورة كالقبور.

ولو لم يكن في الترغيب في فعل النافلة إلا هذا الحديث القدسي الجليل لكان كافيًا، يقول الله عز وجل: **«ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي عليها، وإن دعاني أجبته، وإن استعاذني، أو استعاذ بي لأعيذنه»**[(٣)].

والنوافل تنقسم إلى:

١- نوافل راتبة مع الفرائض، وهي تنقسم إلى: ١- سنن مؤكدة، وهي ما واظب عليها الرسول ﷺ في الحضر والسفر، وإلى: ٢- سنن غير مؤكدة، وهي ما كان يفعلها تارة، ويتركها تارة أخرى، وهي تنقسم أيضا إلى: ١- سنن قبلية، ٢- وسنن بعدية.

يقول ابن دقيق العيد:

في تقديم النوافل على الفرائض ، وتأخيرها عنها معنى لطيف مناسب:

أما في التقديم: فلأن النفوس لانشغالها بأسباب الدنيا، بعيدة عن حالة الخشوع والخضوع والحضور التي هي روح العبادة، فإذا قدمت النوافل على الفرائض أنست النفس بالعبادة، وتكيفت بحالة تقرب من الخشوع.

وأما تأخيرها عنها، فقد ورد أن النوافل جابرة لنقص الفرائض، فإذا وقع في الفرض خلل ناسب أن يقع بعده ما يجبر الخلل الذي يقع فيه[(٤)].

---

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه برقم (٧٧٨). (٢) رواه البخاري (٤٣٢) ومسلم (٧٧٧).

(٣) رواه أحمد في مسنده بإسناد صحيح من حديث عائشة وقد سبق تخريجه في وصية أخرى.

(٤) نقلا من الدين الخالص للشيخ محمود خطاب السبكي ٢/ ٢٩٣

١- راتبة الفجر (الصبح): يتأكد صلاة ركعتين قبل صلاة الصبح، والمحافظة عليهما. لحديث عائشة رضي الله عنها قالت: لم يكن النبى ﷺ على شىء من النوافل أشد تعاهدًا منه على ركعتى الفجر، وقال:

«ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها»[١] ويسن التخفيف فيهما، والإسرار فيهما، والحكمة فى ذلك المبادرة إلى صلاة الصبح فى أول الوقت، واستفتاح صلاة النهار بركعتين خفيفتين ليدخل فى الفرض بنشاط، واستعداد تام.

ويسن أن يقرأ فيهما بـ ﴿**قل يا أيها الكافرون**﴾ وبـ ﴿**قل هو الله أحد**﴾.

قال ابن عمر رضي الله عنهما: رمقت النبى ﷺ يقرأ فى الركعتين قبل الفجر ﴿**قل يا أيها الكافرون**﴾ و ﴿**قل هو الله أحد**﴾[٢] ويستحب أن يضطجع بعدها على جنبه الأيمن.

لما ثبت فى الصحيح من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: **«كان رسول الله ﷺ إذا صلى ركعتى الفجر، اضطجع على جنبه الأيمن»**[٣]

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: **«إذا صلى أحدكم ركعتين قبل صلاة الصبح، فليضطجع على جنبه الأيمن»**[٤]

ويستحب أن يقضيها إذا فاتته لما روى الترمذى وغيره:

عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«من لم يصل ركعتى الفجر، فليصلهما بعد ما تطلع الشمس»**[٥]

٢- سنة الظهر: فعن أم حبيبة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«من صلى فى يوم وليلة ثنتى عشرة ركعة بنى الله له بيتًا فى الجنة: ركعتين قبل الفجر، وأربعًا قبل الظهر، وركعتين بعدها، وركعتين بعد المغرب، وركعتين بعد العشاء»**[٦]

وعنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من حافظ على أربع ركعات قبل الظهر، وأربع بعدها، حَرُم على النار»**[٧]

وعن أبى أيوب رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: **«أربع قبل الظهر ليس فيهن تسليم، تفتح لهن أبواب السماء»**[٨]

---

(١) رواه مسلم (٥٠١) والترمذى وأحمد فى مسنده.

(٢) رواه الترمذى وحسنه ورواه أحمد فى مسنده وابن ماجه والنسائى.

(٣) صحيح سنن أبى داود للألبانى (١٢٦١) والبخارى (٦٢٦) ومسلم وأحمد والترمذى.

(٤) رواه ابن حبان فى صحيحه (٢٤٥٩) وصححه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود.

(٥) الترمذى (٤١٥) والنسائى وإسناده صحيح.

(٦) رواه الترمذى فى أبواب الصلاة (٤١٥) بإسناد صحيح والنسائى فى قيام الليل ٣/ ٢٦١

(٧) صحيح سنن أبى داود للألبانى (١٢٦٩) والترمذى (٤٢٧) والنسائى ٣/ ٢٦٥ وابن ماجه (١١٦٠).

(٨) صحيح سنن أبى داود للألبانى (١٢٧) بإسناد حسن.

٣- سنة العصر: فعن عبد الله بـن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«رحم الله امرءًا صلى قبل العصر أربعًا»**(١)

وعن على بن أبى طالب رضي الله عنه أن النبى ﷺ كان يصلى قبل العصر ركعتين(٢)

وعن أم سلمة رضي الله عنها قـالت: شغل النبى ﷺ عن الركعـتين قبل الـعصر فصـلاهما بعدها(٣)

٤- سنة المغرب: فللمغـرب سنة قبله، وسنة بـعده، فأما الأولـى فـقد ورد عن عبـد الله بن مغفل رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«صلوا قبل المـغرب ركعتيـن، صلوا قبل المغرب، وفى الثالثة قال: لمن شاء. خشية أن يتخذها الناس سنة»**(٤).

وفى رواية لمسلم: **«كانوا يصلون ركـعتين عند أذان المغرب حتى إن الرجل الغريب ليدخل المسجد فيحسب أن الصلاة قد صليت من كثرة من يصليها»**.

وأما بعد المغرب، فقد ورد عن عائشة وابن عمر رضي الله عنهم **«أن النبى ﷺ كان يصلى بعد المغرب ركعتين»**(٥)

٥- سنة العشاء: يستحب صلاة ركعتين قبلها، لعموم قول النبى ﷺ: **«بين كل أذانين صلاة»** وفى الثالثة قال: **«لمن شاء»**(٦) وهذه غير مؤكدة أما المؤكدة فبعدها.

والمقصود بالأذانين أى الأذان والإقامة، وحكمة مشروعية الصلاة بينهما: أن المقصود من الأذان الإعـلام بدخول وقـت الصلاة ليـتأهـب الناس للصـلاة بالطهـارة، ويحضـروا لتأديتها، ووصل الأذان بالإقامة يفوت هذا المقصود.

ويستحب بعد صلاة العشاء ركعتان أو أربع بعد صلاة العشاء.

لحديث عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ: كان يصلى قبل الظهر ركعتين، وبعدها ركعتين، وبعد المغـرب ركعتين فى بيته، وبعد صلاة العشاء ركـعتين، وكان لا يصلى بعد الجمعة حتى ينصرف فيصلى ركعتين»(٧) وكان أحيانًا يصلى أربعًا بعد العشاء، مثنى مثنى، ثم يوتر.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما صلى رسول الله ﷺ العشاء قط ودخل علىَّ إلا صلى أربع ركعات أو ست ركعات»(٨)

---

(١) صحيح سنن أبى داود للألبانى (١٢٧١) بإسناد حسن وأحمد فى مسنده والترمذى.

(٢) صحيح سنن أبى داود للألبانى (١٢٧٢). (٣) رواه النسائى ١/ ٢٨٢ بإسناد حسن.

(٤) صحيح سنن أبى داود (١٢٨١) والبخارى (١١٨٣).

(٥) البخارى (٩٣٧) ومسلم (٤ ٥) وأبو داود (١٢٥٢).

(٦) رواه البخارى (١١٨٣) وصحيح سنن أبى داود (١٢٨١).

(٧) صحيح سنن أبى داود للألبانى (١٢٥٢) والبخارى ومسلم.

(٨) رواه أحمد وأبو داود والنسائى بسند رجاله ثقات.

٦- **سنة الجمعة:** فعن أبى هـريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا صلى أحدكم الجمعة فليصل بعدها أربعًا**»[١] وكان تارة يصلى ركعتين:

فعن ابن عمـر رضي الله عنهما أنه قال: «كان النبى ﷺ لا يصلى بعـد الجمعة حـتى ينصرف فيصلى ركعتين فى بيته»[٢].

أخى الحبيب: فهده النوافل التى ذكرتها لك يستحب لك أن تصليها فى بيتك، وهذا رأى جمهور الفـقهاء والعلماء ومذهب السلف، ولذلك قال أحـد السلف: إن فضل صلاة النافلة فى البيت، كفـضل الفريضة فى المسجد، وهذا مأخوذ من الوصـية التى نحن بصدد الحديث عنها، وصــلاة الفريضة فى المسجـد، والنافلة فى البيت مما يزجر الشـيطان ويجعله يتألم ويحزن

فعن أبـى الجلد، قال: لقى عـيسى ابن مـريم عليه السلام إبليس، فقـال له: يا إبليس، أسألك بالحى القيوم الذى جعل عليك اللعنـة، والذى يسل جسمك، ويقطع ظهرك؟ فقال إبليس: يا عـيسى، لولا أنك سـألتنى بالحى القيـوم ما أخبـرتك، أما الذى يسل جـسمى فصـهيل الخيل فى سـبيل الله -يعنى فـى الجهاد- وأما الـذى يقطع ظهرى فـصلاة الرجل الفريضة فى مسجده، والنافلة فى بيته».

لكن ما الحكمة فى صلاة النوافل؟

شرعت هذه النـوافل التابعة للفـرائض لتكفير الـسيئات، ورفع الدرجـات، وترغيم الشيطان، وقطع طماعيته فى منع الإنسـان من تأدية الفرائض على الوجه الأكمل، وتكميل ما عـساه يقع من نقص فى الفـرائض، بنقص شىء من آدابهـا: كخشوع وتـدبر فى قراءة وغيرها، لحـديث تميم الدارى أن النبى ﷺ قال: «**أول ما يحـاسب به العبـد يوم القيـامة صلاته، فإن أكملها كتبت له تامـة، وإن لـم يكن أكملها، قال الله لملائكته: انظروا هل تجدون لعـبدى من تـطوع، فأكـملوا بهـا ما ضـيع من فـريضتـه، ثم تؤخـذ الأعمـال على حـسب ذلك**»[٣]

ولحديث أبى هـريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «**إنَّ أول مـا يحـاسب الناس بـه يوم القيامة من أعمالهم الصلاة يقول ربـنا لملائكته - وهو أعلم -: انظروا فى صلاة عبدى أتمها أم نقصها؟ فإن كانت تامة كتبت له تامة وإن كـان انتقص منها شيئًا، قال: انظروا هل لعبدى من تطوع؟ فإن كان له تطوع، قـال: أتموا لعبدى فريضته من تطوعه ثـم تؤخذ الأعمال على ذلك**»[٤]

---

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذى وابن ماجه والنسائى.
(٢) رواه البخارى ومسلم وغيرهم.
(٣) رواه ابن ماجه.
(٤) رواه أبو داود وابن ماجه.

أخي الحبيب: حافظ على الصلاة فهي مرضاة الرب، وحب الملائكة، وعبادة الأنبياء، ونور المعرفة، وبركة للرزق، وكراهية للشيطان، وقبول للأعمال، ونور للقلب، فإذا كان يوم القيامة كانت لصاحبها ظلاً وتاجًا على رأسه، ونورا يسعى بين يديه، وسترًا بينه وبين النار، وثقلاً في الميزان، وجوازًا على الصراط، ومفتاحًا للجنة.

إلهي:

ببابك عبدٌ من عبيدك مذنب كثير الخطايا جاء يسألك العفوا

فأنزل عليه الصبر يا من بفضله على قوم موسى أنزل المن والسلوى

اللهم ألهمنا القيام بحقك، وبارك لنا في الحلال من رزقك، ولا تفضحنا بين خلقك، يا خير من دعاه داع، وأفضل من رجاه راج، يا قاضي الحاجات، ومجيب الدعوات، اغفر لنا وللمسلمين.

الوصية رقم (٤)
عليكم بالصدق

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا»**(١)

صدق رسول الله ﷺ

• في رحاب هذه الوصية •

أخا الإسلام:

يروي لنا هذه الوصية الجليلة صحابي جليل من صحابة النبيّ المصطفى، والرسول المجتبى ﷺ، ذلكم الصحابي الجليل الذي قرع الإيمان باب قلبه في أول أمر الدعوة، ومنذ أن كانت الدعوة إلى الله سراً، هذا الذي أسمع قريشًا في ناديها كتاب الله تعالى، فكان أول جاهر بالقرآن الكريم، ولما تمكن الإيمان في قلبه، والصدق في عقيدته إذ به يوصينا بما أوصاه به رسول الله ﷺ وسائر أصحابه، بل وأمة الإسلام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، إنه ﷺ يوصي بالصدق.

وهو خلق عظيم جمع بين خصال البر كلها، لأنه حلية الأحرار، وزينة الأبرار، وجمال الصالحين الأخيار.

(١) رواه البخاري ومسلم (٢٦٠٧) والترمذي (٢٠٣٨) وأحمد في مسنده (٣٦٣٨) وأبو نعيم في الحلية ٨/٣٧٨ والبخاري في الأدب المفرد (٣٩١) ص ٨٩ ومالك في الموطأ ٢/٣٧٨.

جاء فى كتاب بصائر ذوى التمييز للفيروز آبادى:

أن الشيخ عبد الله الأنصارى قال: «الصدق اسم لحقيقة الشىء حصولاً ووجودًا، والصدق هو حصول الشىء وتمامه، وكمال قوته، واجتماع أجزائه، كما يقال: عزيمة صادقة، إذا كانت قوية تامة ثابتة الحقيقة لم ينقص منها شىء.

ومن هذا صدق الخبر، لأنه وجد المخبر به بتمام حقيقته فى ذهن السامع.. والصدق صديق الإنسان فى الشدة والرخاء، وأنيسه فى الغنى والفقر، ومساعده فى الحرج والضيق، ومعونة لصاحبه فى العسر واليسر هذا فى الدنيا، أما فى الآخرة فإنه يهديه إلى الخير. يهدى صاحبه إلى البر، والبر كلمة رائعة عريقة المنبت، أصيلة المدلول والمفهوم، وهى كما يقول العلماء: أغزر الكلمات الإسلامية مادة، وأدقها تصويرًا، لما يقع تحتها من فعل للخيرات، وهى الهادية بعد ذلك كما أخبر سيد البريات إلى طريق الجنات، التى يسعد صاحبها. بخلاف الكذب الذى يهدى إلى الفجور، والفجور هو الذى يسير بصاحبه إلى دار الشرور، إلى جهنم وبئس المصير.

وتأمل أخى الحبيب كيف بدأ الرسول ﷺ وصيته الجامعة، لقد بدأها بأسلوب هو من أعظم الأساليب البلاغية، وهو ما يسمى بأسلوب الإغراء، أسلوب يشوق السامع، ويهيج عاطفته، ويشحذ عزيمته، وينهض بهمته، لكى يسارع ويبادر إلى اغتنام هذا الخير العظيم، ثم أكد الرسول ﷺ هذا الأسلوب البليغ بقوله: «**فإن الصدق يهدى إلى البر، وإن البر يهدى إلى الجنة**». فكأنه تعليل لما قبله، وبيان لعاقبة صاحبه فى الآخرة. فما هى فضيلة الصدق؟ وما أنواعه؟ هيا بنا لنتعرف على ذلك سويًّا.

• حديث القرآن الكريم عن الصدق •

الصدق خلق عظيم من أخلاق القرآن الكريم، وفضيلة من الفضائل، ومزية حميدة وحسب الصدق شرفًا ومكانة أن الله قد وصف به أنبياءه، ونعت به رسله، فقال سبحانه: **﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾** [مريم: ٤١] **﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا﴾** [مريم: ٥٤]. بل إنه سبحانه أمر أهل الإيمان باتباع هذا الخلق العظيم، ونادى عليهم بنداء حبيب إلى قلوبهم فقال سبحانه: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مع الصَّادِقِينَ﴾** [التوبة: ١١٩].

قال القرطبى: حق على كل من فهم عن الله أن يلازم الصدق فى الأقوال، والإخلاص فى الأعمال، والصفاء فى الأحوال، فمن كان كذلك لحق بالأبرار، ووصل إلى رضا الغفار.

وقد مدح ربنا تبارك وتعالى طائفة صالحة من صحابة النبى ﷺ، وهم أولئك الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فقال سبحانه: **﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ**

عَلَيْه فَمنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴿٢٣﴾ لِيَجْزِي اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [الأحزاب: ٢٣، ٢٤].

كما أنه سبحانه وتعالى ذكر الصادقين فى زمرة الذين أثنى عليهم، وفى عداد الذين رفع أقدارهم، ووعدهم مغفرته وجنته، ومنحهم عفوه ورضوانه، فقال جل شأنه: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

بل لقد وصف به مولانا تبارك وتعالى نفسه فى مواطن متعددة، فليس فى الوجود كله، من هو أصدق منه سبحانه وتعالى وعدًا، ولا حديثًا ولا قولاً ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧] ولا أدل على ذلك من القرآن الكريم الذى أنزله على خير رسول وأفضل نبى، إذ هو آية الآيات على صدق الله عز وجل فى كل كلمة، ولفظه، ومعانيه، وموضوعاته، وأساليبه، وأهدافه، وغاياته، وسائر مجالاته. قال تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [آل عمران: ٩٥] وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

كما وصف به قرآنه، فقال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ [الزمر: ٣٢] وقال جل شأنه: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر ٣٣] وفى الجملة فالصدق كلمة جامعة لأطراف البر والخير، فى الفرد، وفى المجتمع، فى الدين، وفى الدنيا، قال سبحانه: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

يقول صاحب ظلال القرآن:

وهكذا تجمع آية واحدة بين أصول الاعتقاد، وتكاليف النفس والمال، وتجعلها كلها جزءًا لا يتجزأ، ووحدة لا تنفصم، وتضع على هذا كله عنوانًا واحدًا هو (البر) أو هو (جماع الخير) أو هو (الإيمان) كما ورد فى بعض الأثر.

والحق أنها خلاصة كاملة للتصوير الإسلامى، ولمبادئ المنهج الإسلامى المتكامل، الذى لا يستقيم بدونها إسلام، ومن ثم تعقب الآية على من هذه صفاتهم بأنهم: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧] أولئك الذين صدقوا مع ربهم فى

إسلامهم، صدقوا فى إيمانهم واعتقادهم، وصدقوا فى ترجمة هذا الإيمان والاعتقاد إلى مدلولاته الواقعة فى الحياة، وأولئك هم المتقون الذين يخشون ربهم، ويتصلون به، ويؤدون واجبهم له فى حساسية، وفى إشفاق[١]

ولقد كان من خير ما تعلمه الرسول الأمين محمد صلوات الله وسلامه عليه من ربه، هتاف يدعو به إلى الله تعالى أن يجعل باعثه ومقصده الصدق فى كل شأن من شئونه، ويختم به كل عمل من أعماله. وقد أمر الله رسوله أن يسأله أن يجعل مدخله ومخرجه على الصدق، فقال سبحانه: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٠] وأخبر عن خليله إبراهيم عليه السلام أنه سأله أن يجعل له لسان صدق فى الآخرين، فقال سبحانه: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤] وبشر سبحانه وتعالى عباده بأن لهم قدم صدق، ومقعد صدق، فقال جل شأنه: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢] وقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر ٥٤، ٥٥].

فهذه خمسة أشياء: ١- مدخل الصدق ٢- مخرج الصدق ٣- ولسان صدق ٤- ومقعد صدق ٥- وقدم صدق، وحقيقته فى هذه الأشياء هو الحق الثابت المتصل بالله، الموصل إلى الله، وهو ما كان به وله من الأعمال والأقوال[٢]

والصدق بعد ذلك كله حلية الأحرار، وزينة الأبرار، وجمال الصالحين والأخيار، بل إنه مفتاح السعادة، وسلم السيادة، ومعراج الرقى والنهوض، ومصدر كل فلاح ونجاح، فكم أخذ بيد الفقير إلى الغنى، وبيد الخامل إلى الشهرة، وبيد الوضيع الذليل إلى مدارج العزة والرفعة.

عليك بالصدق ولو أنه ... أحرقك الصدق بنار الوعيد
وأبلغ رضا المولى فأغبى الورى ... من أسخط المولى وأرضى العبيد[٣]

• الحث على الصدق من السنة المطهرة •

أخى الحبيب:

وكما حض القرآن الكريم على الصدق، وحث عليه، فإن السنة المطهرة قد رغبت فيه.

١- فعن أبى سفيان رضي الله عنه فى حديثه الطويل فى قصة هرقل: قال هرقل: فماذا

(١) ظلال القرآن (سيد قطب) بتصرف.

(٢) الفضيلة والفضائل فى الإسلام د/عبد الرحيم السايح بتصرف ص ٥٥، ٥٦

(٣) المستطرف للأبشيهى ص ٢٧٧

يأمركم؟ -يعني رسول الله- قال أبو سفيان: قلت: يقول: «**اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئًا، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة، والصدق، والعفاف، والصلة...**»[1] فهذا اعتراف من أبي سفيان رضي الله عنه ولم يكن ساعتها على الإسلام ومع ذلك شهد بأن الرسول ﷺ يأمرهم بمكارم الأخلاق التي من بينها الصدق، حتى أن هرقل سأله، هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال أبو سفيان: ما عرفنا عليه كذبًا قط، فأجابه هرقل، قلت: ما كان ليذر الكذب على الناس، ويكذب على الله.

وليس أبو سفيان فقط هو الذى وصف الرسول ﷺ بالصدق، ولكن هذا هو فرعون هذه الأمة (أبو جهل) اللعين، يقر ويعترف بصدق الرسول ﷺ لكن لم يمنعه إلا حبه للزعامة والرياسة.

روى أن رجلاً من سادة قريش لقى أبا جهل فى إحدى طرقات مكة، فاستوقفه ثم قال له: يا أبا الحكم، ليس هنا غيرى وغيرك، أنشدك بالله، هل محمد صادق أم كاذب؟ فقال أبو جهل: واللات والعزى إن محمدًا لصادق، وما كذب قط.. قال: فما يمنعكم من اتباعه؟ فقال: تنافسنا نحن وبنو هاشم، وتنازعنا الزعامة والفخر، أطعموا فأطعمنا، وسقوا فسقينا، وأجاروا فأجرنا، حتى كنا كفرسى رهان، قالوا: منا نبى، فو الله لا نسلم لهم، ولا نؤمن به فأنزل الله قوله تعالى[2]: ﴿**قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ**﴾ [الأنعام: ٣٣].

وقد أجمع الذين عرفوه ﷺ وخالطوه منذ صباه على أنه الصادق الأمين، فلم يشكوا فى خبر من أخباره، أو يستريبوا فى قول من أقواله، فها هى السيدة خديجة رضي الله عنها، لم تجد ما تهدئ به روعه حين أتاها خائفًا، بعد أن نزل عليه الملك «جبريل» عليه السلام فى غار حراء يقول له: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ**﴾ [العلق: ١] خيرًا من أن تصفه بمكارم الأخلاق، والتى كان الصدق عنوانها فقالت: «**أبشر، فو الله لا يخزيك الله أبدًا، والله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتؤدى الأمانة، وتحمل الكل، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق**»[3]

ولما تآمرت قريش على أن تشيع فى الوافدين إلى مكة أنَّ محمدًا ساحر، فردها عن هذه الفرية عدو من ألد أعدائه هو النضر بن الحارث، حيث قال لهم: «**قد كان محمد فيكم غلامًا حدثًا، فكان أرضاكم فيكم، وكان أصدقكم حديثًا، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب، وجاءكم بما جاءكم، قلتم: ساحر، لا والله ما هو بساحر**».

وإذا كان رسولنا محمد ﷺ هو عنوان الصدق فى الأقوال والأفعال فهيا بنا لنطوف

---

(١) رواه البخارى ومسلم. (٢) انظر أسباب النزول للواحدى النيسابورى.

(٣) رواه البخارى ومسلم وذكره ابن كثير فى السيرة ١/ ٣٨٦.

سويًا فى بستان أخلاقه، لكى نقتطف منه زهرات تحثنا على الصدق، ويقطف لنا الزهرة الأولى، رجل أحبه رسول الله ﷺ، وبشره هو وأخوه بالجنة، لأنهما من أهل بيت النبوة حين قال: **«الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة»**(١).

١- فعن الحسن بن على رضي الله عنهما قال: حفظت من رسول الله ﷺ: **«دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الصدق طمأنينة، والكذب ريبة»**(٢)

لأن الصدق بريد الإيمان ودليله ومركبه وسائقه وقائده، وحليته ولباسه، بل هو لبه وروحه، والكذب بريد الكفر والنفاق، فلا يجتمع الكذب والإيمان إلا ويطرد أحدهما الآخر.

٢- وأما الزهرة الثانية فيقطفها لنا منصور بن المعتمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«تحروا الصدق وإن رأيتم فيه الهلكة فإن فيه النجاة»**(٣)

٣- والزهرة الثالثة تدل على أن الصدق سجية كاملة، وفطرة سليمة، وخليقة مستقيمة، يقطفها لنا سيدنا عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما من بستان الصدق، فيقول:

قال رسول الله ﷺ: **«أربع إذا كن فيك، فلا عليك ما فاتك من الدنيا: حفظ أمانة، وصدق حديث، وحسن خليقة، وعفة فى طعمة»**(٤)

٤- وأما الزهرة الرابعة، فإنها محبة الله للصادقين المخلصين، ويقطفها لنا عبد الرحمن ابن الحرث السلمى رضي الله عنه، فيقول: قال رسول الله ﷺ حين دعا بطهور فغمس يده فيه وتطهر وتوضأ منه، وتتبعه الصحابة فشربوه، فقال لهم. **ما حملكم على هذا؟** قالوا: حب الله ورسوله. قال: **فإن أحببتم أن يحبكم الله ورسوله: فأدوا إذا ائتمنتم، واصدقوا إذا حدثتم، وأحسنوا جوار من جاوركم»**(٥)

٥- وآخر زهرة نقتطفها من بستان خلق الصدق، تجعل من يتصف بهذا الخلق العظيم مع الأخيار الأبرار، ويعطرنا بهذه الزهرة الطيبة سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، فيقول:-

قلنا: يا نبى الله، من خير الناس؟ قال: **ذو القلب المخموم، واللسان الصادق، قال:**

---

(١) رواه أحمد والترمذى وهو فى ص.ج للألبانى رقم (٣١٨٠).

(٢) رواه الترمذى وقال: حديث حسن صحيح برقم (٢٥١٨) وأحمد (١٦٢٩) والنسائى (٥٢٦٩).

(٣) رواه ابن أبى الدنيَا فى الصمت ورجاله ثقات قال المنذرى فى الترغيب ٣/ ٥٩٠

(٤) رواه أحمد فى مسنده (٦٦٥٢) بإسناد وصححه الشيخ أحمد شاكر فى تخريج المسند ٦/ ٢٠٩، ٢١. ورواه الطبرانى فى الكبير والبيهقى بأسانيد حسنة قاله المنذرى فى الترغيب ٣/ ٥٨٩ وصححه الألبانى فى ص.ج رقم ٨٧٣.

(٥) رواه الطبرانى وذكره المنذرى فى الترغيب ٣/ ٥٨٩.

يا نبي الله، قد عرفنا اللسان الصادق، فما مخموم القلب؟ قال: **التقى النقى الذى لا إثم فيه، ولا بغى**»[١]

• قطوف من أقوال السلف فى مدح الصدق •

أخا الإسلام:

لقد مدح السلف الصالح هذا الخلق العظيم، لأنه أصل أصيل من أصول الأخلاق، وخلة من أهم الخلال.

يقول إسماعيل بن عبيد الله: كان عبد الملك بن مروان يقول لى: «علم بَنىَّ الصدق كما تعلمهم القرآن، وجنبهم الكذب، فإن فيه كذا وكذا. يعنى القتل»[٢]

وقال إسماعيل بن عبيد أيضًا: لما حضرت أبى الوفاة جمع بنيه، فقال لهم: «يا بنىَّ، عليكم بتقوى الله، وعليكم بالقرآن فتعاهدوه، وعليكم بالصدق، حتى لو قتل أحدكم قتيلاً، ثم سئل عنه أقر به، والله ما كذبت كذبة قط منذ قرأت القرآن»[٣]

وقيل: الصدق عمود الدين، وركن الأدب، وأصل المروءة، فلا تتم الثلاثة إلا به[٤].

وقيل: لو صدق عبد فيما بينه وبين الله تعالى حقيقة الصدق لاطلع على خزائن الغيب، ولكان أمينًا فى السموات والأرض[٥].

وقيل: لكل شيء حلية، وحلية النطق الصدق[٦]

وقيل: من لزم الصدق، وعوّد لسانه به وفق[٧]

وقال محمود الوراق:

الصدق منجاة لأربابه ... وقربة تدنى من الرب[٨]

وقال أبو حاتم بن حبان:

إنَّ الله جل وعلا فضل اللسان على سائر الجوارح، ورفع درجته، وأبان فضيلته، بأن أنطقه من بين سائر الجوارح بتوحيده، فلا يجب للعاقل أن يعود آلة خلقها الله للنطق بتوحيده بالكذب بل يجب عليه المداومة برعايته بلزوم الصدق، وما يعود عليه نفعه فى داريه، لأن اللسان يقتضى ما عوِّد: إن صدقًا فصدق، وإن كذبًا فكذب.

ولقد أحسن الذى يقول:

عود لسانك قول الخير تحظ به ... إن اللسان لما عودت معتاد

موكل بتقاضى ما سننت له ... فاختر لنفسك، وانظر كيف ترتاد[٩]

---

(١) رواه البيهقى فى الشعب وابن ماجه بسند صحيح.
(٢) روضة العقلاء لابن حبان ص٤٩.
(٣): (٨) المستطرف للأبشيهى ص٧٧ط التوفيقية.
(٩) روضة العقلاء لابن حبان ص٤٩.

• حكايات ومواقف للصادقين •

وأول موقف من مواقف الصادقين، موقف عظيم لمؤذن الرسول الكريم لسيدنا بلال ابن رباح رضي الله عنه وأرضاه، وقد ذهب ليخطب لأخيه امرأة قرشية شريفة حسيبة فى قومها، فقال لأهلها: نحن من قد عرفتم، كنا عبدين فأعتقنا الله تعالى، وكنا ضالين فهدانا الله تعالى، وكنا فقيرين فأغنانا الله، وأنا أخطب إليكم فلانة لأخى، فإن تنكحوها له، فالحمد لله، وإن تردونا فالله أكبر. فأقبل بعضهم على بعض فقالوا: بلال ممن قد عرفتم سابقته، ومشاهده، ومكانه من رسول الله ﷺ، فزوجوا أخاه، فزوجوه، فلما انصرفوا، قال له أخوه: يغفر الله لك، أما كنت تذكر سوابقنا، ومشاهدنا مع رسول الله ﷺ، وتترك ما عدا ذلك، فقال: مه يا أخى صدقت فأنكحك الصدق[1]

وأما الموقف الثانى، فكان لفاروق الإسلام: «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه وقد كان يومًا من الأيام -بمنى- فعطش عطشًا شديدًا، فانتهى إلى عجوز، فاستسقاها ماء.

فقالت العجوز: ما عندنا. فقال: اسقينا لبنًا. فقالت: ما عندنا. فبدرت جارية، فقالت لها: تكذبين وما تستحين؟

ثم قالت لعمر: هذا السقاء فيه لبن. فما كان منه إلا أن سأل عن الجارية، فإذا أبوها ثقفى، فخطبها لابنه عاصم، فزوجها منه، فولد له منها أم عاصم، فتزوجها عبد العزيز بن مروان، فولدت له عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين -رحمه الله-.

أرأيت أخى الحبيب كيف يفعل الصدق بأهله؟!.

أرأيت كيف يرتقى بهم إلى ما هو خير لهم، وما هو أفضل لهم فى حياتهم؟!.

لقد رفع نسب أخى بلال الحبشى إلى نسب القرشية. وزوج الجارية من الثقفى.

وهذا موقف آخر مع فاروق الإسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين أُتى بالهرمزان - رئيس الفرس- أسيرًا إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقيل له: يا أمير المؤمنين، هذا زعيم العجم، وصاحب رئيسهم.

فقال له عمر: أعرض عليك الإسلام نصحًا لك فى عاجلك وآجلك.

قال الهرمزان: يا أمير المؤمنين، إنما أعتقد ما أنا عليه، ولا أرغب فى الإسلام، فدعا له عمر بالسيف، فلما همَّ بقتله، قال: يا أمير المؤمنين، شربة من ماء أفضل من قتلى على ظمأ، فأمر له بشربة من ماء، فلما أخذها قال: أأنا آمن حتى أشربها؟ قال عمر: نعم، وأمر حامل السيف أن يضعه.

قال الهرمزان: الوفاء يا أمير المؤمنين نور أبلج.

قال عمر: صدقت، لك التوقف عنك، والنظر فى أمرك، فلما انتهى من شربه،

---

(١) المستطرف ص٢٧٧، وسمير الصالحين للشهاوى ٢/ ٨١ ط/ دار التأليف.

قال: الآن يا أمير المؤمنين، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، وما جاء به حق من عند الله.

فقال عمر أسلمت خير إسلام، فما أخرك؟!

قال الهرمزان: كرهت أن تظن أنى أسلمت خوفًا من السيف[١]

فتأمل أخى الحبيب كيف أدخل الصدق الـهرمزان فى دين الإسلام، لأن سيدنا عمر ابن الخطاب ﷺ كـان مثلاً رائعًا صـادقًا فى صدق الوعـد، فجعله يـدخل فى هذا الدين العظيم.

وهذا موقف آخر لكنـه لأظلم الناس فى عصره «الحجاج بن يوسـف الثقفى» وليس موقفًا واحدًا فحسب، بل موقفان:

الأول: حين خـطب الحجاج فـأطال، فقام رجل، فـقال: الصلاة، فـإن الوقت لا ينتظرك، والرب لا يعـذرك، فأمر بحبـسه، فأتاه قـومه، وزعموا أنه مـجنون، وسألوه أن يخلى سبيله، فقال الحجاج: إن أقر بالجنون خليته.

فقـيل له، لكى يظهر أنـه مجنون، فقـال: معاذ الله، لا أزعم أن الله ابتـلانى وقد عافانى، فبلغ ذلك الحـجاج، فعفا عنه لصدقه وأخرجه من السـجن وهو يقول: ما أجمل الصدق فى الرجال فإنه عنوان يقين، ومنبع رجولة وإيمان[٢].

الثانى: كان رجل من التابعين الصالحين يسمى: «ربعى بن حراش» كان من قبيلة: «أشجع» وكان موصوفًا بالصدق، لدرجـة أنهم كانوا يقولون: إنه لم يكذب قط، فسُعى به ووشى إلى الحـجاج بن يوسف، وقـيل له: إن ههنا رجل من «أشـجع» زعم قومـه أنه لم يكذب قط، وأنه سيكذب لك اليوم، وقد قدم ابناه من خراسان وهما عاصيان لك.

فقال الحُجاج: على به، وكانت عقوبة الحجاج الضرب بالسيف.

فلما جاءه، قال: أيها الشيخ، ما فعل ابناك؟

قال: المستعان بالله، خلفتهما فى البيت.

قال الحجاج: لاجرم، والله لا أسوؤك فيهما، هما لك.

قال: فحمله، وكساه، وأوصى به خيرًا.

فتأمل أخى الحـبيب كيف أنقذ الصـدق أولاد الرجل وجعل الحجاج يكـرمه ويقدره ويكسوه كل ذلك بسبب صدقه فى الحق وعدم كذبه.

وتأمل موقـفًا آخر، وقـصة أخرى تشـيد بفضل الـصدق، والصادقـين، وبطل هذه القصة هو أحد الصالحين، ويسمى «أبو اليزيد البسطامى» رحمه الله يقول: بنيت أمرى على الصدق، وذلك أنى خرجت من مكة إلى بغداد لطلب العلم، فأعطتنى أمى أربعين دينارًا، وقالت لى: يا بـنى، عاهدنى على الصدق، فـعاهدتها. وبينـما أنا أسير مع رفـاقى حتى

(١) سمير الصالحين للشهاوى.

(٢) المستطرف ص٢٧٧

وصلنا إلى أرض «همدان» بالعـراق، خرج علينا قطاع الطريق، فسلبوا القـافلة، فمرَّ واحد منهم، وسألنى: ما معك؟.

فقال: معى أربعون دينارًا، فتعجب ودهش، فقلت له: لا تعجب لقد عاهدتنى أمى على الصدق، فأخاف أن أخون عهدها، فصاح كبيرهم باكيًا، وقال: أنت تخاف أن تخون عهد أمك، وأنا لا أخاف أن أخون عهد الله؟!!

ثم أمر برد ما أخذوه من القافلة، وقال كبيرهم: أنا تائب إلى الله تعالى على يديك.

فقال من مـعه: أنت كبيـرنا فى قطع الطريق، وأنت اليوم كـبيرنا فى التوبـة، فتابوا جميعًا إلى الله تعالى ببركة الصدق.

تأمل أخى الحبيب كيف يفعل الصدق بـأصحابه؟! إنه يصل بهم إلى طريق السعادة، ولذلك روى عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«اشترى رجل من رجل عقاراً له، فوجـد الرجل الذى اشترى العـقار جرة، فيـها ذهب، فقال لـه الذى اشترى العقـار خذ ذهبك منـى إنما اشتـريت منك الأرض، ولم أبتـع منك الذهب، وقـال الذى له الأرض، إنما بعتك الأرض وما فيهـا، فتحاكما إلى رجل، فقال لهما: ألكمـا ولد، قال أحدهما لى غلام، وقال الآخر: لى جـارية. قال: أنكحوا الغـلام الجارية، وأنفقوا على أنـفسهما منـه، وتصدقا هكذا»**[1]

• أنواع الصدق •

لقد قسم العلماء الصدق إلى ثلاثة أقسام:

١ - **صدق الإنسان مع ربه:** وذلك بأن يعرف لله تعالى حقه، فيتقيه حق التقوى ويعبده حق العبادة، وينضوى فى سلك طاعتـه قدر الاستطاعة، ويشتمل صدق الإنسان مع ربه على عدة أمور منها:

أ- **أن يكون العبد صادقًا مع الله فى التـوبة إليه سبحانه:** وهذا يكون بالتوبة النصوح التى يصاحبها الندم، والاعتراف بالذنب، والإقبـال عليه وحده لاشريك له، قال سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا**﴾ [التحريم: ٧] ويكون ذلك بدوام الاستغفار، وألا يأمن العبد أن يـكون قد رآه مولاه على حالة يكرهها فـيمقته بذلك، فقـد كان الحسن البصرى -رحمـه الله- يقول: يؤمننى أن يكون قد رآنى على بعض ما يـكره، فقال: اعمل ما شئت فلا غفرت لك.

لذلك فإن الثلاثة الذين تحدثت عنهم سورة التـوبة لما صدقوا الله فى توبتهم صدقهم الله تعالى وتاب عليهم، فـقال سبحانه: ﴿**لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ**

(١) رواه البخارى ومسلم وذكره ابن كثير فى البداية والنهاية ٢/ ١٣٩

الَّذِين اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٧: ١١٩]. **يقول** كعب في الحديث الطويل: فو الله ما أنعم الله عليَّ من نعمة قط بعد أن هداني الله للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ يومئذ، أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوه، فإن الله قال للذين كذبوه حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد فقال: **﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾** [التوبة: ٩٥].

يقول ابن القيم -رحمه الله-:

وتوبة العبد إلى الله محفوفة بتوبة من الله عليه قبلها، وتوبة منه بعدها، فتوبة بين توبتين من ربه، سابقة ولاحقة، فإنه تاب عليه أولا إذنًا وتوفيقًا وإلهامًا، فتاب العبد، فتاب الله عليه ثانيًا قبولاً وإثابة.

فتوبة العبد: رجوعه إلى سيده بعد الإباق، وتوبة الله نوعان إذن وتوفيق، وقبول وإمداد.

والتوبة لها مبدأ ومنتهى فمبدؤها الرجوع إلى الله بسلوك صراطه المستقيم، الذي نصبه لعباده، موصلا إلى رضوانه، وأمرهم بسلوكه، فقال: **﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾** [الأنعام ١٥٣].

ونهايتها: الرجوع إليه في المعاد، وسلوك صراطه الذي نصبه موصلا إلى جنته.

فمن رجع في هذه الدار بالتوبة، رجع إليه في المعاد بالثواب(١)

ب- **الصدق في معرفة نعم الله تعالى والشكر له:** فالإنسان يتقلب في نعمه سبحانه، ومهما نظر وفكر في نعمه سبحانه فلن يستطيع أن يحصيها **﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾** [إبراهيم: ٣٤].

فكم من نعمة أنعمها عليك حتى قبل أن تنزل إلى هذا الوجود، لقد خلقك ولم تك شيئًا، وأجرى اسمك في اللوح المحفوظ مسلمًا، وجعلك من خير أمة أخرجت للناس، وأكرمك بأن جعلك متدينًا بدينه، ومن أمة حبيبه محمد ﷺ، واستعملك بالشريعة، ثم هداك لسنته، ثم رباك وغذاك حتى وجبت عليك الأحكام، فأغفلت نعمته، وفرطت في حفظ وصيته، واتبعت هواك، وسرت وراء شهواتها، ومع ذلك لم يكافئك بإساءتك، بل

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم ١/ ٣٣٩، ٤٤١.

يسترك ويحلم عنك وينظرك، وقد قيل لأحد الصالحين: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت بين نعمتين، لا أدرى أيتهما أفضل: ذنوب سترها الله علىَّ فلا يستطيع أحد أن يعيرنى بها، ومودة قذفها الله فى قلوب العباد لا يبلغها عملى.

والشكر على ثلاثة أوجه: ١- شكر القلب ٢- وشكر اللسان ٣- وشكر البدن.

فشكر القلب فهو أن تعلم أن النعم من الله وحده، لا من أحد سواه.

وشكر اللسان: يكون بالحمد والثناء عليه سبحانه، ونشر آلائه وإحسانه.

وشكر البدن يكون بطاعة الله تعالى والسير على منهجه.

ج- **الصدق فى محبته سبحانه وتعالى**: والدليل على صدق محبتك لمولاك هو إيثار طاعته فى جميع أمور حياتك، وفى الحديث القدسى: «**ما تقرب إلىَّ عبدى بشىء أفضل مما افترضته عليه، ومازال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى عليها، ولئن سألنى لأعطينه، ولئن استعاذنى لأعيذنه، ولئن استنصرنى لأنصرنه..**»[1]

وروى أن سيدنا موسى عليه السلام قال لمولاه: يا رب أوصنى، قال الله عز وجل: أوصيك بى، قال: يا رب، كيف توصينى بك؟ قال: لا يعرض لك أمران، أحدهما لى، والآخر لنفسك إلا آثرت محبتى على هواك.

والصدق فى محبته تعالى يقتضى منك حب الطاعة، وحب القرآن، وحب أنبيائه ورسله، وبغض أعدائه، وبغض الشيطان والدنيا.

لذلك أوصت امرأة من السلف بنيها، فقالت، بنى، تعودوا حب الله وطاعته، فإن المتقين ألفوا بالطاعة، فاستوحشت جوارحهم من غيرها.

د- **صدق العبد فى التوكل على مولاه**: وقد أمره مولاه بالتوكل عليه وحده، فقال سبحانه: ﴿**وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**﴾ [التوبة ٥١] وقال: ﴿**وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**﴾ [الطلاق: ٣] وأمر رسوله محمدًا ﷺ بالتوكل عليه، فقال ﴿**وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ**﴾ [الفرقان: ٥٨] وقال له: ﴿**فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ**﴾ [آل عمران: ١٥٩] وقد ذكر القرآن الكريم ما كان من صحابة النبى الأعظم ﷺ فى حمراء الأسد، وذلك صبيحة يوم أحد، فقال: ﴿**الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ**﴾ [آل عمران: ١٧٣] إنهم قالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، تلك الكلمة العظيمة التى تدل على صدق التوكل، والاعتماد على الله تعالى، ولذلك يقول

(١) رواه البخارى وقد تخرج فى موضع آخر.

ابن عباس رضي الله عنهما «حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانًا...»(١).

٢- النوع الثانى:

الصدق مع النفس: ويكون الصدق مع النفس بمحاسبتها، والتعرف على عيوبها، وهذا هو أول الطريق لعلاجها ولذلك كان أحد الصالحين يقول: إنَّ من صلاح نفسى علمى بفسادها.

وقد أمرنا بمحاسبة النفس، فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، فإنّ أهون عليكم فى الحساب غدا أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزينوا للعرض الأكبر، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية»(٢).

فإن نازعتك نفسك إلى شىء من الشهوات، أو انشغل قلبك فى طلب شىء مما حرم الله عليك فاتهمها تهمة من يريد صلاحها، واحملها على اللحوق بمن تقدمها من أهل الصلاح والتقوى، واعمل فى فطامها من الدنيا، فإن من فطم نفسه من الدنيا، كان رضاعة فى الآخرة.

ولذلك كان شداد بن أوس رضي الله عنه يقول: «اعلموا أنكم لن تروا من الخير إلا أسبابه، ولن تروا من الشر إلا أسبابه، الخير بحذا فيره فى الجنة، والشر بحذا فيرة فى النار، والدنيا عرض حاضر يأكل منها البر والفاجر، والآخرة وعد صادق يحكم فيها ملك قاهر، ولكل دار بنون فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا»(٣).

والصدق مع النفس بأن يجنبها مزالق العيش فى الأوهام والخيالات، وأحلام اليقظة، والأمانى الكاذبة، وأيضًا الصدق مع النفس يقتضى من العبد أن يكون صادقًا فى محاربة عدوه وليس هناك أقوى من أربعة هم أعداء هذا الإنسان، ولذا قال القائل:

إنى ابتليت بأربع ما سلطوا ... إلا لشدة شقوتى وعنائى

إبليس والدنيا ونفسى الهوى ... كيف الخلاص وكلهن أعدائى

فكن صادقًا جادًا فى محاربة هذا العدو اللدود، ألا وهو «إبليس» اللعين، قال سبحانه: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦] وقال جل شأنه: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ..﴾ [البقرة: ٢٦٨]. فاحذر مكائده ووساوسه، لأنه قعد لك بكل طريق، فهو يحرص على أن يستوقفك فى عقبة من العقبات السبع: الكفر والعياذ بالله، فيقول لك: من خلقك؟ فتقول: الله، فيقول لك: فمن خلق الله؟ فاستعذ بالله من شره حينئذ كما علمك رسول الإسلام ﷺ.

---

(١) رواه البخارى.

(٢) الزهد للإمام أحمد وقد سبق تخريجه فى وصية أخرى. (٣) صفة الصفوة لابن الجوزى ١/ ٣١٨.

ويستوقفك عند البدعة، فاحذر أن تكون من هذا الصنف، لأن المبتدع أخطر من المنافق. ويقف بك عند الكبائر، فإن لم يستطع فعند الصغائر، فإن لم يستطع، فيجعلك تسرف فى المباحات، وإلا فيوسوس لك أن تقدم الأمور المفضولة على الأمور الفاضلة، فإن لم يفلح جر عليك الأذى رجاء أن يعوقك عن فعل البر، وعمل الخير، وتلك العقبة لم يفلت منها أحد حتى الأنبياء.

ثم اعلم أخى الحبيب: أن الشيطان لا ينام، لأنه لو كان ينام لاسترحنا، ثم هو فقيه فى الشر، ومن فقهه فى الشر أن يرضيك ببعض أفعال الخير حتى تظن أنك أحسنت بذلك صنعًا، فاحذره، وجاهده بصدق وإخلاص، واعلم أن عمله كله فى القلب، لذلك يحذرك نبى الإسلام ﷺ فيقول لك:

«فى القلب لمتان: لمة من الملك، إيعاد بالخير، وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك، فليعلم أنه من الله سبحانه، وليحمد الله، ولمة من العدو، إيعاد بالشر، وتكذيب بالحق، ونهى عن الخير، فمن وجد ذلك فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم»[(١)]

وقال الحسن البصرى -رحمه الله-: إنما هما همان يجولان فى القلب: هم من الله تعالى، وهمٌ من الشيطان، فرحم الله عبدًا وقف عند همه، فما كان من الله تعالى أمضاه، وما كان من عدوه جاهده.

٣- النوع الثالث من الصدق:

صدق المرء مع الناس: وذلك بأن يقرر ما يعتقد أنه الحق فى قوله، وفى فعله، وفى صحته.

اصدق الناس إذا كنت تاجرًا، أصدق الناس النصيحة إذا كنت ناصحًا، فهذا هو أحد علماء الصالحين الذين صدقوا فى النصيحة حين طلبت منهم، فقد روى الإمام مالك بن أنس رحمه الله، فقال: بعث إلىَّ أبو جعفر المنصور، وإلى ابن طاوس، فدخلنا عليه، وهو جالس على فُرش وثيرة، وبين يديه السياف وقد أمسك بسيفه، ويجلس مع أبى جعفر حاشيته، وفور دخولنا أومأ إلينا أبو جعفر بالجلوس، وأطرق عنا طويلاً، ثم التفت إلى ابن طاوس، فقال له: حدثنى عن أبيك. قال: نعم، سمعت أبى يقول: إنَّ أشد الناس عذابًا يوم القيامة رجل أشركه الله فى حكمه، فأدخل عليه الجور فى عدله.

قال مالك: فضممت ثيابى خشية أن يملأنى دمه.

ثم التفت إليه أبو جعفر فقال: عظنى يابن طاوس؟

قال: نعم، أما سمعت الله يقول: **﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ الَّذِينَ طَغَوْا**

(١) رواه الترمذى وحسنه.

فِي الْبِلاد فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَاد فَصبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّك سَوْطَ عَذَاب إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَاد﴾ [الفجر: ١٤].

قال مالك: فضممت ثيابى علىَّ خشية أن يملأنى دمه، فأمسك المنصور ساعة، ثم قال: يابن طاوس، ناولنى الدواة.

فأمسك ابن طاوس، ولم يناوله إياه، وهى فى يده.

فقال أبو جعفر ما منعك أن تناولنيها؟!

قال: أخشى أن تكتب بها معصية، فأكون شريكك فيها.

فلما سمع أبو جعفر المنصور ذلك، قال: قوما عنى.

قال ابن طاوس: ذلك ما كنا نبغ.

يقول مالك بن أنس: فمازلت أعرف بعدها لابن طاوس فضله[١].

أرأيت أخى الحبيب كيف صدق العالم الجليل ذلك الخليفة العباسى النصيحة حين طلبها ولم يبال بما سوف يحدث له، لكنه لما صدق الله صدقه مولاه، ونجاه من بطشه وسيفه.

فاصدق إخوانك فى معاملاتهم إذا عاملتهم، وفى صحبتهم إذا صاحبتهم.

قال بعض الصالحين: من سقطت كلفته، دامت ألفته، ومن خفت مؤنته دامت مودته، وآية سقوط الكلفة الموجب للأنس، والمذهب للوحشة أن يفعل الأخ فى بيت أخيه أربع: أن يأكل فى بيته، ويدخل الخلاء عنده، ويصلى عنده، وينام عنده.

• الصدق المذموم •

أخى الحبيب:

أسمعت عن هذا النوع من الصدق؟! أيا ترى ما هو هذا النوع الخطير من الصدق؟!

إنه الغيبة والنميمة، ولذلك قال الإمام الماوردى:

«اعلم أن من الصدق ما يقوم مقام الكذب فى القبح والمعرة ويزيد عليه فى الأذى والمضرة، وهى الغيبة والنميمة والسعاية.

أما الغيبة فإنها خيانة وهتك ستر يحدث عن حسد وغدر، قال تعالى: ﴿وَلا يَغْتَب بعضُكُم بعضًا أَيُحبُّ أَحدُكُم أن يَأْكُل لَحْمَ أَخِيه مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢] وقال عدى ابن حاتم. الغيبة رعى اللئام.

---

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة

وقال الشاعر:

لا تلتمس من مساوئ الناس ما ستروا	فيهتك الله ستراً عن مساويكا
واذكر محاسن ما فيهم إذا ذُكروا	ولا تعب أحداً منهم بما فيكا

وقيل في منثور الحكم: لا تبد من العيوب ما ستره علام الغيوب.

وسئل بعض الحكماء عن صفة اللئيم؟ فقال: اللئيم إذا غاب عاب، وإذا حضر اغتاب وأما النميمة فهي أن تجمع إلى مذمة الغيبة رداءة وشراً، وتضم إلى لؤمها دناءة وغدراً، ثم تئول إلى تقاطع المتواصلين، وتباعد المتقاربين، وتباغض المتحابين.

وأما السعاية فهي شر الثلاثة، لأنها تجمع إلى مذمة الغيبة، ولؤم النميمة، التغرير بالنفوس والأموال، والقدح في المنازل والأحوال.

لذلك قال بعض الحكماء: الساعي بين منزلتين قبيحتين: إما أن يكون قد صدق، فقد خان الأمانة، وإما أن يكون قد كذب فخالف المروءة.

وقال بعضهم: الصدق يزين كل أحد إلا السعاة، فإن الساعي أذم وآثم ما يكون إذا صدق. وقال بعض البلغاء: النميمة دناءة، والسعاية رداءة، وهما رأس الغدر، وأساس الشر، فتجنب سبيلهما، واجتنب أهلهما[1]

يقول أبو منصور الثعالبي:

واعلم أن السعاية نار، وقبولها عار، والعمل بها دناءة، والثقة بها غباوة، وأن الذي يحمل الساعي على سعايته قلة ورع، وشدة طمع، أو طبع، وطلب نفع، فأعرض عن السعاة، وعدهم من جملة العداة، لأنهم يفسدون دينك، ويزيلون حسن يقينك، وينقضون عهدك ونيتك، ويحملونك على اكتساب الآثام، ويعوضونك بدل الشكر المذام[2]

فهكذا أخي الحبيب علمت أن من الصدق المذموم: الغيبة، والنميمة، والسعاية، فعليك باجتناب ذلك، ولقد أحسن القائل:

لهج الناس بالقبيح وهاموا	فالزم البيت واغلق الأبوابا
وإذا ما خرجت تطلب رزقًا	فأكثر الصمت واضمم الأثوابا
فكثير ممن تجالس تلقى	من عيوب الورى لديه عيابا
وإذا ما سألته عن جميل	فيهم لم تجد لديه جوابًا[3]

---

(١) كل هذه الأقوال من أدب الدين والدنيا للماوردي من ص ٣١٩-٣٢١ بتصرف واختصار.

(٢) العقد النفيس ص٦٤

(٣) الأبيات لأبي العباس بن القاسم وقد نقلتها من روضة المؤمنين في أشعار الزهاد والصالحين ١/ ٥٨ للشيخ/ مجدي فتحي السيد ط/ دار الصحابة.

الوصية رقم (٥)
عليكم بالسواك

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبى ﷺ قال: **«عليكم بالسواك، فإنه مطيبة للفم، ومرضاة للرب»**[(١)]

صدق رسول الله ﷺ

• فى رحاب هذه الوصية •

فى هذا الزمان الذى نعيش فيه قلما تجد من يتمسك بسنة النبى ﷺ والسواك من سنة النبى المصطفى، وقد غفل الناس عنه إلا ما رحم ربى، فأحببت أن أذكر نفسى وأذكر إخوانى المؤمنين بأن الشريعة الإسلامية الغراء تساير الحضارة، وتساير الرقى والتقدم، وذلك بما أودعه الله تعالى فى السواك من فوائد سنبينها فى موضعها.

والوصية التى بين أيدينا، والتى قدمها لنا الصحابى الزاهد، بل إمام الزاهدين سيدنا أبو ذر الغفارى، ابتدأت بلفظة **«عليكم»** وهى حرف جر **«على»** دخلت عليه كاف الخطاب، وهى كما يقول أئمة اللغة: أنها اسم فعل أمر. فهى أمر من الرسول ثم بين بعده عاقبة الالتزام به فقال: **«فإنه مطيبة للفم، مرضاة للرب»** فقد وضح أن هذه النتيجة تحتوى على أمرين: أمر طبى، والآخر عقائدى فالأول أنه يطيب الفم، والثانى أنه يرضى الرب تبارك وتعالى، ولا شك أن كل مسلم يحب أن يرضى ربه ومولاه، فهو أحب إليه من كل شىء.

يا رب رضاك خير من الدنيا وما فيها   يا مالك النفس قاصيها ودانيها
فليس للروح آمال تحققها سوى   رضاك فذا أقصى أمانيها
فنظرة منك يا سؤلى ويا أملى   أحب إلىّ من الدنيا وما فيها

وقد وردت هذه الوصية بغير صيغة الأمر فى أكثر من رواية **«السواك مطهرة للفم مرضاة للرب»**[(٢)] وعن على بن أبى طالب، وأبى هريرة رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة»**[(٣)]

---

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده جـ٥/ ٢٧٢ برقم (٥٨٦٥) وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر وقال: وهو فى مجمع الزوائد ١/ ٢٢، وقال: رواه أحمد والطبرانى فى الأوسط، وفيه ابن لهيعة وهو ضعيف وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة رقم ٢٥١٧

(٢) رواه البخارى فى كتاب الصيام باب سواك الرطب واليابس ورواه أحمد فى مسنده (٢٤٠٨٥) وابن ماجه (٨٩) وابن حبان (١٤٣).

(٣) رواه أحمد فى مسنده (٦٠٧) جـ١/ ٤٢٧ بإسناد صحيح وذكره الألبانى فى ص.ج (٥٣١٥).

وعن عروة بن الزبير عن عائشة زوج النبى ﷺ أنه قال: «**فضل الصلاة بالسواك على الصلاة بغير سواك سبعين ضعفًا**»[1] وغير ذلك كما سنبين إن شاء الله تعالى.

• ما هو السواك؟ •

السواك بكسر السين، وهو اسم للعود الذى يستاك به.

والسواك فعلك بالمسواك، ويقال: ساك فمه يسوكه سوكًا. وجمعه: سُوُك بضمتين مثل كتاب وكتب.

وقال صاحب الحاوى: قال الخليل بن أحمد: السواك مأخوذ من الاضطراب والتحرك من قولهم: تساوكت الإبل إذا اضطربت أعناقها من الهزال، وأنشد قول الشاعر:

إلى الله نشكو ما نرى بجيادنا ... تساوك هزلى مخهن قليل

وبعضهم قال: «جاءت الإبل تَسَاوُك» أى تتمايل من الضعف فى مشيتها.

وقال الإمام النووى: ثم قيل: إنَّ هذا السواك مأخوذ من ساك إذا أدلك وهذا هو المعنى اللغوى.

أما فى الشرع فهو: استعمال عود من أراك ونحوه فى الفم، والأراك شجره معروف، يكثر وجوده فى الأودية الصحراوية، ويقل فى الجبال، وأما الأماكن شديدة الحرارة، والمناطق الاستوائية فهى مناخ نمو هذه الشجرة الأمثل، لذلك فهى توجد بكثرة فى المملكة العربية السعودية، والسودان، واليمن، وفى مصر خاصة سيناء والوجه القبلى.

وسواك الأراك هو أفضل أنواع المساويك لما لها من مميزات عديدة، فما هى مميزات استخدام سواك الأراك؟.

• من فوائد استخدام سواك الأراك •

يقول ابن القيم فى كتابه «زاد المعاد»:

«وأصلح ما اتخذ السواك من خشب الأراك ونحوه، ولا ينبغى أن يؤخذ من شجرة مجهولة، فربما كانت سمًّا، وينبغى القصد فى استعماله، فإن بالغ فيه، فربما أذهب طلاوة الأسنان وصقالتها، وهيأها لقبول الأبخرة المتصاعدة من المعدة والأوساخ، ومتى استعمل باعتدال جلى الأسنان، وقوى العمود، وأطلق اللسان، ومنع الحفر، وطيب النكهة، ونقى الدماغ، وشهى الطعام ثم يقول: «زعموا أنه إذا استاك به المستاك كل خامس من الأيام نقى الرأس وصفى الحواس، وأحد الذهن، وفى السواك عدة منافع: يطيب الفم، ويشد اللثة، ويقطع البلغم، ويجلو البصر، ويذهب بالحفر، ويصح المعدة، ويصفى الصوت،

(١) رواه أحمد (٢٦٢١٨) جـ٨/ ١٩٦ بإسناد صحيح وصححه الحاكم ١/ ١٤٦ ووافقه الذهبى على شرط مسلم بهذا الإسناد.

ويعين على هضم الطعام، ويسهل مجارى الكلام، وينشط القراءة والذكر والصلاة ويطرد النوم، ويرضى الرب، ويعجب الملائكة، ويكثر الحسنات»(١)

وقد ذكر القشيرى عن أبى الدرداء رضي الله عنه قال:

«عليكم بالسواك فلا تغفلوه، فإن فى السواك أربعًا وعشرين خصلة، أفضلها: أن يرضى الرحمن، ويصيب السنة، ويضاعف صلاته سبعًا وسبعين ضعفًا، ويورثه السعة والغنى، ويطيب النكهة، ويشد اللثة، ويسكن الصداع، ويذهب وجع الضرس، وتصافحه الملائكة، لنور وجهه وبرق أسنانه. . »(٢)

• الترغيب فى السواك من السنة المطهرة •

وقد وردت أحاديث متعددة تشير إلى فضل السواك، وأهميته فى حياة المسلم الحق ومن هذه الأحاديث ما يأتى:

١- عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«عشرة من الفطرة قص الشارب، وإعفاء اللحية، والسواك، والاستنشاق بالماء، وقص الأظافر، وغسل البراجم، ونتف الإبط، وحلق العانة، وانتقاص الماء»** يعنى الاستنجاء بالماء. قال مصعب [رواية] ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة(٣)

٢- وعنها رضي الله عنها ترفعه: **«ثلاث هن لكم سنة، وعلىَّ فريضة: السواك، والوتر، وقيام الليل»**(٤)

وفى رواية: **«الطهارات أربع: قص الشارب، وحلق العانة، وتقليم الأظافر، والسواك»**(٥)

٣- وعن جابر مرفوعا: **«إذا قام أحدكم من الليل يصلى فليستك، فإنه إذا قام يصلى أتاه ملك، فيضع فاه على فيه، فلا يخرج شىء من فيه إلا وقع فى الملك فطهروا أفواهكم للقرآن»**(٦)

---

(١) زاد المعاد لابن قيم الجوزية جـ٣/ ٢٥٤ ط/ دار الريان.

(٢) تلخيص الحبير لابن حجر ١/ ١١٩ ط/ دار المعرفة وقال بعدها: لا أصل له لا من حديث صحيح، ولا ضعيف.

(٣) رواه أبو داود (٥٣) وحسنه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود ١/ ٢٥ ورواه مسلم وأحمد فى مسنده رقم (٢٤٩٤١).

(٤) رواه أحمد فى مسنده (٥٠ ٢) بإسناد حسن ورواه الحاكم ١/ ١٥٦ والبيهقى فى السنن ١/ ٣٧

(٥) مختصر زوائد المسند (١٢٢٥).

(٦) تلخيص الحبير ١/ ١١٢ وقال ابن حجر رواه أبو نعيم، ورواته ثقات، قال ابن دقيق العيد والحديث روى مرفوعًا وروى موقوفًا ووقفه أصح وقد أخرجه البزار رقم (٤٩٦) وفيه محمد بن زياد وأخرجه البيهقى ٢/ ٣٨

٤- وعن أبى أيوب ﷺ قال: «أربع من سنن المرسلين: الختان، والسواك، والتعطر، والنكاح»(١) وفى رواية لأحمد «والحياء».

٥- وعن على بن أبى طالب مرفوعًا أنه قال: **«إن أفواهكم طرق للقرآن فطهروها بالسواك»**(٢)

٦- وعن عبد الله بن حنظلة بن أبى عامر ﷺ «أن رسول الله ﷺ أمر بالوضوء لكل صلاة طاهرًا أو غير طاهر، فلما شق ذلك عليه أمر بالسواك لكل صلاة»(٣)

٧- وعن ابن عباس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«أمرت بالسواك حتى ظننت أو حسبت أن ينزل فيه قرآن»**(٤)

٨- وعن معاوية، وصفوان بن المعطل، وابن عمر قال كل منهم: «أمرنى رسول الله ﷺ أن لا آتى أهلى فى غرة الهلال، وأن أستن -أى أستاك- كلما قمت من سنتى»(٥)

٩- وعن ابن عمر مرفوعا: **«أرانى أتسوك بسواك، فجاءنى رجلان: أحدهما أكبر من الآخر، فناولت السواك للأصغر منهما، فقيل لى: كبر»**(٦)

• مكانة السواك وأهميته فى حياة الرسول ﷺ •

أخا الإسلام:

لقد كان السواك فى حياة الرسول ﷺ من الأهمية بمكان، ولذلك يقول سيدنا عبد الله بن عباس ﷺ: «كان رسول الله ﷺ يكثر السواك حتى ظننا أو رأينا أنه سَيُنْزَلُ عليه»(٧) حقًا لقد كان للرسول من الأهمية بمكان لأنه يجلس مع أعظم الملائكة، وأرفعهم شأنًا، يجلس مع أمين وحى السماء، يجلس مع روح القدس حين ينزل عليه ليدارسه القرآن أعظم الكتب وأفضلها، فكان الرسول ﷺ لا يدع السواك ليلاً ولا نهارًا، تقول السيدة عائشة ﷺ: «إنَّ النبى ﷺ لا يرقد من ليل ولا نهار، فيستيقظ، إلا تسوك قبل أن يتوضأ»(٨)

---

(١) رواه الترمذى وحسنه (١٠٨٠) وأحمد فى مسنده (٢٣٤٧١) بإسناد حسن ورواه الطبرانى فى الكبير (٤٠٨٥).

(٢) رواه ابن ماجه (٢٩٢) موقوفًا وإسناده ضعيف.

(٣) رواه أبو داود وحسنه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود (٤٨) ورواه الحاكم وقال صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبى.

(٤) رواه أحمد فى مسنده (٢١٢٥) وحسنه الألبانى فى ص.ج رقم (١٣٧٦).

(٥) رواه الطبرانى فى الكبير (٨١١).

(٦) رواه البخارى (٢٤٦) ومسلم (٣٠٠٣) وأبو داود.

(٧) رواه الإمام أحمد فى مسنده بسند صحيح (٢٥٧٣) جـ٣/ ١٦٤

(٨) رواه أبو داود بسند حسنه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود (٥٧) جـ١/ ٢٦

وتقول أيضًا: «إنَّ النبي كان يوضع له وضوؤه وسواكه، فإذا قام من الليل، تخلى ثم استاك»[١] فكان إذا قام ليصلى فى الليل تسوك، قال حذيفة رضي الله عنه: «إن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل، يشوص فاه بالسواك»[٢]

ومعنى يشوص فاه: أى يدلكه بالسواك. وقيل: يغسله.

وكان يستاك إذا أراد أن يقرأ القرآن، فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: بت ليلة عند النبى ﷺ، فلما استيقظ من منامه، أتى طهوره، فأخذ سواكه فاستاك، ثم تلا هذه الآيات: ﴿**إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب..**﴾ حتى ختم السورة[٣]

بل كان يتسوك إذا دخل بيته، ولذلك سئلت السيدة عائشة رضي الله عنها: بأى شىء كان يبدأ النبى ﷺ إذا دخل بيته؟ فقالت: بالسواك[٤].

كان يتسوك عند كل وضوء ويقول: «**لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك عند كل وضوء**»[٥] ولما وجد الصحابة هذا الاهتمام بالسواك من الرسول الأعظم حرصوا هم الآخرون عليه، حتى كانوا يتخذونه فى آذانهم كموضع القلم للكاتب، فعن أبى سلمة قال: «فكان زيد بن خالد الجهنى يشهد الصلوات فى المسجد، وسواكه على أذنه موضع القلم من أذن الكاتب، لا يقوم إلى الصلاة إلا استن ثم رده إلى موضعه»[٦].

• التركيب الكيمائى للسواك وفائدته •

أخا الإسلام:

ولقد اخترت لك هذا العنوان من كتاب «السواك وما أشبه ذاك»[٧] يقول المحقق فى مقدمته لهذا الكتاب:

١- يحتوى على مادة العفص (حمض تينيك) ولهذه المادة تأثير مضاد للتعفنات، كما أنه يعتبر مطهرًا، وله استعمالات مشهورة ضد نزيف الدم.

٢- كما أن هناك مادة فى السواك لها علاقة بالخردل وهى عبارة عن (جليكوزيد) وهذه المادة تساعد على الفتك بالجراثيم.

٣- أن تركيب هذا النبات هو ألياف حاوية على بيكربونات الصوديوم، وهى المادة

---

(١) رواه مسلم وأبو داود (٥٦).
(٢) رواه البيهقى وأبو داود (٥٥).
(٣) رواه مسلم وأبو داود (٥٨).
(٤) رواه مسلم والنسائى وابن ماجه وأبى داود.
(٥) رواه البخارى ومسلم وأحمد.
(٦) رواه الترمذى وقال: حسن صحيح وأبى داود بإسناد صحيح رقم (٤٧) ١/ ٢٣.
(٧) السواك وما أشبه ذاك للحافظ شهاب الدين المقدسى بتحقيق أحمد العيسوى وإبراهيم بن محمد ص١٦، ١٧ ط/ دار الصحابة بطنطا.

مفضلة لاستعمالها فى المعجون السنى (الصناعى) من قبل مجمع معالجة الأسنان التابع لجمعية طب الأسنان الأمريكية، ليستعمل كمادة سنية وحيدة تقى من العضويات المجهرية التى تفرز فى الأسنان.

٤- أن السواك يحتوى على مادة تمنع تسوس الأسنان، ونص على ذلك الدكتور «كينيت كيوديل» أمام المؤتمر الثانى والخمسين للجمعية الدولية لأبحاث الأسنان فى أتلانتا الأمريكية.

٥- ولو نظرنا أيضًا إلى السواك لوجدنا أنه يتكون كيمائيًا من ألياف السيليلوز وبعض الزيوت الطيارة، وبه راتنج عطرى، وأملاح معدنية، ومن أهمها: كلوريد الصوديوم -وهو ملح الطعام- وكلوريد البوتاسيوم، وأكسالات الجير، فلو نظرنا إلى تحليل السواك لوجدنا أنه فرشاة طبيعية قد زودت بأملاح معدنية، ومواد عطرية تساعد على تنظيف الأسنان، أو بمعنى آخر: كأنها فرشاة طبيعية زودها الله تعالى بمسحوق مطهر لتنظيف الأسنان، ومنع تسوسها.

وهذه بعض المكونات:

أ- **أملاح معدنية**:

١- أملاح كبريتات. ٢- كلور.
٣- الفحم. ٤- الصوديوم.
٥- الكبرتوز. ٦- الكالسيوم.
٧- الفوسفات. ٨- الحديد.
٩- السيليس.

ب- **مواد عطرية زيتية**:

وهى مواد زيتية ذات رائحة تشبه رائحة السواك، ونسبة تلك المواد العطرية حوالى ١٪.

ج- **مواد سكرية مختلفة**:

١- النشا. ٢- المواد الصمغية واللعابية.
٣- مواد سكرية بسيطة وجالاكيوز، وسكائر خماسية.

د- **مواد أخرى بالسواك**:

١- النشادر.
٢- حمض قلوى وهى أحماض هيدروكسيلية.

وبهذا يكون تفاعل السواك تفاعلاً قلويًا، ولهذا التفاعل تأثير دوائى هام فكثير من أمراض الفم تغيرها الأوساط القلوية أكثر من الحامضية. ا.هـ. يقول باحثو أمراض الفم

والأسنان: إنَّ السواك يعد أفضل منظف ميكانيكى كفء يقضى على خطر الأفواه الذى يدعى (البلاك).

• السواك فرشاة طبيعية ذات قوة تنظيف ثلاثية •

يقول الدكتور/ كمال على الجمل فى كتابه (السواك بين السنة النبوية والعلم التجريبى الحديث)[1]: قليلون هم الذين يعرفون أن السواك هو فرشاة الأسنان الوحيدة ذات قوة التنظيف الثلاثية ميكانيكية، وكيمائية، وحيوية - فالسواك من الوجهة الميكانيكية -يفيد فى طرح بقايا الطعام الكامنة بين الأسنان، كما يزيل عن سطوحها الأوساخ والصبغات واللطع الجرثومية. ويتفق هذا -كما ذكرنا- مع طبيعة أليافه السليلوزية من حيث القوة والمرونة.

بقى أن نعرف شيئًا عن خواصه الكيميائية، وهى كثيرة ومبهرة منها: أن بالسواك نسبة حسنة من الفلورايد، وهو عنصر حيوى يمنح ميناء الأسنان صلابة، ومقاومة ضد التأثير الحامضى للتسوس.

ومما يستطاب ذكره أن باحثًا فى جامعة (جراتز) النمساوية كان أول من كشف هذه الحقيقة، إذ لاحظ عند تحليله لمادة (البازلت) الصلبة، أن الفلورايد هو العنصر الوحيد الذى تنفرد به عن بقية المواد الأخرى الأقل صلابة.

وهكذا تولدت فى ذهنه نظرية جديدة تقول بإمكانية تقوية الأسنان بواسطة الفلورايد ولم يمض وقت طويل حتى شاعت نظريته، وباتت الدول المتقدمة صحيًا تعتمد هذه الخطة كأسلوب فعَّال فى الوقاية الفمية الشاملة.

وقد دلت دراسات الباحثين على أن أكثر المستفيدين من خطة الفلورايد هم الأطفال، إذ تكون أسنانهم فى مرحلة النمو والتكون، إن ميناء الأسنان الدائمة يتم تكوينه -تقريبًا- فى السنوات الثمانية الأولى من عمر الإنسان، وهذا صحيح، ففى هذه المرحلة يشق الفلورايد طريقه إلى الأسنان قبل النمو، حيث يحل محل ذرات أقل تفاعلية مثل الصوديوم، والبوتاسيوم فى البنية التحتية لميناء الأسنان، وتكون الروابط الذرية التى تشكلها المادة الجديدة أقوى بكثير من روابط العناصر التى حلت محلها، وهو ما يؤدى إلى أن تصبح الأسنان أكثر قوة وصلابة

---

(١) السواك بين السنة النبوية والعلم التجريبى الحديث ص٥٩، ٦٠ بتصرف.

• فرشاة الأسنان والسواك •

وقد جاء هذا الخبر في جريدة الوفد تحت عنوان: (تحذير بريطانى فلورايد الأسنان يصيب بالاكتئاب، وضعف العظام):

«وسط الكم الهائل عن فوائد معاجين الأسنان المصنوعة من مادة (الفلورايد) قامت المراكز الصحية «بلندن» بتنظيم حملة صحية تحذر من استخدام الفلورايد، لأنه يسبب أضرارًا جانبية للأسنان، ويؤدى إلى الإصابة بأمراض ضعف جهاز المناعة، وضعف العظام، وتصلب المفاصل، والإرهاق الدائم والاكتئاب، وأطلقت المراكز على الحملة شعار (لا للفلورايد).

أوضحت المراكز أن استخدام مادة الفلورايد بأزيد من النسبة المسموح بها علميًّا تؤدى إلى ظهور البقع البنية فى أسنان الأطفال، وأشارت المراكز إلى أن حدوث أضرار الفلورايد يكمن فى الكمية المستخدمة وليس فى المادة، وبالنسبة للكبار فتأثير الفلورايد الضار لا يصل إلى الأسنان نظرًا لاكتمال نموها، بل يؤدى إلى ظهور مرض الاكتئاب، وفقدان ليونة العظام نتيجة تراكم مادة الفلورايد عليها، مما يؤدى إلى تصلبها، وسهولة كسرها».

فسبحان من نظم مادة الفلورايد فى هذه الفرشاة الطبيعية «السواك» وجعلها نافعة بقدرته وحكمته وعظمته!!.

فالسواك قد نظم الله تعالى فيه المكونات التى يمكن أن تحافظ على صحة أسنان الفرد، بخلاف المعاجين. يقول الدكتور: «كينيت كيوديل» فى المؤتمر رقم ٥٢ للجمعية الدولية لأبحاث الأسنان فى أتلانتا الأمريكية: «إنه لوحظ أن الذين يستعملون السواك يتمتعون بأسنان سليمة، وأن بعض الشركات فى بريطانيا والهند تصنع معاجين أسنان تدخل بها مواد أخرى مأخوذة من السواك».

أخا الإسلام:

إن فى التجويف الفمى أنواعًا عديدة من البكتيريا، وهذه الأنواع المتعددة لها نظام عجيب، فبعضها لا يمكن أن يستغنى عن الهواء، وبعضها الآخر يتسمم فى وجود أكسجين الهواء، ماذا يفعل الباحثون تجاه هذا الأمر، لقد ابتكروا المعاجين المزودة بالعديد من أنواع المضادات الحيوية، ومع ذلك لم تحدث تأثيرًا نافعًا، حيث عارضها البعض الآخر لما لها من آثار جانبية، وكان من آثارها أن تسببت فى الإخلال بالتوازن الطبيعى لبكتيريا الفم.

وليس هذا فحسب، بل إنها تسببت فى نشوء سلالات بكتيرية مقاومة للمضادات الحيوية، بينما ظهرت معاجين أخرى خالية من المضادات الحيوية غير أنها تحتوى على مركبات معقمة ومبيدة للميكروبات، وهذه هى الأخرى لم تؤت ثمارها لأنها بالبحث وجد أنها تقتل جميع أنواع البكتيريا الفمية سواء كانت هذه البكتيريا ضارة أم كانت نافعة.

لكن إذا كان الأمر كذلك فما هو الحل؟

• السواك هو الحل الوحيد •

أعلنت مجلة أطباء الأسنان الأمريكية لسنة ١٩٠٦م أن أغلبية المعاجين المستعملة فى الولايات المتحدة غير صحية أو طبية، وأن بالمسواك كميات من بلورات السيليس الصلبة التى تعتبر كمادة منظفة تحك القلح عن الأسنان، وهى موجودة بالسواك بنسبة عالية تبلغ ٤ ٪ وكذلك أملاح أخرى لها فاعليتها.

كما عثر المحللون للسواك على أنه يوجد به مادة عضوية كبريتية تدعى «سينجرين». وهى فى لغة الكيمياء - مادة «جليكوزيدية» وهى تتكون من اتحاد زيت الخردل مع سكر الجلوكوز اليمينى، وزيت الخردل هو بيت القصيد، نظرًا لما يتميز به من رائحة حادة وطعم لاذع، وتأثير مطهر قوى، وقدرة عالية على قتل الميكروبات.

فالخلاصة من بحوث العلماء والأطباء تبين أن السواك يقتل البكتيريا الضارة، بينما يُبقى على البكتيريا النافعة، فالسواك منظف كيماوى مستمر، لأن الفرشاة بعد عشرين دقيقة من استعمال معجون الأسنان يعود مقوى الجراثيم للفم لحالته الأولى، أن السواك مزود بألياف طبيعية غزيرة وقوية لا تتكسر تحت الضغط بل هى لينة لتدخل بين الأسنان. إن السواك يسهل حمله فى أى مكان، بينما الفرشاة يتعذر استعمالها فى كل وقت.

• موعظة •

إخوانى:

لقد خلقنا نتقلب فى ستة أسفار، إلى أن يستقر بنا المنزل: السفر الأول: سفر السلالة من الطين، والثانى: سفر النطفة من الصلب، والثالث: من البطون إلى الدنيا، والرابع: من الدنيا إلى القبور، والخامس: من القبور إلى العرض، والسادس: إلى منزل الإقامة، ولقد قطعنا نصف الطريق، وما بعده أصعب.

إخوانى:

السنون مراحل، والشهور فراسخ، والأيام أميال، والأنفاس خطوات، والطاعات رؤوس الأموال، والمعاصى قطاع الطريق، والربح الجنة، والخسران النار، ولهذا الخطب شمر المتقون عن سوق الجد فى سوق المعاملة، كلما رأوا مراكب الحياة تخطف من بحر العمر، فشغلهم هول ما هم فيه عن التنزه فى عجائب البحر، فما كان إلا قليل حتى قدموا من السفر، فاعتنقتهم الراحة فى طريق التلقى، فدخلوا بلد الوصل، وقد حازوا ربح الدهر. أملهم أقصر من فتر، منازلهم أفقر من القبر، نومهم أعز من الوفاء، السهر عندهم أحلى من رقدة الفجر، أخبارهم أرق من نسيم البحر.

نسألك يا إلهى أن تجعلنا من عبادك المتقين.

أنت سؤلى وعصمتى فى حياتى أنت ذخرى وعمدتى فى مماتى
يا عليما بما أكن وأخفى وبما فى بواطن الخطرات
ليس لى مالك سواك فأرجوه لدفع العظائم الموبقات

اللهم اجعلنا من المتقين الأبرار، وأسكنا معهم دار القرار، اللهم وفقنا بحسن الإقبال عليك، ووفقنا للتعاون فى طاعتك، والمبادرة إلى خدمتك، وألهمنا ذكرك وشكرك، واغفر لنا ولوالدينا أجمعين، يا رب العالمين.

الوصية رقم (٦)
اتقوا الظلم

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة**»(١)

صدق رسول الله ﷺ

• فى رحاب هذه الوصية •

أخا الإسلام:

إنك لو تأملت، وتدبرت هذه الوصية لوجدتها على صغر حجمها، وقلة كلامها تحمل معانى سامية، وبلاغة عالية، فقد بدأها الرسول الأعظم ﷺ بأسلوب من أشد الأساليب فى التحذير، بدأها بقوله: «**اتقوا**» أى احذروا، وابتعدوا، واجعلوا بينكم وبين هذا الخلق الرذيل سترًا ووقاية. وفى رواية، جاء أسلوب التحذير مباشرًا فقال ﷺ: «**إياكم والظلم، فإن الظلم ظلمات**»(٢) وفى رواية جمعت بينهما فقال ﷺ: «**اتقوا الله، وإياكم والظلم، فإن الظلم ظلمات**»(٣) وبعد التحذير جاء الأسلوب مؤكدًا بإن التى تفيد التوكيد والتأكيد على أن هذا الأمر يجب التوقى والحذر منه، لشدة خطورته على الفرد والمجتمع.

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٨) والبخارى فى الأدب المفرد رقم (٤٩٠) باب (٢٢٥) الظلم ظلمات ص١٠٦ وأحمد فى مسنده (٦٤٨٧) والخرائطى فى مساوئ الأخلاق (٦٢١) ص٢١٨ والبيهقى فى السنن والحاكم ١/ ٤١٥ وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه وذكره ابن كثير فى التفسير٢/ ٤٤٧ بدون تخريج.

(٢) رواه البخارى فى صحيحه (٦٥٣٤) وفى الأدب المفرد ص١٠٧ وأحمد فى مسنده (٦٨٣٧) عن أبى هريرة.

(٣) رواه الحاكم ١/ ١١ والخرائطى فى المساوئ (٦٢٤) ص٢١٩ وإسناده حسن عن عبد الله بن عمرو.

يقول ابن الجوزى:[١]

الظلم يشتمل على معصيتين: ١-أخذ مال الغير بغير حق.

٢- مبارزة الرب بالمخالفة، والمعصية فيه أشد من غيرها، لأنه لا يقع غالبًا إلا بالضعيف الذى لا يقدر على الانتصار، وإنما ينشأ الظلم عن ظلمة القلب، لأنه لو استنار بنور الهدى لاعتبر، فإذا سعى المتقون بنورهم الذى حصل لهم بسبب التقوى، اكتنف ظلمات الظلم الظالم حيث لا يغنى عنه ظلمه شيئًا.

وقد ذكر الإمام النووى فى شرح مسلم:

وقال القاضى عياض[٢]: هو على ظاهره فيكون ظلمات على صاحبه لا يهتدى يوم القيامة سبيلاً، حتى يسعى نور المؤمنين بين أيديهم وبأيمانهم.

ويحتمل أن الظلمات هنا الشدائد.

ويحتمل أنها عبارة عن الأنكال، والعقوبات.

وهذه الوصية النبوية المباركة قد اشتملت على عنصرين هما من أخطر وأقبح أنواع الصفات الذميمة، اشتملت على: ١- التحذير من الظلم.

٢- التحذير من الشح والبخل. فهما صفتان قبيحتان، ورذيلتان مكروهتان، لأنهما يسببان غضب الجبار، ودخول النار.

فهيا بنا لنتعرف سويًا على هاتين الصفتين الذميمتين لكى نحذر منهما، لنفوز برضوان الله تعالى فى الدنيا والآخرة.

• العنصر الأول •

«إياكم والظلم»

فما هو الظلم؟

الظلم هو: وضع الشىء فى غير موضعه. والظلم. الميل عن القصد.

والعرب تقول: الزم هذا الصواب، ولا تظلم عنه، أى لا تجر عنه.

وتظلم منه: شكا من ظلمه، وتظلم الرجل: أحال الظلم على نفسه، والمتظلم: الذى يشكو رجلاً ظلمه.

والظلمة: هم المانعون أهل الحقوق حقوقهم.

والظلامة: اسم مظلمتك التى تطلبها عند الظالم.

وتظالم القوم: أى ظلم بعضهم بعضًا. هذا معنى الظلم عند أهل اللغة.

لكنه فى الشرع: هو اسم لما أخذ بغير حق شرعى، وهو الانحراف عن العدل.

(١) دليل الفالحين ١/ ٥١٥ وفتح البارى ٥/ ١

(٢) المرجع السابق ١/ ٥١٥ وصحيح مسلم بشرح النووى ١٦/ ١٣٤

• أنواع الظلم •

لقد قسم بعض العلماء الظلم إلى أقسام متعددة منها:

الأول: ظلم بين الإنسان وبين الله تعالى، وأعظمه الكفر والشرك، والنفاق ولذلك قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

والثاني: ظلم بينه وبين الناس، كما في قوله عز وجل: ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠].

والثالث: ظلم بينه وبين نفسه، كما في قوله جل شأنه: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ [فاطر: ٣٢] وأقبح هذه الأنواع الثلاثة وأعظمها إثمًا عند الله تعالى الشرك بالله - أي النوع الأول، وهو الظلم بين الإنسان وبين الله تعالى. لأن الشرك بالله من أكبر الكبائر، وأعظمها عند الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً﴾ [النساء: ١١٦] بل وهذا النوع من الشرك خطير لأن صاحبه يظلم نفسه، ويظلم ربه الذي خلقه فسواه، وسخر له ما في السموات وما في الأرض.

• صور محرمة من الظلم •

لقد وضح لنا القرآن الكريم ألوانًا متعددة، وصورًا مختلفة من صور الظلم المحرم ومن هذه الصور ما يأتي:

١- الصد عن بيوت الله تعالى، ومنع الذكر في المساجد بأداء الصلوات، وقراءة القرآن، ودروس العلم النافع، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُوْلَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٤] والآية وإن كانت قد نزلت كما ذكر المفسرون على اختلافهم، بأنها نزلت في مشركي مكة. لكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

٢- ومنها: كتم الشهادة عند طلبها، قال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٠].

٣- عدم الحكم بما أنزل الله تعالى، وعدم تحكيم الشريعة الإسلامية، قال سبحانه: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥].

٤- التكذيب بآيات الله وكتابه: قال تعالى ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ [الأنعام: ١٥٧] وقال سبحانه: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ [يونس: ١٧].

٥- الإعراض عن آيات الله بعد أن ذُكِّر بها، قال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [السجدة: ٢٢].

٦- أكل أموال اليتامى ظلمًا، قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا**﴾ [النساء: ١٠].

٧- الكذب على الله، والتكذيب بالصدق، قال تعالى: ﴿**فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ**﴾ [الزمر: ٣٢].

٨- من ظلم قيد شبر من أرض، فأخذها بغير حق، فهذا من أشد صور الظلم. فعن طلحة بن عوف قال: أتتنى أروى بنت أويس فى نفر من قريش فيهم عبد الرحمن بن عمرو بن سهل، فقالت: إن سعيد بن زيد قد انتقص من أرضى إلى أرضه ما ليس له، وقد أحببت أن تأتوه، فتكلموه، قال: فركبنا إليه وهو بأرضه بالعقيق، فلما رآنا قال: قد عرفت الذى جاء بكم، وسأحدثكم ما سمعت عن رسول الله ﷺ يقول: «**من أخذ من الله الأرض ما ليس له طوقه إلى السابعة من الأرض يوم القيامة. ومن قتل دون ماله فهو شهيد**» وفى رواية: أنه دعا عليها وقال: «**اللهم إن كانت كاذبة فلا تمتها حتى تعمى بصرها، وتجعل قبرها فى بئرها، فماتت، فكانت قبرها**»[1]

وفى رواية أخرى: «من ظلم قيد شبر من أرض طوقه الله يوم القيامة بسبع أراضين»[2] قال الخطابى فى قوله: (طوقه) وجهان[3]:

أحدهما: أن معناه أنه يكلف نقل ما ظلم منها فى القيامة إلى المحشر، ويكون كالطوق فى عنقه.

الثانى: معناه أنه يعاقب بالخسف إلى سبع أراضين، أى فتكون كل أرض فى تلك الحالة طوقًا فى عنقه. وهذا يؤيده حديث ابن عمر بلفظ «**خسف به يوم القيامة إلى سبع أراضين**» وقيل: معناه كالأول، لكن بعد أن ينقل جميعه يجعله كله فى عنقه طوقًا، ويعظم قدر عنقه حتى يسع ذلك، كما ورد فى غلظ جلد الكافر، ونحو ذلك.

- ويحتمل وهو الوجه الثالث أن المراد بقوله: «**طوقه**» أن يكلف أن يجعله له طوقًا، ولا يستطيع ذلك، فيعذب بذلك، كما جاء فى حق من كذب فى منامه كلف أن يعقد بين شعيرتين.

- ويحتمل - وهو الوجه الرابع - تطويق الإثم، والمراد أن الظلم المذكور لازم له فى عنقه لزوم الإثم، ومنه قوله تعالى: ﴿**أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ**﴾ [الإسراء: ١٣].

---

(١)، (٢) رواه البخارى (٢٤٥٢) ومسلم (١٦١٠) وأحمد رقم (١٦٤٢) ورقم (١٦٤١) والخرائطى فى المساوئ رقم (٦٦٠، ٦٦١، ٦٦٣، ٦٦٤، ٦٦٥)ص٢٣٣-٢٣٦ وأبو نعيم فى حلية الأولياء ١/ ٩٧

(٣) دليل الفالحين جـ١/ ٥٢ وذكره ابن حجر فى فتح البارى.

وبالوجه الأول أبو الفتح القشيرى، وصححه البغوى، ويحتمل أن تتنوع هذه الصفات لصاحب هذه الجناية، أو تتقسم أصحاب هذه الجناية، فيعذب بعضهم بهذا، بحسب قوة المفسدة وضعفها[1]

٩- ومنها: الظلم الحاصل من تقسيم التركة، وخاصة منع حق المرأة أو البنات لأنه سبحانه هو الذى شرع الميراث بنفسه، ووزعه فلم يتركه لنبى ولا لملك، وقد ختم الآية بقوله تعالى بعد أن بين لكل واحد نصيبه: ﴿آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١١].

١٠- ومنها: موالاة الكفار والمشركين، وجعلهم موضع الحب والمودة، فقد ورد النهى عن ذلك قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [التوبة: ٢٣].

• الترهيب من الظلم فى القرآن الكريم •

لقد وردت آيات كثيرة من كتاب الله تبارك وتعالى تحذر من الظلم، وتوضح عاقبته الوخيمة، لأنه فى الدنيا بلاء كبير، وشر مستطير، وفى الآخرة خزى وندامة، قال تعالى: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢] لو علم الظالم أن الله مطلع عليه ما ظلم، ولكنه غفل عن مولاه، ثم لو يعلم أن مرده إلى الله، وأنه سيقف أمام مولاه، وسوف يقتص منه، ما ظلم، وما فكر فى ظلم أحد من العباد.

ولما كان للظلم هذه العاقبة الوخيمة حذر الله تعالى من الركون إلى الظالمين، فقال سبحانه: ﴿وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣] أى: لا تميلوا كل الميل فى المحبة، ولين الكلام والمودة. وقيل معناها: لا ترضوا بأعمالهم.

وقال سبحانه يحذر من عاقبته يوم القيامة: ﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: ٥٢] فعذرهم يوم القيامة غير مقبول. ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧] وفديتهم غير مقبولة ولو كان ما فى الأرض جميعًا، قال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ﴾ [الزمر ٤٧].

ويوضح مرة أخرى أن الظالمين لن ينفعهم عذرهم مهما كان، فيقول: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الروم: ٥٧].

---

(١) دليل الفالحين شرح رياض الصالحين جـ١/ ٥٢، ٥٢١.

ولو تتبعنا آيات الظلم فى القرآن الكريم لطال بنا المقام لأن مادة (ظ ل م) بجميع مشتقاتها فى القرآن الكريم ذكرت فى ثلثمائة وخمسة عشر موضعًا فى القرآن فى ثمان وخمسين سورة.

• الترهيب من الظلم من السنة المطهرة •

أخا الإسلام:

هيا بنا لنذهب إلى المنهل العذب المورود، إلى نبى الملك المعبود، لنذهب إلى أستاذ البشرية، ومعلم الإنسانية محمد ﷺ، تعالوا لنسأله، **فنقول له: سيدى يا رسول الله،** يا صاحب المقام المحمود، والحوض المورود، ما قولك فى الظلم وأهله؟ فيقول الرسول الأعظم، والنبى الأكرم مجيبًا على سؤالنا بحديث قدسى يرويه لنا عن رب العزة تبارك وتعالى، وينقله عن النبى الأكرم صاحبه الجليل: سيدنا أبو ذر الغفارى رضي الله عنه، **فيقول:** **«يا عبادى: إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا، يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدونى أهدكم، يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعمونى أطعمكم، يا عبادى كلكم عار إلا من كسوته، فاستكسونى أكسكم، يا عبادى: إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعًا، فاستغفرونى أغفر لكم...»**[1]

يقول ابن القيم -رحمه الله-:

تحريم الله الفعل على نفسه يستلزم عدم وقوعه، ثم قال: وإذا كان معقولاً من الإنسان أن يأمر نفسه وينهاها كما قال تعالى: ﴿**إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ**﴾ [يوسف: ٥٣] وكما قال: ﴿**وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى**﴾ [النازعات: ٤٠] مع كونه تحت أمر غيره، فالآمر الناهى الذى ليس فوقه آمر، ولا ناهٍ كيف يستحيل فى حقه أن يحرم على نفسه، أو يكتب عليها، فيحرم على نفسه بنفسه، ويكتب على نفسه، ولا يلتفت إلى ما قيل فى ذلك من التأويلات الباطلة، اهـ ملخصًا[2]

ومعنى «وجعلته بينكم محرمًا» أى حكمت بتحريمه عليكم. وهذا مجمع عليه فى كل ملة لاتفاق سائر الملل فى مراعاة: حفظ الأنفس، فالأنساب، فالأعراض، فالعقول، فالأموال. والظلم قد يقع فى هذه أو بعضها.

وتأمل أخى المسلم، قوله: **«يا عبادى»** وكلنا عبيد لله رب العالمين، فالنداء شامل للأحرار وشامل للأرقاء، ولجميع الخلق من العقلاء. فالظلم محرم فى كل الشرائع والملل.

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧) وأحمد فى مسنده (٢١٢٦٤) بدون الظلم والبخارى فى الأدب المفرد (٤٩٧) ص١٠٨ والترمذى (٢٤٩٥) وابن ماجه (٤٢٥٧).

(٢) دليل الفالحين لابن علان ١/ ٣٢٥

ثم بعد أن توقفنا مع هذا الهدى الربانى، نقول: يا رسول الله، إذا كان ربنا حرم الظلم على نفسه، وحرمه على عباده، فلماذا نرى كثيرًا من البشر يظلمون بعضهم بعضًا؟

فيجيبنا الرسول المصطفى على لسان سيدنا أبى موسى الأشعرى ﷺ فيقول:

- قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله يملى للظالم، فإذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢] ومعنى يملى للظالم: أى يمهله ولا يعاجله بالعقوبة.

ومعنى إذا أخذه لم يفلته: أى إذا أهلكه لا يرفع عنه الهلاك أبدا.

فقلنا: يا رسول الله، بماذا تنصح أمتك فى الدنيا بخصوص الظلم؟ فيقول ﷺ فيما يرويه عنه أبو هريرة ﷺ فيقول: **«من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه أو من شىء، فليتحلله منه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح، أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات، أخذ من سيئات صاحبه، فحمل عليه»**[1].

فيا من زلت قدمه بظلم أخيه المسلم فى الدنيا بادر إليه، واطلب منه أن يسامحك وتحلل من مظلمتك فى الدنيا قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، وإنما يكون التعامل هناك، والعملة الصعبة فى يوم القيامة هى الحسنات والسيئات. أتدرى لماذا؟ لأننا سنكون حفاة عراة، لا نملك شيئًا، ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩] فاستبرأ ذمتك فى الدنيا قبل الآخرة.

ولذلك يقول النبى ﷺ فيما يرويه عنه جابر بن عبد الله ﷺ: **«يحشر الله العباد - أو قال الناس- وأومأ بيده إلى الشام عراة غرلاً بهمًا** قلت: ما بهمًا؟ قال: **ليس معهم شىء»**.

قال: **«فيناديهم بصوت يسمعه من بَعُد، كما يسمعه من قَرُب: أنا الملك، أنا الديان، لا ينبغى لأحد من أهل النار أن يدخل النار، وأحد من أهل الجنة يطلبه بمظلمة، ولا ينبغى لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة، وأحد من أهل النار يطلبه بمظلمة، حتى اللطمة» قلنا: وكيف، وإنما يأتون عراة غرلاً بهمًا؟»**.

قال: **«بالحسنات والسيئات»**[2] فهذا الهدى النبوى الشريف يصور مشهدًا عظيمًا من مشاهد يوم القيامة، وهو مشهد القصاص بين الخلائق، مما يجعل المسلم يخاف الوقوع فى

(١) رواه البخارى وأحمد (٩٥٨١) والبيهقى فى سننه، والخرائطى فى المساوئ (٦٢) ص٢١٨

(٢) رواه أحمد فى مسنده (١٥٩٨٧) والبخارى فى الأدب المفرد رقم (٩٩٩) ص٢٠٩ ورواه الحاكم وصححه وأقره الذهبى وهذا حديث صحيح.

هذه الرذيلة الوخيمة، ولذلك يقول النبى ﷺ: «**لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء**»(١)

ثم نتوجه بهذا السؤال لأستاذ البشرية سيدنا محمد ﷺ فنقول: يا رسول الله، ما بالنا إذا رأينا الظلمة ولم نقف فى وجوههم؟.

وإذ بالإجابة الوافية ينقلها لنا عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**إذا رأيتم أمتى تهاب الظالم، لا يقولون للظالم أنت ظالم، فقد تُودِّع منهم**»(٢) وأصل تُودِّع من التوديع وهو الترك، فلو تركوا ذلك لكان ذلك أمارة الخسران، وحق عليهم غضب الرحمن، فكأنهم إذا وصلوا لهذا الحد من ترك الوقوف فى وجوه الظلمة صار وجودهم كعدمه.

ثم قبل أن نفارق السنة المطهرة، نتوجه بهذا السؤال الأخير إلى فقيه الإنسانية ﷺ فنقول: يا خير خلق الله، ماذا لو كان الشىء الذى ظُلم فيه المظلوم شيئًا يسيرًا؟

وإذ بسيدنا أبى أمامة رضي الله عنه ينقل لنا هذا الحديث على جناح السرعة فيقول: قال رسول الله ﷺ: «**من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة، فقال: وإن كان شيئًا يسيرًا يا رسول الله؟ فقال: وإن كان قضيبًا من أراك**»(٣) وهذا الوعيد لمن مات قبل التوبة، ورد الظلامة، أما من تاب توبة صحيحة، فندم على فعله، وردَّ الحق لصاحبه فقد سقط عنه الإثم.

والمسلم الحق لا يظلم أخاه المسلم، قال ﷺ: «**المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة**»(٤).

• السلف الصالح يحذرون من الظلم •

وها هو سلفنا الصالح رضوان الله عليهم يحذرون الأمة الإسلامية من الوقوع فى الظلم؛ فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «**من أعان ظالمًا على ظلمه، أو لقنه حجة يدحض بها حق امرئ مسلم، فقد باء بغضب من الله تعالى، وعليه وزرها**»(٥).

---

(١) رواه مسلم والبخارى فى الأدب المفرد رقم (١٨٢) ص٤٨.

(٢) رواه الإمام أحمد فى مسنده بإسناد صححه الشيخ أحمد شاكر (٦٥٢١) جـ٦/٨٦، وقال رواه الحاكم فى المستدرك وقال: حديث صحيح ولم يخرجاه ووافقه الذهبى ٤/٩٦ وذكره الخرائطى فى المساوئ (٦٥٠).

(٣) رواه مسلم وأحمد (٢٢١٤) والنسائى وابن ماجه.

(٤) رواه البخارى ومسلم وأحمد.

(٥) تنبيه الغافلين للسمرقندى ص٢٩٥

وقال ميمون بن مهران -رحمه الله- فى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ [إبراهيم: ٤٢] قال: «تعزية للمظلوم، ووعيد للظالم»[١]

وقال أيضًا: إنَّ الرجل إذا ظلم إنسانًا، فأراد أن يتحلل من مظلمته، ففاته ولم يقدر عليه، فاستغفر الله له فى دبر صلاته خرج من مظلمته»[٢].

وقال أيضًا: إنَّ الرجل يقرأ القرآن، وهو يلعن نفسه. قيل له: وكيف يلعن نفسه: قال: يقول: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨] وهو ظالم[٣]

وعن سعيد بن المسيب -رحمه الله- قال:

احتبس سليمان بن داود -عليهما السلام- ثلاثة أيام، لا يخرج إلى الناس، فأوحى الله تعالى إليه: إنك جلست ثلاثة أيام لا تخرج إلى الناس، فتنصف مظلومًا من ظالم»[٤].

وعن أسماء بنت عميس ؓ قالت:

إن جعفر بن أبى طالب ؓ جاءها إذ هم بأرض الحبشة، وهو يبكى، فقالت له: ما شأنك؟ فقال: رأيت شابًّا جسيمًا مترفًا من الحبشة، مرَّ على امرأة، فطرح دقيقًا كان معا، فسفته الريح، فقالت المرأة: «أكلك إلى يوم يجلس الملك فيه على الكرسى، فيأخذ للمظلوم من الظالم»[٥]

وسئل أبو القاسم الحكيم: هل من ذنب ينزع الإيمان من العبد؟ قال: نعم.

ثلاثة أشياء تنزع الإيمان من العبد:-

أولها: ترك الشكر على الإسلام.

ثانيها: ترك الخوف على ذهاب الإسلام.

ثالثها: الظلم على أهل الإسلام[٦]

وقال سفيان الثورى -رحمه الله-: إن لقيت الله تعالى بسبعين ذنبًا فيما بينك وبين الله، أهون عليك من أن تلقاه بذنب واحد فيما بينك وبين العباد[٧]

وجاء رجل إلى سفيان الثورى -رحمه الله- فقال: إنى رجل أخيط ثياب السلطان، هل أنا من أعوان الظلمة؟ فقال سفيان: بل أنت من الظلمة أنفسهم، ولكن أعوان الظلمة من يبيع منك الإبرة والخيوط[٨]

---

(١) حلية الأولياء لأبى نعيم ٤/٨٣، ٨٤ والمساوئ للخرائطى (٦٢٧) ص٢٢٠

(٢) تنبيه الغافلين ص٢٩٥ (٣) المرجع السابق.

(٤) المساوئ للخرائطى (٦٢٩) وإسناده ضعيف كما ذكره الشيخ مجدى فتحى السيد محققه.

(٥) المرجع السابق (٦٢٥) ص٢١٩ وإسناده ضعيف ذكره الشيخ مجدى فتحى السيد محققه.

(٦) تنبيه الغافلين ص٢٩٧ (٧) تنبيه الغافلين ص٢٩٧

(٨) الكبائر ص١٢٢ وذكره ابن حجر الهيثمى فى الزواجر ٢/٢٦٩

وكان بعض السلف يقول: «لا تظلم الضعفاء فتكون من أشرار الأقوياء»[١].

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: إنَّ الحبارى لتموت فى وكرها هزالاً من الظالم[٢]

وقيل: مكتوب فى التوراة: «ينادى مناد من وراء الجسر -يعنى الصراط- يا معشر الجبابرة الطغاة، ويا معشر المترفين الأشقياء، إنَّ الله يحلف بعزته وجلاله أن لا يجاوز هذا الجسر اليوم ظالم»[٣].

وقال أحد السلف: «اذكر عند الظلم عدل الله فيك، وعند القدرة قدرة الله عليك، لا يعجبك رحب الذراعين سفاك الدماء، فإن له قاتلاً لا يموت»[٤].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «يؤخذ بيد العبد أو الأمة يوم القيامة، فينادى به على رءوس الخلائق هذا فلان ابن فلان، من كان له عليه حق، فليأت إلى حقه، قال: فتفرح المرأة أن يكون لها حق على أبيها، أو أخيها، أو زوجها ثم قرأ ﴿فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١] قال: فيغفر الله من حقه ما شاء، ولا يغفر من حقوق الناس شيئًا، فينصب العبد للناس، ثم يقول الله تعالى لأصحاب الحقوق: ائتوا إلى حقوقكم. قال: فيقول الله تعالى للملائكة: خذوا من أعماله الصالحة، فأعطوا كل ذى حق حقه بقدر طلبته، فإن كان وليًا لله وفضل له مثقال ذرة، ضاعفها الله له حتى يدخله الجنة بها، وإن كان عبدًا شقيًا، ولم يفضل له شىء، فتقول الملائكة: ربنا فنيت حسناته وبقى طالبوه، فيقول الله: خذوا من سيئاتهم فأضيفوها إلى سيئاته، ثم صُكَّ صكًا إلى النار»[٥].

وقال مكحول الشامى الدمشقى: ينادى منادٍ يوم القيامة أين الظلمة وأعوانهم؟ فما يبقى أحد مدَّ له حبرًا، أو حبر لهم دواءة، أو برى لهم قلمًا، فما فوق ذلك إلا حضر معهم، فيجمعون فى تابوت من نار، فيلقون فى جهنم[٦]

وقال سعيد بن المسيب: لا تملأوا أعينكم من أعوان الظلمة إلا بإنكار من قلوبكم لئلا تحبط أعمالكم الصالحة[٧]

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدراً ... فالظلم يرجع عقباه إلى الندم
تنام عيناك والمظلوم منتبه ... يدعو عليك وعين الله لم تنم

---

(١): (٣) المصدر السابق ص١١٤

(٤) المستطرف فى كل فن مستظرف.

(٥) الكبائر ص١١٩ وقال محققه: (السيد العربى) حسن رواه ابن جرير الطبرى فى تفسيره ٥/٥٧، ٥٨ وابن أبى الدنيا فى كتاب الأهوال (٢٤٩) وعزاه ابن كثير فى تفسيره إلى ابن أبى حاتم...

(٦) الكبائر للذهبى ص١٢٢ والزواجر لابن حجر الهيثمى ٢/٢٦٩ والمستطرف ص١٢٢

(٧) المرجع السابق وحلية الأولياء ٨/٥٧.

• جزاء الظالمين فى الدنيا والآخرة •

أخى المسلم:

وبالنظر فى آيات الذكر الحكيم، والتدبر فى آيات القرآن الكريم، يتبين أنَّ الله تعالى قد عاقب الظالمين بعقوبتين: إحداهما: فى الدنيا - والثانية: فى الآخرة.

والعقوبة الدنيوية تنقسم إلى قسمين: عقوبة حسية، وأخرى معنوية فمن العقوبات الدنيوية الحسية ما يأتى:

١- أن الله سبحانه وتعالى يخرب بيوتهم، ويمحق البركة من أموالهم وأرزاقهم، قال سبحانه: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٥٢].

أى خالية عن أهلها خرابًا ليس بها ساكن، وهذا فى قصة قوم صالح الذين ظلموا أنفسهم بعدم الإيمان بالله تعالى ربًّا، وبصالح نبيًّا ورسولاً وظلموا أنفسهم بقتل ناقة صالح عليه السلام.

٢- أن الله تعالى يهلك الظالمين، ويدمرهم، ويهلكهم: قال سبحانه: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ [إبراهيم: ١٣] وقال تعالى: ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٤٧] وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ [يونس: ١٣].

وفى ختام أعمارهم، ونهاية حياتهم الدنيوية، يعاقبهم الله تعالى قبل مفارقة هذه الحياة عقابًا حسيًّا، فيشدد عليهم سكرات الموت، ويعذبهم تعذيبًا بالغًا يبلغ بهم درجة النهاية فى الإيلام والشدة. قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣] قال ابن عباس: ملائكة العذاب باسطو أيديهم يضربونهم ويعذبونهم. فكأنه سبحانه يريد أن يقول مخبرًا عن حال الظلمة حين خروج أرواحهم: ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت -أى شدته- وعند نزول الموت بهم فى الدنيا، والملائكة باسطو أيديهم لقبض أرواحهم يقولون لهم: أخرجوا أنفسكم من هذه الشدائد وخلصوها من هذه الآفات[1]

وهناك عقوبة معنوية فى الدنيا للظالمين، وهى عدم محبة الله تعالى لهم، وكفى بذلك عقوبة، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٧] ومرة يزيد الأمر توكيدًا بإن فيقول: ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠].

(١) تفسير الفخر الرازى جـ١٢/ ٤٣٨، ٤٣٩.

ومنها: عدم هدايتهم إلى طريق الفلاح والنجاح.

قال تعالى فى أكثر من موضع[1]: ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨] وبأسلوب التوكيد: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٤، والأحقاف: ١٠، والقصص: ٥٠].

ومنها: أن الله لعنهم وطردهم من رحمته: قال تعالى: ﴿أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨].

أما العقوبة الأخروية للظالمين: فهى عقوبة معنوية، وأخرى حسية أيضًا، فمن العقوبات المعنوية أنه سبحانه وتعالى أخبرهم فى الدنيا بعدم فلاحهم فى الآخرة. قال تعالى فى عدة مواضع[2]: ﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١].

ومنها: أن أعوانهم من الظلمة وغيرهم يتخلون عنهم، ويتركونهم ولو كانوا أقرب الناس إليهم، كما أخبر سبحانه في غير موضع: ﴿وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾ [الشورى: ٨] وفى سورة الحج: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [سورة الحج: ٧١] وبصيغة الجمع: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [البقرة: ٢٧٠] وفى سورة فاطر ﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧] وفى سورة غافر ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

وأما عقوبتهم الحسية والمادية، فتأتى فى القرآن الكريم تارة مجملة، وتارة مفصلة، فقد جاءت مجملة فى عدة مواضع منها: قال تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفرقان: ٣٧] وقال: ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: ٢١، إبراهيم: ٢٢] وقال: ﴿أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ [الشورى: ٤٥].

وأما التفصيل ففى قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩] فياله من عذاب، وياله من عقاب صارم.

أخى المسلم:

إن كنت قد ظلمت فبادر بالتوبة، بادر برد المظالم إلى أهلها، فإن عقوبة الظلم وخيمة، وإياكم والظلم، فهو ظلمات يوم القيامة، ظلمات فى ظلمات إذا أخرج الظالم يدها لم يكد يراها، بل تأمل عذاب الظالمين بشيء من التفصيل فى سورة إبراهيم ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ

---

(١) سورة التوبة (٩ ١) والصف (٧) والجمعة (٥) وغيرهم (والله لا يهدى القوم الظالمين).

(٢) سورة الأنعام أيضًا (١٣٥) وفى القصص (٣٧) وفى يوسف (٢٣) (إنه لا يفلح الظالمون).

فيقولُ الَّذينَ ظَلَمُوا ربَّنا أَخِّرْنا إلَىٰ أَجلٍ قَرِيبٍ نُّجبْ دعْوتَك ونَتَّبِعِ الرُّسُل.. ﴾ ثم يقول: ﴿وتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وجُوهَهُمُ النَّار.. ﴾ [إبراهيم: ٤٢: ٥٠] لقد سماهم مجرمين. وهل بعد الظلم إجرام؟! قال بعض العارفين: رأيت فى المنام رجلاً ممن كان يخدم الظلمة بعد موته بمدة فى حالة قبيحة فقلت له: ما حالك؟ قال: شر حال. فقلت: إلى أين صرت؟ قال: إلى عذاب الله. قلت: فما حال الظلمة عنده؟ قال: شر حال: أما سمعت قوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢٧][1]

فخف القصاص غداً إذا وفيت ما	كسبت يداك اليوم بالقسطاس
فى موقف ما فيه إلا شاخص	أو مهطع أو مقنع للراس
أعضاؤهم فيه الشهود وسجنهم	نار وحاكمهم شديد البأس
أن تمطل اليوم الحقوق مع الغنى	فغداً تؤديها مع الإفلاس[2]

فتوهم نفسك وأنت فى موقف القضاء، وقد حشر الناس لرب العالمين، وينادى عليك وسط هذا الجمع ويقال لك: يا ظالم تقدم. أيها الظالم تقدم.

ماذا سيكون حالك وموقفك ساعتها؟!.

• إن فى ذلك لعبرة •

أخا الاسلام:

وبعدما وقفت بك على خطر الظلم وعقوبته الحسية والمعنوية فى الدنيا والآخرة، فهيا لنعيش لحظات نتذكر فيها بعضًا من أحوال الظالمين، ليعتبر كل مؤمن، وليعلم كل مسلم أن البر لا يبلى، والذنب لا ينسى، وأن الديان لا يموت، وأنه كما تدين تدان. فعن وهب بن منبه قال: بنى جبار من الجبابرة قصرًا وشيده، فجاءت عجوز فقيرة، فبنت إلى جانبه كوخًا تأوى إليه، فركب الجبار وطاف يومًا حول القصر، فرأى الكوخ، فقال: لمن هذا؟ فقيل: لامرأة فقيرة تأوى إليه، فأمر به فهدم، فجاءت العجوز، فرأته مهدومًا، فقالت: من هدمه؟ فقيل: الملك رآه فهدمه، فرفعت العجوز رأسها إلى السماء، وقالت: يارب، إذا لم أكن أنا حاضرة فأين كنت أنت؟ فأمر الله جبريل عليه السلام أن يقلب القصر على من فيه فقلبه[3]

وقيل: إنه رُئى مكتوبًا على حجر من أحجار القصر:

أتهزأ بالدعاء وتزدريه	وما يدريك ما صنع الدعاء
سهام الليل لا تخطئ ولكن	لها أمد وللأمد انقضاء
وقد شاء الله بما تراه	فما للملك عندكمو بقاء[4]

(١) الكبائر للذهبى ص١٢٤ والزواجر لابن حجر الهيثمى ٢/ ٢٧ (٢) الكبائر للذهبى ص١٨
(٣) ذكره ابن حجر الهيثمى فى الزواجر ٢/ ٢٦٦ والذهبى فى الكبائر ص١١٦ (٤) المستطرف ص١٢١

ولذلك فإن خالد البرمكى لما حبس هو وولده، قال له ولده: «يا أبتى بعد العز صرنا فى القيد والحبس، فقال: يا بنى، دعوة المظلوم سرت بليل، غفلنا عنها، ولم يغفل الله عنها»(١)

وحبس الرشيد أبا العتاهية الشاعر، فكتب إليه من السجن هذين البيتين:

أما والله إنَّ الظلم شؤم ... ومازال المسىء هو المظلوم
ستعلم يا ظلوم إذا التقينا ... غدا عند المليك من الملوم(٢)

وقال بعضهم: رأيت رجلاً مقطوع اليد من الكتف، وهو ينادى، من رآنى فلا يظلمن أحدًا، فتقدمت إليه، فقلت له: يا أخى ما قصتك؟ قال: يا أخى قصة عجيبة، وذلك أنى كنت من أعوان الظلمة، فرأيت يومًا صيادًا، وقد اصطاد سمكة كبيرة، فأعجبتنى، فجئت إليه، فقلت: أعطنى هذه السمكة، فقال: لا أعطيكها، أنا آخذ بثمنها قوتًا لعيالى، فضربته وأخذتها منه قهرًا، ومضيت بها. قال: فبينما أنا أمشى بها حاملها إذ عضت علىَّ إبهامى عضة قوية فلما جئت بها إلى بيتى، ضربت علىَّ إبهامى، وآلمتنى ألمًا شديدًا حتى لم أنم من شدة الوجع والألم، وورمت يدى، فأشار الطبيب بقطع يدى حتى لا يتسرب السم إلى الذراع، فقطعتها، لكنى لم أجد الراحة، فأشار الطبيب بقطع ساعدى حتى لا تتسرب الأكلة إلى جسدى، حتى أشار علىَّ بعض الناس وقال: ما سبب ألمك؟ فذكرت قصة السمكة، فقال لى: لو كنت رجعت عندما أصابك الألم فى أول الأمر إلى صاحب السمكة، واستحللت منه، وأرضيته ما قطعت شيئًا، فاذهب إليه واطلب منه رضاه، قبل أن يسير الألم إلى بدنك. ولم أزل أطلبه حتى وجدته، فوقعت على رجليه أقبلها وأبكى، وقلت له: يا سيدى سألتك بالله إلا عفوت عنى، فقال لى: ومن أنت؟ قلت: أنا الذى أخذت منك السمكة غصبًا، وذكرت ما جرى لى، وأريته يدى، فبكى حين رآها. فعفا عنى، ثم قلت له: يا سيدى ماذا قلت فى حين أخذتها؟ قال: قلت: اللهم إن هذا أظهر علىَّ قوته، فأرنى فيه قوتك وقدرتك يا قوى يا متين(٣)

وهذا أحد الظلمة الجبابرة «الحجاج بن يوسف الثقفى» وقد حدث يومًا أن قبض على رجل من آل بيت رسول الله ﷺ، وأمر بتعذيبه حتى يرجع عن حبه لعلىٍّ بن أبى طالب ﷺ. ويعترف لبنى أمية بالحب والولاء، فكتب إليه العلوى من سجنه رسالة مريرة، يذكره

---

(١) الكبائر ص١١٦ للذهبى والزواجر للهيثمى ٢/ ٢٦٦

(٢) المرجع السابق وبنحوه فى المستطرف ص١٢١ ط التوفيقية.

(٣) الكبائر للذهبى ص١٢٤ والزواجر لابن حجر الهيثمى ٢/ ٢٧، وسمير الصالحين للشهاوى ١/ ١٨٩ والمستطرف ص١٢٢

فيه هول القيامة، ومصير الظالمين، كتب إليه يقول: «من أحد المؤمنين المتقين، إلى زعيم المتقين، وإمام الظالمين، الحجاج بن يوسف لا سلم الله عليك، ولا أكرمك ولا حياك ولا رعاك. أما بعد:

فإني أقول لك: إننا آل بيت نطيع الله ونعبده ونخشاه، ونتقيه وقد مضى من بؤسنا أيام، ومن نعيمك أيام، والموعد القيامة، والسجن جهنم، والحاكم الله، والشهود الجوارح والأعضاء، ﴿وإن الظالمين لهم عذاب أليم﴾ فلما قرأ الحجاج رسالته اشتد غضبه، وامتعض وجهه، وأمر جنوده الظالمين، أن يضاعفوا له الحسنات حتى يموت[1] ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ [النازعات: ٢٦].

• احذر دعوة المظلوم •

أخا الإسلام:

احذر دعوة المظلوم لأن النبي الأكرم ﷺ قد حذرنا، وخوفنا من دعوة المظلوم، فقال النبي ﷺ: فيما يرويه عنه محدث هذه الأمة أبو هريرة رضي الله عنه قال: «**ثلاثة لا ترد دعوتهم: الصائم حتى يفطر، والإمام العادل، ودعوة المظلوم، يرفعها الله فوق الغمام، ويقول لها الرب: وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين**»[2]

وفي رواية أخرى: «**دعوة المسافر، ودعوة الوالد، ودعوة المظلوم**»[3]

فكثير من الناس يستهينون بالمظلوم، وينسون يومًا يأخذ فيه الله من المظلوم للظالم. ولذلك يقول سيدنا أبو الدرداء رضي الله عنه إياك ودمعة اليتيم، ودعوة المظلوم، فإنها تسري بالليل والناس نيام[4]

ولما بعث الرسول الأعظم ﷺ معاذًا بن جبل رضي الله عنه إلى اليمن قال: «**إياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنها ليس بينها وبين الله حجاب**»[5] واهتمام الرسول بالتحذير من الظلم، ودعوة المظلوم جعلت الخلفاء الراشدين والصحابة الأكرمين يحذرون أتباعهم من

---

(١) سمير الصالحين للشهاوي ١/ ١٩٥

(٢) رواه الترمذي (٣٥٩٢) والخرائطي في مساوئ الأخلاق (٦١٨) ص٢١٧ وقال الشيخ مجدي فتحي السيد محققه: صحيح. وإسناده لا بأس به ورواه ابن ماجه (١٧٥٢) وابن حبان، والبغوي (١٣٩٥).

(٣) رواه أبو داود وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (١٥٣٦) ورواه أحمد والترمذي والبخاري في الأدب المفرد.

(٤) المستطرف ص١٢١

(٥) رواه البخاري ومسلم.

دعوة المظلوم. فقد ثبت أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان له خادم يقال له «هنيًّا» وقد جعله خادمًا لرعاية إبل الصدقة وأوصاه قائلاً: «يا هُنَيُّ» اضمم جناحك عن المسلمين، واتق دعوة المسلمين، فإن دعوة المظلوم مجابة»[(١)] ومعنى «اضمم جناحك» أي اكفف يدك عن ظلمهم.

ولقد قال أحد الشعراء في هذا المعنى:

توق دعا المظلوم إن دعاءه	ليرفع فوق السحب ثم يجاب
توق دعا من ليس بين دعائه	وبين إله العالمين حجاب
ولا تحسبن الله مطرحًا له	ولا أنه يخفى عليه خطاب
فقد صح أن الله قال وعزتي	لأنصرن المظلوم وهو مثاب
ومن لم يصدق ذا الحديث فإنه	جهول وإلا عقله فمصاب[(٢)]

وكان معاوية بن أبي سفيان يقولك «إني لأستحي أن أظلم من لا يجد عليَّ ناصرًا إلا الله تعالى»[(٣)]

وقال أبو العيناء: كان لي خصوم ظلمة فشكوتهم إلى أحمد بن أبي داود، وقلت: قد تضافروا عليّ، وصاروا يدًا واحدة، فقال: ﴿يد الله فوق أيديهم﴾ فقلت له: إنَّ لهم مكرًا، فقال: ﴿ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله﴾ قلت: هم فئة كثيرة فقال: ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله﴾[(٤)]

نادى رجل سليمان بن عبد الملك، وهو على المنبر، يا سليمان اذكر يوم الأذان فنزل سليمان من على المنبر، ودعا بالرجل، فقال له: ما يوم الأذان؟. فقال: قال الله تعالى: ﴿فَأَذَّن مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[(٥)] [الأعراف: ٤٤].

• موعظة •

يقول ابن الجوزي:

أما سمعتم منادي ﴿وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا﴾ [الكهف: ٥٩] أما ينذركم إعلام ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة﴾ [هود: ١٠٢] أما يفصم عرى عزائمكم ﴿وكم قصمنا من قرية﴾ [الأنبياء: ١١] أما يقصر من قصوركم ﴿وبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥] أما سمعتم هاتف العبر ينادي: ﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجهاد باب: إذا أسلم قوم في دار الحرب ومالك في الموطأ كتاب دعوة المظلوم ٢/ ٣٨٩.

(٢) الكبائر للذهبي ص١١٨ (٣: ٥) المستطرف ص١٢٠، ١٢١

يا هذا ظلمك لنفسك غاية فى القبح، ألا إن ظلمك لغيرك أقبح، ويلك إن لم تنفع أخاك فلا تؤذه، وإن لم تعطه فلا تأخذ منه، لا تشابهن الحية، فإنها تأتى إلى الموضع الذى قد حفره وغيرها فتسكنه، ولا تتمثلن بالعقاب فى الحيوانات أخيار وأشرار كبنى آدم، فالتقط خير الخلال، وخل خسيسها(١)

الويل لأهل الظلم من ثقل الأوزار، ذكرهم بالقبائح قد ملأ الأقطار، يكفيهم أنهم قد وسموا بالأشرار، ذهبت لذاتهم بما ظلموا وبقى العار، وداروا إلى دار العقاب وملك غيرهم الدار، وخلوا بالعذاب فى بطون تلك الأحجار، فلا مغيث ولا أنيس، ولا رفيق ولا جار، ولا راحة لهم ولا سكون ولا مزار، سألت دموع أسفهم على مسلفهم كالأنهار، شيدوا بنيان الأمل، فإذا به قد انهار، أما علموا أن الله أجار المظلوم ممن جار، فإذا قاموا فى القيامة زاد البلاء على المقدار ﴿**سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار**﴾ [إبراهيم: ٥٠] لا يغرنك صفاء عيشهم كل الأخير أكدار ﴿**إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار**﴾ [إبراهيم: ٤٢](٢).

أين من لعب وسها، وأين من غفل ولها، دهاه أفظع ما دهى، وحط ركنه فوهى، ذهبت لذة ذنوبه وحبس بها، حبس فى عاجله، ونسى المنتهى.

عبد الله: ماذا تقول لربك إذا وقفت فى ساحة القضاء، يوم ترى الناس سكارى، وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد؟!

ماذا ستقول لربك يوم يطالبك المظلوم بأداء حقه؟ ماذا ستفعل وأنت رهين عملك؟ ماذا ستفعل وأنت ما تملك درهمًا ولا دينارًا، ماذا ستفعل وأنت ساعتها وأنت ليس عليك ثياب تلبسها؟ ولا لديك شيكات تكتبها، ولا أموال تصرفها، ماذا ستقول لربك وأنت واقف بين يديه، وقد نطقت جوارحك؟ وتكلمت أركانك، وخرس لسانك؟!.

أتستطيع أن تنكر؟!.

وتنكر فعلها وله شهود ... على الإنسان تكتب ما حواه
فويل للعبد من صحف وفيها ... مساويه إذا وافت مثاه
ويا حزن المسيء لشؤم ذنب ... وبعد الحزن يكفيه جواه
ويندم حسرة من بعد فوت ... ويبكى حيث لا يجدى بكاه
يعض على يديه من ندم وحزن ... ويندب حسرة ما قد عراه

(١) المدهش لابن الجوزى ص٥٥٠، ٥٥١.

(٢) التبصرة لابن الجوزى ١/ ١٢٥

انظر أيها العاصى فى عملك، وبادر إلى فعل الطاعات، ورد المظلمات، وتأمل سيرة الصالحين، وافرق بينهم وبين الظالمين.

كان إبراهيم بن عيسى اليشكرى إذا قيل له: كيف أصبحت؟ قال: «أصبحت فى أجل منقوص، وعمل محفوظ، والموت فى رقابنا، والقيامة من ورائنا، ولا ندرى ما يفعل الله عز وجل بنا».

فكيف بك وقد علمت أنك دائمًا فى أجل منقوص، يومًا فيوم، وساعة فساعة، حتى ينتهى، وعملك محفوظ لدى ملائكة كرام كاتبين؟.

كيف بك وقد علمت أن الموت لاشك آت إليك، والقبر أنت محمول اليه، ولا تدرى ماذا سيفعل الله بك؟

فيا من يوقن أنه لا شك راحل، وما له زاد ولا رواحل، يا من لج فى لجة الهوى متى ترتقى إلى الساحل، هل انتبهت من رقاد شامل، وقمت فى الليل قيام عاقل؟ وكتبت بالدموع سطور الرسائل، تخفى بها زفرات الندم والوسائل، وبعثتها فى سفينة دمع سائل لعلها ترسو على الساحل.

فنسألك يا ربنا أن تملأ قلوبنا بك فرحًا، وألسنتنا لك ذكرًا، وجوارحنا فيما يرضيك شغلا اللهم امح عن قلوبنا كل ذكر إلا ذكرك، وكل حب إلا حبك، وكل ود إلا ودك، وكل رجاء إلا لك، وكل خوف إلا منك، وكل رغبة إلا إليك، وكل رهبة إلا لك، وكل سؤال إلا منك، وارحمنا برحمتك وأمنا من عذابك يا رب العالمين.

الوصية رقم (٧)
إن الله فرض عليكم الحج فحجوا

عن أبى هريرة ؓ قال خطبنا رسول الله ﷺ، فقال: **«أيها الناس، إن الله عز وجل قد فرض عليكم الحج فحجوا»** فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثًا، فقال رسول الله ﷺ **«لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم»** ثم قال: **«ذرونى ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بأمر، فأتوا منه ما استطعتم وإن نهيتكم عن شيء فدعوه»**(١)

صدق رسول الله ﷺ

• فى رحاب هذه الوصية •

أخى الحبيب:

هذا هو حبيبكم محمد ﷺ يقف بين أصحابه الفضلاء، ليلقى عليهم بيانًا ربانيًا من

(١) رواه مسلم فى كتاب الحج باب فرض الحج مرة واحدة فى العمر٢/ ٩٧٥ رقم (١٣٣٧) ورواه أحمد فى مسنده ٩/ ٥١٥ بإسناد صحيح رقم (٥٥٦ ١) وابن ماجه (٢٨٨٥) والنسائى٥/ ١١١

عند مولاه، أو لعله جاءهم بمذكرة تفسيرية لهذا البيان القرآنى الذى جاء به الوحى: ﴿ وَلِلَّه عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ [آل عمران: ٩٧] فلما جمع أصحابه ليلقى عليهم هذا البيان، خطبهم، وكان إذا خطبهم، فإنما كان يخطب إليهم بكلمات موجزة لكنها بليغة فصيحة تؤدى المعنى كله، وبدأ النبى ﷺ خطبته العظيمة بقوله: «أيها الناس» ثم يقل لهم: أيها الأصحاب، أو أيها المؤمنون، ولكنه نادى عليهم بنداء يصلح لكل زمان ومكان، نادى عليهم بنداء يخاطب به من أسلم ظاهره لله، ومن وقر الإيمان فى قلبه وقالبه، نادى عليهم نداءً عامًا مثلما نادى جده إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام حين أمره ربه بعد ما فرغ من بناء البيت الحرام أن ينادى عليهم، فوقف على جبل أبى قبيس، ونادى قائلاً: أيها الناس، إن ربكم قد بنى بيتًا فحجوه، فلبت الأرواح فى عالمها: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك. نادى عليهم نداء يشد انتباههم ليوقظ أسماعهم ويفتح به أذهانهم، ثم يلقى عليهم أوامره أو نواهيه وتوجيهاته التى كانوا يتلقونها بالقبول، وكان هذا البيان يتضمن الحث على الركن الخامس من أركان الإسلام، وهو الحج وقد فرضه الله تعالى على الأمة المحمدية فى السنة السادسة من الهجرة على الرأى الراجح من أقوال أهل العلم، وقيل: إنه فرض فى العام التاسع من الهجرة.

فلما قال لهم الرسول ذلك، وقرأ عليهم هذا البيان الربانى، قام رجل من الأعراب وهو «الأقرع بن حابس التميمى» ومعروف أن الأعراب قساة القلوب، غلاظ الطباع، فقال للنبى ﷺ: «أفى كل عام يا رسول الله؟» وبسؤاله هذا قد فتح لنا بابًا من أبواب العلم، لكن الرسول سكت حتى كرر هذا السؤال ثلاثًا، ثم قال له: **لو قلت: نعم لوجبت** -أى لوجب عليكم الحج كل عام- ولو وجب عليكم كل عام لن تستطيعوا أن تحجوا كل عام، فتكونوا قد عصيتم.

ثم أرشدهم إلى ما يجب أن يكون منهم تجاه أوامره أو نواهيه، وهذا درس عظيم النفع قال لهم: «**ذرونى ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شىء فدعوه**» ولعله قد يقصد بذلك أنه نصحهم قبل ذلك، وأوصاهم بقوله: «**إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحد حدوداً فلا تعتدوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة بكم من غير نسيان فلا تبحثوا عنها**»[1]

ولعلها من النوع الرابع أى أنه سكت عن بيانها وتفصيلها رحمة بكم غير نسيان منه سبحانه ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ [مريم: ٦٤] فلا تبحثوا عنها.

(١) رواه الدارقطنى بإسناد حسن قاله ابن رجب فى جامع العلوم والحكم حديث رقم (٣) ص٣٧٤ والبيهقى فى السنن الكبرى وقد ضعفه الألبانى.

والحج قد فرض بالكتاب والسنة، فمن الكتاب قوله تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ**﴾ [آل عمران: ٩٧].

قال البيضاوي: وضع من كفر موضع من لم يحج تأكيدًا لوجوبه، وتغليظًا على تاركه، وقد أكد أمر الحج في هذه الآية من وجوه: منها: الدلالة على وجوبه بصيغة الخبر وإبرازه في الصورة الاسمية، ومنها: تسمية ترك الحج كفرًا من حيث إنه فعل الكفرة.

ومنها: ذكر الاستغناء الذى يدل على المقت والخذلان.

ومنها: تعميم الحكم أولاً بقوله: ﴿**وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ**﴾ ثم تخصيصه ثانيًا بالاستطاعة بقوله: ﴿**مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً**﴾.

وقد دل على فرضيته من السنة هذه الوصية التى نحن بصدد الحديث عنها، وحديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً**»(١) والاستطاعة هى القدرة الصحية والمادية على أدائه، وتوفر الأمن فى الذهاب والإياب، وعدم وجود الموانع التى تحول بينه وبين تحقيق ذلك.

والحج من الشرائع القديمة. روى أن آدم عليه السلام حج أربعين سنة من الهند ماشيًا، وأن جبريل قال له: إنَّ الملائكة كانوا يطوفون قبلك بهذا البيت سبعة آلاف سنة(١).

وقال ابن إسحاق: لم يبعث الله نبيًّا بعد إبراهيم إلا حج.

وهو من أفضل العبادات لاشتماله على بذل المال، والنفوس.

• الحج ثوابه عظيم •

إن للحج ثوابًا عظيمًا عند الله تعالى، ومن ثوابه: أنه من أفضل الأعمال التى يتقرب بها العبد إلى مولاه، ففى الحديث الذى رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال حين سئل: «**أى العمل أفضل؟ قال: إيمان بالله ورسوله. قيل: ثم ماذا؟ قال: جهاد فى سبيل الله. قيل: ثم ماذا؟ قال: حج مبرور**»(٣)

والحج جهاد عظيم غير أنه لا شوكة فيه، ولا قتال، فقد جاء رجل إلى النبى ﷺ فسأله عن الجهاد، فقال له النبى ﷺ: «**ألا أدلك على جهاد لا شوك فيه؟ الحج**»(٤) فما أعظم الإسلام! وما أعظم رسول الإسلام! بل وما أعظم وما أرحم تعاليم الإسلام! إنها تعاليم سمحة، رسالة الإسلام رسالة كلها يسر، أتدرى لماذا؟ لأنه لم يحرم الإنسان الضعيف من الجهاد فى سبيل الله، فقد جعل جهاده هو الحج فعن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول

---

(١) رواه البخارى ومسلم. (٢) دليل الفالحين ٤/ ٧٤.

(٣) رواه البخارى (٢٦) ومسلم (٨٣) والترمذى (١٦٥٨) والنسائى فى الحج والمنذرى فى الترغيب ٢/ ١٦٢

(٤) ذكره الهيثمى فى المجمع، وقال: رواه الطبرانى فى الكبير وصححه الألبانى فى ص.ج رقم (٢٦١١).

ﷺ قال: «الحج جهاد كل ضعيف»[١] بل وجعله في حقه أفضل الجهاد، ففي حديث أم المؤمنين عائشة ﵂ قالت: يا رسول الله، نرى الجهاد أفضل العمل أفلا نجاهد؟ فقال ﷺ: «لكنَّ أفضل الجهاد: حج مبرور»[٢] إنه لم يرد أن يحرم الضعفاء من النساء، فيالها من رحمة! ومن عظم ثواب الجهاد، أنه يأخذ بيد صاحبه إلى الجنة، يأخذ به إلى الفلاح والنجاح يوم القيامة، ففي حديث أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «الحج المبرور، ليس له جزاء إلا الجنة»[٣]

والحج المبرور، قيل: هو الذي لا يقع فيه معصية، وقد جاء من حديث جابر مرفوعًا: «إن بر الحج: إطعام الطعام، وطيب الكلام»[٤] وقيل: هو الذي يرجع صاحبه منه خيرًا مما كان.

ومن عظمه: أنه يغسل العبد من ذنوبه كلها[٥]، شريطة أن لا يفسق ولا يفجر «من حج فلم يرفث ولم يفسق، رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه»[٦]

وفي حديث ابن شماسة ﵁ «قال: حضرنا عمرو بن العاص، وهو في سياقة الموت، فبكى طويلاً، وقال: فلما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي ﷺ، فقلت: يا رسول الله، ابسط يمينك لأبايعك، فبسط يده، فقبضت يدي، فقال: ما لك يا عمرو؟ قال: أردت أن أشترط. قال: تشترط ماذا؟ قال: أن يغفر لي. قال: أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله»[٧]

وعن عبد الله بن مسعود ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ «تابعوا بين الحج والعمرة، فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة، وليس للحج المبرور ثواب إلا الجنة»[٨]

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٢٦٤٠٠) جـ١٨/٢٤٨ بإسناد صحيح وابن ماجه (٢٩٠٢) وذكره الألباني في ص.ج رقم (٣١٧١). (٢) رواه البخاري (١٥٢٠).

(٣) رواه مسلم (١٣٤٩) والترمذي وقال: حسن صحيح (١٣٤٩) وأحمد في المسند (٩٩٠٣) جـ٩/٣٥٦

(٤) الترغيب والترهيب للمنذري٢/ ٦٢

(٥) أي الذنوب الصغائر أو المتعلقة بحقوق الله تعالى لا بحقوق عباده.

(٦) رواه البخاري ومسلم والترمذي.

(٧) رواه ابن خزيمة في صحيحه مختصرًا ورواه مسلم أطول منه.

(٨) رواه أحمد في مسنده (٣٦٦٩) جـ٣/٥٣٧ بإسناد صححه الشيخ أحمد شاكر ورواه الترمذي وقال: حسن صحيح غريب. وذكره المنذري في الترغيب٢/ ١٦٥

وقد ورد ثواب أعمال الحج تفصيلاً في حديث الرجلين اللذين جاءا إلى رسول الله ﷺ ليسأل كل واحد منهما عن ثواب الحج وأعماله، فقال النبي ﷺ لهما: **«أما خروجك من بيتك تؤم البيت الحرام، فإن لك بكل وطأة تطؤها راحلتك يكتب الله لك بها حسنة، ويمحو عنك بها سيئة، وأما وقوفك بعرفة، فإن الله عز وجل ينزل إلى سماء الدنيا، فيباهي بهم الملائكة، فيقول: هؤلاء عبادي جاءوني شعثًا غبراً من كل فج عميق، يرجون رحمتي، ويخافون عذابي، فكيف لو رأوني، فلو كان عليك مثل رمل عالج -اسم جبل- أو مثل أيام الدنيا، أو مثل قطر السماء ذنوبًا، غسلها الله عنك، وأما رميك الجمار فإنه مدخور لك، وأما حلقك رأسك، فإن لك بكل شعرة تسقط حسنة، فإذا طفت بالبيت، خرجت من ذنوبك كيوم ولدتك أمك»**[١].

والحاج مجاب الدعوة من الله تعالى، وقد دلَّ عليه حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«الحجاج والعمار وفد الله، إن دعوه أجابهم، وإن استغفروه غفر لهم»**[٢]

• فضل يوم عرفة •

ويوم عرفة من أعظم أيام الله تعالى في الدنيا، وله فضائل متعددة منها: أنه يوم إكمال الدين، وإتمام النعمة، لأنه قد نزل فيه قوله تعالى: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً**﴾ [المائدة: ٣] نزلت يوم حجة الوداع، وكان يوم جمعة، وقال بعض السلف: إذا وافق يوم عرفة يوم جمعة غفر لكل أهل الموقف.

وقال أهل الكتاب لو أنزلت هذه الآية علينا لجعلناها يوم عيد، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أشهد لقد أنزلت هذه الآية في يوم عيدين اثنين: يوم عرفة، ويوم جمعة، على رسول الله ﷺ وهو واقف بعرفة[٣]

وإكمال الدين حصل في ذلك اليوم من وجوه:

أحدها: أن المسلمين لم يكونوا قد حجوا حجة الإسلام بعد فرض الحج قبل ذلك، ولا أحد منهم هذا قول أكثر العلماء، أو كثير منهم، **فكمل بذلك دينهم، لأنهم استكملوا** أركان الإسلام.

---

(١) رواه الطبراني في الكبير عن أسمر وابن ماجه وحسنه الألباني في ص.ج (١٣٧٣).

(٢) رواه البزار بسند رواته ثقات ورواه ابن حبان في صحيحه وذكره المنذري في الترغيب٢/ ١٦٧

(٣) رواه ابن جرير في تفسيره٩/ ٥٢٥

الثاني: أن الله تعالى أعاد الحج على قواعد إبراهيم عليه السلام، ونفى الشرك وأهله، فلم يختلط بالمسلمين فى ذلك الموقف أحد منهم.

الثالث: أنه حصل بالمغفرة، لأن النعمة لا تتم إلا بها، كما قال لنبيه: ﴿**لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا**﴾ [الفتح: ٢] ومنها: أنه قد قيل: إنه الشفع الذى أقسم به رب العالمين جل وعلا فى كتابه، والوتر هو يوم النحر، قال تعالى: ﴿**وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ**﴾ [الفجر ١ - ٣].

وقيل: إنه الشاهد الذى أقسم الله به فى قوله: ﴿**وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ**﴾ [البروج: ٣].

وعن أبى هريرة مرفوعًا: «**الشاهد يوم عرفة، والمشهود يوم الجمعة**»(١)

ومنها: أنه أفضل الأيام، فعن عبد الله بن قرط عن النبى ﷺ: «**أفضل الأيام يوم النحر ثم يوم القَرّ**»(٢)

ومنها: أنه يوم الحج الأكبر عند جماعة من السلف منهم عمر بن الخطاب وغيره.

ومنها: أن صيامه يكفر عن المسلم سنتين.

فعن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «**صوم يوم عرفة كفارة السنة الماضية، والسنة المستقبلة**»(٣)

وعن قتادة بن النعمان أن النبى ﷺ قال: «**من صام يوم عرفة غفر الله له سنتين: سنة أمامه، وسنة خلفه**»(٤)

ومنها: أنه يوم مغفرة الذنوب، والعتق من النار، والمباهاة بأهل الموقف:

فعن عائشة رضي الله عنها عن النبى ﷺ قال: «**ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبيدًا من النار من يوم عرفة، وإنه ليدنو، ثم يباهى بهم الملائكة، فيقول: ما أراد هؤلاء؟**(٥)

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير ٣/ ٢٩٨

(٢) رواه أحمد فى مسنده (١٨٩٧٦) وذكره الألبانى فى ص.ج رقم (١٠٦٤)

(٣) رواه الطبرانى فى الأوسط وابن ماجه وصححه الألبانى فى ص. ج (٣٨٠٥).

(٤) رواه ابن ماجه وذكره الألبانى فى ص. ج (٦٣٣٥).

(٥) رواه مسلم (١٣٤٨) فى كتاب الحج باب فضل الحج والعمرة ورواه النسائى ٥/ ٢٥١

وعن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**ما من يوم أفضل عند الله من يوم عرفة، ينزل الله تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا، فيباهي بأهل الأرض، أهل السماء، فيقول: انظروا إلى عبادي شعثًا غبرًا ضاحين، جاءوا من كل فج عميق، يرجون رحمتي، ولم يروا عذابي، فلم ير أكثر عتيقًا من النار من يوم عرفة**»[١]

ومنها: أنه أدحر يوم للشيطان، وأغيظ يوم عنده، يوم الثبور والهلاك لهذا الشيطان الرجيم اللعين، يقول النبي ﷺ: «**ما رئي الشيطان يومًا هو فيه أصغر، ولا أدحر ولا أحقر، ولا أغيظ منه يوم عرفة**»[٢] وذلك لما يُرى فيه من تنزل الرحمات ومغفرة الذنوب والسيئات.

وروى أبو عثمان الصابوني بإسناد له عن رجل: كان أسيرًا ببلاد الروم، فهرب من بعض الحصون، قال: فكنت أسير بالليل و أكمن بالنهار، فبينما أنا ذات ليلة أمشي بين جبال وأشجار إذا أنا بصوت، فراعني ذلك، فنظرت فإذا راكب بعير، فازددت عجبًا ورعبًا، وذلك أنه لم يكن ببلاد الروم بعير، فقلت: سبحان الله! في بلاد الروم راكب بعير، إنَّ هذا لعجب، فلما انتهى إليَّ قلت: يا عبد الله، من أنت؟ قال: لا تسأل. قلت: إني أرى عجبًا فأخبرني، فقال: لا تسأل، فأبيت عليه، فقال: أنا إبليس، وهذا وجهي من عرفات، وافقتهم عشية اليوم أطلع عليهم، فنزلت عليهم الرحمة والمغفرة، ووهب بعضهم لبعض، فداخلني الهم والحزن والكآبة، وهذا وجهي إلى قسطنطينة أنفرج بما أسمع من الشرك، وادعاء أن له ولدًا، فقلت: أعوذ بالله منك، فلما قلت ذلك، لم أر أحدًا[٣] وفي الأثر أنه يقول ويرمي بالتراب على رأسه: «يا ويلي يا ويلي أضلهم طول العام، ويغفر لهم هذا اليوم».

---

(١) حديث حسن رواه ابن حبان في صحيحه وذكره الهيثمي في المجمع٣/ ٢٥٣ وفيه محمد بن مروان وثقهُ ابن معين وابن حبان، وفيه بعض كلام وبقية رجاله ثقات.

(٢) رواه مالك في الموطأ١/ ٤٢٢ ورواه الحاكم في المستدرك.

(٣) لطائف المعارف لابن رجب الحنبلي ص٤٩١.

• ما يستحب فعله يوم عرفة •

أخا الإسلام:

إن كنت تطمع فى العتق من النار يوم لقاء الواحد القهار، ومغفرة الذنوب من علام الغيوب فى يوم عرفة فعليك بالأسباب التى تجعلك من الفائزين بذلك، ومن هذه الأسباب ما يأتى:

١- صيام ذلك اليوم: يستحب صيامه لغير الحاج لما رواه مسلم عن أبى قتادة قال: قال النبى ﷺ: **«صيام يوم عرفة إنى أحتسب على الله أن يكفر السنة التى قبله، والتى بعده، وصيام عاشوراء إنى أحتسب على الله أن يكفر السنة التى قبله»**(١)

قال المناوى فى فيض القدير: «لأن يوم عرفة سنة المصطفى ﷺ، ويوم عاشوراء سنة موسى، فجعل سنة نبينا تضاعف على سنة موسى فى الأجر»(٢)

أما بالنسبة لمن يقف بعرفات حاجًّا فيستحب له الفطر اقتداءً برسول الله ﷺ، فعن أم الفضل بنت الحارث رضي الله عنها «أن ناسًا تماروا عندها يوم عرفة فى صوم النبى ﷺ، فقال بعضهم: هو صائم، وقال بعضهم: ليس بصائم. فأرسلت إليه بقدح لبن، وهو واقف على بعيره، فشربه»(٣).

٢- أن يكثر المسلم من شهادة التوحيد بإخلاص وصدق، لأنها أصل دين الإسلام الذى أكمله الله تعالى فى هذا اليوم العظيم، ففى مسند الإمام أحمد - أن النبى ﷺ

(١) رواه مسلم وأبو داود.
(٢) فيض القدير للمناوى جـ ٤/ ٢١١
(٣) رواه البخارى ومسلم وأبو داود.

قال: «**من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير مائتى مرة فى يوم لم يسبقه أحد كان قبله، ولا يدركه أحد بعده، إلا بأفضل من عمله**»[١]

٣- **أن يُعتقَ رقبة، إن أمكنه**، وهذا غير متوفر عندنا، لأننا والحمد لله ليس عندنا عبيد، لكن ربما هو موجود فى أماكنٍ غير بلدنا. والسر فى عتق الرقبة: أن من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله له بكل عضو منها، عضواً من النار.

وقد كان حكيم بن حزام ﷺ ابن أخى السيدة خديجة ﷺ أسلم يوم الفتح كان يقف بعرفة ومعه مائة بدنة مقلدة، ومائة رقبة، فيعتق الرقيق، فيضج الناس بالبكاء والدعاء، ويقولون: «ربنا هذا عبدك قد أعتق عبيده، ونحن عبيدك فأعتقنا» وكان أبو قلابة يعتق جارية فى عيد الفطر، يرجو أن يُعتق بذلك من النار[٢]

٤- **أكثر من الدعاء بالمغفرة والعتق من النار**، فإنه يرجى إجابة الدعاء فيه. فعن على بن أبى طالب ﷺ قال: ليس فى الأرض يوم إلا لله فيه عتقاء من النار، وليس يوم أكثر فيه عتقًا للرقاب من يوم عرفة. فأكثر فيه أن تقول: اللهم أعتق رقبتى من النار، وأوسع لى من الرزق الحلال، واصرف عنى فسقة الجن والإنس[٣]

• أحوال الصادقين فى الموقف بعرفة •

وأحوال الصادقين فى الموقف بعرفة متنوعة، فمنهم من كان يغلب عليه

---

(١) رواه أحمد فى مسنده (٦٧٤) بإسناد صحيح جـ٦/ ٢٨٤

(٢) لطائف المعارف لابن رجب.

(٣) رواه ابن أبى الدنيا.

خوف أو الحياء مــن الله تبارك وتعالى، ومنهم الباكى علــى ذنوبه، ومنهم الضارع بربه:

وقف مطرف بن عبــد الله، وبكر المزنى، بعرفة، فقال أحــدهما: «اللهم لا ترد أهل الموقف من أجــلى» وقال الآخر: «مــا أشرفــه من موقف وأرجــاه لأهله لولا أنى فيهم»!.

ووقف الفضيل بن عياض بعرفة، والناس يدعون وهو يبكى بكاء الثكلى، قد حال البكاء بينــه وبين الدعاء، فلمــا كادت الشمس أن تغــرب رفع رأسه إلى الســمــاء وقال: واسوءتاه منك وإن عفوت[1].

ووقف مرة أخرى، فنظر إلى أهل عرفات، فــرأى الباكى على نفسه، والضارع إلى ربه، والمستغفر إلى الله من ذنبه، فقال لأحد أصحابه: أرأيت لو أن هؤلاء جميعًا وقفوا على باب غنى مــن الأغنياء يطلبون درهما، أكان يردهم خائــبين؟ فقال له: لا والله.

فقال الفضيل رحمه الله: إن مغفرة هؤلاء جميعًا أهون عند الله من درهم يجود به كريم من الأغنياء[2]

ودعا بعض العــارفين، وهو واقف بعرفــة، فقال: «اللهم، إن كنت لم تقــبل حجى وتعبى ونصبى فلا تحرمنى من أجر المصيبة على تركك القبول منى».

وهذا آخر:

يقف أحد العارفــين بعرفة إلى أن قرب غروب الشمس، فــنادى: الأمان الأمان، قد دنا الانصراف، ليت شعرى ما صنعت فى حاجة المساكين!

---

(١) لطائف المعارف.

(٢) سمير الصالحين وأنيس المتقين للشهاوى.

وإنى من خوفكم والرجا أرى الموت والعيش فيكم عيانًا
فمنوا على تائب خائف أتاكم ينادى الأمان الأمانا

إذا طلب الأسير الأمان من الملك الكريم أمنه.

الأمان الأمان وزرى ثقيل وذنوبى إذا عُددن تطول
أوبقتنى وأوثقتنى ذنوبى أفترى لى إلى الخلاص سبيل؟

ووقف آخر، وكان من الخائفين من عذاب الله، فقال: إلهى! الناس يتقربون إليك بالبُدن، وأنا أتقرب إليك بنفسى، ثم خر ميتًا. فهذا ممن غلب عليه مقام الخوف ومن العارفين من غلب عليه مقام الرجاء بربه، فتعلق بأذياله، ومنهم سفيان الثورى رحمه الله، يقول عبد الله بن المبارك: جئت إلى سفيان عشية عرفة، وهو جاث على ركبته، وعيناه تهملان، فالتفت إلىَّ، فقلت له: من أسوأ هذا الجمع حالاً؟ قال: الذى يظن أن الله لا يغفر لهم[1]

• مناسك الحج وأسرارها •

أخا الاسلام:

رزقنى الله وإياك حج بيته الحرام، وزيارة نبيه المصطفى عليه الصلاة والسلام إن مناسك الحج كثيرة ، ومتعددة، هى:

١- الإحرام: وهو أن يلبس الحاج قطعتين من القماش: إحداهما تستر النصف الأعلى، وتسمى بالرداء، والأخرى تستر النصف الأسفل وتسمى بالإزار، وذلك بعد أن يخلع تلك الثياب التى عليه «المخيطة».

ويتذكر حين يخلع تلك الثياب، ويستبدلها بملابس الإحرام، يتذكر الكفن لأن ثياب الإحرام تشبهه، فالإحرام تلخيص للحياة، فأنت حين تولد، تولد عاريًا لا ثياب لك، فتلف فى قطعة من القماش، وحين تموت وتفارق الحياة يقوم المغسل بتغسيلك ثم يلبسك بعد ذلك الكفن، فأنت تدخل إلى دنياك عاريًا، وتخرج منها إلى القبر كذلك. إذن الحج والإحرام تلخيص لهذه الحياة.

(١) لطائف المعارف لابن رجب الحنبلى ص٤٩٨

تلبس ملابس الإحرام لا فرق بين الغنى والفقير، ولا بين الحقير والكبير، ولا وزير ولا خفير، الكل سواء أمام رب الأرباب جل وعلا.

٢- الطواف بالكعبة: فإذا رأيت أخى الحبيب البيت الحرام، فاستحضر عظمته فى قلبك، وقل بلسانك: «اللهم زد هذا البيت تشريفًا وتكريمًا» واشكر الله تعالى أن جعلك من الوافدين إليه، وقد أمرك رب العالمين بالطواف حوله، فقال سبحانه: ﴿**وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ**﴾ [الحج: ٢٩] وتذكر أن الذى رفع قواعده هو أبوك ابراهيم عليه السلام مع ولده إسماعيل لكن لماذا الطواف بالبيت الحرام؟

نطوف بالبيت الحرام لأنه رمز لتوحيد المسلمين، فإليه يتوجهون فى صلواتهم فى مشارق الأرض ومغاربها، فى كل مكان قبلتهم واحدة، وربهم واحد، ودينهم واحد، ونبيهم واحد، ووجهتهم واحدة، فاستشعر هذا كله فى قلبك أخى الحبيب:

ويوم تولى وجهك البيت ناظرًا ... وسيما مكان البشر والقسمات

لدى الباب جبريل الأمين براحة ... رسائل رحمانية النفحات

على كل باب فى الحجاز ملائك ... تزف تحايا الله والبركات

٣- استلام الحجر الأسود: وإذا أردت أن تستلم الحجر الأسود، فقل: «**اللهم إيمانًا بك، وتصديقًا بكتابك، ووفاء بعهدك، واتباعًا لسنة نبيك محمد ﷺ**» ثم تكبر.

وقد روى الترمذى مرفوعًا: «أن هذا الحجر نزل من الجنة، وكان أشد بياضًا من اللبن فسودته خطايا بنى آدم» فعليك أن تقبله أو تشير إليه عند الزحام.

يقول عبد الله بن عباس: الحجر الأسود يمين الله فى الأرض، فمن استلمه وصافحه فكأنما صافح الله، وقبل يمينه.

وقال عكرمة: الحجر الأسود يمين الله فى الأرض، فمن لم يدرك بيعة رسول الله ﷺ، فمسح الركن، فقد بايع الله ورسوله.

فكأن مستلم الحجر يبايع مولاه على أن يجتنب معاصيه، وأن يقوم بحقه سبحانه، قال سبحانه: ﴿**فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾ [الفتح: ١٠] فمن استلم الحجر فكأنه جدد البيعة مع الله، فيلزمه الوفاء بالعهد، يلزمك أخى الحبيب أن توفى بالعهد الذى أخذه عليك وأنت فى عالم الذر، يوم أن عاهد مولاك الأرواح وهى فى الأشباح قائلاً: ﴿**أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى**﴾ [الأعراف: ١٧٢] ثم ذكرك بهذا العهد على لسان حبيبك محمد ﷺ: ﴿**وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ**﴾ [البقرة: ٤٠].

يقول سهل بن عبد الله التسترى -رحمه الله-:

من قال: لا إله إلا الله، فقد بايع الله، فحرام عليه إذا بايعه أن يعصيه فى شىء من أمره، فى السر والعلانية، أو يوالى عدوه، أو يعادى وليه.

يا بنى الإسلام من علمكم بعد إذا عاهدتم نقض العهود
كل شىء فى الهوى مستحسن ما خلا الغدر وإخلاف الوعود

فإذا سولت لك نفسك بنقض العهد مع الله، فذكرها بربها وقل لها: ﴿**مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّى أحسن مثواى إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ**﴾ [يوسف: ٢٣].

ولما كان الرسول الأعظم ﷺ فى حجة الوداع قبل الحجر، وانهمرت الدموع الشريفة الطيبة من عينى رسول الله ﷺ، وكان معه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال له: لم البكاء يا رسول الله؟ فقال له: «**هنا تسكب العبرات يا عمر**»(١).

لماذا البكاء؟ لأن شريط الذكريات مرٍّ على رسول الله ﷺ من يوم أن بنى سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام البيت الحرام.

وتأمل أخا الإسلام: إنَّ فى الحج حجرين: **الأول**: حجر يقبل وهو الحجر الأسود **والآخر**: يرجم، وهو الذى يوجد فى المكان الذى تعرض فيه إبليس اللعين لخليل الرحمن، حين أراد أن ينفذ أمر الله بذبح ولده، وفلذة كبده: إسماعيل عليه السلام، ساعتها أخذ حصوات من الأرض ورجم بها اللعين وطارده.

فلماذا نقبل هذا؟ ونرجم ذاك؟.

إنك تقبل الحجر الأسود لكى تسجل اسمك فى سجل التشريفات الإلهية، فى قصر ملك الملوك، ومالك الملك، ولأن هذا الحجر سيكون شاهدًا لكل من قبله يوم القيامة، يقول النبى ﷺ: «**ليأتين هذا الحجر يوم القيامة له عينان يبصر بهما، ولسان ينطق به، يشهد على كل من استلمه بحق**»(٢)

وفى رواية: «**والله ليبعثنه الله يوم القيامة له عينان يبصر بهما، ولسان ينطق به، يشهد على من استلمه بحق**»(٣)

وأما الحجر الذى يرجم به إبليس، فإنما الرجم يعتبر وسيلة إيضاح لمحاربة الشيطان، ومحاربة الشر والفساد والعدوان، ﴿**إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ**﴾ [فاطر: ٦].

---

(١) رواه ابن ماجه.

(٢) رواه البيهقى فى الشعب وصححه الألبانى فى ص.ج (٥٢٢٢).

(٣) رواه ابن حبان فى صحيحه وصححه الألبانى فى ص.ج رقم (٦٩٧٥).

٤- السعى بين الصفا والمروة: والصفا هو إشارة إلى العالم الذى كنا فيه قبل أن نخرج إلى هذه الدنيا، ورمز لعالم الأزل الذى سنذهب جميعًا إليه، لكن المروة معناها: مأخوذ من الرى وهو الحياة وينبغى للمسلم الحاج أو المعتمر آن يمثلها بكفتى الميزان، وتردده بينهما فى عرصات القيامة، أو تردده إلى باب الملك، ليظهر له خلوص خدمته، ورجاء ملاحظته بعين رحمته وطمعًا فى قضاء حاجته. لكن لماذا نسعى بين الصفا والمروة؟ إذا كانت هاجر أم إسماعيل عليه السلام تسعى طلبًا للماء من أجل وليدها الذى يحتاج إلى الماء، فلماذا نسعى نحن؟

كأن الإسلام يريد أن يوجه أتباعه إلى أن الحياة سعى وكفاح وراء لقمة العيش، فلو لم تسع هاجر لما نبعت عين الماء تحت قدم إسماعيل، ولو لم تهز مريم جذع النخلة لما تساقطت عليها رطبًا جنيًا:

ألم تر أن الله قال لمريم: وهزى إليك الجذع يساقط الرطب
ولو شاء أدنى الجزع من غير هزه إليها ولكن كل شيء له سبب

ورسول الإسلام محمد ﷺ يوجه أتباعه إلى السعى، فيقول: «**لأن يغدو أحدكم فيحتطب على ظهره، فيتصدق منه، ويستغنى به عن الناس خير من أن يسأل رجلاً أعطاه أو منعه**»[(١)].

وعن المقدام رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**ما أكل أحد طعامًا قط خير من أن يأكل من عمل يده، وإن نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده**»[(٢)]

ويقول أبو سليمان الدارانى -رحمه الله-: ليست العبادة أن تصف قدميك وغير يمونك، ولكن ابدأ برغيفك فاحرزها ثم تعبد.

٥- الوقوف بعرفة: وهم من أهم أركان الحج لقول النبى ﷺ: «**الحج عرفة**»[(٣)] فتذكر ذلك المكان الطيب الذى التقى فيه أبوك آدم وأمك حواء -عليهما السلام- بعد أن هبطا من الجنة، فسمى هذا المكان بهذا الاسم «عرفة» لأن آدم عرف حواء هناك فى هذا المكان بعد أن تاها فى الأرض أعوامًا طويلة. وإذا كان الأبوان قد تعارفا هناك فحق للأبناء كذلك أن يتعارفوا على اختلاف ألوانهم وألسنتهم وبلادهم.

وتذكر أخى الحبيب حيث ترى فى هذا الموقف الرءوس عارية، والأصوات مرتفعة، والازدحام شديد، تذكر موقف الحشر، تذكر يوم يقوم الناس لرب العالمين.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخارى وأحمد فى مسنده (١٧١٢٤) ١٣/ ٢٩٥ وصححه الألبانى فى ص.ج رقم ٥٥٤٦.

(٣) رواه أحمد فى مسنده (١٨٦٧٧) جـ١٤/ ٢٦٤ ورواه الترمذى (٢٩٧٥) وقال: حسن صحيح.

يا فوز قوم قد أتوا لجنابه فأباحهم منه الرضا والمغنما
قوم على عرفات قد وقفوا وقد باهى بهم ذو العرش أملاك السما
إذ قال يا أهل السموات انظروا وفدى وكل قد أضر به الظما
أشهدتكم أني غفرت ذنوبهم وعفوت عنهم أجمعين تكرما

٦- **الشرب من ماء زمزم:** وقد ورد أن ماء زمزم لما شرب له، فإن شربته بنية الشفاء شفاك الله، وإن شربته بنية العلم علمك الله، وإن شربته بنية الشبع أشبعك الله.

فقد كان سيدنا عبد الله بن المبارك -رحمه الله- يقول: «اللهم إن نبيك محمداً ﷺ كان يقول: «ماء زمزم لما شرب له» وأنا أشربه بنية أن تزيل العطش عني يوم القيامة حتى أشرب من حوض نبيك محمد شربة لا أظمأ بعدها»(١)

وكان سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عندما شرب من ماء زمزم دعا ربه بثلاث دعوات فقال: «اللهم إني أسألك علما نافعًا، ورزقًا واسعًا، وشفاء من كل داء» لكن لماذا نشربه؟ نشربه لأن الماء فيه الحياة، كما قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠] وماء زمزم صاف رائق، فكأن المشرع العظيم يريد أن يقول لنا: إن دين الإسلام هو دين الحياة الصافية، دين الحياة النقية التي لا تشوبها كدرة.

وتذكر وأنت تشرب من ماء زمزم، وأنت تشرب من حوض نبيك وحبيبك محمد ﷺ، الذي يقول عنه كما في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: **«حوضي مسيرة شهر، وزواياه سواء، وماؤه أبيض من الورق، وريحه أطيب من المسك، كيزانه كنجوم السماء، من ورد فشرب منه لم يظمأ بعدها أبدًا»**(٢)

وفي حديث أبي ذر رضي الله عنه حين سأله: ما آنية الحوض يا رسول الله؟ قال: **«والذي نفس محمد بيده، لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها في الليلة المظلمة المصحية، آنية الجنة من شرب منها لم يظمأ، آخر ما عليه يشخب فيه ميزابًا من الجنة من شرب منه لم يظمأ، عرضه مثل طوله، ما بين عمان إلى أيلة، ماؤه أشد بياضًا من الثلج، وأحلى من العسل»**(٣)

٧- **التلبية:** والتلبية من مناسك الحج ومعناها، أن تقول: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك، لاشريك لك.

والحكمة في التلبية. أن الإنسان إذا ناداه إنسان جليل القدر، أجابه بالتلبية، فكيف بمن ناداه مولاه؟ ودعاه إلى جنابه ليكفر عنه الذنوب والآثام، فإن قال العبد: لبيك، فلسان

---

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي ٤/ ٩١ (٢) رواه البخاري (٦٥٧٧). (٣) رواه مسلم (٢٣٠٠).

حتى الرب تبارك وتعالى يقول له: ها أنا دان إليك، ومتجل عليك، فسل ما تريد، فأنا أقرب إليك من حبل الوريد.

عبد دعاه لقربه مولاه	فأجابه باللطف حين دعاه
وأتى يلبيه بفرط تذلل	يا فوزه بالربح إذا لباه

٨- **أخذ الجمار من المزدلفة:** وهذا نسك آخر من مناسك الحج، وفيه أسرار لذوى العلم والمعرفة، فكأن العبد يقول لمولاه: سيدى حملت جمرات الذنوب والأوزار، وقد رميتها فى طاعتك بالإقرار، إنك أنت الكريم الغفار.

٩- **الذكر عند المشعر الحرام:** وهذا نسك آخر من مناسك الحج، قال تعالى: **﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾** [البقرة: ١٩٨] **﴿فاذكرونى أذكركم﴾** [البقرة: ١٥٢] **«من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى، ومن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير من ملئه»**.
فإن ذكرته عند المشعر الحرام، ذكرك بين ملائكته الكرام، وكتب لك توقيع الأمان من حلول الانتقام.

ذكرتك يا سؤلى وغاية مقصدى	وأنت لنا يا سيدى خير ذاكر
فجد بقبول منك أرجو به المنى	فذكرك فى قلبى وسرى وخاطرى

١٠- **حلق الرأس بمنى:** فقد دل عليه القرآن والسنة، قال تعالى: **﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ﴾** [الفتح: ٢٧].

١١- **الذهاب إلى المدينة المنورة:** فإذا خرجت من مكة لتقصد مدينة رسول الله ﷺ، فتذكر يوم أن ترك حبيبك محمد ﷺ مكة وودعها قائلا: **«والله، إنك لخير أرض الله عز وجل، وأحب بلاد الله تعالى إلىَّ ولولا أنى أُخرجت منها ما خرجت»**[1]

فإذا لاحت لك المدينة، فتذكر أنها البلدة التى اختارها الله لنبيه ﷺ، وشرع إليها هجرته، وجعل فيها بيته، ثم مثل فى نفسك مواضع أقدام رسول الله ﷺ عند تردده فيها، وتصور خشوعه وسكينته.

١٢- **زيارة قبر النبى ﷺ وأبى بكر وعمر:** فإذا قصدت زيارة القبر، فأحضر قلبك لتعظيمه، والهيبة له، ومثل صورته الكريمة فى خيالك، واستحضر عظيم مرتبته فى قلبك ثم سلم عليه، واعلم أنه عالم بحضورك وتسليمك، لقوله ﷺ: **«حياتى خير لكم ومماتى خير لكم» قالوا يا رسول الله نعرف أن حياتك، فما بال مماتك؟ قال: تعرض علىَّ أعمالكم، فإن وجدت خيراً حمدت، وإن وجدت غير ذلك استغفرت لكم»** ويستحب الوقوف عن

(١) رواه الترمذى وصححه، ورواه النسائى فى السنن وابن ماجه وابن حبان بإسناد صحيح.

بعد فإنه أقرب للاحترام، وليس من السنة مس الجدار، ولا التمسح به، فتقف وتقول: السلام عليك يا حبيب الله، السلام عليك يا صفوة الله، السلام عليك يا أحمد، السلام عليك يا محمد، السلام عليك يا أبا القاسم، السلام عليك يا عاقب، السلام عليك يا حاشر، السلام عليك يا بشير، السلام عليك يا نذير، السلام عليك يا سيد المرسلين، السلام عليك يا خاتم النبيين، السلام عليك يا قائد الغر المحجلين، السلام عليك يا قائد البر، ويا رسول الخير، السلام عليك وعلى آل بيتك الأطهار، السلام عليك وعلى أصحابك الطيبين، جزاك الله عنا أفضل ما جزى نبيًا عن أمته، ورسولاً عن قومه، وصلى اللهم عليك فى الأولين، والآخرين إلى يوم الدين[١].

ثم تأخر قدر ذراع وسلم على أبى بكر الصديق ﷺ، وتأخر نحو ذراع وسلم على الفاروق عمر ﷺ، ثم صلِّ ركعتين، وأكثر من الدعاء، يقول ﷺ: **«ما بين قبرى ومنبرى روضة من رياض الجنة»**[٢] ويقول: **«صلاة فى مسجدى خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام»**[٣]

• القلوب تحج كما تحج الأبدان •

واعلم أخى الحبيب:

أنه كما للأبدان حج فللقلوب حج، فالقلوب تنهض بأقدام العزائم، وتمتطى غوارب الشوق، وتفارق كل محبوب للنفس، وتصابر فى الطريق شدة الجهد، وترد مناهل الوفاء، فإذا وصلت إلى ميقات الوصل نزعت مخيط الآمال الدنيوية، واغتسلت من عين العين، ونزلت بعرفات العرفان، ثم طافت حول الإجلال، وسعت بين الصفا والمروة، فرمت جمار الهوى بأحجار، حتى وصلت إلى الرب الحبيب[٤]

فليس الشأن فيمن سار ببدنه، وإنما الشأن فيمن قعد بدنه وسار بقلبه حتى سبق الركب، لذلك قيل:

يا سائرين إلى الحبيب ترفقوا　　　فالقلب بين رحالكم خلفته

مالى سوى قلبى وفيك أذبته　　　مالى سوى دمعى وفيك سكبته

يروى أن محمد بن المنكدر حج ثلاثًا وثلاثين حجة، فلما كان آخر حجة حجها، قال وهو بعرفات: اللهم إنك تعلم أننى قد وقفت فى موقفى هذا ثلاثًا وثلاثين وقفة، فواحدة عن فرضى، والثانية عن أبى، والثالثة عن أمى، وأشهدك يا رب أنى قد وهبت

---

(١) مختصر إحياء علوم الدين ص٤١ عبد السلام هارون.

(٢) تهذيب إحياء علوم الدين عبد السلام هارون مختصرًا ص١٠٤

(٣) رواه البخارى ومسلم.　　(٤) التبصرة لأبى الفرج الجوزى جـ٢/ ٢٨٤

ثلاثين لمن وقف موقفى هـذا ولم تقبل منه، فلما نزل بالمزدلفة، نـودى فى المنام: يابن المنكدر أتتكرم على من خلق الكرم؟ وتجـود على من خلق الجـود؟! وعزتى وجلالـى لقد غفرت لمن وقف بعرفات، وقبلت حجهم»(١)

فتب بقلبك إلى الله تعالى من الذنوب والأوزار، واندم على ما بدر منك، فإن ربك يغفر الزلات، ويستر السيئات.

قل لـلذى ألف الـذنوب وأجـرما — وغـدا علـى زلاتـه مـتـندمـا
لا تيـأسن مـن الجـميل فـعندنا — فـضل يـنـيل الـتـائبين تـكرمـا
يـا مـعـشـر الـعـاصين جـودوا — وتوبـوا ودونكـم المنـى والمغـنمـا
لا تخـشـوا من قـبـح ذنب سـالف — إنـى أحب أن أجـود وأرحـمـا

أخى الحبيب:

ليس الاعتبار بأعمال البر بالجوارح، إنما الاعتبار ببر القلوب وتقواها، وتطهيرها عن الآثام، وسفر الدنيا يقطع بسير الأبدان، وسفر الآخرة يُقطع بسير القلوب.

قال رجل لبعض العارفين:

قد قطعت إليك مسـافة، قال: ليس هذا الأمر بقطع المسافـات، فارق نفسك بخطوة وقد وصلت إلى مقصودك(٢)

فسير القلـوب أبلغ من سير الأبدان، وكم من واصل ببدنه إلى البـيت الحرام، وقلبه منقطع عن رب البيت.

قال أحد السلف: عجبًا لمن يقطع المفاوز والقفار، ليصل إلى البيت، فيشاهد فيه آثار الأنبياء، كـيف لايقطع هواه ليـصل إلى قلـبه، فيـرى فيـه أثر «**ويسـعنى قلب عـبدى المؤمن**»(٣)

أيها المؤمن: إنَّ لله تعالـى بين جنبيك بيـتًا لو طهـرته لأشرق ذلك البـيت بنور ربه وانشرح وانفسح، ولله در من قال:

إنَّ بـيـــتًـــا أنـت ســـاكـنـه — غـيــر مـحـتـاج إلى الـسـرج
وعــلـيـــلاً أنـت عـــائـده — قـــد أتـاه الله بـالـفــرج
وجـهـك المـأمـول حـجـتـنـا — يـوم يـأتـى الـنـاس بـالحـج

(٢) المواعظ والمجالس لأبى الفرج بن الجوزى، والروض الفائق فى المواعظ والرقائق وصفة الصفوة/ ٢٣٣ والتبصرة ٢/ ٢٨٦ واللطائف لابن رجب، وروح الأرواح ص٣٩

(٣) ذكره ابن رجب فى لطائف المعارف ص٤٤٣

• العنصر الثاني في الوصية •

قوله ﷺ : «**إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بشيء، فأتوا منه ما استطعتم**».

قال بعض العلماء: هذا يؤخذ منه أن النهى أشد من الأمر، لأن النهى لم يرخص فى ارتكاب شىء منه، والأمر قُيد بحسب الاستطاعة، ولذلك نهى النبى ﷺ عن ارتكابها، فقال: «**اتق المحارم تكن أعبد الناس**»(١)

وقالت السيدة عائشة ﷺ: من سره أن يسبق الدائب المجتهد، فليكف عن الذنوب وقال الحسن: ما عبد العابدون بشىء أفضل من ترك ما نهاهم الله عنه.

يقول ابن رجب(٢):

والظاهر أن ما ورد من تفضيل ترك المحرمات على فعل الطاعات، فإنما أريد به على نوافل الطاعات، وإلا فجنس الأعمال الواجبات أفضل من جنس ترك المحرمات، لأن الأعمال المقصودة لذاتها والمحارم مطلوب عدمها، ولذلك لا تحتاج إلى نية بخلاف الأعمال، وكذلك كان جنس ترك الأعمال قد يكون كفراً كترك التوحيد، وكترك أركان الإسلام أو بعضها على ما سبق بخلاف ارتكاب المنهيات فإنه لا يقتضى الكفر بنفسه، ويشهد لذلك قول ابن عمر ﷺ لرد دانق من حرام أفضل من مائة ألف تنفق فى سبيل الله.

وقول ابن المبارك: لأن أرد درهمًا من شبهة أحبُّ إليَّ من أن أتصدق بمائة ألف ومائة ألف حتى يبلغ ستمائة ألف.

ثم يقول ابن رجب: وحاصل كلامهم يدل على اجتناب المحرمات، وإن قلت: فهى أفضل من الإكثار من النوافل الطاعات، فإن ذلك فرض وهذا نفل.

وقالت طائفة من المتأخرين: إنما قال النبى ﷺ: «**إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر، فأتوا منه ما استطعتم**» لأن امتثال الأمر لا يحصل إلا بعمل والعمل يتوقف وجوده على شروط وأسباب، وبعضها قد لا يستطاع، فلذلك قيده بالاستطاعة كما قيد الله الأمر بالتقوى بالاستطاعة، قال الله عز وجل: ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ**﴾ [التغابن: ١٦] وأما النهى فالمطلوب عدمه، وذلك هو الأصل، فالمقصود استمرار العدم الأصلى، وذلك ممكن، وليس فيه ما لا يستطاع، وهذا أيضًا فيه نظر، فإن الداعى إلى فعل المعاصى قد يكون قويًا لا صبر معه للعبد على الامتناع مع فعل المعصية مع القدرة عليها، فيحتاج للكف عنها

---

(١) رواه الترمذى وحسنه ورواه أحمد فى مسنده، وابن ماجه وذكره الألبانى فى ص.ج١/ ١٠

(٢) جامع العلوم والحكم لابن رجب ص١٢٨، ١٢٩

حينئذ إلى مجاهدة شديدة، وربما كانت أشق على النفوس من مجرد مجاهدة النفوس على فعل الطاعات، ولهذا يوجد كثيرًا من يجتهد فى فعل الطاعات ولا يقوى على ترك المحرمات.

وقد سئل عمر عن قوم يشتهون المعصية ولا يعملون بها، فقال: أولئك قوم امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم.

وفى قوله ﷺ: **«إذا أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم»** دليل على أن من عجز عن فعل المأمور به كله، وقدر على بعضه، فإنه يأتى بما أمكن منه، وهذا مطرد فى مسائل:

منها: الطهارة، فإذا قدر على بعضها، وعجز عن الباقى، إما لعدم الماء، أو لمرض فى بعض أعضائه دون بعض، فإنه من يأتى من ذلك بما قدر عليه، ويتيمم للباقى.

ومنها: الصلاة، فمن عجز عن فعل الفريضة قائمًا صلى قاعدًا، فإن عجز صلاها مضطجعًا، فعن عمران بن حصين رضي الله عنه أن النبى ﷺ: قال: **«صل قائمًا، فإن لم تستطع فقاعدًا، فإن لم تستطع فعلى جنب، فإن عجز عن ذلك كله أومأ بطرفه، وصلى بنيته»**[١] ولم تسقط عنه الصلاة على المشهور.

ومنها: زكاة الفطر، فإذا قدر على إخراج بعض صاع لزمه على الصحيح، فأما من قدر على صيام بعض النهار دون تكملته فلا يلزمه ذلك بغير خلاف، لأن صيام بعض اليوم ليس بقربة فى نفسه، وكذلك لو قدر على عتق بعض رقبة فى الكفارة لم يلزمه، لأن تبعيض العتق غير محبوب للشارع بل أمر -أى الشارع- بتكملته بكل طريق[٢] انتهى.

الوصية رقم (٨)
تابعوا بين الحج والعمرة

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«تابعوا بين الحج والعمرة، فإنهما ينفيان الفقر والذنوب، كما ينفى الكير خبث الحديد، والذهب والفضة، وليس للحجة المبرورة ثواب إلا الجنة»**[٣]

صدق رسول الله ﷺ

أخا الإسلام:

قد عرفت الثواب العظيم الذى وضحه لك رسول الإسلام ﷺ، لكنه هنا فى هذه

---

(١) رواه البخارى فى كتاب الصلاة. (٢) جامع العلوم والحكم ص١٢٩، ١٣٠

(٣) رواه الترمذى وقال: حسن صحيح غريب، ورواه أحمد فى مسنده (٣٦٦٩) ٣/ ٥٣٧ وصححه الشيخ أحمد شاكر ورواه ابن ماجه (٢٨٨٧) والبيهقى فى الشعب وابن حبان وابن خزيمة فى صحيحيهما والمنذرى فى الترغيب٢/ ١٦٥

الوصية يوصينا بأن نتابع بين الحج والعمرة، ومعنى **«تابعوا بين الحج والعمرة»** أى أوقعوا المتابعة بينهما، بأن تجعلوا كلا منهما تابعًا للآخر، فإذا حججتم فاعتمروا، وإذا اعتمرتم فحجوا، لكن ماذا يفعل من لا يستطيع أن يحج أو يعتمر لكى يُنفى فقره، ويغفر ذنبه، من المعلوم أن الحج لا يجب عليه، لأنه لا يجب إلا على المستطيع كما علمنا لكن كيف يحصل الفقير الذى لا يقدر على تكاليف الحج من زاد أو سفر ونحوه؟ أبشر أيها الفقير، لقد جعل لك رسول الرحمة مخرجًا، ويسر لك الأمر، وهذا من عند رب العالمين لعلمه سبحانه أن أمة الرسول الأعظم، أمة ضعيفة، عمرها قصير.

• ما يقوم مقام الحج والعمرة عند العجز عنهما •

١ - **التسبيح والتحميد والتكبير**: وذلك يكون عقب كل صلاة مفروضة كما علمنا سيد الكائنات ﷺ، فقد جاء إليه الفقراء يومًا، ليشكوا إليه حالهم، وحال الأغنياء، فقالوا: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالأجور -أى أصحاب الأموال- يصلون كما نصلى، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم، ويحجون ويعتمرون، ويجاهدون، فقال رسول الله: **«ألا أحدثكم بما إن أخذتم به لحقتم من سبقكم، ولم يدرككم أحد بعدكم، وكنتم خير من أنتم بين ظهرانيه، إلا من عمل مثله: تسبحون، وتحمدون وتكبرون خلف كل صلاة ثلاثًا وثلاثين»**[1] أى التسبيح ثلاثًا وثلاثين والتحميد كذلك والتكبير ثم تختم بلا إله إلا الله. فتلك المائة خير من الدنيا وما فيها.

إذا أردت أن تنافس فنافس فى أمور الآخرة، فى الأمور التى تقربك من مولاك.

قال الحسن: إذا رأيت الرجل ينافسك فى الدنيا، فنافسه فى الآخرة.

وقال وهيب بن الورد: إن استطعت أن لا يسبقك أحد إلى الله فافعل. فليست الدنيا، ولا الأموال بأمور يتنافس فيها المؤمن، وإنما المؤمن صاحب الهمة العالية، والنفس الشريفة التواقة لا يرضى بالأشياء الدنية الفانية، وإنما همته المسابقة إلى الدرجات الباقية الزاكية، التى لا تفنى، ولا يرجع عن مطلوبه، ولو تلفت نفسه فى طلبه. ولذلك قيل: من كان فى الله تلفه كان على الله خلفه.

وقيل لبعض المجتهدين فى الطاعات: لمَ تعذب هذا الجسد؟ قال: كرامته أريد.

٢- **ذكر الله تعالى والمداومة عليه**: وقد دل على ذلك حديث أبى الدرداء رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: **«ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها فى درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: ذكر الله عز وجل»**[2].

وحديث أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه: **«أنَّ النبى ﷺ سئل: أى العباد أفضل درجة عند**

---

(١) رواه البخارى ومسلم ومالك فى الموطأ.

(٢) خُرج فى موضع آخر فى نص وصية.

لله يوم القيامة؟ قال: الذاكرون الله كثيراً. قلت: يا رسول الله، ومن الغازى فى سبيل الله؟ قال: لو ضرب بسيفه الكفار والمشركين حتى ينكسر، ويختضب دما لكان الذاكرون لله عز وجل أفضل منه»(١)

٣- صلاة الصبح فى جماعة والذكر بعدها: لما كان الحج من أفضل الأعمال، والنفوس تتوق إليه، لما وضع الله فى القلوب من الحنين إلى ذلك البيت المعظم، وكان كثير من الناس يعجز عنه، ولاسيما كل عام، شرع الله لعباده أعمالاً يبلغ أجرها الحاج، فيتعوض بذلك العاجزون عن التطوع بالحج، وصلاة الصبح فى جماعة تعطى هذا الثواب العظيم، وقد دل عليه حديث أنس بن مالك ﷺ أن النبى ﷺ قال: **«من صلى الصبح فى جماعة، ثم جلس فى مصلاه يذكر الله حتى تطلع الشمس، ثم صلى ركعتين، كان له مثل أجرة حجة وعمرة تامة. قال: تامة تامة تامة»(٢)**

٤- شهود الجمعة: شهود الجمعة يعدل حجة تطوع.

قال **سعيد بن المسيب** -رحمه الله-: هو أحب إلىَّ من حجة نافلة.

وفى تاريخ ابن عساكر، عن الأوزاعى قال:

مرَّ يونس بن ميسرة بن حَلْبس بمقابر، فقال: السلام عليكم يا أهل القبور، أنتم لنا سلف، ونحن لكم تبع، فرحمنا الله وإياكم، وغفر لنا ولكم، فياليتنا قد صرنا إلى ما صرتم إليه، فردَّ الله الروح إلى رجل منهم، فأجابه، فقال: طوبى لكم يا أهل الدنيا حين تحجون فى الشهر أربعًا مراراً. قال: إلى أين نحج يرحمك الله ؟! قال: إلى الجمعة، أما تعلمون أنها حجة مبرورة متقبلة؟!(٣)

٥- شهود الصلوات المكتوبة فى جماعة، وصلاة الضحى: ففى سنن أبى داود عن أبى أمامة ﷺ أن النبى ﷺ قال: **«من خرج من بيته متطهراً إلى صلاة مكتوبة، فأجره كأجر الحاج المحرم، ومن خرج إلى تسبيح الضحى، لا ينصبه إلا إياه، فأجره كأجر المعتمر، وصلاة على إثر صلاة لا لغو بينهما، كتاب فى عليين»(٤)**

٦- صلاة العشاء فى جماعة: فعن عقبة بن عبد غافر الأزدى -رحمه الله- قال: صلاة العشاء فى جماعة تعدل حجة، وصلاة الغداة -الصبح- فى جماعة تعدل عمرة.

---

(١) رواه أحمد فى مسنده (١١٦٦٠) جـ١/ ٢٣٧، ٢٣٨ والترمذى (٣٣٧٣) وهو ضعيف.

(٢) رواه الترمذى (٥٨٦) وهو حديث حسن بشواهده.

(٣) سبق تخريجها فى وصية (احضروا الجمعة).

(٤) رواه أبو داود وحسنه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود (٥٥٨) جـ١/ ١٦٦

٧- **الخروج إلى صلاة العيدين:** والخروج إلى صلاة العيدين: الفطر، والأضحى لهما ثواب عظيم، يكاد أن يصل ثواب الحج والعمرة المتطوع بهما.

قال بعض الصحابة: «الخروج يوم عيد الفطر يعدل عمرة، ويوم الأضحى يعدل حجة».

٨- **قضاء حاجة أخيك المسلم:** أرسل الحسن البصرى جماعة من أصحابه فى قضاء حاجة لأخ لهم، وقال: مروا بثابت البنانى فخذوه معكم، فمروا بثابت، فقال لهم: «أنا معتكف» فرجعوا إلى الحسن، فأخبروه، فقال لهم: قولوا له: يا أعمش أما علمت أن سعيك فى حاجة أخيك خير لك من حجة بعد حجة، فرجعوا إلى ثابت فأخبروه، فترك اعتكافه وخرج معهم[1].

٩- **بر الأم:** ففى حديث أنس رضي الله عنه أن النبى ﷺ وصى رجلاً ببر أمه، وقال له: **أنت حاج ومعتمر ومجاهد** -يعنى إذا برها-.

يقول ابن رجب فى لطائفه[2]: أداء الواجبات كلها أفضل من التنفل بالحج والعمرة وغيرهما، فإنه ما تقرب العباد إلى الله بأحب إليه من أداء ما افترض عليهم، وكثير من الناس يهون عليه التنفل بالحج والصدقة، ولا يهون عليه أداء الواجبات من الديون، ورد المظالم، وكذلك يثقل على كثير من النفوس التنزه عن كسب الحرام والشبهات، ويسهل عليه إنفاق ذلك فى الحج والصدقة.

قال بعض السلف:

ترك دانق -سدس الدرهم- مما يكرهه الله أحب إليه من خمسمائة حجة.

وكف الجوارح عن المحرمات أفضل من التطوع بالحج وغيره، وهو أشق على النفوس.

قال الفضيل بن عياض -رحمه الله-:

ما حجٌّ ولا رباط، ولا جهاد أشد من حبس اللسان، ولو أصبح يهمك لسانك، أصبحت فى هم شديد.

• متى يكون حجك مبروراً؟ •

أخى الحبيب:

فمن أجل أن يكون حجك مقبولاً، مبروراً، فلابد أن تتوافر فيه شروط القبول، فما هى شروط قبول الحج؟

---

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلى ص٤٥٦، ٤٥٧.

(٢) لطائف المعارف ص٤٤٢ لابن رجب.

الشرط الأول: أن تكون نفقته حلالاً:

لأن الله تعالى طيب لا يقبل إلا الطيب، فعن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: **«أيها الناس: إنَّ الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، وأنَّ الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾** [المؤمنون: ٥١] **وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾** [البقرة: ١٧٢] **ثم ذكر الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء: يا رب، يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وغذى بالحرام، فأنى يستجاب له؟!»**[١].

إنك مقبل فى حجك إلى مولاك، تلبيه، وتتضرع إليه، فكيف ترفع أكف الضراعة إليه وفى بطنك الحرام؟! كيف تلبيه بلسان خاشع وفى جوفك الحرام؟ كيف تقول يا رب وزادك حرام ونفقتك حرام؟.

لكن لو كان زادك من حلال، ونفقتك من حلال، فإن ملكًا يرد عليك حين تلبى، حين تقول لربك: لبيك اللهم لبيك، يقول لك: لبيك وسعديك، والخير كله بين يديك، زادك حلال، ونفقتك حلال، وحجك مبرور غير مأزور، وعلى العكس من ذلك لو كان مطعمك من الحرام.. أكل أموال اليتامى ظلمًا، أكل حقوق الآخرين، سلب، نهب، سرقة، رشوة، ربا، يقول لك الملك: لا لبيك، ولا سعديك، زادك حرام ومالك حرام، ارجع فحجك مأزور غير مبرور.

إذا حججت بمال أصله سحت — فما حججت ولكن حجت العير
لا يقبل الله إلا كل طيبة — ما كل من حج بيت الله مبرور[٢]

الشرط الثانى: أن يقصد بحجه وجه الله تعالى:

فيصاحبه الإخلاص فى سائر المناسك، ولا يقصد بحجه أن يقال عنه: إنه حج أو ينادون عليه، فيقال: يا حاج فلان، فإن لم يقل له ذلك، غضب، وربما لا يرد لو نودى باسمه مجردًا من كلمة حاج، فهذا يقصد بحجه الرياء والسمعة، والمباهاة يقول إبراهيم بن أدهم: «الإخلاص صدق النية مع الله تعالى».

وقال المحاسبى: «الإخلاص إخراج الخلق عن معاملة الرب»[٣] والتواضع مطلوب فى الحج: وعن أنس رضي الله عنه أن النبى ﷺ حج على رحل رثٍّ وقطيفة ما تساوى أربعة دراهم، وقال: «اللهم اجعلها حجة لا رياء فيها ولا سمعة»[٤]

---

(١) رواه مسلم والترمذى.

(٢) انظر من وصايا القرآن الكريم للمؤلف - مكتبة التوفيقية. (٣) إحياء علوم الدين للغزالى.

(٤) رواه ابن ماجه (٢٨٩٠) فى المناسك وصححه الألبانى فى صحيح ابن ماجه (٢٣٣٧).

ولذلك قال رجل لعبد الله بن عمر رضي الله عنه ما أكثر الحاج؟! فقال ابن عمر: ما أقلهم! ثم رأى رجلاً على بعير، وعليه رحل رث، خطامه حبل، فقال: لعلَّ هذا.

وقال شريح: الحاج قليل، والركبان كثير، ما أكثر من يعمل الخير، لكن ما أقل الذين يريدون وجه الله.

خليلى قطاع الفيافى إلى الحمى ... كثير وأما الواصلون قليل

وجوه عليها للقبول علامة ... وليس على كل الوجوه قبول

كان بعض المتقدمين يحج ماشيًا على قدميه كل عام، ففى ليلة من الليالى، كان نائمًا على فراشه، فطلبت منه أمه شربة ماء، فصعب على نفسه القيام من فراشه ليسقى أمه الماء، فتذكر حجه ماشيًا كل عام، وأنه لا يشق عليه، فحاسب نفسه، فرأى أنه لا يهونه عليه إلا رؤية الناس له، ومدحهم إياه، فعلم أنه كان فاسدًا.

الشرط الثالث: أن يكون حجه مبروراً:

كما قال النبى ﷺ: **«الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»**.

قال ابن رجب الحنبلى فى لطائفه:[1] وإنما يكون مبروراً باجتماع أمرين فيه:

أحدهما: الإتيان فيه بأعمال البر، والبر يطلق بمعنيين:

المعنى الأول: بمعنى الإحسان إلى الناس وقد سئل النبى ﷺ عن البر، فقال: **«البر حسن الخلق»**[2]

وكان ابن عمر رضي الله عنه يقول: إنه شيء هين، وجه طليق، وكلام لين.

وهذا يحتاج إليه فى الحج كثيرًا، أعنى معاملة الناس بالإحسان فى القول والفعل.

قال بعضهم: إنما سمى السفر سفرًا، لأنه يسفر عن أخلاق الرجال.

وفى المسند عن جابر رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: **«الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة» قالوا: وما بر الحج يا رسول الله؟ قال: إطعام الطعام، وإفشاء السلام»**[3] وفى حديث آخر: **«وطيب الكلام»**.

ومن أجمع خصال البر التى يحتاج إليها الحاج فى سفره، ما وصى به النبى ﷺ الصحابى الجليل جابر بن سليم رضي الله عنه **«لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أن تفرغ من دلوك فى إناء المستسقى، ولو أن تعطى صلة الحبل، ولو أن تعطى شسع النعل، ولو أن تنحى الشيء**

(١) لطائف المعارف ص٤١٠، ٤١١

(٢) رواه مسلم (٢٥٥٣) والترمذى (٢٣٨٩) وقال: حسن صحيح ورواه أحمد فى مسنده (١٧٥٦٣).

(٣) رواه أحمد (٧٣٤٣) وذكره المنذرى فى الترغيب٢/ ١٦٥ وقال: رواه أحمد والطبرانى فى الأوسط بإسناد حسن وابن خزيمة فى صحيحه والبيهقى والحاكم مختصراً وقال: صحيح الإسناد.

من طريق الناس يؤذيهم، ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منطلق، ولو أن تلقى أخاك المسلم فتسلم عليه، ولو أن تؤنس الوحشان فى الأرض»(١)

وفى الجملة أن خير الناس أنفعهم للناس، وأصبرهم على أذى الناس كما وصف **الله** المتقين بذلك فى قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [آل عمران: ١٣٤].

ولقد جاء رجلان إلى «**ابن عون**» -رحمه **الله**- يودعانه، ويسألانه أن يوصيهما، فقال لهما عليكما بكظم الغيظ، وبذل الزاد، فرأى أحدهما فى المنام أن ابن عون أهدى إليهما حلتين.

وكان كثير من السلف يشترط على أصحابه فى السفر أن يخدمهم اغتنامًا لأجر ذلك وكان إبراهيم بن أدهم -رحمه **الله**- يشترط على أصحابه فى السفر الخدمة، والأذان.

وكان ابن المبارك -رحمه **الله**- إذا أراد الحج من بلده «مرو» جمع أصحابه وقال: من يريد منكم الحج؟ فيأخذ منهم نفقاتهم، فيضعها عنده فى صندوق، ويقفل عليه، ثم يحملهم وينفق عليهم أوسع النفقة، ويطعمهم أطيب الطعام، ثم يشترى لهم من مكة ما يريدون من الهدايا والتحف، ثم يرجع بهم إلى بلده، فإذا وصلوا صنع لهم طعامًا، ثم جمعهم عليه، ودعا بالصندوق الذى فيه نفقاتهم فردَّ إلى كل واحد نفقته.

وكان رجل من الصالحين يصحب إخوانه فيشترط عليهم الخدمة، فكان إذا رأى رجلاً يريد أن يغسل ثوبه، قال له: هذا من شرطى، فيغسله.

وإذا رأى من يريد أن يغسل رأسه، قال: هذا من شرطى، فيغسله، فلما مات نظروا فى يده، فإذا مكتوب فيها: «من أهل الجنة» فنظروا إليها فإذا هى كتابة بين الجلد واللحم(٢)

المعنى الثانى: أى من معانى البر، فعل الطاعات كلها

وقد فسر **الله** تعالى البر بذلك فى قوله تعالى: ﴿**وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ**﴾ [البقرة: ١٧٧] فتضمنت الآية ستة أنواع من البر:

أولها: الإيمان بأصول الإيمان الخمسة.

ثانيها: إيتاء المال المحبوب لذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب.

---

(١) رواه أحمد فى مسنده (١٥٨٩٧) ١٢/٣٨٨ ورواه أبو داود وصححه الألبانى برقم (٤٠٨٤) وصححه ابن حبان (٨٦٦)

(٢) لطائف المعارف لابن رجب الحنبلى ص٤١٣، ٤١٤

ثالثها: إقام الصلاة ﴿وَأَقَامَ الصَّلاةَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

رابعها: إيتاء الزكاة ﴿وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

خامسها: الوفاء بالعهد ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ [البقرة: ١٧٧].

سادسها: الصبر فى البأساء والضراء ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وكلها يحتاج الحاج إليها، فلا يصح حجه بدونها، فلا حج بدون إيمان، ولا بدون صلاة.

ولقد كان السلف الصالح رضوان الله عليهم أشد محافظة على الصلاة فى السفر.

فعن أبى إسحاق قال: حج مسروق فلم ينم إلا ساجدًا على وجهه حتى رجع[١]

والمغيرة بن حكيم الصنعانى: كان يحج من اليمن ماشيًا، وكان له ورد بالليل يقرأ فيه كل ليلة ثلث القرآن، فيصلى حتى يفرغ من ورده، ثم يلحق بالركب متى لحق، فربما لم يلحقهم إلا بآخر النهار[٢]

أخى الحبيب:

ومما يدلك على أن الصلاة تجبر صاحبها فى كل شىء، وأنها خير وطاعة يجب التزامها ما ذكره بعض العلماء، فقال:

كنت فى طريق الحج، وكان أمير القافلة يقف كل يوم لصلاة الفجر، فينزل، فنصلى، ثم نركب، فلما كان ذات يوم قرب طلوع الشمس، ولم يقفوا للناس، فناديتهم، فلم يقفوا، ولم يلتفتوا إلىَّ، فتوضأت على المحمل، ثم نزلت للصلاة على الأرض، ووطنت نفسى على المشى إلى وقت نزولهم للضحى، وكانوا لا ينزلون إلا قرب وقت الظهر، مع علمى بمشقة ذلك علىَّ، وأنى لا قدرة لى عليه، فلما صليت وقضيت صلاتى، نظرت إلى رفقتى، فإذا هم وقوف، وقد كانوا لو سئلوا ذلك لم يفعلوه، فسألتهم عن سبب وقوفهم، فقالوا: لَمَّا نزلتَ تعرقلت مقاود الجمال بعضها مع بعض، ونحن فى تخليصها إلى الآن.

قال: فجئت وركبت وحمدت الله على ذلك، وعلمت أنه ما قدم أحد حق الله تعالى على هوى نفسه وراحتها، إلا ورأى سعادة الدنيا والآخرة، ولا قدَّم أحد حظ نفسه على حق ربه، إلا ورأى الشقاوة فى الدنيا والآخرة[٣]

الشرط الرابع: اجتناب أفعال الإثم فى الحج:

فلكى يكون الحاج حجه مقبولاً ومبروراً يجب عليه أن يتجنب الإثم والفسوق والعصيان قال تعالى: ﴿فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧] ثم تأمل

---

(١) المرجع السابق ص٤١٥ وصفة الصفوة٣/ ١٣

(٢) المرجع السابق ص٤١٥ وصفة الصفوة ٢/ ١٧٧

(٣) لطائف المعارف ص٤١٦.

ختام آية الحج، إنها ثمـرته، إنها زاده الأعظم: التقوى، ﴿**وتزودوا فإن خيرالزاد التقوى واتقونى يا أولى الألباب**﴾ [البقرة: ١٩٧] فهى وصية الله للأولين والآخرين.

يقول أبو الدرداء ﷺ:

يـريـد المـرء أن يـؤتـى مـنـاه ... ويـأبـى الله إلا مـا أرادا

يـقـول المرء فـائـدتـى ومـالـى ... وتقـوى الله أفـضل مـا اسـتـفـادا

الشرط الخامس: أن يعود راغبًا فى الآخرة، زاهدًا فى الدنيا:

لكن إذا عاد من حـجه راغبًا فى الدنيـا، فأكل أموال الناس ظلمًـا، وسرق، ونهب وغش وقبل الرشوة، وشرب المسكرات فما قيمة حجه حينئذ؟!.

فكن أخى الحبـيب مثل السلف الصـالح -رضوان الله عليهم- زاهدًا فـى هذه الدنيا الفانية، وارغب فـى حياتك الباقية، واعـمل الصالحات، واجتنب المنكـرات، تفز برضوان رب الأرض والسموات.

كان إبراهيم بن أدهم -رحمه الله- يسيـر إلى حج بيت الله الحرام، فإذا أعرابى على قعـوده، فقال لـه: يا شيخ، إلى أين؟ فـقال إبراهيم: إلـى بيت الله الحرام، قـال: كأنك مجنون، لا أرى لك مركبًا، ولا زادًا، والسفر طويـل! فقال إبراهيم: إنَّ لى مراكب كثيرة، ولكنك لا تراهـا، قال: وما هى؟ قـال: إذا نزلت على بلية ركـبت مركب الصـبر، وإذا نزلت علىَّ نعـمة ركبت مـركب الشكر، وإذا نزل بى القـضاء ركبت مـركب الرضا، وإذا دعتنى نفسى إلى شىء علمت أن ما بقى من العمر أقل مما مضى. فقال الأعرابى: سر بإذن الله، فأنت الراكب وأنا الماشى[(١)]

الوصية رقم (٩)
صومى عنها .. حجى عنها

عن بريدة ﷺ قال: بينما أنا جالس عند رسول الله ﷺ، إذ أتته امرأة فقالت: إنى تصدقـت على أمى بجارية، وأنـها ماتت، فـقال: «**وجب أجـرك، وردها عليك الميـراث**» قالت: يا رسول الله، إنه كان عليها صوم شهر، أفأصوم عنها؟ قال: «**صومى عنها**» قالت: إنها لم تحج قط، أفأحج عنها؟ قال: «**حجى عنها**»[(٢)]

• فى رحاب هذه الوصية •

فى هذه الوصية والتـى رواها لنا الصحابى الجليل بريدة بن الحُـصيب ﷺ يذكر أنه كان جالسًا عند رسول الله ﷺ فجاءته امرأة تستفتيه فى أمـر من أمور دينها، فأخبرته بأنها

---

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازى ١/ ٣١٢ ط/دار الغد.

(٢) رواه مسلم (١١٤٩).

تريد أن تبر أمها بعد موتها بصالح الأعمال التى تجلب الحسنات، وتكثر منها، وتكون سببًا فى غفران ذنوب والدتها، فقد قامت بالتصدق بجارية، رجاء أن يصل ثواب الصدقة إلى روحها، ثم أخبرت الرسول ﷺ أن أمها كان عليها صيام من الفريضة لكن الموت فاجأها قبل أن تقضيه، فهل يجوز أن تصوم هذا الشهر عنها؟ فأوصاها النبى ﷺ بأن تصومه عنها، ثم انتقلت إلى فريضة الحج سائلة: هل لى أن أحج عنها؟ فأوصاها النبى ﷺ بالحج عنها.

قال النووى: اختلف العلماء فيمن مات وعليه صيام واجب من رمضان، أو قضاء نذر أو غيره، فهل يقضى عنه؟ وللشافعى فى المسألة قولان مشهوران: أشهرهما: لا يصام عنه، ولا يصح عن ميت صوم أصلاً، والثانى: يستحب لوليه أن يصوم عنه، ويصح صومه عنه، ويبرأ به الميت، ولا يحتاج إلى إطعام عنه، وهذا القول هو الصحيح المختار الذى نعتقده[١] وكذلك يصح الحج شريطة أن يكون الولد قد حج أولاً عن نفسه، ولا عجب فقد شدد الرسول ﷺ فى الوصية بالوالدين حيث قال فى الحديث الذى رواه عنه المقداد بن معديكرب: «**إن الله يوصيكم بأمهاتكم «ثلاثًا» وإن الله يوصيكم بآبائكم، إن الله يوصيكم بالأقرب فالأقرب**»[٢]

• بر الوالدين بعد موتهما •

أخا الإسلام:

هل بر الوالدين ينقطع بموتهما؟

إن ما دلتنا عليه سورة الإسراء، أن بر الوالدين لا ينتهى بعد موتهما بل هو مستمر، وذلك فى قوله تعالى: ﴿**وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا**﴾ [الإسراء: ٢٤].

فليس الدعاء لهما فقط فى حياتهما بل هو مشروع لإيصال البر لهما بعد وفاتهما، ولذلك أخبرنا نبينا المصطفى، ورسولنا المجتبى ﷺ بأن الدعاء ينفع الأموات، ويصل من الأبناء الصالحين للآباء، فقال ﷺ: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»[٣]

وقد دلت السنة النبوية المطهرة على أن البر بالوالدين موصول بعد وفاتهما حين جاء رجل من بنى سلمة إلى رسول الله ﷺ يسأله، فقال له: يا رسول الله، هل بقى علىَّ من بر أبواى شىء بعد موتهما أبرهما به؟ قال ﷺ: «**نعم. خصال أربع: الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما، وإكرام صديقهما، وصلة الرحم التى لا توصل إلا بهما،**

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ٤/ ٢٧٧ دار الفجر.
(٢) رواه ابن ماجه (٣٦٦١) وصححه الألبانى فى صحيح ابن ماجه برقم (٢٩٥٤).
(٣) رواه مسلم واحمد فى مسنده (٨٨٣) وذكره الألبانى فى ص.ج (٧٩٣).

تهذا الذى بقى عليك من برهما بعد موتهما»[١] وفى رواية: قال الرجل: ما أكثر هذا يا رسول الله وأطيبه. قال: فاعمل به[٢]

والمقصود بالصلاة عليهما -أى الترحم والدعاء لهما-، وقد ثبت أن نبى الله نوح ﷺ كان يدعو لوالديه كما حدث القرآن بقوله تعالى: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ..﴾ [نوح: ٢٨].

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «إن الرجل لترفع درجته فى الجنة، فيقول: أنَّى هذا؟ فيقال: باستغفار ولدك لك»[٣]

وصلة رحم الأب من بره، وكذلك الأم، ولذلك روى عن أبى بُردة قال: قدمت المدينة فأتانى عبد الله بن عمر، فقال: أتدرى لمَ أتيتك؟ قلت: لا قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أحب أن يصل أباه فى قبره، فليصل إخوان أبيه بعده»[٤].

وكذلك من الأمور التى يصل ثوابها إلى الميت: سقى الماء.

فعن سعد بن عبادة رضي الله عنه قال: يا رسول الله إنَّ أم سعد ماتت، فأى الصدقة أفضل؟ قال: الماء. قال: فحفر بئرًا وقال: هذه لأم سعد[٥]

قال القرطبى: فدل على أن سقى الماء من أعظم القربات عند الله تعالى. وقد قال بعض التابعين: من كثرت ذنوبه فعليه بسقى الماء. وقد غفر الله ذنوب الذى سقى الكلب، فكيف بمن سقى رجلاً مؤمنًا موحدًا وأحياه[٦]

قال السمرقندى: فإن سأل سائل: إن الوالدين إذا ماتا ساخطين على الولد، هل يمكنه أن يرضيهما بعد وفاتهما؟ قيل: بلى. يرضيهما بثلاثة أشياء:

أولها: أن يكون الولد صالحًا فى نفسه، لأنه لا يكون شىء أحب إليهما من صلاحه.

والثانى: أن يصل قرابتهما وأصدقاءهما.

والثالث: أن يستغفر لهما، ويدعو لهما، ويتصدق عنهما[٧]

---

(١) رواه أحمد فى مسنده (٤ ١٦٠) بإسناد حسنه حمزة الزين ١٢/ ٤٣٥ وهو فى صحيح ابن ماجه للألبانى برقم (٨٠) وأبو داود ٤/ ٣٣٦ رقم ٥١٤٢ وقد ضعفه الألبانى فى ضعيف سنن أبى داود (٥١٤٢). لكن الحديث صححه الحاكم ٤/ ١٥٤ ووافقه الذهبى.

(٢) رواه ابن ماجه أيضًا بسند حسن.

(٣) صحيح سنن ابن ماجه للألبانى (١٤٧٣).

(٤) رواه ابن حبان فى صحيحه.

(٥) رواه أحمد بنحوه فى مسنده (٢٢٣٥٨) بإسناد صحيح.

(٦) تفسير القرطبى جـ٧/ ١٩٤

(٧) تنبيه الغافلين للسمرقندى ص٩٤

• بار والديه فى ظل عرش الرحمن جـل جلالـه •

تارك العقوق يحظى بميزة عظيمة، فيكون من الذين يظلهم الله فى ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، فعن عمرو بن ميمون -رحمه الله- قال: «إنه لما تعجل موسى عليه السلام إلى ربه رأى رجلاً فى ظل العرش فـغبطه بمكانه، فقال: إنَّ هذا الكريم على ربـه، فسأل ربه -عز وجل- أن يخبره باسمه، فلم يخبره باسمه، وقال: ولكن أحدثك عن عمله بثلاث خصال: كان لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله، ولا يعق والديه، ولا يمشى بالنميمة»(١)

• عاقبة من عق والديه •

أخا الاسلام:

اعلم أن الله تعالى إذا كـان قد أمرك أن تبر والديك، وأوصاك رسولك محمد ﷺ بهما فى حياتهما وبعد وفاتهما، فإن الله ورسوله حرم عليك عقوقهما، لأن فى العقوق إنكارًا للجميل، وجحودًا لما قدموه من معروف، وإنكاراً لما بذلوه بسخاء نفس، وطيب خاطر، لذلك كان من عاقبة العقوق ما يأتى:

١- **أن عاق والديه ملعون:** وهذا بنص حديث رسول الله ﷺ الذى يرويه عنه على ابن أبى طالب رضي الله عنه فيقول فيه: «**لعن الله من لعن والديه**»(٢).

فتأمل رحمك الله، كيف كان الجزاء من جنس العمل، فمن لعن والديه بسبه لهما، وشتمه إياهما، لعنه الله - أى طرده من رحمته.

فمن الذى يقوى على طرد الله وبعده عن رحمته؟!.

٢- **أن عقوق الوالدين من أكبر الكبائر:** فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ «**إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه. قيل: يا رسول الله، كيف يلعن الرجل والديه؟. قال: يسب الرجل أبا الرجل، فيسب أباه، ويسب أمه**»(٣). فكأن السائل يستبعد أن يحدث ذلك من الابن، لأن الطبع المستقيم يأباه.

قال ابن بطال: هذا الحديث أصل فى سد الذرائع، ويؤخذ منه أن من آل فعله إلى محرم يحرم عليه ذلك الفعل، وإن لم يقصد إلا ما يحرم.

---

(١) رواه أبو نعيم فى الحلية ٤/١٤٩ وابن أبى الدنيا فى الصمت (٢٦٥) وأحمد فى الزهد ص٨٥ والخرائطى فى المساوئ (٢٢٠) ص٩٣، ٩٤ وإسناده صحيح.

(٢) رواه مسلم وأحمد فى مسنده (٢٩١٥) وذكره الألبانى فى ص.ج (٥١١٢).

(٣) رواه البخارى (٥٩٧٣) فتح.

وقال الشيخ محمد بن أبي جمرة: فيه دليل على عظم حق الأبوين. وفيه العمل بالغالب لأن الذي يسب أبا الرجل يجوز أن يسب الآخر أباه، ويجوز أن لا يفعل، لكن الغالب أن يجيبه بنحو فعله[1]

٣- أن الله تعالى لا ينظر إليه يوم القيامة: مصداقًا لما رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاق لوالديه، ومدمن الخمر، والمنان عطاءه»، وفي رواية: «العاق لوالديه، والديوث، والرجلة»[2]

والديوث هو الذي لا يغار على عرضه، ويرضى الفاحشة في أهله.

والرجلة هي المرأة التي تشبه الرجال.

٤- أن عقوبة العاق لوالديه معجلة له في دنياه: فعن أبي بكرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كل الذنوب يؤخرُها الله منها ما شاء إلى يوم القيامة إلا عقوق الوالدين، فإن الله يعجله لصاحبه في الحياة قبل الممات»[3]

٥- أن عاق والديه لا يقبل الله له عبادة: فعن أبي أمامة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يقبل الله منهم صرفًا -أي فريضة- ولا عدلا -أي نافلة-: عاق، ولا منان، ولا مكذب بقدر»[4]

٦- أن عاق والديه محروم من دخول الجنة: فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لا يدخل الجنة عاق، ولا منان، ولا مدمن خمر»[5]

والمراد أنه لا يدخل الجنة على هذه الصفة، إلا أن يتوب ويقلع عن هذه الأمور أو بعد العقوبة بقدر معصيته، أو بأن يعفو الله عنه كرمًا وفضلاً

• ذم العقوق ولو كان الأبوان كافرين •

اعلم أنه لا يحل لمسلم أن يعق والديه حتى ولو كانا على غير ملة الإسلام، وقد أمر القرآن الكريم بطاعتهما إلا أن يأمراك بالإشراك بالله، وحينئذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، قال سبحانه: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥].

(١) ذكره ابن حجر، في فتح الباري ٤١٨/١

(٢) رواه أحمد في مسنده (٩٥٦٠) بإسناد صحيح وابن حبان في صحيحه (٣٢ ٢) والحاكم ١٤٦/٤ وقال صحيح الإسناد وذكره المنذري في الترغيب ٣٢٧/٣

(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد، والترمذي (٢٥١٣) وابن ماجه (٤٢١١) وذكره الألباني في صحيح سنن أبي داود (٤٩٠٢) جـ٣/٢ ٢ بإسناد حسن.

(٤) ذكره المنذري في الترغيب ٣٢٧/٣، ٣٢٨ وقال: رواه ابن أبي عاصم في كتاب السنة بإسناد حسن.

(٥) رواه أحمد في مسنده (٦٨٩٢) بإسناد صحيح والخرائطي في المساوئ (٢٤).

قال القرطبي: «والآية دليل على صلة الأبوين الكافرين بما أمكن من المال إن كانا فقيرين، وإلانة القول والدعاء إلى الإسلام برفق وقد ورد في السنة النبوية ما يشير إلى ذلك: فعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت: أتتني أمي وهي راغبة - فاستفتيت رسول الله ﷺ: وقلت له: أفأصلها؟ فقال النبي ﷺ: «**نعم صلي أمك**»(١).

ولقد أفاد الحديث ما يلي:

١- جواز صلة القريب المشرك ما دام غير محارب، وخاصة الوالدين.

٢- حرص الإسلام على العلاقات الاجتماعية ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

٣- منع عقوق الوالدين(٢)

• إياك ودعوة الأم •

أخي الحبيب:

احذر عقوق والديك، واحذر أن تدعو عليك أمك حين تعقها أو تغضبها، فدعوتها مستجابة عند الله تعالى. وتأمل هذا الخبر فإنه يدلك على هذا:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كان جريج رجلاً عابدًا يتعبد في صومعته، فأتته أمه، فجعلت كفها فوق حاجبها، ثم رفعت رأسها إليه تدعوه، وهو يصلي، فقالت: يا جريج، أنا أمك فكلمني، فقال: اللهم أمي وصلاتي، فاختار صلاته، فانصرفت، فلما كان الغد أتته، وهو يصلي، فقالت: يا جريج، أنا أمك فكلمني، فقال: اللهم أمي وصلاتي، فاختار صلاته، فقالت اللهم لا تمته حتى ينظر إلى وجوه المومسات**» أي الزانيات الفاجرات.

قال: ولو دعت عليه أن يفتتن لافتتن. قال: وكان راع يأوي إلى ديره، فخرجت امرأة فوقع عليها الراعي، فولدت غلامًا، فقيل: ممن هذا؟ فقالت: هو من صاحب الدير، فأقبلوا بفؤوسهم ومساحيهم، وأقبلوا إلى الدير فنادوه، فلم يكلمهم، فأقبلوا يهدمون ديره، فنزل إليهم، فقالوا: سل هذه المرأة. قال: أراه تبسم، ثم مسح على رأس الصبي، فقال: من أبوك؟ قال: راعي الضأن. قالوا: يا جريج، نبني ما هدمنا من ديرك بالذهب والفضة. قال: لا، ولكن أعيدوه كما كان، ففعلوا»(٣)

قال الإمام النووي:

إنما دعت عليه، فأجيبت لأنه كان يمكنه أن يخفف ويجيبها، لكن لعله خشي أن تدعوه إلى مفارقة صومعته، والعود إلى الدنيا، وتعلقاتها.

---

(١) رواه البخاري (٥٩٧٩) ومسلم (١٠٠٣)، وأبو داود (١٦٦٨).

(٢) ذكره الشيخ مجدي السيد في عقوق الوالدين ص٩٥ من نزهة المتقين ١/٣١٣.

(٣) رواه البخاري (٣٤٣٦) وأحمد في مسنده (٩٥٦٨) ومسلم.

وفى قصة جريج فوائد منها :-

١- قال ابن حجر: وفى الحديث: إيثار إجابة الأم على صلاة التطوع، لأن الاستمرار فيها نافلة، وإجابة الأم وبرها واجب.

٢- إذا تعارضت الأمور بدئ بأهمها.

٣- إثبات كرامات الأولياء.

• كما تدين تدان ... والجزاء من جنس العمل •

اعلم أخا الاسلام:

أن سنة الله جرت فى عباده أنه كما تدين تدان، وبالكيل الذى تكيل به سيكال لك به بعد ذلك، وأن الجزاء من جنس العمل، ولذلك ورد.

١- عن العوام بن حوشب قال: «نزلت مرة حيا من الأحياء، وإلى جانب ذلك الحى مقبرة، فلما كان بعد العصر، انشق منها قبر، فخرج رجل رأسه رأس حمار، وجسده جسد إنسان، فنهق ثلاث نهقات، ثم انطبق عليه القبر»[1]

قال الأصبهانى: حدث به أبو العباس الأصم بمشهد من الحفاظ، فلم ينكروه.

٢- قال الأصمعى -رحمه الله-: خرجت يومًا إلى البادية، فرأيت رجلاً كبيرًا، وقد أضعفه الهرم، وأثقل كاهله المشيب، ولكنى رأيت فى عنقه حبلاً، ودلوًا، وهو ينزح من بئر عميقة، والفصل صيف، والجو حار، وخلفه شاب قوى يضربه إن توانى، فأخذتنى الشفقة عليه، فأقبلت إلى الشاب وقلت له: أو ما تتقى الله فى هذا الشيخ الضعيف، فزجرنى الشاب، وقد أخذه الغضب، وقال لى: لا شأن لك به فهو أبى، وأصنع به ما أشاء، فتعجب من أمره، فقلت له: إنَّ هذا عذر أقبح من الذنب، فلا جزاك الله عن والدك خيرًا، فقال الشاب: لا تدع علي يا سيدى، فإنه كان يفعل هذا بأبيه، فانصرفت عنه، وقلت فى نفسى: «إن لله فى خلقه شئون»[2] أرأيت أخى الحبيب كيف يُفعل بك ما تفعله بوالديك»!

٣- يقول ابن إسحاق -رحمه الله-: ما أعدل القدر فى أخذه، لقد رأيت بنفسى، وشاهدت بعينى رجلاً من أهل البصرة، رباه والده فى حنان، ورفق، فلما بلغ مبلغ الرجال، زوجه بامرأة جميلة، ورزقه الله منها أولادًا، فأقبل على زوجته وأولاده، وانشغل عن إكرام أبيه والإحسان إليه، وكان كلما كبر سنه، أزداد فى جسمه قوة، وفى ماله كثرة

---

(١) رواه ابن أبى الدنيا فى «مجابو الدعوة» ص٤ ١، ورواه الأصبهانى وغيره والمنذرى فى الترغيب ٣/ ٣٣٢، ٣٣٣ وابن حجر الهيثمى فى الزواجر ص٤٥٧

(٢) سمير الصالحين للشهاوى ٢/ ١٥٢ ط دار التأليف.

بخلاف أبيه، فقد تملكه الضعف والمرض لكن الابن كان عاقًا لوالده، فجحد جميله إليه، ونسى كثرة أياديه عليه، فتجرأ على عقوقه أولاده وزوجته، فجعلوا يسخرون من الرجل، ويضحكون من أفعاله.

وحدث يومًا أن قدموا له طعامًا فى إناء زجاجى، فتناوله الشيخ بيد مرتعشة، فعجز عن حمله فسقط الإناء على الأرض، فتهشم وتحطم.

فلما رأت الزوجة هذا الأمر غضبت، وثار الأولاد فى وجهه، فلما جاء ابنه حدثوه عن الطبق الفاخر، وكيف حطمه الشيخ العجوز، وحينئذ اشتد غضبه على أبيه، وقال لأولاده: لا تقدموا له طعامًا إلا فى طبق من المعدن -وقيل: من الخشب- فاستحسنت الزوجة هذا الرأى، وأعجب الأولاد بفكرته، وأقبلوا عليه قائلين: ما أحسن رأيك يا أبانا، إن هذا الإناء قوى متين، وسنطعم فيه جدنا مادام حيًا، حتى إذا مات احتفظنا به ذخرًا باقيًا عندنا، فإذا تقدم بك السن، وعلاك الشيب، وصرت شيخًا كبيرًا أطعمناك فيه حتى لا تكسر لنا الأطباق الزجاجية.

وهنا فزع الوالد من قولهم، وارتعد من حديثهم، وأدرك أنهم يتكلمون بلسان القدر[1] ففطن وعلم أنه كما يفعل بأبيه سيفعل به، وعلم أن الجزاء من جنس العمل، وكما قال سبحانه ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤]. ومن تلك الأخبار التى تروى عن أهل العقوق.

٤- يحكى أن أحد التجار الأغنياء لما كبرت سنه، وضعفت قوته، تخلى عما لديه من مال لأولاده، بعد أن تعهدوا له أن يقوموا بأموره كافة، فوفوا له حينًا، ثم طفقوا يهملونه شيئًا فشيئًا، حتى قست قلوبهم عليه، وأصبحوا يطعمونه كرها، ويلبسونه كرهًا. فلما رأى ذلك من أولئك العاقين، عض بنان الندم على ما فعله، واستمر يتجرع الغصص منهم، إلى أن أتاه ذات يوم بعض أصحابه القدماء، بدين عظيم، كان قد يئس من الحصول عليه، وقطع الرجاء منه، فأحضر صندوقًا متينًا أودعه إياه. فحينما رأى الأولاد أن أباهم ذو مال، أخذوا يحترمونه، ويراعون خاطره، كى يتخلى لهم عما بقى لديه، لكنه قد اتعظ بما جرى له من قبل، فلم يعطهم شيئًا.

ثم عند وفاته أسرعوا إلى الصندوق وفتحوه، بقصد أن يغنموا ما فيه، فإذا هو مملوء حجارة، فوقها ورقة مكتوب فيها: «إن الله قادر على أن يحول الذهب حجارة للبنين الذين يعقون والدهم».

(١) سمير الصالحين للشهاوى ١/١٤٨، ١٤٩ بتصرف.

وذلك أن الأب لما رأى سوء فعلهم، وتيقن عقوقهم، تصدق سرًا بذلك المال على بيت لتربية اليتامى، ومعالجة الفقراء، وملأ الصندوق حجارة، وكتب الورقة توبيخًا لأولاده العاقين[١]

•موعظة•

الويل كل الويل لعاق والديه، والخزى كل الخزى لمن ماتا غضبًا عليه، هل جزاء المحسن إلا أن يحسن إليه، اتبع الآن تفريطك من حقهما أنينًا وزفيرًا ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾ [الإسراء: ٢٤] كم آثراك بالشهوات على النفس، ولو غبت عنهما ساعة صارا في حبس، حياتهما عندك بقايا شمس، قد رعياك طويلا، فارعهما قصيرًا، ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾ [الإسراء: ٢٤].

كم ليلة سهرا عليك إلى الفجر، يدارياك مداراة العاشق في الهجر، وإن مرضت أجريا عليك دمعًا لم يجر، ولم يرضيا لتربيتك غير الكف، والحجر سريرًا، يعالجان أنجاسك، ويحبان بقاءك، ولو لقيت منهما أذى شكوت شقاك، ما تشتاقهما إذا غابا، ويشتاقان لقاءك، كم جرعاك حلوًا، وجرعتهما مريرًا.

تحسن الإساءة في مقابلة الإحسان، كيف تعارض فعلهما بقبيح العصيان، ثم ترفع عليهما صوتًا جهيرًا، فتصدق عنهما إن كانا ميتين، وحج عنهما، واقض عنهما الدين، واستغفر لهما، واستدم هاتين الكلمتين، ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾[٢].

فاتقوا الله في آبائكم، وأمهاتكم، وأدوا حقوقهم، وأجهدوا أنفسكم في كسب رضاهم، فهم الذين بذلوا أموالهم وسعادتهم من أجلكم، وهم الذين أعطوكم من غير منٍّ ولا أذى راجين حياتكم، وتعطونهم مع المن والأذى مترقبين مماتهم

أطيعوهم والتزموا الأدب معهم، ولا ترفعوا أصواتكم فوق أصواتهم، ولا تنظروا إليهم بعين الغضب، فقد نظروا إليكم بعين الرحمة والحب والشفقة، ولا تنظروا إليهم بعين الجفاء، فقد نظروا إليكم بعين الفطرة والوفاء.

رئي بعض الصالحين يمشي خلف جنازة أمه وهو يبكي كثيرًا، فقيل له: ما هذا البكاء؟ أما تعلم أن الموت سبيل لابد منه؟ قال: بلى، والله، ولكن أبكي على إغلاق باب الجنة. أخذ ذلك من قول ابن عباس رضي الله عنهما من أصبح مرضيًا لأبويه، أصبح له بابان مفتوحان إلى الجنة، وإن كان واحدًا فواحدًا، ومن أمسى كذلك فكذلك، ومن أصبح مسخطًا لأبويه، أصبح له بابان مفتوحان إلى النار، وإن كان واحدًا فواحدًا، ومن أمسى كذلك فكذلك»[٣]

---

(١) عقوق الوالدين لفضيلة الشيخ/ مجدى السيد ص٧١، ٧٢ ط. دار الصحابة.

(٢) التبصرة لابن الجوزى ١/ ٢٣٦، ٢٣٧ والترغيب والترهيب لليافعى ص١٦٥ ط. التوفيقية.

(٣) الترغيب والترهيب لليافعى (٣٦٦) ص١٦٣

تقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، والتكبير أى تقول: الله أكبر، والتحميد أى تقول: الحمد لله.

والأيام العشر هى الأيام المعلومات التى ذكرها الله تعالى فى قوله: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ [الحج: ٢٨].

ومن فضائله أيضًا: أنه من جملة الأربعين التى واعدها الله عز وجل لموسى عليه السلام قال تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: ١٤٢].

ومن فضائل العشر الأول من ذى الحجة أيضًا: أنها خاتمة الأشهر المعلومات، أشهر الحج التى قال الله فيها: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾ [البقرة: ١٩٧] وهى شوال، وذو القعدة، وذو الحجة.

أخا الإسلام:

لما كان الله سبحانه وتعالى قد وضع فى نفوس المؤمنين حنينًا إلى مشاهدة بيته الحرام، وليس كل أحد قادرًا على مشاهدته فى كل عام، فرضَ على المستطيع الحج مرة واحدة فى عمره، وجعل موسم العشر مشتركًا بين السائرين والقاعدين، فمن عجز عن الحج فى عام قدر فى العشر على عمل يعمله فى بيته، يكون أفضل من الجهاد الذى هو أفضل من الحج.

ليالى العشر أوقات الإجابة ... فبادر رغبة تلحق ثوابه
ألا لا وقت للعمال فيه ... ثواب الخير أقرب للإصابه
من أوقات الليالى العشر حقًا ... فشمر واطلبن فيها الإنابه

فاحذروا المعاصى، فإنها تحرم المغفرة فى مواسم الرحمة، فالمعاصى سبب البعد والطرد، كما أن الطاعات أسبابٌ للقرب والودّ.

طاعة الله خير ما لزم العبـ ... ـد فكن طائعًا ولا تعصينه
ما هلاك النفوس إلا بالمعاصى ... فاجتنب ما نهاك لا تقربنه

واعلم أخى الحبيب أن القاعد لعذر شريك السائر، وربما سبق القاعد بقلبه السائر ببدنه رأى بعضهم فى المنام عشية عرفة فى الموقف قائلاً يقول له: أترى هذا الزحام على هذا الموقف؟ فإنه لم يحج منهم أحد إلا رجل تخلف عن الموقف، فحج بهمته، فوهب له أهل الموقف[١]

---

(١) لطائف المعارف لابن رجب ص٤٧٧

فالعجل العجل قبل هجوم الأجل، قبل أن يفرط المفرط على ما فعل، قبل أن يسأل الرجعة ليعمل صالحًا فلا يجاب إلى ما سأل، قبل أن يحول الموت بين المؤمل وبلوغ الأمل، قبل أن يصير المرء مرتهنًا فى حفرته بما قدم من عمل.

• العيد فى الإسلام •

ليس فى الإسلام إلا عيدين وهما: عيد الأضحى، وعيد الفطر.

فعن أنس ﷺ قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة، ولهم يومان يلعبون فيهما، فقال: **ما هذان اليومان؟** قالوا: كنا نلعب فيهما فى الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ: «**إنّ الله عز وجل قد أبدلكم بهما خيرًا منهما، يوم الفطر، ويوم الأضحى**»[١]

وقد رفض الإسلام الحنيف الاتجاه إلى ابتداع أعياد زائدة على ما شرع الله ورسوله فعن الحسن بن على ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**صلوا فى بيوتكم، ولا تتخذوها قبورًا، ولا تتخذوا بيتى عيدًا، وصلوا علىّ وسلموا فإن صلاتكم تبلغنى حيثما كنتم**»[٢] كما جاء فى دعائه ﷺ: «**اللهم لا تجعل قبرى من بعدى عيدًا**».

أما من ناحية الكيف، ففى العيدين فى الإسلام وسطية راشدة. تأخذ النفس حظها من مباهج الحياة وزينتها فى مأكلها وملبسها، ومشربها، لمن أراد ذلك. كما تلهو لهوًا يمتع النفس فى وقار والتزام، مع ألوان من الشعائر، والعبادات اختص بها هذان اليومان الكريمان.

يقول الصنعانى: يندب لبس أحسن الثياب، والتطيب بأجود الأطياب فى يوم العيد، ويزيد فى الأضحى الأضحية بأسمن ما يجد، لما أخرجه الحاكم من حديث الحسن السبط قال: «أمرنا رسول الله ﷺ فى العيدين أن نلبس أجود ما نجد، وأن نتطيب بأجود ما نجد، والتضحية بأسمن ما نجد، البقرة عن سبعة، والجزور عن عشرة، وأن نظهر التكبير والسكينة والوقار»[٣]

وعن عقبة بن عامر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يوم عرفة ويوم النحر، وأيام التشريق عيدنا أهل الإسلام، وهى أيام أكل وشرب**»[٤]

ففى عيد الفطر يفرح المسلم بإنجاز عبادة الصيام، والتى تسهم إسهامًا كبيرًا فى بناء القيم الفاضلة داخل المسلم.

---

(١) رواه أبو داود بإسناد صحيح والترمذى والنسائى.

(٢) تحذير الساجد ص٩٨، ٩٩ وصححه الألبانى فى ص.ج.

(٣) سبل السلام للصنعانى٢/ ٧٢.

(٤) رواه الترمذى (٧٧٣) وأحمد فى مسنده (١٧٣٢١) والألبانى فى صحيح سنن أبى داود برقم (٢٤١٩).

وعيد الأضحى هو يوم النحر، وهو يوم الحج الأكبر كما سماه رسولنا ﷺ، لأنه مترتب على إكمال فريضة الحج، كما قال النبي ﷺ عنه: «**الحج عرفة**» فإذا كمل يوم عرفة، وأعتق الله عباده المؤمنين من النار، اشترك المسلمون كلهم فى العيد عقد ذلك وشرع للجميع التقرب إليه بالنسك، وهو إراقة دم القرابين.

فالحجاج يرمون الجمرة، ويشرعون فى التحلل من إحرامهم، ويقربون هديهم، وأما غيرهم فيجتمعون على ذكر الله وتكبيره والصلاة له.

قال محنف بن سليم ؓ -وهو معدود من الصحابة-: «الخروج يوم الفطر يعدل عمرة، والخروج يوم الأضحى يعدل حجة».

• العيد فى نظر الصالحين •

العيد عند الصالحين ليس لمن لبس الجديد، إنما العيد لمن طاعته تزيد، ليس العيد لمن تجمل باللباس والركوب، إنما العيد لمن غفرت له الذنوب.

دخل رجل على عليٍّ بن أبى طالب ؓ فوجده يأكل خبزاً خشنًا، فقال له: يا أمير المؤمنين، فى يوم العيد وتأكل خبزًا خشنًا؟! فقال: اليوم عيد من قُبل سعيه، وغفر ذنبه، ثم قال: اليوم لنا عيد، وغدًا لنا عيد، وكل يوم لا نعصى الله فيه فهو عيد.

وكان بعض العارفين ينوح على نفسه ليلة العيد بهذه الأبيات:

بحرمة غربتى كم ذا الصدود ... ألا تعطف علىَّ ألا تجود!

سرور العيد قد عم النواحى ... وحزنى فى ازدياد لا يبيد

فإن كنت اقترفت خلال سوء ... فعذرى فى الهوى ألا أعود[1]

وأنشده غيره:

للناس عشرٌ وعيدٌ ... وأنا فقير وحيدُ

يا غايتى ومناى ... قد لذَّ لى ما تريد[2]

وأما أعياد المؤمنين فى الجنة فهى أيام زيارتهم لربهم عز وجل، فيزورونه ويكرمهم غاية الكرامة، ويتجلى لهم فينظرون إليه، فما أعطاهم شيئًا هو أحب إليهم من ذلك وهو الزيادة التى قال الله فيها: ﴿**لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ**﴾ [يونس: ٢٦].

فليس للمحب -العبد المسلم- عيد سوى قرب محبوبه - وهو الله رب العالمين.

قال الحسن البصرى -رحمه الله-: كل يوم لا تعصى الله فيه فهو عيد.

---

(١)، (٢) لطائف المعارف لابن رجب ص٤٨٣، ٤٨٤

• فضل وثواب الأضحية •

والأضاحى سنة أبينا إبراهيم عليه السلام، فعن زيد بن أرقم قال: قلت: يا رسول الله ما هذه الأضاحى؟ قال: «**سنة أبيكم إبراهيم، قالوا: ومالنا منها؟ قال: بكل شعرة حسنة، قالوا: فالصوف؟ قال: بكل شعرة من الصوف حسنة**»(١)

فهى سنة الخليل إبراهيم عليه السلام الذى نتبع ملته، والذى نرث نسبه وعقيدته، والذى ينتهى إليه نسب رسولنا العظيم ﷺ، وخاتم الأنبياء والمرسلين والذى استجاب الله دعوته ببعثة رسوله محمد ﷺ، كما فى قوله تعالى: ﴿**ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم**﴾ [البقرة: ١٢٩] وقد مضت سنة ذكرى الحادث العظيم الذى سجلته آيات القرآن الكريم، مثالاً للطاعة، ومنارة للإيمان، وإشادة بتسليم إبراهيم، وأبنه إسماعيل لأمر الله، والاستسلام لقضائه وابتلائه. ﴿**إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ**﴾ [الصافات: ١٠٦، ١٠٧] مضت سنة الأضاحى حتى لا يهتز إيمان الأمة فى وعد الله تعالى بتفريج كربات عباده المؤمنين، ولكى تعرف أن ربها لا يريد أن يعذبها بالابتلاءات إنما يريد أن تأتيه طائعة راضية، فإذا ظهر منها الصدق، خفف آلامها، وفرج همها، وأكرمها كما أكرم أباها إبراهيم وابنه إسماعيل - عليهما السلام-

مضت سنة الأضاحى كذلك عن أمر رسولنا محمد ﷺ، وفعله فعن عائشة رضي الله عنها أن النبى ﷺ قال: «**ما عمل ابن آدم يوم النحر عملاً أحب إلى الله من هراقة الدم، وإنها لتأتى يوم القيامة بقرونها وأظلافها، وأشعارها، وإن الدم ليقع من الله عز وجل بمكان، قبل أن يقع على الأرض فطيبوا بها نفسًا**»(٢)

وعن أنس رضي الله عنه أن النبى ﷺ ضحى بكبشين أقرنين أملحين، يذبح ويكبر، ويسمى، ويضع رجله على صفحتهما.

وفى رواية عن عائشة رضي الله عنها أنه ضحى بكبش - أخذه فأضجعه وذبحه، وقال: «**بسم الله، اللهم تقبل من محمد وآل محمد، ومن أمة محمد**» وضحى به(٣)

---

(١) رواه ابن ماجه رقم (٣١٢٧) ورواه الحاكم وصححه٢/ ٣٨٩ وخالفه الذهبى ورواه أحمد فى مسنده (١٩١٧٩).

(٢) رواه ابن ماجه والحاكم وقال: صحيح الإسناد والحديث حسن بشواهده وقد رواه الترمذى وقال حسن غريب.

(٣) رواه مسلم وأبو داود وحسنه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود برقم (٢٧٩٢).

الوصية رقم (١١)
أحسنوا في كل شيء

عن شداد بن أوس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«إنَّ الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم، فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته»**(١)

• في رحاب الوصية •

ما أجمل هذه الوصية المباركة، وما أفصحها لأنه شملت الإحسان كله، ولأنها نص في وجوب الإحسان، وقد أمر الله تعالى به، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠] ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

وهذا الأمر بالإحسان كما يقول ابن رجب(٢)، قد يكون تارة للوجوب كالإحسان إلى الوالدين، والأرحام بمقدار ما يحصل به البر والصلة، والإحسان إلى الضيف بقدر ما يحصل به إكرامه، وتارة يكون للندب كصدقة التطوع ونحوها.

وهذه الوصية تدل على وجوب الإحسان في كل شيء من الأعمال، لكن إحسان كل شيء بحسبه، فالإحسان في الإتيان بالواجبات الظاهرة والباطنة، يكون بالإتيان بها على أكمل وجه وأتمه، والإحسان في ترك المحرمات يكون بالانتهاء عنها، وترك ظاهرها وباطنها، كما قال الله تعالى: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٠].

والإحسان في قتل ما يجوز قتله من الناس والدواب، إزهاق نفسه على أسرع الوجوه، وأسهلها وأرجاها من غير زيادة في التعذيب، وهذا النوع هو الذي ذكره الرسول ﷺ في هذه الوصية المباركة، ولعله ﷺ ذكر ذلك على سبيل المثال، فقال: **«إذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة»** أي أحسنوا هيئة الذبح وهيئة القتل، وهذا يدل على وجوب الإسراع في إزهاق النفوس التي يباح إزهاقها على أسهل الوجوه.

• فضيلة الإحسان •

والإحسان في الإسلام فضيلة من الفضائل الإنسانية الرفيعة، وخصلة من خصال أهل التقى والعرفان.

والإحسان إما أن يكون بمعنى التفضل، والإنعام، فإذا ما قام المسلم بما أوجبه الله تعالى عليه، وفعل واجبه نحو أبناء جنسه، وزاد عليه كان ذلك فضلاً عظيمًا على نفسه حيث إنه أنصفها وأحسن إليها بإخلاصه وقيامه بعمله.

---

(١) رواه مسلم (١٩٥٥).

(٢) جامع العلوم والحكم ص ٢٠٠

وإما أن يكون الإحسان بمعنى الإتقان، وذلك بأن يقوم الإنسان بأداء ما فرض الله عليه بإتقان مع خشية الله تعالى ومراقبته في سره وفي علانيته.

والإحسان كما يكون في العبادات من نحو صلاة، وصيام، وزكاة، ونحو ذلك، يكون أيضًا في الأمور الدنيوية من نحو زراعة، وتجارة، وصناعة، فبالإحسان يكسبها المسلم حسنًا ونضارة فالصانع والتاجر والزارع إذا قام كل منهم بإتقان عمله، فإنه لا شك قد خدم نفسه وجلب لها الكثير، واكتسب بذلك رضا الناس من كبير وصغير، وخدم المسلمين بتقديمه إليهم ما ينفعهم.

• مجالات الإحسان •

وللإحسان مجالات متعددة فيكون بإنفاق المال في وجوه الخير، وصنوف البر، قال سبحانه: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

فكل ما صدق عليه اسم الخير والبر فلا نزاع في أن الإنفاق فيه يكون من باب الإحسان.

ويكون الإحسان أيضًا ببذل المروءة وكف الأذى، وإبداء الصفح والعفو، وعدم مقابلة الإساءة بالإساءة بل يقابلها بالخير، قال سبحانه: ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

ويكون الإحسان في الكلمة الطيبة التي يلقيها المسلم لأخيه المسلم، فينفرج بها همه، وتزيل كربه، وتكشف غمه، والكلمة الطيبة الحسنة في تبليغ الدعوة الإسلامية تنفتح بها قلوبًا غلفًا، وأعينًا عميًا، وآذانًا صمًا. قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥].

• الإحسان في آيات القرآن •

وقد وردت آيات كثيرة في الإحسان، فهي صفة من صفات المولى تبارك وتعالى، قال سبحانه: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ [الصافات: ١٢٥] وقال: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة: ٧].

وهي صفة من صفات أنبيائه ورسله عليهم السلام، قال تعالى عن إبراهيم الخليل: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء: ١٢٥].

وقال عن سيدنا يوسف عليه السلام في خطاب إخوته له حين أراد أن يأخذ أخاه في حوزته:

﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف ٧٨] ووصفه بالإحسان أولئك الذين كانوا معه فى السجن، وطلبوا منه تأويل رؤياهم: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦].

وقد أمرنا به سبحانه فى القرآن الكريم قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ [النحل ٩٠] وقال سبحانه ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا الَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣] وقال سبحانه: ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧] وبين سبحانه جزاء المحسنين الصادقين، فبين أنه معهم وقت الشدة يخلصهم منها، ومعهم يمدهم بالقوة ويمدهم بكل أنواع الإمدادات، قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨] وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩] وأخبرنا بأنه يحب المحسنين فى كثير من آياته، وبين أنه سيجزيهم الحسنى وهى الجنة، كما فى قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: ٢٦] وأخبرنا أنه لا يضيع أجرهم: ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [هود: ١١٥].

وقال سبحانه ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِى هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠] والآيات فى ذلك كثيرة.

• السنة المطهرة تحث على الإحسان •

والسنة النبوية المطهرة قد حضت أتباع النبى المصطفى، والرسول المجتبى على جميع الأمور التى فيها للمسلم صلاح، وفى نهايتها النجاح والفلاح ومنها:

١- الإحسان إلى الوالدين: فعن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: **«رغم أنف، ثم رغم أنف، ثم رغم أنف من أدرك أبويه عند الكبر أحدهما أو كلاهما فلم يدخل الجنة»**[١].

وعن عبد الله بن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه»**[٢] والأحاديث فى ذلك كثيرة وقد ذكرتها فى مواضعها.

٢- الإحسان إلى الأقارب: قال ﷺ: **«من أحب أن يبسط له فى رزقه أو ينسأ له فى أثره فليصل رحمه»**[٣] وقال **«الرحم شجنة، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته»**[٤]

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه البخارى ومسلم.

(٤) رواه مسلم.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله، إن لى قرابة أصلهم ويقطعوننى، وأحسن إليهم ويسيئون إلىَّ، وأحلم عليهم ويجهلون علىَّ، فقال: **«لئن كنت كما قلت، فكأنما تسفهم الملَّ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك»**[١]

٣- **الإحسان إلى الجيران:** فعن أبى ذر الغفارى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له: **«يا أبا ذر إذا طبخت فأكثر المرق وتعاهد جيرانك»**[٢]

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»**[٣]

وعنه أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: **«خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره»**[٤]

٤- **الإحسان إلى الضيوف:** فعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه»**[٥]

وقال ﷺ: **«فراش للرجل، وفراش للمرأة، وفراش للضيف، والرابع للشيطان»**[٦]

٥- **الإحسان إلى اليتامى والمساكين:** فعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«كافل اليتيم له ولغيره، أنا وهو كهاتين فى الجنة»**[٧] وأشار بالسبابة والوسطى.

وعنه أيضًا أن النبى ﷺ قال: **«الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله وأحسبه قال: وكالقائم لا يفتر، وكالصائم لا يفطر»**[٨]

وقال ﷺ: **«ابغونى فى الضعفاء، فإنما تنصرون،وترزقون بضعفائكم»**[٩].

٦- **الإحسان إلى المرضى:** وتتعدد طرق الإحسان إلى المرضى، فيكون بعيادتهم، فعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ **«قال: خمس تجب للمسلم على أخيه، رد السلام، وتشميت العاطس، وإجابة الدعوة، وعيادة المريض، وإتباع الجنائز»**[١٠]

ويكون بالدعاء له، فعن عائشة قالت. كان رسول الله ﷺ إذا عاد مريضًا، يضع يده على المكان الذى يؤلمه، ثم يقول: **«اذهب البأس برب الناس، واشف أنت الشافى، لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقمًا»**[١١]

٧- **الإحسان إلى الأموات:** ويكون ذلك بسداد ديونهم، لأن أرواحهم تحبس عن الجنة حتى يؤدى عنهم، وقد كان النبى ﷺ فى بداية الدعوة، وقبل أن يفتح الله له البلاد، إذا حضرت جنازة يسألهم: أعليه دين؟ فإن كان عليه دين لم يصل عليه، ويفوض أصحابه فى الصلاة عليه.

فعن جابر رضي الله عنه قال: مات رجل فغسلناه وحنطناه، ووضعناه لرسول الله حيث

---

(١) صحيح الجامع للألبانى (٣٥٢٢). (٢) رواه مسلم. (٣) رواه البخارى ومسلم وغيرهما.
(٤) سنن الترمذى (١٩٤٤) وصححه الألبانى. (٥) رواه البخارى ومسلم وأحمد الترمذى.
(٦). (٧) رواه مسلم. (٨) رواه البخارى ومسلم. (٩) ذكره الألبانى فى ص.ج رقم (٣٤٤٧).
(١٠) رواه البخارى (١٢٤٠) ومسلم. (١١) رواه البخارى ومسلم.

توضع الجنائز عند مقام جبريل عليه السلام، ثم آذنا رسول الله ﷺ في الصلاة، فجاء معنا خطًا، ثم قال: «**أعلى صاحبكم دين؟**» قالوا: نعم، ديناران، فتخلف، فقال له رجل: يا رسول الله، هما عليَّ، فجعل رسول الله ﷺ يقول: «**هما عليك وفى مالك، وحق الرجل عليك، والميت منهما بريء؟**» قال: نعم، فصلى عليه، وجعل الرسول يسأل هل سدد الرجل الدين، حتى قيل له: لقد قضاها. فقال: «**الآن بردت عليه جلدته**»(١)

ويكون الإحسان إلى الأموات بالصدقة عنهم، فعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له رجل: «إنَّ أبى مات، وترك مالاً ولم يوص، **فهل يكفى عنه إن تصدقت عنه؟** قال: «**نعم**»(٢)

ويكون الإحسان إليهم أيضًا بالدعاء لهم، لحديث: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»(٣)

٨- **الإحسان إلى الحيوان:** فقد روى ابن عمر رضي الله عنهما النبى ﷺ قال: «**عذبت امرأة فى هرة سجنتها حتى ماتت، فدخلت فيها النار، لا هى أطعمتها، ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض**»(٤)

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**بينما كلب يطوف بركية -أى بئر- قد كاد يقتله العطش، إذ رأته بغى من بغايا بنى إسرائيل فنزعت موقها -أى خفها- فاستقت له به، فسقته إياه، فغفر لها به**»(٥)

وروى أن جزارًا فتح بابًا على شاة ليذبحها فانفلتت منه حتى جاءت إلى النبى ﷺ فأتبعها، فأخذ يسحبها برجلها، فقال لها النبى ﷺ: «**اصبرى لأمر الله، وأنت يا جزار سقها إلى الموت سوقًا جميلاً**»(٦)

وروى أن عمر رأى قصابًا يجر شاة، فقال له: سقها إلى الموت سوقًا جميلاً، فأخرج الجزار شفرته، فقال: أسوقها سوقًا جميلاً وأنا أريد أن أذبحها الساعة، **فقال عمر**: سقها سوقًا جميلاً(٧)

وفى مسند الإمام أحمد أن رجلاً قال للنبى ﷺ: يا رسول الله، إنى لأذبح الشاة وأنا أرحمها، فقال النبى ﷺ: «**والشاة إن رحمتها رحمك الله**»(٨).

وقال نوف البكالى: إن رجلاً ذبح عجلاً له بين يدى أمه، فخبل، فبينما هو تحت

---

(١) رواه البيهقى والحاكم وسنده جيد. (٢) رواه مسلم.

(٣) رواه أحمد وغيره وصححه الألبانى فى ص.ج رقم (٧٩٣). (٤) رواه البخارى ومسلم وأحمد.

(٥) رواه البخارى ومسلم. (٦)، (٧) جامع العلوم والحكم لابن رجب ص٢٠٦

(٨) رواه البخارى فى الأدب المفرد (٣٧٣) وأحمد فى مسنده (١٥٠٣٩) بإسناد صحيح وذكره الهيثمى فى المجمع٤/ ٣٦ وقال: رواه أحمد والبزار والطبرانى فى الكبير ورجاله ثقات والصحيحه للألبانى رقم ٢٦.

شجرة فيها وكر -أي عش- فيه فرخ، فوقع الفرخ إلى الأرض، فرحمه، فأعاده في مكانه، فردَّ الله عليه قوته.

وقد عاتب الله تعالى نبيًّا من أنبيائه في حرق النمل، فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«إن نملة قرصت نبيًّا من الأنبياء، فأمر بقرية النمل، فأحرقت، فأوحى الله إليه: أفي إن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تسبح؟»**. وفي رواية: **«فهلا نملة واحدة»**(١)

• درجات الإحسان •

يقول ابن القيم:

الإحسان ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: الإحسان في القصد بتهذيبه علمًا، وإبرامه عزمًا، وتصفيته حالاً

الدرجة الثانية: الإحسان في الأحوال، وهو أن تراعيها غيرة، وتسترها تظرفًا، وتصححها تحقيقًا، والمراد بمراعاتها: صونها وحفظها غيرة عليها أن تحول، فإنها تمر مرَّ السحاب، وتكون المراعاة أيضًا بدوام الوفاء، وتجنب الجفاء.

الدرجة الثالثة: الإحسان في الوقت، وهو ألا تزايل المشاهدة أبدا، ولا تخلط بهمتك أحدًا، والمعنى في ذلك أن تتعلق همتك بالحق وحده، ولا تعلق همتك بأحد غيره(٢)

• فوائد الإحسان •

١- تماسك بنيان المجتمع وحمايته من الخراب والتهلكة، ووقايته من الآفات الاجتماعية الناجمة عن الخلل الاقتصادي.

٢- الإحسان هو المقياس الذي يقاس به نجاح الإنسان في علاقته بالحياة، وهي علاقة ابتداء.

٣- معية الله عز وجل، ومن كان الله معه كان معه كل شيء.

٤- محبة الله عز وجل له.

٥- محبة الناس إياه.

٦- التمكين في الأرض.

٧- الإحسان وسيلة من وسائل الرقي والتقدم.

٨- الإحسان وسيلة لحصول البركة في العمر والمال والأهل.

٩- الإحسان وسيلة لإزالة ما في النفوس من الكدر وسوء الفهم، وظن السوء، والحقد والبغضاء والشحناء.

١٠- الإحسان وسيلة لمساعدة الإنسان على ترك العجب بالنفس(٣)

(١) رواه البخاري ومسلم. (٢) مدارج السالكين لابن القيم. (٣) السلسلة الذهبية ص١٠٥

الوصية رقم (١٢)
اتق المحارم

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**اتق المحارم تكن أعبد الناس، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، وأحسن إلى جارك تكن مؤمنًا، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلمًا، ولا تكثر من الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب**»[(١)]

صدق رسول الله ﷺ

إن رسولنا ﷺ قد حرص طيلة حياته على إقامة مجتمع سوى، وهدفه هو سعادته والأخذ بيده إلى ما أراد الخالق جل وعلا، لتتحقق به عزتهم، وتسمو مكانتهم، فأرشد الأمة إلى أقوم الطرق التى تقوم بها الحضارة والازدهار والرقى فى الدنيا، والمنزلة العالية فى الآخرة، وقد جمع لنا أستاذ البشرية، وفقيه الإنسانية هنا فى هذه الوصية الجامعة خمسة أمور لو اعتصمنا بها، وسرنا على نهجها، لسارت بنا سفينة الحياة تمخر عبابها آمنة مطمئنة، ترفرف على ما فيها ألوية المحبة، فلا غل ولا حقد ولا حسد فما هى هذه الأمور التى أوصانا بها نبى الرحمة ﷺ؟

١ - **اتق المحارم تكن أعبد الناس**: والمحارم جمع محرم تطلق ويراد بها من يحرم على المرء الزواج منهن وهن من أشارت إليهن الآية الكريمة: ﴿**حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ...**﴾ [النساء ٢٣] كما تطلق ويراد بها: كل ما حرم الله عز وجل، قال تعالى: ﴿**قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا...**﴾ [الأنعام ١٥١ ١٥٣]. ويراد بالمحارم كل ما حرمه الله تعالى من المعاصى، والمنهيات، وترك المأمورات فى القرآن الكريم، أو فى سنة النبى العظيم ﷺ، يقول ﷺ: «**اجتنبوا السبع الموبقات**. قالوا: وما هن يا رسول الله؟ قال: **الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس، التى حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولى يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات**»[(٢)]

---

(١) رواه أحمد فى مسنده (٨٠٨١) والترمذى (٥ ٢٣) وحسنه الألبانى بطرقه فى السلسلة الصحيحة برقم ٩٣

(٢) رواه البخارى وخرج فى موضع آخر

والرسول المصطفى ﷺ يوصينا أن نجعل بيننا وبين هذه المحـرمات وقاية، أى حاجزاً بينك وبين ارتكابها، وتقديم التقوى على تلك الوصايا إشارة إلى أن أقوم الأسس لبناء الفرد والمجتمع تقوى الله عز وجل. وقوة المجتمع ثمرة قوة الفرد، فإذا قام بنيان الفرد على التـقوى كان أهلاً لفيـوضات الحق التى تتولـى عليه فى دنياه بالحـياة الطيبـة الحافلة بالخيرات والبـركات، وفى الآخـرة بما أعـد الله نزلاً لـلأبرار من الصـديقين والـشهـداء والصالحين. إن سلمـان الفارسى ؓ نزل به ضيف فى يوم من الأيام، ولم يكـن فى بيته شىء، فخرج إلى الصحراء واصطـاد غزالاً ثم عاد سريعًا إلى ضيفه، فتعـجب ضيفه قائلاً له: لقد عدت سريعًا كأنك اختطفـته من الهواء، فكيف ذلك؟ فقال له: لا تعجب يا أخى فإنى رأيت أحدًا أتقى الله، فاستعصى عليه شىء!.

اتق الله أخى الحبيب:

اتق الله، ولا تغرنك الدنيـا، فعزها فان، وملكها زائل، وإياك ومـحارم الله تعالى، لأنها تبـعدك عن وطنك الحقـيقى، الذى لا نصب فـيه ولا وصب، فأنت فى هذه الحـياة غريب، فاجعل قلبك وروحك تسافر إلى الآخرة، واجعل فؤادك يحلق فى آفاقها.

كم منـزل فى الأرض يألفـه الفـتى وحـنـيـنـه أبـداً لأول مـنـزل
فـحىً على جـنات عـدن فـإنـهـا منـازلنـا الأولى وفـيـهـا المخيـم
ولكـننـا سبى الـعـدو فـهـل ترى نعـــود إلـى أوطـانـنـا ونـسـلـم

واعلم أن اقتراف المـعاصى -المحرمات- صغيـرها وكبيرها، أو الإصرار عليـها جرم كبير يرمى بصـاحبه فى تيه القطيعة عن الله جـل وعلا، ويجعل صاحبها معـرضًا لسخطه وغضبـه. ورحم الله ابن عطاء الله السكندرى، حين قـال: لا تنظر إلى صغـائر المعاصى، ولكن انظر إلى من عصيت.

ورسولنا ﷺ يقول: «**ومن حام حول الحمـى يوشك أن يقع فيه**» .. ثم يقول: «**ومن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه**»[1]

والشبهات ثلاثة أنواع:

١- شبهة إلى الحرمة أقرب: وهى ما كان دليل الحرمة فيها أرجح من دليل الحل.

٢- وشبـهة هـى إلى الحل أقرب: وهـى ما كان دلـيل الحل فيـها أرجـح من دليل الحرمة.

٣- وشبهـة بين الحل والتحريم: يتنازعان دلـيلين متساويين، لا يدرى المجـتهد على وجه التحديد أى الدليلين أقوى.

---

(١) رواه البخارى وغيره.

فالـذى يتقى المحـارم هو ذلك الذى يتـجنب تلك الشـبهات خـوفًا من الوقـوع فى المحرمات ليستـبرأ لدينه وعرضه، وقد أشار القرآن الكريم إلى هـذا المعنى فى قوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة: ١٨٧] ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يضعن نفسه مواضع التهم، ولله در من قال: «إيـاك وما يسبق إلى القلوب إنكاره، وإنْ كان عندك اعتذاره، فرب سامع نكرًا لا تستطيع أن تسمعه عذرًا».

فمن فعل ذلك كان من أعبد النـاس. من أدى المأمورات، واجتنب المنهيات، وأحل الحلال، وحرم الحـرام معتقدًا ذلك كـان له جزاء من الله أكبر وهو الجنة بحـديث جابر بن عبـد الله الأنصارى رضي الله عنه حين سـئل النبى ﷺ: «أرأيت إن صليـت المكتوبات، وصـمت رمضان، وأحللت الحلال، وحرمت الحرام، ولم أزد على ذلك شيئًا أدخل الجنة؟ قال ﷺ: «نعم»[1] وهذا مقام القرب من الله سبحانـه وتعالى وإذا صار المؤمن فى هذا المقام صار من الذين قال الله فيهم: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣].

٢- وارض بما قسم الله لـك تكن أغنى الناس: فمن قنع باليسـير من الرزق استغنى عن الكثـير من الخلق، ومن رضى بالمقـدور قنع بالميسور، ومـن رضى بالقضاء صـبر على البلاء، ومـن اتقى الله وقاه، ومن اعـتصم به نجـاه، القناعة عـز العسير، والصدقـة كنز اليسير. والرضا بالكفاف يؤدى إلى العفاف، ومن تعرى من لباس التقوى لم يستتر بشىء من الدنيا.

إنَّ الله سبـحانه وتعالى إذا أحب عـبدًا، ألهمـه الطاعة، وألزمه القـناعة، وإذا أراد به شرًا، حبب إليه المال، فركب الفساد، وظلم العباد.

إن القانع بعطاء الله تعالى هو الذى يعيـش فى مملكة الرضا، ولو يعلم الملوك ما عند هؤلاء القانعين من النعمة لجالدوهم عليها بالسيوف، ولذلك يقول أبو عبد الرحمن الحبلى: سمعـت عبد الله بن عمـرو بن العاص رضي الله عنهما وقد سأل رجـلاً، فقال له: ألست مـن فقراء المهاجرين؟ فقـال له عبد الله: ألك امرأة تأوى إليها؟ قال: نعـم، قال: ألك مسكن تسكن إليه؟ قال: نعم. قال: فأنت من الأغنياء. قال: فإن لى خادمًا. قال: فأنت من الملوك.

فعن فضـالة بن عبيد أنـه سمع النبى ﷺ يقول: «**طوبى لمن هدى للإسـلام وكان عيشه كفافًا، وقنع بما آتاه الله**»[2]

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه الترمذى (٢٤٥٣) وابن حـبان والحاكم وصححه ووافـقه الذهبى وقال الترمـذى: حديث حسن صحيح وصححه الألبانى فى ص.ج (٣٨٢٦) والسلـسلة الصحيحة (١٥٠٦).

وعن عبيد بن محصن الأنصارى أن رسول الله ﷺ قال: «**من أصبح منكم آمنًا فى سربه معافى فى بدنه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها**»[١]

وقال ﷺ: يقول الله تعالى يوم القيامة: أين **صفوتى من خلقى؟** فتقول الملائكة: ومن هم يا ربنا؟ فيقول: «**فقراء المسلمين القانعون بعطائى، الراضون بقدرى، أدخلوهم الجنة فيدخلون ويشربون، والناس فى الحساب يترددون**»[٢]

طوبى لمن رزق الكفاف وكان منه فى كفاية
فلهذه الدنيا الدنية والمقام بها نهاية
وذهاب من كان قبلك فيه موعظة وآية

يقول على بن أبى طالب ﷺ: من جمع فيه ست خصال لم يدع للجنة مطلبًا، ولا عن النار مهربًا، من عرف الله فأطاعه، وعرف الشيطان فعصاه، وعرف الحق فاتبعه، وعرف الباطل فاتقاه، وعرف الدنيا فرفضها، وعرف الآخرة فطلبها.

وقال عبد الله بن عباس ﷺ: إن الله جعل الدنيا ثلاثة أجزاء: جزء للمؤمن، وجزء للمنافق، وجزء للكافر، فالمؤمن يتزود، والمنافق يتزين، والكافر يتمتع.

دع الحرص على الدنيا وفى العيش فلا تطمع
ولا تجمع من المال فما تدرى لمن تجمع
فإن الرزق مقسوم وسوء الظن لا ينفع
فقير كل ذى حرص غنى كل من يقنع

ويقول على بن أبى طالب ﷺ: إن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى، وطول الأمل، فأما اتباع الهوى، فيصد عن الحق، وأما طول الأمل، فينسى الآخرة، ألا وإن الدنيا قد رحلت مدبرة، ألا وإن الآخرة قد ارتحلت مقبلة، ولكل واحد منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب وغدًا حساب ولا عمل[٣]

٣- **وأحسن إلى جارك تكن مؤمنا:** والإحسان إلى الجيران يكون بحسن معاملتهم، وبحفظ أموالهم وأعراضهم، وإبعاد الأذى عنهم، لأن الإسلام، سلام على الفرد والمجتمع، وفى ظلاله يأمن العبد على جميع شئونه، وقد يكون الإحسان إلى الجار بمعنى المواساة، وقد يكون بمعنى حسن العشرة، وقد أوصانا الله سبحانه وتعالى بالإحسان إلى

---

(١) صحيح الترمذى (١٩١٣) وابن ماجه (٤١٤١) وحسنة الألبانى فى ص.ج (٦٠٤٢) والسلسلة (٢٣١٨).

(٢) رواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس قاله العراقى فى تخريج الإحياء ١٨٦/٤

(٣) صفة الصفوة لابن الجوزى.

الجيران فقال: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦]. والجار ذى القربى: هو قريب المسكن منك، والجار الجنب: هو بعيد المسكن.

وقد نفى النبى ﷺ الإيمان عمن يسيئ معاملة الجيران، فقال مقسمًا: **«والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، قيل: من يا رسول الله؟ قال: «الذى لا يأمن جاره بوائقه»**(١).

وقد جعل الرسول الأكرم ﷺ إكرام الجار، والإحسان إليه علامة من علامات الإيمان بالله واليوم الآخر، فقال فى الحديث الذى رواه عنه المحدث الكبير «أبو هريرة» رضي الله عنه: **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيراً أو ليصمت»**(٢).

يقول السمرقندى: تمام حسن الجوار فى أربعة أشياء:

أولها. أن يواسيه بما عنده.

ثانيها: ألا يطمع فيما عنده.

ثالثها: أن يمنع أذاه عنه.

رابعها: أن يصبر على أذاه(٣)

فالصبر على أذاه من حسن الجوار، لذلك قال الإمام الغزالى: «واعلم أنه ليس حق الجوار كف الأذى فقط، بل احتمال الأذى.. ولا يكفى احتمال الأذى بل لابد من الرفق وإسداء الخير والمعروف، إذ يقال: إن الجار الفقير يتعلق بجاره يوم القيامة، ويقول: يا رب، سل هذا: لم منعنى معروفه، وسد بابه دونى؟»(٤)

ولما قال رجل للرسول ﷺ يا رسول الله، إنَّ فلانة تكثر من صلاتها وصدقتها وصيامها، غير أنها تؤذى جيرانها بلسانها، فماذا قال طبيب القلوب؟ قال: **«هى فى النار»** قيل: فإن فلانة يذكرون قلة صلاتها وصيامها، وأنها لا تؤذى جيرانها، قال: **«هى فى الجنة»**(٥)

فاجتهد أخا الإسلام أن تكون من خير الناس عند الله تعالى، وتكون من خير

---

(١) رواه البخارى

(٢) رواه البخارى ومسلم وأحمد وغيرهم (متفق عليه).

(٣) تنبيه الغافلين للسمرقندى ص٧ ١ مكتبة التقوى.

(٤) إحياء علوم الدين للغزالى جـ٣/ ٢٧ دار مصر للطباعه.

(٥) رواه أحمد فى مسنده (٩٦٣٨) وقال الهيثمى فى المجمع ١٦٨/٨ رواه أحمد ورجاله ثقات.

الجيران، يقول النبى العدنان: **«خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره»**(١)

جاء رجل إلى عبد الله مسعود رضي الله عنه وقال له: إن لى جارًا يؤذينى ويشتمنى، ويضيق على الطريق، فقال له: اذهب، فإن هو عصى الله فيك، فأطع الله فيه(٢).

٤- وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلمًا: إن رسولنا ﷺ بعد أن وطد العلاقة الإنسانية بين الجيران بعضهم مع بعض، ليعيش المجتمع المسلم مجتمعًا قويًّا متماسكًا، وتلك العلاقة «الجيران» علاقة خاصة، أراد الرسول أن يوطد، ويقوى العلاقة العامة بين كل من يقول: «لا إله إلا الله محمد رسول» مهما تباعدوا أو تقاربوا يجب أن تجمعهم علاقة الإيمان بربهم، وعلاقتهم بدينهم، ورسولهم، وقرآنهم، وكلها علاقة محبة، ولذا يرشدهم قائلا: **«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»**(٣).

ولقد تعلم السلف الصالح ذلك من قدوتهم، وأستاذهم ﷺ حتى كانوا يحبون لإخوانهم ما يحبون لأنفسهم، بل إنهم كانوا يؤثرونهم على أنفسهم، ولا ننسى ما حدث حين هاجر النبى ﷺ إلى المدينة المنورة، ماذا فعل الأنصار مع المهاجرين، لقد كانوا يؤثرون إخوانهم المهاجرين على أنفسهم، وقد سجل القرآن الكريم ذلك حين قال سبحانه: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] وتأمل هذا المشهد الصادق الذى يدل على الحب والأخوة الصادقة.

فعن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: «لما قدمنا المدينة آخى رسول الله ﷺ بينى وبين سعد بن الربيع رضي الله عنه فقال سعد لعبد الرحمن: إنى أكثر الأنصار مالاً، وسأقسم مالى بينى وبينك شطرين، ولى امرأتان، فانظر أعجبهما إليك أطلقها، حتى إذا حلت -وفى رواية- إذا انقضت عدتها تزوجتها.

فقال له عبد الرحمن: بارك الله لك فى أهلك وفى مالك، أين سوقكم؟ دلنى على السوق، فدله عليه، فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن..»(٤)

إنها تشبه قصة فى عالم الخيال، لكنها حقيقة واقعية فى مجتمع رباه رسول الإسلام ﷺ على عينه.

وتأمل هذا الموقف الإيمانى الخالد على مر العصور، والأزمان، يتألق روعة وجلالاً.

فعن أبى هريرة رضي الله عنه: أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ، وقد أصابه الجهد، فقال: إنى

---

(١) رواه أحمد فى مسنده (٦٥٦٦) بإسناد صحيح ورواه الحاكم وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبى ٤/ ١٦٤ ورواه الترمذى وقال: حسن غريب.

(٢) الإحياء ٣/ ١٦٩ (٣) رواه البخارى ومسلم.

(٤) رواه البخارى ومسلم وأبو داود ومالك فى الموطأ والترمذى والنسائى.

جائع، فأطعمني، فبعث رسول الله ﷺ إلى أزواجه: «**هل عندكم شيء؟**» فقلن: والذي بعثك بالحق ما عندنا إلا الماء. فقال رسول الله ﷺ: «**ما عند رسول الله ما يطعمك في هذه الليلة، ثم قال: من يضيف هذا هذه الليلة يرحمه الله؟**» فقام رجل من الأنصار، فقال: أنا يا رسول الله، فأتى به منزله، فقال لأهله: هذا ضيف رسول الله فأكرميه، ولا تدخري عنه شيئًا. فقالت: ما عندنا إلا قوت الصبية. فقال: قومي فعلليهم عن قوتهم حتى يناموا، ثم أصبحي سراجك (أي أوقديه) فإذا أخذ الضيف ليأكل، فقومي كأنك تصلحين السراج فأطفئيه.

وجعلا يريانه أنهما يأكلان، فشبع الضيف، وباتا طاويين (أي جائعين) فلما أصبح غدا إلى رسول الله ﷺ، فلما نظر إليه تبسم وقال: «**ضحك الله هذه الليلة، أو عجب من فعالكما**»[١] فأنزل الله قوله تعالى: ﴿**وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ...**﴾ الآية فهل رأينا صورة في الحب والإيثار أعظم من هذه الصورة؟!.

وتأمل موقفًا آخر يدل على الحب والإيثار:

قال حذيفة العدوي: انطلقت يوم «اليرموك» أطلب ابن عم لي، ومعي شيء من ماء، وأنا أقول: إن كان به رمق سقيته، ومسحت به وجهه، فإذا أنا به، فقلت: أسقيك؟ فأشار إليَّ أن نعم، فإذا رجل يقول: آه، فأشار إليه، أن انطلق بالماء إليه، فجئته، فإذا هو «هشام بن العاص» فقلت: أسقيك؟ فسمع به آخر، فقال: آه، فأشار هشام أن انطلق به إليه، فجئته فإذا هو قد مات، فرجعت إلى هشام، فإذا هو قد مات، فرجعت إلى ابن عمي، فإذا هو قد مات[٢]، رحمهم الله أجمعين.

فلندع الموقف يتألق روعة وحبًا دون أن نعلق عليه.

وهذا موقف آخر يكتب بمداد من الذهب: كان إمامنا الشافعي -رحمه الله- آخى محمد بن عبد الحكم، وكان يقربه، ويقبل عليه، وكان يحب له ما يحب لنفسه، فلذلك كان يقول: «ما يقيمني بمصر غيره» فمرض محمد بن عبد الحكم، فذهب الشافعي لزيارته، فقال له:

مرض الحبيب فعدته فمرضت من حذري عليه
وأتى الحبيب يعودني فبرأت من نظري إليه[٣]

٥- «**ولا تكثر من الضحك، فإن الضحك يميت القلب**»: ولقد نبه الرسول ﷺ على خطورة الأمر الذي يجعل المسلم ينشغل بالآخرة فقال ﷺ: «**لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيرًا**

---

(١) رواه البخاري ومسلم والنسائي. (٢) منهاج المؤمن لأبي بكر الجزائري.
(٣) الإحياء للغزالي ٣/ ٢٣٦

ولضحكتم قليلاً..»[١] ولكن لا يجب أن يكون المسلم حزينًا كاسف البال مهمومًا بالدنيا، بل عليه أن يروح عن نفسه شيئًا ما، فقد ورد: «**روحوا القلوب ساعة بعد ساعة، فإن القلوب إذا كلت عميت**»[٢] لهذا قال رسولنا ﷺ في الوصية: «**ولا تكثر من الضحك**» ولم يقل: لا تضحكوا حتى يدلنا على أن الضحك مستحب بلا إسراف أو تكلف، فلقد كان ﷺ أكثر الناس تبسمًا وضحكًا في وجوه أصحابه[٣]، وتعجبًا مما تحدثوا به، ولربما ضحك حتى تبدو نواجذه[٤]، وكان ضحك أصحابه عنده التبسم اقتداء به، وتوقيرًا له.

فقد جاءت إليه امرأة، فقالت: يا رسول الله، احملني على بعير، فقال لها: «**بل نحملك على ابن البعير**» فقالت: ما أصنع به؟ إنه لا يحملني، فقال: «**ما من بعير إلا وهو ابن بعير**» وفي رواية: «**إنا حاملوك على ولد ناقة**» فقالت: وما أصنع بولد الناقة؟ فقال رسول الله: «**وهل تلد الإبل إلا النوق**»[٥]

لقد أتته امرأة عجوز أنصارية، فقالت: يا رسول الله، ادع لي بالمغفرة. فقال لها: «**أما علمت أن الجنة لا يدخلها العجز**» فصرخت، فتبسم الرسول ﷺ وقال لها: **أما قرأت قول الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا﴾** [الواقعة: ٣٦، ٣٧].

وكان يداعب أنس بن مالك رضي الله عنه حين كان صغيرًا يخدمه، فكان يقول له: «**يا ذا الأذنين**»[٦] كان يمازحه، وفيها مدح لذكاء وفطنة أنس.

وكان لأنس أخ يقال له «عمير» وكان له نغر يلعب به -أي طائر صغير- فمات فدخل رسول الله ﷺ يومًا وعمير حزين، فقال: **ما شأنه؟** قيل له: مات نغره، فقال: **يا عمير، ما فعل النغير؟**.

فكان النبي ﷺ يمزح لكنه لا يقول إلا الحق، فصلوات ربي وتسليماته عليك يا رسول الله.

نسألك اللهم أن تحبب إلينا لقاءك، وأن تسهل علينا قضاءك، ونسألك اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحيني ما علمت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا علمت الوفاة خيرًا لي، اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الإخلاص في الرضا والغضب، وأسألك القصد في الغنى والفقر، وأسألك برد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم. يا رب العالمين.

---

(١) رواه أحمد في مسنده، وصححه الألباني في ص.ج برقم ٥٢٦٢.

(٢) العقد الفريد لابن عبد ربه ٣/٣٢٦ (٣) رواه الترمذي (٤) متفق عليه.

(٥) رواه أبو داود وصححه الألباني برقم (٤٩٩٨) صحيح أبي داود.

(٦) صحيح سنن أبي داود للألباني (٢ ٥٠) ورواه الترمذي وصححه الألباني برقم ٢٠٧٧

الوصية رقم (١٣)
استعيذوا بالله من الشيطان الرجيم

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يأتى الشيطان أحدكم، فيقول: من خلق كذا، من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا بلغ ذلك فليستعذ ولينتبه»**(١).

صدق رسول الله ﷺ

الشيطان أحرص ما يكون على غواية الإنسان، وقطع الطريق بينه وبين خالقه جل وعلا، وهذه العداوة الظاهرة منذ نشأة هذا الإنسان، منذ أن خلق الله أبا البشرية: آدم عليه السلام، وحتى يرث الله الأرض ومن عليها، ولما كان ذلك كذلك أوصانا رسولنا محمد ﷺ إذا خطر لنا خاطر من الشيطان، أو وسوسة منه، كأن يوسوس لك، فيقول لك: من خلق السموات والأرض؟ فتقول: الله، فيقول لك: فمن خلقك أنت؟ فتقول بلسان منطلق: الله.

ثم يقول لك فمن خلق الله؟ وهنا على المؤمن أن ينتبه، وليعلم أن الشيطان يريد أن يجرفه فى تيارات تذهب به فى غياهب الظلمات، فتذكر حينئذ وصية معلمك الأكبر، ونبيك الأعظم، فتستعيذ بالله من شره وكيده.

ولذلك وردت هذه الوصية برواية أخرى عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: **«إن أحدكم يأتيه الشيطان، فيقول: من خلقك؟ فيقول: الله. فيقول: من خلق الله؟ فإذا وجد ذلك أحدكم فليقل: آمنت بالله ورسوله، فإن ذلك يذهب عنه»**(٢).

وتلك هى العقبة الأولى من عقباته السبع، عقبة الكفر، فإن سلمت منه حينئذ وقف لك فى عقبة البدعة، فحسنها لك، وزينها وجملها، فإن سلمت منه، ذهب بك إلى عقبة الكبائر، ثم فى عقبة فعل الصغائر، فإن سلمت منه ففى عقبة فعل المباحات، فيشغله بها عن الطاعات، فإن غلبه شغله بالأعمال المفضولة عن الأعمال الفاضلة، فإن سلم من ذلك وقف له فى العقبة السابعة، ولا يسلم منها المؤمن، إذ لو سلم منها أحد لسلم منها أشرف الخلق، وحبيب الحق ﷺ، وهى تسليط الأعداء الفجرة بأنواع الأذى.

فإنك إذا وجدت شيئًا من ذلك فقل: ﴿**هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ [الحديد: ٢].

---

(١) رواه البخارى ومسلم.

(٢) رواه أحمد فى مسنده (٢٦٠٨١) بإسناد صحيح١٨/ ١٥٩ والبزار وابن حبان وقال الهيثمى فى المجمع١/ ٣٣ رجاله ثقات.

والمؤمن الحق إذا ذكر الله وعبده وتفكر فى عظمته فلابد أن تقع هذه الوساوس على قلبه ضرورة، كما قال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ ...﴾ [الرعد: ١٧].

فضرب الله مثل ما ينزله على القلوب من الإيمان والقرآن بالماء الذى ينزله، فتحمله الأودية، فالأودية مثل القلوب صغارًا وكبارًا. وضرب له مثلاً بما يوقد عليه فى النار من الحلية والحديد فلابد فيها من زبد فى طبع الأرض. والمعدن من الزبد الذى يظهر عند وجود الماء، وعند وجود النار.

وكذلك ما يظهر فى القلوب من الوساوس الباطلة التى تظهر عند نزول الإيمان والقرآن الذى هو سبب حياة القلوب عند حرارة الطلب والحركة والإرادة، وهذا أمر محسوس بالقلوب يجده المؤمن عند تصحيح إيمانه واعتقاده، وعند تصحيح عبادته وإرادته والشيطان -لعنه الله- إنما يجتهد على الإنسان حتى يؤول أمره إلى الكفر، قال سبحانه: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦] وبعد أن يكفر ويسير فى غوايته ووسوسته، بل يصير وليا من أولياء الشيطان يتبرأ منه يوم القيامة، يوم أن يوضع له منبر من النار وهو فى النار، بعد أن يؤمر بأهل النار إلى النار، وأهل الجنة إلى الجنة بعد أن يقضى الأمر، وقد التف حوله أحبابه وأتباعه، يخطب حينها خطبة فصيحة يقول فيها: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

واعلم أخا الإسلام: أن الشيطان ليس هو الذى يوسوس لك، ويغويك ولكن له أعوانه، وله مساعدوه، ورحم الله القائل:

إنى ابتليت بأربع ما سلطوا على	إلا لشدة شقوتى وعنائى
إبليس والدنيا ونفسى والهوى	كيف الخلاص وكلهن أعدائى
إبليس يسلك فى طريق مهالكى	والنفس تأمرنى بكل بلائى
وأرى الهوى تدعو إليه خواطرى	فى ظلمة الشبهات والآراء
وزخارف الدنيا تقول أما ترى	حسنى وفخر ملابس وبهائى[١]

واعلم أن الشيطان كثيراً ما يدخل على الناس من قلة العلم. فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد»[٢] وقال أبو هريرة

---

(١) كشف الخفاء للعجلونى ١/ ٤ ط مؤسسة.

(٢) رواه الترمذى.

ﷺ : «لكل شى دعامة، ودعامة الإسلام الفقه فى الدين، ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد»(١)

قال الشيخ عبد القادر الجيلانى -رحمه الله-:

اشتد علىَّ الحر فى بعض الأسفار، حتى كدت أموت عطشًا، فظللتنى سحابة سوداء، وهبَّ علىَّ منها هواء بارد حتى دار ريقى فى فمى، وإذا بصوت ينادى منها: يا عبد القادر، أنا ربك، فقلت له: أنت الله الذى لا إله إلا هو؟ قال: فنادانى ثانيًا: يا عبد القادر، أنا ربك، وقد أحللت لك ما حرمت عليك. قال: فقلت له: كذبت، بل أنت الشيطان. قال: فتمزقت تلك السحابة، وسمعت من ورائى قائلاً: يا عبد القادر، نجوت منى بفقهك فى دينك، لقد فتنت بهذه الحيلة سبعين عابدًا.

وقيل للشيخ: كيف عرفت أنه الشيطان؟ قال: حين قال: قد أحللت لك عرفته، لأنه بعد رسول الله ﷺ لا تحليل، ولا تحريم. فنفعه الله بالعلم والفقه.

قال شيخ الإسلام «الإمام ابن تيمية»:

ما عظمة عبد القادر إلا بكلامه فى القدر، وحكايته مع الشيطان(٢).

ولقد جاءت آيات القرآن الكريم تحذر المؤمنين من اتباع طريقه، والسير على منهجه قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٨، ١٦٩].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦] وقال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨] وقال عز وجل: ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠].

لكن من أى الأبواب يأتى الشيطان إلى الإنسان؟ وكيف يتغلب عليه؟

أجاب على هذا السؤال، فقال: نظرت من أى باب يأتى الشيطان إلى الإنسان، فإذا هو يأتى من عشرة أبواب:

أولها: يأتى من قبل الحرص، وسوء الظن، فقابلته بالثقة والقناعة، فقلت: بأى آية أتقوى عليه من كتاب الله؟ فوجدت قول الله عز وجل: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] فكسرته بذلك.

والثانى: نظرت فإذا هو يأتى من قبل الحياة وطول الأمل، فقابلته بخوف مفاجأة الموت، فقلت: بأى آية أتقوى بها عليه؟ فوجدت قوله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤] فكسرته بها.

---

(١) رواه ابن عدى عنه مرفوعًا.

(٢) المختار من كتاب مصائب الإنسان من مكائد الشيطان لابن مفلح ص٨٢ والتوسل والوسيلة للإمام ابن تيمية.

والثالث: نظرت فإذا هو يأتى من قبل الراحة، وطلب النعمة، فقابلته بزوال النعمة، وسوء الحساب، فقلت: بأى آية أتقوى بهـا عليه؟ فوجدت قـوله تعالى: ﴿ **ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا** ﴾ [الحجر: ٣] وبقوله تعالى: ﴿ **أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ** ﴾ فكسرته بذلك.

والرابع: نظرت، فإذا هـو يأتى من باب العجب، فـقابلته بـالمنة، وخوف العاقـبة، فقلت: بأى آية أتقوى عليه؟ فوجدت قوله تعالى: ﴿ **فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ** ﴾ [هود: ١٠٥] فلا أدرى من أى الفريقين أكون، فكسرته بها.

والخامس: رأيته يأتى من باب الاستـخفاف بالإخوان وقلة حرمتهم، فقـابلته بمعرفة حقهم وحرمتهم، فقلت: بأى آية أتقوى عليه؟ فوجدت قوله تعالى فى كتابه: ﴿ **وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [المنافقون: ٨] فكسرته بها.

والسادس: نظرت، فإذا هو يأتى من باب الحسد، فقابلته بالعدل، وقسمة الله تعالى فى خلقـه، فقلت: بـأى آية أتقوى علـيه؟ فوجـدت قوله تعـالى: ﴿ **نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** ﴾ [الزخرف: ٣٢] فكسرته بها.

والسابع: نظرت، فإذا هو يأتى من قبل الرياء، ومـدح الناس، فقابلته بالإخلاص، فقلت: بأى آية أتقوى عليـه؟ فوجدت قول الله تعالى: ﴿ **فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا** ﴾ [الكهف: ١١٠] فكسرته بها.

والثامن: نظرت، فإذا هو يأتى من بـاب البخل، فقابلته بفـناء ما في أيدى الخلق، وبقاء ما عند الله تعـالى، فقلت: بأى آية أتقوى عليه؟ فوجـدت قوله تعالى: ﴿ **مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ** ﴾ [النحل: ٩٦] فكسرته بها.

والتاسع: نظرت، فإذا هو يأتى من بـاب الكبر، فقابلته بالتـواضع، فقلت: بأى آية أتقوى عليه؟ فوجـدت قوله تعالى: ﴿ **إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾ [الحجرات: ١٣] فكسرته بها.

والعاشر: نظرت، فإذا هو يأتى من باب الطمع، فقـابلته بالإياس من الناس، والثقة بما عند الله، فقلت: بأى آية أتقوى عليـه؟ فوجدت قول الله تعالى: ﴿ **وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ** ﴾ [الطلاق: ٢، ٣] فكسرته بها(١)

ولقد كان الشيطان اللعين يظهر قبل ذلك للأنبياء والصالحين، وقد كلم الأنبياء، فهذا نبى الله نوح عليه السلام يدور بينه وبين الشيطان حديث، تأمله لتأخذ منه العبرة والموعظة، فماذا حدث؟.

---

(١) تنبيه الغافلين للسمرقندى ص٤٧٠.

قال أبو العالية: لما رست السفينة، رأى نوح عليه السلام إبليس، فقال له نوح: أهلكت الناس، غرقوا من أجلك. قال: فما تأمرني؟ قال: تتوب. قال: وهل لي من توبة؟ ادع ربك. فدعا نوح ربه، فأوحى إليه أن توبته أن يسجد لقبر آدم، فقال له نوح عليه السلام قد جعلت لك توبة. قال: وما هي؟ قال: تسجد لقبر آدم.

قال إبليس: أنا لم أسجد له حيًّا، فكيف أسجد له ميتًا؟!(١)

وفي رواية أن هذا الحوار دار بينه وبين موسى عليه السلام، فقال له إبليس:

يا موسى، إن لك عليَّ حقًّا، بما شفعت لي عند ربي، فاذكرني عند ثلاث لا أهلكك فيهن:

اذكرني حين تغضب، فإن وجهي في وجهك، وعيني في عينك، وأجرى منك مجرى الدم، واذكرني حين تلقى الزحف، فإني آتي ابن آدم حين يلقى الزحف -القتال- فأذكره أهله، وزوجته وولده حتى يُولي.

وإياك أن تجالس امرأة ليست بذات محرم، فإني رسولها إليك، ورسولك إليها.

إنها ثلاث، وأي ثلاث؟! وهذا حوار آخر مع نبي الله عيسى عليه السلام فتأمله: قال مكحول أبو عثمان: كان عيسى عليه السلام يُصلي على رأس جبل، فأتاه إبليس فقال لعيسى: ألست تؤمن بالقضاء والقدر؟ قال: بلى.

قال إبليس: فألق بنفسك من شاهق فلا يصيبك إلا ما قدر لك.

فقال عيسى عليه السلام: الرب يبتلي عبده ويختبره، وليس للعبد أن يختبر ربه(٢)

وهذا حوار آخر مع نبي آخر، إنه «نبي الله: يحيى بن زكريا -عليهما السلام-».

لقد ظهر له فرأى عليه معاليق من كل شيء، فقال يحيى عليه السلام: ما هذه المعاليق التي أرى عليك؟ قال: هذه الشهوات التي أصيد بها بني آدم. فقال: فهل لي فيها من شيء؟ قال: ربما شبعت فثقلناك عن الذكر قال: فهل غير ذلك؟

قال: لا والله. قال يحيى لله عليَّ أن لا أملأ بطني من طعام أبدًا.

قال إبليس: ولله عليَّ أن لا أنصح مسلمًا أبدًا(٣)

● **لكن ما موقف الشيطان مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم؟**

فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنا جلوسا عند النبي ﷺ، فجاء رجل من أقبح الناس وجهًا، وأقبحهم ثيابًا، وأنتن الناس ريحًا، والناس في حلق حلق، فتخطى رقاب الناس حتى جلس بين يدي النبي ﷺ، فقال: من خلقك؟ قال: الله. قال: فمن خلق السماء؟

(١: ٣) انظر تلبيس إبليس لابن الجوزي، ومكائد الشيطان لابن أبي الدنيا، ومصائب الإنسان من مكائد الشيطان لابن مفلح.

عز: الله. قال: فمن خلق الأرض؟ قال: الله. قال: فمن خلق الله؟ فقال النبى ﷺ: سبحان الله. وأمسك بلحيته، وطأطأ رأسه، وقام الرجل وذهب، فرفع رسول الله ﷺ رأسه، فقال: على بالرجل. فطلبناه فكأن لم يكن فقال ﷺ **«هذا إبليس جاء يشككم فى دينكم»**[1] وعن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ: قام يصلى صلاة الصبح -وهو خلفه- فقرأ فالتبست عليه القراءة، فلما فرغ من صلاته قال: **«لو رأيتمونى وإبليس، فأهويت بيدى فمازلت أخنقه حتى وجدت برد لعابه بين إصبعى هاتين، ولولا دعوة أخى سليمان، أصبح مربوطًا بسارية المسجد يتلاعب به صبيان المدينة»**[2]

قال ابن تيمية -رحمه الله-:

رسول الله لم يكن مستخدمًا الجن، لكن دعاهم إلى الإيمان بالله، وقرأ عليهم القرآن، وبلغهم الرسالة، وبايعهم كما فعل بالإنس.

وأن الذى أوتيه النبى ﷺ - أعظم مما أوتيه سليمان عليه السلام، فإنه ﷺ الجن والإنس فى عبادة الله وحده، وسعادتهم فى الدنيا والآخرة.

أخى الحبيب:

إذا كان الشيطان يوسوس للمسلم ولغيره فما هى أحقر أوقات الشيطان؟

إن أحقر ما يكون الشيطان يوم عرفة، فقد روى طلحة بن عبيد الله بن كريز قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما رئى الشيطان يومًا هو أصغر فيه، ولا أحقر، ولا أدحر، ولا أغيظ منه فى يوم عرفة»**[3] وما ذاك إلا لما يراه من نزول رحمة الله، وتجاوزه عن الذنوب العظام. إلا ما رئى يوم بدر» لكن ماذا رأى يوم بدر؟

لقد رأى جبريل عليه السلام ومعه ملائكة الرحمن جل جلاله وقد جاء لنصرة جيش الحق، وقد صور القرآن الكريم هذا الموقف فقال سبحانه: ﴿**وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾ [الأنفال: ٤٨].

إن الشيطان يجرى من الإنسان مجرى الدم فى العروق كما أخبر بذلك رسولنا ﷺ.

فكيف نعالج وسوسته وغوايته؟

إنه يوسوس للإنسان فى كل أحوال عباداته فى وضوئه وفى صلاته، وقد جاء أحد أصحابه وهو عثمان بن العاص رضي الله عنه فيقول له: يا رسول الله، إن الشيطان قد حال بينى

---

(١) رواه البيهقى.

(٢) رواه أحمد فى مسنده(١١٧١٩) قال الهيثمى فى المجمع٢/ ٨٧ رواه أحمد بإسناد رجاله ثقات ورواه البخارى بنحوه (٤٦١) ومسلم (٥٤٢).

(٣) رواه مالك فى الموطأ١/ ٢٨٤ وهو مرسل وقد وصله الحاكم فى المستدرك.

وبين صلاتى وقراءتى، يلبسها علىّ، فقال ﷺ مبينا له كيفية علاج هذا الداء: **«ذاك شيطان يقال له: خنزب، فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه، واتفل على يسارك ثلاثًا»**(١) يقول عثمان بن أبى العاص: ففعلت ذلك فأذهبه الله عنى. أى أنه كرر هذا الفعل حتى ذهب عنه، وفى التفل فى جهة اليسار فوائد منها:

١- إخزاء الشيطان وهو من أهل الشمال، فإذا تفل المسلم عن شماله، فقد صده وطرده شر طردة فى ذلة وهوان.

٢- طرد ما ألقاه الشيطان فى قلبه من الوساوس، فإن من كره شيئًا تفله ونبذه.

٣- أن هذا دواء ناجع لهذا الداء علمه رب العالمين لنبيه ﷺ. فهو الذى لا ينطق عن الهوى فمن فعله بثقة عافاه الله وشفاه، وعصمه منه حتى يلقاه.

وهذا صحابى آخر يشكو داءه، ويقرر علته لطبيب القلوب، إنه خالد بن الوليد، يشكو من الشيطان فيقول: يا رسول الله إنى أروع فى منامى فماذا أفعل لهذا الداء؟.

فقال له قل: **«أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشر عباده، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون»**(٢) فكلمات الله هى النافعة الشافية، وقيل: المراد بها القرآن.

وقد ثبت أن الشيطان يفر من ذكر الله، ويفر عند الأذان وإقامة الصلاة فعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«إذا نودى بالصلاة أدبر الشيطان له ضراط حتى لا يسمع الأذان، فإذا قضى الأذان أقبل، فإذا ثوب بها أدبر، فإذا قضى أقبل حتى يخطر بين المرء ونفسه يقول له: اذكر كذا، لم يكن يذكر، حتى يظل الرجل لا يدرى كم صلى»**(٣)

قال عمر بن عبد العزيز -رحمه الله-:

سأل رجل ربه أن يريه موضع الشيطان من قلب ابن آدم، فرأى - فيما يرى النائم - جسد رجل يشبه البللور، يرى داخله من خارجه، ورأى الشيطان فى صورة ضفدع، قاعد عند منكبه الأيسر، بين منكبه وأذنه، له خرطوم طويل رقيق قد أدخله من منكبه الأيسر إلى قلبه يوسوس إليه، فإذا ذكر الله انخنس(٤) قال تعالى حكاية عن الشيطان: **﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾** [الأعراف: ١٦، ١٧] أشككهم فى آخرتهم، وأنه لا بعث ولا جنة ولا نار **﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾** [الأعراف: ١٦] أرغبهم فى دنياهم، وأدعوهم إلى تكذيب ما فيها من الآيات **﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾** [الأعراف: ١٦] ألبس عليهم أمر دينهم، وأنسيهم يوم الحساب **﴿وَعَن شَمَائِلِهِمْ﴾** [الأعراف: ١٦] أشهى لهم المعاصى.

---

(١) رواه مسلم (٢٢٠٣).

(٢) رواه مالك فى الموطأ ٢/ ٣٥٢.

(٣) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى.

(٤) رواه ابن أبى الدنيا.

قال قتادة: أتاك الشيطان يابن آدم من كل ناحية غير أنه لم يأتك من فوقك، لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله.

وقال إسحاق بن راهويه: قال ابن عباس: لم يستطع أن يقول من فوقهم لعلمه أن الله من فوقهم.

وعن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير فى يوم وليلة مائة مرة، كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه**»[1]

اللهم إنا نسألك العفو والعافية فى الدين والدنيا، اللهم استر عوراتى، وآمن روعاتى، اللهم احفظنى من بين يدى ومن خلفى، وعن يمينى، وعن شمالى، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتى[2] يا رب العالمين

الوصية رقم (١٤)
ارحموا من فى الأرض

عن عبد الله بن عمرو ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء**»[3]

صدق رسول الله ﷺ

أخى الحبيب:

إنها وصية من أعظم الوصايا التى أوصانا بها رسول الرحمة سيدنا محمد ﷺ، لأن الرحمة صفة من صفات رب العالمين تبارك وتعالى فهو سبحانه القائل: ﴿**إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [الأعراف: ٥٦] وهو القائل عن نفسه: ﴿**وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ**﴾ [الكهف: ٥٨] والرحيم اسم من أسمائه تعالى، وقال سبحانه: ﴿**فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾ [البقرة: ٣٧] وقال جل وعلا: ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ [البقرة: ١٤٣] وهى من صفات صفوة البشر، رسل الله تبارك وتعالى لأجل هذا أمرنا نبى الرحمة ﷺ وأوصانا بأن نكون رحماء فى جميع شئون حياتنا، لنفوز برحمة الله الرحيم جل وعلا.

---

(١) متفق عليه. (٢) رواه الخمسة إلا أبا داود وصححه ابن حبان والحاكم.

(٣) رواه أحمد فى مسنده (٦٤٩٤) بإسناد صحيح٦/ ٤٦ ورواه الترمذى وقال: حسن صحيح ورواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبى ورواه أبو داود وصححه الألبانى برقم (٤٩٤١) وفى ص.ج برقم (٣٥١٦).

قال المناوى: الراحمون لمن فى الأرض من آدمى، وحيوان لم يؤمر بقتله، بالشفقة والإحسان والمواساة والشفاعة، وكف الظلم، ثم بالتوجع، والتوجه إلى الله تعالى، والإلتجاء إليه، والدعاء بإصلاح الحال، ولكل مقام مقال.

قال العارف البونى: فإن كان لك شوق إلى الرحمة من الله، فكن رحيمًا لنفسك ولغيرك، ولا تستبد بخيرك، فارحم الجاهل بعلمك، والذليل بجاهك، والفقير بمالك، والكبير والصغير بشفقتك ورأفتك، والعصاة بدعوتك، والبهائم بعطفك ورفع غضبك، فأقرب الناس من رحمة الله أرحمهم لخلقه، فكل ما يفعله من خير دق أو جل فهو صادر عن صفة الرحمة.

وقد أمر الراحم أن يبدأ بنفسه فيرحمها، فمن رحمها سلك بها سبيل هداها، وحال بينها وبين هواها، فإنه رحم أقرب جار إليه، ورحم صورة خلقها الله على صورته، فجمع بين الحسنيين، ولذلك أمر الداعى أن يبدأ بنفسه فى الدعاء.

قال ابن عساكر:

بادر إلى الخير يا ذا اللب مغتنمًا ... ولا تكن من قليل الخير محتسمًا
واشكر لمولاك ما أولاك من نعم ... فالشكر يستوجب الأفضال والكرما
وارحم بقلبك خلق الله وارعهم ... فإنما يرحم الرحمن من رحما

قال العلامة الجوينى فى ينابيع العلوم:

حكمة إتيانه بالراحمين جمع راحم دون الرحماء جمع رحيم، وإن كان غالب ما ورد من الرحمة استعمال الرحيم لا الراحم، لأن الرحيم صفة مبالغة، فلو عبر بجمعها اقتضاء الاقتصار عليه، فعبر بجمع راحم، إشارة إلى أن العباد منهم من قلت رحمته، فيصح وصفه بالراحم لا الرحيم، فيدخل فى ذلك، ثم أورد على نفسه حديث: «**إنما يرحم الله من عباده الرحماء**» وقال: إن له جوابًا حقه أن يكتب بماء الذهب على صفحات القلوب، وهو أن لفظ الجلالة دال على العظمة والكبرياء، ولفظ الرحمن دال على العفو بالاستقراء، وحيث ورد لفظ الجلالة يكون الكلام مسوقًا بالتعظيم، فلما ذكر لفظ الجلالة فى قوله: «**إنما يرحم الله**» لم يناسب معها غير ذكر من كثرت رحمته وعظمت، ليكون الكلام جاريًا على نسق العظمة، ولما كان الرحمن يدل على المبالغة فى العفو، ذكر كل ذى رحمة وإن قلت[١]

---

(١) الجزاء من جنس العمل٢/ ١١٥-١١٧ نقلا من فيض القدير للمناوى٤/ ٤٢، ٤٣.

• حث الرسول صلى الله عليه وسلم على الرحمة •

أخى الحبيب:

اجعل الرحمة شعار قلبك، يرحمك من خلق الرحمة، إن أردت أن يرحمك رب العباد فارحم عباد الله، يقول النبى ﷺ **«إنما يرحم الله من عباده الرحماء»**[١]

وقال رسول الرحمة ﷺ فى الحديث الذى رواه عنه أبو هريرة ﷺ **«لا تنزع الرحمة إلا من شقى»**[٢] بل إنه ﷺ نفى عنه أن يكون من جماعة المسلمين إذا لم يكن من الرحماء، فعن عبد الله بن عمرو ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«من لم يرحم صغيرنا، ويعرف حق كبيرنا فليس منا»**[٣] وعنه أيضا: **«ارحموا ترحموا، واغفروا يغفر لكم، ويل لأقماع القول، ويل للمصرّين الذين يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون»**[٤]

ومعنى «ويل لأقماع القول» أى الذين يستمعون القول ولا يعملون به.

فالجزاء من جنس العمل، ولابد أن يكون المسلم رحيماً فى شئون حياته كلها، يكون رحيمًا بأبنائه، فيربيهم تربية الإسلام، ويعلمهم تعاليمه، ويعودهم على الأخلاق الكريمة، والخصال النبيلة، ويؤدبهم بآداب الرسول الأعظم ﷺ.

ويكون الولد رحيمًا بأبويه فى حياتهما، وبعد موتهما، فى حياتهما بالبر والعطاء، والمودة والإحسان، فهذا رجل من صحابة الرسول الأجلاء يأتى إلى الرسول الأعظم ﷺ مهرولاً، فرحًا لأنه سوف يبايع رسول الله على الهجرة والجهاد فى سبيل الله فيدور هذا الحوار بين رسول الرحمة، وبين تلميذه فى مدرسة الرحمة:

الرسول ﷺ يسأله: **هل من والديك أحد حيٌّ؟**

قال: نعم. كلاهما حى.

فقال ﷺ: **«ارجع إليهما، وأحسن صحبتهما»**[٥]

وهذا رجل آخر، جاء يسعى إلى النبى ﷺ وقال له: جئت أبايعك على الجهاد وقد تركت أبواى يبكيان.

يقول النبى ﷺ له وهو رسول الرحمة: **«فارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما»**[٦]

---

(١) حسنه الألبانى فى ص.ج (٢٣٧٧).

(٢) صحيح سنن أبى داود للألبانى (٤٩٤٢) جـ٣/ ٢١٢ بإسناد حسن ورواه الترمذى (٥٠ ٢).

(٣) صحيح سنن أبى داود للألبانى (٤٩٤٣) والترمذى (٢ ٢) وأحمد (٧٣ ٧) صحيح.

(٤) رواه أحمد فى مسنده (٦٥٤١) وهو فى صحيح الجامع للألبانى رقم (٨٩٧).

(٥) تخرج فى موضع آخر.

(٦) أحمد فى مسنده (٦٩٠٩) بإسناد صحيح.

ارحم نفسك، واشفق عليها من المعاصى التى ترتكبها فتوقعك فى أشد الهلاك وهو النار يوم القيامة، ورحمتها تكون بفعل الطاعات، وعمل الصالحات. والرفق بها فى أمور العبادة.

يحدثنا جابر بن عبد الله رضي الله عنه فيقول: كان النبى ﷺ فى سفر، فرأى رجلاً قد اجتمع عليه الناس، وظُلِّل عليه، فقال: «**ما بال هذا؟**» قالوا: رجل صائم.

فقال ﷺ: «**ليس من البر أن تصوموا فى السفر، وعليكم برخصة الله التى رخصها لكم**»(١)

ارحم زوجتك فلا تكلفها ما لا تطيق، أدِّ حقوقها.

لقد كان من بين أصحاب النبى ﷺ صحابى جليل هو عثمان بن مظعون رضي الله عنه وكان عثمان متبتلاً، غير مشفق على نفسه فى العبادة حتى لقد همَّ ذات يوم أن يخصى نفسه، ليتخلص نهائيًا من نداء غريزة الجنس.

وذات مرة دخل الرسول على زوجته عائشة، فوجد معها بعض النسوة، فوقعت عينه على إحداهن، وكانت رثة الهيئة، كئيبة المحيا، فسأل الرسول عن أمرها، فقيل له: إنها زوجة عثمان بن مظعون، وأنها تشكو بثها وحزنها، لأن عثمان مشغول عنها بالعبادة يقوم ليله، ويصوم نهاره. وذهب الرسول حيث لقى عثمان، فقال له: **أما لك بى أسوة؟** قال عثمان: بأبى أنت وأمى قال له الرسول: **تصوم النهار، وتقوم الليل؟** قال: نعم أفعل.

فقال رسول الله له: «**يا عثمان إن لربك عليك حقًا ولبدنك عليك حقًا، ولزوجك عليك حقًا، فأعط كل ذى حق حقه**»(٢)

ارحم خادمك فلا تكلفه من العمل مالا يطيق، فقال: «**إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده، فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم**»(٣)

ارحم الطير، قال ﷺ «**من رحم ولو ذبيحة عصفور، رحمه الله يوم القيامة**»(٤) وخص العصفور بالذكر، لكونه أصغر مأكول يذبح. ارحم الحيوان فهذا أحد الصحابة يقول: يا رسول الله، إنى لأرحم الشاة أن أذبحها، فقال: «**إن رحمتها رحمك الله**»(٥)

ارحم الحيوان فلا تحمله ما لا يطيق، فقد قال ﷺ ناهيًا أن يمثل بالحيوان: «**لعن الله من مثل بالحيوان**»(٦) وعن جابر بن عبد الله قال: رأى النبى ﷺ حمارًا قد وسم فى وجهه، فقال: «**لعن الله من فعل هذا**»(٧) والوسم هو أثر الكى، وأصل الوسم العلامة.

---

(١) رواه أحمد فى مسنده (١٤٣٦٣) بإسناد صحيح.

(٢) رواه أحمد فى مسنده والطبرانى فى الكبير والترمذى.

(٣) رواه البخارى.

(٤) رواه البخارى وذكره الألبانى فى ص.ج (٦١٣٧).

(٥) رواه الحاكم وصححه.

(٦) رواه أحمد فى مسنده بإسناد صحيح (١٤٠٩٦).

(٧) رواه مسلم (٢١١٧) وأبو داود (٢٥٦٤) والترمذى (١٧١٠) وأحمد فى مسنده.

فاجعل أخى الحبيب الرحمة شعارك، والشفقة والرفيق زينتك يرحمك الرحمن الرحيم جل وعلا.

• رسولنا محمد ﷺ ... رحمة للعالمين •

تعلم الرحمة من أعظم قدوة، ومن أفضل أسوة، من جعله الله رحمة للعالمين، فقال سبحانه: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

تعلم الرحمة والرأفة من رسول الرأفة، قال سبحانه: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ [التوبة: ١٢٨].

كان رحمة للعالمين، والعالمين جمع عالم، أى كان رحمة لعالم الإنسان، رحمة لعالم الحيوان، رحمة لعالم الطير، كان رحمة بعالم الإنسان، مسلمه وكافره، كبيره وصغيره، أتاه سبى، فشكت إليه فاطمة ابنته ما تلقى من مشقة فى خدمة بيتها، فطلبت منه خادمًا يكفيها مؤنة بيتها، فأمرها أن تستعين بالتسبيح والتكبير والتحميد، وقال لها: «**لا أعطيك خادمًا .. وأدع أهل الصفة، تطوى بطونهم من الجوع، لا أجد ما أنفق عليهم، ولكن أبيعهم السبى، وأنفق عليهم أثمانهم**» فاقتضت رحمته بأهل الصفة وهم فقراء المسلمين من المهاجرين أن يؤثرهم على ابنته، ولا يستجيب لرغبتها.

حتى إن رحمة النبى ﷺ كانت للمشركين، **فقد مرّ فى غزوة حنين بامراة قتلها خالد ابن الوليد، والناس مزدحمون حولها، فقال: ما هذا؟ قالوا: امرأة قتلها خالد بن الوليد، فقال رسول الله ﷺ لبعض من معه «أدرك خالد، فقل له: إن رسول الله ينهاك أن تقتل وليدًا أو امرأة أو عسيفًا»**[1] وفى أسرى بدر وكان فيهم سهيل بن عمرو، وكان فيمن يحرض على النبى ﷺ، فقال عمر بن الخطاب يا رسول الله، دعنى أنزع ثنيته، ليخرج لسانه، فلا يقوم عليك خطيبًا فى موطن أبدًا، فقال رسول الله ﷺ «**دعه يا عمر، فعسى أن يقوم مقامًا تحمده عليه**».

وقد تحقق ما توقعه رسول الله ﷺ، فإن كثيرًا من أهل مكة هموا بالارتداد عن الإسلام بعد موت رسول الله ﷺ، فقام سهيل بن عمرو فيهم خطيبًا، فتراجعوا عما هموا به[2] - وكان قد أسلم يوم الفتح.

كان رحيمًا بالأطفال، فقد أبصره الأقرع بن حابس وهو يقبل الحسن بن على، فقال له: إنَّ لى عشرة من الولد ما قبلت منهم واحدًا.

فقال رسول الله ﷺ: «**أو أملك لك أن نزع الله الرحمة من قلبك، من لا يرحم لا يرحم**».

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٤/ ٦٧

(٢) أسد الغابة لابن الأثير ٢/ ٣٩٦ وسيرة ابن هشام ومختصر تاريخ دمشق لابن عساكر ١/ ٢٣١

كان رحيمًا بالحيوان، فقد كانت السيدة عائشة في سفر مع رسول الله ﷺ على بعير صعب، فجعلت تصرفه يمينًا وشمالاً، فقال لها: **«يا عائشة، عليك بالرفق فإنه لا يدخل في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه»**(١)

وكان كثيرًا ما يوصي برحمة الحيوان، والإشفاق عليه، فيقول: **«إذا ركبتم هذه الدواب فأعطوها حقها من المنازل، ولا تكونوا عليها شياطين»**(٢)

• السلف الصالح كانوا من أرحم الناس وأشفقهم •

كان الزمخشري في طفولته، يحبس طائرًا في بيته، فأتى هذا الطائر، وقطع الحبل فنبشت رجله، فانقطعت مع الحبل، وذهب الطائر برجل واحدة، فقالت أم الزمخشري له: قطع الله رجلك، كما قطعت رجل هذا الطائر، فذهب فوقع في الثلج في طريقه إلى مكة، فكسرت من فخذه، وأصبح على رجل واحدة(٣)

فعلى المسلم أن يقتدي بالذين من قبله، فإن الله قد مدح أصحاب النبي ﷺ بالتراحم فيما بينهم، قال تعالى: ﴿**مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ**﴾ [الفتح: ٢٩] كانوا رحماء على المسلمين، وعلى جميع الخلق، وكانوا يرحمون أهل الذمة، فكيف بالمسلمين؟!

روى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى رجلاً من أهل الذمة يسأل على أبواب الناس، وهو شيخ كبير، فقال له عمر ما أنصفناك، أخذنا منك الجزية، ما دمت شابًّا، ثم ضيعناك اليوم، وأمر بأن يُجرى عليه قوته من بيت مال المسلمين(٤)

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول:

رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعلى كتفه قتب، وهو يعدو به بالأبطح، فقلت له: يا أمير المؤمنين، أين تصير؟ فقال: بعير ندَّ من إبل الصدقة، فأنا أطلبه.

فقلت له: لقد أذللت الخلفاء من بعدك. فقال: لا تلمني يا أبا الحسن، فوالذي بعث محمدًا ﷺ بالحق، لو أن عناقًا ذهب بشاطئ الفرات لأوخذ بها عمر يوم القيامة، لأنه لا حرمة لوال ضيع المسلمين، ولا لفاسق روَّع المؤمنين(٥)

وروى الشعبي أن عمر بن الخطاب قال: إن الله تعالى لا يرحم من لا يرحم، ولا يغفر لمن لا يغفر، ولا يتوب على من لا يتوب.

---

(١) رواه مسلم (٢٥٩٤) وأبو داود (٢٤٧٨) وأحمد في مسنده (٢٤١٨٨) بإسناد حسن.

(٢) كنز العمال للهندي٥/ ١٧

(٣) الجزاء من جنس العمل د/ حسين عفاني٢/ ١١٨

(٤)، (٥) تنبيه الغافلين ص١ ٣، ص٢ ٣٠

وكان أبو الدرداء ﷺ يتبع الصبيان فيشترى منهم العصافير، فيرسلها ويقول: اذهبى عيشى.

وكان أبو عبد الله الأنطاكى -رحمه الله- يقول: إذا علمت من الناس، الوقوع فى عرضك إذا رأوك، فلا تجتمع بهم رحمة لهم إلا فى أوقات الصلاة.

وكان أبو عبد الله المغاربى -رحمه الله- يقول: من لم ينظر للعصاة بعين الرحمة، فقد خرج عن الطريق.

وكان معروف الكرخى -رحمه الله- إذا رأى عاصيًا دعا له بالمغفرة، ورجا له الرحمة، ويقول: إنَّ الله تعالى أرسل محمدًا ﷺ وبعثه لنجاة الناس والرحمة لهم، والشيطان لعنه الله بعث لإهلاكهم والشماتة فيهم[١]

(لطيفة): يقول النبى ﷺ **«ما من نبى إلا وقد رعى» قالوا: يا رسول الله، وأنت قد رعيت؟ قال: «نعم رعيت»**[٢]

والحكمة فى رعى الأنبياء عليهم السلام أن رعى الأغنام يدرب على الحلم والرحمة والشفقة.

وعن قتادة قال: ذكر أن فى الإنجيل مكتوبًا: ابن آدم، كما ترحم فكذلك ترحم، وكيف ترجو أن يرحمك الله وأنت لا ترحم عباده؟!.

وقال مالك بن أنس ﷺ: بلغنى أن عيسى عليه السلام قال: **«لا تكثروا الكلام فى غير ذكر الله، فتقسو قلوبكم، والقلب القاسى بعيد من الله تعالى، ولكن لا تعلمون، ولا تنظروا فى عيوب الناس كأنكم أرباب، وانظروا إليها كأنكم عبيد، وإنما الناس رجلان: مبتلى، ومعافى فارحموا صاحب البلاء، واحمدوا الله على العافية»**[٣]

• موعظة •

لو تراحم الناس ما كان بينهم جائع ولا عار، ولا مغبون، ولا مهضوم، ولأقفرت الجفون من المدامع، ولاطمأنت الجنوب فى المضاجع، ولمحت الرحمة الشقاء من المجتمع، كما يمحو لسان الصبح مداد الظلام.

لم يخلق الله الإنسان ليقتر عليه رزقه، ولم يقذف به فى هذا المجتمع ليموت جوعًا فى أرادت حكمته أن يخلقه، ويخلق له فوق بساط الأرض، وتحت ظلال السماء ما يكفيه مؤنته، ويسد حاجته، ولكن الإنسان بغى بعضه على بعض، وغدر القوى بالضعيف، فتغير نظام القسمة العادلة، وتشوه وجهها الجميل.

١) تنبيه المغترين ص٩٥

٢) رواه البخارى عن أبى هريرة ومالك فى الموطأ٢/ ٣٦٥

٣) رواه مالك فى الموطأ.

أيها الإنسان. ارحم الأرملة التى مات عنها زوجها، ولم يترك لها غير صبية صغار، ودموع غزار، ارحمها قبل أن ينال اليأس منها، ويعبث الهم بقلبها فتؤثر الموت على الحياة.

ارحم الزوجة أم ولدك، وقعيدة بيتك، ومرآة نفسك، وخادمة فراشك لأنها ضعيفة، ولأن الله قد وكل أمرها إليك.

ارحم الحيوان، لأنه يحس كما تحس، ويتألم كما تتألم، ويبكى بغير دموع، ويتوجع ولا يكاد يبين.

أيها السعداء، أحسنوا إلى البائسين والفقراء، وامسحوا دموع الأشقياء، وارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء(١)

اللهم انهج بنا مناهج المفلحين، وألبسنا خلع الإيمان واليقين، وخصنا منك بالتوفيق المبين، ووفقنا لقول الحق واتباعه، وخلصنا من الباطل وابتداعه، وكن لنا يا ربنا مؤيدا، ولا تشمت بنا عدوًا ولا حاسدًا، وارزقنا علمًا نافعًا، وعملاً متقبلاً، وشفاء من كل داء، واغفر لنا ولجميع المسلمين، يا رب العالمين.

الوصية رقم (١٥)
احضروا الجمعة

عن سمرة بن جندب رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: **«احضروا الجمعة، وادنوا من الإمام، فإن الرجل لا يزال يتباعد، حتى يؤخر فى الجنة، وإن دخلها»**(٢).

صدق رسول الله ﷺ

• فى رحاب الوصية •

فى هذه الوصية النبوية يوصينا فيها حبيبنا وإمامنا وقدوتنا سيدنا محمد ﷺ بأن نحضر الجمعة ونواظب عليها، وهدفه الأسمى من وراء ذلك هو اجتماع شمل الإسلام والمسلمين، ليحصل بينهم التعاون على البر والتقوى، ويجلب فى قلوبهم المحبة والوفاء، وما سمى يوم الجمعة بهذا الاسم إلا لأن الناس يجتمعون فيه ويكثرون، وكان هذا اليوم العظيم الشأن، يسمى فى الجاهلية -بيوم العروبة- وكانوا يسمون الأحد أول والاثنين أهون، والثلاثاء جبارًا، والأربعاء دبارًا، والخميس مؤنسًا، والسبت شبارًا لذا يقول شاعرهم:

أؤمل أن أعيش وأن يومى ... بأول أو بأهون أو جبار
أو التالى دبار فإن أفته ... فمؤنس أو عروبة أو شبار(٣)

(١) هذه الموعظة بعنوان (الرحمة) للمنفلوطى.

(٢) رواه الحاكم وصححه١/ ٢٨٩ ووافقه الذهبى وضعفه الهيثمى فى المجمع لأجل الحكم بن عبد الملك ولكن حسنه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود برقم (١١٠٨) جـ١/ ٣٠٤ وقد رواه أحمد فى مسنده (١٩٩٩٣) جـ١٥/ ١٢٩

(٣) دليل الفالحين٣/ ٦٣٤

ولما كان قائد هذه الأمة وإمامها يعلم أن أعمار أمته قصيرة، فهى ليست كأعمار أمة نوح، وليست كأمة صالح أو غيرها من الأمم، أراد أن يرشدها إلى ما يجعلها تسبق الأمم التى كانت تعمر طويلاً، وذلك فضل الله وكرمه على حبيبه محمد ﷺ، فكانت صلاة الجمعة ويومها من خير الأيام وأعظمها بركة لأن فيه يستطيع المؤمن أن يزداد من الحسنات، ويعمل الصالحات حتى يرضى عنه رب البريات، وليست الجمعة فقط، وإنما الصلوات الخمس، ورمضان، وغير ذلك ما دام المسلم بعيدًا عن الموبقات المهلكات، يقول ﷺ: «الصلوات فى جماعة، والجمعة إلى الجمعة، رمضان إلى رمضان كفارة لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر»(١) لأجل ذلك أرشدنا الرسول الأعظم إلى الجمعة لأنها من مكفرات الذنوب، فإذا كفرت الذنوب أحبك علام الغيوب، وإن تركتها فقد خالفت سنة المحبوب ﷺ الذى قد حذرك ونهاك، وتوعد كل من يترك الجمعة بعقاب أليم، أقله أن يختم الله على قلبه، ويكتبه من الغافلين، لأنه خالف رسول رب العالمين، فعن أبى هريرة وابن عمر ﷺ أن النبى ﷺ قال وهو على أعواد منبره: «**لينتهين أقوام عن ودعهم** -أى تركهم- **الجمعات أو ليختمن الله على قلوبهم، ثم ليكونن من الغافلين**»(٢)

وإذا كان رسولنا ﷺ قد رغبنا وحثنا على صلاة الجمعة، ثم حذر من يتركها فقد رغبنا رب العالمين جل وعلا فيها، وحذرنا من تركها، فنادى على أهل الإيمان بنداء أحب شئ إلى قلوبهم وأسماعهم، فقال جل شأنه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ [الجمعة: ٩].

• فضل يوم الجمعة •

ويوم الجمعة من أفضل الأيام وأعظمها فى الدنيا، وقد ورد فى فضله أحاديث كثيرة تدل على عظمه، ومنها:

١- عن أبى هريرة ﷺ قال: قيل للنبى ﷺ: لأى شىء سمى يوم الجمعة؟ قال: «**لأن فيها طبعت طينة أبيك آدم، وفيها الصعقة والبعثة، وفيها البطشة، وفى آخر ثلاث ساعات منها ساعة من دعا الله فيها استجيب له**»(٣)

٢- وعن أبى موسى ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله يبعث الأيام يوم القيامة على هيئتها، ويبعث الجمعة زهراء منيرة لأهلها، فيحفون بها كالعروس تهدى إلى كريمها، تضيئ لهم، يمشون فى ضوئها، ألوانهم كالثلج بياضًا، رياحهم تسطع كالمسك، يخوضون**

(١) رواه مسلم (٢٣٣) وأحمد فى مسنده (٨٧٠٠) وأبو نعيم فى الحلية عن أنس٩/ ٢٥٠

(٢) رواه مسلم وأحمد فى مسنده برقم (٢١٣٢) وأبو داود وابن ماجه.

(٣) رواه أحمد فى مسنده (٨٠٨٨) بسند رجاله رجال الصحيح.

في جبال الكافور، ينظر إليهم الثقلان، ما يتركون تعجبًا حتى يدخلون الجنة لا يخالطهم أحد إلا المؤذنون المحتسبون»[١] الله أكبر. ما هذه العظمة؟ وما هذا الجزاء العظيم من الرب الكريم؟! إنه جزاء عظيم لأولئك الذين كانوا يبكرون إلى الجمعة، والجزاء من جنس العمل.

٣- **وعن أبي لبابة بن عبد المنذر** قال: قال رسول الله ﷺ: «**يوم الجمعة سيد الأيام وأعظمها عند الله تعالى، وهو أعظم عند الله من يوم الفطر، ومن يوم النحر، وفيه خمس خصال: فيه خلق آدم وفيه أهبط الله تعالى آدم إلى الأرض، وفيه توفى آدم، وفيه ساعة لايسأل الله فيها شيئًا إلا أعطاه الله إياه، مالم يسأل حرامًا، وفيه تقوم الساعة، وما من ملك مقرب عند ربه ولا في سماء ولا في أرض إلا وهو يشفق من يوم الجمعة**»[٢]

والحديث صريح في تفضيل يوم الجمعة على سائر الأيام، وخصه بمزايا لم تكن لسائر الأيام.

٤- **وعن أنس** رضي الله عنه قال. «**أتى جبريل بمرآة بيضاء فيها وكتة إلى النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: ما هذه؟ قال: هذه الجمعة، فضلت بها أنت وأمتك، فالناس لكم فيها تبع: اليهود والنصارى، ولكم فيها خير، وفيها ساعة لا يوافقها مؤمن يدعو الله تعالى بخير إلا استجيب له، وهو عندنا يوم المزيد. قال النبي ﷺ: يا جبريل، ما يوم المزيد؟ قال: إن ربك اتخذ واديًا في الفردوس فيه كثب من مسك، فإذا كان يوم الجمعة، حفت بمنابر من نور عليها النبيون، وحفت منابر النور بمنابر من ذهب مكللة بالياقوت والزبرجد، عليها الصديقون والشهداء والصالحون، وينزل أهل القرآن من الغرف، فيجلسون من ورائهم على تلك الكُثُب، فيجتمعون إلى ربهم، فيمدحونه ويمدحونه ويثنون عليه، فيقول الله تعالى لهم: سلوني. فيقولون: نسألك الرضا فيقول: رضيت عنكم رضاءً أحلكم داري وأنا لكم كرامتي، فيتجلى لهم حتى يروه فليس يوم أحب إليهم من يوم الجمعة لما يزيدهم من الكرامة**»[٣]

---

(١) رواه مالك والبيهقي وصححه الألباني في ص.ج (١٨٦٨) وفي السلسلة الصحيحة (٧٠٦).

(٢) رواه أحمد في مسنده بسند حسن لأجل عبد الله بن محمد بن عقيل برقم (١٥٤٨٥)جـ١٢/ ٢٢٥.

(٣) أخرجه الشافعي في مسنده١/ ١٢٦ وفي الأم١/ ١٨٥ وذكره ابن كثير في تفسيره٤/ ٢٢٩ وقد رواه الطبراني في الأوسط بسند رجاله ثقات.

وفى يوم الجمعة ساعة ما دعا فيها مسلم ربه إلا استجاب له، فقد روى:

٥- **عن جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «يوم الجمعة ثنتا عشرة -يريد ساعة- لا يوجد مسلم يسأل الله عز وجل شيئًا إلا آتاه الله عز وجل، فالتمسوها آخر ساعة بعد العصر»**(١).

وقد جاء فى الساعة التى يجاب فيها الدعاء حديث أبى موسى الأشعرى ﷺ يقول: قال لى عبد الله بن عمر: أسمعت أباك يحدث عن رسول الله ﷺ فى شأن ساعة الجمعة؟ قلت: نعم، سمعته يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«هى ما بين أن يجلس الإمام (يعنى على المنبر) إلى أن تنقضى الصلاة»**(٢)

يقول ابن القيم رحمه الله فى نونيته عن يوم المزيد:

أول ما سمعت بشأنهم يوم المزيـ ... ـد وأنه شأن عظيم الشّان
هو يوم جمعتنا ويوم زيارة الرحمن ... وقت صلاتنا وأذانِ
والسابقون إلى الصلاة هم الألى ... فازوا بذاك السبق بالاحسانِ
سبق بسبق والمؤخر ها هنا ... متأخر فى ذلك الميدان
والأقربون إلى الإمام فهم أولو ... الزلفى هناك فهاهنا قربان
قرب بقرب والمباعد مثله ... بعدٌ ببعد حكمة الديان
ولهم منابر لؤلؤ وزبرجد ... ومنابر الياقوت والعقيان
هذا وأدناهم وما فيهم دنى ... من فوق ذاك المسك كالكثبان

يقول الدكتور محمد خليل هراس فى شرح النونية

ذكر أبو نعيم من حديث المسعودى عن المنهال عن أبى عبيدة عن عبد الله قال: **«سارعوا إلى الجمعة فى الدنيا، فإن الله تبارك وتعالى يبرز لأهل الجنة فى كل جمعة على كثب من كافور أبيض، فيكونون منه سبحانه فى القرب على قدر سرعتهم إلى الجمعة، ويحدث لهم من الكرام شيئًا لم يكونوا رأوه قبل ذلك، فيرجعون إلى أهليهم وقد أحدث لهم»**. فالسابقون إلى الصلاة يوم الجمعة هم السابقون فى الذهاب إلى الله عز وجل فى يوم المزيد، الذى هو يوم زيارة الرب جل وعلا، والمتأخرون هنا متأخرون هناك جزاء وفاقًا.

وكذلك الأقربون إلى الإمام فى يوم الجمعة يكونون هم أهل الزلفى والقرب عند

(١) رواه أبو داود وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود رقم (٤٨ ١)جـ١/ ٢٩٠ ورواه الحاكم وقال هذا حديث صحيح وقد اختلف فى ساعة الإجابة على نحو خمسة وأربعين قولاً ذكره ابن حجر فى الفتح والسيوطى فى شرح الموطأ فراجعها إن شئت.

(٢) رواه مسلم وأبو داود والبيهقى.

الله، فقربهم هناك بحسب قربهم من الإمام، وبعدهم بحسب بعدهم كذلك.

ولهم هناك فى هذا الوادى الذى يسمى وادى المزيد منابر من اللؤلؤ والياقوت والزبرجد والذهب، وأدناهم منزلة -وليس فيهم دنىء ولا ناقص- يجلسون على كثبان المسك ولا يجدون لأهل المنابر فضلاً عليهم(١)

سبق بسبق والجزاء من جنس العمل.

• ما يطلب ليلة الجمعة ويومها •

يستحب للمسلم ليلة الجمعة ويومها عدة أمور، يزيد بها فى حسناته، منها:

١- **يستحب الإكثار فى يومها وليلتها من قراءة القرآن والذكر والدعاء:** لحديث أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «**من قرأ سورة الكهف فى يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين**»(٢)

٢- **ويستحب الإكثار من الصلاة والسلام على النبى ﷺ ليلة الجمعة ويومها:** لحديث أبى أمامة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «**أكثروا علىَّ من الصلاة فى كل يوم جمعة، فإن صلاة أمتى تعرض علىَّ فى كل يوم جمعة، فمن كان أكثركم علىَّ صلاة كان أقربكم منى منزلة**»(٣)

ولحديث أوس بن أوس أن النبى ﷺ قال: «**إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة فيه خلق آدم، وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا علىَّ من الصلاة فيه فإن صلاتكم معروضة علىَّ. قالوا: يا رسول الله، وكيف تعرض عليك صلاتنا وقد أرمت؟ يعنى وقد بليت. قال: إنَّ الله عز وجل حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء**»(٤)

٣، ٤، ٥، ٦- يطلب الغسل والسواك والتطيب ولبس أحسن الثياب فى يوم الجمعة لحديث أبى سعيد وأبى هريرة أن النبى ﷺ قال: «**من اغتسل يوم الجمعة، واستاك ومس من طيب إن كان عنده ولبس من أحسن ثيابه ثم خرج حتى يأتى المسجد فلم يتخط رقاب الناس حتى ركع ما شاء الله أن يركع ثم أنصت إذا خرج الإمام فلم يتكلم حتى يفرغ الإمام من صلاته كان كفارة لما بينها وبين الجمعة التى قبلها**» وكان أبو هريرة يقول: ثلاثة أيام زيادة، إن الله جعل الحسنة بعشر أمثالها(٥)

---

(١) شرح النونية للدكتور محمد خليل هراس٢/ ٤٢١-٤٢٢ ونقلت من الجزاء من جنس العمل١/ ٤٩٤، ٤٩٥.

(٢) رواه البيهقى والنسائى ورواه الحاكم مرفوعًا وموقوفًا وقال: هذا صحيح الإسناد.

(٣) رواه البيهقى بسند حسن.

(٤) رواه أحمد فى مسنده والحاكم وصححه وابن حبان فى صحيحه والبيهقى.

(٥) رواه أحمد فى مسنده (١١٧٠٧)جـ١٠/ ٢٥٥ بإسناد صحيح ورواه الحاكم وصححه.

وفى رواية لأبى داود عن عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ قال: «يحضر الجمعة ثلاثة نفر: رجل حضرها يلغو وهو حظه منها، ورجل حضرها يدعو فهو رجل دعا الله عز وجل، إن شاء أعطاه، وإن شاء منعه، ورجل حضرها بإنصات وسكوت ولم يتخط رقبة مسلم ولم يؤذ أحداً فهى كفارة إلى الجمعة التى تليها، وزيادة ثلاثة أيام، وذلك بأن الله عز وجل يقول: ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها﴾[1]

والمراد بأحسن الثياب: البيض فقد ورد الأمر باستحباب لبسها: «البسوا من ثيابكم البيض فإنها خير ثيابكم وكفنوا فيها موتاكم»[2]

* وحكمة مشروعية الغسل والسواك والطيب والتجمل بأحسن الثياب: أن يكون المصلى على أكمل حال وأطيبه فلا يتأذى منه أحد، ولأن الملائكة تقف على أبواب المساجد يكتبون الأول فالأول فربما صافحوه أو لمسوه.

٧- ويسن قراءة سورة ﴿الٓمٓ ۝ تَنزِيلُ﴾ السجدة فى الركعة الأولى من صلاة صبح يوم الجمعة، وفى الركعة الثانية ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ﴾ لحديث ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ فى صلاة الصبح ﴿الٓمٓ ۝ تنزيلُ﴾ و ﴿هَلْ أَتَىٰ﴾ وفى الجمعة بسورة الجمعة و ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾[3]

وظاهر الحديث يفيد أن الرسول ﷺ كان يواظب على قراءة هاتين السورتين فى صبح يوم الجمعة كما يشعر به لفظ (كان) ويؤيده حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن النبى ﷺ: «كان يقرأ فى صلاة الصبح يوم الجمعة ﴿ألم تنزيل﴾ السجدة، و﴿هل أتى على الإنسان﴾ يديم ذلك»[4].

* والحكمة فى قراءة النبى هاتين السورتين فى صبح الجمعة: أن هاتين السورتين كل منهما يتضمن ما كان وما يكون فى يومه، فقد اشتملتا على خلق آدم عليه السلام وعلى ذكر المعاد، وحشر العباد، وذلك يكون يوم الجمعة.

فكان فى قراءتهما فى هذا اليوم تذكير للأمة بما كان فيه وما يكون.

ومن تتبع السنة النبوية تبين له أن الرسول الأعظم كان يقرأ بهما تامتين خلافًا لما عليه كثير من الأئمة الآن من الاقتصار على بعضها فهو خلاف السنة.

وهذا مذهب الشافعى وأحمد وأبو حنيفة إلا أنه تكره المداومة عليها عندهم.

قال فى المحيط: ويستحب قراءة هاتين السورتين بشرط أن يقرأ غير ذلك أحيانًا لئلا

---

(١) رواه أبو داود (١١١٣) وحسنه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود١/ ٣٠٥

(٢) رواه أحمد فى مسنده (٢٢١٩)جـ٣/ ٢١ ورواه الترمذى وصححه والحاكم.

(٣) رواه مسلم وأبو داود وأحمد فى مسنده (١٩٩٣)جـ٢/ ٤٧٧ بإسناد صحيح.

(٤) رواه الطبرانى فى الصغير بسند رجاله ثقات.

يظن الجاهل أنه لايجزئ غـيره، أو يرى القراءة بغيره مكروهة. خلافًا لما علـيه المالكية فإنه يكره عندهم تعمد قراءة سورة فيها سجدة.

٨- ويطلب منه إذا دخل المسجد أثناء الخطبة ألا يتخطى الرقاب: لحديث عبد الله بن بسر أن رجلاً جاء إلى النبى ﷺ يتخطى رقاب الناس يوم الجمعة والنبى ﷺ يخطب فقال له: «**اجلس فقد آذيت**»[1] وبحرمة تخطى الـرقاب يوم الجمعة صرح الشـافعى للأحاديث الصحـيحة، وقالت الأحـناف: لا بأس بالتخطى مـالم يخرج الإمام أو يؤذ أحـدًا إلا لسد فرجـة فيجـوز. وقالت المالكيـة: يحرم التخـطى حال الخطبـة ولو لفرجة، ولا يكـره قبل جلوس الخطيب إن كان لسد فرجة وإلا كره.

٩- ويندب لمن غلبه النعاس أثناء الجمعـة أن يتحول من مكانه إلى مكان آخر لحديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبى ﷺ قال: «**إذا نعس أحدكم فـى المسجد يوم الجمـعة فليتـحول من مجلسه ذلك إلى غيره**»[2]

(**والحكمة منه**): أن الحركة تذهـب النعاس، أو لأن المكان الذى جلس فيـه وأصابه النوم عنده فيه شيطان، ولذا أمر النبى ﷺ أصحابه به.

ولا يقال: إن الانتقال وقت الخطبة عمل منهى عنـه، لما فيه من الاشتغال عن سماع الخطبة المأمور به فلا يشمله، لأن الناعس إذا انتقل ذهب نعاسه فيتنبه للخطبة.

١٠- ويطلب ممن دخل المسـجد وخاصة يوم الجمـعة ولم يجد مكانًا يجـلس فيه ألا يقيم غـيره ليجلس مكانه، بـل يطلب منه التوسعـة لحديث جابر بن عبد الله أن النبى ﷺ قال: «**لا يقم أحدكم أخاه يوم الجمعة ثم يخالفه إلى مقعده ولكن ليقل: أفسحوا**»[3].

١١- ويطلب الإنصات إلى الذكر حـال الخطبة لحديث: «إذا قلت لصاحبك أنصت والإمام يخطب يوم الجمعة فقد لغوت»[4]

ويجوز الإنكار عليه بالإشارة، واللغـو: الكلام الذى لا ثواب فيه. وقيل: إنه يحرم من ثواب الجمعة وإن سقط الفرض عنه - وقيل: صارت له ظهرًا.

١٢- ويندب الاغتسـال والتبكير إلى صلاة الجمـعة لحديث: «غسل الجمـعة واجب لكل محتلم»[5]

---

(١) رواه أبو داود (١١١٨) وصحـحه الألبـانى فى صحـيح أبى داود ٣٠٧/١ وأحمـد (١٧٦٠٥) بسند صحيح وابن ماجه (١١١٥) وصححه الألبانى فى ص. ج رقم (١٥٥).

(٢) رواه أحمد (٤٧٤١) بسند صحيح وصححه الألبانى فى ص.ج(٨٠٩) والسلسلة الصحيحة (٤٦٨).

(٣) رواه مسلم وأحمد فى مسنده (٦٣٧١)٥/ ٥٤١ بإسناد صحيح.

(٤) رواه أحمد فى مسنده (٧٦٧٢) وصححه الألبانى فى ص.ج (٧٣٧).

(٥) رواه البخارى ومسلم (٨٤٦) وأحمد (١٠٩٦٨).

• ثواب المبكرين إلى الجمعة •

وقد ورد فى ثواب المحافظين على صلاة الجمعة، والتبكير إليها فوق ما ذكر:

١- ما رواه البخارى وغيره عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة، ثم راح فى الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة، ومن راح فى الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة، ومن راح فى الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشًا أملح، ومن راح فى الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة، ومن راح فى الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر»**[١]

تأمل هذا الحديث، فلو تأملته ودققت النظر فيه لوجدت فيه رحمة الإسلام، ورحمة الشارع الحكيم فى إعطاء المبكرين إلى صلاة الجمعة هذا الثواب العظيم، فمن الذى يستطيع كل أسبوع أن يقوم بذبح ناقة أو جمل ثم يوزعه على فقراء المسلمين، كل مسلم يستطيع أن يقوم بذلك إذا ذهب إلى الجمعة مبكرًا فى الساعة الأولى، فثوابه مثل من تصدق به وهكذا الباقى.

ومعنى قوله (غسل الجنابة) من باب التشبيه أى مثل غسل الجنابة فهو يشبهه فى الكيفية لا فى الحكم. وقيل: المراد غسل الجنابة حقيقة، فيستحب للرجل أن يواقع زوجته ليلة الجمعة.

والحكمة فيه:

أن تسكن نفسه فى الرواح إلى الصلاة، ويغض بصره، ويؤيده حديث:

٢- **أوس بن أوس الثقفى**، قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من غسَّل يوم الجمعة واغتسل، ثم بكر وابتكر، ومشى ولم يركب ودنا من الإمام واستمع ولم يلغ كان له بكل خطوة عمل سنة أجر صيامها وقيامها»**[٢]

قال الجمهور: يستحب التبكير إلى الجمعة أول النهار، والمراد الساعات الفلكية، وقال بعضهم: التبكير يكون من ارتفاع النهار وقت الضحى، وأول الهاجرة.

٣- **يقول ابن رجب الحنبلى فى لطائفه**[٣]: شهود الجمعة يعدل حجة تطوع. قال سعيد بن المسيب: هو أحب إلى من حجة نافلة، وقد جعل النبى ﷺ المبكر إليها كالمهدى هديًا إلى بيت الله الحرام.

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود (٣٥١) وأحمد فى مسنده (٩٨٨٨) والترمذى (٤٩٧).

(٢) رواه أبو داود (٣٤٥) فى سننه وصححه الألبانى١/ ٣ ١ ورواه الترمذى (٤٩٤) وابن ماجه (١٠٨٧) ورواه أحمد فى مسنده (٦٩٥٤) بإسناد صحيح جـ٦/ ٤١٦، ٤١٧

(٣) ذكره ابن رجب فى لطائف المعارف ص٤٤١

وفى تاريخ ابن عساكر:

عن الأوزاعى، قال: مرّ يونس بن ميسرة بمقابر، فقال: السلام عليكم يا أهل القبور، أنتم لنا سلف، ونحن لكم خلف، فرحمنا الله وإياكم، وغفر لنا ولكم، فكأن قد صرنا إلى ما صرتم إليه، فردّ الله الروح إلى رجل منهم، فأجابه، فقال: طوبى لكم يا أهل الدنيا حين تحجون أربعًا مرارًا، قال: وإلى أين يرحمك الله؟ قال: إلى الجمعة، أما تعلمون أنها حجة مبرورة متقبلة. قال: ما خير ما قدمتم؟ قال: الاستغفار يا أهل الدنيا. قال: فما يمنعك أن تردّ السلام؟ قال: يا أهل الدنيا، السلام والحسنات قد رفعت عنا، فلا فى حسنه تزيد، ولا فى سيئة تنقص غلقت رهوننا يا أهل الدنيا.

٤- **من مات ليلة الجمعة أو يومها وقاه الله فتنة القبر** لحديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ أن النبى ﷺ قال: «**من مات يوم الجمعة أو ليلة الجمعة وقى فتنة القبر**»(١).

٥- **هداية الله للأمة المحمدية لهذا اليوم العظيم:** فعن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**نحن الآخرون السابقون، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، وأوتيناه من بعدهم، وهذا اليوم الذى كتب الله عليهم فاختلفوا فيه، فهدانا الله تعالى له -يعنى يوم الجمعة- فالناس لنا فيه تبع اليهود غداً، والنصارى بعد غد**»(٢)

ويحدثنا الصحابى الجليل حذيفة بن اليمان ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا، فكان لليهود يوم السبت، وكان للنصارى يوم الأحد، فجاء الله بنا فهدانا ليوم الجمعة، وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة، ونحن الآخرون من أهل الدنيا، والأولون يوم القيامة، والمقضى لهم قبل الخلائق**»(٣)

٦- **أن المبكر لصلاة الجمعة المحافظ عليها يغفر الله له خطاياه:** فعن سلمان ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يغتسل رجل يوم الجمعة ويتطهر ما استطاع من طهر ويدهن من دهنه، أو يمس من طيب بيته ثم يخرج فلا يفرق بين اثنين، ثم يصلى ما كتب له، ثم ينصت إذا تكلم الإمام إلا غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى**»(٤).

• الترهيب من ترك الجمعة من غير عذر •

أخى الحبيب:

أرأيت إلى هذا الثواب العظيم الذى وهبه الله تعالى للذين يبكرون إلى الجمع، أولئك الذين ينوون بذلك زيارة ربهم جل وعلا، لكننا نرى فى عصرنا هذا أن الناس قد

---

(١) رواه الترمذى (١٠٨٠) وأحمد فى مسنده (٦٦٤٦) بسند فيه ضعف جـ٦/ ٢٠٤ فيه بقية بن الوليد وهو مدلس ورواه أبو نعيم فى الحلية٣/ ١٥٥، ١٥٦ بسند فيه ضعف لكن رأيت الشيخ مجدى فتحى السيد قد صححه فى كتابه (فقه الرسول) ص٢٠٨ ط/ التوفيقية.

(٢) رواه البخارى ومسلم وأحمد والنسائى. (٣) رواه مسلم والنسائى وابن ماجه. (٤) رواه البخارى.

انشغلوا بالدنيا، غفلوا عن تلك الشعيرة العظيمة، فكيف لا يستحيى المسلمون من اليهود والنصارى وهم يبكرون إلى البيع والكنائس يوم السبت، ويوم الأحد، وطلاب الدنيا يبكرون إلى الأسواق للبيع والشراء والربح. فلم لا يسابقهم طلاب ربح الآخرة؟!.

ولذلك بلغ من تشديد النبى ﷺ وحرصه على الجمعة أنه همَّ أن يحرق بيوت أولئك الذين يتخلفون عنها بلا عذر.

فعن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال لقوم يتخلفون عن الجمعة: **«لقد هممت أن آمر رجلاً يُصلى بالناس، ثم أحرِّق على رجال يتخلفون عن الجمعة بيوتهم»**[(١)].

وعن أبى الجعْد الضُّمَرِىِّ وكانت له صحبة رضي الله عنه عن النبى ﷺ، قال: **«من ترك ثلاث جمع تهاونًا بها طَبع الله على قلبه»**[(٢)].

وعن كعب بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«لينتهين أقوام يسمعون النداء يوم الجمعة ثم لا يأتونها، أو ليطبعن الله على قلوبهم ثم ليكونن من الغافلين»**[(٣)]

• موعظة •

أخى الحبيب:

إن كان قد حدث أن فرطت فى جمعة من الجمع من غير عذر فبادر بالتوبة إلى الله واندم على ما فاتك من الخير، فآه لنفس لا تندم على ما فاتها، آه على نفس لا تعقل أمرها آه على نفس تضيع فى المعاصى عمرها، آه لمفرط يخسر كل يوم ولا يربح، ولمتخبط فى ظلام نفسه والصباح قد أصبح.

فيا واقعًا فى جب الهوى هذا هو الحبل أما تصعد؟! تخلص من أسر الهوى، فإلى متى تظل مقيدًا؟! فيا أسفى على أيام مضت فى الذنوب وتولت، وعلى ليال كست الصحائف لونها واسودت.

فكيف بك يا مسكين إذا نشر ديوانك، وخف ميزانك، وطاش خيالك، وكشف عنوانك: أتدرى من عصيت؟ وعلى من اجترأت، أنسيت الحساب، وغفلت عن الميقات، فعصيت أمره أما علمت أنه يراك؟ وأنه دائمًا لا ينساك؟ من ينجيك منه إذا وقفت بين يديه، فسألك عن قبح أفعالك وجرأتك عليه؟ إن أقررت أخذت بالإقرار، وإن أنكرت لم ينفعك الإنكار.

---

(١) رواه مسلم والحاكم.

(٢) رواه الترمذى وحسنه وأحمد فى مسنده (١٥٤٣٧) بإسناد صحيح جـ١٢/ ٢٠٦، ٢٠٧ وليس له فى المسند غيره ورواه الإمام أحمد فى المسند عن جابر برقم (١٤٤٩٥) بسند حسن١١/ ٤٨٣ والترمذى (٥٠٠) وقال: حسن والبيهقى وحسنه الهيثمى فى المجمع٢/ ١٩٢

(٣) رواه الطبرانى فى الكبير بسند حسن.

ويحك يامسكين ما هذه الغفلة وإلى الله المصير، وما هذه الدهشة والعمر قصير؟!.

وما هذه السكرة وقد نسجت لك الأكفان، وأوان رحيلك وفراقك قد آن؟.

إن السفر والله بعيد، وإن بطش ربك لشديد. فارجع إلى ربك، واكتب قصة الرجوع بقلم النزوع بمداد الدموع، واسع بها على قدم الخضوع إلى باب الخشوع، وأتبعها بالعطش والجوع، وسل رفعها، فرب سؤال مسموع وقل يا رب:

ذنبى إليك عظيم وأنت للعفو أهل
فإن عفوت بفضل وإن آخذت فعدل

وناد فى الأسحار والناس نائمون:

يا أكرم من أمله الآملون، إن طردتنى فإلى من أذهب، وإن أبعدتنى فإليك أنسب، علمت ذنبى وخلقتنى، ورأيت ذلى ورزقتنى، فتب على واهدنى، يا من عمَّ العباد فضلك ونعماؤك، ووسع البرية جودك وعطاؤك، نسألك الجود والإحسان، والعفو والغفران، والصفح والأمان، يا كريم يا منان، يا رب العالمين.

الوصية رقم (١٦)
لا تغضب

عن أبى الدرداء ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، دلنى على عمل يدخلنى الجنة، ولا تكثر علىَّ، قال: «**لا تغضب**»(١)

صدق رسول الله ﷺ

• فى رحاب هذه الوصية •

قد وردت هذه الوصية المباركة بروايات مختلفة، فقد روى البخارى من حديث أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ سأله رجل، قائلاً له: «أوصنى» قال النبى ﷺ له: «**لا تغضب**» وفى رواية أن السائل ردد ذلك مرارًا، والنبى يكرر ويؤكد بقوله: «**لا تغضب**».

فهذا الرجل طلب من النبى ﷺ أن يوصيه وصية وجيزة جامعة لخصال الخير ليحفظها عنه، وإذ بالنبى ﷺ يوصيه بهذه الوصية ويكررها وهذا يدل على أن الغضب هو جماع الشر، وأن التحرز منه جماع الخير

ولقد كان النبى ﷺ الطبيب الذى يصف الدواء، فهذا يأتى إليه، ويطلب منه الوصية، فيقول له: اتق الله، وآخر يطلب الوصية فيقول: كذا. فهو ذو خبرة وبصيرة

---

(١) رواه البخارى فى الادب (٦١١٦) وأحمد فى مسنده (٦٦٣٥) والطبرانى وابن أبى الدنيا وذكره الألبانى فى ص.ج (٧٣٧٤).

ـغذة، وهو الـذى يعلم بمعادن العـباد، ويعرف كيـف يشخص لهم الدواء النافـع، وكلها وصايا حكيمـة تخرج من قلب نبع فيه الحكمـة، ولسان قدمك بالفصاحة والبـيان، وكلها وصايا بليغة ترقق الـقلوب، وتقوم السلوك الإنسانى وتهذبه حتى تجعل صـاحبها إذا تدبرها تنعم بثمارها فى الدنيا والآخرة ونال بذلك رضوان ربه تبارك وتعالى فى دنياه وأخراه.

• حقيقة الغضب •

أخى الحبيب:

والغضب هو غليان دم القلب طلبًا لدفع المؤذى عند خـشية وقوعه، أو طلبًا للانتقام ممن حصل منه الأذى بعد وقوعه.

إنه قوة أودعها الله تعالـى فى الإنسان تجعله يثور من باطنه فتحمـله على الدفاع عما يحبه من الأغراض، وتدفعه إلى البطش بكل ما يؤذيه.

فإذا ما اعتـدى عليه معتد، أو حـيل بينه وبين غرض من أغراضه ثـارت قوته فغلى دمه، وانتفخت أوداجه.

فهو مدخل مـن مداخل الشيطان إلى قلب الإنسان، وهو غـول العقل، وإذا ضعف جند العقل هـجم جند الشيطان، وإذا هجم الشيـطان عليه وهو كذلك لعب به كـما يلعب الصبى بالكرة.

ولذلك نرى الرسول ﷺ يطرح على أصحابه سـؤالاً وهو يعرف الجواب عنه، لكنه أراد أن يغير المفاهيم، ويصحح الأمور، فيقول لهم كما روى ابن مسعود رضي الله عنه: **«ما تعدون الصرعـة فيكم؟» قـلنا: الذى لا يصرعـه الرجال قـال: النبى ﷺ: ليس ذلك، ولكن الذى يملك نفسه عند الغضب»**[1]

ولقد كان هذا المفهوم الخاطئ سائدًا بين العـرب فى جاهليتهم، وبه كان المعيار الذى يخفض ويرفع، وتسمـو به المنزلة، ويحتل به الإنسان من القلوب كل تـقدير واحترام، ولا عجب أن يقول شاعرهم:

إذا بـلـغ الرضـيع لـنـا فـطـامًـا تـخـر لـه الجـبـابر سـاجـدينا

ومن هنا ذم الله تعالى الكفار بما تظاهروا به من الحمـية الصادرة عن الغضب بالباطل ومدح المؤمنين بإنزال السكينة عليهم، فقال سـبحانه: ﴿**إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا**﴾ [الفتح: ٢٦] لذلك غير الرسول ﷺ المفاهيم، وصححها، ووضح لهم القيمة الحقيقية التى تتبين بها أقدار الرجال، وهى السكينة والوقار والحلم.

---

(١) رواه مسلم (٢٦٠٩) والبخارى (٦١١٤) وصحيح سنن أبى داود للألبانى (٤٧٧٩).

• الإسلام يمدح الحلم ويذم الغضب •

أخي الحبيب:

عن معاذ بن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«من كظم غيظًا وهو يستطيع أن ينفذه دعاه الله يوم القيامة على رءوس الخلائق حتى يخيره من أي الحور العين شاء»**(١)

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«ما تجرع عبد جرعة أفضل عند الله من جرعة غيظ يكظمها ابتغاء وجه الله»**(٢)

وفي يوم من الأيام تغضب السيدة عائشة رضي الله عنها، فيقول الرسول ﷺ: **«مالك جاءك شيطانك؟ فقالت: يا رسول الله، ومالك شيطان؟ قال: بلى ولكني دعوت الله فأعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير»**(٣)

وقال عمر بن عبد العزيز:

قد أفلح من عصم من الهوى والغضب والطمع(٤)

وقال الحسن البصري -رحمه الله تعالى-:

أربع من كن فيه عصمه الله من الشيطان، وحرمه على النار: من ملك نفسه عند الرغبة والرهبة، والشهوة والغضب(٥)

يقول ابن رجب الحنبلي: فهذه الأربع التي ذكرها الحسن هي مبدأ الشر كله، فإن الرغبة في الشيء هي ميل النفس إليه لاعتقاد نفعه، فمن حصل له رغبة في شيء حملته تلك الرغبة على طلب ذلك الشيء المرغوب فيه من كل وجه يظنه موصولاً إليه، وقد يكون ذلك الشيء المرغوب محرمًا.

والرهبة هي الخوف من الشيء، وإذا خاف الإنسان من شيء تسبب في دفعه عنه بكل طريق يظنه دافعًا له.

والشهوة هي ميل النفس إلى ما يلائمها وتلتذ به، وقد تميل كثيراً إلى المحرم كالزنى... (٦)

والواجب على المسلم أن تكون شهوته مقصورة على طلب ما أباحه الله تعالى له، وربما تناولها نية صالحة، فأثيب عليها.

---

(١) رواه أحمد في مسنده (١٥٠٨٤) وأبو داود وحسنه الألباني برقم (٤٧٧٧) وابن ماجه (٤١٨٦) والترمذي (٢١ ٢) وقال: حسن غريب.

(٢) رواه أحمد في مسنده (٥٨٤٢) بإسنادين أحدهما حسن.

(٣) رواه مسلم.

(٤): (٦) جامع العلوم والحكم لابن رجب ص١٩٣

والإنسان بطبيعته الفطرية غضوب لا يملك نفسه، ولا يستطيع أن يحبسها عن الشهوات إلا من رحم الله تعالى، فعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«لما صور الله آدم في الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه، فجعل إبليس يطيف به ينظر ما هو، فلما رآه أجوف عرف أنه خَلْق لا يتمالك»**[(١)].

لكن درجات الغضب تختلف بعضها عن بعض، فما هي درجاته؟

• درجات الغضب •

والناس في غضبهم على درجات ثلاثة من التفريط، والإفراط، والاعتدال.

فأما التفريط، فيفقد صاحبه القوة الغضبية أو يضعفها، وذلك مذموم، وهو الذي يقال فيه: إنه لا حمية له. وفيه قال الشافعي: «من استغضب فلم يغضب فهو حمار»[(٢)] وقد وصف الله أصحاب نبيه بالشدة والحمية في قوله تعالى: ﴿**أشداء على الكفار رحماء بينهم**﴾ وأما الإفراط فهو أن تغلب صولة الحمية حتى يخرج المرء عن سياسة العقل والدين وطاعة الله تعالى، فساعتها لا يبقى للمرء معها نظر ولا فكر، ولا اختيار بل يصير في صورة المضطر.

وأما الاعتدال بأن يغضب ليدفع عن دينه أو نفسه، أو ماله، أو يغضب ليدافع عن الحقوق العامة، ونصرة المظلومين، وتلك الدرجة هي التي من أجلها خلق الله الغضب، فهو مخلوق لحكمة، ولولا ذلك لفسدت الأرض بانتشار الفوضى وتقويض دعائم النظم الاجتماعية والدينية، لأن من لم يغضب لعرضه لا يغار لنسائه، فتختلط الأنساب، وتعم الفوضى.

ومن لا يغضب لنفسه فإنه يكون معرضًا للزوال من هذا الوجود، أو معرضًا لأن يسخره غيره كما تسخر الدواب التي لا تغضب لنفسها.

ومن لا يغضب لماله فإنه لا يلبث أن يسلبه الناس منه، ويصبح فقيرًا معدمًا وإذا فشا سلب المال تعطلت شئون الحياة.

ومن لا يغضب لدينه فإنه في الغالب لا يستقر على دين، لأن اختلاف طبائع الناس واختلاف أنظارهم من أكبر البواعث على اختلاف معتقداتهم، فمن لا يغار على دينه يكون عُرضة لتقليد القوي في كل ما يراه، فينتقل من دين إلى دين.

وهكذا فخلق الله الغضب ليحمي الناس بعضهم بعضًا، فيستقر النظام، ويقف كل واحد عند الحد الذي قدر الله له في هذه الحياة، قال تعالى: ﴿**وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾ [البقرة: ٢٥١].

وقال سبحانه: ﴿**وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا**﴾ [الحج: ٤٠].

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٢٦١١).

(٢) الإحياء ٢/ ٢٢٧

وفى الحديث الذى رواه الترمذى أن رسول الله ﷺ قال: «**إنّ بنى آدم خلقوا على طبقات شتى، ألا وإنّ منهم البطىء الغضب سريع الفىء، والسريع الغضب سريع الفىء، والبطىء الغضب بطىء الفىء، فتلك بتلك، إلا وإن منهم بطىء الفىء سريع الغضب، ألا وخيرهم بطئ الغضب سريع الفىء، وشرهم سريع الغضب بطىء الفىء... ألا وإن الغضب جمرة فى قلب ابن آدم، أما رأيتم إلى جمرة عينيه، وانتفاخ أوداجه، فمن أحسن بشىء من ذلك فليلصق بالأرض**»(١)

• الأسباب الجالبة للغضب •

وللغضب أسباب متعددة، تختلف باختلاف أحوال الناس وطبائعهم، واستعدادهم للتأثر بالأشياء فمنها:

١- الجدال، والسخرية بالناس، والاستهزاء بهم.

٢- مصاحبة الأشرار الذين لا يفرقون بين الممدوح والمذموم، فهم يظنون أن الطيش والتهور شجاعة، ويعدون الطغيان والظلم رجولة.

٣- فوات اللذات والشهوات من مطعم ومشرب ومسكن، والحرص على الحصول عليها.

٤- ومنها: الوشايات والنمائم الحاصلة بين الناس بعضهم بعضًا.

٥- ومنها: العجب، والكبر، والزهو بالنفس أو الأعمال.

٦- ومنها: المشاحنة فى البيع والشراء، فيغضب أحدهم إذا لم تكن السومة تناسب القيمة، فهو فى مثل هذه الأحوال حماقة لا مبرر لها.

فكل هذه أخلاق رذيلة مذمومة شرعًا، ينبغى إزالتها، وإزالتها تكون بأضدادها، فينبغى أن تميت الزهو بالتواضع، وتميت العجب بمعرفتك لنفسك، وتزيل الفخر بأن تعرف أنك من جنس البشر، إذ الناس يجمعهم فى الانتساب أب واحد، وأما المزاح فتزيله بالتشاغل بالمهمات الدينية التى تستوعب العمر، أما الهزل فتزيله بالجد فى طلب الفضائل، والأخلاق الحسنة التى تبلغك سعادة الآخرة، وما أروع قوله ﷺ: «**والذى نفسى بيده، لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيرًا، ولضحكتم قليلاً**»(٢)

وأما الاستهزاء فتزيله بالتكريم والاحترام لهم، وأما شدة الحرص فبالصبر على مُر العيش بالقناعة(٣)

---

(١) رواه الترمذى وقال العراقى فى تخريج الإحياء: رواه الترمذى وقال حسن.

(٢) رواه البخارى.

(٣) إحياء علوم الدين للغزالى ٢/ ٢١٦ بتصرف.

• رسولنا ﷺ لايغضب إلا للحق •

أخي الحبيب:

فهذا رسولنا محمد ﷺ وقدوتنا، لقد كان لايغضب إلا فى الحق وللحق يقول على ابن أبى طالب رضي الله عنه: «كان رسول الله ﷺ لا يغضب للدنيا، فإذا أغضبه الحق لم يعرفه أحد، ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له»(١)

وفى الحديث الذى رواه مسلم - أنه ﷺ كان يغضب حتى تحمر وجنتاه، فيقول: **«اللهم أنا بشر، أغضب كما يغضب البشر، فأيما مسلم سببته أو لعنته أو ضربته فاجعلها منى صلاة عليه، وزكاة وقربة تقربه إليك يوم القيامة»**(٢) مع أنه لم يسب أحدًا وفى يوم من الأيام يسأله عبد الله بن عمرو رضي الله عنه ويقول له: يا رسول الله، أأكتب عنك كل ما تقول، فى الغضب والرضا؟ فقال: **«اكتب فوالذى بعثنى بالحق نبيًا لا يخرج منه إلا حق»** وأشار إلى لسانه(٣) وكان إذا خطب علا صوته، واحمر وجهه ﷺ.

وأراد أن يعلم الأمة الإسلامية أجمع، أن الغضب غير مطلوب إلا إذا انتهكت حرمة من حرمات الله تعالى، وخلاف ذلك يجب ضبط النفس، فجاءه أعرابى فأغلظ له القول، وقال له: أعطنى، فليس هذا المال مالك، ولا مال أبيك فغضب المسلمون وقاموا إليه، فأشار إليهم أن كفوا.

ثم قام ودخل منزله، وأرسل إلى الأعرابى، وزاده شيئًا، ثم قال له: أحسنت إليك؟ قال الأعرابى: لا، وأجملت. فغضب المسلمون، وقاموا إليه، فأشار إليهم أن كفوا.

ثم قام ودخل منزله، وأرسل إلى الأعرابى، وزاده شيئًا، ثم قال له: أحسنت إليك؟ قال: نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرًا.

فقال له النبى ﷺ إنك قلت ما قلت، وفى نفس أصحابى شيء من ذلك، فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدى، حتى يذهب من صدورهم ما فيها عليك. قال الأعرابى: نعم.

فلما كان الغداة أو العشى جاء فقال النبى ﷺ: إنَّ هذا الأعرابى قال ما قال، فزدناه فزعم أنه رضى، أكذلك؟ قال الأعرابى: نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرًا.

فقال الرسول ﷺ **«إن مثلى ومثل هذا الأعرابى كمثل رجل كانت له ناقة فشردت عليها، فاتبعها الناس، فلم يزيدوها إلا نفورًا، فناداهم صاحب الناقة: خلوا بينى وبين ناقتى**

---

(١) رواه الترمذى فى الشمائل.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه مسلم.

فإنى أرفق بها وأعلم، فتوجه لها بين يديها، فأخذ لها من قمام الأرض، فردها هونًا حتى جاءت واستناخت، وشد عليها رحلها، واستوى عليها»(١)

وعن جابر رضي الله عنه أنه ﷺ كان يقبض للناس يوم خيبر من فضة فى ثوب بلال بن رباح رضي الله عنه فقال له رجل: يا رسول الله، اعدل، فقال له رسول الله ﷺ: **«ويحك فمن يعدل إذا لم أعدل، فقد خبت إذن وخسرت إن كنت لا أعدل» فقام عمر وقال: ألا أضرب عنقه فإنه منافق؟ فقال ﷺ: معاذ الله أن يتحدث الناس أنى أقتل أصحابى»**(٢).

الله أكبر.. هذا هو القدوة الحسنة، والأسوة الطيبة، ﴿**لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة**﴾ [الأحزاب: ٢١] لم يغضب، ولم يحمر وجهه، ولم تنتفخ أوداجه، وإنما قدر فغفر وعفا. فصلوات ربى وتسليماته عليك يا رسول الله.

• حكماء تخرجوا فى مدرسة الرسول صلى الله عليه وسلم •

وهكذا كان الصحب الكرام رضي الله عنهم، ومن بعدهم السلف الصالح كانوا لا يغضبون إلا للحق، وفى الحق، ومنهم:

١- **سلمان الفارسى** رضي الله عنه: لما شُتم هذا الصحابى الجليل بم أجاب؟ هل غضب واحمر وجهه؟ لا هذه، ولاتلك، وإنما قال لمن شتمه: «إن خفت موازينى فأنا شر مما تقول، وإن ثقلت موازينى لم يضرنى ما تقول!.

٢- **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه: وفى يوم من الأيام يأتيه برود -جمع بُرد- فيقسمها بين المسلمين، وكان فيها برد فاضل، فقال: إن أعطيته أحدًا منهم غضب أصحابه، ورأوا أنى فضلته على الآخر، فدلونى على فتى من قريش نشأ نشأة حسنة أعطيه إياه، فدلوه على المسور بن مخرمة، فأعطاه إياه، فنظر إليه سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه أى إلى المسور - فقال: ما هذا؟. قال: كسانيه أمير المؤمنين، فجاء سعد إلى عمر بن الخطاب، وقال له: تكسونى هذا البرد وتكسو ابن أخى مسورًا أفضل منه.. حتى قال سعد له: إنى قد حلفت لأضربن بالبرد رأسك فخضع له عمر، وقال له: عندك يا أبا إسحق. وليرفق الشيخ بالشيخ، فضرب رأسه بالبرد(٣)

٣- **ابن عون -رحمه الله-**: وكان -رحمه الله - لا يغضب، فإذا أغضبه إنسان قال: بارك الله فيك(٤)

---

(١) رواه البزار وأبو الشيخ فى أخلاق النبى، وذكره الغزالى فى الإحياء٣/ ٤٧٣.

(٢) رواه مسلم.

(٣) مناقب عمر بن الخطاب ص١٣٦

(٤) روضة العقلاء لابن حبان ص١٢٦

٤- **الربيع بن خثيم** -رحمه الله-: شُتم رحمه الله يومًا، فقال: يا هذا سمع الله كلامك، وإن دون الجنة عقبة إن قطعتها لم يضرنى ما تقول، وإن لم أقطعها فأنا شرٌ مما تقول.

٥- **بكر بن عبد الله المزنى** -رحمه الله-: فقد مر يومًا من الأيام فسبه أحد المارة بلا ذنب، فقال لمن معه: إذا رأيت من هو أكبر منك فعظمه، وقل: إنه سبقنى إلى الإسلام والعمل الصالح، وإذا رأيت من هو أصغر منك فعظمه وقل فى نفسك، إنى قد سبقته إلى الذنوب، وإذا أكرمك الناس، فقل: هذا من فضل الله علىَّ فلا أستحقه، وإذا أهانوك فقل: هذا بذنب أحدثته[١]

• كيف تتجنب الغضب؟ •

وإذا كانت رذيلة الغضب، وشهوة الانتقام مدعاة إلى الخروج على قيم الإسلام الفاضلة، وأخلاقه السمحة، فقد وضح الله عز وجل فى كتابه تجنب الوقوع فى شراكه فيقول سبحانه: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] وقال: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت: ٣٤].

فالمسلم عليه أن يذكر أن الله عزيز ذو انتقام، وأن قدرة الله فوق قدرته.

فقد أدخلوا رجلاً مذنبًا، أو مخطئًا على ابن الزبير، فدعا بالسوط ليضربه ويعاقبه، فقال له الرجل: أسألك بمن تكون يوم القيامة بين يديه أذل منى بين يديك إلا عفوت عنى فنزل ابن الزبير عن سريره، وألصق خده بالأرض، وقال للرجل، لقد عفوت[٢]

وإذا كان كل عمل مقدر بآثاره، فإن العقل حين يتدبر عاقبة العدوان والتمادى فى الشر وما يستتبع ذلك من الهلاك والخراب، فإنه كفيل بأن يجعل الغضبان، شديد الصرعة أن يتجنب الغضب.

وعلى المسلم أن يتعرف على فضائل الحلم، الذى هو ضد الغضب، فقد روى أن رسول الله ﷺ قال: **«إذا جمع الله الخلائق ناد مناد، أين أهل الفضل، فيقوم ناس وهم يسير، فينطلقون سراعًا إلى الجنة، فتتلقاهم الملائكة، فيقولون: إنا نراكم سراعًا إلى الجنة فمن أنتم؟ فيقولون: نحن أهل الفضل.**

فيقولون: وما فضلكم؟ فيقولون: كنا إذا ظُلمنا صبرنا، وإذا أُسيئ إلينا حلمنا، فيقال لهم: ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين»[٣]

---

(١) تنبيه المغترين ص٦٥

(٢) المرجع السابق ص٦١ ولعل تركه للتأديب على من أقسم عليه لعذر شرعى وخاف من إقامته مفسدة عظيمة.

(٣) رواه الأصبهانى.

• آثار الغضب •

وإذا تتبعت آثار الغضب وجدت أن عواقبه وخيمة، وآثاره سيئة وبيلة، ومنها: تمزيق الوحدة، وتفريق الجمع، وبث روح العداوة والبغضاء بين الناس وإشاعة روح التدابر والتقاطع والتباغض في المجتمع، وذلك كله لا يخفى على عاقل وذلك مما يذهب شوكة الأمة وهيبتها، قال سبحانه: ﴿وَلا تنازعوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مع الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

والنبي الكريم ﷺ يقول: «**لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخوانًا، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث**»[١].

يقول ابن حبان البستي:

سرعة الغضب من شيم الحمقى، كما أن مجانبته من ري العقلاء، والغضب بذر الندم، فالمرء على تركه قبل أن يغضب أقدر على إصلاح ما أفسد به بعد الغضب.

ولو لم يكن في الغضب خصلة تذم إلا إجماع الحكماء على أن الغضبان لا رأى له، لكان الواجب عليه الاحتيال لمفارقته بكل سبب[٢]

إذا نطق السفيه فلا تجبه ... فخير من إجابته السكوت
سكتُّ عن السفيه فظن أني ... عييت عن الجواب وما عييت
شرار الناس لو كانوا جميعًا ... قذى في جوف عيني ما قذيت
فلست مجاوبًا أبدًا سفيها ... خزيت لمن يجافيه خزيت

• موعظة •

أخا الإسلام:

مكتوب في الإنجيل: ابن آدم، اذكرني حين تغضب، اذكرك حين أغضب، فلا أمحقك فيمن أمحق، وإذا ظلمت فلا تنتصر، فإن نصرتي لك خير من نصرتك لنفسك»[٣].

وأحسن الناس عقلا من لم يحرد، وأحضر الناس جوابًا من لم يغضب.

وسرعة الغضب أنكى في العاقل من النار في يبس العوسج، لأن من غضب زايله عقله، فقال ما سولت له نفسه، وعمل ما شأنه وأرداه.

---

(١) رواه البخاري ومالك في الموطأ.

(٢) روضة العقلاء ص١٢٦

(٣) روضة العقلاء لابن حبان ص١٢٥

فالواجب على العاقل إذا ورد عليه شيء بضد ما تهواه نفسه أن يذكر كثرة عصيانه لربه، وتواتر حلم الله عليه، ثم يسكن غضبه.

ولنا فى السلف الصالح القدوة الحسنة فهذا هو عبد الله بن عتبة -رحمه الله تعالى- كان إذا غضب على غلامه قال: ما أشبهك بمولاك! أنت تعصينى وأنا أعصى الله، فإذا اشتد غضبه قال: أنت حر لوجه الله.

واعلم أن الغضب من الشيطان، فإذا غضبت فاستعذ بالله منه ومن شره فإن ذلك يذهب غضبك، فعن سليمان بن صُرد قال:

استب رجلان عند النبى ﷺ، فجعل أحدهما يغضب ويحمر وجهه.

فنظر إليه النبى ﷺ وقال: «**إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب ذا عنه: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم**»[١] فقام إلى الرجل رجلٌ ممن سمع النبى ﷺ، فقال: أتدرى ما قال رسول الله ﷺ آنفًا؟ قال: «إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب ذا عنه: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» فقال الرجل: أمجنونًا ترانى؟!.

نسأل الله تعالى أن يوفقنا لسبيل الطاعة، وأن يثبتنا على اتباع السنة والجماعة، وأن لا يجعلنا ممن عرف الحق وأضاعه، وأن يختم لنا بخير، وأن يغفر لنا ولجميع المسلمين يا رب العالمين.

الوصية رقم (١٧)
إياكم ومحقرات الذنوب

عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إياكم ومحقرات الذنوب، فإن محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بطن واد، فجاء ذا بعود، وجاء ذا بعود، حتى جمعوا ما أنضجوا به خبزهم، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه**»[٢]

صدق رسول الله ﷺ

إن الرسول الأكرم، والنبى الأعظم ﷺ فى هذه الوصية يحذر الأمة أجمع من أشد أنواع المرض، وهو مرض الذنوب والخطايا، ونرى واضحًا أن الرسول ﷺ ابتدأ وصيته بأسلوب التحذير «إياكم» وهدفه النصح والإرشاد بترك محقرات الذنوب، والتحذير هنا ليس من كبائر الذنوب، وإنما من الصغائر، لأنها تجتمع على العبد حتى تصير مثل الكبائر، أو لأنه كما يقول العلماء: لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع التوبة.

(١) رواه البخارى (٣٢٨٢)، ومسلم (٢٦١٠) وأحمد فى مسنده (٢١٩٨٥).

(٢) رواه أحمد فى مسنده (٣٨١٨) والطبرانى فى الكبير وصححه الألبانى فى ص.ج برقم ٢٦٨٦ والسلسلة الصحيحة (٣٨٩).

ثم يضرب الرسول ﷺ مثلاً واقعيًا لكى يفهمه الحاضرون فى مجلسه، وهذا المثل يوضح لنا أن الذنوب التى قد تبدو لصاحبها صغيرة، فإنها تصير عظيمة كمثل قوم أرادوا أن يطهوا طعامًا لهم، فاجتمعوا، فجاء أحدهم بعود، والآخر بعود. حتى صار الحطب القليل كثيرًا، والصغير كبيرًا حتى أنضجوا به الطعام وكذلك الذنوب.

لا تحقرن من الذنوب صغيرا إن الصغير غدًا يصير كبيراً

إن الصغير وإن تقادم عهده عند الإله مسطر تسطيرا

فازجر هواك عن بطالة ولا تكن صعب القيام وشمرن تشميرا

إن المحب إذا أحب إلهه طار الفؤاد وألهم التفكيرا

لذلك فإن أحد الصالحين يقول: «لا تنظر إلى صغر الذنب، ولكن انظر إلى من عصيت».

ولهذا فقد أوصى أحب الناس إليه، وأقربهم إلى قلبه وفؤاده، الصديقة بنت الصديق عائشة ﵂ فقال لها: **«يا عائشة، إياك ومحقرات الذنوب، فإن لها من الله طالبًا»** فإن الذنب يستدعى ذنبًا آخر، ثم يقوى أحدهما بالآخر، فيستدعيان ثالثًا، ثم تجتمع الثلاثة، فتستدعى رابعًا، وهلم جرًا حتى تغمره ذنوبه، وتحيط به خطاياه، فتهلكه.

ولذلك قال بعض السلف: إن من ثواب الحسنة، الحسنة بعدها، ومن عقوبة السيئة السيئة بعدها.

فما هى آثار الذنوب والمعاصى على العبد؟

يقول الإمام ابن القيم -رحمه الله-[(١)]:

إن للذنوب آثارًا **منها**: سواد الوجه، وظلمة القلب، وضيقه وغمه، وحزنه، وألمه وتمزق شمله، يقول سيدنا عبد الله بن عباس ﵄: «إن للمعصية ظلمة فى الوجه، ظلمة فى القلب، ظلمة فى القبر، وهنًا فى البدن، بغضًا فى قلوب الخلق».

ومنها: ذلة بعد عزة، فعن جبير بن نفير عن أبيه قال: «لما فتحت قبرص، فرق بين أهلها، فبكى بعضهم إلى بعض، فرأيت أبا الدرداء جالسًا وحده يبكى، فقلت: يا أبا الدرداء: ما يبكيك فى يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله؟.

فقال: ويحك يا جبير؟ ما أهون الخلق على الله إذا أطاعوا أمره، بينما هى أمة قاهرة ظاهرة، لهم الملك، تركوا أمر الله، فصاروا إلى ما ترى.

ومنها: أن يصير أسيرًا فى يد أعدائه بعد أن كان ملكًا متصرفًا يخافه أعداؤه، والأعداء هم إبليس والدنيا، والنفس والهوى.

---

(١) رواه أحمد فى مسنده (٢٤٢٩٦) وابن ماجه (٤٢٤٣) وابن حبان (٢٤٩٧) وإسناده صحيح.

فبين العبد وبين ربه مسافة لا تقطع إلا بقطع العلائق، ورفض العوائق. وعلى مرآة القلب صدأ لا يجلوه إلا نسيان الخلق فى جنب ذكر الخالق. فمن أراد جلاء مرآة قلبه، فليتناسى ذكر الورى[(١)].

ومنها: زوال أمنه، وتبدله به مخافة، فأخوف الناس، أشدهم إساءة، لأن الطاعة هى حصن الله الأعظم فمن دخله كان من الآمنين من عقوبة الدنيا والآخرة، ومن خرج عن حصنه أحاطت به المخاوف من كل جانب، فمن أطاع الله انقلبت مخاوفه أمانًا، ومن عصاه انقلبت مآمنه مخاوف، فلا تجد العاصى إلا وقلبه كأنه بين جناحى طائر.

ومنها: فقره بعد غناه، فإن العبد غنى بما معه من رأس مال الإيمان، فهو يتجر به ويربح الأرباح الكثيرة، فإذا سلب رأس ماله، أصبح فقيرًا معدما.

ومنها: أنها توجب القطيعة بين العبد، وبين ربه، لذلك قال بعض السلف: رأيت العبد ملقى بين الله سبحانه، وبين الشيطان، فإن أعرض الله عنه تولاه الشيطان، وإن تولاه الله لم يقدر عليه الشيطان.

ومنها: أنها تمحق البركة من العمر، والبركة من الرزق، والبركة من العلم، والبركة من العمل، والبركة من الطاعة، وبالجملة تمحق بركة الدين والدنيا، فما محقت البركة من الأرض إلا بمعاصى الخلق، قال تعالى: ﴿ **وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ** ﴾ [الأعراف: ٩٦].

ومنها: حرمان الرزق، فإن العبد يحرم الرزق بسبب الذنب يفعله، ولا يغرنك أن ترى هؤلاء العصاة وهم يتنعمون بكثرة الأموال والأرزاق، فالله سبحانه قد تكفل برزق الخلق جميعًا، فمن أخذ بالأسباب أعطاه مسبب الأسباب، حتى لو أخذ بها كافر، ثم اعلم أن ذلك استدراج من الله جل وعلا لهذا الإنسان، حتى إذا أخذه أخذه أخذ عزيز مقتدر، ﴿ **أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ** ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦] لا تظن أيها المؤمن أن رزقك إذا ضاق عليك فهذا غضب، ولكنه ابتلاء من الله جل وعلا، وتأمل قوله تعالى: ﴿ **فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا** ﴾ [الفجر: ١٥، ١٦] فليس الأمر كما تقولون، ولا كما تدعون. لكن اعلم أن ما عند الله تعالى لا ينال إلا بطاعته، وإياك أن تظن أن ما عند الله ينال بمعصيته.

وفى الأثر: «من ذا الذى أطاعنى فشقى بطاعتى؟ ومن ذا الذى عصانى فسعد بمعصيتى؟» ويقال: مكتوب فى التوراة: من يزرع البر يحصد السلامة، وفى الإنجيل: من

---

(١) انظر الداء والدواء لابن القيم وطريق الهجرتين بتصرف.

يزرع السوء يحصد الندامة، وهـذا فى القرآن الكريم فى قوله جل وعلا: ﴿من يعمل سوءا يجز به﴾ [النساء: ١٢٣].

إذا كنت فى نعمة فارعها ... فإن المعاصى تزيل النعم
وداوم عليها بشكر الإله ... فإن الله سريع النقم

ومنها: إعراض الله وملائكته وعباده عنه، فإن العبد إذا أعرض عن طاعة الله، واشتغل بمعاصيه، أعرض الله عنه، فإذا أعرض الله عنه، أعرضت عنه ملائكته وجميع خلقه، قال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤] والمعصية جفاء للرب تبارك وتعالى، وجفاء للخلق، وجفاء للنفس، ولذلك قيل لبعض الحكماء: أوصنى بشىء قال: لا تجفُ ربك، ولا تجفُ الخلق، ولا تجفُ نفسك، فأما الجفاء بربك، فأن تشتغل بخدمة غيره من المخلوقين، وأما الجفاء مع الخلق فأن تذكرهم عند الناس بسوء، وأما الجفاء مع النفس، فأن تتهاون بفرائض الله.

قال السمرقندى:

لا تغرنك هذه الآية: ﴿من جاء بالْحسنة فَلَهُ عشْرُ أَمْثَالِها ومن جَاء بالسَّيِّئَة فَلا يُجْزَىٰ إلاَّ مثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠] فإن السيئة هى الأخرى لها عشر من العيوب:

أولها: أن العبد إذا عمل سيئة فقد أسخط خالقه على نفسه، وهو قادر عليه فى كل وقت.

والثانى: أنه أدنى من هو أبغض إليه، وهو إبليس عدو الله وعدوه.

والثالث: أنه يتباعد عن أحسن المواضع، وهو الجنة.

والرابع: تقربه إلى شر المواضع، وهو جهنم.

والخامس: أنه جفا أحب شىء إليه، وهى نفسه.

والسادس: أنه نجّس نفسه بالمعصية، وقد خلقها الله طاهرة.

والسابع: آذى أصحابه الذين لا يؤذونه، وهم الحفظة.

والثامن: أنه أحزن حبيبه محمدًا ﷺ فى قبره، فقد ورد أن أعمالنا تعرض عليه:

والتاسع: أن الأرض والمكان والزمان يشهدون عليه بمعصيته، ولذلك فقد آذاهم وأحزنهم.

والعاشر: أنه خان الخلق أجمع، لأنه بمعصيته يمنع القطر من السماء[1]

ومنها: أى من آثار الذنوب، مرض قلبه ثم موته بعد ذلك ولله در عبد الله بن المبارك -رحمه الله- حين قال:

---

(١) تنبيه الغافلين للسمرقندى ص٢٩١

رأيت الذنوب تميت القلوب   وقد يورث الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب   وخير لنفسك عصيانها

ويقول سيد الخلق ﷺ: «إن المؤمن إذا أذنب نكت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب ونزع واستغفر، صقل قلبه، وإن زاد -أي في المعاصي- زادت حتى تعلو قلبه»(١). فذاك الران الذي ذكره الله تعالى في قوله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ [المطففين: ١٤].

ومنها: سوء الخاتمة، لأن الأعمال بالخواتيم يقول ابن كثير -رحمه الله-: لقد أجرى الكريم عادته بكرمه أن من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بعث عليه.

فإن عشت على الطاعة مت على الطاعة، وبعثت على الطاعة، وإن عشت على المعصية مت على المعصية، وبعثت على المعصية، ففي صحيح مسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يبعث كل عبد على ما مات عليه»(٢) فكيف يوفق لحسن الخاتمة من أغفل الله قلبه عن ذكره، واتبع هواه، وكان أمره فرطًا؟ كيف يوفق لحسن الخاتمة من كان قلبه عن الله مبتعدًا، ولهواه أسيرًا، ولشهوته سجينًا، وبمعصيته مشتغلاً؟.

فيا عبد كم يراك الله عاصيًا   حريصًا على الدنيا وللموت لاهيا
أنسيت لقاء الله واللحد والثرى   ويومًا عبوسًا تشيب فيه النواصيا
لو أن المرء لم يلبس ثيابا من التقى   تجرد عريانًا ولو كان كاسيًا
ولو أن الدنيا تدوم لأهلها   لكان رسول الله حيًا وباقيًا
ولكنها تفنى ويفنى نعيمها   وتبقى الذنوب والمعاصي كما هيا

أخي الحبيب:

احذر الذنوب، فسوف تحاسب على كل صغيرة، وكبيرة كما قال مولاك: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

ولذلك كان الإمام أبو حنيفة -رحمه الله- إذا قرأ سورة الزلزلة، اقشعر جلده، ووجل فؤاده، وأخذ لحيته بيده، وطفق يقول:

يا من يجزي بمثقال ذرة خيرًا. ويا من يجزي بمثقال ذرة شرًا. أجر عبدك النعمان من النار. وباعد بينه وبين ما يقربه منها. وأدخله في واسع رحمتك يا أرحم الراحمين(٣)

وكان مالك بن دينار -رحمه الله- حين يسمعها كان يرتعد.

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٧٨١٤) بإسناد صحيح ورواه الترمذي وصححه والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم.

(٢) رواه مسلم (٢٨٧٨) وذكره الألباني في ص.ج (٨٠١٥).

(٣) صور من حياة التابعين د/ رأفت الباشا ص٤٩٣.

يقول الحارث بن سعيد: كنا عند مالك بن دينار، وعندنا قارئ يقرأ سورة الزلزلة، فجعل مالك ينتفض، وأهل المجلس يكون، ويصرخون حتى انتهى إلى هذه الآية: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ...﴾ جعل مالك يبكى ويشهق حتى غشى عليه[١].

فالحذر الحذر من المعاصى، فإن عواقبها سيئة، فكم من معصية لا يزال صاحبها فى هبوط أبدًا مع تعثير أقدامه، وشدة فقره وحسراته على ما يفوته من الدنيا.

فوأسفا لمعاقب لا يحس بعقوبته، وآه من عقاب يتأخر حتى ينسى سببه، يقول ابن سيرين: عيرت رجلاً بالفقر، فافتقرت بعد أربعين سنة..

وكم من معصية مضت فى ساعتها كأنها لم تكن وبقيت آثارها، فتوهم نفسك إذا تطايرت الصحف، ونشرت الموازين، ونودى باسمك على رؤوس الخلائق: أين فلان ابن فلان؟ أقبل على مولاك، وقد أحضرك ملائكة وكلوا بك، فقربوك إلى مولاك لم يمنعهم اشتباه الأسماء، ولا تعدد الألقاب، فماذا عساك أن تفعل أو تقول؟ ستضطرب جوارحك، ويتغير لونك، ويطير فؤادك، وحينئذ قد رفع العباد أبصارهم نحوك، ينظرون إلى حالك مع ربك، فإن كانت صحيفتك مملوءة بالحسنات، فأبشر فإن الخير سيأتيك، وإن كانت الأخرى فالهلاك لك إلا من رحم ربى.

فحاسب نفسك هنا فى الدنيا قبل أن تقف على الحساب أمام محكمة القضاء الإلهية، ومعك صحيفتك التى لا تغادر صغيرة، ولا كبيرة إلا أحصتها وسجلتها، قبل أن تجد ما عملته فى دنياك حاضرًا ﴿وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

حاسب نفسك قبل أن يقول لك مولاك: عبدى أما استحييت منى فبارزتنى بالقبيح، واستحييت من خلقى فأظهرت لهم الجميل، أكنت أهون عليك من سائر عبادى، واستخففت بنظرى إليك، فلم تكترث به، واستعظمت نظر غيرى، ألم أنعم عليك فماذا غرك بى؟ ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦].

فيا من بات يخلو بالمعاصى	وعين الله ساهرة تراه
أما تخشى من الديان طردًا	وتحرم دائمًا أبد تراه
تبارز بالمعاصى منك مولى	على جهل يراك ولا تراه
وتنكر فعلها وله شهود	على الإنسان تكتب ما حواه
فيا حزن المسيئ لشؤم ذنب	وبعد الحزن يكفيه جزاه
فيندب حسرة من بعد فوت	ويبكى حيث لا يجدى بكاه
يعض على يديه من ندم وحزن	ويندب حسرة ما قد أراه

---

(١) صفة الصفوة ٣/ ١٦٠

فبادر بالمتاب وأنت حي ... لعلك أن تنال به رضاه
واتبع مصطفى خير البرايا ... رسول قد حباه واجتباه
عليه من المهيمن كل يوم ... سلام عطر الدنيا شذاه

• موعظة •

لقد كان السلف الصالح يحرصون على أن يتفكروا في مصيرهم، في حسناتهم وسيئاتهم ومعادهم، فهذا إبراهيم بن أدهم -رحمه الله- يجتمع عنده تلامذته ذات ليلة ليتعلموا منه فقال لهم: دعوني، فإني مشتغل عنكم الليلة بأربع قالوا: وما هي؟ قال:

أحدها: أني أفكر في يوم الميثاق حيث يقول سبحانه: هؤلاء في الجنة، ولا أبالي، وهؤلاء في النار ولا أبالي.

الثانية: حين صورت في الأرحام وقال الملك الموكل بي لمولاه: يا رب، هذا شقي، أم سعيد؟ فلا أدري ماذا كان الجواب في ذلك الوقت.

الثالثة: حين يحضر ملك الموت ليقبض روحي فلا أدري، أأكون مع الكفرة، أم مع المؤمنين؟

الرابعة: حين يقول الله عز وجل: ﴿**وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ**﴾ [يس: ٥٩] فلا أدري أأكون مع الكفرة أم مع المؤمنين[(١)]؟ رب تقبل توبتي، واغسل حوبتي، وأجب دعوتي، وثبت حجتي واهد قلبي، وسدد لساني، واسلل سخيمة قلبي[(٢)] يا رب العالمين.

الوصية رقم (١٨)
تعاهدوا جيرانكم

عن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له: «**يا أبا ذر إذا طبخت فأكثر المرقة، وتعاهد جيرانك -أو- اقسم بين جيرانك**»[(٣)]

صدق رسول الله ﷺ

• في رحاب هذه الوصية •

إن الرسول الأعظم، والنبي الأكرم سيدنا محمدًا ﷺ كما تعودنا منه حرصه على أمته، بل حرصه على أن يكوِّن مجتمعًا إيمانيا متعاونًا على البر والتقوى، مجتمعًا متماسك اللبنات، يقف فيه القوي بجانب الضعيف، والغني بجوار الفقير، والصحيح مع

---

(١) تفسير القرطبي المجلد رقم ٧/ ٥٤٢٣ ط دار الغد.

(٢) رواه أحمد في مسنده والحاكم في المستدرك، وصححه الألباني في ص.ج رقم ٣٤٨٥.

(٣) رواه مسلم في البر (٢٦٢٥) والترمذي (١٨٣٣) وقال: حسن صحيح وابن ماجه (٣٣٦٢) وأحمد في مسنده (٢١٢٢٣) بإسناد صحيح جـ١٥/ ٤٩٢ والبخاري في الأدب المفرد رقم (١١٥).

السقيم، لذلك يوصينا بالجار فى شخص الصحابى الجليل أبى ذر الغفارى رضي الله عنه وأرضاه يوصينا بأن نتعاهد جيراننا، وقد جعل النبى ﷺ خير الجيران عند الله تعالى خيرهم لجاره ففى الحديث: «**خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره**»(١) والرسول ﷺ هنا فى هذه الوصية العظيمة، يأمر أبا ذر أن يكثر من الماء عليها إذا طبخ مرقة، وهذا شيء غير مكلف على الإطلاق، فكن أخا الإسلام محسنًا إلى جارك، ولا تكن مثل الرجل الذى قال فيه الشاعر:

يبيت الفقير وأولاده ... وزوجته يشتكون الطوى

وهذا الغنى وأولاده ... وزوجته يأكلون الشوى

ولو سمعوا جارهم يشتكى ... من الجوع ظنوه كلبًا عوى

ولو أكلوا التمر لم يسمحوا ... لجيرانهم بحبوب النوى

فهيا لنتعرف على حقوق الجار كما سماها لنا الأستاذ الأعظم، والنبى الأكرم ﷺ ونتعرف على مكانة الجوار فى الإسلام، ونتفقد سوء عاقبة من يؤذى جاره فى الدنيا والآخرة، ونتعرف على أنواع الجيران، وما لكل منهم من حقوق وواجبات.

• الترغيب فى إكرام الجار والإحسان إليه •

أخا الإسلام:

لقد أمرنا الشارع الحكيم بإكرام الجار والإحسان إليه، بل لقد جمع سبحانه بين الأمر بعبادته وحده، وعدم الإشراك به، وبين إكرام الجيران فقال سبحانه وتعالى: ﴿**وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا**﴾ [النساء: ٣٦].

فقد بينت الآية المباركة نوعين من الجيران وهما:-

١- **الجار ذى القربى**، قيل: هو الذى قَرُب جواره، وقيل: القريب النسيب ولذلك ورد فى قراءة (والجار ذا القربى) نصبًا على الاختصاص.

٢- **والجار الجنُب**، قيل: هو الذى بَعُدَ جواره، وقد كان الزهرى يقول عن الجيران: «أربعون يمنة، وأربعون يسرة، وأربعون أمامًا، وأربعون خلفًا»(٢)

وقيل: المراد بالجار الجنب هو الجار الأجنبى.

والجار الأجنبى إما يكون مسلمًا أو غير مسلم.

---

(١) رواه الترمذى وقال: حسن غريب عن ابن عمر ورواه ابن حبان وابن خزيمة فى صحيحيهما ورواه الحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم قاله المنذرى فى الترغيب ٣/ ٣٦٠.

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ٩/ ٦ ٢

فالأول وهو الجار النسيب له حقوق ثلاثة: حق الجوار، وحق القرابة، وحق الإسلام، والثانى إن كان مسلمًا فله حقان: حق الجوار، وحق الإسلام وإن كان غير مسلم فله حق واحد وهو حق الجوار.

ولقد حث النبى ﷺ على حسن الجوار، وإكرام الجيران حتى جعل الإيمان علامة لمن يحسن إلى جاره، فقال ﷺ فى الحديث الذى رواه عنه الصحابى الجليل أبو شريح الخراعى رضي الله عنه: **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه»**(١)

وفى رواية عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبى ﷺ قال: **«ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»**(٢)

فمن عظم حق الجار، أن الرسول ﷺ من كثرة وصية جبريل عليه السلام بالجار ظن الرسول أنه سيأمره عن الله بتوريثه.

واختلف فى المراد بهذا التوريث، فقيل: يجعل له مشاركة فى المال بفرض سهم يعطاه مع الأقارب، وقيل: المراد أن يُنزل منزلة من يرث بالبر والصلة، وقد جاء عن جابر رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: **«...حتى ظننت أنه يجعل له ميراثًا»**(٣)

قال ابن أبى جمرة: الميراث على قسمين:

١-حسى.

٢- معنوى وهو ميراث العلم فمن حق الجار على جاره أن يعلمه ما يحتاج إليه من العلوم والآداب الإسلامية.

ويكفى المكرم لجاره، المحسن إليه، الصابر على أذاه أنه من الثلاثة الذين يحبهم الله تعالى، فعن مطرف بن عبد الله رضي الله عنه قال: كان يبلغنى عن أبى ذر رضي الله عنه حديثًا، وكنت أشتهى لقاءه، فلقيته، فقلت: يا أبا ذر! كان يبلغنى عنك حديثك وكنت أشتهى لقاءك، قال: لله تبارك وتعالى أبوك! قد لقيتنى فهات، قلت حديثًا بلغنى أن رسول الله ﷺ حديث قال: **«إنَّ الله يحب ثلاثة ويبغض ثلاثة، قال أبو ذر: وما أخالنى أكذب على رسول الله، قال: قلت: فمن هؤلاء الثلاثة الذين يحبهم الله عز وجل؟ قال: رجل غزا فى سبيل الله صابراً محتسبًا، فقاتل حتى قتل، وأنتم تجدونه عندكم فى كتاب الله عز وجل ثم تلا: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾** [الصف: ٤] **قلت: ومن؟**

---

(١) رواه مسلم وأحمد وغيرهما.

(٢) رواه البخارى ومسلم والترمذى وأبو داود من حديث عائشة ورواه ابن ماجه وابن حبان فى صحيحه من حديث أبى هريرة.

(٣) رواه البخاري.

قال: رجل كـان له جار سوء يؤذيه، فـصبر على أذاه حـتى يكفيه الله إياه بحـياة أو موت - فذكر الحديث»(١)

يقول الحسن البصرى -رحمه الله-: ليس حسن الجوار كف الأذى عن الجار، ولكن حسن الجوار الصبر على الأذى من الجار.

ويقـول عمرو بن الـعاص رضي الله عنه: ليس الواصل الذى يصل مـن وصله، ويقطع من قطعه، وإنما ذلك المنـصف، وإنما الواصل الذى يصل من قطعه، ويعطف عـلى من جفاه. وليس الحليم الذى يحـلم عن قومه ما حلمـوا عنه، فإذا جهلوا عليه جـاهلهم، وإنما ذلك المنصف، إنما الحليم الذى يحلم إذا حلموا، فإذا جهلوا عليه حلم عنهم(٢)

ويكرر الرسول ﷺ وصيته بالجار لسيدنا أبى ذر الـغفارى رضي الله عنه بنفس الصورة فيقول أبو ذر: **«أوصانى خليلـى محمد بثلاث، قـال: اسمع وأطع ولو لعبـد مجدوع الأنف، وإذا صنعت مرقة فأكثـر ماءها، ثم انظر إلى أهل بيتك وجيرانك فأصبـهم منها بمغرفتك، وصل الصلاة لوقتها»**(٣)

ففى الحـديث الحض على مكارم الأخلاق، والإرشاد لمحـاسنها لما يترتـب عليه من الألفة والمحبة ولما يحصل به من النفع، ودفع الحاجة، والمفسدة، فقد يتأذى الجار بقتار قدر جاره وعياله وصغار ولده، ولا يقدر على التوصل لذلك، فتهيج من صغارهم الشهوة ويقوم على القائم بهم الألـم والكلفة، وربما كان يتيمًـا أو أرملة فتكون المشقة أعظم وتـشتد منهم الحسرة والألـم، وكل ذلك لِيَنْدَفِعَ بتشريـكهم فى شىء من الطبخ، فلا أقـبح مَنْ منع هذا اليسير المترتب عليه هذا الضرر الكبير(٤).

ولم يوصِ الرسول ﷺ سيـدنا أبا ذر رضي الله عنه فـقط، بل إنه أوصى جمـيع أصحـابه رضوان الله عليـهم، ومن بينهم سيـدنا أبو هريرة رضي الله عنه، فيـقول له: **«من يأخـذ عنى هذه الكلمات، فيعمل بهن؟ أو يعلِّم بهنَّ؟ فـقال أبو هريرة: قلت: أنَا يا رسول الله، فأخذ بيدى وعد خمسًا فقال: «اتق المحارم تـكن أعبد الناس، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، وأحـسن إلى جارك تـكن مؤمـنًا، وأحب للناس مـا تحب لنـفسك تكـن مسلـمًا، ولا تكثـر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب»**(٥)

---

(١) رواه أحمد والطبرانى، واللفظ له، وقال الهيـثمى فى المجمع ٨/ ١٧١ بإسناد الطبرانى وأحد إسنادى أحمد رجاله رجال الصحيح، ورواه الحاكم وقال صحيح على شرط مسلم.

(٢) تنبيه الغافلين للسمرقندى ص١٠٥

(٣) رواه مسلم بنحوه (٨٣٧) وأحمد فى مسنده، والبيهقى فى الشعب (٥٩١٩) والبخارى فى الأدب المفرد.

(٤) دليل الفالحين جـ٢/ ١٣٦

(٥) رواه الترمذى وحسنه (٢٣٠٥) وحسنه الألبانى فى الصحيحة رقم (٩٣٠).

ففى هذه الوصية الجامعة يقول له الرسول ﷺ «**وأحسن إلى جارك تكن مؤمنًا**» ولم يكتف الرسول بأن يوصى الرجال، بل أوصى النساء أيضًا فعن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «**يا نساء المسلمات لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة**»[١] ومعناه: لا تمتنع جارة من الصدقة أو الهدية، أو أى نوع من أنواع البر والتعاون لجارتها لاستقلالها واحتقارها الوجود عندها. بل تجود بما تيسر، وإن كان قليلا فهو خير من العدم.

• الترهيب من إيذاء الجار •

أخا الإسلام:

١- لقد شدد الإسلام الحنيف على أمر أذى الجار لدرجة أن الرسول ﷺ نفى عنه الإيمان، وأكد ذلك بالقسم المكرر فقال ﷺ: «**والله لا يؤمن والله لا يؤمن، والله لا يؤمن**». قيل: من يا رسول الله؟ قال: «**الذى لا يأمن جاره بوائقه**»[٢] ومعنى بوائقهُ أى شره وأذاه كما ورد فى رواية أخرى من حديث أبى شريح الكعبى رضي الله عنه «..**قيل: يا رسول الله، لقد خاب وخسر، من هذا؟ قال: من لا يأمن جاره بوائقه. قالوا: وما بوائقه يا رسول الله؟ قال: شره**»[٣].

٢- جعل الرسول ﷺ إيذاء الجيران محبطًا لثواب الأعمال الصالحة فعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رجل: يا رسول إن فلانة تكثر من صلاتها، وصدقتها وصيامها غير أنها تؤذى جيرانها بلسانها. قال: «**هى فى النار**». قال: يا رسول الله، فإن فلانة يذكر من قلة صيامها وصلاتها، وأنها تتصدق، وأنها تتصدق بالأثوار من الأقط، ولا تؤذى جيرانها. قال: «**هى فى الجنة**»[٤] والأثوار جمع ثور وهى القطعة من الأقط وهى ما يسمى «**بالجبنة**».

٣ - أن إيذاء الجار يوجب لعنة الله والناس، فقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يشكو جاره، فقال: «**اذهب فاصبر**»، فأتاه مرتين أو ثلاثًا، فقال: «**اذهب فاطرح متاعك فى الطريق**»، فطرح متاعه فى الطريق، فجعل الناس يسألونه فيخبرهم خبره، فجعل الناس يلعنونه: فعل الله به، وفعل، وفعل، فجاء إليه جاره، **فقال: ارجع، لا ترى منى شيئًا تكرهه**»[٥].

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأحمد والبخارى فى الأدب المفرد (١٢٢).

(٢) رواه البخارى ومسلم وأحمد فى مسنده (٧٨٦٥).

(٣) رواه البخاري وأحمد.

(٤) رواه أحمد (٩٦٣٨) فى مسنده. بسند صحيح حـ٩/ ٢٧٨ وقال الهيثمى رجال أحمد ثقات ٨/ ١٦٩ ورواه ابن حبان فى صحيحه (٢٥٥٤) والحاكم وقال: الإسناد ٤/ ١٦٦ ووافقه الذهبي.

(٥) رواه أبو داود وقال الألبانى فى صحيح سنن أبى داود حسن صحيح (٥/ ٥٣) ورواه ابن حبان والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم.

وفى رواية الطبرانى: أن الرجل جاء إلى النبى ﷺ يشكو إليه لعن الناس، ودعائهم عليه، فقال له النبى ﷺ: «**قد لعنك الله قبل الناس**»، فقال: «إنى لا أعود...»[١].

وفى رواية للبخارى فى الأدب المفرد: «**فجعلوا يقولون: اللهم العنه، اللهم اخزه..**»[٢].

٤ـ أن ارتكاب المعصية فى حق الجار تتضاعف عند الله عقوبتها، لما للجار من حقوق وواجبات فعن المقداد بن الأسود رضي الله عنه أن رسول ﷺ قال لأصحابه: «**ما تقولون فى الزنا؟**» قالوا: حرام حرمه الله ورسوله فهو حرام إلى يوم القيامة، فقال رسول الله ﷺ: «**لأن يزنى الرجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزنى بامرأة جاره**». قال: «**ما تقولون فى السرقة؟**» قالوا: حرمها الله ورسوله فهى حرام. قال: «**لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات أيسر عليه من أن يسرق من جاره**»[٣]

وفى رواية أن الرسول ﷺ جعل الزنا بحليلة الجار من أعظم الذنوب بعد الإشراك بالله تعالى، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قيل له: يا رسول، أى الذنوب أعظم عند الله؟ قال: «**أن تجعل لله نداً وهو خلقك**» قلت: ثم أى؟ قال: «**أن تزانى حليلة جارك...**»[٤]

٥ـ وقد جعل النبى ﷺ إيذاء الجار، وسوء الجوار من أشراط الساعة، ومن علامات القيامة، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن من أشراط الساعة سوء الجوار**»[٥]

ويقول سلمان الفارسى رضي الله عنه «من اقتراب الساعة: أن تظهر الفتن على وجه الأرض، وأن تقطع الأرحام، وأن يؤذى الجار»[٦]

٦ـ ولقد أمر النبى ﷺ الأمة المحمدية إلى قيام الساعة أن تتعوذ من جيران السوء.

---

(١) رواه الطبرانى بسند حسن والبزار عن أبى جحيفة والبخارى فى الأدب المفرد رقم (١٢٥).

(٢) رواه البخارى فى الأدب المفرد عن أبى هريرة (١٢٤) ص٣٨

(٣) رواه أحمد فى مسنده (٢٣٧٤٤) جـ١٧/١٤٨ بإسناد صحيح ورواه الطبرانى فى الكبير والأوسط ورواته ثقات ورواه البخارى فى الأدب المفرد رقم (١٠٣) باب حق الجار ص٣٣، ٤٣

(٤) رواه البخارى (٦٠١) ومسلم (٨٦) وأحمد (٣٦١٣) وأبو داود (٢٣١) والترمذى وذكره الخرائطى فى مساوئ الأخلاق (٣٩٤) ص١٥٢

(٥) ذكره الخرائطى فى مساوئ الأخلاق ص١٥٢ وقال محققه الشيخ مجدى السيد الحديث حسن بشواهده

(٦) المرجع السابق (٤) ص١٥٤ بإسناد حسن.

فعن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: **«تعوذوا بالله من شر جار المُقام، فإن جار المسافر إن شاء زائل»**(١)

ولقد جعل الرسول الأكرم ﷺ سعادة المرء المسلم فى حسن الجوار، فعن نافع رضي الله عنه أنه ﷺ قال: **«من سعادة المرء المسلم: المسكن الواسع، والجار الصالح، والمركب الهنيء»**(٢)

• حقوق الجار •

أخا الإسلام:

يقول الإمام الغزالى:

«وجملة حق الجار: أن يبدأه بالسلام، ولا يطيل معه الكلام، ولا يكثر عن حاله السؤال، ويعوده فى المرض، ويعزيه فى المصيبة، ويقوم معه فى العزاء، ويهنئه فى الفرح، ويظهر الشركة فى السرور معه، ويصفح عن زلاته، ولا يتطلع من السطح إلى عوراته، ولا يضايقه فى وضع الجذع على جداره، ولا فى مصب الماء فى ميزابه ولا فى مطرح التراب فى بنائه، ولا يضيق داره إلى الدار، ولا يتبعه النظر فيما يحمله إلى داره، ويستر ما ينكشف له من عوراته، وينعشه من صرعته إذا نابته نائبة، ولا يغفل عن ملاحظة داره عند غيبته، ولا يسمع عليه كلامًا، ويغض بصره عن حرمته، ولا يديم النظر إلى خادمته، ويتلطف بولده فى كلمته، ويرشده إلى ما يجهله من أمر دينه ودنياه»(٣)

ولعل الإمام الغزالى يريد أن يشير إلى قول الرسول ﷺ لأصحابه:

«أتدرون ما حق الجار؟ إذا استعانك أعنته، وإذا استقرضك أقرضته، وإذا افتقر عدت عليه، وإذا مرض عدته، وإن أصابه خير هنأته، وإن أصابته مصيبة عزيته، وإن مات اتبعت جنازته، ولا تستطل عليه بالبنيان فتحجب عنه الريح إلا بإذنه ولا تؤذه بقتار ريح قدرك إلا

---

(١) رواه أحمد فى مسنده (٨٥٣٤) بإسناد صحيح ورواه الخرائطى فى المساوئ (٤٠٤) ص١٥٥ ورواه الحاكم بنحوه وصححه ١/ ٥٣٢ وأقره الذهبى ورواه البخارى فى الأدب المفرد برقم (٢١٧) ص٣٦.

(٢) رواه أحمد فى مسنده بإسناد صحيح (١٥٣٠٨) ص١٢/١٤٨ والبخارى فى الأدب المفرد رقم (١١٦) والحاكم وصححه ووافقه الذهبى ٢/ ١٤٤ والبيهقى فى الشعب (٩٥٥٨).

(٣) مختصر إحياء علوم الدين ص٧ ٢

أن تغرف له منهـا، وإن اشتريت فاكهـة فأهد له، فإن لم تفعل فـأدخلها سراً، ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده»(١)

لكن أين نحن اليوم من هذه التعاليم السمحة، الخليقة بأن تكوّن مجتمعًا مترابطًا، لكن المسلمين الآن قد اتبـعوا أهواءهم، وأطاعوا شيطانهم، وتركـوا دينهم، وتخلوا عن رسالتهم في الأرض، وأصـبح كل منهم لا يفكر إلا فى نفسه، ولا يسـعى إلا لمصلحته ومنفعته، أصبحوا لا يقـدرون أخوة ولا جواراً، ولا يقيمون وزنًا لقرابة، ولا رحم، ولا يفـقهـون مـعنىً لدين ولا حـيـاء، ومن أجل ذلك قـامت بينـهم كثـيـر من الخلافـات والمنازعات، وانتشرت بينهم المشاحنات، ودب بينهم دبيب العداوة والبغضاء. فمنهم من أعمى الله بصره وبصيرته، وختم على قلبه وفؤاده، فتراه يمرح فى نعمه ويسرح، فيكسو أولاده الصوف والحرير، ويجلب إليهم الفاكهة والحلوى وغير ذلك من الملذات والطيبات والتى تحرك شهية جاره الفقير، وتجعل لعابه يسيل، وتجعله يتحسر على حظه من الدنيا، فياليـته يراعى شعور جاره الفقـير، فيعطيه منـها إن كان كريمًا، أو يحجبـها عنه إن كان بخيلا، لكن وللأسـف إنه لم يبال، ولم يراعِ شعوره، فلم يكتـرث لعرى بنات جاره أو بنيه، ولم يتأثر لأنين زوجته، ولم يمد إليهم يد المعاونة، وتظل هذه الأسرة الفقيرة تتلظى بنار الحقد والحسـد، ويتجرعون مرارة الفقر والحرمان، وكـل ذلك ببخل جارهم الغنى، فلا يزالون يتـربصون به الدوائر، ويتمنـون من الله زوال نعمته، فـإذا نزل به مكروه كان جاره الفقيـر أول الشامتين، بل كان ذلك اليوم يوم عـيد، ويوم سرور، وحق له ذلك، وصدق الشاعر الحكيم حين قال:

إذا لم يكـن للمـرء في دولة امـرئٍ ... نـعـيـم ولا حـظ له تمـنـى زوالهـا

ومـا ذاك من بـغض لهـا غـيـر أنه ... يرجي سـواها فهـو يهوى انـتقالـها

ومنهم من فقد دينه ومروءته يتجـسس على جاره، ويبحث عن أخباره، وينقب عن أسراره، ومثل هؤلاء الجـيران هم الذين أرغموا الإمام الشافـعى على أن يبيع داره بأرخص ثمن، فقد ثبت أنه كـان له جار سوء ما زال يسيئ إليه حتى اضطره لأن يـبيع بيته بأرخص الأسعار، حتى أن كثـيراً منا الناس لاموا الإمام على بيعه بذلك الثـمن الرخيص، فقال فى ذلك:

---

(١) ذكره المنـذرى فى الترغيب ٣/٣٥٧ وقـال: رواه الخرائطى فى مـكارم الأخلاق. والحديث قـد ذكره القرطبى فى تفسيره وقال عنه هذا حديث جـامع وهو حديث حسن، فى إسناده أبو الفضل عثمان بن مطر الشيبانى غير مرضى. والحديث رواه أبو الشيخ ابن حبان فى كتاب التوبيخ عن معاذ وهو حديث ضعيف لأجل بهز بن حكيم وقد رواه أيضًا البيهقى فى الشعب (٦٥٦١).

يلوموننى أن بعت بالرخص منزلى ولم يعلموا جاراً هناك ينغص
فقلت لهم: كفوا الملامة إنما بجيرانها تغلو الديار وترخص

ومنهم من زادت حماقته فكان جاره المسكين مريضًا عليلا، ملازمًا لفراشه ومع ذلك يقيم الأفراح بمكبرات الصوت دون مبالاة لشعوره أو إحساسه، أو اعتباراً لمرضه وألمه.

ومنهم من ابتلى بالأنانية وحب النفس فيقيم الأفراح، وجاره قد مات ولده أو أخوه فأين هؤلاء ممن كان عليه السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين.

فيا أخا الإسلام:

أحب لجارك ما تحب لنفسك، وكن متعاونًا معه على البر والتقوى، وقدِّم إليه المساعدة ما استطعت إلى ذلك سبيلا، واصبر على أذاه فإن لك على ذلك أجراً.

روى جابر بن سليم قال: ركبت قعودى، ثم أتيت إلى مكة، فطلبت رسول الله، فأنخت قعودى بباب المسجد، فدلونى على رسول الله ﷺ، فإذا هو جالس، عليه بردٌ من صوف فيه طرائق حمر، فقلت: السلام عليك يا رسول الله، فقال: **«وعليك السلام»**، فقلت: إنا معشر أهل البادية قوم فينا جفاء، فعلمنى كلمات ينفعنى الله بها، فقال: **«ادن منا»** فدنوت، فقال: أعد علىَّ، فأعدت فقال: **«اتق الله ولا تحقرن من المعروف شيئًا، ولو أن تلقى أخاك بوجه منبسط، ولو أن تفرغ من دلوك فى إناء أخيك، وإن أحد سبك بما لا يعلم فيك فلا تسبه بما تعلم فيه، فإن الله جاعل لك أجراً وعليه وزراً، ولا تسبن شيئًا مما خولك الله»**، قال: فوالذى نفسى بيده ما سابيت بعده شاة ولا بعيراً[1]

وعليك أن تحسن خلقك مع الأهل والجيران، فحسن الخلق شيمة المؤمن الحق، ولذلك يقول سيد الخلق، وحبيب الحق: **«ليس المؤمن بالطعان، ولا اللعان، ولا الفاحش البذىء»**[2] بل إن الإنسان الفاحش يعتبر خارجًا من دائرة الإيمان يقول النبى المصطفى: **«إن الفحش والتفحش ليسا من الإسلام فى شىء، وإن أحسن الناس إسلامًا أحاسنهم خلقًا»**[3]

---

(١) رواه أحمد فى مسنده (٢٠٥١٠) جـ١٥/٢٦٩ بإسنادين أحدهما حسن والآخر صحيح ورواه أبو داود (٤٠٨٤) بنحوه وصححه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود ٢/٥١٦ ورواه الطبرانى (٦٣٨٣) والحاكم وصححه ووافقه الذهبى ٤/١٨٦

(٢) رواه أحمد فى مسنده، رقم (٣٨٣٩) وصححه الألبانى فى ص.ج (رقم٥٣٨١) ورواه البخارى فى الأدب المفرد.

(٣) رواه أحمد فى مسنده (٢٠٧٢٣) بإسناد حسن ١٥/ ٣٣٨ من حديث جابر بن سمرة.

أخي الحبيب:

ولاحظ كما ذكرت لك أن الجيران، إما أن يكونوا مسلمين، وإما أن يكونوا غير ذلك فأما إن كانوا مسلمين، فإما أن يكون هـذا الجار المسلم قريبًا منك أى ذا نسب أو مصاهرة، وإما أن يكون أجنبيًا عنك.

فإن كان غير قريب لك فله حق الإسلام، وحق الجوار، فأما حق الجوار فقد علمت وأما حق الإسلام فقد ذكـره لك الرسول الأعظم، والنبى الأكرم ﷺ عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قـال رسول الله ﷺ: «**حق المسلم علـى المسلم ست**»: قيل: مـا هى يا رسول الله؟ قال: «**إذا لقيته فسلم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمد الله فشـمتـه، وإذا مرض فـعده، وإذا مـات فاتبـع جنازته**»[1] كان هذا موجـزا وإليكم هذه الحقوق بشىء من التفصيل:

فأما عن الحق الأول، فيقول من شرع هذه الحقوق: «**إذا انتهى أحـدكم إلى مجلس فليـسلم، فـإذا بدا له أن يجـلس فليـجلس، ثم إذا قـام فليـسلم، فلـيست الأولى بـأحق من الأخيرة**»[2]

وعن عمار بن ياسر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاث من جمعهـن فقد جمع الإيمان: الإنصـاف من نفسك، وبذل الـسلام للعـالم، والإنفاق من الإقـتار**»[3] وقد عقب الإمام النووى على هذا الحديث بقوله فى شرح مسلم:

«قد جمع فى هذه الكلمات الثلاث خيرات الدنيا والآخرة، فإن الإنصاف يقتضى أن يؤدى إلى الله جمـيع حقوقه، ومـا أمر به، ويتجنب جـميع ما ينهـاه عنه، وأن يؤدى إلى الناس حقوقهم، ولا يطلب ما ليس له، وأن ينصف نفسه فلا يوقعها فى قبيح أصلا، وأما بذل السلام للعـالم؛ فمعناه لجميع الناس، فـيتضمن ألا يتكبر عـلى أحد، وألا يكون بينه وبين أحد جفاء يمتنع من السلام عليه بسببه. ».

ومن تمام السلام أن يصافحه ويعانقه، فإنها مشروعة ومستحبة، وذلك لما رواه سلمان الفارسى رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «**إن المسلـم إذا لقى أخاه، فأخذ بيده تحاتت عنهما ذنوبهما**

---

(١) رواه البخارى فى الجنائز بلفظ خمس، ورواه مـسلم (٢١٦٢) وأحمد فى مسنده (٨٨٣١) حـ٩/ ٢١ بإسناد صحيح.

(٢) رواه الترمذى وقال: حسن صحيـح (٦ ٢٧) ورواه أبو داود (٥٢٠٨) وقال الألبانى: حسن صحيح حـ٣/ ٢٧٨ وأحمد فى مسنده (٩٦٢٧) حـ٩/ ٢٧٥ بإسناد صحيح.

(٣) رواه البخارى ومسلم.

كما يتحات الورق عن الشجرة اليابسة فى يوم ريح عاصف، وإلا غفر لهما ولو كانت ذنوبهما مثل زبد البحر»(١).

وأما عن المعانقة فقد ورد عن سعيد بن إسحاق قال: كنت جالسًا عند مالك بن أنس، فإذا سفيان بن عيينة يستأذن بالباب، فقال مالك: رجل صالح صاحب سنة أو خلوه، فدخل. فقال سفيان: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فردَّ مالك السلام. فقال سفيان: سلام خاص، وعام عليك يا أبا عبد الله ورحمة الله. فقال مالك: وعليك السلام يا أبا محمد ورحمة الله، فصافحه مالك وقال: يا أبا محمد.. لولا أنها بدعة لعانقناك، فقال سفيان: قد عانق من هو خير منا رسول الله ﷺ، فقال مالك: جعفر بن أبى طالب؟ قال: نعم فقال مالك: هذا حديث خاص يا أبا محمد، ليس بعام، فقال سفيان: ما عم جعفر يعمنا، وما خصه يخصنا إذا كنا صالحين. أفتأذن لى أن أحدث فى مجلسك؟ قال: نعم يا أبا محمد، فقال: حدثنى عبد الله بن طاووس عن أبيه عن عبد الله بن عباس: أنه لما قدم جعفر من أرض الحبشة اعتنقه النبى ﷺ، وقبَّل بين عينيه، وقال: **«جعفر أشبه الناس بى خلقًا»**(٢)

وأما عن الحق الثانى: «إذا مرض عدته»:

وعيادة المريض: أى زيارته، وهى فرض كفاية، ولها ثواب عظيم من الله تعالى فعن عليٍّ رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«ما من مسلم يعود مسلمًا غدوة إلا صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يمسى، وإن عَادهُ عشية صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يصبح، وكان له خريف فى الجنة»**(٣)

وقد ورد عنه ﷺ أنه قال: **«عودوا المريض، وأطعموا الجائع، وفكوا العانى»**(٤).

وإن كان جارك يهوديًا أو نصرانيًّا (من أهل الذمة) فلا بأس بعيادته إذا رجوت من ذلك مصلحة للإسلام، فقد ورد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان غلام يهودى يخدم النبى ﷺ فمرض، فأتاه النبى ﷺ يعوده، فقعد عند رأسه، فقال له: **«أسلم»** فنظر إلى

(١) رواه الطبرانى بإسناد حسن قاله المنذرى فى الترغيب جـ٣/ ٤٣٣، ٤٣٤
(٢) العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسى جـ٢/ ٢٧٧
(٣) رواه الترمذى وقال: حديث حسن ورواه أحمد بنحوه مطولا فى مسنده (٧٥٤) بإسناد صحيح جـ١/ ٤٩٣.
(٤) رواه البخارى وأحمد (٩ ١١٢).

أبيه وهو عنده، فقال: أطع أبا القاسم، فأسلم، فخرج النبى ﷺ وهو يقول: **«الحمد لله الذى أنقذه من النار»**(١)

وكان هذا الغلام اسمه: عبد القدوس كما قال الجلال البلقينى فى مهمات البخارى وفيه جواز عيادة الكافر، خلافًا لمن كره ذلك وحرمه وهم الحنابلة.

٣ـ وأما عن الحق الثالث: «اتباع جنازته»:

يعنى السير مع جنازته إكرامًا له وتوديعًا كتوديع الضيف.

وتشييع الجنازة فرض كفاية، واتباع الجنائز له ثواب عظيم حثنا عليه رسول الإسلام ﷺ، فقال فى الحديث الذى يرويه عن الصحابى الجليل أبو هريرة رضي الله عنه **«من اتبع جنازة مسلم إيمانًا واحتسابًا، فصلى عليها، وأقام حتى تدفن رجع بقيراطين من الأجر، كل قيراط مثل أحد، ومن صلى عليها ورجع قبل أن تدفن، فإنه يرجع بقيراط»**(٢).

٤ـ أما عن الحق الرابع: «إذا دعاك فأجبه»:

فقد ورد الأمر بذلك فى حديث ابن عمر رضي الله عنهما **«إذا دعا أحدكم أخاه فليجبه عرسًا كان أو نحوه»**(٣) وفى رواية لأبى داود، عنه أيضًا: **«من دعى فلم يجب فقد عصى الله ورسوله..»**(٤) وفى رواية لمسلم: **«إذا دعى أحدكم فليجب، فإن شاء طعم، وإن شاء ترك»**(٥) ولأجل هذا التشدد فى الأمر اختلف هل هو على سبيل الإيجاب أو الندب؟ فالأصح عند الشافعية ومن تبعهم أنه فرض عين إن لم يكن لديه عذر وقال بعضهم: إنها واجبة إلا لعذر أيضًا، والعذر نحو: إطفاء حريق، أو حضور صلاة الجماعة، أو دفن ميت، أو مرض ونحو ذلك، ويعتبر من العذر أن يكون بمكان الوليمة منكر من المنكرات كشرب خمر، أو غانية، أو لعب ميسر، وإذا كان الداعى لك إلى وليمة العرس إنما هو جارك، أو قريبك، فيرى بعض الفقهاء أن الإجابة عليه واجبة لعموم الإخبار، ويرى بعضهم أنها ليست واجبة لأن النفس تعاف من تناول طعامهم.

لكن الأولى بالقبول هو وجوب تلبية الدعوة، ولا سيما إذا كان رسول الله ﷺ وسلم قد رخص لنا فى أكل طعامهم عمومًا، ورخص فى الأكل من الوليمة وعدم الأكل

(١) رواه البخارى فى صحيحه ٢/١١٨ فى الجنائز ورواه أيضًا فى الأدب المفرد رقم (٥٣٤) ص١١٦ ورواه أحمد فى مسنده (١٢٧٢٨) بإسناد صحيح ورواه أبو داود وصححه الألبانى برقم (٣٠٩٥) صحيح سنن أبى داود ٢/ ٢٧٢

(٢) رواه أحمد فى مسنده (٩٥١٥) بإسناد صحيح جـ٩/ ٢٤٣ ورواه النسائى وغيره.

(٣) رواه مسلم وأحمد (٦٣٣٧) وأبو داود (٣٧٣٨) وصححه الألبانى فى آداب الزخارف وصحيح أبو داود.

(٤) أبو داود (٣٧٤٢) وصححه الألبانى ورواه ابن ماجه (١٩١٣) وأحمد فى مسنده.

(٥) رواه مسلم وأبو داود عن جابر (٣٧٤١) وصححه الألبانى.

متها بقوله كما ذكرناه «فمن شاء طعم ومن شاء ترك» وقد استحب الشافعى الحضور إلا من عذر.

٥ ـ الحق الخامس: «تشميته إذا عطس»:

وتشميت العاطس إذا حمد الله تعالى سنة على الكفاية، وقد أمرنا به ﷺ فى حديث البراء بن عازب: «**أمرنا رسول الله ﷺ بسبع، ونهانا عن سبع: أمرنا بعيادة المريض، واتباع الجنازة، وتشميت العاطس، وإجابة الداعى، ورد السلام، ونصرة المظلوم، وإبرار القسم...**»(١) أما إذا لم يحمد الله تعالى فلا يستحق التشميت أى قل له داعيًا الله تعالى: «**يرحمك الله**» فيرد عليك قائلا: «**غفر الله لى ولك وللمسلمين**» وذلك لحديث أنس رضي الله عنه قال: «**عَطَس رجلان عند النبى ﷺ، فشمت أحدهما، ولم يشمت الآخر، فقال الذى لم يشمته: عطس فلان فشمته، وعطست فلم تشمتنى؟ فقال: «هذا حمد الله، وإنك لم تحمد الله**»(٢) هذا إن كان العاطس مسلمًا، فإن لم يكن مسلمًا فمن السنة أن تدعو له وتقول: «**يهديكم الله ويصلح بالكم**» للحديث الذى رواه أبو موسى الأشعرى رضي الله عنه قال: كان اليهود يتعاطسون عند النبى ﷺ يرجون أن يقول لهم: يرحمكم الله، فكان يقول لهم «**يهديكم الله ويصلح بالكم**»(٣).

مع مراعاة أن المسلم إذا عطس وهو فى الصلاة فلا بأس أن يقول: الحمد لله ويسمع بها نفسه، ولا يشمته من هو بخارج الصلاة. ويراعى أن يكظم عطسه وتثاؤبه بيده ما استطاع.

٦ـ الحق السادس: «وإذا استنصحك فانصح له»:

أى إذا طلب منك الرأى والمشورة، فأرشده إلى ما تراه صوابًا، وانصحه فيما يغلب على ظنك أن فيه الخير له ولأسرته.

فقد ورد عن تميم الدارى رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «**الدين النصيحة**» قلنا: لمن؟ قال: «**لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم**»(٤)

وقال سليمان بن دريد:

وأجب أخاك إذا استشارك ناصحًا ... وعلى أخيك نصيحة لا تَرْدُد

---

(١) رواه البخارى (١٢٣٩) فتح البارى ٣/ ١١٢ ومسلم (٦٦ ٢) والترمذى (٢٨٠٩) وقال: حسن صحيح والنسائى وأحمد (١٨٤١٥).

(٢) رواه البخارى ومسلم وغيرهما – متفق عليه.

(٣) روا الترمذى وقال: حسن صحيح (٢٧٣٩) والبخارى فتح ١٠/٦٠٨(٦٢٤٤) وأبو داود (٥٠٣٨) وأحمد (١٩٤٧٦).

(٤) رواه مسلم (٥٥) وأحمد فى مسنده، والنسائى سبق تخريجه فى موضع آخر.

٧ـ حقوق أخرى: «وداعه إذا كان مسافرًا، والدعاء له»:

فيستحب للمسلم أن يودع جاره المسلم، أو أخيه المسلم إذا علم أنه على سفر لما روى عن سالم بن عبد الله بن عمر. أن عبد الله بن عمر رضي الله عنه كان يقول للرجل إذا أراد سفرًا: ادن منى حتى أودعك، كما كان رسول الله ﷺ يودعنا، فيقول: **«أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك»**(١).

٨ـ أن يصلح ذات البين إن وجد بينهما شقاقًا:

فإصلاح ذات البين أفضل عند الله تعالى من درجة الصيام والصلاة والصدقة كما ورد في حديث أبى الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟»** قالوا: بلى. قال: **«إصلاح ذات البين إذا تقاطعوا»**(٢) فأين نحن من إصلاح ذات البين فى عصرنا هذا الذى عمت فيه الفتن، والمشاحنات والمنازعات.

٩ـ ألا يهجر أخاه فوق ثلاث:

لأن الهجر يولد الشقاق والبغضاء والأحقاد، والنزاع ورب العالمين تبارك وتعالى يقول: ﴿ **ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم..** ﴾.

وعن أبى أيوب الأنصارى رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: **«لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال، يلتقيان، فيعرض هذا بوجهه، وهذا بوجهه، وخيرهما الذى يبدأ بالسلام»**(٣).

١٠ـ أن يذب عنه، ويصون عرضه، وينصره:

ففى حديث جابر وأبى طلحة رضي الله عنهما أن النبى ﷺ قال: **«ما من امرئ مسلم ينصر مسلمًا فى موضع ينتهك فيه عرضه، ويستحل حرمته إلا نصره الله فى موطن يحب فيه نصرته، وما من امرئ خذل مسلمًا فى موطن ينتهك فيه حرمته إلا خذله الله فى موضع يحب فيه نصرته»**(٤)

١١ـ أن ينصره إن كان مظلومًا:

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: **«انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا، قيل: يا رسول الله، ننصره مظلومًا، فكيف ننصره ظالمًا؟ قال: تمنعه عن الظلم، فذاك نصره إياه»**(٥)

---

(١) رواه الترمذى وقال: حسن صحيح.

(٢) رواه أحمد فى مسنده (٢٧٣٨١) بإسناد صحيح جـ١٨/ ٥٧١ ورواه الترمذى (٢٥٠٩) وصححه وأبو داود (٤٩١٩) وصححه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود.

(٣) رواه أحمد فى مسنده (١٥٨٩) بإسناد صحيح جـ٢/ ٢٧٢ ومسلم (٢٥٦٠).

(٤) خرج فى موضع آخر

(٥) رواه أحمد فى مسنده (١١٨٨٨) والبخارى (٢٤٤٣) وأبو نعيم فى الحلية ٣/ ٩٤ والترمذى (٢٢٨٢).

وفى رواية لمسلم: **«لينصر الرجل أخاه ظالمًا أو مظلومًا، إن كان ظالمًا فلينهه، فإنه له نصرة، وإن كان مظلومًا فلينصره»**[١]

١٢ـ أن يواسيه بالملبس والمأكل والمشرب إن احتاج إليه فى حضر أو سفر:

فقد ورد عن أبى سعيد الخدرى ؓ قال: بينما نحن فى سفر مع النبى ﷺ، إذ جاء رجل على راحلة له، فجعل يضرب ببصره يمينًا وشمالا، فقال رسول الله ﷺ **«من كان معه فضل ظهر، فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان معه فضل من زاد فليعد به على من لا زاد له، فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا فى فضل»**[٢]

أخا الإسلام:

هذه جملة من حقوق الجار على جاره، وحقوق المسلم على أخيه المسلم، **فإذا امتثلنا هذه الحقوق، وتلك التعاليم النبوية، فلا شك أنك ستجد ثمرة ذلك فى دينك ودنياك ستجد أن الجار صار لجاره «يغفر زلته، ويرحم عبرته، ويستر عورته، ويقيل عثرته، ويقبل معذرته، ويرد غيبته، ويديم صحبته، ويحفظ خلته، ويرعى ذمته ويعود مرضته، ويشهد جنازته، ويجيب دعوته، ويقبل هديته، ويكافئ صلته، ويشكر نعمته، ويحسن نصرته، ويحفظ حرمته، ويقضى حاجته، ويقبل شفاعته، ولا يخيب طلبته، ويشمت عطسته، ويرشد ضالته، ويرد سلامه، ويستحسن كلامه، ويبرأ أقسامه، ويصدق أحلامه، وينصره ظالمًا برده عن ظلمه، ومظلومًا بإعانته على أخذ حقه، ويواليه ولا يعاديه، ولا يخذله، ولا يشتمه، ويجب له الخير كما يحبه لنفسه، ويكره له من الشر ما يكره لنفسه»**[٣]

فإنك إن كنت مع جارك هكذا، كان معك بمثل ما تكون معه، وإن كان العكس فاجعل نفسك من أهل الفضل، الذين إذا ظلموا عفوا، وإذا قُطعوا وصلوا، وإذا جهل عليهم حلموا، وإذا أوذوا صبروا.

يقول السمرقندى[٤]**:**

حسن الجوار فى أربعة أشياء:

أولها: أن يواسيه بما عنده ... ثانيها: ألا يطمع فيما عنده

ثالثها: أن يمنع أذاه عنه ... رابعها: أن يصبر على أذاه

---

(١) رواه مسلم (٢٥٨٤) وأحمد.

(٢) رواه أبو داود (١٦٦٣) وصححه الألبانى ورواه أحمد بإسناد صحيح (١١٢٣٢) جـ١٠/١٠٩ ورواه البيهقى ١٠/ ٣٥ فى السنن (باب الضحايا).

(٣) من كلام سيدنا على بن أبى طالب ؓ.

(٤) تنبيه الغافلين ص١٠٧

• من قصص الصالحين في الإحسان إلى الجيران والصبر على أذاهم •

أخا الإسلام:

إن من تعقل الدين الإسلامى، وما فيه من آداب وتعاليم، وحكم ووصايا، وجد نفسه فى روضة غناء مليئة بالأزهار والثمار، ووجده بستانًا حافلا بالورود والرياحين، تنتقل فيه العين من جميل إلى أجمل، ويتقلب الطرف فيه من حسن إلى أحسن، فهيا بنا أخى الحبيب لنتأمل قصصًا وعبرًا من الذين ساروا فى هذا البستان، وتناولوا من تلك الثمار اليانعة، فأثرت على حياتهم، فهيا إلى هؤلاء الدين وقفوا على تعاليمه، واهتدوا بهديه فمن هؤلاء:

١ـ سهل بن عبد الله التسترى -رحمه الله-:

لقد كان سهل بن عبد الله -رحمه الله-: له جار مجوسى، وكان هذا المجوسى شيخًا كبيرًا فى السن ولم يسلم من أن سهل بن عبد الله كان قد أسلم على يديه خلق كثير.

فلما حضرت سهلاً الوفاة استدعى ذلك المجوسى، فلما دخل عليه قال له: اذهب إلى ذلك البيت، وانظر ما فيه، فذهب ينظر، فرأى جفنة كبيرة موضوعة تحت حائط المجوسى، والقذر ينزل من دار المجوسى إلى تلك الجفنة، وقد امتلأت قذرًا، فقال المجوسى: ما هذا؟ قال له سهل: يا هذا، هذا منذ سنة قد انفتح من كنيف دارك إلى هذا المكان فى دارى، وكل يوم نضع هذه الجفنة نتلقى فيها هذا القذر الذى ينزل من دارك، فإذا كان الليل رمينا به، ثم نعيد الجفنة إلى مكانها، فقال المجوسى: ولمَ لم تعلمنى بذلك؟ قال سهل: ما أردت أن أشوش عليك، ولا أوذى خاطرك، ولولا أنى قد قرب موتى، وخروجى من الدنيا، ولا يتسع أخلاق غيرى لذلك، ما أخبرتك ولا شوشت عليك.

فبكى المجوسى، وقال: أشهد أنك من الأولياء، أتعاملنى بهذه المعاملة منذ سنة، وأنا مقيم على كفرى وضلالى، هات يدك، فناوله سهل يده، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبد الله ورسوله، وأن كل معبود سوى الله باطل، ثم مات سهل رحمه الله فى يومه، وحسن إسلام المجوسى بعده[١]

٢ـ عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما:

فعن مجاهد عن عبد الله بن عمرو أنه ذبحت له شاة فجعل يقول لغلامه: أهديت لجارنا اليهودى؟ أهديت لجارنا اليهودى؟ فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»**[٢]

---

(١) الترغيب والترهيب لليافعى ص١٨٨ط التوفيقية تحقيق أحمد فريد المزيد.

(٢) رواه أبو داود (٥١٥٢) وصححه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود جـ٣/ ٢٦٤ ورواه الترمذى وقال حسن غريب (٢٤ ٢).

٣ـ مالك بن دينار -رحمه الله-:

وقد كان لمالك بن دينار جار يهودى فحول اليهودى مستحمه إلى جدار البيت الذى فيه مالك، وكان الجدار متهدمًا، فكانت النجاسات تدخل عند مالك، ولكنه كان يقوم بتنظيفها كل يوم ولم يقل شيئًا، ينظفها وهو صابر على أذاه حتى ضاق صدر اليهودى من كثرة صبر مالك، مما جعله يقول له: يا مالك، آذيتك كثيرًا، وأنت صابر، ولم تخبرنى، فقال له: قال رسول الله ﷺ: **«ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»** فندم اليهودى وأسلم، وحسن إسلامه.

إن مالك بن دينار رجل من أولئك الرجال الذين تخرجوا فى جامعة السلف الصالح رضوان الله عليهم، تخرج فى جامعة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه الذى جاءه رجل يشكو من جاره شتمه وأذاه، فقال له: اذهب، فإن هو عصى الله فيك فأطع الله فيه.

٤ـ الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان:

لقد كان له جار مشرك وكان يلقى أمام بيته القاذورات، لكن الإمام كان يقوم بتنظيفها دون أن يتحدث مع اليهودى المشرك فى هذه القاذورات، إلى أن حدث فى يوم من الأيام، نظر الإمام فلم يجدها كالمعتاد، فسأل عن جاره هذا، فقيل له: إنه قد سجن، فذهب إلى السجن بنفسه، وتشفع لجاره حتى أنقذه من الحبس، وأطلق سراحه إكرامًا للإمام، فلما علم هذا الجار السيئ بما حدث، وأن سبب إنقاذه هو الإمام ندم على ذلك أشد الندم، وأسلم وحسن إسلامه.

٥ـ ابن المقفع:

كان له جار، وفى يوم من الأيام وجده يبيع داره فى دين ركبه، وكان ابن المقفع يجلس فى ظل دار جاره، فقال: ما قمت إذن بحرمة ظل داره إن باعها معدمًا، فدفع إليه ثمن الدار، وقال له: لا تبعها[1]

٦ـ وشكا بعضهم كثرة الفئران فى داره، فقيل له: لو اقتنيت هرًّا؟ فقال: أخشى أن يسمع الفأر صوت الهرة فيهرب إلى دور الجيران، فأكون قد أحببت لهم ما لا أحب لنفسى[2].

٧ـ مات رجل من أسلافنا الصالحين الذين عرفوا بالكرامة والمروءة والنجدة

(١)، (٢) تهذيب إحياء العلوم الدين لعبد السلام هارون ص٢٠٧

والضمير، فبكى عليه جيرانه بكاءً مريرًا، وحزنوا عليه حزنًا أليمًا، وتحسروا عليه حتى لو كانوا فدوه بأرواحهم ونفوسهم، فلما سئلوا عن سبب ذلك الاهتمام، قال قائلهم فى صراحة: لقد جاورنا هذا الرجل، وما منا أحد إلا وتجب له الزكاة، ثم مات عنا وما منا أحد إلا وتجب عليه الزكاة.

وقد روى أن رجلا من التابعين كان مجاورًا لسعيد بن العاص، وحدث أن نزلت به نازلة من نوازل الدهر، ذهبت بكل ماله فى الحياة من متاع، حتى اضطر إلى أن يبيع داره بأبخس الأثمان، وقال المشترى: إنها لا تساوى خمسين درهمًا، فقال له صاحبها: وبكم سوف تشترى جوار سعيد بن العاص، فقال المشترى: ما رأيت جوارًا يباع، فمن يكون سعيد بن العاص هذا؟ قال: سعيد بن العاص الذى إذا رآك رحب بك، وإذا دخلت عليه أوسع لك، وإذا حدثته أقبل عليك، وإذا ناديته لباك، وإذا مرضت عادك حتى تبرأ، وإذا غبت سأل عنك حتى يعلم أين أنت، وإذا افتقرت أعطاك حتى أغناك، فبلغ هذا الكلام سعيد بن العاص، فبعث إليه بمائة دينار، وقال له: أمسك عليك دارك يا خير جار.

• موعظة •

آه لنفس لا تعقل أمرها، ثم جهلت قدرها، وتضيع فى المعاصى عمرها، وتخوض من الذنوب غمرها، إلى متى تعصى، وكم تتمرد، وأقبح من قبيحك أنك تتعمد، يا ردىء العزم، يا سيئ المقصد، يا نقى الثوب والقلب الأسود، ما هذا الأمل ولست بمخلد، يا من شاب وما تاب، يا مشتريًا لذة تزول بالعذاب السرمد، يا واقعًا فى حبل الهوى، هذا هو الحبل أما تصعد؟ تخلص من أسر الهوى، فإلى متى تظل مقيدًا آه لمفرط يخسر كل يوم ولا يربح، ولمتخبط فى ظلام الظلم، والصباح قد أصبح؟

لو رأيت التائب جفنًا مقروحًا، تبصره فى الأسحار على باب الاعتذار مطروحًا سمع قول الإله يوحى فيما يوحى: ﴿تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم:٨]. ارجع إلى مولاك وقل يا رب:

ذنبى إليك عظيم	وأنت للعفو أهل
فإن عفوت فبفضل	وإن أخذت فعدل

وناد فى الأسحار والناس نائمون.

يا أمل من أمله الآملون، إن طردتنى فإلى باب من ألتجأ، وإن تركتنى فبساحة من أقف يا من عم جودك وبلاؤك، ووسع البرية جودك وعطاؤك، نسألك الجود والإحسان والعفو والغفران، والصفح والأمان، يا كريم يا منان، يا رب العالمين.

الوصية رقم (١٩)
إذا أحب أحدكم صاحبه فليخبره

عن أبى ذر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إذا أحب أحدكم صاحبه، فليأته فى منزله، فليخبره أنه يحبه لله»**(١).

صدق رسول الله ﷺ

• فى رحاب هذه الوصية •

الإيمان رابطة تربط المتصفين به بعضهم ببعض ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] وهو فروع، وأقوى هذه الفروع الحب فى الله، والبغض فى الله، وذلك أن تحب أهل الطاعة المحبوبين عند الله، وتبغض أهل المعصية الذين غضب الله عليهم، ومحبة الطائعين هى: موالاتهم ونصرتهم، والإحسان إليهم، والتعاون معهم على الطاعة.

وبغض أهل المعصية هو الإعراض عنهم واجتنابهم، تنفيرًا من المعصية وزجرًا عنها. قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢] والوصية التى بين أيدينا، والتى سنعيش فى رحابها هى وصية عظيمة جليلة من سيد العظماء الذى أعطاه الله صفوة آدم، ومعرفة شيث، وحكمة واستسلام إبراهيم، وصوت داود، وحلم يعقوب، وصبر أيوب، وقوة موسى، وشفقة هارون، وزهد يحيى، وبشرى عيسى، وأمر سليمان، وجمال يوسف، إنه فى هذه الوصية يريد كعادته أن ينشر الخير على أمته، وأن يسود السلام والأمان بين أفراد المجتمع المسلم، فيوصى إذا أحب أخ أخاه فى الله، فليخبره بأنه يحبه فى الله، لأنه سبب لمزيد الحب وتأكده. وفى غير هذه الوصية، عن أنس رضي الله عنه **أن رجلاً كان عند النبى ﷺ فمر رجل، فقال: يا رسول الله، إنى أحب هذا، فقال له النبى: أعلمته؟ قال: لا، قال: أعلمه، فلحقه، فقال: إنى أحبك فى الله، فقال: أحبك الذى أحببتنى له»**(٢) ولقد طبق الرسول ﷺ هذه الوصية عمليًا، وكيف لا وهو القدوة الحسنة؟ كيف لا وهو الإمام الأعظم والرسول الأكرم؟ طبقه عمليًا مع معاذ ابن جبل، فعنه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أخذ بيد معاذ، وقال له: **«يا معاذ، والله إنى لأحبك، ثم أوصيك يا معاذ: لا تدعن فى دبر كل صلاة تقول: اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»**(٣).

---

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده (٢١١٩١) عن أبى ذر الغفارى بإسناد صحيح وبرقم (١٧١٠٥) عن المقدام بن معد يكرب بإسناد صحيح، ورواه أبو داود (٥١٢٤) وصححه الألبانى ورواه البخارى فى الأدب المفرد وابن حبان (٢٥١٤) وصححه الحاكم فى المستدرك ٤/ ١٧١ ووافقه الذهبى.

(٢) رواه أحمد فى مسنده (٢٢٠١٨) بسند صحيح ورواه أبو داود وصححه الألبانى ورواه النسائى.

(٣) رواه أبو داود بإسناد صحيح.

وكما قال ابن علان فى دليل الفالحين[١]: هذا الحديث أوفى شاهد على فضل معاذ وكمال استقامته، واهتمامه بأمور ديانته حيث حصل له هذا المقام الأسني من المصطفى، وذكره توطئة وبعثًا له على امتثال أمره بعده. قال بعضهم: لما صحت محبة معاذ للنبى ﷺ جازاه بأعلى منها، كما هى عادة الكرام، ولا أكرم منه ﷺ ولذا أكده بإن واللام.

• الترغيب فى المحبة فى الله •

١- أن المحبة فى الله ولله توجب محبة الله تبارك وتعالى، ففي الحديث القدسى الجليل، يقول رب العالمين جل وعلا: **«حقت محبتى للمتحابين فيَّ، وحقت محبتى للمتواصلين فيَّ، وحقت محبتى للمتناصحين فيَّ، وحقت محبتى للمتزاورين فيَّ، وحقت محبتي للمتباذلين فيَّ، المتحابون فيَّ على منابر من نور، يغبطهم بمكانهم النبيون والصديقون والشهداء»**[٢] وفى رواية بلفظ: **«وجبت محبتىَ للمتحابين فيَّ..»**[٣].

٢- أن المتحابين فى الله من السبعة الذين يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله يوم تدنو الشمس من الرءوس، يوم تكور الشمس، وتنكدر النجوم، وتنفطر السماء قال ﷺ: **«إذا كان يوم القيامة أدنيت الشمس من العباد حتى تكون قدر ميل أو اثنين، فتصهرهم الشمس، فيكونون فى العرق كقدر أعمالهم، فمنهم من يأخذه إلى عقبيه، ومنهم من يأخذه إلى ركبتيه، ومنهم من يأخذه إلى حقويه ومنهم من يلجمه العرق إلجامًا»**[٤] فى هذ اليوم الشديد حرارته، يستظل المتحابون فى الله بظل عرش الرحمن جل جلاله ففى الحديث الذى يرويه الصحابى الجليل أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«سبعة يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ فى طاعة الله، واثنان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إنى أخاف الله، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه[٥]. . .»** وفى حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: قال الله تعالى: **«حقت محبتى للمتحابين فيَّ، أظلهم فى ظل العرش يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظلى»**[٦] وفى رواية عن أبى هريرة رضي الله عنه **«إن الله يقول يوم القيامة: أين المتحابون لجلالى، اليوم أظلهم فى ظلى، يوم لا ظل إلا ظلى»**[٧]

(١) دليل الفالحين جـ٢/ ٢٦٢

(٢) رواه أحمد (٢١٩٦٣) فى مسنده بسند صحيح والطبرانى فى الكبير وصححه الألبانى فى ص.ج رقم (٤٣٢١).

(٣) رواه أحمد فى مسنده (٢١٩٢٩) والبيهقى فى الشعب عن معاذ وصححه الألبانى فى ص.ج رقم (٤٣٣١).

(٤) رواه أحمد فى مسنده (٢٣٧٠٣) والترمذى وذكره الألبانى فى ص.ج رقم (٧٧٧).

(٥) رواه البخارى ومسلم.

(٦) رواه ابن أبى الدنيا وذكره الألبانى فى ص.ج رقم (٤٣٢٠).

(٧) رواه مسلم.

٣- أن الحب في الله تعالى من كمالات الإيمان به سبحانه: فعن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان»**(١).

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«إنَّ أوثق عرى الإيمان: أن تحب الله، وأن تبغض في الله»**(٢).

٤- أن المتحابين في الله تعالى لهم مكانة عظيمة عند الله يوم القيامة يغبطهم عليها الأنبياء والشهداء:

فعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أقبل على الناس بوجهه، فقال: **«أيها الناس: اسمعوا واعقلوا، واعلموا أنَّ لله عز وجل عباداً ليسوا بأنبياء، ولا شهداء، يغبطهم النبيون والشهداء على مجالسهم وقربهم من الله**، فقال أعرابي: يا رسول الله انعتهم لنا، جلهم لنا، فتبسم رسول الله ﷺ لقول الأعرابي، وقال: **هم ناس من أفناء الناس، ونوازع القبائل، لم تصل بينهم أرحام متقاربة، تحابوا في الله، وتصافوا، يضع الله لهم منابر من نور ليجلسهم عليها، فيجعل وجوههم نوراً، وثيابهم نورا، يفزع الناس يوم القيامة ولا يفزعون، وهم أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون»**(٣)

وقد ورد هذا الحديث برواية أخرى: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن من عباد الله لعباداً يغبطهم الأنبياء والشهداء، قيل: من هم لعلنا نحبهم؟ قال: هم قوم تحابوا بروح الله على غير أموال، ولا أنساب، وجوههم نور، وهم على منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس،** ثم تلا(٤): ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢].

٥- أن من أراد أن يتذوق طعم الإيمان وحلاوته فعليه بأن يحب في الله تعالى: فعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار»**(٥)

قال يحيى بن معاذ: حقيقة الحب في الله: أن لا يزيد بالبر، ولا ينقص بالجفاء.

---

(١) رواه أبو داود وذكره الألباني في ص.ج (٥٩٦٥).
(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده (١٨٤٣٣) بإسناد حسن وصححه الألباني في ص.ج برقم (٢٥٣٩).
(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده (٢٢٨٠٤) وسنده حسن.
(٤) رواه أبو داود وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣٥٢٧) في البيوع باب الرهن ورواه ابن حبان في صحيحه (٢٥٠٨) وأبو نعيم في الحلية ١/ ٥ عن عمر.
(٥) رواه البخاري ومسلم وأحمد وغيرهم.

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: **«من سره أن يجد حلاوة الإيمان، فليحب العبد لا يحبه إلا لله عز وجل»**(١)

٦- أن من أخلص حبه فى الله ولله أحبه الله وأرسل من يبشره فى الدنيا بحب الله له: فعن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: **«زار رجل أخًا له فى قرية أخرى، فأرصد الله على مدرجته(٢) ملكًا، فلما أتى عليه، قال: أين تريد؟ قال: أريد أخا لى فى هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تربها(٣) عليه؟ قال: لا غير أنى أحببته فى الله، قال: فإنى رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه»**.

٧- أن الله سبحانه يوكل ملكًا يدعو للمتحابين فى الله: فعنه أيضًا أن النبى ﷺ قال: **«من عاد مريضًا، أو زار أخًا له فى الله ناداه مناديان: طبت وطاب ممشاك وتبوأت من الجنة منزلاً»** أى طهرت من الذنوب لغفران الله تعالى لك، وعظم ثوابك عنده سبحانه.

٨- قرة عيون المتحابين فى الآخرة، وذلك بحشرهم بعضهم مع بعض: فعن أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: **«المرء مع من أحب»** وفى رواية: قيل للنبى ﷺ: **«الرجل يحب القوم، ولما يلحق بهم؟» فقال ﷺ: «المرء مع من أحب»**.

لكن اعلم أن كونه معه لا يستلزم مساواته له فى منزلته وعلو مرتبته، لأن ذلك متفاوت بتفاوت الأعمال الصالحة، والمتاجر الرابحة.

قال ابن حجر فى الفتح: المعية تحصل بمجرد الاجتماع فى شيء ما، ولا تلزم فى جميع الأشياء، فإذا اتفق أن الجميع دخلوا الجنة صدقت المعية، وإن تفاوتت الدرجات(٤).

واعلم أن من أجل وأعظم أنواع الحب فى الله حب رسول الله ﷺ، وحب آل بيته الأطهار، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبى ﷺ قال: **«أحبوا الله لما يغدوكم به من نعمة، وأحبونى لحب الله، وأحبو أهل بيتى لحبى»**(٥)

وعن أنس رضي الله عنه أن أعرابيًا قال لرسول الله ﷺ: **«متى الساعة؟ قال له رسول الله: وما أعددت لها؟ قال: حب الله ورسوله. قال: أنت مع من أحببت»**(٦). فإن أحببت رسول الله

---

(١) رواه أحمد فى مسنده (٦٨٦ ١) بإسناد صحيح ٩/ ٥٥٢ ورواه الحاكم وحسنه وصححه الألبانى برقم (٦٢٨٨) فى صحيح الجامع والسلسلة الصحيحه (٠ ٠ ٢٣).

(٢) مدرجته: طريقه.

(٣) تربها عليه: أى تحفظها له.

(٤) فتح البارى لابن حجر، ودليل الفالحين.

(٥) رواه الترمذى والحاكم.

(٦) رواه البخارى ومسلم واللفظ له وأحمد فى مسنده (٢ ١٣٠).

ﷺ كنت معه، وإن أحببت أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً وسائر الصحابة كنت معهم، وإن أحببت آل بيت رسول الله كنت معهم.

ومن كمال الإيمان بالله ورسوله أن تحب أصحاب رسول الله من المهاجرين والأنصار ففي الحديث الذى رواه البخارى ومسلم من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه أنه قال فى الأنصار: **«لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق، من أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله»**(١).

والمقصود بالحب هو الاتباع لسنتهم، والسير على نهجهم، ومدارسة سيرتهم، والوقوف على مآثرهم، والاهتداء بهديهم.

فعن جواب بن عبيد الله قال: قال كعب: فى الجنة عمود من ياقوتة حمراء، فى أعلاه سبعون ألف غرفة، هى منازل المتحابين فى الله، مكتوب فى جباههم: **«المتحابون فى الله إذا أشرف الرجل منهم على أهل الجنة أضاء لأهل الجنة كما تضيئ الشمس لأهل الدنيا، فيقولون: هذا رجل من المتحابين فى الله»**(٢)

• أروع الأمثلة فى الحب فى الله •

وأروع الأمثلة فى الحب في الله هم قدوتنا إلى الله، هم أنبياء الله تعالى، ثم النبى الأعظم ﷺ لأصحابه، وأصحابه له، فهذا هو سيدنا موسى عليه السلام يظهر حب الرسول المصطفى مع أنه ما التقى به إلا ليلة الإسراء والمعراج، فماذا حدث؟.

فى حديث الإسراء والمعراج الطويل جاء فيه: قال: **«فأوحى الله عز وجل إلىّ ما أوحى، وفرض علىّ فى كل يوم وليلة خمسين صلاة، فنزلت حتى انتهيت إلى موسى، فقال: ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة فى كل يوم وليلة، قال: فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك لا تطيق ذلك، وإنى قد بلوت بنى إسرائيل وخبرتهم، قال: فرجعت إلى ربى عز وجل، فقلت: أى رب خفف عن أمتى، فحط عنى خمساً، فرجعت إلى موسى، فقال: ما فعلت؟ قال: حط عنى خمساً، قال: إن أمتك لا تطيق ذلك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، قال: فلم أزل أرجع بين ربى وموسى ويحط عنى خمساً خمساً حتى قال: يا محمد هى خمس صلوات فى كل يوم وليلة بكل صلاة عشر، فتلك خمسون صلاة .. فنزلت حتى انتهيت إلى موسى، فأخبرته، فقال: ارجع إلى ربك، فاسأله التخفيف لأمتك، فإن أمتك لا تطيق ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «لقد رجعت إلى ربى حتى لقد استحييت»**(٣)

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأحمد فى مسنده (١٨٤٨٤).

(٢) حلية الأولياء لأبى نعيم الأصفهانى جـ٥/ ٣٨٠.

(٣) رواه الإمام مسلم فى صحيحه ١/ ١٤٥ رقم (١٦٢) وأحمد فى مسنده (١٢٤٤) جـ١٠/ ٤٨١، ٤٨٢ من حديث ثابت البنانى عن أنس وقد ذكره الألبانى فى ص.ج رقم (١٢٨).

ففى هذا الحديث الشريف ظهرت محبة موسى عليه السلام للرسول الأعظم محمد ﷺ فظهرت محبته وشفقته بالأمة المحمدية إنه الحب فى الله ولله فما أعظمه وليس كليم الله موسى عليه السلام وحده هو الذى أحب نبينا محمدًا ﷺ ولكن لو تتبعت حديث المعراج لوجدت أنهم جميعًا رحبوا به، ودعوا له ولأمته، وهذا يدل على الحب الربانى الذى ملأ الله به قلوبهم وأفئدتهم لحبيب القلوب محمد ﷺ كما يظهر هذا الحب أيضًا عند هذا اللقاء الأعظم فى بيت المقدس، حين صلى بهم الرسول الأعظم إمامًا ثم قام كل منهم فخطب خطبة احتفاء برسول الله ﷺ وحين التقى بخليل الرحمن فى السماء السابعة ماذا حدث؟.

يقول ﷺ: **«لقيت إبراهيم عليه السلام ليلة أسرى بى، فقال: يا محمد أقرئ أمتك منى السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»**[1] فلولا محبته لنا ولرسولنا محمد ﷺ ما أرسل إلينا بالسلام، وما نصحنا بأن نكثر من غراس الجنة، ولذلك فإن أمة محمد هى أمة الوفاء، ورسولها هو الوفاء نفسه، فنحن نرد التحية إليه التى أهداها لنا على لسان حبيبنا محمد ﷺ، فنقول فى التشهد: «كما صليت على إبراهيم...».

• حب رائع لم يشهد التاريخ بمثله •

أتدرى أخا الإسلام ما هو هذا الحب؟

إنه حب الصديق للرسول الأكرم، تأمل ماذا حدث ليلة الهجرة عند الغار.

١- لما خرج الرسول ﷺ وصاحبه وسلكا الطريق من مكة إلى غار ثور وكان نحو خمسة أميال، وهذا الجبل جبل شامخ، وعر الطريق، صعب المرتقى، ذو أحجار كثيرة، فحفيت قدما رسول الله ﷺ، وقيل: بل كان يمشى فى الطريق على أطراف قدميه كى يخفى أثره، فحفيت قدماه، وأيًا ما كان، فقد حمله أبو بكر حين بلغ إلى الجبل، وطفق يشتد به حتى انتهى به إلى غار فى قمة الجبل، عرف فى التاريخ بغار ثور[2]. ولما انتهيا إلى الغار قال أبو بكر: والله لا تدخله حتى أدخله قبلك. فإن كان فيه شىء أصابنى دونك، فدخل فكسحه، فوجد فى جانبه ثقبًا، فشق إزاره وسدها به، وبقى منها اثنان، فألقمهما رجليه، ثم قال لرسول الله: ادخل، فدخل رسول الله ﷺ ووضع رأسه فى حجره ونام، فلدغ أبو بكر من الجحر، ولم يتحرك مخافة أن ينتبه رسول الله ﷺ، فسقطت دموعه على وجه رسول الله ﷺ، فقال: مالك يا أبا بكر؟ قال: لدغت، فداك أبى وأمى، فتفل رسول الله ﷺ، فذهب ما يجده.

---

(١) رواه الترمذى وقال: حسن غريب، ورواه أحمد فى مسنده وحسنه الألبانى فى ص.ج رقم (٥١٥٢).

(٢) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى ص١٦٧

٢- وهذا موقف آخر ليس لرجل ولكنه لامرأة من الأنصار، إن دل على شيء، فإنما يدل على ذلك الحب في الله، حب منقطع النظير.

فعن محمد بن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: كانت امرأة من بني الأنصار، من بني دينار قد أصيب زوجها وأخوها وأبوها يوم أحد، فلما نُعوا لها، قالت: ما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: خيرًا، يا أم فلان. فقالت: أرونيه حتى أنظر إليه، فأشاروا لها إليه، حتى إذا رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل يا رسول الله[١]

٣- وهذا الموقف كان لصديق هذه الأمة في نهاية حياة الرسول الأعظم ﷺ، يدل على مدى الحب الخالص، الذي إذا تغلغل في القلوب، جعل المحب يخبر عن حبيبه بما يدور في عقله وقلبه، فما أجله من حب كان لله وفي الله فماذا حدث؟ يذكر لنا هذا الموقف الإمام أحمد في مسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: خطب رسول الله ﷺ الناس فقال: **«إنَّ الله عز وجل خير عبدًا بين الدنيا، وبين ما عنده. قال: فاختار ذلك العبد ما عند الله»** قال: فبكى أبو بكر رضي الله عنه فعجبنا لبكائه، أن أخبر رسول الله عن عبد خُير، وكان رسول الله هو المخير، وكان أبو بكر أعلمنا به[٢] كيف علم أبو بكر أن رسولَ الله هو المخير؟!.

إنه الحب في الله ومن أجل الله الذي جعل الرسول الأكرم ﷺ يقول: **«إنَّ أمن الناس عليَّ في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذًا من الناس خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام أو مودته، لا يبقى باب في المسجد إلا سد إلا باب أبي بكر الصديق[٣]»**.

٤- وتلكم وقفة مع خيرة البشر بعد الرسول الأعظم ﷺ، إنه حب الأنصار للمهاجرين حبًّا ملك عليهم قلوبهم بل حياتهم.

هؤلاء المهاجرون الذين قال الله فيهم **﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾** [الحشر: ٨] جاء المهاجرون بفقر، وهجرة، جاءوا بغير مال، بغير زاد لا وطن لهم لكنهم اتخذوا الإيمان وطنًا لهم هو أعز وطن، ومع ذلك فهم ينصرون الله ورسوله، وفي المقابل الأنصار الذين قال الله فيهم: **﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾** [الحشر: ٩]

---

(١) ذكره الذهبي في أول تاريخ الإسلام ١/ ١٩٦ وابن هشام في سيرته ٢/ ٩٩.

(٢) رواه أحمد في مسنده (١١٠٧٦) بإسناد حسنه حمزة الزين ١/ ٦٠ ورواه البخاري رقم ٣٦٥٦ والترمذي ٣٦٦٠ ومسلم ٢٣٨٢.

(٣) رواه البخاري ومسلم وأحمد في مسنده (١١٠٧٧) بسند صحيح.

فعن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: «لما قدمنا المدينة آخى رسول الله بيني وبين سعد بن الربيع رضي الله عنه، فقال سعد لعبد الرحمن: إني أكثر الأنصار مالاً، وسأقسم مالي بيني وبينك شطرين، ولي امرأتان، فانظر أعجبهما إليك، أطلقها فإذا انقضت عدتها تزوجتها. فقال عبد الرحمن بن عوف: بارك الله لك في أهلك ومالك، أين سوقكم؟ فدله على سوق بني قينقاع...»[1].

ماذا يستطيع القلم أن يكتب؟! وماذا يستطيع اللسان أن يقول في هؤلاء؟ أهؤلاء كانوا بشراً؟! أم كانوا ملائكة؟ إنهم ملائكة البشر، وإن قصارى ما يبلغه اللسان أو القلم أن يشير في هيبة إلى إخلاص حبهم في الله تعالى ولله.

• قطوف من رياض المحبين •

١- **قال عبد الله ابن الإمام أحمد بن حنبل**: «لما أطلق أبي من المحنة خشي أن يجيء إليه إسحاق بن راهويه، فرحل أبي إليه، فلما بلغ الريّ دخل إلى مسجد، فجاء مطر كأفواه القرب، فلما كانت العتمة قالوا له: اخرج من المسجد فإنا نريد أن نغلقه، فقال لهم: هذا مسجد الله، وأنا عبد الله، فقيل له: أيما أحب إليك أن تخرج أو نجر برجلك؟ قال الإمام: فقلت: سلامًا، فخرجت من المسجد والمطر والرعد والبرق، فلا أدري أين أضع رجلي، ولا أين أتوجه؟! فإذا برجل قد خرج من داره، فقال لي: يا هذا أين تمر في هذا الوقت؟ فقلت: لا أدري أين أمر، فقال لي: ادخل! فأدخلني دارًا ونزع ثيابي، وأعطاني ثيابًا جافة، وتطهرت للصلاة، فدخلت إلى مكان فيه كانون فحم ولبود ومائدة منصوبة، فقيل لي: كل، فأكلت معهم، فقال لي: من أين أنت؟ فقلت: أنا من بغداد، فقال لي: تعرف رجلاً يقال له: أحمد بن حنبل؟ فقلت: أنا أحمد بن حنبل، فقال لي: وأنا إسحق بن راهويه»[2].

الله أكبر إنها قلوب اتصلت بربها، فمُلِئَتْ حبًا وإخلاصًا لأنها مع الله تعالى.

٢- وقد كان الشافعي رحمه الله مؤاخيًا لمحمد بن عبد الحكم، وقد كان يقربه ويقبل عليه ويقول: ما يقيمني بمصر غيره، فاعتل محمد بن الحكم، فعاده الشافعي -رحمه الله تعالى- فقال:

مرض الحبيب فعدته	فمرضت من حذري عليه
وأتى الحبيب يعودني	فبرئت من نظري إليه

وظن الناس لصدق المودة بينهما أنه سيفوض أمر حلقته إلى محمد بن الحكم بعد وفاته، فقيل للشافعي وهو في علته التي مات فيها: إلى من نجلس بعدك يا أبا عبد الله؟.

---

(١) رواه البخاري في النكاح ٩/ ١٠١ ومسلم في النكاح أيضًا (١٤٢٧) وأبو داود مختصراً والترمذي.

(٢) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي ص٣٨٠.

فاستشرف له محمد بن الحكم وهو عند رأسه ليومئ إليه، فقال الشافعي: سبحان الله، أيشك في هذا؟ أبو يعقوب البويطي، فانكسر لها محمد، ومال أصحابه إلى البويطي مع أن محمد كان قد حمل عنه مذهبه كله، لكن البويطي كان أفضل وأقرب إلى الزهد والورع. لذلك يقول الغزالي:

واعلم أنه ليس من الوفاء موافقة الأخ فيما يخالف الحق في أمر يتعلق بالدين، بل من الوفاء له المخالفة[١].

٣- خرج إبراهيم بن أدهم -رحمه الله- في سفر، ومعه ثلاثة نفر، فدخلوا مسجداً في بعض المفاوز، والبرد شديد، وليس للمسجد باب، فلما ناموا قام إبراهيم، فوقف على الباب إلى الصباح، فقيل له: لمَ لم تنم؟ فقال: خشيت أن يصيبكم البرد، فقمت مقام الباب»[٢].

٤- وجاء رجل من السلف إلى بيت صديق له، فخرج إليه، فقال: ما جاء بك؟ قال: عليَّ أربعمائة درهم، فدخل الدار فوزنها ثم خرج فأعطاه، ثم عاد إلى الدار يبكي، فقالت زوجته: هلا تعللت عليه إذا كان إعطاؤه يشق عليك؟ فقال: إنما أبكي لأني لم أفتقد حاله، فاحتاج أن يقول لي ذلك[٣]

فأين نحن من هؤلاء؟! أين نحن من هذا الحب العظيم؟! إن عصرنا أصبح عصر المادة، عصر المصلحة، عصر النفاق والخداع، إلا من رحم ربي. فإذا ما ذكرت ذلك أمام أحد الناس، يقول لك: إنَّ الزمن قد تغير.

لكني أقول مع الشاعر الحكيم:

نعيب زماننا والعيب فينا ... وليس لزماننا عيب سوانا
وليس الذئب يأكل لحم ذئب ... ويأكل بعضنا بعضًا عيانًا

يقول ابن الجوزي:

واعلم أنه إذا علت مرتبة الأخوة وقع فداء الأخ بالنفس.

٥- وعن محمد بن داود قال: سمعت أبا بكر القرطبي وأبا عمرو الأدمي يقولان، وكانا يتآخيان في الله تعالى: خرجنا من بغداد نريد الكوفة، فلما سرنا في بعض الطريق إذ نحن بسبعين رابضين -أي واقفين- على الطريق، فقال أبو بكر لأبي عمرو: أنا أكبر منك سنًّا فدعني أتقدمك، فإن كان حادث اشتغلا بي عنك، وجزت أنت، فقال له أبو عمرو نفسي ما تسامحني بهذا، ولكن نكون جميعًا في مكان واحد، فإن كانت حادثة كنا جميعًا، فجازا جميعًا بين السبعين فلم يتحركا ومرَّا سالمين[٤]

---

(١) تهذيب إحياء علوم الدين لعبد السلام هارون ص٢٠٤.
(٢) التبصرة لابن الجوزي ٢/ ٣٠٣ ط دار ابن خلدون.
(٣) المرجع السابق ٢/ ٣٠٤.
(٤) المرجع السابق.

• أمور تزيد محبة الإخوان •

أخا الإسلام:

وهناك عدة أمور تجعل المحبة تزداد بين الإخوان منها:

١- **ما أخبرنا به طبيب القلوب سيدنا محمد ﷺ** حين قال: **«ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»**(١)

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ثلاث يصفين لك ود أخيك: أن تسلم عليه إذا لقيته أولاً، وتوسع له في المجلس، وتدعوه بأحب الأسماء إليه.

٢- **الذب عن عرضه في غيبته:** فمن الأمور التي تجلب المحبة بين الإخوان وتزيدها: الدفاع عن العرض حال الغيبة وليس ذلك فقط وإنما تقي من عذاب النار يوم القيامة: قال ﷺ: **«من ردَّ عن عرض أخيه المسلم كان حقًّا على الله عز وجل أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة»**(٢) وعن جابر بن عبد الله وأبي طلحة الأنصاريين رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ **«ما من امرئ يخذل مسلمًا في موطن ينتقص فيه من عرضه، وينتهك فيه من حرمته إلا خذله الله في موطن يحب فيه نصرته. وما من امرئ ينصر مسلمًا في موضع ينتقص فيه من عرضه، وينتهك فيه من حرمته إلا نصره الله في موطن يحب فيه نصرته»**(٣).

٣- **إدخال السرور على قلب من يحب،** أو كشف غمة، أو قضاء دين عليه: قال ﷺ: **«أحب الناس إلى الله تعالى أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلى الله عز وجل سرور يدخله على المسلم، أو يكشف عنه كربة، أو يقضي عنه دينًا، أو يطرد عنه جوعًا، ولأن أمشي مع أخ في حاجة أحب إليَّ من أن أعتكف في هذا المسجد شهرًا، ومن كف غضبه ستر الله عورته، ومن كظم غيظه، ولو شاء أن يمضيه أمضاه، ملأ الله قلبه رجاء يوم القيامة، ومن مشى مع أخيه في حاجة حتى تهيأ له أثبت الله قدمه يوم تزول الأقدام، وإن سوء الخلق يفسد العمل، كما يفسد الخل العسل»**(٤).

٤- **الزيارة في الله:** فعن كعب بن عجرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«ألا أخبركم**

---

(١) خُرج في موضع آخر في وصية (أفشوا السلام).

(٢) رواه أحمد في مسنده (٢٧٤٠٧) جـ١٨/ ٥٨٠ بإسناد حسن، وأبو نعيم في الحلية ٧/ ٢٥٦ والترمذي وحسنه (١٩٣١) والبيهقي في الشعب (١٦٨).

(٣) رواه أحمد في مسنده (١٦٣٣٢) بإسناد ضعيف وأبو داود (٤٨٨٤) وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود، ورواه أبو نعيم في الحلية ٨/ ١٨٩ والطبراني في الكبير وحسنه (٤٧٣٥) وحسنه الألباني في ص.ج (٥٦٩٠).

(٤) رواه الطبراني في الكبير والأوسط والبيهقي عن ابن عباس وصححه الألباني في الصحيحة (٩٠٦).

برجالكم من أهل الجنة؟ النبي في الجنة، والشهيد في الجنة، والصديق في الجنة، والمولود في الجنة، والرجل يزور أخاه في ناحية المصر في الجنة»[١].

وعن عبد الله بن محمد بن سليم قال: امش ميلاً صَلِّ جماعة، امش ميلين صلِّ جمعة، امش ثلاثة أميال عُدْ مريضًا، امش أربعة أميال شيع جنازة، امش خمسة أميال شيع حاجًّا، امش ستة أميال شيع غازيًا في سبيل الله، امش سبعة أميال بصدقة من رجل إلى رجل، امش ثمانية أميال أصلح بين الناس، امش تسعة أميال صل رحمًا وقرابة، امش عشرة أميال في حاجة عيالك، امش أحد عشر ميلاً في معاونة أخيك، امش بريدًا -والبريد اثنا عشر ميلا- زر أخًا في الله»[٢].

٥- **الصدق والإخلاص:** لأن الصديق والأخ متى أخلص كل منهما للآخر فداه بروحه ونفسه كما ذكرنا مع الرسول ﷺ والصديق ﷺ، ولقد تخرج في جامعتهم، جامعة الحب في الله، قسم الفداء بالنفس. أحد التابعين رحمهم الله يسمى: «إبراهيم التيمي» لله دره من محب صادق، مخلص لله جل وعلا، فقد كان مؤاخيًا لإبراهيم النخعي، قال عنه: «ما أحد ممن يتكلم أحرى أن يطلب به وجه الله من إبراهيم التيمي»[٣] ولذلك أراد الحجاج بن يوسف الثقفي أن يأخذ إبراهيم النخعي، فذهب إليه إبراهيم التيمي، فلما جاءه، فقال أريد إبراهيم، فقال: أنا إبراهيم، فأخذه وهو يعلم أنه إبراهيم النخعي، فلم يستحل أن يدل عليه، فأمر الحجاج بحبسه في الديماس ولم يكن لهم ظل من الشمس، ولا كن من البرد، وكان كل اثنين في سلسلة، فتغير إبراهيم فجاءته أمه في الحبس، فلم تعرفه حتى كلمها، فمات في السجن، فرأى الحجاج في منامه قائلاً يقول: مات في هذه الليلة رجل من أهل الجنة، فلما أصبح قال: هل مات الليلة أحد بواسط؟ قالوا: نعم إبراهيم التيمي، مات في السجن، فقال: حلمٌ نزغة من نزغات الشيطان، فأمر به فألقى على الكناسة[٤].

---

(١) رواه الطبراني في الكبير وذكره الألباني في ص.ج (٢٦٠٤).
(٢) التبصرة لأبي الفرج بن الجوزي ٢/ ٣٠١، ٣٠٢.
(٣) حلية الأولياء لأبي نعيم ٤/ ٢١٢
(٤) صفة الصفوة لابن الجوزي ٣/ ٤٤ ط دار الفكر.

الوصية رقم (٢٠)
من رأى منكم منكرًا

عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»**[1].

صدق رسول الله ﷺ

• فى رحاب هذه الوصية •

أخى الحبيب:

إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وإرشاد المسلمين إلى الحق والخير، وتحذيرهم من الوقوع فى الشر والضلال من واجبات الدين، ومن دعائمه الأساسية، بل إنه عامل من عوامل الصلاح والإصلاح فى المجتمع الإسلامى.

وهذه الوظيفة ضرورية لإقامة منهج الله تبارك وتعالى فى أرضه، ولهذا أمر النبى ﷺ المسلمين عامة أنهم إن رأوا أمراً منكراً قبيحًا يبغضه الشارع، أن ينهوا عن هذا المنكر بأى أسلوب من الأساليب التى وضحها الرسول ﷺ فى وصيته فمن الناس من يستطيع أن يغير هذا المنكر بيده مثل: الأب فى بيته، والحاكم فى دولته، ورئيس العمل فى عمله، ونحو ذلك.

ومن الناس من يستطيع أن يغير هذا المنكر بلسانه، فيكون بالوعظ والإرشاد إلى المعروف وإلى ما فيه الخير والفلاح وذلك مثل الدعاة والوعاظ، ومن آتاه الله لسانًا حكيمًا. ومنهم من لا يستطيع أن يغير لا بيده، ولا بلسانه، فعليه حينئذ أن ينكر بقلبه، فيبغض هذا الفاعل، ويتركه، بل ويبتعد عنه لفسقه وفجوره، وذلك أضعف الإيمان كما وصف النبى ﷺ، ولذلك جاء فى رواية أخرى لهذه الوصية **«ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»**.

ولذلك يقول الغزالى فى الإحياء:

إنّ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو القطب الأعظم فى الدين، وهو المهم الذى ابتعث الله له النبيين أجمعين، ولو طوى بساطه وأهمل علمه وعمله، لتعطلت النبوة، واضمحلت الديانة، وعمت الفترة، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد..[2] ومعنى أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو القطب الأعظم فى الدين أى

---

(١) رواه مسلم فى كتاب الإيمان (٤٩) وأحمد فى مسنده (١١٠١٥) ١٠/٣٦ وأبو داود رقم (٤٣٤٠) وصححه الألبانى جـ٣/٣٦ والترمذى (٢١٧٢) وقال: حسن صحيح وابن ماجه (٤٠١٣) فى الفتن.

(٢) الإحياء ٢/٣١٦ ط/ دار الغد.

هو الأصل الأصيل الذى ينبنى عليه الدين، والدين ينبنى على أربعة أصول سلوكية وعقائدية:

أولها: العقيدة السليمة الصحيحة التى تنبنى على التوحيد الخالص لله جل وعلا.

ثانيها: العمل الصالح الذى يدل على صحة سلوك صاحبه.

ثالثها: الخلق الفاضل والذى ينبع من الأعمال الصالحة.

رابعها: السلوك المهذب النبيل الذى يوضح خلق صاحبه وعمله وعقيدته.

إذن فالأمر بالمعروف ركن ركين فى أركان الدين وأصوله، فما هو المعروف وما هو المنكر؟.

• ما هو المعروف وما هو المنكر؟ •

المعروف كلمة واسعة الدلالة، فكل ما أمر الله ورسوله به يسمى فعله معروفًا، وتركه منكرًا وكل ما نهى الله عنه يسمى تركه معروفًا وفعله منكرًا.

المعروف كل ما أوجبه الشارع أو ندب إليه كالصلاة والزكاة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، وإفشاء السلام، وإكرام الضيف، والأمانة، والصدق، والعفاف، وإغاثة الملهوف ونصرة المظلوم.

وضده المنكر، وهو ما أنكره الشرع، ونهى عنه، وحذر منه، ويتمثل فى ترك الواجب، وفعل المحرم، وبعضه أشد من بعض، فأعظم المنكرات على الإطلاق الشرك بالله، ثم باقى السبع الموبقات كالقتل العمد، وقذف المحصنات، والتولى يوم الزحف، والزنا، ثم الكذب، والخيانة، والغش فى الكيل والميزان، وإخلاف الوعد، والغدر ونحو ذلك. وقد نهى الشارع الحكيم عنه لأن فيه إضرارًا بالفرد والمجتمع.

• الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى القرآن الكريم •

أخا الإسلام:

لقد نعت الله أهل الإيمان بأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فقال سبحانه:
﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ٧١] فكأن الذى هجر الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر خارج عن هؤلاء المؤمنين المنعوتين فى هذه الآية.

وقال القرطبى -رحمه الله- فى تفسيره: «جعل الله تعالى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرقًا بين المؤمنين والمنافقين. فدل على أن أخص أوصاف المؤمنين الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، ورأسها الدعاء إلى الإسلام والقتال عليه.

حتى ذكره تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنَاتُ﴾ هنا دليل على أن الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر واجب على النساء كوجوبه على الرجال حيث وجدت الاستطاعة.

وقال سبحانه: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤] فقوله: ﴿وَلْتَكُن﴾ أمر والأمر للوجوب، وقد بينت أن الفلاح مقرون به، لأنه قد حصر الأمر فى قوله: ﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ويتبين أنه فرض كفاية لا فرض عين، وأنه إذا قام به أمة سقط الفرض عن الآخرين، ولو كان فرض عين لقال: كونوا كلكم آمرين بالمعروف، بل قال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ واختص الفلاح بالقائمين به، وإن تقاعد عنه الخلق أجمعون عم الحرج كافة القادرين[١].

وقال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣، ١١٤] فلم يشهد لهم بالصلاح بمجرد الإيمان بالله واليوم الآخر، حتى أضاف إليه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

ولقد بين مولانا تبارك وتعالى أن سبب أفضلية هذه الأمة وخيريتها أنها تأمر بالمعروف، فقال سبحانه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١] لكنه لعن بنى إسرائيل بسبب كفرهم، وإتيانهم المنكرات، فقال سبحانه: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩] وهذا غاية التشديد إذ علل استحقاقهم للعنة بتركهم النهى عن المنكر، وقد نفى سبحانه الخيرية فى كثير من الأقوال إلا إذا كان أمرًا بمعروف، أونهيًا عن منكر، فقال سبحانه: ﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

والآيات فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كثيرة.

• الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى السنة المطهرة •

فعن أبى ذر رضي الله عنه أن أناسًا قالوا: يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور، يصلون كما نصلى، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم، قال: «**أو ليس قد جعل الله لكم ما تصدقون به، إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهى عن المنكر صدقة**»[٢] فقد جعل أستاذ البشرية ﷺ النهى عن المنكر صدقة من الصدقات التى يثاب صاحبها عليها.

---

(١) الإحياء ٢/ ٣١٦ ط/ دار الغد بتصرف.

(٢) رواه مسلم فى كتاب الزكاة والبخارى (٨٤٣) وفى الأدب المفرد (٢٢٧) وأحمد فى مسنده.

ولقد جعل معلم الإنسانية الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر حقًّا من حقوق الطريق، وأدبًا من آدابه، فقال في الحديث الذي رواه عنه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: **«إياكم والجلوس في الطرقات. قالوا: يا رسول الله، ما لنا بد، إنما هي مجالسنا نتحدث فيها! قال: فإن أبيتم إلا الطريق، فأعطوا الطريق حقه؟ قالوا: وما حق الطريق؟ قال: غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»**[1].

والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر يشمل النصح للمسلمين فعن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: بايعت رسول الله على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم[2].

فتأمل كيف قرن النبي ﷺ النصح، الذي هو عبارة عن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكرَ بالصلاة والزكاة، يتبين لك عظم محلها، وتأكيد وجوبها.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«ما من نبي بعثه الله تعالى في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب، يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون مالا يفعلون، ويفعلون مالا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»**[3]

الحواريون: هم أصفياء الأنبياء وأنصارهم.

فاختر لنفسك يا هذا إما أن تكون خلف الأنبياء والحواريين فتكون رفيقهم في دار القرار، أو تكون خلف الفاسقين والأشقياء فترد معهم دار البوار، إذ الساكت عن المنكر مع إمكان الإنكار شريك له في الإثم يرد مع شريكه النار، والعياذ بالله.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبيل يوصلك إلى الجنة، ففي الحديث أن أبا كثير السحيمي عن أبيه قال: سألت أبا ذر رضي الله عنه قلت: دلني على عمل إذا عمل العبد به دخل الجنة، قال: سألت عن ذلك رسول الله ﷺ، فقال: **«تؤمن بالله واليوم الآخر»** قلت: يا رسول الله إنّ عملاً؟ قال: **«يرضح مما رزقه الله»** -أي يتصدق- قلت: يا رسول الله، أرأيت إن كان فقيرًا، لا يجد ما يرضح؟ قال: **«يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر»**[4].

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، علمني عملاً يدخلني الجنة. قال: **«إن كنت أقصرت الخطبة لقد أعرضت المسألة،**

---

(١) رواه البخاري (٢٤٦٥) ومسلم. (٢) رواه البخاري (٥٧). (٣) رواه مسلم.

(٤) رواه الطبراني في الكبير ٢/١٥٦، ١٥٧، وابن حبان (٨٦٣) في صحيحه والحاكم في المستدرك ١/٦٣ وقال صحيح على شرط مسلم.

أعتق النسمة، وفك الرقبة، فإن لم تطق ذلك، فأطعم الجائع، واسق الظمآن، وأمر بالمعروف، وانه عن المنكر»[١].

ولقد جعل رسول الإنسانية سيدنا محمد ﷺ الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر من خير الناس، فعن درة بنت أبى لهب قالت: قلت: يا رسول الله، من خير الناس؟ قال: **«أتقاهم للرب -عز وجل-، وأوصلهم للرحم، وآمرهم بالمعروف، وأنهاهم عن المنكر»**[٢] بخلاف الذين يتركون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فإن رسول الله ﷺ أقسم قسمًا مؤكدًا على أن من ترك الأمر بالمعروف يكون له وعيد شديد اسمع إليه وهو يقول مهددًا متوعدًا كما رواه عنه حذيفة بن اليمان رضي الله عنه **«والذى نفسى بيده، لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أوليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابًا منه، فتدعونه، فلا يستجيب لكم»**[٣] لماذا؟ لأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فيه نجاة للمجتمع كله، ولذلك فقد شبه النبى ﷺ المجتمع الذى نعيش فيه بالسفينة المكونة من طابقين، وقد سكن بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين يسكنون الطابق الأسفل إذا أرادوا الماء مروا على من فوقهم ليحضروا الماء، فقالوا: لابد أن نخرق فى نصيبنا خرقًا حتى لانؤذى من فوقنا فماذا حدث؟ يقول ﷺ: **«مثل القائم على حدود الله، والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا»**[٤]

فانظر كيف كان الأخذ على أيدى المفسدين، والإنكار عليهم،أو منعهم مما أرادوا سببًا لنجاتهم جميعًا. والغرض من هذا التمثيل الحث على إنكار المنكر، والعمل على منعه قبل وقوعه، وفى الحديث أمور هامة منها:

١- جواز ضرب الأمثال بالمحسوسات لتقريب المعقولات إلى الأذهان.

٢- تعذيب العامة بذنوب الخاصة، واستحقاق العقوبة بسبب ترك النهى عن المنكر مع القدرة على ذلك، فيؤخذ العاصى بمعصيته والساكت برضاه، قال تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً**﴾ [الأنفال: ٢٥].

---

(١) رواه ابن حبان (١٢٠٩) وأحمد بنحوه فى مسنده (١٦٦٥١) بإسناد صحيح.

(٢) رواه البيهقى فى شعب الإيمان (٧٩٥٠) وأبو الشيخ فى كتاب الثواب وأحمد فى مسنده (٢٧٣٠٧) بإسناد صحيح.

(٣) رواه الترمذى وحسنه (٢١٦٩).

(٤) رواه البخارى (٢٤٩٣) والترمذى (٢١٧٤) وأحمد فى مسنده (١٨٣٢٤).

ولذلك يقول النبى ﷺ فى الحديث الذى رواه عنه صديق الأمة الأكبر، أبو بكر رضي الله عنه: «ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصى هم أعز وأكثر ممن يعمله، ثم لم يغيروه إلا عمهم الله تعالى منه بعقاب»[1].

وقد ذكر الإمام الغزالى آثاراً تدل على عقوبة تارك الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر منها:

١- قال أبو الدرداء رضي الله عنه: لتأمرن بالمعروف، ولتنهن عن المنكر، أو ليسلطن الله عليكم سلطانًا ظالمًا، لا يجل كبيركم، ولا يرحم صغيركم، ويدعو خياركم فلا يستجاب لهم وتستنصرون فلا تنصرون، وتستغفرون فلا يغفر لكم[2]

٢- وسئل حذيفة رضي الله عنه عن ميت الأحياء، فقال: الذى لا ينكر المنكر بيده، ولا بلسانه، ولا بقلبه[3].

٣- وقال مالك بن دينار: كان حبر من أحبار بنى إسرائيل يغشى الرجال والنساء منزله، يعظهم ويذكرهم بأيام الله عز وجل، فرأى بعض بنيه يومًا وقد غمز بعض النساء، فقال: مهلا يا بنى مهلا، فسقط عن سريره، فانقطع نخاعه، وأسقطت امرأته، وقتل بنوه[4].

٤- وأوحى الله إلى يوشع بن نون عليه السلام، أنى مهلك من قومك أربعين ألفًا من خيارهم، وستين ألفًا من شرارهم، فقال: يا رب، هؤلاء الأشرار، فما بال الأخيار؟ قال: إنهم لم يغضبوا لغضبى، وواكلوهم، وشاربوهم[5].

٥- وقال بلال بن سعد: إنّ المعصية إذا أخفيت لم تضر إلا صاحبها، فإذا أعلنت، ولم تغير أضرت بالعامة[6].

٦- وقال سيدنا على بن أبى طالب رضي الله عنه أول ما تغلبون عليه من الجهاد، الجهاد بأيديكم، ثم الجهاد بألسنتكم، ثم الجهاد بقلوبكم، فإذا لم يعرف القلب المعروف، ولم ينكر المنكر، نكس فجعل أعلاه أسفله[7]

---

(١) رواه أحمد فى مسنده (١٩١٢٧) عن جرير عن أبيه بإسناد صحيح ورواه أبو داود فى الملاحم (٤٣٣٨) وابن ماجه (٤٠٠٩) وصححه الألبانى.

(٢) إحياء علوم الدين للغزالى جـ٢/ ٣٢١ وتنبيه المغترين للشعرانى ص١ ٢ دار الكتب العلمية.

(٣) وإنما سماه ميتًا لأن هذه الأعضاء الثلاثة (اليد واللسان والقلب) إذا لم يصرف الإنسان قوتها فى هذه الطاعة العظيمة التى فرضها الله عليها، كانت كأنها معدومة، وإذا عدمت كانت بمثابة الميت. والأثر ذكره الغزالى فى الإحياء ٢/ ٣٢١ والدمشقى فى تنبيه الغافلين ص٧٧.

(٤): (٧) المرجع السابق الإحياء ٢/ ٣٢١ وتنبيه الغافلين ص٧٦ للنحاس الدمشقى.

يقول الحسن البصرى -رحمه الله-:

لقد أدركت أقوامًا كانوا آمَر النـاس بالمعروف، وآخذهم به، وأنهى الناس عن المنكر وأتركهم لـه، ولقد بقينـا فى أقوام آمر الناس بالمـعروف، وأبعدهم منـه، وأنهى الناس عن المنكر وأوقعهم فيه، فكيف الحياة مع هؤلاء؟(١)

فإذا كان الحسن البصرى رحمه الله يقول هذا الكلام عما يراه فى عصره، فماذا لو اطَّلع على العصـر الذى نعيش فيه، العـصر الذى صار فيـه المعروف منكرًا، والمنكر معـروفًا، ذلكم العصر الذى فسق فيه الشباب، وفجر فيه النساء إلا من رحم ربى؟! اللهم سلم.

• طريقة الأنبياء فى الدعوة إلى الله بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر •

١- نبى الله نوح عليه السلام:

لقد كان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من صفات أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسـلام، لأنهم قادة البـشر وقدوتـهم، وهم الأعلام الخـفاقة فـى سماء الدعـوة إلى الله تعالى، فهذا نبى الله نوح عليه السلام، يظل فى قومـه ألف سنة إلا خمسين عامًـا يدعوهم إلى المعروف، وينهـاهم عن المنكر، كما حكـى القرآن الكريم: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤] فطيلة هذه المدة اتخذ جميع أساليب الدعـوة: فدعاهم جهارًا، ودعاهم سرًا، ولم يضيع فرصة، بل واصل جهده لـيلاً ونهارًا بصبـر طويل، ومع ذلك آذوه بجميع أنواع الإيـذاء، فلجأ إلى ربه، وفوض إليه أمره، وطلب منه عونه ونصره، فجاءه نصر مولاه، لأنه بذل جميع طاقته.

٢- نبى الله إبراهيم الخليل عليه السلام:

لقد دعا قومه إلى الله تعـالى، وعلى رأسهم أبوه آزر، وتلطف له فى القول، وألان له جانبـه، وحاول معه بكـل الأساليب لكنه باء بالفـشل معه حـتى قال له: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦] دعا قـومه إلى المعروف، ونهـاهم عن المنكرات، وأعظمها شركهم بالله تعالى، وحاول معـهم بكل أساليب الإقناع والمنطق، والحجة البالغة، لكنه مـا استطاع، رغم أنـه قد حطم أصنامـهم فى القلعـة العراقـية، حتـى قال بعضـهم لبعض: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨] كانت النتيـجة معهم: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ [العنكبوت: ٢٤].

٣- كليم الله موسى عليه السلام:

لقد ظل يـدعو قومه إلى المـعروف، وينهاهم عن المـنكر، أمرهم بتـوحيده سبـحانه

---

(١) حلية الأولياء ٢/ ١٥٥

وعبادتـه، أمرهم بكل فضيـلة، ونهاهم عن كل رذيلة، واتخـذ معهم كل أسـاليب الدعوة بالرفق واللين، كما أمره ربه ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا﴾ [طه: ٤٣] قولا لينًا لماذا؟ ﴿لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ ومع ذلك سخر منه فـرعون، وهدده وتوعده: ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩] لكنه صمد، ولم يلق لذلـك كله بالاً، ولم يخف، ولـم يتوقف عـن دعوتهم، حـتى آمن معـه السـحرة، وسجدوا لله رب الـعالمين، لكن فرعـون ومن معه من المفـسدين الضالين تمادى فـي غيه، فانتقم الله منه، فأغـرقه هو ومن معه: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الزخرف: ٥٥].

٤- سيد الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ:

إنه سيد الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكـر، فلقد كان من أهم صفاته فى التوراة أنه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] فلقد بذل سيد الأولين والآخرين وسعه فى تبليغ دعوة ربه، فما رأى معروفًا إلا وأمرهم به، وما وجد منكـرًا إلا ونهاهم عنه. لقد أرسله الله على فترة من الرسل، وهفوة عن العمل، وغباوة من الأمم، فكان إمام من اتقى، وبصيرة من اهتدى.

فما أعظمك يا رسول الله، وما أعظم صبرك على سفهاء قومك!.

انظر إليه حـين جاءه شاب، يفور دم الشـباب فى وجهه، وهو يقـول له: يا رسول الله، ائذن لى بالزنا، فـصاح الناس به، فـماذا فعل نبى الرحـمة ﷺ؟ لقد قال له: «**ادْنُ منى**» فدنا حتى جلس بـين يديه، فقال ﷺ: «**أتحبه لأمك**»؟ قال: لا جعلنى الله فداك، قال: **كذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم، أتحبه لابنتك؟** قال: لا جعلنى الله فداك، قال: **كذلك الناس لا يحبونه لبناتهم، أتحبه لأختك؟** وزاد ابن عوف -أحد رواة الحديث- أنه ذكر العمـة والخالة - وهو يقول فى ذلـك كله: لا جعلنى الله فـداك» وهو يقول ﷺ: **كذلك الناس لا يحبونه**، ثم وضع النبى ﷺ يده على صدره وقال: «**اللهم طهر قلبه، واغفر ذنبه، وحصن فرجه. فلم يكن شيئًا أبغض إليه منه**»[1] يعنى الزنا.

• تأمل السلف الصالح رضوان الله عليهم •

لقد كان السلف الـصالح رضوان الله عليهم لا يفترون عن الأمـر بالمعروف، والنهى عن المنكر لأنهم علموا أنه ركن ركين فى هذا الدين، ومنهم:

---

(١) رواه أحمـد فى مسنده (٢٢١١٢) بإسنـاد صحيح. وقـال العراقى فى تخـريج الإحياء: رواه أحـمد بإسناد جيد ورجاله رجال الصحيح.

١- سفيان الثوري:

يقول أحد أتباعه: «كنت أخرج مع سفيان الثوري. فما كاد لسانه يفتر عن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر ذاهبًا وراجعًا»[١].

وكان -رحمه الله- يخرج إلى السوق ليأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر[٢].

وكان لا يعبأ أن يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر ولو كان للسلطان، فقد حكى أن سفيان الثوري -رحمه الله- قال: دخلت على أبي جعفر المنصور بمنى، فقال: ارفع إلينا حاجتك. فقلت له: اتق الله قد ملأت الأرض ظلمًا وجورًا.

قال: فطأطأ رأسه، ثم رفعه، وقال: ارفع إلينا حاجتك.

فقلت: إنما أنزلت هذه المنزلة بسيوف المهاجرين والأنصار، وأبناؤهم يموتون جوعًا، فاتق الله، وأوصل إليهم حقوقهم.

قال: فطأطأ رأسه، ثم رفعه، فقال: ارفع إلينا حاجتك.

فقلت: حج عمر بن الخطاب ﷺ فقال لخازنه: كيف أنفقت؟ قال: بضعة عشر درهما. وأرى ها هنا أموالاً لا تطيقها الجبال.

فهذا كلام الثوري لأبي جعفر، وقوله: ملأت الأرض ظلمًا وجورًا، فكيف لو رأى زماننا[٣] وأهله.

٢- عطاء بن أبي رباح:

وعن الأصمعي قال: دخل عطاء بن أبي رباح على عبد الملك بن مروان، وهو جالس على سريره، وحواليه الأشراف من كل بطن، وذلك في مكة، في وقت حجه، في خلافته، فلما نظر إليه قام وأجلسه معه على السرير، وقعد بين يديه، وقال له:

يا أبا محمد ما حاجتك؟ قال: يا أمير المؤمنين: اتق الله في حرم الله، وحرم رسوله، فتعهده بالعمارة، واتق الله في أولاد المهاجرين والأنصار، فإنك بهم جلست هذا المجلس، واتق الله في أهل الثغور، فإنهم حصن المسلمين، وتفقد أمور المسلمين، فإنك وحدك المسئول عنهم، واتق الله فيمن على بابك فلا تغفل عنهم، ولا تغلق بابك دونهم، فقال: أفعل. ثم نهض وقام، فقبض عليه عبد الملك، فقال: يا أبا محمد، إنما سألتنا حاجة لغيرك، وقد قضيناها فما حاجتك؟ فقال: ما لي إلى مخلوق حاجة، ثم خرج. فقال عبد الملك: هذا وأبيك الشرف، هذا وأبيك الشرف[٤].

---

(١) حلية الأولياء ٧/ ١٣ (٢) تنبيه المغترين للشعراني ص٢٠١.

(٣) تنبيه الغافلين للدمشقي ص٤٦ ط/ المكتبة العصرية بيروت.

(٤) المرجع السابق ص٤٨ والإحياء ٢/ ٣٥٧، ٣٥٨ ط/ دار الغد.

٣- العز بن عبد السلام:

ورحم الله سلطان العلماء -عز الدين بن عبد السلام- حين طلع إلى السلطان (أيوب الملك الصالح) في يوم عيد إلى القلعة، فشاهد العسكر مصطفين بين يديه، ونظر إليه وهو في أبهته، وقد خرج على قومه في زينته، وأخذت الأمراء تقبل الأرض بين يدى السلطان، فالتفت الشيخ إلى السلطان وناداه: يـا أيوب، ما حجتك عند الله، إذا قال لك: ألم أبوئ لك ملك مصر، ثم تبيح الخمور؟! فقال: هل جرى ذلك؟ فقال: نعم، الحانة الفلانية يباع فيها الخمـور وغيرها من المنكرات، وأنت تتقلب في نعيم هـذه المملكة؟ يناديه هكذا بأعلى صوته، والعساكر واقفون فقال: يا سيدى، هذا ما عملته أنا، هذا من زمان أبى، فقال له: أنت من الذين قال الله فـيهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢] فرسم السلطان بإبطال تلك الحانية.

قال الباجى: سألت الشيخ لما جاء من عند السلطان، وقد شاع الخبر: يا سيدى كيف الحال؟ فـقال: رأيته في تلك الـعظمة، فأردت أن أهينه، لـئلا تكبر عليـه نفسه، فـتؤذيه. فقلت: يا سيـدى، أما خفته؟ فقال: والله، يا بنى اسـتحضرت عظمة الله وهيبـته، فصار السلطان أمامى كالقط[١].

• مراتب تغيير المنكر[٢] •

المرتبة الأولى: تغييره باليد:

فما معنى أن تغير المنكر بيدك؟ معـناه: أن تغير بيدك شريطة ألا يؤدى إلى مفسدة أو منكر أشد منه، وليست هذه المرتبة خاصـة بالحكام فقط، وإنما هى عامة، فالأب سلطان فى بيته، ومن الممكن إذا رأيت منكرًا وتريد أن تغيـره بيدك، فإنك تستطيع أن تكتب رسالة إلى الجهات المسـئولة عن هذا الأمر، وكل جهة على حـسب تخصصها، فتـقوم هذه الجهة المسئولة بإزالة هذا المنكر أو تلك المخالفة حسب ما تقتضيه الحالة.

ألا ترى معى أن الطائر الموحد «هدهد سليمان» كان مصيبًا يوم أن رأى بلقيس ملكة سبأ تعبـد الشمس وقومها من دون الله، ماذا فعـل؟ وماذا كان دوره؟ وهذا المنكر الذى رآه الهدهد منكران؟ **الأول:** الشرك بالله، وهو من أعظم المنكرات.

الثانى: كونهم قد جعلوا امـرأة ملكة عليهم، والنبى ﷺ يقول: «**ما أفلح قوم ولوا أمرهم امرأة**»[٣] وهذا انتكاس للفطرة، لقد تحرك الهدهد لإزالة هذا المنكر فور رؤيته بإبلاغ سلطات المملكة السليمـانية، فقال: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا

---

(١) الجزاء من جنس العمل.

(٢) انظر من وصايا القرآن للمؤلف جـ٢/ ٨٩٩- ٩٠٣.

(٣) رواه البخارى عن أبى بكرة.

عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ [النمل: ٢٣، ٢٤] وهنا يعلن الهدهد براءته من هذا المنكر، وتلك العقيدة الفاسدة، فيقول: ﴿أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النمل: ٢٥، ٢٦] أتعجز أن تكون مثل هذا الهدهد، ذلكم الطائر الأعجم الذى تصرف بعقل وحكمة؟.

أخا الإسلام:

ليس من حقك أن تعتدى على إنسان فعل منكرًا فتضربه بيدك، وإلا أصبح المجتمع فوضى، فكل إنسان يضرب إنسانًا ويقول: أنا ضربته لأنه كان يفعل منكرًا.

أو يقتل إنسانًا آخر، ويقول: إنه فعل منكرًا، ولكن كن فطنًا حكيمًا.

المرتبة الثانية: باللسان:

إن لم تقدر على أن تغير بيدك، فانصح بلسانك، عظه بكلمة طيبة، فالدين النصيحة، لكن كيف تنصحه؟ انصحه بلطف وحلم، ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وللنصيحة آداب منها:

١- **أن لا تنصحه أمام الناس علانية، فلا تقل له أمامهم:** أنت تارك للصلاة، وتارك الصلاة ملعون، أو كافر، أو تقول له: أنت تسرق أموال الناس، بل قل له قولاً لينًا، لأنك لو قلت له ذلك، فإنك حينئذ تشهر به، وتفضحه، ولذلك قيل: «من نصح أخاه سرًّا فقد نصحه وزانه، ومن نصحه جهرًا فقد فضحه وشانه» والإمام الشافعى -رحمه الله- له كلام طيب فى هذا المعنى حيث يقول:

تعهدنى بنصحك فى انفرادى — وجنبنى النصيحة فى الجماعه
فإن النصح بين الناس نوع — من التوبيخ لا أرضى استماعه
وإن خالفتنى وعصيت قولى — فلا تجزع إذا لم تعط طاعه[1]

وكان سيد الخلق ﷺ إذا ما أراد أن ينصح آخرين علانية قال: «**ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا..**»[2] ولذلك تعلم الصحب الكرام من جامعة أخلاقه الحلم، واللطف والأخلاق الكريمة الطيبة.

فقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه جالسًا ذات يوم مع الناس، فأخرج رجل منهم ريحًا، فقال عمر: عزمت على صاحب هذا أن يتوضأ.

وكان جرير بن عبد الله البجلى حاضرًا، فأحب أن ينقذ صاحب هذا الريح من الحرج فقال: يا أمير المؤمنين، لو تعزم علينا جميعًا أن نتوضأ، فأعجب عمر بالرأى الذى

(١) ديوان الشافعى ص٣٦.
(٢) رواه البخارى.

أشار به جرير ﷺ وقال له: جزاك الله خيرًا، وأمر الناس جميعًا أن يتوضئوا، ونجا صاحب الريح بفضل نصيحة جرير ﷺ.

٢- **أن يكون النصح بالكلمة الرقيقة المهذبة**، قال سبحانه: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

فلله در الخليل بن أحمد، عندما رأى أن أحد تلامذته يشكو إليه صعوبة علم العروض والقافية -مع أن الخليل بن أحمد- هو مخترع علم العروض والقافية ومؤسسه- فلما رأى ميول هذا التلميذ لا تتفق مع هذا العلم، أراد أن ينصحه لكى يترك هذا العلم، ويتجه إلى دراسة علم آخر، فهداه عقله إلى أن يقول للتلميذ سؤالاً، يطلب منه أن يجيبه بقصد أن يبلغه النصيحة بطريقة تربوية علمية، دون حرج، فقال له: قطع هذا البيت من الشعر، وزنه، وأنشأ يقول:

إذا لم تستطع شيئًا فدعه وجاوزه إلى ما لا تستطيع

ففهم تلميذه نصيحته، وترك هذا العلم، ودرس علم النحو، حتى صار فيه من الأعلام.

المرتبة الثالثة: الإنكار بالقلب:

وهذه المرتبة إنما تكون لمن لا يستطيع أن يقاوم المنكر بيده، ولا بلسانه، لأنه ليس عنده القدرة على التعبير والبيان، فيخاف أن يرتكب خطأ إذا وعظ بلسانه، فماذا يفعل؟ أقل شيء أن ينكر بقلبه، يقول ابن مسعود ﷺ: «بحسب المرء إذا رأى منكرا لا يستطيع تغييره، أن يعلم الله من قلبه أنه كاره له»[(١)]

وعن العرس بن عميرة الكندى عن النبى ﷺ قال: «**إذا عملت الخطيئة فى الأرض، كان من شهدها فكرهها كان كمن غاب عنها، ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها**»[(٢)].

إذن فليس الإنكار بالقلب أن يكون موقفك سلبيًا، وإنما يجب عليك أن تكره ذلك بقلبك، ولا تجلس مع هؤلاء الذين يفعلون المنكر.

قال مالك بن دينار: أوحى الله إلى ملك من الملائكة: أن اقلب مدينة كذا، وكذا على أهلها، قال: يا رب، إن فيهم عبدك فلانا الصالح، لم يعصك طرفة عين، فقال: اقلبها عليه وعليهم، فإن وجهه لم يتمعر ساعة فىّ قط[(٣)].

وإياك أن تفهم قول الله عز وجل فى سورة المائدة فهمًا خاطئًا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥].

---

(١) تنبيه الغافلين للنحاس الدمشقى ص٢٣

(٢) رواه أبو داود وحسنه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود (٤٣٤٥) جـ٣/٣٨ والمشكاة برقم ٥١٤١.

(٣) تنبيه الغافلين للنحاس الدمشقى ص٧٧ وقد رواه الطبرانى والبيهقى من حديث جابر مرفوعًا.

فعن قيس، قال: قال أبو بكر بعد أن حمد الله وأثنى عليه: يا أيها الناس، إنكم تقرءون هذه الآية وتضعونها على غير مواضعها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥] وإنا سمعنا النبى ﷺ يقول: **«إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه، أوشك أن يعمهم الله بعقاب»**(١) لكن ماذا نفعل وقد صرنا فى عصر كلٌ قد اتبع هواه، وأعجب برأيه، وآثر دنياه على أخراه؟ ماذا نفعل وقد أطلت الفتن برأسها؟ لقد سأل هذا السؤال قبلك صحابى جليل هو عبد الله بن عمرو بن العاص سأله لأستاذ البشرية عندما قال: **«إذا رأيتم الناس قد مرجت عهودهم، وخفت أماناتهم، وكانوا هكذا»** وشبك بين أصابعه قال عبد الله: فقمت إليه فقلت: كيف أفعل عند ذلك جعلنى الله فداك؟! قال: **«الزم بيتك، واملك عليك لسانك، وخذ بما تعرف، ودع ما تنكر، وعليك بأمر خاصة نفسك، ودع عنك أمر العامة»**(٢).

• شروط الآمر بالمعروف، والناهى عن المنكر •

يقول الإمام ابن تيمية:

لابد للآمر بالمعروف والناهى عن المنكر من أمور ثلاثة: **«العلم، والرفق، والصبر»** لأن بالعلم تعرف الأمر، وتكون معك الحجة القوية التى تقنع بها، وترد بها، ولأن الرفق واللين، يمكنانك من الوصول إلى بغيتك، فكلما كانت النصيحة كذلك أنتجت ثمارها، وآتت أكلها الطيب.

لقد جلس النعمان بن المنذر -ملك العراق- تحت شجرة متنزهًا يشرب الخمر، فأراد «عدى بن زيد» - وكان حكيمًا - أن يعظه بلفظة دون أن يحرجه، فقال: أيها الملك، أتدرى ماذا تقول هذه الشجرة، قال الملك: ماذا تقول؟ قال عدى: تقول:

ربّ ركب قد أناخوا حولنا ... يمزجون الخمر بالماء الزلال
ثم صاروا لعب الدهر بهم ... وكذا الدهر حالاً بعد حال(٣)

فتنغص النعمان وترك الخمر.

فتأمل أخى الحبيب، كيف عالج «عدى بن زيد» هذا المنكر بحكمة وأدب، وبأسلوب مهذب.

---

(١) رواه أبو داود وصححه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود برقم (٤٣٣٨) جـ٣/ ٣٥، ٣٦.

(٢) صحيح سنن أبى داود (٤٣٤٣) جـ٣/ ٣٧ وقال الألبانى حسن صحيح وذكره فى السلسلة الصحيحة (٢٠٥).

(٣) نقلاً من كتاب (من وصايا القرآن للمؤلف) ٢/ ٩٠٢ التوفيقية.

اللين والرفق:

وقد علمنا إياه سيد الخلق ﷺ، وذلك حين دخل أعرابى مسجده المبارك، فجلس فى ناحية منه، وأخذ يبول فيه، ولما رآه بعض الصحابة -رضوان الله عليهم- هموا بضربه وإخراجه، فماذا فعل النبى ﷺ؟ لقد عالج الأمر بالرفق واللين، فقال لهم: **«لا تذرموه - أى لا تقطعوا عليه بولته- وأريقوا عليه سجلاً من ماء، فإنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين»**[1].

قال حماد بن سلمة: إن صلة بن أشيم، مر عليه رجل قد أسبل إزاره، فهمَّ أصحابه أن يأخذوه بشدة، فقال: دعونى أنا أكفيكم، فقال له: يابن أخى، إنَّ لى إليك حاجة، قال: وما حاجتك يا عمّ؟ قال: أحب أن ترفع من إزارك، فقال: نعم، وكرامة. فرفع إزاره، فقال لأصحابه: لو أخذتموه بشدة لقال: لا، ولا كرامة وشتمكم[2]. فلو رأيت إنسانًا مثلاً يجمع الصلوات الخمس كلها ليلاً، أو متى وجد الفراغ، لشغله عنها، فينبغى أن تتلطف فى الموعظة والتعليم، فتقول له مثلاً: أنا أعلم أنك مشغول عن التعلم بتحصيل رزقك، والسعى على أولادك، وأنت كالمعذور فى صلاتك هذه، ولكن أخى لا يعذر أحد بترك العلم خاصة فى أمور دينه، فإن الله تعالى يقول: ﴿**فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ**﴾ [الأنبياء: ٧] وصلاة المسئ والمحسن وقتها متقارب، والصلاة موقوتة، والعلماء كلهم متفقون على أن الإنسان لا يجوز له أن يخرج الصلاة عن وقتها عمدًا، ولقد كنا مثلك، ولكن العلماء أرشدونا، وعلمونا، والمرء لا يولد عالمًا، ونحو ذلك، ليحصل المقصود.

دخل رجل على الخليفة «المأمون» فلما أذن له بالدخول، ودخل وحياه، ثم أخبره بأنه ما حضر إليه إلا ليعظه، ويبصره بعيوبه، وينصحه فتكلم بلهجة حادة، ويقول غليظ فتعجب المأمون منه، حيث لم يقدم له النصيحة برفق ولين، فقال له:

يا رجل: ارفق فقد بعث الله من هو خير منك إلى من هو شر منى، فتعجب الرجل، وتساءل عن الذى بعثه الله ناصحًا وهو خير منه، إلى من هو شر من الخليفة؟

فقال له المأمون: بعث الله موسى وأخاه هارون إلى فرعون، وقال لهما: ﴿**فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ**﴾ [طه: ٤٤].

الإخلاص من شروط الآمر بالمعروف:

فإذا ما اطلع مولاك على قلبك فوجد فيه الإخلاص، ومراقبته تعالى، وفقك لإزالة هذا المنكر، فقد ذكر ابن الجوزى فى التبصرة: «أن إبراهيم الخواص خرج يومًا لإنكار منكر، فنبح عليه كلب، فما قدر على الوصول إلى مكان المنكر، فرجع إلى مسجده، وتفكر ساعة، وعقد النية على الإخلاص، ثم قام، فجعل الكلب يتبصبص حوله، ولا

---

(١) رواه البخارى.

(٢) الإحياء ٢/ ٣٤٦ وتنبيه الغافلين للنحاس الدمشقى ص٣٧.

يؤذيه، حتى أزال المنكر، فسئل عما جرى له، فقال: إنما نبح عليّ لفساد دخل عليّ فى عقد بينى وبين الله عز وجل، فلما رجعت ذكرته، فاستغفرت منه»(١)

الأفضل أن تكون قدوة:

من الأفضل أن تكون قدوة حسنة حتى لا تكون مذمومًا كما ذم الله علماء بنى إسرائيل، لأنهم كانوا يأمرون بالمعروف ولايفعلونه، وينهون عن المنكر ولم ينتهوا عنه، قال سبحانه: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤] فإذا ما كنت قدوة كان ذلك أسرع فى سماع قولك، ففى العام السادس الهجرى، خرج الرسول ﷺ هو وأصحابه لأداء العمرة، لكن كفار مكة منعوهم من دخول مكة، حتى تم عقد صلح الحديبية وكان من بنوده: أن يرجع المسلمون هذا العام، وغير ذلك من الشروط القاسية التى لم تعجب الصحابة رضوان الله عليهم، مما أثار حفيظتهم، فغضبوا غضبًا شديدًا، لدرجة أن رسول الله ﷺ أمرهم بحلق رءوسهم، وذبح هديهم، لكنهم لم يمتثلوا، وتأخروا فى تنفيذ الأمر، فغضب النبى ﷺ، ودخل على أم سلمة، وقال لها: «**يا أم سلمة، ماشأن الناس، أمرتهم فلم يستجيبوا؟**»(٢) فأشارت عليه أن يقوم، ولا يتكلم مع أحد، ويذبح، ويحلق، فخرج النبى ﷺ وفعل ذلك، فقام الناس، وحلقوا رءوسهم وذبحوا هديهم.

لما كان النبى ﷺ هو القدوة والمثل، امتثل أصحابه واقتدوا به.

ورحم الله القائل:

يا أيها الرجل المعلم غيره ... هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذى السقام ... وذى الضنا كى ما يصح به وأنت سقيم
وتراك تصلح بالرشاد عقولنا ... أبدًا وأنت من الرشاد عديم
ابدأ بنفسك فانهها عن غيها ... فإذا انتهيت عنه فأنت حكيم
فهناك يُسمع ما تقول ويشتفى ... بالقول منك وينفع التعليم
لا تنه عن خلق وتأتى مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم(٣)

قال الحسن البصرى -رحمه الله-: إذا كنت ممن يأمر بالمعروف، فكن ممن أخذ الناس به، وإلا هلكت. وقد قيل:

لا تلم المرء على فعله ... وأنت منسوب إلى مثله
من ذم شيئًا وأتى مثله ... فإنما يزرى على عقله(٤)

---

(١) التبصرة لابن الجوزى ٢/ ٣٣١ ط ابن خلدون.
(٢) رواه البخارى.
(٣) من شعر أبى الأسود الدؤلى، صاحب علم النحو.
(٤) الإحياء ٢/ ٣٤٥ وتنبيه الغافلين للنحاس الدمشقى ص٤٥.

أن يكون الآمر بالمعروف عالمًا بما يأمر صابراً:

قال سبحانه: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨] قال ابن القيم: لا يكون الرجل من أتباع النبى حقًّا حتى يدعو إلى ما دعا إليه النبى ﷺ على بصيرة.

وعليه أن يوطن نفسه على الصبر، ولذلك أوصى بعض السلف بنيه فقال: «إن أراد أحدكم أن يأمر بالمعروف، فليوطن نفسه على الصبر، وليثق بالثواب من الله، فمن وثق بالثواب من الله لم يجد مس الأذى».

شروط تغيير المنكر:

يشترط لتغيير المنكر أمور منها:

١- **أن يكون هذا المنكر محرمًا مجمعًا عليه**، مثل الكبائر المنصوص عليها فى القرآن الكريم أو السنة لقوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١] فلابد أن يكون المنكر فى درجة «المحرم» وأن يكون منكرا شرعيًّا حقيقيًّا، أى ثبت إنكاره بنصوص الشرع المحكمة، أو قواعده القاطعة، إذن لا يدخل فيه المكروهات، أو ترك السنن، والمستحبات.

أما ما اختلف فيه العلماء المجتهدون قديمًا أو حديثًا بين مجيز ومانع، فلا يدخل دائرة المنكر الذى يجب تغييره باليد وخصوصًا للأفراد.

٢- **الشرط الثانى: ظهور المنكر**: أى يكون ظاهرًا مرئيًّا، أما ما استخفى به صاحبه عن أعين الناس، وأغلق عليه بابه، فلا يجوز لأحد التجسس عليه، وهذا يدل عليه لفظ الحديث الذى فى الوصية. «**من رأى منكم منكرًا فليغيره..**» فقد ناط التغيير برؤية المنكر ومشاهدته، ولم ينطه بالسماع عن المنكر من غيره.

وهذا لأن الإسلام يدع عقوبة من استتر بفعل المنكر، ولم يتبجح به إلى الله تعالى، فهذا يحاسبه فى الآخرة، ولم يجعل لأحد عليه سبيلاً فى الدنيا، حتى يبدى صفحته، ويكشف ستره. حتى أن العقاب الإلهى ليخفف كثيرًا على من استتر بستر الله، ولم يظهر المعصية، كما فى الحديث الصحيح: «**كل أمتى معافى إلا المجاهرين**»[1] لهذا لم يكن لأحد سلطان على المنكرات الخفية، وفى مقدمتها معاصى القلوب من الرياء والنفاق والكبر والحسد والشح، والغرور ونحوها، وإن اعتبرها الدين من أكبر الكبائر، مالم تتجسد فى عمل ظاهر، وذلك لأننا أمرنا أن نحكم بالظواهر، ونكل إلى الله تعالى السرائر[2]

(١) رواه البخارى. (٢) فتاوى معاصرة للدكتور يوسف القرضاوى ٢/ ٦٨٧ بتصرف ط/ دار الوفاء.

فكل من ستر معصية فى داره وأغلق بابه لا يجوز أن يتجسس عليه، وقد نهى الله تعالى عنه، وقد روى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه تسلق دار رجل فرآه على حالة مكروهة، فأنكر عليه، فقال: يا أمير المؤمنين إن كنت أنا قد عصيت الله من وجه واحد فأنت قد عصيته من ثلاثة أوجه، فقال: وما هى؟ فقال: قد قال الله تعالى: ﴿**ولا تجسسوا**﴾ وقد تجسست، وقال تعالى: ﴿**وأتوا البيوت من أبوابها**﴾ وقد تسورت من السطح، وقال: ﴿**لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها**﴾ وما سلمت، فتركه عمر، وشرط عليه التوبة. ولذلك شاور عمر الصحابة رضي الله عنهم، وهو على المنبر، وسألهم عن الإمام إذا شاهد بنفسه منكرًا، فهل له إقامة الحد فيه، فأشار علىٌّ رضي الله عنه، بأنَّ ذلك منوط بعدلين، فلا يكفى فيه واحد[1]

٣- **الشرط الثالث: عدم خشية منكر أكبر منه:** أى ألا يخشى من أن يترتب على إزالته بالقوة منكرًا أكبر منه كأن يكون سببًا لفتنة تسفك فيها دماء الأبرياء، وتنتهك فيها الحرمات، وتنتهب فيها الأموال، وتكون العاقبة، أن يزداد المنكر تمكنًا، ويزداد المتجبرون تجبرًا وفسادًا فى الأرض.

ولهذا قرر العلماء مشروعية السكوت على المنكر مخافة ما هو أنكر منه، وأعظم ارتكابًا لأخف الضررين، واحتمالاً لأهون الشرين[2]

«لطيفة:»

لما قدم سليمان بن عبد الملك المدينة، أرسل إلى أبى حازم فدعاه، فلما دخل عليه، قال له سليمان: يا أبا حازم، ما لنا نكره الموت؟ قال: لأنكم خربتم آخرتكم وعمرتم دنياكم، فكرهتم أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب، فقال: أى المؤمنين أكيس؟ قال: رجل عمل بطاعة الله، ودعا الناس إليها. قال: فأى المؤمنين أخسر؟ قال: رجل أخطأ فى هوى أخيه وهو ظالم، فباع آخرته بدنيا غيره. قال سليمان: ما تقول فيما نحن فيه؟ قال: أو تعفينى؟ قال: لا، ولكن نصيحة تلقيها إلىَّ، قال: يا أمير المؤمنين، إن آباءكم قهروا الناس بالسيف، وأخذوا هذا الملك عنوة من غير مشورة من المسلمين، ولا رضًى منهم حتى قتلوا منهم مقتلة عظيمة، وقد ارتحلوا، فلو شعرت ما قالوا، وما قيل لهم؟! فقال له رجل من جلسائه: بئسما قلت.

قال أبو حازم: إن الله تبارك وتعالى قد أخذ الميثاق على العلماء ليُبيننَّه للناس ولا يكتمونه، فقال: كيف لنا أن نصلح هذا الفساد؟.

---

(١) الإحياء جـ٢/ ٣٣٥، ٣٣٦ وتنبيه الغافلين عن أعمال الجاهلين ص٣٠.

(٢) فتاوى معاصرة للقرضاوى ٢/ ٦٩٠

فقال: أن تأخذ من حله فتضعه في حقه. فقال سليمان: ومن يقدر عليه؟

قال: من يطلب الجنة، ويخاف النار. فقال: ادع لي.

قال أبو حازم: اللهم إن كـان سليمان وليك فيسر له خيـر الدنيا والآخرة، وإن كان عدوك فخذ بناصيته إلى ما تحب وترضى.

فقال سليـمان: أوصنى، قال: عظِّم ربك، ونزهه أن يراك حيث ينـهاك، أو يفقدك حيث أمرك(١).

•موعظـة•

أخا الإسلام:

اعلم بأن كل مسلـم ومسلمة على وجه هذه البـسيطة يجب عليه أن يأمـر بالمعروف وينهـى عن المنكر، وأن يتـحـرك لأجل دين الله على حـسب قدرتـه واستطـاعتـه، ليس بالضرورة أن ترتقى منبرًا، أو تجلس فى مسجد لتلقى محاضرة، أو خطبة، لكن من الممكن أن تأمـر بالمعـروف وتنهى عن المنـكر فى أى مكان، ولـتكن البـداية من بيـتك مع أولادك وزوجتك وأسرتك، ثم انطلق من مكان عملك فإن كنت مدرسًا فحول الإسلام فى فصلك إلى منهج حيـاة، إن كنت طبيبًا فحـول الإسلام فى حياتك إلى عمل، وإن كنـت مهندسًا فحول الإسلام فى عملك إلى منهج حياة.

إن كنت موظفًا راقب ربك فى عملك، فى سرك، فى علانيتك، لا تتقاضَ الرشوة، لا يكن فى عملك محسوبية.

فرغ شيئًا من وقتك ولو ساعة فى الدين لدين الله، تفـهمه فهمًا صحيحًا على أيدى العلماء والدعاة المخلصـين، تعلم عقيدتك الصحيحة، تـعلم وتدبر كيف ربى رسولنا ﷺ هذه الأمة؟! تعلم الصلاة وأركانها، وهيئاتها، ومبطلاتها، وقف على أسرارها.

تعلم فـرائض الإسلام، تعلم البـيوع إن كنت تاجـرًا، اقرأ سيـرة رسول الله ﷺ، وسيرة الصـحابة وسيرة السلف الصـالح لتقتدى بهم، احفظ كـل يوم ولو آية من القرآن، تعلم سنة النبى الأمين، فإن مَنَّ الله عليك بالنور، فانقله إلى غيرك من المسلمين، وبلغ عن رسول الله، كما أمرك: «**بلغوا عنى ولو آية، وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج..**»(٢).

اللهم إليك نمد أكف الفـاقة والافتقار، ونسـألك أن تمحو من صحائفـنا ما سُطر من الأوزار، ربنا تقبل توبتنا، واقبل حوبتنا، واغفر ذنوبنا، واستر عيوبنا، وقولنا بحفظك، ولا تخزنا يوم الدين يا رب العالمين.

---

(١) تنبيه الغافلين للدمشقى ص٤٨.

(٢) رواه البخارى.

الوصية رقم (٢١)
إياك والالتفات فى الصلاة

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له: «**يا بنى، إياك والالتفات فى الصلاة**» وفى رواية: «**فإن الالتفات فى الصلاة هلكة**»(١)

صدق رسول الله ﷺ

• فى رحاب هذه الوصية •

هذه الوصية المباركة من أب رحيم، إلى ابن كريم، من رسول البشرية ﷺ إلى خادمه أنس بن مالك رضي الله عنه، لذلك صدر النبى ﷺ وصيته بقوله: «**يا بنى**» فقد جعله بمنزلة الابن، وهذا الأسلوب فيه الشفقة والرحمة والخوف على المخاطب ثم بعد ذلك حذره من الالتفات فى الصلاة، لأن الالتفات فيها إنما هو من الشيطان، والشيطان من ألد أعداء المسلم، لذلك يقول النبى ﷺ فى الحديث الذى روته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عندما سئل النبى عن الالتفات فى الصلاة فقال: «**هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد**»(٢).

والعبد المؤمن حين يقف بين يدى مولاه جل وعلا لابد أن يكون خاشعًا لمولاه، فقد وصف الله سبحانه وتعالى صلاة الخاشعين بقوله تعالى: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ...**﴾ [المؤمنون: ١، ٢] أى خاضعون أذلاء بين يدى الله عز وجل إذا قاموا فى الصلاة، والخشوع هو خضوع القلب لله عز وجل، وقيل: الخشوع هو النظر موضع السجود، دون أن يلتفت يمينًا ولا يسارًا، يقول النبى ﷺ: «**لا يزال الله مقبلاً على العبد فى صلاته ما لم يلتفت فإذا التفت صرف وجهه عنه**»(٣)

• كيف تخشع فى الصلاة؟ •

أخا الإسلام:

إنك إذا ما دخلت المسجد، فخلعت نعليك، فاخلع الدنيا معهما، وخاطب نفسك، وقل لها: لقد انشغلت بالدنيا عن الله فترة من الزمن، فدعينى أتفرغ لعبادة ربى ساعة، فلا تجعلها فى قلبك، فلقمان الحكيم يقول لابنه: «**إن الدنيا بحر عميق، وقد هلك فيه الأولون والآخرون فإن استطعت فاجعل سفينتك تقوى الله، وعدتك التوكل على الله، وزادك العمل الصالح، فإن نجوت فبرحمة الله، وإن هلكت فبذنوبك**»(٤).

---

(١) رواه الترمذى وصححه (٥٨٩) فى أبواب الصلاة والبغوى فى شرح السنة (٣/ ٢٥٣) وهو حديث حسن لأن فيه على بن زيد بن جدعان.

(٢) رواه البخارى فى الأذان وأبو داود (٩١٠) فى الصلاة وأحمد فى مسنده.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) العقد الفريد لابن عبد ربه ٢/ ٣٤٦ ط/ دار الأندلس بيروت.

قيل للشافعي -رحمه الله-: كيف تصلي؟

قال: إذا وقفت أمام الله عز وجل تصورت الدنيا كأنها كرة، ثم قسمتها نصفين، فجعلت نصفها على ظهر يدى اليمنى، ونصفها الآخر على ظهر يدى اليسرى، فإذا رفعت يدى للتكبير، وقلت: الله أكبر.. رميت هذه الدنيا خلف ظهرى، وأقبلت إلى الله بقلبي. فلله درك يا شافعى حين نصحت أحد تلامذتك، فقلت له: «كن فى الدنيا زاهدًا، وفى الآخرة راغبًا، واصدق الله فى جميع أمورك تنج مع الناجين» لله درهم فروا من الدنيا إلى الله، ونحن نفر من الله إلى الدنيا، كانوا يسخرون من الشيطان، فأصبح الشيطان يسخر منا.

فإذا ما استقبلت القبلة فقد صرفت وجهك عن الجهات كلها إلى جهة بيت الله الحرام، فاصرف قلبك إلى مولاك، الذى يقول لك بلسان الحال: هب لى من قلبك الخشوع، ومن نفسك الخضوع، ومن عينيك الدموع، وسلنى فأنا القريب المجيب.

ثم تقف معتدلاً لتكبر تكبيرة الإحرام، فتقول: «الله أكبر».

يقول ابن القيم:

إن للعبد بين يدى الله موقفين: موقف بين يديه فى الصلاة، وموقف بين يديه يوم لقائه، فمن قام بحق الموقف الأول هون عليه الموقف الآخر، ومن استهان بهذا الموقف ولم يوفه حقه شدد عليه ذلك الموقف(١)

لكن لماذا «الله أكبر» بالذات هى التى نفتتح بها الصلاة؟.

لماذا لم تكن «لا إله إلا الله» كلمة التوحيد؟.

لماذا لم تكن «الحمد لله» كما نفتتح خطبة الجمعة أو الحاجة؟(٢).

أتدرى لماذا؟ لأن الله تبارك وتعالى وهو الذى خلقك، فسواك، فعدلك، وهو وحده الذى يعلم ما توسوس به نفسك، ويعلم أن عبده إذا دخل فى الصلاة، فلن يتركه أعداءه، لن يتركه قطاع الطريق، الذى بينه وبين مولاه، وإنما يحضرون إليه من كل فج عميق، فهذا يذكره بالأموال، وذاك يذكره بالأطيان، وذلك يذكره بالتجارات، وآخر يذكره بالأبناء والأزواج، لكنه حين يقول الله أكبر، أى أنه سبحانه أكبر فى قلبى من الأموال، وأكبر من الأطيان، وأكبر من التجارات والزوجات فأنا الآن أقف أمام الأكبر فلا ينبغى لى أن أنشغل بالأصغر.

فالله أكبر تجعل همه هو الله، وقصده هو الله، ومراده هو الله، وكل انشغاله إنما هو بالله لا بأحد سواه.

---

(١) الفوائد لابن قيم الجوزية ص٣٣٧ تحقيق محمد خلف يوسف. دار التوزيع والنشر.

(٢) انظر كتابنا من وصايا القرآن ج١/ ٤٩ بتصرف.

يقول ابن القيم في فوائده:

«إذا أصبح العبد وأمسى وليس همه إلا الله وحده تحمل الله سبحانه حوائجه كلها، وحمل عنه كل ما أهمه، وفرغ قلبه لمحبته، ولسانه لذكره، وجوارحه لطاعته. وإن أصبح وأمسى والدنيا همه، حمله الله همومها، وغمومها، وأنكادها، ووكله إلى نفسه، فشغل قلبه عن محبته بمحبة الخلق، ولسانه عن ذكره بذكرهم، وجوارحه عن طاعته إلى طاعتهم وأشغالهم»[١].

فإذا كبرت أيها المصلى، فلا يكذبن قلبك لسانك، لأنه إذا كان فى قلبك شىء أكبر من الله فقد كذبت، فاحذر أن يكون الدرهم والدينار، والأموال فى قلبك أكبر من الله فإذا ما كبرت تكبيرة الإحرام، فاستفتح صلاتك لكن بأى شىء؟.

إن شئت فاستفتح بما علمك سيد البشرية ﷺ حيث كان يسكت بين التكبير والقراءة، مما جعل الصحابى الجليل أبا هريرة رضي الله عنه يسأله، ويقول له: **«يا رسول الله إسكاتك بين التكبير، وبين القراءة ماذا تقول: قال: أقول: اللهم باعد بينى وبين خطاياى كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللهم اغسلنى من خطاياى بالماء والثلج والبرد، اللهم نقنى من خطاياى كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس»**[٢] وخص الثوب الأبيض بالذكر لأن الدنس -وهو الوسخ- يظهر فيه أكثر من غيره، ألم يكن يكفى أن يقول: اغسلنى بالماء فقط فما فائدة ذكر الثلج والبرد؟.

قال الخطابى: ذكر الثلج والبرد تأكيدًا، أو لأنهما ماءان لم تمسسهما الأيدى، ولم يمتهنهما الاستعمال[٣]

وفى رواية: **«والماء البارد»** فما الفائدة فى الماء البارد مع أن الماء الساخن يزيل الأوساخ والأقذار أفضل بكثير من الماء البارد؟

هل التساؤل ورد على لسان الإمام ابن القيم لأستاذه شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رحمه الله فقال له: يا محمد أما تعلم أن المعصية تكون لها جمرة فى القلب، واشتعال فى الوجدان فلا تطفئ إلا بالماء البارد؟

قال ابن دقيق العيد: عبر بذلك عن غاية المحو، فإن الثوب الذى يتكرر عليه ثلاثة أشياء منقية يكون فى غاية النقاء[٤]

---

(١) الفوائد لابن قيم الجوزية ص١٥٠ ط/ دار التوزيع الإسلامية.

(٢) رواه البخارى ومسلم وأحمد فى مسنده (٧١٦٤) وأبو داود فى سننه رقم ٧٨١.

(٣)، (٤) فتح المبدى بشرح مختصر الزبيدى للشرقاوى.

وكما أن الماء ثلاثة أنواع: غسل بالماء -غسل بالثلج- غسل بالبرد، فإن الدعوات التي صدرت من الرسول الأعظم ﷺ، لكي يرشد أمته ويوجهها ثلاثة أدعية:

١- اللهم باعد بيني وبين خطاياي. أي امح ما حصل منها بالكلية حتى لا يبقى منها شيء.

٢- اللهم نقني من خطاياي كما ينقى الثوب الأبيض..

٣- اللهم اغسلني من خطاياي بالماء. فما سر ذلك؟

قال الكرماني:

يحتمل أن يكون في الدعوات الثلاثة، إشارة إلى الأزمنة الثلاثة، فالمباعدة للمستقبل، والتنقية للحال، والغسل للماضي(١)

وإن شئت استفتحت بالتوجه إلى مولاك، فتقول كما كان سيد الفقهاء يقول: **«وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفًا مسلمًا وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا من المسلمين، اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي، واعترفت بذنبي، فاغفر ذنوبي جميعًا، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق، فإنه لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها فإنه لا يصرف عني سيئها إلا أنت، لبيك وسعديك، والخير كله في يديك، والشر ليس إليك، أنا بك وإليك، تباركت وتعاليت أستغفرك وأتوب إليك»**(٢)

لكن إياك أن تقول: وجهت وجهي. وقلبك متوجه إلى الدنيا، متوجه إلى الدرهم والدينار، فتكون بذلك قد كذبت من رفع السماء بلا عمد.

ثم بعد الاستفتاح تقرأ بفاتحة الكتاب، بالسبع المثاني والقرآن العظيم، بسورة الفاتحة وتأمل أن مولاك قد اختار لك أعظم سورة في القرآن لأعظم ركن من أركان الإسلام بل إنه جل وعلا سماها بسورة الصلاة في حديثه القدسي الذي يقول فيه: **«قسمت الصلاة بيني** وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: **﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: **﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾** قال الله: أثنى عليَّ عبدي، فإذا قال: **﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾** قال الله تعالى: مجدني عبدي. وفي رواية: (فوض إليَّ عبدي)، فإذا قال: **﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾** قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: **﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾** قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل»(٣) اقرأ

---

(١) فتح الباري.

(٢) رواه مسلم وأبو داود وأحمد في مسنده (٧٢٩) ١/ ٤٨٤ بإسناد صححه الشيخ أحمد شاكر.

(٣) رواه مسلم.

وتدبر، وقف عند كل آية حتى تسمع بـقلبك مولاك وهو يرد عليك. فإذا قلت: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ساعتها تذكر بقلبك ووجـدانك وعقلك ما أنعم الله به عليك، وإحسانه إلى وجودك، واعلم أن النعـم كلها من الله وحده، نعم الطاعـات، ونعم اللذات، فارغب إليه أن يلهمك شكرها.

فإذا قلت: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فتأمل رحمته بك فـى حياتك، وبعد موتك، منذ أن كنت فى العدم، وحتى تصير إليه، مع أنـه رحمك بجزء من مائة رحمة، يقول ﷺ: «**إن لله تعالى مائة رحمة، فـأمسك عنده تسعًا وتسعين وأنزل جزءاً واحداً فـمنه يتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خـشية أن تصيبه**»[1] ادخر لك باقى المائة. فإذا قلت: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ فتذكر مآلك فى عالم الآخرة، فهو ملك الملوك، ومالك الملك، تأمل ما يحدث فيه بقلبك من أهوال جسام، وما يحصل من مكافأة أهل الإيمان، وعقاب أهل الطغيان. وإذا قلت: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تذكرت المهمة التى خلقت من أجلها، وهى عبادة الله وحده لا شريك له، قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وإذا قلت: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ عرفت أنـه لا يستعـان إلا به فى جمـيع الأمور، صغيرها وكبيرها، فلا ينبغى أن تطلب العون من أحد سواه.

وإذا قلت: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ فأبصر به طريق الحق الذى أمرك بأن تتبعه، وهو دين الإسلام الحق، ودائما اطلب منه وحده الهداية، فـإنه لا يقدر على تحقيقها إلا هو سبحانه، ولا تمل طلبهـا، فإن الهداية لا نهاية لها، حتى لو بلغ العبد فـيها ما بلغ، ففوق هدايتـه هداية أخرى، وفوق تـلك الهداية هداية أخـرى إلى ما لا نهـاية، فكلما ارتـقيت بالتقـوى ارتقيت إلى هداية أخـرى، فالعبد فـى مزيد من هداية ربه، ما دام فـى مزيد من التقوى والعمل الصالح.

فإذا ما قلت: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ تذكرت بذلك أرباب الـسعادة من النبيين والشهداء والصالحين، وقد هداهم ربهم إلى طريق الهداية والفلاح.

فإذا قلت: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾ تذكرت أهل الفسق والفجور من أهل الكفر والضلال.

فأول السورة رحمة، وأوسطها هداية، وآخرها نعمة، فمن تحقق بمعانى الفاتحة علمًا ومعرفة وعـملاً وحالاً فقد فاز من كماله بـأوفر نصيب، وصارت عبوديته عـبودية الخاصة الذين ارتفعت درجتهم عن عوام المتعبدين[2]

(١) رواه البخارى.

(٢) الفوائد لابن قيم الجوزية ص٣٨ مختصراً.

وللإمام الفخر الرازى كلام طيب فى هذه السورة المباركة، يقول[1]:

واعلم أن للجنة ثمانية أبواب، ففى هذا المقام -أى الاستعاذة- انفتح لك باب من أبواب الجنة، وهو باب المعرفة، والباب الثانى: هو باب الذكر، وهو قولك: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

والباب الثالث: باب الشكر، وهو قولك: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

والباب الرابع: باب الرجاء، وهو قولك: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

والباب الخامس: باب الخوف، وهو قولك: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.

والباب السادس: باب الإخلاص، وهو قولك: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

والباب السابع: باب الدعاء، وهو قولك: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

والباب الثامن: باب الاقتداء بالأرواح الطيبة الطاهرة، والاهتداء بأنوارهم وهو قولك: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ فإذا قرأت هذه السورة، ووقفت على أسرارها، انفتحت لك أبواب الجنة الثمانية.. فهذه اشارة إلى ما حصل فى الصلاة من المعراج الروحانى.

وبعد ما تنتهى من قراءة هذه السورة المباركة بهذا التدبر، اقرأ ما تيسر لك من القرآن، ثم بعد ذلك تعود إلى قولك: «الله أكبر» لأن الشيطان ربما شغلك أثناء قراءتك للفاتحة، فحينئذ كأنك تذكر نفسك بمولاك الأكبر العظيم.

ثم تقول فى ركوعك: «سبحان ربى العظيم» أى أنت الرب العزيز، وأنا العبد الذليل، أنت الإله القوى، وأنا العبد الضعيف، أنت الله العظيم، وأنا العبد الحقير.

ثم ترفع رأسك، ثم تهوى إلى السجود، فتضع جبهتك على الأرض مع أنها أعز شىء لديك، تضعها لله طائعًا، ولعظمته خاشعًا، تضع جبهتك موضع الذلة والانكسار والخضوع، فكلما أذل العبد نفسه لمولاه، ازداد العبد رفعة، وقربًا منه سبحانه لذلك يقول: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق: ١٩].

ثم بعد ذلك ماذا تقول وأنت ساجد؟ تقول: «سبحان ربى الأعلى» ولا تنس أن يكون سجودك على سبع، لحديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه: أن النبى ﷺ قال: «إذا سجد العبد سجد معه سبعة آراب: وجهه، وكفاه، وركبتاه، وقدماه»[2]. وفى حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «أمرت بالسجود على سبع، ولا أكفت الشعر، ولا الثياب: الجبهة والأنف واليدين»[3].

---

(١) تفسير الفخر الرازى (مفاتيح الغيب) جـ١/ ٣٣٦ ط/ دار الغد.

(٢) رواه أحمد فى مسنده(١٧٦٤)٢/ ٣٧٣ وصححه الألبانى فى ص.ج رقم (٥٩٧) وفى صحيح سنن أبى داود (٨٩١). (٣) رواه مسلم وأبو داود فى صحيح سننه للألبانى (٨٩٠).

وبعد السجود يجلس المصلى، يتضرع لمولاه قائلاً: «رب اغفر لى وارحمنى واجبرنى وارزقنى» وهكذا فى كل ركعة، ثم تجلس للتشهد حينئذ تكون قد وصلت إلى عتبة جلال مدبر الأرض والسموات، فقل عند ذلك: التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله، فالتحيات المباركات باللسان، والصلوات بالأركان، والطيبات بالجنان وقوة الإيمان، ثم تلتقى روحك مع روح الحبيب المصطفى، فتقول: السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته.

فيحصل لروحك روح وراحة وريحان، فتقول: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، وكأنه قيل لك: هذه الخيرات والبركات بأى وسيلة وجدتها؟ وبأى طريق وصلت إليها؟ فقل: بقولى، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، فكأنه قيل لك: ما دام محمدٌ عبد الله ورسوله هو الذى أرشدك إلى ذلك وهداك، فأى شىء تهديه إليه؟ فقل: اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد. فكأنه قيل لك: إن ابراهيم عليه السلام هو الذى طلب من الله أن يرسل إليك مثل هذا الرسول، فقال لمولاه: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩] فما هديتك له؟ فقل: كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، فيقال لك: فكل هذه الخيرات من محمد أو من إبراهيم أو من الله؟ فقل: بل من الحميد المجيد(١)

• سادات الخاشعين فى الصلاة •

أخا الإسلام:

إذا كانت الصلاة بهذه المكانة وتلك المنزلة الرفيعة، فلابد أن يكون المصلى خاشعًا لمولاه، فقد روى أنه كان مكتوبًا فى محراب داود عليه السلام: **«أيها المصلى، من أنت؟ وبين يدى من أنت؟ ومن تناجى؟ ومن يسمع كلامك؟ ومن ينظر إليك؟»** فهيا بنا أخى الحبيب نقف مع سادات الخاشعين، وعلى رأسهم سيد المرسلين محمد ﷺ.

١- سيد الخاشعين رسول الله محمد ﷺ:

فعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يصلى حتى ترم قدماه فقيل له: أتتكلف هذا، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فيقول: **«أفلا أكون عبداً شكوراً»**(٢) وفى رواية: (حتى انتفخت ساقاه) والمعنى واحد. فكان يخشع فى صلاته ويطيل فيها لدرجة أن صاحب هذه الوصية سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه كان يصلى معه فى ليلة من الليالى، ولضعف بنيته لم يتحمل، فقال محدثًا عن ذلك: **«لقد صليت ليلة مع**

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازى١/ ٣٣٧، ٣٣٨ بتصرف.

(٢) رواه البخارى فى التهجد (١١٣٠) ومسلم فى صفات المنافقين (٢٨١٩) وأحمد فى مسنده وأبو نعيم فى الحلية ٨/ ٢٨٩ والبيهقى فى السنن٣/ ١٦ والترمذى فى الشمائل (٢٥٠).

رسول الله ﷺ فلم يزل قائمًا حتى هممت بأمر سوء. قيل: وما هممت به؟ قال: هممت أن أقعد وأدع النبي»(١)

وكان ﷺ أحيانًا يقوم الليل بآية من كتاب الله تبارك وتعالى.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «قام رسول الله ﷺ بآية من القرآن ليلة»(٢)

٢- عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

فعن سعيد بن المسيب -رحمه الله-، قال: كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحب الصلاة في كبد الليل، يعني وسطه(٣).

وعن أسلم أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يصلي ما شاء حتى إذا كان من آخر الليل يعظ أهله، يقول: الصلاة، الصلاة، ويتلو هذه الآية: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾(٤) [طه: ١٣٢].

٣- أنس بن مالك رضي الله عنه:

فعن ثمامة بن عبد الله بن أنس رضي الله عنه، قال: «كان أنس يصلي فيطيل القيام حتى تقطر قدماه دمًا»(٥)

وعن ثابت أن أبا هريرة قال: ما رأيت أحدًا أشبه صلاة برسول الله من ابن أم سليم، يعني بذلك أنس بن مالك(٦)

٤- أبو هريرة رضي الله عنه:

فعن عبد الله بن أبي سليمان مولى عثمان بن عفان رضي الله عنه يقول: كان لأبي هريرة في مخدعه مسجد، وفي حجرته مسجد، وفي داره مسجد، وعلى باب داره مسجد، إذا دخل صلى فيها جميعًا، وإذا خرج صلى فيها جميعًا(٧)

٥- معاذ بن جبل رضي الله عنه:

كان معاذ بن جبل رضي الله عنه ينصح ابنه فيقول له: يا بني إذا صليت صلاة فصل صلاة مودع لا تظن أنك تعود إليها أبدًا، واعلم يا بني أن المؤمن يموت بين حسنتين: حسنة قدمها وحسنة أخرها(٨)

٦- عبد الله بن الزبير بن العوام رضي الله عنه:

فعن مجاهد قال: كان ابن الزبير إذا قام في الصلاة كأنه عود من الخشوع(٩).

---

(١) رواه البخاري (١١٣٥) ومسلم (٥٣٧) وأحمد في مسنده وابن ماجه (١٤١٨).

(٢) رواه الترمذي في سننه (٤٤٨) في الصلاة وفي الشمائل برقم (٢٦٣) وأحمد في مسنده (١٤٩) بإسناد صحيح.

(٣)، (٤) مناقب عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص١٤٨ ط التوفيقية.

(٥)، (٦) صفة الصفوة١/ ٣١٩. (٧) الزهد لأحمد ص٢٢٣ (٨) الزهد لأحمد ص٢٢٥

(٩) صفوة الصفوة١/ ٣٤٥.

وعن يحيى بن وثاب، أن الزبير كان يسجد حتى تنزل العصافير على ظهره، ولا تحسبه إلا جذم حائط(١).

وعن ابن المنكدر قال: لو رأيت ابن الزبير يصلى كأنه غصن شجرة تصفقها الريح، والمنجنيق يقع ها هنا، وها هنا، قال سفيان: وكأنه لا يبالى(٢).

وقالت أم عمرو بن قيس: دخلت على عبد الله بن الزبير بيته، فإذا هو يصلى، قالت: فسقطت حية من السقف على ابنه هاشم، فتطوقت على بطنه وهو نائم، فصاح أهل البيت الحية، ولم يزالوا بها حتى قتلوها وعبد الله بن الزبير يصلى ما التفت ولا عجَّل(٣).

٧- مسلم بن يسار -رحمه الله-:

عن حبيب بن الشهيد، أن مسلم بن يسار كان قائمًا يصلى فوقع حريق إلى جنبه فما شعر به حتى أطفئت النار(٤)

وعن ميمون قال: ما رأيت مسلم بن يسار ملتفتًا فى صلاته قط خفيفة ولا طويلة، ولقد انهدمت ناحية من المسجد ففزع أهل السوق لهدته وإنه لفى المسجد فى صلاته ما التفت ذلكم الرجل الذى كان يناجى ربه فى سجوده، ويقول: متى ألقاك، وأنت عنى راض(٥)

وكان يقول لأهله: إذا دخلت فى الصلاة فتحدثوا، فإنى لا أسمع حديثكم(٦)

إذا انشغل اللاهون عنك بشغلهم ... جعلت اشتغالى فيك يا منيتى شغلى

فمن لى بأن ألقاك فى ساعة الرضا ... ومن لى بأن ألقاك والكل لى من لى؟

٨- منصور بن المعتمر:

لقد كان يصلى على سطح داره، فلما مات، قال غلام لأمه، وكان جار منصور: يا أمى أين الجذع الذى كان فى سطح آل فلان؟ لست أراه، قالت: يا بنى، ليس ذاك جذعًا، ذاك منصور، وقد مات(٧)

٩- الربيع بن خثيم -رحمه الله-:

فقد كان الربيع بن خثيم إذا سجد فكأنه ثوب مطروح، فتجىء العصافير، فتقع عليه(٨) إنه سيد من سادات التابعين، ومن الأتقياء الصالحين، إنه تلميذ صاحب هذه

(١) المرجع السابق والزهد لأحمد ص٢٤٩
(٢) المرجع السابق والزهد ص٢٣٣
(٣) صفة الصفوة١/ ٣٤٥.
(٤) الزهد لأحمد ص٣٠٦، وصفة الصفوة٣/ ١٣٢
(٥)، (٦) المرجع السابق٣/ ١٣١
(٧) الحلية لأبى نعيم٥/ ٤٠ وصفة الصفوة٣/ ٥٥.
(٨) الزهد لأحمد وصفة الصفوةجـ٣/ ٣٠ ط/ دار الفكر.

الوصيـة عبد الله بن مسعود ﷺ دخل يـصلى فى المسجـد وربط بغلته، فلمـا دخل فى الصلاة سرقت، وكان قد أرسـل غلامه يسار يحضر لها طعامًا، فـلما جاء قال له: يا ربيع أين بغلتك؟ قال: سرقت، قال له: وأنت تنظر إليـها؟ قال: نعم، يا يسار كنت أناجى ربى عز وجل فلم يشغلنى عن مناجاة ربى شىء، اللهم إنه سرقنى، ولم أكن لأسرقه، اللهم إن كان غنيـا فاهده، وإن كان فقيـرًا فأغنه[1] الله أكبر. تسرق فـرسه، وهو ينظر، ولم ينزعج، ولم يترك صلاته، لأنه كان يناجى ملك الملوك!!.

مـا عنـك يشـغـلنـى مـال ولا ولـد نسـيت بـاسـمك ذكـر المال والـولد
فلو سفكت دمى فى الـتراب لانكتبت بـه حـروفـك لـم تـنـقص ولـم تـزد

١٠- عطاء بن رباح -رحمه الله-:

عن ابن جريج قال: كان عطاء بعد ما كبر وضعف يقوم إلى الصلاة، فيقرأ مائتى آية من سورة البقرة، وهو قائم لا يزول منه شىء ولايتحرك[2]

١١- محمد بن إسماعيل البخارى:

دُعى إلى بستـان بعض أصحابه، فلما حـضرت صلاة الظهر، صلى الـقوم، ثم قام للتطوع. فأطال القيام، فـلما فرغ من صلاته رفع ذيل قميصه، فإذا زنـبور قد أبّره فى ستة عشر موضعًـا، وقد تورم من ذلك جسده، وكانت آثار الزنبور فى جـسده ظاهرة، فقال له بعضهم: وكيف لم تخرج من الصلاة فى أول مـا أبّرك؟ فقال: كنت فى سورة فأحببت أن أتمها»[3].

أخا الاسلام:

رحل والله أولئـك السادة، وبـقى قرنـاء المهاد والوسـادة، فـأين وصفـك من هذه الأوصاف؟ وأين شجر الزيتون من شجر الصفصاف؟!.

عن عبد الله بن مغـفل قال: قال رسول الله ﷺ: **«أسرق الناس الـذى يسرق فى صلاته، لا يتم ركوعها ولا سجودها»**[4]

• موعظة •

يا واقفًا فى صـلاته بجسده والقلب غائـب. ما يصلح ما بذلته ثمنًـا للجنة، أقبل على مولاك يقبل الله عليك. لكن وا أسفاه.

تـأتـى لـلصـلاة فـى فـتـور وكـأنـك قـد دعـيت إلى الـبـلاء
وإن أديتـهـا جـاءت بـنـقـص لمـا كـان مـنك مـن شـرك الـريـاء
وإن تـخـلـو عـن الإشـراء مـنـهـا تـدبـر لـلأمـور بـلا ارتـقـاء

(١) المرجع السابق٣/ ٣٠. (٢) الزهد لأحمد ص٤٥١. (٣) تاريخ بغداد٢/ ١٢

(٤) رواه الطبرانى فى الأوسط، وصححه الألبانى فى ص.ج(٩٧٧).

ويا ليت التدبر في مباح ولكن في المشقة والشقاء
وإن كنت المصلي يومًا بين خلق أطلت ركوعها بالانحناء
وتعجل خوف تأخير لشغل وكأن الشغل أولى باللقاء
وإن كنت المجالس يومًا أنثى قطعت الوقت من غير اكتفاء
أيا عبدكم لا يساوي الله معك أنثى تناجيه بحب أو صفاء

داوم على الصلاة وحافظ عليها تكن لك نورًا وبرهانًا ونجاة ويقينًا، ولا تغفل عنها فتكن مع قارون وفرعون وهامان وأبي بن خلف، كما أخبر بذلك حبيبنا محمد ﷺ **«من حافظ عليها كانت له نورًا وبرهانًا ونجاة يوم القيامة، ومن لم يحافظ عليها لم تكن له نورًا ولا برهانًا ولا نجاة، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبي بن خلف»**(١).

ويعلق ابن القيم على هذا الحديث فيقول: إن فيه نكتة نبوية وبلاغية: «إن تارك الصلاة، إما أن يشغله ماله، أو ملكه أو رياسته أو تجارته، فمن شغله ماله فهو مع قارون، وقد خسف الله به وبداره الأرض. ومن شغله ملكه فهو مع فرعون، وقد أخذه الله نكال الآخرة والأولى. ومن شغلته تجارته فهو مع أبي بن خلف. ومن شغلته عنها رياسته فهو مع هامان».

ولقد كان بعض الصالحين يزيد في صلاته، ويطيل فيها، لأنها ستكون لأولاده وذريته من بعده بركة وخيرًا، فهذا هو سعيد بن المسيب رحمه الله يقول لولده: لأزيدن في صلاتي من أجلك رجاء أن أحفظ فيك، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف: ٨٢].

أيها المعرض عنا إن إعراضك منا
لو أردناك جعلنا كل ما فيك يردنا
عباد أعرضوا عنا بلا جرم ولا معني
أساءوا ظنهم فينا فهلا أحسنوا الظنا
فإن خانوا فما خنا وإن عادوا فقد عدنا
وإن كانوا قد استغنوا فإنا عنهمو أغنى

قال أبو محمد الحريري: قصدت الجنيد فوجدته يصلي، فأطال الصلاة جدًا، فلما فرغ، قلت له: قد كبرت، ووهن عظمك، ورق جلدك، وضعفت قوتك، فلو اقتصرت على بعض صلاتك. فقال: اسكت، طريق عرفنا به ربنا، لا ينبغي لنا أن نقتصر منه على

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٧٥٧٦) بإسناد صحيح وسكت عنه الألباني في تخريج المشكاة.

بعض. والنفس ما حمَّلتها تتحمل، والصلاة صلة، والسجود قربة، ومن ترك طريق القرب، يوشك أن يسلك به طريق البعد، ثم أنشد:

صبرتُ عن اللذات حتى تولّت ... وألزمت نفسى هجرها فاستْمرت
وكانت على الأيام نفسى عزيزةً ... فلما رأت صبرى على الذلٍّ ذَلَّتَ
وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى ... فإن توَّقتْ تَاقتْ وإلاَّ تسلَّتِ

أخى الحبيب:

خذ العمر فى أوله، واعمل منه فى أفضله، وأتِ من اجتهادك بأتمه وأكمله، واَسْعَ سعى من يخاف أن يقطع عن المنزل، ويحبس عنه فلا يصل، قبل أن يفتل جلدك، ويفتر جدُّك، ويكبو زندك، فيحبسك الكبر، ويفنيك الهرم، وتندم وأنى ينفعك الندم، ومن سعى فى الشباب وجد ذلك فى الكبر أمامه، وكان إلى كل نجاة إمامه.

أيها الحبيب:

اعلم أن العمر يفنى، والسيئات تبقي، فأتبع السيئة الحسنة تمحها، واتق الله فى سرك وجهرك، وتزود من نفسك لنفسك، ومن حياتك لموتك، ومن شبابك لشيبتك، ومن صحتك لسقمك، ومن غناك لفقرك.

قال داود الطائى: «يا أخى، إنما الليل والنهار مراحل ينزلها الناس مرحلة بعد مرحلة حتى ينتهى ذلك إلى آخر سفرهم، فإن استطعت أن تقدم فى كل يوم مرحلة زادًا فتزود لنفسك، واقض ما أنت قاض، فكأنك بالأمر قد بغتك»[١]

اللهم جنبنا شطط الفكر، وزيغ القلب، وسوء العمل، وارزقنا الإيمان والعمل، ﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وهبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

اللهم إنا نسألك نفسًا بك مطمئنة. تؤمن بلقائك، وتقنع بعطائك، وترضى بقضائك، اللهم جنبنا فى ذكرك، وأكرمنا بجودك وكرمك، ويسر لنا اليسرى، وجنبنا العسرى، واجعلنا هداة مهتدين، واغفر لنا وللمسلمين، يا رب العالمين.

---

(١) صفوة الصفوة ٣/ ٦٧

الوصية رقم (٢٢)

بَرُّوا آباءكم وصلوا أرحامكم

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من سره أن يمد له فى عمره، ويزاد له فى رزقه، فليبر والديه، وليصل رحمه**»(١)

صدق رسول الله ﷺ

• فى رحاب هذه الوصية •

أخى الحبيب:

يدعونا رسول الإسلام سيدنا محمد ﷺ إلى بر الوالدين، ويوصينا بهما وببرهما كما يدعونا أن نصل أرحامنا، وهو بذلك يريد أن يربط كعادته بين أفراد الأسرة الواحدة لتكون قوية متماسكة، لا تزعزعها الأحداث مهما كانت، ولا تضعفها الكوارث مهما اشتدت، ولا عجب فى اعتناء الرسول ﷺ بالوصية ببر الوالدين، فهما سبب وجودك على هذه الدنيا، والأسرة هى حجر الزاوية فى بناء المجتمع الإنسانى.

وقد جعل الرسول الكريم ﷺ كلا من سعة الرزق، وطول العمر وسيلة للترغيب فى بر الوالدين، وصلة الرحم، وهما أمران ينزلان من النفس البشرية منزلة عظيمة، لأن بسطة العيش مرغوب فيها، قال سبحانه: ﴿**الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ [الكهف: ٤٦] كما أن الرغبة فى طول البقاء، والتعمير فى الأرض نحسها فى أنفسنا، وفيمن حولنا ﴿**يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ**﴾ [البقرة: ٩٦].

فالرسول ﷺ يرغبنا بأعظم ما يثير النفس البشرية إلى صلة الرحم، وبر الوالدين، لكى تقوى الأسرة، وتحتل مكانتها فى المجتمع، ولا أدل على ذلك من أن الله سبحانه وتعالى قرن الأمر بعبادته، وعدم الإشراك به، ببر الوالدين، والإحسان إليهما فقال سبحانه: ﴿**وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا**﴾ [النساء: ٣٦]. فكأن بينهما تلازمًا وارتباطًا، إذ لا تكفى العبادة مع العقوق، ولا يغنى الإحسان مع الإشراك، لأن من طبيعة العبادة الامتثال والطاعة، فلا تتم العبادة إلا بهما، والعقوق عصيان واستكبار، وهو خارج عن طبيعة العبادة ومعناه الشرعى.

---

(١) رواه أحمد فى مسنده برقم (١٣٧٤٥) جـ١١/ ٢٧٩ بإسناد وصححه حمزة الزين فى تحقيق المسند وذكره المنذرى فى الترغيب والترهيب٣/ ٣١٧ وقال: رواه أحمد ورواته محتج بهم فى الصحيح.

وإلى هذا يشير معاذ بن جبل رضي الله عنه في حديث: أوصاني رسول الله ﷺ بعشر كلمات قال: **«لا تشرك بالله شيئًا، وإن قتلت وحرقت، ولا تعقن والديك، وإن أمراك أن تخرج من أهلك ومالك»**(١)

وحديث عمرو بن مرة الجهني رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، شهدت أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، وصليت الخمس، وأديت زكاة مالي، وصمت رمضان، فقال النبي ﷺ: **«من مات على هذا كان مع النبيين والصديقين، والشهداء يوم القيامة هكذا** -ونصب أصبعيه- **ما لم يعق والديه»**(٢)

فهذان الحديثان يدلان على أنه لابد من حسن الصلة بالله عز وجل، وحسن معاملة الوالدين ليتم إيمان المرء، ويُقبل عمله.

•المقصود ببر الوالدين•

أخا الإسلام:

الإحسان إلى الوالدين: أي عدم التقصير في حقهما، وهو يختلف باختلاف الناس وطبقاتهم، وإن العامي والجاهل ليدري كيف يحسن إلى الوالدين، ويرضيهما، ما لا يدري العالم النحرير إذا أراد أن يحدد له ذلك.

وقال البعض: إن جماع الإحسان المأمور به: أن يقوم بخدمتهما، ولا يرفع صوته عليهما، ولا يخشن في الكلام معهما، وأن يسعى في تحصيل مطالبهما، والإنفاق عليهما بقدر سعته، وأنت تعلم أن من فعل ذلك وهو لا يلقاهما إلا عابسًا مقطبًا، فإنه لا يعد محسنًا(٣).

واعلم أخي الحبيب: أن البر عام مطلق، وله شروط ثلاثة:

الأول: أن يؤثر الولد رضى والديه على رضى نفسه، وزوجته وأولاده، والناس أجمعين.

الثاني: أن يطيعهما في كل ما يأمرانه به، وينهيانه عنه، سواء أوافق رغباته أم لم يوافقها، ما لم يأمراه بمعصية الله تعالى.

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٢١٩٧٤) وذكره المنذري في الترغيب وقال: رواه ابن ماجه والبيهقي١/ ٣٨١، ٣/ ٣٢٩.

(٢) رواه أحمد والطبراني بإسنادين أحدهما صحيح، وورواه ابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما. باختصار قاله المنذري في الترغيب٣/ ٣٢٩ قلت: ولم أجده في المسند، وليس لعمرو بن مرة الجهني في المسند إلا حديثًا واحدًا (١٧٩٥٦) وإسناده ضعيف، وقد روى هذا الحديث اليافعي في الترغيب رقم (٣٦٧).

(٣) المختصر المفيد٢/ ٦٨ نقلا من وصايا القرآن للمؤلف.

الثالث: أن يقدم لهما كل ما يلحظ أنهما يرغبان فيه من غير أن يطلباه منه عن طيب نفس وسرور، مع شعوره بتقصيره فى حقهما، ولو بذل لهما دمه وماله[1].

• بر الوالدين فى القرآن الكريم •

أخى الحبيب:

لما تشوقت قلوب أهل الإيمان، وتطلعت نفوسهم إلى معرفة أوامر ربهم جل وعلا لكى يقوموا بتطبيقها من حيث ما أمرهم به، ونواهيه لكى يجتنبوها، ويبتعدوا عنها، فجاءت الأوامر مجملة، والنواهى كذلك، فى قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وبِالْوَالِدينِ إحْسَانًا﴾ [الأنعام: ١٥١] وتلك ما نسميها بالوصايا العشر[2]، جعل منها خمسة أوامر، وخمسة نواهٍ محرمة، ومنها العقوق فجعل حرمة العقوق كحرمة الإشراك سواء بسواء.

ولو لم يرد فى الذكر الحكيم إلا قوله: ﴿وبِالْوَالِدَيْنِ إحْسَانًا﴾ [الأنعام: ١٥١] لكانت كافية فى الدلالة على عظم عناية الشارع الحكيم بأمر الوالدين، فكيف وقد قرنه بعبادته وتوحيده، وجعله ثانيًا فى تلك الوصايا الربانية.

وتأمل تلك البراعة القرآنية والبلاغة الإلهية التى حرمت الشرك، وأمرت بالإحسان ومقتضى ذلك أن يأمر بالتوحيد، ويحرم العقوق، فكان الشرك ملازمًا للعقوق، والتوحيد قرين الإحسان، لذلك يقول ابن عباس ﷺ: ثلاث آيات نزلت مقرونات بثلاث، ولا يقبل الله واحدة منهن بغير قرينتها:

أولهما: قوله سبحانه: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣] فمن صلى ولم يؤت الزكاة، لم تقبل منه الصلاة.

ثانيهما: قوله سبحانه: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ [آل عمران: ١٣٢] فمن أطاع الله، ولم يطع الرسول ﷺ لم يقبل منه.

ثالثهما: قوله سبحانه: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤] فمن شكر الله، ولم يشكر لوالديه، لم يقبل منه[3]

ثم جاء التأكيد على الإحسان، بل وتفصيله على وجه الدقة فى سورة الإسراء، فرسمت المنهج السليم الذى يجب أن يسلكه الأبناء فى بر الوالدين، ومعاملتهما، قال تعالى: ﴿وقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وبِالْوَالِدَيْنِ إِحسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عندك الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ

---

(١) بر الوالدين ص١٧ لعبد الرءوف الحناوى.

(٢) انظر الوصايا العشر فى (من وصايا القرآن) للمؤلف المجلد الثانى ط/ التوفيقية.

(٣) تنبيه الغافلين للسمرقندى ص٩٠ والزواجر لابن حجر الهيثمى ٢/ ٥٥ والكبائر للذهبى (ص ٤).

كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريما ﴿٢٣﴾ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً ﴿٢٤﴾ ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفوراً﴾ [الإسراء: ٢٣: ٢٥].

فقد وضحت الآيات أموراً منها:

١- أن البر مقرون بعبادة الله تعالى، وهى المهمة العظمى التى خلقنا من أجلها، قال سبحانه: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ [الذاريات: ٥٥].

٢- أن البر يكون فى حياتهما بالكلام الطيب الجميل اللين، وعدم التضجر منهما، حتى ولو بأدنى كلمة ككلمة «أف» لأنهما أصحاب الفضل عليك بعد الله عز وجل، فقد تحملا من أجلك كل عناء، وكل كد وتعب، ولم يتضجرا منك وأنت صغير، فكيف تضجر منهما حينئذ؟.

٣- أن البر بالوالدين موصول بعد موتهما، ويكون بالدعاء لهما، فتقول: رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً.

٤- أن الله مطلع على ظاهر أمرك وباطنك، ويعلم صدق نيتك، وقد وعدك العفو والمغفرة شريطة أن ترجع إليه وحده إذا حدث منك ما يغضبه.

ثم جاءت آيات سورة لقمان توصى وتؤكد الوصية، وتعممها بالوالدين: «الأب، الأم» ثم تنتقل من العموم إلى الخصوص، فتخص الأم بالبر، وتصف ما قد تعانيه الأم من آلام على سبيل الإجمال من آلام الرحم، والحمل، والرضاعة، والفطام، فتقول: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير ﴿١٤﴾ وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا..﴾ [لقمان: ١٤، ١٥].

لكن أتدرى أخى الحبيب لماذا خص مولانا الأم بمزيد من البر والإحسان؟ إن ذلك لسببين: أحدهما: خاص، والآخر عام.

أما الخاص، فلأنها نزلت فى حق صحابى جليل، كان إذا أقبل قال رسول الله ﷺ يقول له: «هذا خالى فليرنى امرؤ خاله»[١] أعرفت من هو؟ إنه سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه وذلك حين أسلم، فقالت له أمه: يا سعد، بلغنى أنك قد صبوت، فوالله لا يظلنى سقف بيت من الضح والريح، ولا آكل ولا أشرب حتى تكفر بمحمد، وترجع إلى ما كنت عليه، وكان أحب ولدها إليها، فأبى سعد، فصبرت ثلاثة أيام لم تأكل، ولم تشرب، ولم تستظل بظل حتى خشى عليها، فأتى سعد رسول الله ﷺ، وشكا ذلك إليه، فأنزل الله هذه الآية[٢].

(١) رواه الحاكم وصححه: مصطفى العدوى فى روضة المحبين ص٢٥

(٢) أسباب النزول للواحدى ص٢٨٦ ط/ دار الحديث، ورواه مسلم بنحوه والترمذى.

والثانى العام هو أن: الأم خصها الله تعالى بالحمل، وخصها بالرضاع وهى التى تقوم على رعايته -أى الطفل- وهو صغير فحصل لها بذلك مراتب ثلاثة، لذلك خصها بالذكر دون الأب، لأنه لا يستطيع أن يقوم بهذه المهمات الثلاثة (الحمل - الرضاع - الرعاية) ولقد خصها الرسول ﷺ هو الآخر عندما جاءه رجل، فسأله:

يا رسول الله، من أحق الناس بحسن صحابتى؟ قال: «أمك» قال: ثم من؟ قال: «أمك» قال: ثم من؟ قال: «أمك» قال: ثم من؟ قال: «أبوك»(١)

وفى رواية عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال: . بلفظ «من أبر؟ فذكر الأم ثلاثًا، ثم قال فى الرابعة: «أباك ثم الأقرب فالأقرب»(٢)

أخى الحبيب:

وليس الأمر ببر الوالدين، والإحسان إليهما من خصوصيات هذه الأمة المحمدية فحسب، بل إنه أمر إلهى قديم، فرضه الله على من قبلنا، ووصاهم به، بل وأخذ عليهم العهد والميثاق بالبر والإحسان، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ﴾ [البقرة: ٨٣]. ولقد أثنى سبحانه على بعض أنبيائه عليهم السلام بأنهم كانوا بارين بآبائهم، وأمهاتهم، فقال عن يحيى عليه السلام ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ [مريم: ١٤] ومدح عيسى عليه السلام، لبره بأمه، واعترافه بفضلها، فقال جل وعلا: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم: ٣٢].

وعن وهب بن منبه رحمه الله تعالى: أنَّ الله تعالى قال: «يا موسى، وقر والديك، فإنه من وقر والديه مددت فى عمره، ووهبت له ولدًا يبره، ومن عق والديه، قصرت عمره، ووهبت له ولدًا يعقه»(٣)

وقد روى وهب بن منبه قال: إن موسى عليه السلام سأل ربه عز وجل، فقال: يا رب بم تأمرنى؟ قال: بأن لا تشرك بى شيئًا. قال: وبم؟ قال: وببر والدتك. قال: وبم؟ قال: بوالدتك. قال: وبم؟ قال: بوالدتك، فإن البر بالوالد يزيد فى العمر، والبر بالوالدة يثبت الأجل»(٤).

• شخصيات بارة ذكرها القرآن الكريم •

١- إسماعيل عليه السلام:

ذلكم النبى الكريم عليه السلام، الذى ضرب أروع الأمثلة فى بر الوالدين، كما ذكرت سورة الصافات، قال تعالى: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ

---

(١) رواه البخارى (٥٩٧١) ومسلم.

(٢) رواه البخارى فى الأدب المفرد، ورواه الترمذى وصححه وأبو داود.

(٣) نزهة الناظرين ص١٨٦ (٤) رواه أحمد فى الزهد ص٨٤ ط الريان للتراث.

﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢: ١٠٧].

لما رأى سيدنا إبراهيم عليه السلام تلك الرؤية الربانية، التى تأمره بأن يذبح ولده إسماعيل، وكان قد بلغ من العمر ثلاثة عشر عامًا، وهى سن خطيرة فى مرحلة الشباب فماذا كان موقف إسماعيل عليه السلام؟ ماذا كان موقفه وقد طُلب منه تقديم عنقه للسكين، بعد أن اشتد ساعده، وصلب عوده، ونضر شبابه؟!.

إنه بلغ أعلى منزلة فى البر والطاعة بل والصبر، فحسم الموقف، فى كلمات قليلة، ﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠١] أى لا تأخذ رأيى، ولا تنتظر مشورتى، بل نفذ ما أمرك به مولاك، ولم يقل ذلك ادعاء للشجاعة والبطولة بل صدق قوله فعله، وأسلم عنقه لأبيه، وتهيأ للذبح بالسكين، حتى قال له: يا أبت، كبنى على وجهى حتى لا تأخذك الرأفة بى فيحول ذلك بينك وبين قضاء الله وأمره، وهنا نجح الوالد فى الامتحان مع ولده، وبعد ما شحذ السكين حتى أخذت فى الحجر، وأخذ يمررها على رقبة ولده إسماعيل عليه السلام.

لكنها لم تأخذ، فالذى سلب من النار إحراقها سلب السكين ذبحها، وأرسل جبريل عليه السلام بالنداء من السماء، وفى ذلك يقول جلت قدرته ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٣: ١٠٧].

لكن ماذا لو كان شاب فى عصرنا الحاضر فى موقف سيدنا إسماعيل عليه السلام؟! ماذا كان يقول شباب القرن العشرين؟ وماذا كانت النتيجة؟

كانت النتيجة كالتالى:

أولاً: وصف هذا الأب بالجنون والخبل، فيقول له: أنت خرفت، أنت مجنون ونحو ذلك.

ثانيًا: إشعال نار الغل والحقد فى قلب هذا الابن على أبيه.

ثالثًا: الإكثار من سبه وشتمه والدعاء عليه.

لكن إسماعيل عليه السلام لم يزده ذلك إلا طاعة وحبًا لأبيه، وتقديرًا له، وهذا هو الفارق بين سيدنا إسماعيل عليه السلام، وبين شباب العصر.

وشتان ثم شتان بين النور والظلام، وشتان بين الحمق والحلم، وشتان بين الطيش والروية، لقد فسدت أذواقهم، وماتت مشاعرهم إلا من رحم الله.

ولما شب إسماعيل عليه السلام، فماذا حدث؟ لقد بينت لنا السنة النبوية أيضًا مدى بره وطاعته لأبيه، فجاء في قصص الأنبياء لابن كثير:

لما ماتت أم إسماعيل عليه السلام جاء إبراهيم عليه السلام بعد ما تزوج إسماعيل فلم يجده، فسأل زوجته عنه، فقالت: خرج يبتغي لنا رزقًا، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بشرٍّ، نحن في ضيق وشدة، وشكت إليه حالهم، فقال لها: إذا جاء زوجك، فاقرئي عليه السلام، وقولي له: غير عتبة بابك.

فلما جاء إسماعيل عليه السلام كأنه آنس شيئًا، فقال: هل جاءكم من أحد؟ فقالت: نعم جاءنا شيخ صفته كذا وكذا، فسألني عنك فأخبرته، وسألني: كيف عيشتكم؟ فأخبرته أننا في جهد وشدة، فقال لها: هل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم، أمرني أن أقرئك السلام، ويقول لك: غير عتبة بابك. قال: ذاك أبي، وقد أمرني أن أفارقك، فالحقي بأهلك، وطلقها وتزوج بأخرى، ولبث عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاهم بعد فلم يجده، فلما قدم قامت المرأة إليه، وغسلت له يده ورأسه، وأكرمته، فسألها عن عيشهم؟ فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على الله عز وجل. فقال لها: إذا جاء زوجك فأقرئيه السلام، وقولي له: ثبت عتبة بابك. فلما جاء وسألها إسماعيل. فأخبرته بما حدث، فقال لها: أنت عتبة البيت وقد أمرني أن أمسكك ولا أفارقك[1] فتأمل هذه القصة بما فيها من البر والطاعة. ولا عجب فإن بره بأبيه إبراهيم عليه السلام، قد ورثه عنه، فتأمل بره عليه السلام.

٢- بر إبراهيم عليه السلام بأبيه آزر:

وهذا رجل آخر، وعلم من أعلام البر بالآباء كما صور القرآن الكريم ذلك، فلقد بلغ سيدنا إبراهيم عليه السلام مبلغًا عظيمًا لا مثيل له في البر بأبيه، لأنه كان يدعو أباه إلى الجنة، وهو يدعوه إلى النار، يدعوه إبراهيم لتوحيد الله، وهو يدعوه إلى الشرك به سبحانه، إبراهيم يرشده بحلم، لكن أباه يعترضه بغضب وشدة، وكان يكرر دعوته لأبيه بغاية التلطف واللين، مستعملا في خطابه معه «يا أبت» ليشعره بأنه ابنه، والابن البار يكون حريصًا على كل ما ينفع أباه، قال سبحانه: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ٤١: ٤٣]. فلم يصف أباه بالجهل المفرط، ولا نفسه بالعلم الفائق، ولكنه قال له: إن معي طائفة من العلم، وشيئًا منه ليس معك، فاقبل قولي ونصحي، ثم يقول له متوسلاً إليه، ومستعطفًا إياه: ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ [مريم: ٤٤] وبالرغم من

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير، والسيرة النبوية للدكتور/ محمد الطيب النجار بتصرف.

هذا اللين، وذاك التلطف فى الخطاب، والتزام أقصى حدود الأدب، إلا أنه أجابه: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنت عنْ آلِهتِي يَا إبراهيم لَئِن لَّم تنته لأَرجمنَّك واهجرنِي مليًا﴾ [مريم: ٤٦] يقول مصرًا على كفره وعناده: أمعرض أنت ومنصرف عن عبادة آلهتى؟ لئن لم تنته عن الطعن فيها، ونصحك لى، لأرجمنك بالحجارة وتباعد عنى زمنًا طويلاً لكن إبراهيم عليه السلام يقابل السيئة بالحسنة فيقول: ﴿سَلامٌ عَلَيْك سَأَستَغْفِرُ لَك رَبِّى إِنَّهُ كان بِى حفِيًا﴾ [مريم: ٤٧].

٣- سيدنا عيسى، ويحيى -عليهما السلام-:

لقد ذكر لنا القرآن الكريم عن عيسى عليه السلام أنه بار بوالدته، لأنه لم يكن له أب قال سبحانه: ﴿وَبَرًّا بِوالِدَتِي ولَمْ يجعَلْنِي جَبَّارا شَقِيًا﴾ [مريم ٣٢].

قال بعض السلف: لا تجد أحدًا عاقًا لوالديه إلا وجدته جبارًا شقيًا، ثم قرأ: ﴿ولَمْ يَجعَلْنِي جبَّارًا شَقيًّا﴾ [مريم: ٣٢] ثم قال عن نفسه. ﴿وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حيًّا﴾ [مريم: ٣٣] أى السلام على يوم ولدت فى الدنيا، ويوم أموت فأقبر، ويوم أبعث حيًا فى الآخرة.

أى أن له ثلاثة أحوال: فى الدنيا حيًا، وفى القبر ميتًا، وفى القيامة مبعوثًا.

قال سفيان بن عينية: أوحش ما يكون الخلق فى ثلاثة مواطن: يوم ولد، فيرى نفسه خارجًا مما كان فيه، ويوم يموت، فيرى قومًا لم يكن عاينهم، ويوم يبعث فيرى نفسه فى محشر عظيم[1]

وأما يحيى عليه السلام، فقال عنه ربه جل وعلا: ﴿وبرًّا بوالدَيْه ولَمْ يَكُن جَبَّارًا عصيًّا (١٤) وسَلامٌ عَلَيْه يَوْمَ وُلِد ويوم يموتُ ويوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ١٤، ١٥].

وشتان بين سلام الله تعالى على عبده، وبين سلام العبد على نفسه.

وعن الحسن قال: إنَّ يحيى وعيسى -عليهما السلام التقيا، فقال عيسى عليه السلام: أنت خير منى، سلمت على نفسى، وسلم الله عليك، فعرف والله فضلهما[2]

٤- بر الأب وطاعته فى قصة يوسف عليه السلام:

يقول الأستاذ عبد الرءوف الحناوى[3]:

فى قصة يوسف عليه السلام عظات وعبر، يتجلى فيها حنان الأب وشفقته، وتظهر فيها طاعة الوالد فيما أمر، والمحافظة على المروءة والمعروف:

حُبس (بنيامين) أخو يوسف عليه السلام، لوجود صواع الملك فى رحله، وحاول إخوته استرضاء يوسف واستعطافه، ليعفو عنه، فلم يفلحوا، وكانوا قد أعطوا أباهم موثقًا أن

---

(١) القرطبى ١١/ ١٠٤، ١٠٥ (٢) تفسير الطبرى ١٦/ ٤٥

(٣) مختصر بر الوالدين ص٨٢، ٨٣ هدية مجلة التوحيد لأنصار السنة المحمدية (١٧).

يعودوا به إليه إلا أن يحاط بهم، فكيف يعودن الآن بدونه؟ لقد بذلو ا أقصى جهدهم، لكنه لم يقبل رجاءهم، فلما خاب أملهم فى تحقيق أمنيتهم، قرروا العودة إلى بلادهم، غير أن أكبرهم سنًّا، أبى أن يعود، وقال لهم: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [يوسف: ٨٠]. وقرر البقاء فى مصر، وفاء بوعده الذى قطعه على نفسه. أليس لأبيه عليه حق الطاعة؟ أليس من العقوق أن يعود وقد أمره ألا يعود؟ لقد أيقن أن أوامر الأب واجبة الامتثال، فلم يبرح المكان إلى أن يصدر أمر أبوى يأذن له بالحضور. فهذا ابن بار لم تسول له نفسه مخالفة أوامر والده، لأن طاعة الوالد من طاعة الله، فجزاه الله بذلك خيرًا بأن تمكن من التعرف بيوسف، فانفرجت الأزمة، وتحققت الرؤيا.

• ثمار بر الوالدين فى السنة النبوية •

أخا الإسلام:

إن بر الوالدين يكسب صاحبه ثمارًا فى الدنيا والآخرة، فهيا بنا لنقطف من تلك الثمار الطيبة، وهيا بنا لنقطف تلك الزهرات من رياض السنة فى بر الوالدين.

الثمرة الأولى: رضا الله تبارك وتعالى:

ولا شك أن هذه الثمرة الطيبة يتمناها كل مؤمن موحد، بل هى غايته العظمى.

رضاك يا رب خير من الدنيا وما فيها — يا مالك النفس قاصيها ودانيها

فليس للروح آمال تحققها — سوى رضاك فذا أقصى أمانيها

فنظرة منك يا سؤلى ويا أملى — أحبُّ إلىَّ من الدنيا وما فيها

إنها ثمرة طيبة، وهل بعد رضا الله على عبده شيء؟ إن المؤمن يعمل جهده، على بلوغ هذه الثمرة المرجوة بكل ما يستطيع من أعمال البر، فتلك أمنيته، وتلك بغيته ومقصده الأسمى.

ليتك تحلو والحياة مريرة — وليتك ترضى والأنام غضاب

وليت الذى بينى وبينك عامر — وبينى وبين العالمين خراب

إذا صح منك الود فالكل هين — وكل ما فوق التراب تراب

فقد جعل رسولنا هذه الثمرة فى إرضاء الوالدين حيث قال فى الحديث الذى رواه عنه عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ: «**رضا الرب فى رضا الوالدين، وسخط الله فى سخط الوالدين**»[1] وهذه الثمرة يرجوها العبد المؤمن من ربه فى دنياه وأخراه.

---

(١) رواه الترمذي وابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم وذكره المنذرى فى الترغيب٣/ ٣٢٢ وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة برقم (٥١٥).

الثمرة الثانية: دخول الجنة:

ولا شك أخى الحبيب أن هذه المنزلة، وتلك الثمرة مترتبة على ما قبلها.

فعن معاوية بن جاهمة ﷺ أن جاهمة جاء إلى النبى ﷺ، فقال: يا رسول الله، أردت أن أغزو، وقد جئت أستشيرك؟، فقال: «**هل لك من أم؟**». قال: نعم. قال: **فالزمها فإن الجنة عند رجلها**»[١].

وعن أبى الدرداء ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الوالد أوسط أوسط باب الجنة، فإن شئت فأضع هذا الباب أو احفظه**»[٢]

فإن كان قد بدر منك عقوق لهما أو لأحدهما فبادر قبل أن يفوت الأوان، بادر بالإحسان إليهما، وكن محسنًا فيما بقى، يغفر الله لك ما قد سلف.

يا من أسرف فيما مضى ثم اعترف كن محسنًا فيما بقى تعطى الشرف
وأبشر بقول الله فى تنزيله إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف

الثمرة الثالثة: أن بر الوالدين سبب قوى من أسباب غفران الذنوب:

وإلى هذه الثمرة كانت الإشارة بحديث جابر بن سمرة ﷺ قال: صعد النبى ﷺ المنبر، فقال: «آمين» ثم صعد الثانية، فقال: «آمين» ثم صعد الثالثة، فقال: «آمين» فلما سئل عن ذلك؟ قال: **أتانى جبريل، فقال: يا محمد، من أدرك أبويه فمات فدخل النار، فأبعده الله، فقل: آمين، فقلت: آمين، فقال: يا محمد، من أدرك شهر رمضان، ولم يغفر له، فأبعده الله، فقل آمين، فقلت: آمين، قال: ومن ذكرت عنده فلم يصل عليك فمات فلم يغفر له، فأدخل النار، فقل: آمين، فقلت: آمين**»[٣]

وعن ابن عمر ﷺ قال: أتى النبى ﷺ رجل، فقال: إنى أذنبت ذنبًا عظيمًا فهل لى من توبة؟ فقال له: **هل لك من أم؟** قال: لا قال: **فهل لك من خالة؟** قال: نعم. قال: «**فبرها**»[٤]

الثمرة الرابعة: أن البر من أسباب السعة فى العيش، والبركة فى العمر:

وإلى هذه الثمرة الدنيوية كانت الإشارة بحديث هذه الوصية المباركة: «**من سره أن يُمَدَّ له فى عمره، ويزاد له فى رزقه، فليبر والديه، وليصل رحمه**».

وحديث سلمان الفارسى ﷺ: أن النبى ﷺ قال: «**لا يرد القضاء إلا الدعاء ولا يزيد فى العمر إلا البر**»[٥]

---

(١) رواه ابن ماجه والنسائى واللفظ له والحاكم وقال: صحيح الإسناد وذكره المنذرى فى الترغيب٣/ ٣١٦ وصححه الألبانى فى صحيح سنن النسائى.

(٢) رواه الترمذى (١٩٠٠) وقال: حديث صحيح ورواه أحمد فى مسنده (٢١٦١٤) والحاكم٤/ ١٥٢

(٣) رواه الطبرانى بسند حسن. (٤) رواه الترمذى وصححه (١٥٥٤).

(٥) رواه الترمذى وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى برقم (١٧٣٨).

الثمرة الخامسة: أن بر الوالدين من أحب الأعمال إلى الله تعالى:

وإلى هذه الثمرة كانت الإشارة بحديث عبد الله بن مسعود ﷺ حين قال: سألت رسول الله ﷺ: أى الأعمال أحب إلى الله تعالى؟ قال: «**الصلاة لوقتها**» قلت: ثم أى؟ قال: «**بر الوالدين**»(١)

الثمرة السادسة: أن بر الوالدين يفرج الكروب، ويزيل الهموم:

وإلى هذه الثمرة كانت الإشارة بالحديث الذى رواه الصحابى الجليل عبد الله بن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **بينما ثلاثة نفر، يتماشون، أخذهم المطر، فمالوا إلى غار فى الجبل، فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل، فأطبقت عليهم، فقال بعضهم لبعض: انظروا أعمالاً عملتموها لله عز وجل صالحة، فادعوا الله بها لعله يفرجها، فقال أحدهم: اللهم إنه كان لى والدان شيخان كبيران ولى صبية صغار كنت أرعى، فإذا رحت عليهم فحلبت لهم بدأت بوالدى أسقيهما قبل ولدى، وإنه نأى بى الشجر، فما أتيت حتى أمسيت، فوجدتهما قد ناما، فحلبت كما كنت أحلب، فجئت بالحلاب، فقمت عند رءوسهما أكره أن أوقظهما من نومهما والصبية يتضاعون عند قدمى، فلم يزل ذلك دأبى ودأبهم حتى طلع الفجر، فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فافرج لنا فرجة نرى منها السماء، ففرج الله عز وجل لهم حتى رأوا منها السماء..**»(٢) الحديث.

الثمرة السابعة: أن بر الوالدين له ثواب الحاج والمعتمر بل له ثواب الجهاد:

وإلى هذه الثمرة المباركة كانت الإشارة بحديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ، فاستأذنه فى الجهاد، فقال: **أحىٌّ والداك؟** قال: نعم. قال: «**ففيهما فجاهد**»(٣) وفى رواية عن أنس قال: أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: إنى أشتهى الجهاد ولا أقدر عليه. قال: «**هل بقى من والديك أحد؟** قال: أمى. قال: **قابل الله فى برها، فإذا فعلت ذلك فأنت حاج ومعتمر ومجاهد**»(٤)

• من حقوق الآباء على الأبناء •

جاء عن بعض التابعين، أنه قال:

«من دعا لأبويه فى كل يوم خمس مرات فقد أدى حقهما، **لأن الله تعالى قال: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾** [لقمان: ١٤]. **فشكر الله تعالى أن يصلى فى كل** يوم خمس مرات، وكذلك شكر الوالدين أن يدعو لهما فى كل يوم خمس مرات(٥)

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأحمد وأبو نعيم فى الحلية٥/ ٦٦ وفى صحيح الجامع للألبانى(٢٨٧٠).

(٢) رواه البخارى ومسلم وأحمد وغيرهم.

(٣) رواه البخارى ومسلم وأحمد فى مسنده (٦٥٤٤)٦/ ١١٥ وأبو داود (٢٥٢٩) والترمذى.

(٤) رواه أبو يعلى والطبرانى فى الصغير والأوسط، وإسنادهما جيد. قاله المنذرى فى الترغيب٣/ ٣١٥.

(٥) تنبيه الغافلين ص٩٣

ويقال للوالدين على الولد عشرة حقوق:

أحدها: أنه إذا احتاج إلى الطعام أطعمه.

الثاني: إذا احتاج إلى الكسوة كساه إن قدر عليه.

والثالث: إذا احتاج أحدهما إلى خدمته خدمه.

الرابع: إذا دعاه أجابه وحضره.

الخامس: إذا أمره بأمر أطاعه مالم يأمر بالمعصية والغيبة.

السادس: أن يتكلم معه باللين، ولا يتكلم معه بالكلام الغليظ.

السابع: أن لا يدعوه باسمه.

الثامن: أن يمشي خلفه.

التاسع: أن يرضى له ما يرضى لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه.

والعاشر: أن يدعو له بالمغفرة، كلما يدعو لنفسه(١)

يقول سيدنا على بن أبى طالب رضي الله عنه:

عليك ببر الوالدين كليهما ... وبر ذوى القربى وبر الأباعد

ولا تصحبن إلا تقيًا مهذبًا ... عفيفًا ذكيًا منجزًا للمواعد

وقارن إذا قارنت حرًا مؤدبًا ... فتى من بنى الأحرار زين المشاهد

وكف الأذى واحفظ لسانك واتقى ... فديتك فى ود الخليل المساعد

• شخصيات بارة سجلها التاريخ* •

أخى الحبيب:

هيا بنا لنقف مع سادات البر بالآباء والأمهات، هيا بنا لنقف مع أولئك الذين كان البر لهم شعارًا، والطاعة لهم عنوانا، وأول هؤلاء الأبرار:

١- ذو النورين: عثمان بن عفان رضي الله عنه:

يقول: ما قدرت أن أتأمل وجه أمي منذ أسلمت، لأن من الأدب معهما أن تغض بصرك، وأنت واقف أمامهما.

٢- عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

يقول عبد الله بن دينار: إن عبد الله لقيه رجل بطريق مكة فسلم عليه عبد الله، وحمله على حمار كان يركبه، وأعطاه عمامة كانت على رأسه. قال ابن دينار: فقلنا له: أصلحك الله إنهم الأعراب، وإنهم يرضون باليسير فقال عبد الله: إن أبا هذا كان ودًّا لعمر ابن الخطاب، وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أبر صلة الرجل أهل ود أبيه**»(٢).

---

(١) المرجع السابق ص٩٣، ٩٤ * انظر من وصايا القرآن جـ٢/ ٥٨٠ - ٥٨٤.

(٢) رواه مسلم وأحمد فى مسنده (٥٦٥٣) جـ٥/ ١٦٥ وذكره المنذرى فى الترغيب٣/ ٣٢٣.

وحدثنا ابن عمر رضي الله عنه أنه شهد رجلاً يمانيًا يطوف بالبيت، وهو يحمل أمه وراء ظهره، ويقول:

إنى لها بعيرها المذلل إن أُذْعِرتْ ركابُها لم أُذْعَر
الله ربى ذو الجلال الأكبر
حملتها أكثر مما حملت فهل ترى جازيتها يابن عمر[1]

فقال له: لا، ولا بزفرة واحدة.

وفى رواية: «ولا بسهر ليلة من لياليها عليك، ولكنك قد أحسنت، والله يثيبك على القليل كثيرًا»[2]

٣- سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه:

كان إذا أراد أن يخرج من بيته وقف على باب أمه، فقال: السلام عليك يا أماه ورحمة الله وبركاته، فتقول: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، فيقول: رحمك الله كما ربيتنى صغيرًا، فتقول: رحمك الله كما بررتنى كبيرة، وإذا أراد أن يدخل صنع مثل ذلك[3]

٤- أويس القرنى رضي الله عنه:

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا أتى أمداد اليمن سألهم: أفيكم أويس بن عامر؟ حتى أتى على أويس بن عامر، قال: أنت أويس بن عامر؟ قال: نعم. قال: كان بك برص، فبرأت منه إلا موضع درهم؟ قال: نعم. قال: ألك والدة؟ قال: نعم. قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يأتى عليكم أويس بن عامر مع أمداد اليمن من مراد ثم من قرن، كان به أثر برص، فبرأ منه إلا موضع درهم، له والدة هو بارٌّ بها، لو أقسم على الله لأبره، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل**» فاستغفر لى، فاستغفر له، فقال له عمر: أين تريد؟ قال: الكوفة. قال عمر: ألا أكتب لك إلى عاملها؟ قال: أكون فى غبراء الناس أحبُّ إلىَّ.

منع أويس من القدوم على النبى ﷺ بره بأمه، فلما بر أمه، برَّ الله قسمه، بل وأبر الله شفاعته، قال ﷺ: «**ليدخلن الجنة بشفاعة رجل ليس بنبى، مثل الحيين ربيعة ومضر، إنما أقول ما أقول**»[4]

٥- حارثة بن النعمان رضي الله عنه:

صحابى جليل، كان يطعم أمه بيده، ولم يستفهمها كلامًا قط تأمره به حتى يسأل من عندها؟

---

(١) الأدب المفرد للبخارى وأبو داود فى الأدب (٥١١٤).

(٢) المرجع السابق، والترغيب والترهيب لليافعى ص١٦٢ ط/ التوفيقية.

(٣) الأدب المفرد للبخارى.

(٤) رواه مسلم (٦٤٣٩) وأحمد والطبرانى بإسناد صحيح وقد ذكره ابن الأثير فى أسد الغابة١/ ١٧٦ وأبو نعيم فى الحلية٢/ ٧٩ وابن سعد فى الطبقات٦/ ١٦١

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «نمت فرأيتني في الجنة، فسمعت صوت قارئ يقرأ، فقلت: من هذا؟ قال: حارثة بن النعمان، فقال رسول الله ﷺ: كذا البر، كذا البر، كأن أبر الناس بأمه»[١].

٦- بشر الحافى -رحمه الله-:

يقول بشر: الولد يقرب من أمه بحيث يسمع أمه، أفضل من الذى يضرب بسيفه فى سبيل الله، والنظر إليها أفضل من كل شىء[٢]

٧-على بن الحسين رضي الله عنه:

وقد ضرب المثل الأعلى فى بر أمه، حتى قيل له: أنت من أبر الناس، ولا نراك تؤاكل أمك، فقال: (أخاف أن تسبق يدى إلى ما قد سبقت إليه عينها فأكون قد عققتها)[٣].

٨- سفيان بن عيينة:

وهو علم من أعلام التابعين، وكان عالما زاهداً، عاش ما يقرب من إحدى وتسعين سنة يقول: قدم رجل من سفر، فصادف أمه قائمة تصلى فكره أن يقعد وهى قائمة، فعلمت ما أراد فطولت ليؤجر[٤]

٩- ابن عمرو بن ذر:

يقول عبد الله بن المبارك -رحمه الله-: بلغنى عن عمرو بن ذر أنه لما مات ابنه قيل له: كيف كان بره؟ قال: ما مشى بين يدى أبيه، وما مشى معى نهاراً قط إلا كان خلفى، ولا ليلاً إلا كان أمامى، ولا رقى على سطح أنا تحته[٥]

١٠- ابن عوف:

كان -رحمه الله- فى يوم من الأيام تناديه أمه، فأجابها، فعلا صوته على صوتها، فأعتق رقبتين[٦].

١١- حجر بن عدى بن الأدبر:

كان يلتمس فراش أمه بيده، فيتهم غلظها، فيتقلب على الفراش بظهره، فإن أمن أن يكون عليه شىء أضجعها[٧].

---

(١) رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبى، وقال الحافظ ابن حجر فى الإصابة: إسناده صحيح١/٦١٨

(٢) التبصرة لأبى الفرج بن الجوزى١/ ٢٣٤.

(٣) المحاسن والمساوئ (٥٥١) وصلاح الأمة٥/ ٦٥٣ والمستطرف للأبشيهى ص٢٨٠.

(٤) صفة الصفوة٢/ ١٣٨

(٥) البر والصلة لابن الجوزى (١٠٠).

(٦) التبصرة١/ ٢٣٤

(٧) البر والصلة لابن الجوزى (١).

١٢- الفضل بن يحيى:

يقول المأمون -الخليفة العباسي-: لم أر أبر من الفضل بن يحيى بأبيه، بلغ من بره بأبيه أن يحيى كان لا يتوضأ إلا بالماء الساخن.

وكان في السجن فمنعهما السجان من إدخال الحطب في ليلة باردة، فقام الفضل حين أخذ يحيى مضجعه إلى «قمقم» يسخن فيه الماء، فملأه ثم أدناه من نار المصباح، فلم يزل قائمًا وهو في يده حتى أصبح.

ولما فطن السجّان لارتفاقه بالمصباح في تغيير الماء، فمنعهم من الاستصباح في الليلة المقبلة، فعمد الفضل إلى «القمقم» مملوءًا، فأخذه معه في فراشه، وألصقه ببطنه حتى أصبح وقد فتر الماء(١)

• حكايات عن البر بالوالدين •

تأمل رحمك الله لتأخذ العظة والعبرة من قصص أولئك البارين بآبائهم وأمهاتهم ثم انظر جزاء البر، سواء أكان في الدنيا، أم في الآخرة.

١- عن طاوس بن كيسان رحمه الله عن أبيه قال: كان رجل له أربعة بنين، فمرض. فقال أحدهم: إما أن تمرضوه، وليس لكم من ميراثه شيء، وإما أن أمرضه وليس لي من ميراثه شيء. قالوا: بل تمرضه وليس لك من ميراثه شيء.

فمرضه حتى مات، ولم يأخذ من ميراثه شيئًا. قال: فأُتي في المنام، فقيل له: ائت مكان كذا وكذا فخذ منه مئة دينار. فقال: أفيها بركة؟ قالوا: لا فلما أصبح ذكر ذلك لامرأته، فقالت: خذها فإن من بركتها أن نكتسي منها، ونعيش بها، فلما أمسى، أُتي في النوم، فقيل له: ائت مكان كذا وكذا فخذ منه عشرة دنانير. فقال: أفيها بركة؟ قالوا: لا فلما أصبح ذكر ذلك لامرأته، فقالت له مثل ذلك. فأبى أن يأخذها فأُتي في الليلة الثالثة، فقيل له: ائت مكان كذا وكذا وخذ منه ديناراً، قال: أفيه بركة؟ قالوا: نعم. فذهب، فأخذ الدينار، ثم خرج به إلى السوق، فإذا هو برجل يحمل حوتين -أي سمكتين- فقال: بكم هما؟ قال: بدينار. فأخذهما منه، وانطلق بهما إلى بيته، فلما شقهما وجد في بطن كل واحدة منهما درة لم ير الناس مثلها، فبعث الملك يطلب درة يشتريها، فلم توجد إلا عنده، فباعها بثلاثين وقرًا، -أي حملاً- ذهبًا. فلما رآها الملك قال: ما تصلح هذه إلا بأخت، فاطلبوا أختها، ولو أضعفتم الثمن. فقالوا: أعندك أختها، ونعطيك ضعف ما أعطيناك؟ قال: نعم، فأعطاهم الثانية بضعف ما باع به الأولى(٢)

---

(١) المستطرف للأبشيهي ص٢٨٠ والعقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي، وبر الوالدين للطرطوشي (٧٨) وعيون الأخبار لابن قتيبة.

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء٤/٨٠٧.

فتأمل أخى الحبيب -رحمك الله- كيف كان جزاء الابن البار الذى آثر أباه على حطام هذه الدنيا الفانية؟! لقد أعطاه الله تعالى فى الدنيا فوق ما كان يتمناه، وله فى الآخرة ثواب أعظم وأكبر فهو سبحانه لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

قال رجل لعمر بن الخطاب ﷺ: إن لى أما بلغ منها الكبر أنها لا تقضى حاجتها إلا وظهرى لها مطية، فهل أديت حقها؟ قال: لا لأنها كانت تصنع بك ذلك وهى تتمنى بقاءك، وأنت تصنعه وتتمنى فراقها(١)

وقال ابن المنكدر: بت أكبس رجل أبى، وبات آخر يصلى، ولا يسرنى ليلته بليلتى(٢)

وقال سليمان بن أيوب: لقد مكثت أطلب العلم، وأبتغى حفظ القرآن أكثر من عشر سنين، ولم أحسن قراءة الفاتحة، فعز علىَّ ذلك، وكان شيخى ييأس منى، فكنت أبكى فى خلوتى، وأضرع إلى الله فى سجودى أن يفك عقدة لسانى، ويذهب عنى ظلمة قلبى، فلم يستجب الله لى، فشكوت ذلك لرجل من الصالحين، فسألنى: هل لك من أم؟ فقلت له: نعم، فقال لى: أو بارٌ بها أنت؟ فقلت: أحسن البر يا سيدى وأتمه، فقال: اذهب إليها، ومرها تدعو لك بحفظ القرآن والفقه فى الدين، فعدت إليها مسرعًا، وأخبرتها بما قال الرجل، فانتظرت حتى كان الليل، وجاء وقت السحر، فأحسنت وضوءها، وتناولت من سحورها، وعزمت على أن تصبح صائمة لله، ثم قامت تصلى، وتدعو لى حتى طلع الفجر، فاستجاب الله لى وكأنما كان عقلى تحجبه سحابة صيف، فهبت عليها ريح عاصفة فانقشعت عن وجهها السحابة فكنت من أقوى الناس حفظًا، وأسرعهم فهمًا، وأحدهم ذكاءً وفطنة، ومازلت أترقى فى مدارج القرآن، والحديث، وأسبح فى بحور العلم والحكمة حتى أصبحت إمامًا لا يشق لى غبار، فمن كانت له حاجة تعثر عليه قضاؤها، فليسأل أبويه الدعاء(٣)

لأمك حق لو علمت كثير ... كثيرك يا هذا لديه يسير
فكم ليلة بثقلك تشتكى ... لها من جواها أنَّةٌ وزفير
وفى الوضع لو تدرى عليها مشقة ... فمشقة غصص منها الفؤاد يطير
وكم غسلت عنك الأذى بيمينها ... وما حجرها إلا لديك سرير
وتفديك مما تشتكيه بنفسها ... ومن ثديها شرب لديك نمير
وكم مرة جاعت وأعطتك قوتها ... حنانًا وإشفاقًا وأنت صغير
فآهًا لذى عقل ويتبع الهوى ... وآهًا لأعمى القلب وهو بصير(٤)

---

(١)، (٢) المستطرف ص٢٨٠ (٣) سمير الصالحين للشهاوى ١/ ١٤٢

(٤) الكبائر للعلامة الذهبى ص٤٦ ط دار الخلفاء تحقيق السيد العربى.

قال كعب الأحبار -رحمه الله-:

اجتمع ثلاثة عباد من بنى إسرائيل، فقالوا: تعالوا حتى يذكر كل إنسان منا أعظم ذنب عمله.

فقال أحدهم: أما أنا فلا أذكر من ذنب أعظم من أنى كنت مع صاحب لى، فعرضت لنا شجرة، فخرجت عليه، ففزع منى، فقال: الله بينى وبينك.

وقال أحدهم: إنا معاشر بنى إسرائيل إذا أصاب أحدنا بول، قطعه، فأصابنى بول، فقطعته، فلم أبالغ فى قطعه، فهذا أعظم ذنب عملته.

وقال الآخر: كانت لى والدة فدعتنى من قبل شمال الريح، فأجبتها فلم تسمع، فجاءتنى مغضبة، فجعلت ترمينى بالحجارة، فأخذت عصا، وجئت لأقعد بين يديها تضربنى بها حتى ترضى، ففزعت منى، فأصابت وجهها شجرة، فشجها، فهو أعظم ذنب عملته قط[١].

ويروى عن ظبيان بن على الثورى -رحمه الله- وكان من أبر الناس، فيقول:

لقد باتت أمه، وفى صدرها عليه شىء، فقام على رجليه قائمًا، يكره أن يوقظها، ويكره أن يقعد حتى إذا ضعف، جاء غلامان من غلمانه، فمازال معتمدًا عليهما حتى استيقظت من قبل نفسها.

وإن كان ليبتاع لها البقل، فينقيها طاقة طاقة حتى يضعها بين يديها، وكان يسافر بها إلى مكة، فإذا كان يوم حار حفر بئرًا ثم جاء بنطع، فصب فيه الماء، ثم قال لها: ادخلى تبردى فى هذا[٢]

الوصية رقم (٢٣)
عودوا المريض واتبعوا الجنائز

عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«عودوا المريض، واتبعوا الجنائز، تذكركم الآخرة»**[٣]

صدق رسول الله ﷺ

---

(١) البر والصلة لابن الجوزى (١٠٢) وحلية الأولياء لأبى نعيم ٨/٦ دار الكتب العلمية.

(٢) مكارم الأخلاق لابن أبى الدنيا (٢٢٧) والبر والصلة (٩٦).

(٣) أخرجه ابن أبى شيبة فى «المصنف»٤/ ٧٣ والبخارى فى الأدب المفرد ص٧٥ وابن حبان فى صحيحه، وأحمد فى مسنده (١١٢٠٩) بإسناد صححه حمزة الزين ١٠/١٠٣ وحسنه الألبانى فى أحكام الجنائز.

• في رحاب هذه الوصية المباركة •

إنها والله لوصية عظيمة مباركة، لأن الرسول ﷺ جعل هذه الوصية مركبة من عنصرين هامين، أما الأولى فهى عيادة المريض، وهى حق من حقوق المسلم على أخيه المسلم كما فى حديث النبى ﷺ: «**حق المسلم على المسلم ست: إذا لقيه فليسلم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمد الله فشمته، وإذا مرض فعده، وإذا مات فاتبع جنازته**»[1] والعنصر الثانى هو الآخر حق من حقوق المسلم على أخيه المسلم كما تبين فى هذا الحديث، والهدف الأسمى الذى يقصده الرسول ﷺ من وراء هذه الوصية هى أنه يريد أن يجعل المجتمع المسلم مجتمعًا متماسكًا قويًا، وكأنه عضو واحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى.

فإذا ما أصاب مسلم بلاء من الله جل وعلا كمرض، أو فقد عزيز كأب أو أخ أو أم، وجد المسلم أخاه بجانبه، يخفف عنه آلامه، ويواسيه فى المحنة، ويقف معه عند الشدة.

فلله سبحانه وتعالى فى بلاء عباده حكمة بالغة.

قال ابن القيم: إذا أراد الله بعبد خيرًا سقاه دواء من الابتلاء، والامتحان على قدر حاله، يستفرغ به من الأدواء المهلكة، حتى إذا هذبه ونقاه وصفاه، أهله لأشرف مراتب الدنيا، وهى عبوديته، وأرفع ثواب الآخرة وهى رؤيته وقربه».

والأيام دول ﴿**وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ**﴾ [آل عمران: ١٤٠] فيوم لك، ويوم عليك يوم صحيح ، ويوم مريض ،يوم غنى ويوم فقير،ودوام الحال من المستحال. فعودوا مرضاكم واتبعوا جنائز إخوانكم من المسلمين، تتذكروا لقاء الله رب العالمين.

• عودوا المريض •

المرض ابتلاء من الله وتمحيص لعباده المؤمنين فى الدنيا، وثواب مدخر لهم فى الآخرة ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ**﴾ [البقرة: ١٥٥] ولذلك يقول سيد الخلق ﷺ: «**إذا ابتلى الله العبد المسلم ببلاء فى جسده، قال الله عز وجل: اكتب له صالح عمله، فإن شفاه غسله وطهره، وإن قبضه غفر له ورحمه**»[2].

---

(١) رواه أحمد فى مسنده (٨٨٣١) ومسلم (٢١٦٢) والبخارى بلفظ «خمس» (١٢٤٠).

(٢) رواه أحمد فى مسنده (١٢٤٤٢) بإسناد حسن وقد صححه الهيثمى فى المجمع٢/ ٣٠٤ وقال: رجاله ثقات ورواه ابن أبى شيبة فى الجنائز وصححه الألبانى فى ص.ج (٢٥٨).

وعن أبي هريـرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**مـا يصيـب المسلم مـن نصب ولا وصب، ولا هم ولا حزن، ولا أذى حـتى الشوكـة يشاكهـا إلا كفر الله بهـا عن خطاياه**»(١) فهي أي الابتلاءات فـي ميزان العبد إن قابـل ذلك بالصبر والتسليـم لله رب العالمين، وإلا كان ذلك عليه وزرًا إن كان ساخطًا والعياذ بالله. والأحاديـث فيه كثيرة لكن ما ثواب عيادة المريض؟.

• فضل وثواب عيادة المريض •

لقد بين لنـا حبيبنا مـحمد ﷺ أن لعيادة المريض أعظم الـثواب عند الله تعالى، وأعظم شيء أن العائد للمريض كأنه يـعود ويزور مولاه عز وجل، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **إن الله تعالى يقول يوم القيامـة: يابن آدم مرضت فلم تعدني. قال العبد: يا رب كيف أعودك، وأنت الله رب العاليـن؟. يقول الله: أما علمت أن عبدي فلانًا مرض فلم تعده، أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده**»(٢)

وعن علي رضي الله عنه قال: «ما من رجل يعود مريضًا، ممسيًا إلا خرج معه سبعون ألف ملك يستغفـرون له حتى يصبح، وكان له خريف في الجنة، ومن أتاه مصبـحًا خرج معه سبعون ألف ملك يستغفرون له حتى يمشي، وكان له خريف في الجنة»(٣)

وعن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من عـاد مريضـًا لم يزل في خرفـة الجنة قيل: يـا رسول الله، وما خـرفة الجنة؟ قـال: «جناها»**(٤) أي يئول به ذلك إلي الجـنة واجتناء ثمارها.

• الصبر على المرض •

فعن عبد الله بـن عمرو - أن رسول الله ﷺ قال: «**إن العبـد إذا كان على طـريقة حسنة من العبادة، ثم مـرض، قيل للملك الموكل به: اكتب له مثل عمله إذا كـان طليقًا حتى أطلقه، أو اكفته إليّ**»(٥).

وعن عطاء بن أبي رباح -**رحمه الله- قال: قـال لي** ابن عباس رضي الله عنهما **ألا** أريك امرأة من أهل الجنة؟ **قلت**: بلى. قـال: هذه المرأة السوداء. أتت النبي ﷺ وقالت: **إني** أصرع **وإني** أتكشف، **فادع الله** لي. قال: «**إن شئت صبرت ولـك الجنة، وإن شئت دعوت الله أن يعافيك. قالـت: أصبر. قالت: فإني أتكشف، فادع الله أن لا أتكـشف، فدعا لها**»(٦) فالصبر على الأمراض ليس له جزاء إلا الجنة يوم القيامة.

(١) رواه البخاري (٥٦٤٢) ومسلم (٢٥٧٣) والترمذي وحسنه (٩٦٦) وأحمد في مسنده (١١٠٨٤).
(٢) رواه مسلم (٢٥٦٩) وأحمد (٧٩٧٥).
(٣) رواه أبو داود موقوفا (٣٠٩٨) وهو في السلسلة الصحيحة للألباني برقم (١٣٦٧).
(٤) رواه مسلم (٢٥٦٨).
(٥) رواه البيهقي وأبو داود والبخاري بنحوه.
(٦) رواه مسلم (٢٥٧٦) والبخاري (٥٦٥٢).

• آداب زيارة المريض •

يستحب لزيارة المريض عدة أمور منها:

١- يستحب لزائر المريض أن يدعو له بالشفاء.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«من عاد مريضًا لم يحضر أجله، فقال عنده سبع مرات: أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيك إلا عافاه الله من ذلك المرض»**(١)

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«إذا جاء الرجل يعود مريضًا فليقل: «اللهم اشف عبدك ينكأ لك عدوك، أو يمشى لك إلى جنازة»** وفي رواية: **«الصلاة»**(٢)

٢- ومنها: أن يبشر المريض بفضل وثواب الصبر، لما روى أن أم العلاء قالت: عادني رسول الله ﷺ وأنا مريضة فقال: **«أبشرى يا أم علاء، فإن مرض المسلم يذهب الله به خطاياه، كما تذهب النار خبث الذهب والفضة»**(٣) وفي الحديث أمران:

١- تبشير الميت وحثه على الصبر.

٢- جواز عيادة المرأة المسلمة الأجنبية شريطة عدم الخلوة.

٣- ويستحب أن يعود المريض ماشيًا لا راكبًا، لكن لا بأس بالركوب إن كان لعذر أو ضرورة لحديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه: «كان النبي ﷺ يعودني ليس براكب بغلاً ولا برذونًا»(٤)

٤- ويستحب للزائر أن يضع يده على مكان الألم إن تيسر له ذلك، ويسمى الله تعالى ويدعو للمريض لقول عائشة رضي الله عنها **«كان رسول ﷺ إذا عاد مريضًا يضع يده على المكان الذي يؤلم، ثم يقول: بسم الله»**.

٥- ويستحب تخفيف الزيارة، وألا يكررها إلا إذا رغب المريض في ذلك.

عليك بإقلال الزيارة إنها ... تكون إذا دامت إلى الهجر مسلكا
فإني رأيت القطر يُسأم دائبًا ... ويُسأل بالأيدى إذا هو أمسكا

---

(١) صححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢٦٦٣).

(٢) صححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢٦٦٤).

(٣) صحيح سنن أبي داود للألباني(٣٠٩٢) ورواه الطبراني في الكبير، وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة برقم(٧١٤) جـ٢/٣٣٩.

(٤) رواه أبو داود وصححه الألباني (٣٠٩٦) ورواه الترمذي (٤١٢٣) والبخاري.

٦- يستحب للعائد إذا كان المريض يظن فيه الصلاح، ويتبرك أن يتوضأ، ويصب عليه من وضوئه. يقول جابر بن عبد الله رضي الله عنه: «مرضت مرضًا فأتاني النبي ﷺ يعودني وأبو بكر وهما ماشيان فوجداني أغمي عليّ، فتوضأ النبي ﷺ ثم صب وضوءه عليّ فأفقت.

٧- ويستحب للزائر أن يقول للمريض: لا بأس طهور إن شاء.

لحديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ دخل على رجل يعوده، فقال: **«لا بأس طهور إن شاء الله»**(١) أي أن هذا المرض تطهير لك من الذنوب والخطايا.

٨- ويستحب أن لا يسأل المريض كثيرًا حتى لا يتضجر، ولذلك قيل:

حق العيادة يوم بعد يومين وجلسة مثل خلس اللحظ بالعين
لا تبرمنّ عليلا في مساءلة يكفيك من ذاك تسأل بحرفين

• اتبعوا الجنائز، تذكركم الآخرة •

يوم الجنائز. ما أحلاه من يوم للطيبين الصالحين.. وما أشده من يوم على العصاة المذنبين.. يوم الجنائز يوم الروح والريحان، وملاقاة رب غير غضبان لمن صلح عمله.. يوم الجنائز يوم النزل من الحميم، وتصلية الجحيم لمن كفر به وعصاه..

يوم تبكي السموات والأرض على المخلصين الأبرار وتفرح لموت المذنبين الأشرار قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إن المؤمن إذا مات بكى عليه مصلاه من الأرض، ومصعد عمله من السماء، وإن آل فرعون لم يكن لهم في الأرض مصلى، ولا في السماء مصعد عمل، قال تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ﴾ [الدخان: ٢٩].

وقال مجاهد: ما من مؤمن إلا بكت عليه السماء والأرض أربعين صباحًا، فقيل له: أو تبكي؟ قال: وما للأرض لا تبكي على عبد كان يعمرها بالركوع والسجود؟ ما للسماء لا تبكي على عبد كان لتسبيحه وتكبيره فيها دوي كدوي النحل(٢)؟

يوم الجنائز.. إما يوم يستريح فيه المؤمنون.. وإما مستراح من الكفار المذنبين فعن أبي قتادة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ مُرَّ عليه بجنازة، فقال: **«مستريح أو مستراح منه»** قالوا: يا رسول الله، ما المستريح والمستراح منه؟ قال: **«العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب»** ولذلك فإن الرسول ﷺ أمرنا أن نسرع بالجنازة إسراعًا خفيفًا غير مفرط، فقال ﷺ: **«أسرعوا بالجنازة فإن تك صالحة فخير تقدمونها إليه، وإن تك سوى ذلك فشر تضعونه عن رقابكم»**(٣).

---

(١) رواه البخاري. (٢) حلية الأولياء ٣/ ٢٩٧

(٣) رواه مسلم (٩٤٤) والبخاري (١٣١٥) وأحمد (٧٢٦٥) وصحيح الجامع (٩٦٤).

قال النووي في شرح مسلم:

يستحب الإسراع بالمشي بها مالم ينته إلى حد يخاف انفجارها ونحوه، وإنما يستحب بشرط أن لا يخاف من شدته انفجارها أو نحوه، وحمل الجنازة فرض كفاية، ولا يحملها إلا الرجال وإن كانت الميتة امرأة، لأنهم -أي الرجال- أقوى لذلك، والنساء ضعيفات، وربما انكشف من الحامل بعض بدنه.

وجاء عن بعض السلف كراهة الإسراع، وهو محمول على الإسراع المفرط الذي يخاف معه انفجارها أو خروج شيء منها[1].

ولقد حث نبينا محمد ﷺ على عيادة المريض مع اتباع الجنائز، وذلك حين سأل أصحابه الكرام، وكانوا في مجلس من مجالسهم النورانية، فقال لهم: **«من أصبح منكم اليوم صائمًا؟»** قال أبو بكر: أنا يا رسول الله. فقال: **«من أطعم منكم اليوم مسكينًا؟»**.

قال أبوبكر: أنا يا رسول الله. قال: **«من عاد منكم اليوم مريضًا؟»** فقال أبو بكر: أنا فقال: **«من تبع منكم اليوم جنازة؟»** قال أبو بكر: أنا يا رسول الله.

فقال ﷺ: **«ما اجتمعت هذه الخصال قط في رجل إلا دخل الجنة»**[2]

• ثواب صلاة الجنازة وتشييعها •

أخي الحبيب:

ولو تأملت في الأحاديث الواردة في صلاة الجنازة لرأيتها على قسمين:

١- قسم يعود بالفائدة على الميت. ٢- وقسم آخر، يعود بالفائدة على المشيع لها.

١- منفعة صلاة الجنازة بالنسبة للميت:

فقد وردت أحاديث متعددة في فائدة صلاة الجنازة للميت، ومنها:

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«ما من أربعين من مؤمن يشفعون لمؤمن إلا شفعهم الله فيه»**[3]

وعن ميمونة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: **«ما من ميت يصلي عليه أمة من الناس إلا شفعوا فيه»**[4]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«من صلى عليه مائة من المسلمين غفر له»**[5].

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي٤/ ٣٥، ٣٦. (٢) رواه مسلم.

(٣) رواه ابن ماجه (١٤٨٩) وصححه الألباني في ص.ج (٥٦٨٠) والسلسلة الصحيحة (٢٢٦٧).

(٤) رواه النسائي وحسنه الألباني في ص.ج (٥٧٨٧).

(٥) رواه ابن ماجه (١٤٨٨) وصححه الألباني في ص.ج رقم (٦٣٥٦).

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**ما من ميت يصلى عليه أمة من المسلمين يبلغون أن يكونوا مائة، فيشفعون له، إلا شفعوا فيه**»(١) وجاء في رواية أن الأمة تزيد عن المائة: «**لا يموت أحد من المسلمين، فيصلى عليه أمة من المسلمين، يبلغون أن يكونوا مائة، فما فوقها، فيشفعوا له، إلا شفعوا فيه**»(٢)

٢- ثواب المشيع للجنازة:

أما ثواب المشيع فقد وردت أحاديث كثيرة صحيحة في عظم ثواب من شيع جنازة مسلم فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من خرج مع جنازة من بيتها، وصلى عليها، ثم يتبعها حتى تدفن، كان له قيراطان من أجر، كل قيراط مثل أحد، ومن صلى عليها ثم رجع، كان له من الأجر مثل أحد**»(٣)

قال النووي: فيه الحث على صلاة الجنازة واتباعها ومصاحبتها حتى تدفن.. ويحصل للمصلي قيراط وبالاتباع مع حضور الدفن قيراط، فيكون الجميع قيراطين.

وعنه أيضًا «**من صلى على جنازة ولم يتبعها فله قيراط، ومن تبعها حتى توضع في القبر فقيراطان**» قيل: يا أبا هريرة! وما القيراط؟ قال: **مثل أحد**»(٤).

ولقد صرح النبي ﷺ بمقدار القيراط في حديث آخر: «**من تبع جنازة حتى يصلى عليها، ويفرغ منها، فله قيراطان، ومن تبعها حتى يصلى عليها فله قيراط، والذي نفس محمد بيده، لهو أثقل في ميزانه من أحد**»(٥)

قال النووي في شرح مسلم: القيراط مقدار من الثواب معلوم عند الله تعالى، وهذا الحديث يدل على عظم ثواب المشيع للجنازة.

أخي الحبيب:

فكم من قراريط من الثواب قد فرطت فيها! ولذلك تعجب ابن عمر لما علم بهذا الأجر العظيم لمشيع الجنازة، المصلي عليها، فأرسل ابن عمر رضي الله عنه خبابًا إلى السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها يسألها عن مدى صحة حديث أبي هريرة رضي الله عنه، فأخذ عمر حفنة من حصباء المسجد يقلبها في كفه حتى رجع الرسول من عند عائشة، فقال له: قالت عائشة: صدق أبو هريرة، فضرب ابن عمر بالحصى الذي كان في يده الأرض، ثم قال: «**لقد فرطنا في قراريط كثيرة**»(٦)

---

(١) رواه أحمد في مسنده (١٣٧٣٩) ورواه مسلم.

(٢) رواه أحمد في مسنده (٢٣٩٢٠) ورواه البيهقي في السنن وصححه الألباني في ص.ج (٧٧٨٧).

(٣) رواه أحمد (٩٨٦٦) ومسلم وأبو داود. (٤) رواه مسلم.

(٥) رواه أحمد (٢٢٣٤) وابن ماجه وصححه الألباني في ص.ج (٦١٣٥).

(٦) صحيح مسلم بشرح النووي ٤/ ٣٧

• وقفة مع جنائز السلف الصالح •

١- عبد الله بن عباس رضي الله عنهما:

عن سعيد بن جبير -رحمه الله- قال: مات ابن عباس بالطائف، فجاء طائر لم يُرَ على خلقته، فدخل نعشه، ثم لم يُر خارجًا منه، فلما دفن، تُليت هذه الآية على شفير القبر، لا يُدرى من تلاها: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨].

ولما بلغ جابر بن عبد الله وفاة ابن عباس صفق بإحدى يديه على الأخرى وقال: مات أحلم الناس، وأعلم الناس(١).

وقال ابن الحنفية: اليوم مات رباني هذه الأمة.

٢- غسيل الملائكة (حنظلة بن عامر):

فعن عبد الله بن الزبير قال: سمعت رسول الله ﷺ عند قتل حنظلة بن أبي عامر بعد أن التقى هو وأبو سفيان بن حرب حين علاه شداد بن الأسود بالسيف فقتله فقال ﷺ: «إن صاحبكم تغسله الملائكة» فاسألوا صاحبته -زوجته- فقالت: إنه خرج لما سمع الهائعة وهو جنب، فقال رسول الله: «لذلك غسلته الملائكة»(٢).

٣- الليث بن سعد -رحمه الله-:

قال خالد بن عبد السلام: «شهدت جنازة الليث بن سعد مع والدي، فما رأيت جنازة قط أعظم منها، رأيت الناس كلهم عليهم الحزن، وهم يعزي بعضهم بعضًا، ويبكون، فقلت: يا أبت، كأن كل واحد من الناس صاحب هذه الجنازة، فقال: يا بني، لا ترى مثله أبدًا».

٤- عمرو بن قيس الملائي:

مات عمرو بن قيس بناحية فارس فاجتمع على جنازته ما لا يحصى، فلما دفن نظروا فلم يجدوا أحدًا.

قال أبو خالد الأحمر: كان مشيعو عمرو بن قيس الملائي رأوا الصحراء مملوءة رجالاً عليهم ثياب بياض، فلما صلى عليه، ودفن لم نر في الصحراء أحدًا، فبلغ ذلك أبا جعفر - وفي الحلية: عيسى بن موسى، فقال لابن شبرمة وابن أبي ليلى: ما منعكما أن تذكرا هذا الرجل، فقالا: كان يقول: لا تذكروني عنده(٣)

(١) حلية الأولياء١/ ٣٢٩ وصفة الصفوة لابن الجوزي١/ ٣٤١ دار الفكر.

(٢) رواه الحاكم٣/ ٢٠٤ وقال: حسن صحيح على شرط مسلم وأقره الذهبي.

(٣) صفة الصفوة لابن الجوزي٣/ ٦٢

٥- جنازة بشر بن الحارث «الحافى»:

توفى عشية الأربعاء لعشر خلون من المحرم سنة ٢٢٧هـ وقد بلغ من العمر سبعًا وسبعين سنة فعن يحيى بن عبد الحميد، قال: رأيت أبا نصر التمار، وعلى بن المدينى فى جنازة بشر بن الحارث يصيحان: هذا والله شرف الدنيا قبل شرف الآخرة، وذلك أن بشر خرجت جنازته بعد صلاة الصبح، ولم يجعل فى القبر إلا فى الليل، وكان نهارًا صائفًا، ولم يستقر فى القبر إلى العتمة(١).

٦- جنازة الإمام أحمد بن حنبل:

فعن بنان بن أحمد القصبانى أنه حضر جنازة أحمد بن حنبل فيمن حضر، قال: فكانت الصفوف من الميدان إلى قنطرة باب القطيعة، وحرز -أى قدر- من حضرها من الرجال ثمانمائة ألف، ومن النساء ستين ألف امرأة(٢)

وقال أبو بكر المروزى: رأيت أحمد بن حنبل فى المنام كأنه فى روضته، وعليه حلتان خضراوان، وعلى رأسه تاج من النور، وإذا هو يمشى مشية لم أكن أعرفها.

فقلت: يا أحمد ما هذه المشية التى لم أكن أعرفها لك؟ فقال: هذه مشية الخدام فى دار السلام. فقلت: ما هذا التاج الذى أراه على رأسك؟.

فقال: إن ربى أوقفنى وحاسبنى حسابًا يسيرًا، وحبانى وقربنى، وأباحنى النظر إليه، وتوجنى بهذا التاج، وقال لى: يا أحمد، هذا تاج الوقار توجتك به كما قلت القرآن كلامى غير مخلوق(٣).

أخى الحبيب:

تفكر فى مشيبك والمآب ... وزمنك بعد عزك فى التراب
إذا وافيت قبرًا أنت فيه ... تقيم به إلى يوم الحساب
وفى أوصال جسمك حين ... تبقى مقطعة ممزقة الإهاب
فلولا القبر صار عليك سترا ... لأنتنت الأباطح والروابى
خلقت من التراب فصرت حيًا ... وعلمت الفصيح من الخطاب
فطلق هذه الدنيا ثلاثًا ... وبادر قبل موتك بالمتاب
نصحتك فاستمع قولى ونصحى ... فمثلك قد يُدَل على الصواب
خلقنا للممات ولو تُركنا ... لضاق بنا الفسيح من الرحاب
ينادى فى صبيحة كل يوم ... لدوا للموت وابنوا للخراب

(١) المرجع السابق٢/ ٤ ٢

(٢)، (٣) صفة الصفوة لابن الجوزى٢/ ٢١٦

الوصية رقم (٢٤)
اتقوا الشح

عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«اتقوا الشح، فإنه أهلك من كان قبلكم، حملهم أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم»**(١).

صدق رسول الله ﷺ

• في رحاب هذه الوصية •

إن النبي ﷺ يحذرنا في هذه الوصية من داء وبيل، لأنه ليس من صفات أهل الإيمان، وإنما هو من صفات المنافقين الفاسقين. إنه داء البخل.

ولقد بين النبي ﷺ أن خطره عظيم، وأن من خطره أنه كان سببًا في هلاك من كان قبلنا، ولذلك وردت هذه الوصية بأسلوب أشد تحذيرًا من هذا الأسلوب، ففي رواية عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: **«إياكم والشح، فإنما هلك من كان قبلكم بالشح، أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا»** فكأن الرسول يقول لنا: احذروا كل الحذر، وخلصوا أنفسكم من هذا الداء، لأن أصل كل الشرور والموبقات. إنه الجامع لمساوئ القلوب، وهو زمام يقاد به إلى كل سوء قال تعالى: ﴿**وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [التغابن: ١٦].

والمفهوم المخالف لهذه الآية الكريمة أن من لم يتق الشح فهو من الخاسرين.

فالواجب على العاقل إذا أمكنه الله تعالى من حطام هذه الدنيا الفانية، وعلم زوالها عنه، وانقلابها إلى غيره، وأنه لا ينفعه في الآخرة إلا ما قدم من الأعمال الصالحة؛ أن يبلغ مجهوده في أداء الواجبات والحقوق، مبتغيًا في ذلك الثواب في العقبى، والذكر الجميل في الدنيا، وعلى العاقل أن يكون سخيًّا، لأن السخاء محبة و محمدة، والبخل مذمة ومبغضة، والسخي قريب من الله، قريب من الناس، لكن البخيل بعيد عن الله، بعيد من الناس(٢).

• حقيقة الشح •

قال الإمام النووي:

قال جماعة: الشح أشد البخل، وأبلغ في المنع من البخل.

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٨) والبخاري في الأدب المفرد (٤٩٠) وأحمد في مسنده (٦٤٨٧) والخرائطي في المساوئ (٦٢١) وهو في ص.ج للألباني برقم (١٠٢) والسلسلة الصحيحة (٨٨).

(٢) رواه أبو داود وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود برقم (١٦٩٨) جـ١/ ٤٧٠.

وقيل: هو البخل مع الحرص.

وقيل: البخل فى أفراد الأمور، والشح عام.

وقيل :البخل فى أفراد الأمور،والشح بالمال والمعروف

وقيل: الشح الحرص على ما ليس عنده، والبخل بما عنده(١)

وقد روى أن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: «أيهما أشد البخل، أم الشح؟ فاختلفوا: فقال عبد الله بن عمرو: الشح أشد من البخل، الشحيح يشح على ما فى يديه، فيحبسه، ويشح على ما فى أيدى الناس حتى يأخذه، وإن البخيل بخيل على ما فى يديه»(٢)

ولا ضير فإن كلا منهما داء عضال لا يستطيع المرء أن يتخلص من أحدهما إلا بمشقة بالغة، ومجاهدة نفس، وتمرين حتى يبتعد عنه.

ولقد اختلف العلماء حتى فى عاقبة كل من البخل والشح حتى قال الشعبى رحمه الله: «ما أدرى أيهما أبعد غورًا فى جهنم البخل أو الكذب؟!»(٣).

• القرآن الكريم يذم البخل •

قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ٣٧] فالآية الكريمة وإن كانت خاصة بقوم إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فقد روى ابن جرير وابن المنذر بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان كردم بن زيد حليف كعب بن الأشرف، وأسامة بن حبيب، ونافع بن أبى نافع، وحيى بن أخطب. كلهم من اليهود، فكانوا يأتون رجالاً من الأنصار يتنصحون لهم، فيقولون: لا تنفقوا أموالكم، فإنا نخشى عليكم الفقر فى ذهابها، ولا تسارعوا فى النفقة فإنكم لا تدرون ما يكون. فأنزل الله هذه الآية(٤)

فالبخل صفة من صفات اليهود الكافرين، الذين أعد الله لهم العذاب المهين.

وقد بين مولانا عاقبة البخل، وكنز الأموال، فقال سبحانه: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٠] وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: ١٥] قال الغزالى: فمن اختار ماله وولده على ما عند الله فقد خسر وغبن خسرانًا عظيمًا

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۝ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم﴾ [المنافقون: ٩، ١٠].

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى جـ٩/ ٣٥١ ط دار الفجر.

(٢) ذكره الخرائطى فى مساوئ الأخلاق (٣٥٧) ص١٤١

(٣) المرجع السابق (٣٥٨) وقال محققه الشيخ مجدى السيد إسناده حسن والأثر صحيح.

(٤) ذكره ابن جرير فى تفسيره٥/ ٥٥ ومختصر تفسير المنار جـ٢/ ٧٢

فتأمل أخي الحبيب: واعلم أن المال لمن استعان به على طاعة الله، وأنفقه في سبل خيرات المقربة إلى الله، سبب موصل لصاحبه إلى الله تعالى، وهو لمن بخل به، أو أنفقه في معاصي الله، أو اشتغل به عن عبادة مولاه سبب قاطع له عن الله رب العالمين.

يقول أبو سليمان الداراني -رحمه الله-:

«الدنيا حجاب عن الله لأعدائه، ومطية موصلة إليه لأوليائه، فسبحان من جعل شيئًا واحدًا سببًا للاتصال به، والانقطاع عنه»(١)

فلا تبخل وجد بمالك قبل أن يجيء اليوم الذي تندم فيه وتتحسر قال تعالى: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٨، ٢٩].

•القرآن الكريم يمدح الأسخياء•

وقد مدح الله عباده المنفقين الأسخياء فقال جل شأنه: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٤].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٢٩، ٣٠].

فهم آمنون من الفزع يوم الفزع الأكبر، مسرورون إذا حزن الناس، آمنون إذا خاف الناس، يزيدهم الله من فضله في الدنيا، ويزيدهم من ثوابه ورحمته وغفرانه في الآخرة.

إنهم الرجال الحقيقيون الذين ذكرهم الله في كتابه: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور: ٣٦، ٣٧].

وهذا رجل من الرجال الذين تخرجوا في جامعة الرسول الأعظم ﷺ، وقد ضرب بهم المثل في كل خير: إنه «عبد الله بن عمر بن الخطاب» رضي الله عنهما يقول أيوب بن وائل:

قدمت المدينة فأخبرني رجل جار لابن عمر: أن ابن عمر جاءه أربعة آلاف دينار من قبل معاوية، وأربعة آلاف من جهة إنسان آخر، وألفان من قبل آخر، وقطيفة، ثم جاء إلى السوق يريد علفًا لراحلته بدرهم نسيئة، فكيف وأنا أعرف ما جاءه من المال! فذهبت إلى جاريته، فقلت لها: إني أريد أن أسألك عن شيء، وأحب أن تصدقيني. قلت: أليس قد أتت أبا عبد الرحمن أربعة آلاف من قبل معاوية، وأربعة آلاف من قبل آخر، وألفان من

---

(١) لطائف المعارف لابن رجب ص٤٢٥.

آخر، وقطيفة؟ قالت: بلى. قلت: فإنى رأيته يطلب علفًا بدرهم نسيئة. قالت: ما بات حتى فرقها، ثم أخذ القطيفة على ظهره فوهبها لفقير ثم رجع فخرج ابن وائل يضرب كفًا على كف، حتى أتى السوق فارتقى مكانًا عاليًا وصاح فى الناس: يا معشر التجار، ما تصنعون بالدنيا؟! وابن عمر أتته البارحة عشرة آلاف درهم، فجاد بها وأصبح يطلب علفًا لراحلته بدرهم نسيئة[١]

وكان يحيى بن معاذ رحمه الله يقول: عجبت ممن بقى معه مال، وهو يسمع قول الله تعالى[٢]: ﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ﴾ [التغابن: ١٧].

وتأمل يا أخى لو جلس إنسان وبين يديه زنبيل -أى قفة- ملآن ذهبًا، وقال: كل من أعطى فقيرًا درهمًا أعطيته دينارًا، كيف يبادر الناس، ويسارعون إلى بذل الدراهم للفقراء، بخلاف ما لو وعدهم بالدينار بعد سنة مثلاً، فإنه لا يجيبه إلا القليل منهم، وذلك لضعف تصديقهم له، ولو أن إيمانهم كان كاملاً لأجابوه كلهم..»[٣].

• السنة المطهرة تذم الشح وتنهى عنه •

فعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«شر ما فى الرجل شح هالع، وجبن خالع»**[٤].

أى شر مساوئ أخلاقه شح يحمله على الحرص على المال، والجزع على ذهابه وجبنٌ خالعٌ أى شديد كأنه يخلع فؤاده من شدة الخوف، فكأن البخل يمنع القوة والنجدة من القلب.

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه»**[٥]

فقد ذكر الرسول ﷺ أن من الأمور التى تهلك المرء، وتفسد عليه حياته أمور ثلاثة، وذكر منها الشح.

وعن ابن كعب بن مالك أن رسول الله ﷺ قال لبنى ساعدة: **«من سيدكم؟** قالوا: جد بن قيس. قال: **«بم سودتموه؟»** قالوا: إنه أكثرنا مالاً، وإنا على ذلك لنزنه بالبخل -أى نتهمه- فقال النبى ﷺ: **«وأى داء أدوى من البخل؟!»**[٦] أى: أى عيب أقبح من البخل؟!.

---

(١) حلية الأولياء لأبى نعيم/ ١ ٢٩٦، ٢٩٧ (٢)، (٣) تنبيه المغترين ص ١٧٠

(٤) رواه أحمد فى مسنده (٧٩٩٧) بإسناد صحيح وصححه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود (٢٥١١).

(٥) رواه أبو نعيم فى حلية الأولياء٣/ ٢١٩ بإسناد حسن والخرائطى فى المساوئ (٣٦٧).

(٦) قال الهيثمى رواه الطبرانى بإسنادين ورجال أحدهما رجال الصحيح كذا فى المجمع٩/ ٣١٥ وذكره الخرائطى (٣٧٨).

فقد عاب الكثير من الصحابة على جد بن قيس أنه بخيل مع أنه يملك المال الكثير.

ولقد كان سيد البشر ﷺ كثيراً ما يستعيذ من هذا الخلق الذميم، فكان يقول فى دعائه: **«اللهم إنى أعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر»**(١)

وقد كان رسولنا ﷺ يكره هذا الخلق، وكان يتصف بضده وهو السّخاء، وفى يوم من الأيام وبينما هو راجع من غزوة حنين، فلقيه أعراب يسألونه حتى أنهم اضطروه إلى سدرة -أى شجرة بها شوك- فخطفت رداءه، وهو على راحلته، فقال: **«ردوا علىَّ ردائى، فلو فاء الله علىَّ بمثل عدد هذه العضاة لقسمته بينكم ثم لا تجدونى بخيلاً ولا جباناً، ولا كذاباً»**(٢) صلوات ربى وتسليماته عليك يا سيدى يا رسول الله، لقد كنت أسخى الأسخياء وأكرم الكرماء. وعن أبى ذر الغفارى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الله تعالى يبغض ثلاثة: الشيخ الزانى، والبخيل المنان، والمقل المختال»**(٣)

وعن وهب بن منبه قال: كان عابدٌ من بنى إسرائيل يعبد الله دهراً فى صومعته، فعف وزهد، حتى شكته الشياطين إلى إبليس، فقالوا: فلان قد أعيانا، لا نصيب منه شيئًا قال: فانتدب له إبليس بنفسه، فأتاه، فضرب ديره، فقال: من هذا؟ قال: أنا ابن سبيل افتح لى حتى آوى الليلة فى ديرك، قال له العابد: هذه قرى منك غير بعيدة، صل إلى بعضها فآوِ فيها. قال: اتق الله، وافتح لى، فإنى أخاف اللصوص، وأخاف السباع قال: ما أنا بالذى أفتح لك، فسكت إبليس ثم ضرب ديره، فقال: افتح لى. قال: من هذا؟ قال: المسيح. قال: إن تكن المسيح، فليس لى إليك حاجة. قال: قد بلغت رسالات ربك، فموعدك الآخرة، فسكت إبليس، ثم ضرب ديره، فقال: افتح، فقال: من أنت؟ قال: أنا إبليس. قال: ما أنا بالذى أفتح لك. قال إبليس: لك الله، ولك ولك، وجعل يعاهده لا أعمل لك فى مضرة أبداً. قال: فنزل ففتح له الباب، فصعد إبليس فجلس بين يديه. فقال: سلنى عما شئت أخبرك.

قال: مالى إليك حاجة. قال: فقام إبليس فولى. قال: فناداه: أقبل قد بدا لى أن أسألك. قال: أى شىء أعون لكم فى هلكة بنى آدم؟.

قال: السكر، فإنه إذا سكر ابن آدم لم يمتنع منا من شىء نريده، ثم لعبنا به كما تلعب الصبيان بالكرة. قال: وماذا؟ أى بعد السكر.

قال: والحدة -أى الغضب- ثم قال: وماذا؟ أى بعد الحدة؟ قال:

---

(١) رواه البخارى وأحمد والترمذى. (٢) رواه أحمد فى مسنده (١٦٧٢٠) والبخارى (٢٨٧).

(٣) الخرائطى فى المساوئ (٣٧٣) ص١٤٦ وقال محققه الشيخ مجدى السيد الحديث صحيح وإسناده حسن.

والبخل. قال: نأتـى ابن آدم فنقلل نعمة الله عنده، وتكثـر ما فى أيدى الناس عنده حتى يبخل بحق الله فى ماله، فيهلك»[(١)]

وعن أبى الأحمس قال: لقيت أبا ذر الغفارى فقلت: يا أبا ذر، ما حديث بلغنى أنك محدثه عن رسول الله ﷺ؟ قال: وما هو؟ فإنى لا أخالنى أكذب على رسول الله ﷺ!! قلت: بلغنى: «ثلاثة يشنؤهم الله تعالى» قال: قلته: وسمعته. قلت: فمن الذى يشنأ؟ قال: «التاجر أو البياع الحلاف، والفقير المختال، والبخيل المنان»[(٢)]

• من أقوال السلف فى ذم الشح •

قال ابن حبان:

البخل شجرة فى النار أغصانها فى الدنيا، من تعلق بغصن من أغصانها جره إلى النار، كما أن الجود شجرة فى الجنة أغصانها فى الدنيا، فمن تعلق بغصن من أغصانها جره إلى الجنة والجنة دار الأسخياء.

والبخيل يقال له فى أول درجته: البخيل، فإذا عتا وطغى فى الإمساك يقال له: الشحيح، فإذا ذم الجود والأسخياء يقال له: لئيم[(٣)]

ويقول أبو حاتم السجستانى:

سئل كسرى أى شىء أضر على ابن آدم؟ قال: الفقر. قال: والشح أضر منه، إن الفقير إذا وجد اتسع، وإن الشحيح لا يتسع إذا وجد[(٤)]

وقال عمر بن عبد العزيز -رحمه الله-:

أف للبخل، والله لو كان طريقًا ما سلكته، ولو كان ثوبا ما لبسته[(٥)].

وقد قيل لميمون بن مهران يومًا: إن فلانًا أعتق كل مملوك له. فقال: يعصون الله تعالى مرتين يبخلون به وهو فى أيديهم، حتى إذا سار لغيرهم أسرفوا فيه[(٦)]

وعن شعيب الجبالى قال: **«لما خلق الله الجنة، شق أنهارها، وأهدل ثمارها، وزخرفها اتكأ فيها»** وقال: **«وعزتى لا يجاورنى فيك بخيل»**[(٧)]

وقال محمد بن المنكدر: كان يقال إذا أراد الله بقوم شرًا أمَّرَ عليهم شرارهم، وجعل أرزاقهم بأيدى غلائهم» أى أشحائهم[(٨)]

ويقول على بن أبى طالب رضي الله عنه: «من آتاه الله منكم مالاً فليصل به القرابة، وليحسن فيه الضيافة، وليفك فيه العانى والأسير وابن السبيل، والمساكين والفقراء والمجاهدين، وليصبر على النائبة، فإنه بهذه الخصال ينال كرم الدنيا، وشرف الآخرة»[(٩)]

---

(١) ذكره الخرائطى فى المساوئ (٣٨٤) وإسناده حسن.

(٢) المرجع السابق (٣٨٠) وقال محققه إسناده صحيح.

(٣)، (٤) روضة العقلاء لابن حبان ص٢١٣، ٢١٤ (٥) المرجع السابق ص٢١٤ والمستطرف ص١٩٢

(٦) مساوئ الأخلاق للخرائطى (٣٧٧) ص١٤٧

(٧) المرجع السابق (٣٧٠) والإحياء٢/ ٣١٨ بنحوه عن ابن عباس.

(٨) المرجع السابق (٣٥٥) بإسناد حسن.

(٩) روضة العقلاء ص٢١١

وكان أبو الدرداء رضي الله عنه يقول: كيف يبخل أحدكم بديناره، ودرهمه على أخيه، وإذا مات بكى عليه أشد البكاء.

وقد سئل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن العاقل، من هو؟.

فقال: من يكنز ماله في مكان لا يأكله السوس، ولا تصل إليه اللصوص. يعني في السماء[1]

وكانت السيدة عائشة رضي الله عنها تقول: الجنة دار الأسخياء، والنار دار البخلاء.

وكان إبراهيم بن أدهم يقول: عجبًا للرجل اللئيم يبخل بالدنيا على أصدقائه، ويسخو بالجنة على أعدائه.

وأوحى الله إلى موسى عليه السلام إني لأشكو إليك من عبادي أربعة: استقرضتهم مما أعطيتهم فبخلوا، وحذرتهم من إبليس فلم يحذروا، ودعوتهم إلى الجنة فلم يستجيبوا، وخوفتهم من النار فلم يخافوا، واجتهدوا في أعمالها.

• السلف الصالح يحبون الكرم ويكرهون الشح •

١- جاءت امرأة يومًا إلى الليث بن سعد رحمه الله بإناء صغير تطلب منه فيه عسلاً، وقالت: إن زوجي مريض، فأمر لها براوية -أي إناء كبير- ملآنة عسلاً. فقيل له: إنها طلبت قدحًا صغيرًا، فقال: إنما طلبت على قدرها، ونحن أعطيناها على قدرنا.

٢- وكان الحسن بن علي رضي الله عنهما لا يرد سائلا قط، وسأله مرة شخص، فأمر له بعشرة آلاف دينار، فقال له الرجل، إني لا أجد ما أحملها فيه، فأعطاه طيلسانه.

٣- وجاء رجل إلى سعيد بن العاص رضي الله عنه يسأله شيئًا، فأمر له بخمسمائة وأطلق، فقال الغلام مستفهمًا من سيده: دنانير أم دراهم؟ فقال سعيد: أنا ما أردت إلا الدراهم، ولكن حيثما ترددت أنت في ذلك فصيرها له دنانير، قال: فجلس الرجل يبكي، فقال له سعيد: ما يبكيك؟ فقال: أبكي على مثلك ينزل تحت الأرض، ويأكله التراب.

٤- وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يقول: ما رأيت بعد النبي ﷺ أجود من معاوية رضي الله عنه لقي الحسين بن علي رضي الله عنهما، فقال: مرحبًا بابن بنت رسول الله ثم أمر له بثلثمائة ألف درهم، ثم لقي عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما فأمر له بمائة ألف درهم[2].

٥- واشترى عبد الله بن عامر من خالد بن عقبة داره التي في السوق بتسعين ألف درهم، فلما كان الليل، سمع بكاء أهل خالد، فقال لأهله: ما لهؤلاء؟ قالوا: يبكون على دراهم. قال: يا غلام، ائتهم، فأعلمهم أن الدار والمال لهم جميعًا[3]

---

(١) تنبيه المغترين ص١٧٠ (٢) المرجع السابق ص١٧١

(٣) تهذيب موعظة المؤمنين ٢/ ٧٥ للقاسمي.

٦- وجاء رجل إلى البصرة، فقال: من سيد هذا المصر؟ فقيل له: الحسن البصرى، قال: وبم سادهم؟ قالوا: لأنه استغنى عما بأيدهم من الدنيا، واحتاجوا لما عنده من العلم والدين، فقال الرجل: بخ بخ هذا سيدهم بلا شك.

٧- وكان الضحاك -رحمه الله- يقول فى قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦] قال: كان إحسان يوسف عليه السلام أن كل من مرض فى السجن قام عليه، وكل من احتاج وسع عليه[1].

٨- وكان بكر بن عبد الله المزنى -رحمه الله- يقول: أحب أموالى إلىَّ ما وصلت به إخوانى، وأبغضها إلىَّ ما خلفته ورائى.

٩- قال أبو حاتم: أجود الجود من جاد بماله، وصان نفسه عن مال غيره، ومن جاد ساد، كما أن من بخل رذل.

والجود حارس الأعراض، كما أن العفو زكاة العقل، ومن أتم الجود أن يتعرى عن المنَّة، لأن من لم يمتن بمعروفه وفَّره، والامتنان يهدم الصنائع، وإذا تعرت الصنيعة عن إزار له طرفان: أحدهما الامتنان، والآخر طلب الجزاء - كان من أعظم الجود، وهو الجود على حقيقته[2]

الجود مكرمة والبخل مبغضة ... لا يستوى البخل عند الله والجود
والفقر فيه شخوص، والغنى دعة ... والناس فى المال مرزوق ومحدود

• حكايات وأخبار عن البخلاء •

١- قيل كان بعض البخلاء موسرًا كثير المال، وكان ينظر فى دقائق الأشياء، فاشترى شيئًا من الحوائج، ودعا حمالاً وقال: بكم تحمل هذه الحوائج؟ قال: بحبة. قال: أبخس. قال: ما أقل من حبة؟ لا أدرى ما أقول. قال: نشترى بالحبة جزرًا، فنجلس جميعًا نأكله[3].

٢- وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان الحاجب رجلاً من أجل العرب، وكان بخيلاً وكان لا يوقد نارًا بليل كراهة أن يراها راء، فينتفع بضوئها، فإذا احتاج إلى إيقادها أوقدها فإذا أبصر من يستطيئ بها أطفأها.

٣- يحكى أن محمد بن يحيى بن خالد بن برمك كان بخيلاً قبيح البخل، فسئل نسيب له كان يعرفه عنه -أى البخل- فقال له قائل: صف لى مائدته، فقال: هى فتر فى فتر، وصحافة منقورة من حب الخشخاش. قيل: فمن يحضرها؟ قال: الكرام الكاتبون. قال: فما يأكل معه أحد؟ قال: بلى الذباب، فقال: سوأتك بدت وأنت خاص به وثوبك مخرق.

---

(١) تنبيه المغترين ص١٧٣ (٢) روضة العقلاء ص٢١٠

(٣) تهذيب موعظة المؤمنين ٢/ ٨٤.

قال: أنا والله ما أقدر على إبرة أخيطه به، ولو ملك محمد بيتًا من بغداد إلى النوبة مملوءًا إبرًا، ثم جاء جبريل وميكائيل، ومعهما يعقوب عليه السلام يطلبون منه إبرة، ويسألونه إعارتهم إياها ليخيط بها قميص يوسف الذى قد من دبر ما فعل(١)

٤- قيل: إن بخلاء العرب أربعة: الحطيئة، وحميد الأرقط، وأبو الأسود الدؤلى، وخالد بن صفوان، فأما الحطيئة فمر به إنسان وهو على باب داره وبيده عصا، فقال: أنا ضيف فأشار إلى العصا، وقال: لكعاب الضيفان أعددتها.

وأما حميد الأرقط، فكان هجاء للضيفان، نزل به مرة أضياف، فأطعمهم تمرًا وهجاهم وذكر أنهم أكلوه بنواه.

وأما أبو الأسود فتصدق على سائل بتمرة، فقال له: جعل الله نصيبك من الجنة مثلها. وكان يقول: لو أطعنا المساكين فى أموالنا كنا أسوأ حالاً منهم.

وأما خالد بن صفوان، فكان يقول للدرهم إذا دخل عليه: يا عيار، كم تعير، وكم تطوف، وتطير لأطيلن حبسك. ثم يطرحه فى الصندوق ويقفل عليه، وقيل له: لم لا تنفق ومالك عريض؟ فقال: الدهر أعرض منه(٢)

٥- وكان عمر بن يزيد الأسدى بخيلاً جدًّا أصابه القولنج فى بطنه فحقنه الطبيب بدهن كثير فانحل ما فى بطنه فى الطست، فقال لغلامه: اجمع الدهن الذى نزل من الحقنة وأسرج به.

٦- اشترى رجل من البخلاء دارًا وانتقل إليها، فوقف به سائل، فقال له: فتح الله عليك، ثم وقف ثان، فقال له مثل ذلك، ثم وقف ثالث، فقال له مثل ذلك، ثم التفت إلى ابنته، فقال لها: ما أكثر السؤال فى هذا المكان. قالت: يا أبت، ما دمت متمسكًا لهم بهذه الكلمة فلا تبالِ كثروا أم قلوا(٣)

٧- وقال أعرابى لنزيل نزل به: نزلت بواد غير ممطور، ورجل بك غير مسرور، فأقم بعدم، أو ارحل بندم.

• من أقوال الأدباء والشعراء فى البخل والبخلاء •

هل من بخيل رأيت المال أخلده؟ ... أم هل رأيت جوادًا ميتًا عجفا؟
لما رأتنى أوتى المال طالبه ... ولا أبالى تلادًا كان أم طرفا
عدّت سماحى تبذيرًا ولست أرى ... ما يكسب الحمد تبذيرًا ولا سرفا

---

(١) الإحياء٢/٣١٩، ٣٢.

(٢)، (٣) المستطرف ص١٩٢ التوفيقية.

وقال آخر:

ويظهر عيب المرء فى الناس بخله ... ويستره عنهم جميعًا سخاؤه
تغطَّ بأثواب السخاء، فإننى ... أرى كل عيب والسخاء غطاؤه

وقال آخر:

لكل هم من الهموم سعة ... والبخل واللؤم لا فلاح معه
قد يجمع المال غير آكله ... ويأكل المال غير من جمعه
اقبل من الدهر ما أتاك به ... من قرَّ عينًا بعيشه نفعه

وقال آخر:

يا مانع المال، كم تضن به ... تطمع بالله فى الخلود معه؟
هل حمل المال ميت معه؟ ... أما تراه لغيره جمعه؟

وأنشد بعضهم فى وصف البخلاء:

قوم إذا أكلوا أخفوا أكلهم ... واستوثقوا من رتاج الباب والدار
قوم إذا استنبح الضيفان كلبهم ... قالوا لأمهم بولى على النار
فتمنع البول شحًا أن تجود به ... وما تبول لهم إلا بمقدار
والخبز كالعنبر الهندى عندهم ... والقمح خمسون أربًا بدينار

وقال آخر يخاطب بخيلاً:

يا قائمًا فى داره قاعدًا ... من غير معنى لا ولا فائدة
قد مات أضيافك من جوعهم ... فاقرأ عليهم سورة المائدة

وقال آخر يصف بخيلاً:

لو عبر البحر بأمواجه ... فى ليلة مظلمة باردة
وكفه مملوءة خردلاً ... ما سقطت من كفه واحدة

الوصية رقم (٢٥)
إذا رأيت رؤيا تحبها فاحمد الله

عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إذا رأى أحدكم رؤيا يحبها، فإنما هى من الله، فليحمد الله عليها، وليحدث بها، وإذا رأى غير ذلك مما يكره، إنما هى من الشيطان فليستعذ بالله من شرها، ولا يذكرها لأحد، فإنها لا تضره»(١)

صدق رسول الله ﷺ

---

(١) رواه مسلم (٢٢٦١) والبخارى (٦٩٨٦) والترمذى (٣٤٤٩).

• في رحاب هذه الوصية •

أخا الإسلام:

إن الرسول ﷺ وهو طبيب قلوبنا، وجلاء همنا وحزننا، بهذه الوصية الكريمة والتي يحثنا فيها على حمد الله تعالى وشكره على الرؤيا الطيبة التى يراها النائم، لكنه يأمرنا ويوصينا أن الرؤيا إذا كانت غير طيبة أن نستعيذ بالله من شرها ولا نذكرها لأحد.

وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على أن النائم يرى فى منامه: إما خيرًا، وإمَّا شرًّا، فإن كان خيرًا فتلك رؤيا طيبة من الله تعالى، لذلك فإن صاحبها يعرفها كفلق الصبح، ويتذكرها ولا ينسى منها شيئًا.

بخلاف ما لو كان المرئى شرًّا فإنه يكون حُلمًا وهو من الشيطان، لأن النفس إن كانت شريرة فإنها تسبح مع الشياطين، وإن كانت طيبة فإنها تطوف مع الملائكة وهذا يدل على أن للرؤيا مكانتها فى الإسلام، قال سبحانه: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ [الفتح: ٢٧]وقال في شأن خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ [الصافات: ١٠٢]فالرؤيا لها مكانتها فى الإسلام، ولذلك قال النبى ﷺ: «**رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة**»[1] وفى رواية: «**جزء من سبعين جزءاً من النبوة**» وفى رواية: «**خمسين**».

وفى رواية: «تسعة وأربعين» قال الإمام النووى:

قال القاضى: أشار الطبرى إلى أن هذا الاختلاف راجع إلى اختلاف حال الرائى، فالمؤمن الصالح تكون رؤياه جزءًا من ستة وأربعين جزءًا، والفاسق جزء من سبعين جزءًا[2]

• أقسام الرؤيا والمنامات •

إذا علم أن الرؤيا الصالحة من الله تعالى، وإكرام منه للعبد، والحلم من الشيطان لأنه يريه فى منامه ما يحزنه، كما ذكر النبى ﷺ: «**الرؤيا الصادقة من الله، والحلم من الشيطان**»[3] فقد بين رسولنا صلوات ربى وتسليماته عليه أن الرؤيا أقسام ثلاثة فما هى يا رسول الله؟

يقول ﷺ فى الحديث الذى رواه عنه محدث الأمة أبو هريرة رضي الله عنه: «**إذا كان آخر الزمان لم تكدَ رؤيا المؤمن تكذب، وأصدقهم رؤيا أصدقهم حديثًا، والرؤيا ثلاثة: رؤيا**

(١) رواه مسلم (٢٢٦٤) والبخارى (٦٩٨٧).

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى٨/ ٢٣ دار الفجر.

(٣) رواه البخارى ومسلم والترمذى وأحمد.

بشرى من الله عزوجل، ورؤيا مما يحدث للإنسان نفسه، ورؤيا من تحزين الشيطان، فإذا رأى أحدكم ما يكره، فلا يحدث به، وليقم، وليصل، والقيد في المنام ثبات في الدين، والغلُّ أكرهه»(١)

قال الخطابي وغيره: قيل: المراد إذا قارب الزمان أن يعتدل ليله ونهاره، وقيل: المراد إذا قاربت القيامة.

وجاء في دليل الفالحين(٢): أي اقترب انتهاء أمد الدنيا، أو اقترب بحيث تكون السنة كالشهر، والشهر كالجمعة، والجمعة كاليوم، واليوم كالساعة، وأيد الطيبي هذا الكلام بقوله ﷺ: «**في آخر الزمان لا تكاد رؤيا المؤمن تكذب**» وكذا أيده السيوطي بل صوبه. وقال: لأن العلم ينقص حينئذ، وتندرس معالم الديانة، فتكون الناس على مثل الفترة محتاجين إلى مذكر ومجدد لما درس من الدين، كما كانت الأمم تذكر بالأنبياء، ولكن لما كان نبينا ﷺ خاتم الأنبياء عوضوا بالرؤيا الصادقة.

وقال ابن أبي حمزة: إن المؤمن حينئذ يكون غريبًا، فيقل أنسه، فيكرم بالرؤيا الصادقة وقد يرى الصالح الأضغاث لكن نادرًا لقلة تمكن الشيطان منه، بخلاف غيره، فإن الشيطان متسلط عليه، فغلب عليه الكذب.

فالناس إذن تجاه الرؤيا ثلاث درجات:

١- الأنبياء ورؤياهم صدقٌ ألبتة، وقد يقع فيها ما يحتاج إلى التعبير.

٢- والصالحون والأغلب على رؤياهم الصدق، وقد يقع فيها ما لا يحتاج إلى تعبير.

٣- ومن عداهم يقع في رؤياه الصدق، والأضغاث، فالمستورون يستوى الأمران فيهم، والفسقة يغلب في رؤياهم الأضغاث، والكفار يندر في رؤياهم الصدق.

• ماذا يفعل من رأى شيئًا يكرهه؟ •

لقد أرشدنا حكيم الحكماء، وإمام المرسلين، وشفيع المذنبين يوم الدين عن أبي قتادة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا رأى أحدكم الشيء يكرهه فلينفث -أي ينفخ نفخًا لطيفًا بلا ريق- عن يساره ثلاث مرات إذا استيقظ، وليتعوذ بالله من شرها، فإنها لن تضره إن شاء الله**»(٣)

قال أبو سلمة: إنْ كنت لأرى الرؤيا هي أثقل عليَّ من الجبل، فلما سمعت هذا الحديث، فما كنت أباليها.

(١) صحيح مسلم٨/ ٢٣ برقم (٢٢٦٣) والبخاري والترمذي.

(٢) دليل الفالحين لابن علان ٣/ ٣٢٢ ط/ دار الريان.

(٣) رواه البخاري (٦٩٨٤) ومسلم (٢٢٦١) وغيرهما.

فيتبين لنا من هذا الحديث أن للرؤيا آدابًا أربعة وهى:-

١- أن يتعوذ بالله من شرها، ومن الشيطان الرجيم ثلاثا كما فى رواية أخرى.

٢- أن ينفث عن يساره طردًا للشيطان الذى حضر الرؤيا المكروهة تحقيرًا له، واستقذارا وخص اليسار لأنها محل الأقذار.

٣- أن لا يذكرها لأحد، فهو سبب من أسباب الوقاية من شرها.

٤- أن يتحول عن جنبه الذى كان عليه حين الرؤيا المكروهة تفاؤلاً بتحول الحال من الرؤيا القبيحة إلى الرؤيا المليحة نظير ما قيل فى تحويل الإمام الرداء فى خطبة الاستسقاء، وقد دل على ذلك.

حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها فليبصق عن يساره ثلاثًا، وليستعذ بالله من الشيطان ثلاثًا، وليتحول عن جنبه الذى كان عليه»**[1] هذا إذا كانت الرؤيا غير صالحة لكن إن كانت صالحة فلها آداب ذكرها النبى ﷺ فى حديث الوصية: **«إذا رأى أحدكم رؤيا يحبها فإنما هى من الله، فليحمد الله عليها، وليحدث بها ...»**[2] وزاد الترمذى: **«ولا تحدث بها إلا لبيبًا أو حبيبًا»**[3] فهنا آداب ثلاثة:

١- أن يحمد الله تعالى، فإنها -أى الرؤيا- نعمة من الله سبحانه.

٢- أن يفرح بها ويستبشر لأنها من الله سبحانه.

٣- أن يقصها لأهل الخير والحكمة ممن يحبونه.

• ما يحتاج إليه الرائى لصحة رؤياه •

يحتاج الإنسان إلى إقامة آداب، لتكون رؤياه أقرب إلى الصحة، فمنها:

١- أن يتعود الصدق فى أقواله وأفعاله، فقد ورد: **«أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثًا»**.

٢- أن يحافظ على استعمال الفطرة جهده، فقد كان النبى ﷺ يسأل أصحابه كل يوم، **«هل رأى أحد منكم البارحة رؤيا؟»**[4] فيقصونها عليه، فيعبرها لهم، ثم سألهم أيامًا، فلم يقص عليه أحد منهم رؤيا، فقال لهم: **«كيف ترون وفى أظفاركم الرفغ»** وذلك لأن أظفارهم قد طالت، وتقليمها من الفطرة.

٣- أن ينام المسلم دائمًا على طهر، فقد أوصى الرسول ﷺ أبا ذر الغفارى بثلاثة كما قال: «أوصانى خليلى بثلاث لا أدعهن حتى أموت: صوم ثلاثة أيام من كل شهر، وركعتى الضحى، وأن لا أنام إلا على طهر».

---

(١) رواه مسلم. (٢) سبق تخريجه فى أول الوصية.

(٣) رواه الترمذى (٢٣٨٠) وأبو داود (٥٠٢٠) بلفظ (واد أو ذى رأى) وصححه الألبانى وفى صحيح ابن ماجه (٣٩١٤).

(٤) رواه أحمد فى مسنده (١٢٣٢٦) بإسناد صحيح وابن حبان (١٨٠٣).

٤- أن ينام على جنبه الأيمن، ويضع يده اليمنى تحت خده الأيمن.

٥- أن يدعو الله تبارك وتعالى قبل أن ينام بالأدعية التى كان يدعو بها رسولنا محمد ﷺ.

• قواعد تأويل الرؤيا •

الرؤيا تعتبر علمًا من علوم الإسلام. وإذا ما استفتاك أحد فى تفسير الرؤيا، فأنت حينئذ أمام فتوى شرعية، فليس للمستفتى أن يقول فيها بغير علم، فما هى قواعد تفسير الرؤيا:-

١- **الأولى**: كتاب الله تعالى، فمن رأى مثلاً أنه يركب سفينة فى البحر، فليستبشر فإن فى رؤيته نجاة له من الشرور، ونجاة من هلاك محقق، أين ذلك فى كتاب الله، إنه فى قوله تعالى: ﴿**فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾ [العنكبوت: ١٥].

ومن رأى فى المنام أنه يخوض برجليه فى ماء.. فهو يخوض فى حياة طيبة، وفى رحمة الله، أين يوجد ذلك؟ فى قوله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ**﴾ [الأنبياء: ٣٠].

ومن رأى فى منامه. أن السماء تمطر عليه، فليبادر بالتوبة إلى مولاه من ذنوبه، فقد كثرت خطاياه.. من أين ذلك؟ من قوله تعالى: ﴿**وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ**﴾ [الشعراء: ١٧٣].

٢- **القاعدة الثانية**: من سنة النبى المصطفى ﷺ يقول النبى ﷺ: «**لقد رأيت فى المنام كأنى أشرب قدحًا من اللبن.. فلما شبعت من الشراب، بقيت فى القدح بقية من اللبن، فأعطيتها عمر بن الخطاب فشربها..**» فسألوا النبى ﷺ عن تأويل هذه الرؤيا، ماذا يكون شرب اللبن فى المنام يا رسول الله؟ قال: «العلم» وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه جديرًا بهذا العلم، فعمر رجل ضرب الله الحق على قلبه ولسانه، وكان جديرًا بهذه المنحة الربانية.

٣- **القاعدة الثالثة**: الزمان: من رأى مثلاً أنه يحلق رأسه فى المنام، فإن كانت فى زمن أشهر الحج: شوال، ذى القعدة، وذى الحجة فسوف يكرمه الله بحج بيته الحرام، فإن كانت الرؤيا فى غير هذه الأشهر فليحافظ على ماله، لأنه سوف يضيع.

وقد جاء رجل إلى الإمام جعفر الصادق رضي الله عنه. وقال له: يا إمام لقد رأيت أننى أصلى فى المسجد الحرام، ولكن الكعبة كانت خلف ظهرى. فقال له الإمام: بادر بالرجوع إلى مولاك، فقد نبذت دين الإسلام وراء ظهرك.

٤- **القاعدة الرابعة**: قد يكون تفسير الرؤيا مأخوذًا من الأسماء، فإذا رأيت فى المنام رجلاً اسمه الحسن. فحياتك حسنة، ومعيشتك حسنة.

وإن رأيت شخصًا اسمه ياسر، فالأمر ميسر إن شاء الله، وإن رأيت شخصًا اسمه سهلا فالأمر سهل. فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«رأيت الليلة كأنا في دار عقبة بن رافع، وأتينا برطب من رطب ابن طاب، فأوَّلت لنا في الدنيا، والعاقبة في الآخرة، وأن ديننا قد طاب»**(١)

٥- **القاعدة الخامسة**: قد تفسر الرؤيا بما يستقبله، فإن استقبلته عجوز مثلاً فهي دنيا مدبرة، وإن استقبلته برذون أو بغل، أو حصان فهو سفر لقوله تعالى: ﴿**وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا**﴾ [النحل: ٨].

٦- **القاعدة السادسة**: قد تفسر الرؤيا من وجه الرائي، وحسب حاله، عاصيًا كان أم مطيعًا فللطاعة نور في القلب، نور في الوجه، لكن للمعصية ظلمة في القلب، ظلمة في الوجه.

فقد جاء رجل إلى الإمام ابن سيرين -رحمه الله- وقال: يا إمام، لقد رأيت في المنام كأني أؤذن، فنظر الإمام في وجهه وقال له: إنك سوف تحج بيت الله الحرام، ثم جاءه رجل آخر، وقال له: يا إمام، لقد رأيت في المنام كأني أؤذن، فنظر الإمام في وجهه، ثم قال له: تب إلى الله فإنك سارق، وتستحق قطع يدك.

وتعجب الجالسون وقالوا: على أي شيء بنيت هذا التأويل، فقال نظرت في وجه الأول، فوجدت نور الطاعة في وجهه، فتذكرت قول الله تعالى: ﴿**وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ**﴾ [الحج: ٢٧]، ثم نظرت في وجه الآخر فوجدت ظلمة المعصية فتذكرت قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ**﴾ [يوسف: ٧٠].

• آداب معبر الرؤيا •

ولمفسر الرؤيا ومؤلها آداب منها:

١- أن يقول إذا قص عليه الشخص رؤياه، خيرًا رأيت، أو يقول: خيرًا تلقاه، وشرًا توقاه، أو خيرًا لنًا، وشرًا لأعدائنا، الحمد لله رب العالمين، اقصص رؤياك.

٢- ومنها: أن يعبرها على أحسن الوجوه، ولذلك فهي تقع على ما عبرت عليه، يقول النبي ﷺ: **«الرؤيا جزء من أربعين جزءاً من النبوة، وهي على رجل طائر، فإذا حدث بها وقعت، فلا تحدث بها إلا حبيبًا أو لبيبًا»**(٢)

٣- أن يحسن الاستماع إلى الرؤيا، ثم يفهم السائل الجواب.

---

(١) صحيح سنن أبي داود للألباني (٥٠٢٥) ورواه مسلم.

(٢) رواه البخاري وأحمد وابن ماجه.

٤- أن يتأنى فى التعبير، ولا يستعجل به.

٥- أن يكتم عليه رؤياه فلا يفشيها إلى أحد فإنها أمانة.

٦- أن يفسر الرؤيا ويبلغ صاحبها بأسلوب مهذب، فقد روى أن رجلاً رأى فى منامه أن أسنانه سقطت من فمه، فجاء إلى أحد الناس، وقصها عليه، فقال له المعبر: سيموت جميع أقاربك. فحزن الرجل حزنًا شديدًا... حتى وصل إلى مفسر الأحلام الإمام محمد بن سيرين -رحمه الله-، فقص عليه رؤياه، فلما رأى الإمام أن فيها شرًا قال له: يا هذا سوف يبارك الله لك فى عمرك حتى تكون آخر أهلك موتًا.

التفسير واحد، والمعنى واحد، لكن الأسلوب مختلف.

• رؤية النبى ﷺ فى المنام •

عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من رآنى فى المنام فسيرانى فى اليقظة - أو لكأنما رآنى فى اليقظة- ولا يتمثل الشيطان بى**»[1]

جاء فى دليل الفالحين:

هل هذا مختص بالنبى ﷺ أو لا؟ فقال بعضهم: رؤية الله تعالى ورؤية الأنبياء والملائكة عليهم السلام، ورؤية الشمس والقمر والنجوم المضيئة، والسحاب الذى فيه الغيث لا يتمثل الشيطان بشيء منها، وذكر المحققون أن ذلك خاص به ﷺ، وقالوا فى ذلك: إنه ﷺ وإن ظهر بجميع أحكام أسماء الحق وصفاته، تخلقًا وتحققًا فإن من مقتضيات مقامات رسالته، ودعوته الخلق إلى الحق أن يكون الأظهر فيه - حكمًا وسلطنة من صفات الحق وأسمائه - صفة الهداية والاسم الهادى، فهو ﷺ صورة الاسم الهادى، ومظهر صفة الهادى، والشيطان مظهر اسم المضل والظاهر لصفة الضلالة، فهما ضدان ولا يظهر أحدهما بصفة الآخر.

فالنبى ﷺ خلقه الله للهداية، فلو ساغ لإبليس التمثل بها لزال الاعتماد بكل ما يبديه الحق ويظهره لمن يشاء هدايته، فلذلك عصم الله صورة النبى ﷺ من أن يظهر بها شيطان.

وإنما لم يمنع الشيطان من مثل ذلك فى الحق جل وعلا وهو أعظم جلالاً، فقد وقع أنه أضل قومًا بقوله: أنا الله، فظنوا أنهم رأوا الحق، وسمعوا خطابه، لأن كل ذى عقل يعلم استحالة الصورة فى حقه تعالى فلا يحصل الاشتباه، ولأن مقتضى حكم الحق أن يضل وأن يهدى بخلاف النبى ﷺ فهو مقيد بوصف الهداية، وظاهر بصورتها فوجب عصمة صورته من الشيطان.

---

(١) رواه أبو داود وصححه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود (٥٠٢٣) والبخارى ومسلم وابن ماجه.

الوصية رقم (٢٦)
لا تشربن الخمر

عن أبى الدرداء رضي الله عنه قال: أوصانى خليلى ﷺ فقال: **«لا تشربن الخمر، فإنها مفتاح كل شر»**(١)

صدق رسول الله ﷺ

• فى رحاب هذه الوصية •

إن الحبيب المصطفى ﷺ يوصينا على لسان الصحابى الجليل، بأن لا نشرب الخمر، ويعلل لهذا النهى بأنها مفتاح جميع الشرور والأخطار.

شرب الخمر مفسدة للدين، ومفسدة للجسم، والصحة، وجناية على النفس والأولاد، شارب الخمر ساع إلى الشر والفساد بيده ولسانه، وصائل خبيث على الأخلاق والأديان، شارب الخمر عضو مسموم فى جسم مواطنيه، إذا لم يبادروه بالعلاج أو يقطعوه أصابهم ضرره.

شارب الخمر يزين الشر ويحسنه لبنيه وبناته، وأصدقائه، ويدعوهم إليها بلسان حاله ومقاله، والمعلوم أن داعى الفساد مجاب فى كل زمان ومكان، وأنصاره بلا عد ولا حسبان، وإذا دبت الخمر فى رأس شاربها فقد شعوره، وجاء بأنواع الفحش والفجور، لأنه يفقد أعظم شىء ميزه الله تعالى به وهو العقل، قال سبحانه: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ**﴾ [الإسراء: ٧٠] قال ابن عباس: أى بالعقل.

فالعقل جعله الله للإنسان ليميز به النافع من الضار، ويفهم عن الله شرعه، فإذا شرب الإنسان الخمر ذهب عقله، وصار والعياذ بالله مثل الحيوانات، ومن يرضى لنفسه أن يكون هكذا؟.

• تحريم الخمر من القرآن الكريم •

لقد حرم الله تبارك وتعالى الخمر فى القرآن الكريم على مراحل متعددة، لأن العرب فى الجاهلية كانوا يعيشون فى إباحية مطلقة، بلا ضابط، ولا رادع، ولا حدود، فهم ينغمسون فى الشهوات، ويجرون وراء عادات سيئة تأصلت فيهم، وغرائز حيوانية سيطرت عليهم، ولم يكن من الميسور أن يتحولوا عنها دفعة واحدة، فكانت حكمة الله تبارك وتعالى أن خفف التشريع، بأن جعلها محرمة عليهم على مراحل، حتى لا يثقل عليهم، وحتى لا يؤدى ذلك إلى نفورهم، وانصرافهم عن الدعوة وصاحبها وقد نوهت السيدة

(١) رواه ابن ماجه بإسناد حسن (٣٣٧١) جـ٢/١١١٩ كتاب الأشربة باب الخمر مفتاح كل شر ورواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد بلفظ (اجتنبوا الخمر..) وذكره الألبانى فى ص.ج رقم (٦٣١٢).

عائشة ﵂ حيث قالت: «لو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر، لقالوا: لاندع الخمر أبدًا، ولو نزل: لاتزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا»[١]

فأول الآيات قوله تعالى: ﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرًا ورزقًا حسنًا﴾ [النحل: ٦٧] فكانوا يشربونها إلى أن ذهب عمر بن الخطاب، ومعاذ بن جبل ﵄ وجماعة من الأنصار إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، أفتنا فى الخمر والميسر، فإنها مذهبة للعقل، مسلبة للمال.. فأنزل الله قوله تعالى: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما﴾ [البقرة: ٢١٩] فالآية لم تصرح بالإقلاع عنها، لكن العاقل الحصيف الذى لديه فهم بمعانى التشريع، يشعر بالتحريم، لأن ما كان ضرره أكثر من نفعه فهو محرم يجب تركه، والإقلاع عنه، فمن فهم ذلك امتنع عنها، ومن لم يفهم ظل يشرب حتى صنع عبد الرحمن بن عوف طعامًا فدعا أناسًا من أصحاب النبى ﷺ، فأتاهم بخمر فشربوا وسكروا، وحضرت صلاة المغرب، فتقدم أحدهم ليصلى بهم، فقرأ: ﴿قل يا أيها الكافرون ۝١ أعبد ما تعبدون﴾ [الكافرون: ١، ٢] بحذف «لا» النافية، فأنزل الله تعالى[٢]: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون﴾ [النساء: ٤٣].

فقد نهى الله عباده المؤمنين عن أداء الصلاة فى حالة السكر، لأن هذه الحالة لا يتأتى معها الخشوع والخضوع بمناجاته تعالى بكتابه، وذكره ودعائه، وتسبيحه وتحميده فحرم السكر فى أوقات الصلاة، وتركها قوم وقالوا: لا خير فى شيء يحول بيننا وبين الصلاة.

إلى أن اتخذ عتبان بن مالك طعامًا، ودعا رجالاً من المسلمين، كان من بينهم سعد ابن أبى وقاص ﵁ وكان قد شوى لهم رأس بعير، فأكلوا وشربوا الخمر حتى أخذت منهم. ثم إنهم افتخروا عند عتبان، وانتسبوا، وتناشدوا الأشعار، فأنشد سعد قصيدة فيها هجاء للأنصار، وفخر لقومه، فأخذ رجل من الأنصار لحى البعير، فضرب به رأس سعد، فشجه شجة موضحة. فانطلق سعد إلى رسول الله ﷺ، وشكا إليه الأنصارى.. فقال عمر بن الخطاب: اللهم بين لنا فى الخمر بيانًا شافيًا، فأنزل الله تحريم الخمر[٣] فى قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ۝٩٠ إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١] ولما سمع الآية عمر بن الخطاب قال: انتهينا ربنا، انتهينا ربنا[٤]

---

(١) فتح البارى لابن حجر٩/ ٣٩　(٢) رواه الترمذى، وقال: حسن صحيح عن على ﵁.

(٣) أسباب النزول للواحدى مختصرا ص١٦٨ وقد رواه مسلم فى صحيحه فى فضائل الصحابة.

(٤) رواه الحاكم وصححه٢/ ٢٧٨ ووافقه الذهبى.

والتعبير بلفظ ﴿اجْتَنِبُوهُ﴾ أبلغ فى النهى والتحريم من لفظ (حُرّم) لأن معناه البعد عنها بالكلية، فكونوا فى جانب آخر، فكلما كانت الحرمة شديدة كان التعبير بلفظ الاجتناب، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ من الأَوْثَان وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠] والاستفهام فى قوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ معناه الأمر أى: فانتهوا.

(لطيفة):

لم يذكر فى القرآن الكريم تعليل الأحكام إلا بالإيجاز، أما هنا فقد ذكر بالإطناب والتفصيل، وذكرت فيه الأسباب لتحريم الخمر والميسر بالأسباب، منها:

١- إلقاء العداوة والبغضاء بين المؤمنين.

٢- الصد عن ذكر الله تعالى.

٣- شغل المؤمنين عن الصلاة. وكل ذلك ليشير إلى الضرر العظيم، والخطر الجسيم لشرب الخمر.

• تحريم الخمر من السنة المطهرة •

ولقد وردت أحاديث كثيرة فى السنة المطهرة تحرم الخمر من جميع الوجوه ومنها:

١- عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«كل مسكر خمر، وكل مسكر حرام، ومن شرب الخمر فى الدنيا فمات وهو يدمنها ولم يتب، لم يشربها فى الآخرة»**(١).

٢- وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«من شرب الخمر فى الدنيا لم يشربها في الآخرة إلا أن يتوب»**(٢)

قال ابن حجر:

قال الخطابى والبغوى فى شرح السنة: معنى الحديث: لا يدخل الجنة، لأن الخمر شراب أهل الجنة، فإذا حرم شرابها دل على أنه لا يدخل الجنة.

وقال ابن عبد البر: هذا وعيد شديد، يدل على حرمان دخول الجنة.

ويحمل الحديث عند أهل السنة على أنه لا يدخلها، ولا يشرب الخمر فيها إلا إن عفا الله عنه، كما فى بقية الكبائر وهو المشيئة.

فعلى هذا يكون معنى الحديث: جزاؤه فى الآخرة أن يحرمها لحرمانه دخول الجنة إلا إن عفا الله عنه. قال: وجائز أن يدخل الجنة بالعفو، ثم لا يشرب فيها خمرًا، ولا تشتهيها نفسه، وإن علم بوجود ما فيها، لحديث: **«من مات من أمتى وهو يشرب الخمر حرم الله عليه شربها فى الجنة»**(٣)

---

(١) رواه البخارى (٥٥٨٥) ومسلم (١ ٢).

(٢) رواه ابن ماجه (٣٣٧٣) ومسلم وهو فى ص.ج للألبانى برقم (٦١٨٧).

(٣) رواه أحمد فى مسنده بإسناد حسن

وقد لخص عياض كلام ابن عبد البر، وزاد احتمالاً آخر، وهو أن المراد بحرمانه شربها أنه يحبس عن الجنة مدة إذا أراد الله عقوبته، ومثله الحديث الآخر: **«لم يرح رائحة الجنة»** قال: ومن قال: لا يشربها فى الجنة بأن ينساها أو لا يشتهيها، يقول: ليس عليه فى ذلك حسرة، ولا يكون ترك شهوته إياها عقوبة فى حقه، بل هو نقص نعيم بالنسبة إلى من هو أتم نعيمًا منه كما تختلف درجاتهم، ولا يلحق من هو أنقص درجة حينئذ بمن هو أعلى درجة منه استغناءً بما أعطى، واغتباطًا له.

وقال ابن العربى: ظاهر الحديث أنه لا يشرب الخمر فى الجنة، ولا يلبس الحرير فيها، وذلك لأنه استعجل ما أمر بتأخيره ووعد به، فحرمه عند ميقاته، كالوارث فإنه يحرم ميراثه لاستعجاله.

٣- وعن ابن عباس ﵄ أن رسول الله ﷺ قال: **«أتانى جبريل، فقال: يا محمد، إنَّ الله عز وجل لعن الخمر، وعاصرها، ومعتصرها، وشاربها، وحاملها، والمحمولة إليه، وبائعها، ومبتاعها، وساقيها، ومسقيها»**(١)

٤- وعن ابن عمرو ﵄ أن رسول الله ﷺ قال: **«الخمر أم الخبائث، فمن شربها لم تقبل صلاته أربعين يومًا، فإن مات وهى فى بطنه مات ميتة جاهلية»**(٢)

٥- وعن ابن عباس ﵄ أن رسول الله ﷺ قال: **«الخمر أم الفواحش، وأكبر الكبائر، فمن شربها، وقع على أمه، وخالته، وعمته»**(٣) وعنه أيضًا. **«من مات وهو مدمن خمر، لقى الله وهو كعابد وثن»**(٤)

٦- وعن معاوية ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: **«من شرب الخمر فاجلدوه، فإن عاد الثانية فاجلدوه، فإن عاد الثالثة فاجلدوه، فإن عاد الرابعة فاقتلوه»**(٥)

٧- وعن ابن عمر ﵄ أن رسول الله ﷺ قال: **«من شرب الخمر وسكر لم تقبل له صلاة أربعين صباحًا، فإن مات دخل النار، فإن تاب تاب الله عليه، وإن عاد فشرب فسكر لم تقبل له صلاة أربعين صباحًا، فإن مات دخل النار، وإن تاب تاب الله عليه، وإن عاد فشرب فسكر لم تقبل له صلاة أربعين صباحًا، فإن مات دخل النار، وإن تاب تاب الله عليه، فإن عاد كان حقًّا على الله أن يسقيه من ردغة الخبال يوم القيامة، عصارة أهل النار»**(٦)

---

(١) رواه البيهقى فى الشعب والحاكم فى المستدرك وصححه الألبانى فى ص.ج (٧٢).
(٢) رواه الطبرانى فى الأوسط وهو فى ص.ج للألبانى برقم (٣٣٣٩).
(٣) رواه الطبرانى فى الكبير وحسنه الألبانى فى ص.ج (٣٣٤٠).
(٤) أبو نعيم فى الحلية٩/ ٢٥٣ والطبرانى فى الكبير وصححه الألبانى فى ص.ج برقم (٦٨٢٥).
(٥) أبو داود بنحوه (٣٦٨٠) وأحمد (٦١٩٧) وصححه الألبانى فى ص.ج (٦١٨٥).
(٦) رواه ابن ماجه (٣٣٧٧) وصححه الألبانى فى ص.ج (٦١٨٩).

٨- وفي رواية عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«كل مسكر حرام. إن على الله عز وجل عهداً لمن يشرب المسكر أن يسقيه من طينة الخبال. قالوا: يا رسول الله، وما طينة الخبال؟ قال: عرق أهل النار، أو عصارة أهل النار»**(١)

٩- وعن بريدة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«ثلاثة لا تقربهم الملائكة: السكران، والمتضمخ بالزعفران، والجنب»**(٢).

١٠- وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«ثلاثة قد حرم الله عليهم الجنة: مدمن الخمر، والعاق، والديوث الذي يقر في أهله الخبث»**(٣)

• السلف الصالح يذمون شارب الخمر •

١- فعن عطاء بن يسار -رحمه الله- أن رجلاً سأل كعب الأحبار رضي الله عنه هل حرمت الخمر في التوراة؟ قال: نعم، ثم قرأ هذه الآية ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾ [المائدة: ٩٠] مكتوب في التوراة: إنا أنزلنا الحق ليذهب بالباطل، ويبطل به اللعب، والدف، والمزامير والخمر ويل لشاربها، أقسم الله بعزته وجلاله، لمن انتهكها في الدنيا إلا عطشه يوم القيامة، ولمن تركها بعد ما حرمتها إلا سقيته إياها في حظيرة القدس، قيل: وما حظيرة القدس؟ قال: الله هو القدس، وحظيرته الجنة(٤).

٢- وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه قام خطيباً، فقال: «أيها الناس، اتقوا الخمر، فإنها أم الخبائث، وإن رجلاً ممن كان قبلكم من العُبَّاد كان يختلف إلى المسجد، فلقيته امرأة سوء، فأمرت جاريتها فأدخلته المنزل، فأغلقت الباب، وعندها باطية من خمر، وعندها صبي، فقالت له: لا تفارقني حتى تشرب كأسًا من هذا الخمر، أو تواقعني، أو تقتل هذا الصبي، وإلا صحت -يعني صرخت-، وقلت: دخل عليَّ في بيتي، فمن الذي يصدقك؟ فضعف الرجل عند ذلك، وقال: أما الفاحشة فلا آتيها، وأما النفس فلا أقتلها، فشرب كأسًا من الخمر، فقال زيديني، فزادته، فوالله ما برح حتى واقع المرأة، وقتل الصبي.

قال عثمان رضي الله عنه: فاجتنبوها فإنها أم الخبائث، وإنه والله لا يجتمع الإيمان والخمر في قلب رجل إلا يوشك أحدهما أن يذهب بالآخر(٥)

٣- وقال الضحاك: من مات وهو مدمن خمر بعث يوم القيامة وهو سكران.

٤- وقال ابن مسعود رضي الله عنه: لعن في الخمر عشرة:

العاصر لها، والمعصورة له، وشاربها، وساقيها، وحاملها، والمحمولة إليه، وتاجرها، ومتجرها، وبائعها، ومشتريها، وشاتلها، يعني غارسها.

---

(١) رواه مسلم (٢٠٠٢). (٢) صححه الألباني في ص.ج (٣٠٥٥).

(٣) رواه الحاكم في المستدرك، وأحمد في مسنده (٥٣٧٢) بإسناد صحيح.

(٤) تنبيه الغافلين للسمرقندي ص١١٠ (٥) رواه النسائي موقوفًا عن عثمان وإسناده جيد.

٥- وروى عن بعض الصحابة -رضوان الله تعالى عليهم- أنه قال: من زوج كريمته من شارب الخمر، فكأنما ساقها إلى الزنا، ومعناه: أن شارب الخمر إذا سكر كثر كلامه فى الطلاق، فتحرم عليه امرأته وهو لا يشعر.

٦- ويقال: إن شارب الخمر شبيه بعبدة الأوثان، لأن الله تعالى سمى الخمر رجسًا، وأمر باجتنابها، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّما الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠] كما قال عن الأوثان: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠].

٧- وروى طلحة بن مُصرِّف عن عبد الله بن مسعود ﷺ أنه قال: «إنَّ من شربها نهارًا أشرك بالله تعالى حتى يمسى، وإن من شربها ليلاً أشرك بالله تعالى حتى يصبح».

• ما فى الخمر من خصال مذمومة •

قال الفقيه السمرقندى:

إياك وشرب الخمر، فإن فيها عشر خصال مذمومة:

أولها: أنه إذا شرب الخمر صار بمنزلة المجنون، ويصير ضحكة للصبيان، ومذمة عند العقلاء، كما ذكر عن ابن أبى الدنيا أنه قال: رأيت سكران فى بعض سكك بغداد يبول، وهو يتمسح ببوله، وهو يقول. اللهم اجعلنى من التوابين، واجعلنى من المتطهرين.

وذكر أن سكران قاء فى بعض الطرق، وجلس كلب يلحس فمه ولحيته، وهو يقول للكلب: يا سيدى، يا سيدى، بارك الله فيك، ثم إن الكلب رفع رجله، وبال على وجهه، فقال السكران: ماء حار بارك الله فيك.

والثانية: أنها متلفة للمال. مذهبة للعقل، كما قال عمر بن الخطاب ﷺ: يا رسول الله، أرنا رأيك فى الخمر، فإنها متلفة للمال، مذهبة للعقل.

والثالثة: أن شربها سبب للعداوة بين الإخوان والأصدقاء والناس، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ [المائدة: ٩١].

والرابعة: أن شربها يمنع عن ذكر الله، وعن الصلاة، كما قال تعالى: ﴿ويصُدَّكُمْ عن ذكْرِ اللَّه وعنِ الصَّلاة فهل أَنتم مُّنتهون﴾ [المائدة: ٩١].

والخامسة: أن شربها يحمله على الزنا، لأنه إذا شرب يطلق امرأته وهو لا يشعر.

والسادسة: أنه مفتاح كل شر، لأنه إذا شرب الخمر سهل عليه جميع المعاصى.

والسابعة: أنه يؤذى حفظته بإدخالهم فى مجلس الفسق، وبوجود الرائحة المنتنة منه فلا ينبغى أن يؤذى من لا يؤذيه.

والثامنة: أنه أوجب على نفسه ثمانين جلدة، فإن لم يجلد فى الدنيا، فإنه يضرب فى الآخرة بسياط من نار على رؤوس الناس، ينظر إليه الآباء والأصدقاء.

والتاسعة: أنه ردَّ باب السماء على نفسه، لأنه لا ترفع له حسنات، ولا دعاء أربعين يومًا.

والعاشرة: أنه مخاطر بنفسه، لأنه يخاف أن ينزع منه الإيمان عند موته، فهذه عقوبات فى الدنيا قبل أن ينتهى إلى عقوبات الآخرة(١)

وقال المناوى:

وهى كريهة المذاق، ورجس، ومن عمل الشيطان، توقع العداوة والبغضاء، وتصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وتستر العقل الذى هو نور الهدى، وآلة الرشد، ألا ترى حمزة ﷺ لما زال عقله بها، قال للمصطفى ﷺ: هل أنتم إلا عبيد أبى أو آبائى؟ فجعله عبدًا لكافر. قال ابن العربى: وهذا قول إدٌّ، وحديث إلى الكفر ممتد، وعذره المصطفى ﷺ لزوال عقله بما كان مباحًا حينئذ، ولو كان زواله بمحرم ما عذره، ثم استقر الأمر على شدة التحريم.

وقال: ومن قبائحها وفضائحها أنها تذهب الغيرة، وتورث الخزى والفضيحة والندامة، وتلحق شاربها بأحقر نوع الإنسان وهم المجانين، وتسلبه أحسن الأسماء والصفات، وتسهل قتل الإنسان، ومؤاخذة الشيطان، وهتك الأستار، وإظهار الأسرار، وتدل على العورات، وتهون ارتكاب الجرائم والقبائح، وكم أهاجت من حرب، وأفقرت من غنى، وأذلت من عزيز، ووضعت من شريف، وسلبت من نعمة، وجلبت من نقمة، وفرقت بين رجل وزوجه فذهبت بقلبه، وراحت بلبه، وكم أورثت من حسرة، وأجرت من عبرة، وأوقعت فى بلية، وعجلت من منية، وكم وكم، ولو لم يكن من فواحشها إلا أنها لا تجتمع هى وخمر الجنة فى جوف واحد لكفى، وآفاتها لا تحصى، وفضائحها لا تستقصى، وفى هذا القدر كفاية(٢)

• رجال تركوا الخمر فى الجاهلية •

لقد ترك الخمر فى الجاهلية وقبل أن يحرمها القرآن الكريم رجال عرفوا أنها مفتاح كل شر وبلية وعرفوا أنها سبب كل الشرور والموبقات ومنهم:

١ - **عبد الله بن جدعان:** وكان جوادًا من سادات قريش، وذلك أنه شرب مع أمية بن الصلت الثقفى، فضربه على عينه، فأصبحت عين أمية مخضرة، فخاف عليها الذهاب، فقال له عبد الله: ما بال عينك؟ فسكت، فألح عليه، فقال: ألست ضاربها بالأمس.

---

(١) تنبيه الغافلين ص١١٠، ١١١

(٢) فتح القدير للمناوى٣/ ٥٠٧، ٥٠٨.

فقال: أو بلغ الشراب منى ما أبلغ هذا الحد، لا أشربها بعد اليوم، ثم دفع له عشرة آلاف درهم، ثم قال: الخمر عليَّ حرام، ولا أذوقها بعد اليوم(١)

٢- **قيس بن عاصم:** وممن حرمها على نفسه أيضًا قيس بن عاصم، وذلك أنه سكر ذات ليلة، فقام لابنته، أو لأخته، فهربت منه، فلما أصبح سأل عنها، فقيل له: أو ما علمت ما صنعت البارحة؟ فأخبر بالقصة، فحرم الخمر على نفسه.

الوصية رقم (٢٧)
اعقلها وتوكل

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: **«جاء رجل على ناقة له، فقال: يا رسول الله، أدعها وأتوكل؟ أو أرسلها وأتوكل؟ فقال ﷺ: اعقلها وتوكل»**(٢).

صدق رسول الله ﷺ

• فى رحاب هذه الوصية •

أخا الإسلام:

فى هذه الوصية المباركة يوصى الرسول ﷺ هذا الرجل الذى جاء على ناقة لهُ، بل يوصى الأمة أجمع بشعبة عظيمة من شعب الإيمان، ومقام رفيع من مقامات الموقنين، ألا وهى الوصية بالتوكل والأخذ بالأسباب.

والتوكل نصف الدين، ونصفه الآخر الإنابة، كما أشار القرآن الكريم فى قوله: ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود: ٨٨] فالدين عبادة واستعانة ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥] والتوكل استعانة، والإنابة عبادة.

والوصية المباركة نص حاسم صريح فى مراعاة الأسباب، وأنها لا تنافى التوكل.

والمسلم يحتاج إلى التوكل احتياجًا شديدًا، وخاصة فى قضية «الرزق» الذى قد شغل فى عصرنا هذا وفى معظم العصور عقول الناس وقلوبهم، وأورث الكثير منهم قلق النفس، وتعب البدن.

بل وربما قبل البعض مذلة نفسه، وبذل كرامته، وانحناء رأسه لعبد مثله من أجل لقمة عيش يظنها فى يده، إن شاء أعطاه، وإن شاء منعه.

فماذا يفعل مثل هذا؟ إنه يجب عليه أن يعتصم بحبل التوكل على الله تعالى، الذى خلقك فسواك فعدلك.

---

(١) المستطرف للأبشيهى ص٥٥٦ التوفيقية.

(٢) رواه الترمذى (٢٥١٧) ورواه الحاكم فى مستدركه٣/ ٦٢٣ بلفظ قيدها وتوكل وقال الذهبى سنده جيد وأورده الهيثمى فى المجمع١٠/ ٣٠٣ وحسنه الألبانى فى ص.ج برقم (١٠٦٨).

توكل على الرحمن في الأمر كله	ولا ترغبن في العجز يومًا عن الطلب
ألم تر أن الله قال لمريم	وهزي إليك الجذع يساقط الرطب
ولو شاء أدلى الجزع من غير هزه	إليها ولكن كل شيء له سبب

• معنى التوكل وحقيقته •

يقول ابن رجب:

وحقيقة التوكل: هو صدق اعتماد القلب على الله عز وجل في استجلاب المصالح، ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة كلها، وكلة الأمور كلها إليه، وتحقيق الإيمان بأنه لا يعطي ولا يمنع، ولا يضر، ولا ينفع سواه.

وقال سعيد بن جبير: التوكل جماع الإيمان.

وقال الحسن: إن توكل العبد على ربه أن يعلم أن الله هو ثقته.

وقال سهل: التوكل الاسترسال مع الله مع ما يريد.

وسئل يحيى بن معاذ: متى يكون الرجل متوكلاً؟ فقال: إذا رضي بالله وكيلاً

ومنهم: من يفسره بالثقة بالله، والطمأنينة إليه، والسكون إليه.

وقال ذو النون: خلع الأرباب، وقطع الأسباب.

وقال أبو تراب النخشبي: هو طرح البدن في العبودية، وتعلق القلب بالربوبية، والطمأنينة إلى الكفاية، فإن أعطى شكر، وإن منع صبر.

فقد جعله مركبًا من عدة أمور:

١- القيام بحركات العبودية.	٢- تعلق القلب بتدبير الرب تبارك وتعالى.
٣- وسكونه إلى قضائه وقدره.	٤- طمأنينته، وكفايته له.
٥- الشكر إن أعطى.	٦- والصبر إن منع.

وسئل سهل عن التوكل، فقال: قلب عاش مع الله بلا علاقة.

وقال أيضًا: من طعن في الحركة فقد طعن في السنة، ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان.

وأجمع القوم على أن التوكل لا ينافي الأخذ بالأسباب؛ فلا يصح التوكل إلا مع القيام بها، وإلا فهو بطالة، وتوكل فاسد(١)

• منزلة التوكل في القرآن الكريم •

وللتوكل منزلة عظيمة لا يبلغها إلا المخلصون الصادقون، لذلك أمر الله به رسوله محمدًا ﷺ في آيات متعددة في كتابه، منها: قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ

---

(١) انظر الرسالة القشيرية ص٢٣٨، ٢٣٩ ومدارج السالكين لابن الجوزي دار الحديث وجامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي ص٥٦٧ ط/ دار العاصمة بالسعودية.

وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه﴾ [هود: ١٢٣] وقوله تعالى: ﴿وتوكل على الحي الذى لا يموت وسبح بحمده﴾ [الفرقان: ٥٨] ومنها قوله سبحانه: ﴿وتوكل على العزيز الرحيم﴾ [الشعراء: ٢١٧]ومنها قوله عز وجل: ﴿فتوكل على الله إنك على الحق المبين﴾ [النمل: ٧٩].

فتلك أربعة مواضع، ولو دققت النظر فيها لوجدتها كلها آيات مكية، وهناك أوامر فى التوكل، لكنها مدنية ومنها قوله سبحانه: ﴿فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله﴾ [آل عمران: ١٥٩] ومنها قوله سبحانه: ﴿فأعرض عنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا﴾ [النساء: ٨١] ومنها قوله. ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله﴾ [الأنفال: ٦١] وفى سورة الأحزاب مرتين: ﴿وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا﴾ [الأحزاب: ٣] ﴿ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله﴾ [الأحزاب: ٤٨].

وقد جاء الأمر بالتوكل للمؤمنين عامة على ألسنة الرسل السابقين، كما فى قوله تعالى فى جواب الرسل وردهم على أقوامهم: ﴿قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ [إبراهيم: ١١].

وقد جعل الله سبحانه وتعالى التوكل صفة من الصفات الأساسية للمؤمنين الصادقين، كما فى قوله تعالى: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون﴾ [الأنفال ٢-٤]

كما أمرنا ربنا تبارك وتعالى بأن نتوكل عليه فى جميع شئون حياتنا فقال سبحانه: ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ [التوبة: ٥٠]، [آل عمران: ١٦٠]، [التغابن: ١٣].

• التوكل من أخلاق الأنبياء والمرسلين •

وقد بين لنا القرآن الكريم أن «التوكل» كان خلق رسل الله جميعًا، منذ عهد شيخ المرسلين «نوح عليه السلام» إلى سيد المرسلين «محمد ﷺ»

فقال سبحانه على لسان نوح عليه السلام: ﴿يا قوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلى ولا تنظرون﴾ [يونس: ٧١].

وقال على لسان نبيه هود عليه السلام، وقد خوفوه أن تعتريه آلهتهم بسوء! فقال: ﴿إنى توكلت على الله ربى وربكم﴾ [هود: ٥٦] وقال على لسان خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير﴾ [الممتحنة: ٤] وقال على لسان شعيب خطيب

الأنبياء عليه السلام: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

وقال عن موسى كليم الله عليه السلام: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ (٨٤) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [يونس: ٨٤:٨٦].

• أزهار من بستان السنة المطهرة فى التوكل •

١- أما الزهرة الأولى فيقطفها لنا فاروق الأمة الأكبر عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: قال النبى ﷺ: **«لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا، وتروح بطانًا»**(١)

قال ابن رجب(٢): وهذا الحديث أصل فى التوكل، وأنه من أعظم الأسباب التى يستجلب بها الرزق، قال الله عز وجل: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]. وقد قرأ النبى ﷺ هذه الآية على أبى ذر الغفارى، وقال له: **«لو أن الناس كلهم أخذوا بها لكفتهم»**(٣)

٢- الزهرة الثانية: يقطفها لنا حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يقول: قال رسول الله ﷺ: **«عرضت عليَّ الأمم، فرأيت النبى ومعه الرهط، والنبى ومعه الرجل والرجلان، والنبى وليس معه أحد، إذ رفع لى سواد عظيم، فظننت أنهم أمتى، فقيل لى: هذا موسى وقومه، ولكن انظر إلى الأفق، فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لى: انظر إلى الأفق الآخر، فإذا سواد عظيم، فقيل لى: هذه أمتك، ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب، ولا عذاب»** ثم نهض، فدخل منزله، فخاض الناس فى أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله، وقال بعضهم: فلعلهم الذين ولدوا فى الإسلام، فلم يشركوا بالله شيئًا -وذكروا أشياء- فخرج عليهم رسول الله، فقال: **«ما الذى تخوضون فيه؟** فأخبروه، فقال: **«هم الذين يرقون، ولا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون»**(٤).

يقول الإمام النووى:

إن الحديث يحمل على قوم يعتقدون أن الأدوية نافعة بطبعها، ولا يفوضون الأمر إلى الله تعالى.

---

(١) رواه أحمد فى مسنده (٣٧٠) والترمذى (٢٣٤٤) وابن ماجه (٤١٦١) وابن حبان (٢٥٤٨) وقد صححه الألبانى فى ص.ج برقم (٥٢٥٤).
(٢) جامع العلوم والحكم ص٥٦٦.
(٣) تفسير ابن كثير٤/ ٣٧٩
(٤) رواه البخارى (٦٤٧٢) ومسلم (٢٢).

وقال الداودى: المراد بالحديث الذين يفعلونه فى الصحة، فإنه يكره لمن ليست به علة أن يتخذ التمائم ويستعمل الرقى، وأما من يستعمل ذلك ممن به مرض فجائز.

وذهب بعضهم: إلى تخصيص الرقى والكى من بين أنواع الطب لمعنى، وأن الطب غير قادح فى التوكل، إذ تطبب الرسول ﷺ، والفضلاء من السلف.. إلخ[١]

٣- أما الزهرة الثالثة: فيقطفها لنا الصحابى الجليل: أبو هريرة رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «**يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير**»[٢] أى فى التوكل لأنها تتوكل على الله، فتغدو خمصًا، وتروح بطانًا، وقيل: فى الخوف. وقيل: فى رقتها.

٤- والزهرة الرابعة يقطفها لنا جابر بن عبدالله رضي الله عنهما حيث إنه غزا مع النبى ﷺ قبل نجد، فلما قفل رسول الله ﷺ قفل معهم، فأدركتهم القائلة -أى وقت القيلولة- فى واد كثير العضاة، فنزل رسول الله، وتفرق الناس يستظلون بالشجر، ونزل رسول الله تحت شجرة ظليلة، وعلق بها سيفه، فيأتى أعرابى، ويسل السيف، ويقول: يا محمد، من يمنعك منى؟.

فقال رسول الله ﷺ: «**الله**» فسقط السيف من يد الأعرابى، فأخذه الرسول ﷺ وقال له: «**من يمنعك مني يا أعرابى؟**» فقال: يا محمد كن خير آخذ، فقال: «**تشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله؟**» قال: لا، ولكنى أعاهدك ألا أقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك، فأتى الرجل أصحابه، وقال لهم: جئتكم من عند خير الناس[٣].

فقد نام الرسول ﷺ فى ظل شجرة معلقًا سيفه معتمدًا على الله، متوكلا عليه فى الحراسة والحفظ لا على أحد سواه، فكفى به وكيلاً، وكفى به حافظًا.

٥- والزهرة الخامسة يقطفها لنا صديق الأمة الأكبر أبو بكر الصديق حين أقام فى غار ثور ليهدأ المشركين عن الطلب، يقول رضي الله عنه:

نظرت إلى أقدام المشركين ونحن فى الغار، وهم على رءوسنا، فقلت: يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا، فقال ﷺ: «**ماظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما**»[٤] إنه درس عظيم فى التوكل على الله، والاعتماد عليه وحده.

٦- والزهرة السادسة إنما هى دعاء بالتوكل عليه وحده تعلمنا إياه السيدة أم سلمة رضي الله عنها تقول: كان رسول الله ﷺ يقول حين يخرج من بيته: «**باسم الله، توكلت على الله، اللهم إنى أعوذ بك أن أضل أو أضل، أو أزل أو أزل، أو أظلم أو أظلم، أو أجهل أو يجهل علىّ**»[٥]

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى٢/ ٨٤. (٢) رواه مسلم (٢٨٤٠)

(٣) رواه البخارى (٤١٣٦) ومسلم (٨٤٣) بنحوه مختصراً.

(٤) رواه البخارى (٣٦٥٣) ومسلم (٢٣٨١).

(٥) صححه الألبانى فى سنن أبى داود (٥٠٩٥) جـ٣/ ٢٥٢ وصحيح الترمذى (٣٦٦٦).

• قصة «هاجر» وحسن التوكل •

وتأمل أم إسماعيل عليها السلام إنها قمة فى التوكل، ضربت المثل والقدوة فى التوكل على الله تعالى. تأمل حديث البخارى.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل اتخذت منطقًا لتعفى أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم، وبابنها إسماعيل وهى ترضعه، حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جرابًا فيه تمر، وسقاء فيه ماء.

ثم قفى إبراهيم منطلقًا فتبعته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا فى هذا الوادى، الذى ليس به أنيس ولا شىء؟.

فقالت له ذلك مرارًا، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذن لا يضيعنا. ثم رجعت.

فانطلق إبراهيم، حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الدعوات، ورفع يديه فقال: ﴿ **رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ** ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل، وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفد ما فى السقاء، عطشت، وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى، أو قال: يتلبط، فانطلقت كراهة أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل فى الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحدًا؟ فلم تر أحدًا.

فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت بطن الوادى رفعت طرف درعها، ثم سعت سعى الإنسان المجهد حتى جاوزت الوادى، ثم أتت المروة فقامت عليها، ونظرت هل ترى أحدًا؟ فلم تر أحدًا، فعلت ذلك سبع مرات.

قال ابن عباس: قال النبى ﷺ: «**فلذلك سعى الناس بينهما**».

فلما أشرفت على المروة سمعت، فقال: صه، تريد نفسها، ثم تسمعت فسمعت أيضًا، فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث، فإذا هى بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه -أو قال: بجناحه- حتى ظهر الماء، فجعلت تخوضه، وتقول بيدها هكذا وجعلت تغرف من الماء فى سقائها، وهو ينور بعدما تغرف.

قال ابن عباس: قال النبى ﷺ: «**يرحم الله أم إسماعيل، لو تركت زمزم، أو قال: لو لم تغرف من الماء، لكانت زمزم عينًا معينًا**».

قال: فشربت، وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: «لا تخافى الضيعة، فإن ها هنا بيتًا لله يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله»[1].

فسبحانه من إله كريم. لا ينازعه أحد فى سلطانه.. يغيث الملهوف، وينفس عن المكروب.. ويفرج الكرب.. ويزيل الهم.

فدوام الحال من المستحال، وسيجعل الله من بعد عسر يسرًا، ورحم الله القائل:

ولرب نازلة يضيق بها الفتى ... ذرعًا، وعند الله منها المخرج
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها ... فرجت وكنت أظنها لا تفرج

وإذا كان الناس يقولون: لا يأس مع الحياة، ولا حياة مع اليأس، فنحن نقول: «لا يأس مع التوكل، ولا توكل مع اليأس»

فهاجر أم إسماعيل، ونبى الله إبراهيم عليه السلام، كانا قمة فى التوكل على القوى القهار، وأئمة فى التسليم والرضا بما قضى به الله تبارك وتعالى.

فرحم الله القائل:

دع المقادير تجرى فى أعنتها ... ولا تبيتن إلا خالى البال
ما بين غمضة عين وانتباهتها ... يغير الله من حال إلى حال

• مجالات التوكل •

يقول ابن القيم:

ومنزلة التوكل: أوسع المنازل وأجمعها، ولا تزال معمورة بالنازلين، لسعة متعلق التوكل، وكثرة حوائج العالمين، وعموم التوكل.

ثم يقول: وأفضل التوكل توكل الأنبياء فى إقامة دين الله، ورفع فساد المفسدين فى الأرض، وهذا توكل ورثتهم.

ثم الناس بعد فى توكلهم على حسب هممهم ومقاصدهم، فمن متوكل على الله فى حصول الملك، ومن متوكل فى حصول رغيف..»[2]

وعلى هذا فمجالات التوكل متعددة منها:

١- التوكل فى أمر الرزق:

ولا شك أن أمر الرزق قد شغل معظم الناس فى كل المجتمعات، وشغلهم أيضًا أمر الأجل، لكن المتوكلين على الله حق توكله قد فرغوا من هذين الأمرين، وقد اطمأنوا أن الرزق مقسوم، والأجل معلوم، فلا يملك أحد أن ينقص من رزقهم مثقال ذرة، ولا أن يؤخر أو يقدم فى آجالهم لحظة، آخذين ذلك من الدرس الذى علمه الرسول ﷺ لابن عباس:

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ١/ ١٥٤، ١٥٥ (٢) مدارج السالكين ٢/ ١١٨

واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشىء فلن ينفعوك بشىء إلا بشىء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك»[1].

وقد سئل أحدهم لم زهدت في الدنيا؟ فقال: علمت أن رزقى لا يأكله غيرى فاطمأن قلبى، وعلمت أن الله مطلع علىّ فخفت أن يرانى على معصية، وعلمت أن الموت قادم فأعددت الزاد. وهذا لا يعنى أن يهمل المسلم لرزقه، بل عليه أن يسعى ويكدح، لأن الله قد ضمنه، قال سبحانه: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] وقال سبحانه آمرًا: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ [العنكبوت: ٦٠]. عباده المؤمنين بالسعى فى مناكب الأرض طلبًا للرزق: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥] ويقول سبحانه فى الحديث القدسى الجليل:

«يابن آدم! تفرغ لعبادتى، أملأ صدرك غنى، وأسد فقرك، وإن لم تفعل ملأت صدرك شغلاً، ولم أسد فقرك»[2]

لكن الإنسان دائمًا هو الذى يتعجل أمور الرزق، ولله در القائل:

لا تعجلن فليس الرزق بالعجل ... الرزق فى اللوح مكتوب مع الأجل

فلو صبرنا لكان الرزق يطلبنا ... لكنه خلق الإنسان من عجل

فاعمل واجتهد، واعمل بالأسباب فكل ميسر لما خلق له كما قال سيد الخلق محمد ﷺ حين سأله سراقة بن مالك بن جعشم ﷺ: فيم العمل؟ قال: **«اعملوا فكل ميسر لما خلق له، وكل عامل بعمله»[3]**

٢- التوكل فى أمر الدين:

فهناك من يتوكل على الله فى نصرة دينه ليأخذ بيده ويعينه على سلوك الطريق المستقيم ولذلك حكى القرآن الكريم لنا، وحدثنا عن أوليائه فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ [فصلت: ٣٠] قالوا: ربنا الله، واستقاموا على المنهج الحق، والطريق السوى.

٣- التوكل على الله فى الأمور الدنيوية:

وذلك مثل طلب الذرية الصالحة، التى تكون قرة عين للآباء، وهذا مطلب مشروع لأن الأنبياء والصالحين قد دعوا ربهم ذلك، فهذا سيدنا زكريا عليه السلام يقول: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران: ٣٨].

وذاك هو خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام يقول. ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠] وهؤلاء هم عباد الرحمن الذين امتدحهم ربهم بالصفات النبيلة يقولون: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

(١) رواه الترمذى.   (٢) رواه ابن ماجه فى سننه (٤١٠٧)   (٣) رواه مسلم ..

• من ثمار التوكل على الله •

أخا الإسلام:

إذا ما كنت متوكلاً على مولاك حق توكله أعطاك توكلك ثمارًا طيبة مباركة، ومنها:

١- الثمرة الأولى: سكينة النفس، وطمأنينة القلب:

فمن ترك الاختيار والتدبر فى رجاء زيادة، أو خوف نقصان، أو طلب صحة أو فرار من سقم، وعلم أن الله على شىء قدير، استراح حينئذ من الهموم والغموم والأنكاد والحسرات، وحمَّل كل حوائجه ومصالحه من لا يبالى بحملها، كان ذلك أشبه بجندى آوى إلى حصن حصين، فيه فراشه وطعامه، وذخائره وسلاحه، يرى منه ولا يرى، ويرمى ولا يُرمى، فلا يهمه ما يدور حوله من صخب الألسنة، أو اشتجار الأسنة إنها الحالة التى وجدها سيدنا موسى عليه السلام حين قال له أصحابه: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦١، ٦٢].

إنها الحالة التى وجدها النبى ﷺ فى الغار حين أشفق عليه أبو بكر الصديق، فقال له: ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

إنها الحالة التى وجدها إبراهيم الخليل حين ألقى فى النار، فلم يشتغل بسؤال مخلوق من إنس أو ملك! فلمّ يشتغل إلا بقوله: «حسبى الله ونعم الوكيل».

فوحقه لأسلمن لأمره فى كل نازلة وضيق خناق!

موسى وإبراهيم لما سلما سلما من الإغراق والإحراق![1]

٢- الثمرة الثانية: القوة الروحية والنفسية:

تلك القوة التى تتصاغر أمامها القوة المادية.

قال إبراهيم الحربى رحمه الله: إننى أضقت مرة -أى حصلت لى ضائقة فى أمر الرزق- حتى انتهى أمرى إلى أن عدم عيالى قوتهم، فقالت لى الزوجة: هب أنى وإياك نصبر فكيف نصنع بهاتين الصبيتين؟ فهات شيئًا من كتبك حتى نبيعه، أو نرهنه، فضننت بذلك، وقلت: اقترضى لهما شيئًا، وأنظرينى بقية اليوم والليلة.

وكان لى بيت فى دهليز دارى فيه كتبى، فكنت أجلس فيه للنسخ والنظر، فلما كان فى تلك الليلة فإذا بداقٍّ يدق الباب، فقلت: من هذا؟

فقال: رجل من الجيران، فقلت: ادخل، فقال: أطفئ السراج حتى أدخل، فكببت على السراج شيئًا، وقلت: ادخل، فدخل وترك إلى جانبى شيئًا وانصرف، فكشفت عن السراج ونظرت فإذا منديل له قيمة، وفيه أنواع من الطعام، وفيه خمسمائة درهم.

---

(١) التوكل للدكتور / يوسف القرضاوى ص٩٦

فدعوت الزوجة، وقلت: أنبهى الصبيان حتى يأكلوا، ولما كان الغد قضينا دينًا كان علينا من تلك الدراهم، وكان وقت مجئ الحجاج، فجلست على بابى من غد تلك الليلة، فإذا جمال يقود جملين عليهما حملان من ورق -أى فضة- وهو يسأل عن منزل الحربى، فانتهى إلىَّ، فقلت: أنا إبراهيم، فحط الحملين، وقال: هذان الحملان أنفذهما لك رجل من خراسان، فقلت له: من هو؟ فقال: قد استحلفنى أن لا أقول من هو[1]!.

٣- الثمرة الثالثة: العزة:

إن من ألذ ثمار التوكل العزة، التى ترفع صاحبها مكانًا عليًّا، وتمنحه ملكًا كبيرًا، بغير عرش ولا تاج، وهى قبس من عزة المتوكل عليه -الله رب العالمين- كما قال سبحانه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ [الشعراء: ٢١٧] وقال ﴿ومن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٩].

فالمتوكل هنا عزيز بغير عشيرة، غنى بغير مال، ملك بغير جنود ولا أتباع.

أجل هو ملك، ولكنه من ملوك الآخرة، لا من ملوك الدنيا، لأن ملوك الدنيا يشعرون بحاجتهم إلى من حولهم من الأتباع والأنصار، كما يشعرون بالخوف على سلطانهم، سواء كان ذلك من الأعداء، أو من حلول الأجل، الذى لا يفرق بين غنى ولا فقير.

أما ملوك الآخرة فقلوبهم معلقة بالله تعالى، لا يرجون إلا رحمته، ولا يخافون إلا عذابه[2]

دخل ملك من ملوك الدنيا -هشام بن عبد الملك- على ملك من ملوك الآخرة - سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب- فقال له هشام: سلنى حاجتك، فقال: إنى لأستحى من الله أن أساله فى بيت الله غيره، فلما خرج فى أثره، قال هشام: الآن قد خرجت فسلنى حاجتك فقال له سالم: من حوائج الدنيا، أم من حوائج الآخرة؟ فقال: بل من حوائج الدنيا، فقال له سالم: والله ما سألت من يملكها، فكيف أسال من لا يملكها[3]؟.

لا تخضعن لمخلوق على طمع ... فإن ذلك نقص منك فى الدين
لن يقدر العبد أن يعطيك خردلة ... إلا بإذن الذى سواك من طين

---

(١) سير أعلام النبلاء١٣/٣٦٨ وتاريخ بغداد ٦/ ٣٢، وطبقات الحنابلة١/٨٨ نقلا من سلسلة درة الواعظين١/٤٨ للشيخ مجدى فتحى السيد.

(٢) التوكل د/ يوسف القرضاوى ص١٠٦ مكتبة وهبة بتصرف.

(٣) صفة الصفوة لابن الجوزى٢/ ٥٢.

فلا تصاحب غنيًا تستعز به | وكن عفيفًا وعظم حرمة الدين
واسترزق الله مما في خزائنه | فإن رزقك بين الكاف والنون
واستغن بالله عن دنيا الملوك | كما استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

٤- الثمرة الرابعة: ثمرة الرضا:

يقول ابن القيم: وهي ثمرة التوكل. ومن فسر التوكل بها، فإنما فسره بأجل ثمراته، وأعظم فوائده، فإنه إذا توكل عليه حق التوكل رضي بما يفعله وكيله.

قال: وكان شيخنا يقول: المقدور يكتنفه أمران: التوكل قبله، والرضا بعده.

٥- الثمرة الخامسة: الأمل:

أي الأمل في الفوز بالمطلوب، والنجاة من المكروب، فالمتوكل على مولاه لا يعرف القنوط إلى قلبه سبيلا، قال تعالى على لسان إبراهيم الخليل: **﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ﴾** [الحجر: ٥٦]روى أن -حاتم الأصم- قال لأولاده إني أريد الحج، وكان أولاده بناتًا.. فبكوا، وقالوا: إلى من تكلنا؟ وكانت له ابنة مباركة رزقها الله بنعمة التوكل والثقة في الله قالت: دعوه يذهب فليس برزاق.. فخرج، فباتوا جياعًا فجعلوا يوبخون هذه البنت، فقالت: اللهم لا تخجلني بينهم. فمر بهم أمير البلد، وكان في رحلة صيد، فاشتد به العطش، فطلب منهم طعامًا فلم يجد، فطلب ماء، فناوله أهل حاتم كوزًا جديدًا، وماء باردا فشرب. وأعجبوا بهذا الماء، وكأنهم لم يشربوا ماء قبل ذلك، وكأن الله أودع سره المكنون فيه، فقال: دار من هذه؟ فقالوا: دار حاتم الأصم، فرمى لبناته صرة من ذهب، وقال لمن معه: من أحبني فليصنع مثل ما صنعت. فرمى الجنود ما معهم من المال حتى امتلأ الإناء ذهبًا، فجعلت البنت تبكي، فقيل لها: ما يبكيك وقد اغتنينا؟ فقالت: لأن مخلوقًا نظر إلينا فاغتنينا، فكيف لو نظر الخالق إلينا؟!.

فائدة:

قال عامر بن عبد قيس -رحمه الله تعالى-: ثلاث آيات من كتاب الله تعالى اكتفيت بهن عن جميع الخلائق، أولهن: **﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾** [يونس: ١٠٧].

والآية الثانية: **﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾** [فاطر: ٢].

والآية الثالثة: **﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾** [هود: ٦].

اللهم إنا نسألك خوف العالمين بك، وعلم الخائفين لك، وتوكل الموقنين بك، ويقين المتوكلين عليك، وإنابة المخبتين إليك، وإخبات المنيبين إليك، وصبر الشاكرين لك، وشكر الصابرين لك، واغفر لنا ولجميع المسلمين يا رب العالمين.

الوصية رقم (٢٨)
أمسك عليك هذا

لما بعث رسول الله ﷺ معاذ بن جبل إلى اليمن، قال: يا رسول الله، أوصني. فقال رسول الله ﷺ: «**أمسك عليك هذا -وأشار إلى لسانه- فكأنه تهاون، فقال: أوصني. قال ﷺ ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم**»(١)

•في رحاب هذه الوصية•

أخي الحبيب:

إن هذه الوصية وصية عظيمة، وإنها من الأهمية بمكان، وإذا كان الرسول الأعظم ﷺ أوصى فيها معاذ بن جبل أن يمسك عليه لسانه، فقد أوصى رسول الله ﷺ بهذه الوصية رجالاً آخرين بها، فعن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ، فقال أوصني. فقال الرسول ﷺ: «**عليك بتقوى الله فإنها جماع كل خير، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية المسلمين، وعليك بذكر الله تعالى، وتلاوة القرآن، فإنه نور لك في الأرض، وذكر لك في السماء، واحزن لسانك إلا من خير، فإنك بذلك تغلب الشيطان**»(٢) فتأمل قوله: «**واحزن لسانك**» أي احفظ لسانك إلا من خير تقوله، أو من شر تسكت عنه، فالسلامة في السكوت.

وما ذلك إلا لأهمية هذا العضو الخطير «اللسان» فهو وزير البدن، والأمير هو القلب فما من يوم يصبح المرء فيه إلا والأعضاء تحذر اللسان، فعن أبي سعيد الخدري ﷺ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا أصبح ابن آدم سألت الأعضاء كلها اللسان، وقلن: يا لسان، ننشدك الله أن تستقيم فإنما نحن بك، إن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا**»(٣) والله نعمة من نعم الله تعالى على هذا الإنسان، وفيه فوائد عظيمة ينبغي للعاقل أن يعرفها يقول ابن حبان:

«واللسان فيه عشر خصال يجب على العاقل أن يعرفها، ويضع كل خصلة منها في موضعها: فهو أداة يظهر بها البيان، وشاهد يخبر عن الضمير، وناطق يرد به

---

(١) رواه أحمد والترمذي (٢٦٦١) وقال: حسن صحيح غريب، وابن ماجه (٣٩٧٣) وصححه شيخنا الألباني في ص.ج (٣٢٩).

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية ٥/ ١٨٠ وابن المبارك في الزهد (٨٣٧) وأحمد في الزهد والبيهقي في الشعب وسنده صحيح مرسل.

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٤٩٤٥) وأحمد في مسنده والترمذي (٢٦٦١)، (٢٤٠٩) وابن أبي الدنيا في الصمت وذكره الألباني في ص.ج (٣٥١).

الجواب، وحاكم يفصل به الخطاب، وشافع تدرك به الحاجات، وواصف تعرف به الأشياء، وحاصد تذهب به الضغينة، ونازع يجذب المودة، ومُسَلٍّ يزكى القلوب، ومعزٍ ترد به الأحزان»(١)

وقال بعض الحكماء: إن جسد ابن آدم ثلاثة أجزاء: فجزء منه قلبه، والثانى: لسانه، والثالث: الجوارح. وقد أكرم الله تعالى كل جزء بكرامة، فأكرم القلب بمعرفته وتوحيده، وأكرم اللسان بشهادة أن لا إله إلا الله. وتلاوة كتابه، وأكرم الجوارح بالصلاة، والصوم، وسائر الطاعات، ووكل على كل جزء رقيبًا حفيظًا، فتولى حفظ القلب بنفسه، فلا يعلم ما فى ضمير العبد إلا الله، ووكل على لسانه الحفظة، قال الله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨] وسلط على الجوارح الأمر والنهى.

ثم إنه يريد من كل جزء وفاء، فوفاء القلب أن يثبت على الإيمان، وأن لا يحسد ولا يخون ولا يمكر، ووفاء اللسان لا يغتاب ولا يكذب ولا يتكلم بما لا يعنيه، ووفاء الجوارح أن لا يعصى الله تعالى، ولا يؤذى أحدًا من المسلمين(٢).

قال عمر بن الخطاب للأحنف بن قيس: يا أحنف من كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه قل حياؤه، ومن قل حياؤه قل ورعه، ومن قل ورعه مات قلبه».

• خطر اللسان •

أخى الحبيب:

اللسان عضو من أعضائك فتأمل نعمة الله عليك فيه، فلقد جعله مولاك آية وعلامة على تمام منته، ودليل على عظيم قدرته، قال سبحانه: ﴿ومِنْ آيَاته خَلْقُ السَّمَوَات وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾ [الروم: ٢٢] فلقد جعله آية عظيمة بل آية هى أعظم وأكبر وهى خلق السموات بلا عمد، وبَسْط الأرض على ماء جمد، ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَات وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]. لأجل هذا وذاك فإن المرء يقاس بلسانه، أى بكلامه الذى يخرج من فيه، فإن كان تافهًا كان صاحبه كذلك، وإن كان ذا قيمة فصاحبه كذلك، لذلك قال فاروق هذه الأمة: «المرء بأصغريه: قلبه ولسانه» لم يقل بماله، ولا بسلطانه، ولا بحسبه ونسبه، وإنما بقلبه ولسانه، لا بجسده، فهو سبحانه لا ينظر إلى ذلك كله كما قال سيد الخلق: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أجسادكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»(٣) فلا تغرنك الأشكال الحسنة ولا الأجساد القوية، فربما يأتى يوم القيامة ولا وزن له، ولا قيمة له، كما بين رسولنا محمد ﷺ: «**إن الرجل السمين العظيم ليأتى يوم**

---

(١) روضة العقلاء لابن حبان ص٤٢.
(٢) تنبيه الغافلين للسمرقندى ص١٦٥
(٣) رواه مسلم (٢٥٦٤) والترمذى (١٩٢٨) ومالك فى الموطأ.

القيامة فلا يزن عند الله جناح بعوضة، فاقرءوا إن شئتم[١]: ﴿فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾» [الكهف: ١٠٥] من أجل ذلك فإن عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين رحمه الله لما تولى الخلافة، وجاءت إليه الوفود من كل مكان يهنئونه، ولما تقدم وفد الحجاز تقدمهم غلام صغير ليتكلم عنهم، فقال سيدنا عمر بن عبد العزيز: ليتكلم من هو أسن منك، فماذا قال الغلام؟

قال: يا أمير المؤمنين: إنما المرء بأصغريه: قلبه ولسانه، فإذا منح الله العبد لسانًا لافظًا، وقلبًا حافظًا فقد استحق الكلام، ولو أن الأمور بالسن لكان ها هنا من هو أحق بالخلافة منك.

فقال عمر: صدقت -رحمك الله- تكلم، فقال الغلام: يا أمير المؤمنين! نحن وفد التهنئة، لا وفد المرزئة، ولم يقدم أحد منا إليك رغبة ولا رهبة، لأننا قد أمنا فى أيامك ما خفنا، وأدركنا ما طلبنا.

فأعجب عمر بكلامه، وسأل عن عمره، فقيل: عشر سنين، فقال: ارفعوا الغلام فوق مرتبته[٢] لذلك: يقول بعض الحكماء: سعد من لسانه صموت وكلامه قوت[٣]

وقال بعض البلغاء: الزم الصمت فإنه يكسبك صفو المحبة، ويؤمنك المغبة[٤].

أتذكر معى رؤية رسول الله ﷺ لمشهد شهده ليلة الإسراء والمعراج: «لقد رأى حجرًا صغيرًا يخرج منه ثور كبير، ثم يريد أن يرجع مرة أخرى إلى الحجر فلا يستطيع، فسأل رفيق الرحلة جبريل عليه السلام، ما هذا يا أخى يا جبريل؟ قال: هذا الرجل من أمتك يتكلم بالكلمة ثم يريد أن يرجع فيها أو يردها فلا يستطيع[٥]

لذلك قال النبى ﷺ: «**إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضا الله تعالى عليه لا يلقى لها بالاً إلا ويهوى بها فى الجنة سبعين خريفًا، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى عليه لا يلقى لها بالاً إلا ويهوى بها فى النار سبعين خريفًا**»[٦]

احفظ لسانك أيها الإنسان ... لا يلدغنك إنه ثعبان
كم فى المقابر من قتيل لسانه ... كانت تهاب لقاءه الشجعان

(١) رواه مسلم (٢٧٨٥).

(٢) العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسى.

(٣)، (٤) أدب الدين والدنيا للماوردى ص٣٣١

(٥) قطعة من حديث الإسراء رواه البزار بسند رجاله موثقون ذكره الهيثمى فى المجمع ١/ ٦٧

(٦) رواه البخارى ومسلم (٢٩٨٨) والترمذى (٢٣١٥) وأحمد (٨٣٩٢).

• الكلمة إما طيبة وإما خبيثة •

أخي الحبيب:

إن ما ينطق به لسانك إما أن يكون كلامًا طيبًا يرفع شأنك عند مولاك، وإما أن يكون خبيثًا ينزل بك إلى أسفل سافلين.

يعلو بشأنك إذا ما كان نطقك ذكرًا وكلامك عبرًا، يرفع صاحبه إذا ما كان أمرًا بمعروف أو نهيًا عن منكر، أو إصلاحًا بين الناس.

ويحط بصاحبه إذا ما كان شهادة زور، أو اغتيابًا لمسلم، أو سبًا له، أو شتمًا أو لعنًا أو قذفًا، لذلك يقول سيد الخلق محمد ﷺ: «**كل كلام ابن آدم عليه لا له، إلا أمر بمعروف، أو نهي عن منكر، أو ذكر لله عز وجل**»(١).

ويوضح للأمة أن من حافظ على لسانه وفرجه ضمن له الجنة يوم القيامة، فيقول: «**من يضمن لي ما بين لحييه وما بين فخذيه أضمن له الجنة**»(٢)

حقًا إن للكلمة خطرها، وإن للسان خطره.

يقول ابن حبان:

اللسان هو المورد للمرء موارد العطب، والصمت يكسب المحبة والوقار، ومن حفظ لسانه أراح نفسه، والرجوع من الصمت أحسن من الرجوع عن الكلام، والصمت منام العقل، والمنطق يقظته(٣).

أقلل كلامك واستعذ من شره ... إن البلاء ببعضه مقرون
واحفظ لسانك واحتفظ من غيه ... حتى يكون كأنه مسجون
وكِّل فؤادك باللسان وقل له ... إنَّ الكلام عليكما موزون
فزناه وليك محكمًا ذا قلَّة ... إن البلاغة في القليل تكون

أخي الحبيب:

إنك بكلمة تدخل في دين الله، وبكلمة تخرج من الدين، وبكلمة تحل لك المرأة، وبكلمة تحرم عليك، بكلمة تنال رضا الله ومحبته، وبكلمة تنال غضبه وعقوبته، بكلمة يسعد حزين، وبكلمة يحزن سعيد، بكلمة يجتمع الأصحاب، وبكلمة يفترق شمل الأحباب(٤).

---

(١) رواه الترمذي وحسنه (٢٤١٤).

(٢) رواه البخاري وتقدم تخريجه.

(٣) روضة العقلاء لابن حبان ص٤٠.

(٤) انظر من وصايا القرآن للمؤلف جـ٢ ص٧٧٢ دار التوفيقية بتصرف.

بكلمة شقي إبليس اللعين، حين أمره بالسجود لآدم عليه السلام، ماذا قال؟ إنها كلمة ما زاد على أن قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢] بهذه الكلمة صار شيطانًا رجيمًا، صار مطرودًا من رحمة الله حيث قال له ربه: ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الحجر: ٣٤، ٣٥] على العكس من ذلك أبونا آدم عليه السلام لما عصى مولاه وأكل من الشجرة التي نهاه عنها، قال كلمة كانت سببًا في سعادته، وفي توبة الله عليه، فما هي هذه الكلمة؟ لقد قال هو وزوجته حواء ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] فكانت النتيجة العظمى، والسعادة الكبرى في قوله: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

بكلمة استحق أبو لهب السخط والهلاك من ربه إلى يوم القيامة، فقد روى ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] صعد النبي ﷺ على جبل الصفا، ثم نادى: «يا بني فهر، يا بني عدي، حتى اجتمع بطون قريش» فكان الذي لا يستطيع أن يخرج يرسل رسولاً، فقال النبي ﷺ: «أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي»؟ قالوا: نعم، ما جربنا عليك كذبًا قط. قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب أليم!!»[1] فقال أبو لهب: تبًّا لك يا محمد، ألهذا جمعتنا؟ فماذا كانت عقوبته؟ قال سبحانه: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ [المسد: ١: ٣] لكن قد يسأل سائل، فيقول: لقد علمنا من خلال كتب السيرة النبوية أن أبا لهب فرح بمولد رسول الله ﷺ، ولما بشرته جاريته ثويبة بولادة ابن أخيه سيدنا محمد ﷺ أعتقها حبًّا في محمد، فهل ترى ذلك يضيع عند الله تعالى؟! أقول لك: إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، إذا ما اقترن عمل العامل بالإيمان وأبو لهب لم يؤمن، ومع ذلك فقد ورد في بعض الروايات أن الله يخفف عنه يوم الاثنين، يوم أن أعتق الجارية في مولد الرسول ﷺ ولذلك قال أحد الصالحين:

إذا كان هذا كافرًا جاء ذمه ... وتبت يداه في الجحيم مخلدًا
أتى أنه في يوم الاثنين دائمًا ... يخفف عنه للسرور بأحمدا
فما الظن بالعبد الذي كان عمره ... بأحمد مسرورًا ومات موحدًا

ولما سمع الوليد بن المغيرة القرآن من رسول الله ﷺ، وقال: إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يعلى عليه.

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأحمد في مسنده (٢٥٤٤) وذكره ابن كثير في السيرة ١/٤٥٦.

هذا هو تقرير الوليد عن القرآن، والحق ما شهدت به الأعداء، لكن ماذا كان تقريره عن صاحب القرآن. من نزل عـليه جبريل عليه السلام بالقرآن؟ قالوا له: ماذا تـقول فى محمد؟ قال لهم: ما تقولون أنتم؟ قالوا: إنه مجنون، قال. ما به جنون، ولكنه أعقل العقلاء.

قال آخر: إنه كاهن. قال: ما عهدنا عليه كهانة.

قال آخر: إنه شاعر. قال: ما سمعناه يقول الشعر.

قالوا: ماذا تقول إذن عن محمـد؟ قال: دعونى أفكر، وهذا هو قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ..﴾ [المدثر: ١٨: ٢٤] فى النهاية قال عن رسول الله ﷺ كلمة واحدة كانت السبب فى شقائه فى الدنيا والآخرة، مع أنه لم يكن بينه وبين الإسلام إلا شعرة لو انقطعت، لكان من السابقين إلى روضات جنات الله رب العالمين. قال: إنه ساحر كلمة كانت سـبب تعاسته فى الدنيا بأن أنزل الله فى حقه عشر صفات مذمومات فضحه بها على رءوس الأشـهاد فى الدنيا، فقال سبحانه فى مفتتح سورة القلم: ﴿وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ [القلم: ١٠-١٤].

الصفة الأولى: كونه حلافًا أى كثير الحلف فى الحق والباطل.

الصفة الثانية: كونه مهينًا: أى حقيرًا ذليلاً.

الصفة الثالثة: كونه همازًا: أى عيابًا طعانًا.

الصفة الرابعة: كونه مشاء بنميم: أى يمشى بالنميمة بين الناس ليفسد بينهم.

الصفة الخامسة: كونه مناعًا للخير: أى بخيلاً بماله.

الصفة السادسة: كونه معتديًا: أى ظلومًا يتعدى الحق ويتجاوزه.

الصفة السابعة: كونه أثيمًا أى مبالغًا فى الإثم.

الصفة الثامنة: كونه عتلاً: أى غليظًا جافًا، فاحش الخلق، واسع البطن.

الصفة التاسعة: كونه زينمًا: أى ولد زنا، وهو دعى ملصق بالقوم وليس منهم(١).

الصفة العاشرة: كونه ذا مال: ومع ذلك فهو بخيل شحيح به على من حوله.

هذا فى الدنيـا، أما فى الآخرة فكان وعيـده الشديد: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: ٢٦ ٣٠].

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٣٠/ ٦٥٤، ٦٥٥

• الحث على القول الطيب •

أخي الحبيب:

لقد أمرنا رب العالمين جل وعلا بإلانة القول وتطييبه لمن تدعوه إلى الإسلام إن لم يكن من أهله، فإن كان من أهله فعليه أن يستقيم عليه، قال سبحانه: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

واعلم أخي الحبيب أن طيب الكلام يدفع المظالم عن صاحبه، بل يكون سببًا في حل كثير من المشكلات، ودفع المعضلات، ويكون سبيلاً لنجاح الحاجات وقضائها. فأنت تعلم أخي الحبيب من هو الحجاج بن يوسف الثقفي!

فهذا رجل له قضية عنده، ويخاف بطشه، فماذا يفعل؟ إنه لم يجد سبيلاً إلا إلانة الكلام، وطيبه، فعن العتبي قال: ورد على الحجاج بن يوسف الثقفي، سليك بن سلكة، فقال: أصلح الله الأمير، إرعني سمعك، واغضض عني بصرك، واكفف عني غربك -أي سيفك- فإن سمعت خطأ أو زللاً فدونك والعقوبة قال: قل، فقال: عصى عاصٍ من عُرْضِ عشيرتي فحلق على اسمي، ومنع عطائي، وهدم منزلي.

قال الحجاج: هيهات! أو ما سمعت قول الشاعر:

جانيك من يجني عليك، وربما … تعدى الصحاح مبارك الجرْب

ولرب مأخوذ بذنب عشيرة … ونجا المقارف صاحب الذنب

قال سليك: أصلح الله الأمير، إني سمعت الله عز وجل، قال غير هذا، قال: وما ذاك؟ قال: قال الله تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ۝٧٨ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ﴾ [يوسف: ٧٨، ٧٩] فقال الحجاج: عليَّ بيزيد بن مسلم، فمثل بين يديه، فقال: افكك لهذا عن اسمه، واصككك له بعطائه، وابن له داره، ومر مناديا ينادي: صدق الله، وكذب الشاعر[1].

أرأيت أخي الحبيب إلى فطنة الرجل، وكيف استطاع بطيب كلامه، وحسن محاورته، وقوة حجته أن يمنع ظلم المظلوم، وغشم الغشوم، وأن يرد ظلامته، ويقضى حاجته وتقضى أفضل ما يكون القضاء كل هذا بسبب القول الطيب الجميل الذي ينفع

(١) انظر العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي ١/ ٢٩، ٣٠.

صاحبه. وهؤلاء هم إخوة يوسف عليه السلام، حين دخلوا عليه ساعة أن كان وزيراً للمالية بمصر، لما دخلوا عليه ممتارين ماذا قالوا ساعتها؟ ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسف: ٨٨].

تأمل كيف عرضوا لقضيتهم؟! وكيف طلبوا منه حاجتهم؟! وبأى أسلوب طلبوا؟ وهذا هو نبى الله سليمان عليه السلام الذى آتاه الله الملك، وسخر له ما فى البر والبحر، عندما جاء الهدهد له بخبر لم يحط به، وقد كان سليمان عليه السلام غاضبًا بدليل أنه توعد حين يأتى الهدهد: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ [النمل: ٢١] فكيف كان رد الهدهد عليه؟.

لقد كان ردًّا طيبًا جميلاً أسكن غضب سليمان عليه السلام، وجعله يفكر فى هذا الأمر المهم الذى جاء به الهدهد، فماذا قال: ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: ٢٢] ثم عرض عليه الأمر.

ولما علم سليمان عليه السلام كتب إلى ملكة سبأ كتابًا، فكيف كان هذا الكتاب؟! ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٣٠ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣٠، ٣١].

فتأمل أخى الحبيب:

تأمل كيف كان البدء؟! إنه بأعظم اسم وأفضل أسلوب، إنه استفتح بالذى هو خير: بسم الله الرحمن الرحيم، ثم بعدها: ألا تعلوا علىَّ، كان يمكنه أن يقول: إنى ملك هذه البلاد أو أن لى ملك سبأ، أو أى أسلوب آخر، لكن أدب النبوة، وصون اللسان عن التدنى، والبعد عن الفحش جعله يبتدأ ببسم الله، ثم إنه من سليمان، ليس من نبى الله، أو ممن يملك دولة كذا، ولكن بكل التواضع والخير، وطيب الكلام فذاكم أخلاق النبوة.

فاعلم أخى الحبيب أن طيب الكلام يسلك بك طريقًا إلى جنات الله رب العالمين، ويقربك من دار السلام، يقول نبى الاسلام ﷺ: «**إن فى الجنة غرفًا يرى ظاهرها وباطنها من ظاهرها، فقيل: لمن يا رسول الله؟ قال: لمن أطاب الكلام، وأطعم الطعام، وصلى لله بالليل والناس نيام**»(١) وفى رواية: «**يمكنكم من الجنة إطعام الطعام، وطيب الكلام**»(٢)

وها هو صحابى جليل يسأل عن شىء يوجب له الجنة، ويسهل الطريق إليها، فيوصيه نبى الرحمة ﷺ أن يحسن الكلام، فيقول له: «**عليك بحسن الكلام، وطيب الطعام**»(٣).

---

(١) خُرِّج فى موضع آخر.

(٢) رواه أبو نعيم فى الحلية ٣/ ١٤٩ وابن أبى الدنيا فى الصمت (٤ ٣) ص١٩٥ وإسناده صحيح.

(٣) رواه الحاكم وصححه وأقره الذهبى ورواه الطبرانى بإسنادين رجال أحدهما ثقات وذكره المنذرى فى الترغيب ٣/ ٣٦٥.

أتدرى أخى الحبيب ما سر هذا؟ إنَّ سـر وصولك إلى جنات رب العالمين بطيب الكلام لأن القول الطيب يرتفع إلى الله عز وجل، بخلاف غيره، قال سبحانه: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠] ولأن ربنا تبارك وتعالى أمر نبينا أن يأمرنا بالكلم الطيب الحسن، فتأمل قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٥٣] فأول شيء هذا التشريف العظيم ممن خلق السموات والأرض، بأنه سبحانه ينسب هذا الصنف إلى نفسه، فهم عباده، وما أشرفها من منزلة، ولله در ابن المبارك حين يقول:

ومما زادني شـرفًا وتيـهًـا ... وكدت بأخمصى أن أطأ الثريا

دخولى تحت قولك يا عبادى ... وأن جعلت أحمد لى نبيًا

لكن يقولوا لمن؟ لأى صنف؟ يقولوا للمشركين، قولاً خاصًا بحسن الأدب، وإلانة القول، وخفض الجناح حتى يكون ذلك سببًا لإسلامهم، حتى قال سبحانه لكليمه موسى عليه السلام وهارون حين أمرهم بالذهاب إلى من تجبر وتكبر، وادعى الألوهية لنفسه، قال لهما: ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤] وقال لحبيبه ومصطفاه: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

أخى الحبيب:

وقد جعل رسولنا الكريم ﷺ أجر الكلمة الطيبة كأجر الصدقة، مثلاً بمثل: فعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**الكلمة الطيبة صدقة**»(١) ولما كان فضل الصدقة عظيمًا، ومن المعلوم أن الصدقة لا تتوافر لكل شخص من الناس، ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، فقد بين المشرع العظيم أنَّ الصدقة ميسورة سهلة، فقال فى الحديث الذى رواه عنه عدى بن حاتم رضي الله عنه: «**اتقوا النار ولو بشق تمرة، فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة**»(٢)

ولك أخى الحبيب فى إبراهيم عليه السلام القدوة والمثل الأعلى فى طيب الكلام، فقد ذكر لنا القرآن الكريم أسلوبه العظيم في الخطاب لأبيه، وطيب كلامه، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٤١-٤٥]. ماذا ينبغى أن يرد على هذا الكلام الطيب الجميل؟ ينبغى أن يقابل بالجميل والعرفان، لكن أباه قابله بالنكران والجحود والتهديد والوعيد، فقال له: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦]. ومع هذا الأسلوب الفظ الغليظ من الأب، إلا

(١) رواه البخارى ومسلم وأحمد فى مسنده (٩٦-٨٠) والزهد لابن المبارك مطولاً، وابن أبى الدنيا فى الصمت (٣١٥).

(٢) رواه البخارى ومسلم وأحمد وذكره الألبانى فى ص.ج (١١٥).

أن نور النبوة يتلألأ فى كلمات إبراهيم عليه السلام، فقال له: ﴿قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا..﴾ [مريم: ٤٧].

وتأمل تلك الأعرابية التى غلب على حالها التلفظ بآيات القرآن الكريم بدلاً من الكلام العادى وإن كان بعض العلماء قد أخذوا عليها مآخذ فى ذلك إلا أنى سأنقل لك خبرها، ففيه خير عظيم. حدث الأصمعى -رحمه الله- فقال: «بينما أنا أطوف بالبادية إذ أنا بأعرابية تمشى وحدها على بعير لها، فقلت: يا أمة الجبار من تطلبين؟ فقالت: ﴿من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له﴾.

فعلمت أنها قد أضلت أصحابها، فقلت لها. كم أضللت أصحابك؟ قالت: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩]، فقلت لها: يا هذه من أين أنت؟ فقالت: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء: ١] فعلمت أنها مقدسية، فقلت لها: لماذا لا تتكلمين؟ فقالت: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨] فقال بعض أصحابى: ينبغى أن تكون هذه المرأة من الخوارج، فقالت: ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦] فبينما نحن نماشيها إذ رفعت لنا قباب وخيم، فقالت: ﴿وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦] قال: فلم أفطن لقولها، فقلت: ما تقولين؟ فقالت: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَذَا غُلامٌ﴾ [يوسف: ١٩] قلت: بمن أصوت؟ بمن أدعو؟ فقالت: ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢] ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ﴾ [مريم: ٧] ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ﴾ [ص: ٢٦] قال: فإذا نحن بثلاثة إخوة كاللآلىء، فقالوا: أمنا ورب الكعبة، أضللناها منذ ثلاث، فقالت: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٤] فأومأت إلى أحدهم، فقالت: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ [الكهف: ١٩] فقلت: إنها أمرتهم أن يزودونا، فجاءوا بخبز وكعك، فقلت: لا حاجة لنا فى ذلك، فقلت للفتية: من هذه منكم؟ قالوا: هذه أمنا ما تكلمت منذ أربعين سنة إلا من كتاب الله عز وجل مخافة الكذب، فدنوت منها فقلت: يا أمة الله، أوصينى، فقالت: ﴿لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣][1] وفى بعض الروايات: أنها بعد ما تناولت الطعام هجعت فقلت لها: مالك يا أمة الله؟ قالت: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ [ق: ١٩].

فلما ماتت رأيتها فى المنام، فقلت لها: ما حالك يا أمة الله؟ قالت: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٤، ٥٥].

(١) روضة العقلاء لابن حبان ص٤٧، ٤٨.

فتأمل ذلك أخا الإسلام وأطب الكلام حتى ولو كان لمشرك، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «من سلم عليك من خلق الله، فاردد عليه، وإن كان مجوسياً» وذلك لأن الله عز وجل يقول[1]: ﴿وإذا حُيِّيتم بتحيةٍ فحيُّوا بأحسن منها أو رُدُّوها﴾ [النساء: ٨٦].

وعن أبي سنان قال: قلت لسعيد بن جبير -رحمه الله-: المجوسي يُوليني من نفسه، ويسلم عليَّ، أفأرده عليه؟ فقال سعيد: سألت ابن عباس رضي الله عنهما عن نحو ذلك. فقال: لو قال لي فرعون لرددت عليه[2] وقد عطس نصراني طبيب عند أبي هشام بن عروة، قال: عطس نصراني عند أبي، فقال له: «إنَّ رحمة الله على العالمين»[3].

وقد سئل ابن المبارك رحمه الله عن قول لقمان لابنه: إن كان الكلام من فضة، فإن الصمت من ذهب؟ فقال: معناه، لو كان الكلام بطاعة الله من فضة، فإن الصمت عن معصية الله من ذهب[4].

وهذا يرجع إلى أن الكف عن المعاصي أفضل من عمل الطاعات.

ورحم الله القائل:

الصمت عند القبيح يسمعه ... صاحب صدق لكل مصطحب
فآثر الصمت ما استطعت فقد ... يؤثر قول الحكيم في الكتب
لو كان بعض الكلام من ورق ... لكان جل السكوت من ذهب[5]

---

(١) ذكره ابن أبي الدنيا في الصمت (٣٠٩) ص١٩٨ وذكره البخاري في الأدب المفرد والهيثمي في المجمع ٨/ ٤١ وفتح الباري ١١/ ٤٢.
(٢) رواه أبو نعيم في الحلية ١/ ٣٣٢ والبخاري في الأدب المفرد بلفظ (لو قال لي فرعون...) وابن أبي الدنيا في الصمت (٣١١) ص١٩٩ والإحياء ٣/ ٣ ١
(٣) ابن أبي الدنيا في الصمت ٣١٤ ص٢٠٠
(٤) جامع العلوم والحكم ص١٧٦
(٥) روضة العقلاء ص٤٦.

الوصية رقم (٢٩)
أكثروا من ذكر هاذم اللذات

عن أبي هريرة، وعبد الله بن عمر[١] رضي الله عنهم أن رسول الله ﷺ قال: «**أكثروا من ذكر هاذم اللذات. قيل: وما هاذم اللذات يا رسول الله؟ قال: الموت**»[٢]

وفي رواية: عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**أكثروا ذكر هاذم اللذات، فإنه ما ذكر و أحد في ضيق من العيش إلا وسعه عليه، ولا في سعة إلا ضيقه عليه**»[٣].

صدق رسول الله ﷺ

• في رحاب هذه الوصية •

إن الرسول الأعظم يوصينا أن نكثر من ذكر هاذم اللذات وهو الموت، لأن الرسول ﷺ يريد أن يوقظ أذهان الأمة أن الكل صائر إلى الفناء، الكل لابد أن يذوق الموت ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ**﴾ وقد ذكرها رب العالمين، وكررها في كتابه العظيم في ثلاثة مواطن: في سورة آل عمران (١٨٥)، وفي سورة الأنبياء (٣٥)، وفي سورة العنكبوت (٥٧) وذلك لأن العالم إما عالم دنيوي وهو عالم البشر، عالم بني آدم، وإما عالم ملكوتي علوي وهم الملائكة الكرام، وإما عالم جبروتي وهو عالم الذين اصطفاهم الله من الملائكة مثل حملة العرش ، وغيرهم[٤]، قال تعالى: ﴿**اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ**﴾ [الحج: ٧٥] فالكل صائر إلى الفناء، وهو وحده المتفرد بالبقاء.

فما أحوجنا إلى هذه الوصية نتذاكرها في عصر طغت فيه الماديات والشهوات، في عصر انشغل فيه كثير من الناس عن لقاء رب الأرض والسموات. ولقد جعل الرسول الأعظم ﷺ أعقل الناس، وأكرمهم، أكثرهم للموت ذكرا يقول عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أتيت النبي ﷺ شر عشرة، فقال رجل من الأنصار من أكيس الناس؟ (أي أعقلهم) وأكرم الناس يا رسول الله؟ قال: «**أكثرهم للموت ذكرًا، وأشدهم له استعدادًا، أولئك الأكياس، ذهبوا بشرف الدنيا، وكرامة الآخرة**»[٥]

---

(١) سبق الترجمة لكل من «عبد الله بن عمر، وأبي هريرة -رضي الله عنهم» ونترجم لأنس رضي الله عنه.

(٢) رواه الترمذي وحسنه في كتاب الزهد (٣٣٠٧) ورواه ابن حبان في صحيحه (٢٩٩٣) وأحمد في مسنده بسند صحيح (٧٩١٢) والنسائي في كتاب الجنائز ٢٥٨/١ وابن ماجه في كتاب الزهد (٤٢٥٨) وصححه الألباني في ص.ج برقم (١٢١).

(٣) رواه البزار والطبراني باختصار كما في المجمع ١/ ٣٠٨ وقال: إسنادهما حسن.

(٤) مقتبس من كلام الإمام الغزالي في كتابه الدرر الفاخرة في كشف علوم الآخرة ص١١

(٥) قال العراقي في تخريج الإحياء٤/ ٤١ أخرجه ابن ماجه مختصر أبي الدنيا بكماله بإسناد جيد

وشكت امرأة إلى السيدة عائشة قساوة قلبها، فقالت لها: أكثرى ذكر الموت يرق قلبك، ففعلت، فرق قلبها.

إن الحياة فى هذه الدار موقوتة محدودة بأجل، حتى إذا ما جاءت نهايتها حتمًا يموت الصالحون، ويموت الطالحون، ويموت الجميع، فلابد أن تستقر هذه الحقيقة فى أذهان عقلك وقلبك أيها المؤمن ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة: ٨].

فالناس تجاه الموت ثلاثة: منهمك، وتائب، وعارف.

١- **أما المنهمك فلا يذكر الموت**، وإن ذكره فيذكره للتأسف على دنياه، ويشتغل بمذمته، وهذا يزيده ذكر الموت من الله بعدًا.

٢- **وأما التائب**: فإنه يكثر من ذكر الموت لينبعث الخوف والخشية فى قلبه، فيكون موفيًا بتمام التوبة، وربما يكره الموت خشية أن يأخذه قبل أن يتم توبته، وقبل أن يصلح زاده من الأعمال الصالحة، وهو معذر، ولا يدخل تحت قول الرسول ﷺ: **«من كره لقاء الله كره الله لقاءه..»**(١) فالحقيقة أنه ليس بكاره الموت، ولا للقاء الله، وإنما هو خائف من فوت لقاء الله لتقصيره، ولقصور عمله الصالح فهو يريد أن يتزود، ومثله كمثل الذى يتأخر عن لقاء حبيبه مشتغلاً بالاستعداد للقائه على وجه يحبه ويرضاه.

٣- **وأما العارف**: فإنه يذكر الموت دائمًا، لأنه موعد لقاء حبيبه، والمحب لا ينسى قط موعد لقاء حبيبه، وهو فى غالب الأمر يستبطئ مجيء الموت، لكى يتخلص من دار العاصين، وينتقل إلى جوار رب العالمين. وهذا معذور فى حب الموت.

ولذلك فإن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه لما حضرته الوفاة قال: «حبيب جاء على فاقة، لا أفلح من ندم، اللهم إن كنت تعلم أن الفقر أحب إلىَّ من الغنى، والسقم أحب إلىَّ من الصحة، والموت أحب إلىَّ من العيش، فسهل علىَّ الموت حتى ألقاك»(٢)

فجدير بمن كان الموت مصرعه، والتراب مضجعه، والدود أنيسه، ومنكر ونكير جليسه، والقبر مقره، وبطن الأرض مستقره، والقيامة موعده، والجنة أو النار مورده، ألا يكون له فكر إلا فى الموت، ولا استعداد إلا لأجله، فما بقى من العمر إلا القليل، والخلق عنه غافلون ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١].

• الموت فى القرآن الكريم •

أخى الحبيب:

لقد ذكر لفظ الموت فى القرآن الكريم بجميع مشتقاته مكررًا وغير مكرر بما يقرب من مائة وخمس وسبعين آية من كتاب الله تعالى.

(١) رواه البخارى ومسلم وأحمد فى مسنده (٨١١٨)

(٢) إحياء علوم الدين للإمام الغزالى ٤/ ٩ ٤

والموت ضد الحياة، وهما من مخلوقات الله تبارك وتعالى، قال سبحانه: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢] ولقد سمى القرآن الكريم الموت مصيبة كما في قوله جل شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ..﴾ [المائدة: ١٠٦] فقد سمى الموت مصيبة لأنه يشتمل على دواه ثلاث:

الأولى: سكرته:

سكرة الموت، وما أدراك ما سكرة الموت، قال عنها من يعلم السر وأخفى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩] ذلك ما كنت منه تهرب.. ذلك ما كنت منه تخاف، كنت تحيد إلى الطبيب إذا جاءك المرض خوفًا وحذرًا من الموت، كنت تحيد إلى الطعام إذا أحسست بالجوع. هربًا من الموت وتحيد إلى الشراب إذا أحسست بالظمأ. رعبًا من الموت.

إن الشخص الذى يُضرب إذا ضربته استغاث، لماذا يستغيث المضروب؟ لبقاء قوته فى عقله، وبقاء قوته فى لسانه، وفى قلبه، وفى عينه.

لكن الميت يعالج سكرات الموت وهى أشد من ضرب الدنيا وآلام الدنيا، وآهاتها فلماذا لا يستغيث الميت؟ أتدرى لماذا لا يصرخ الميت؟.

لا يصرخ لأن الموت صعد إلى العقل فغشيه وغيبه، وجاء إلى البصر فأعماه وأرهبه، وجاء إلى اللسان فأخرسه وأسكته، وجاء إلى الطرف فهده وأسكنه، وجاء إلى اللون فغيره وأصفره، فلكل عضو سكرة بعد سكرة، وكربة بعد كربة حتى ترتفع الحدقتان إلى أعالى الأجفان، وتقلصت الشفتان، فسكرة بعد سكرة، ونزعة بعد نزعة وجذبة بعد جذبة جعلت الرسول الأعظم ﷺ يقول: «**لا إله إلا الله إن للموت لسكرات: اللهم أعنى على سكرات الموت**»[١] يقول ذلك وكان بين يديه ركوة من ماء، فجعل يدخل فيها يده، ويمسح بها الجبين الأزهر، يمسح بها الجبين المبارك ويقول: «**لا إله إلا الله إن للموت لسكرات**».

﴿كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ [القيامة: ٢٦: ٣٠] وقيل: من راقٍ؟ من الذى يرقيه؟ من الذى يبذل له العلاج؟ لقد التفوا حوله. ذاك يبذل له الرقية، وذاك يقدم له العلاج، يريدون شيئًا.. لكن ملك الموت يريد شيئًا آخر، ماذا حدث له؟.

---

(١) رواه البخارى وهو فى صحيح الجامع برقم (٧١٧٥).

لقد اصفر لونه، وشحب وجهه، وبردت أطرافه، وتجعد جلده، وبدأ يشعر بزمهرير قارس يزحف نحو أنامل يديه ورجليه، إنه يحاول جاهدًا أن يحـرك شفتيه، لكنه يشعر أنها كالجبل لا يستطيع أن يزحـزحها إلا لمن يسرها الله على لسانه لا يستطيع أن يحـركها بكلمة التوحيد «لا إله إلا الله محمد رسـول الله» إلا من سار في طريق الرحمن وابتعد عن طريق الشيطان ﴿فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٨٣: ٩٦].

الداهية الثانية: رؤية ملك الموت:

وهذه الداهية إنما هى خاصة بالعـصاة، لكن أهل الإيمان لا يرون ملك الموت، لكن ما هى صفة ملك الموت؟.

وقـيل: إن الكافـر يراه، والمؤمن يراه، فـالمؤمن يراه فى صـورة حسـنة مثل مـا رآه إبراهيم عليه السلام، كمـا ذكر القرطبى عن ابـن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كـان إبراهيم عليه السلام رجلاً غيورًا، وكـان له بيت يتعبـد فيه، فإذا خـرج أغلقه، فرجع ذات يوم، فـإذا هو برجل فى جوف البيت، فقـال له: من أدخلك دارى؟ فقال: أدخلنيها ربهـا، قال إبراهيم: أنا ربها. قال: أدخلـنيها من هـو أملك منك؟ قال: فـمن أنت من الملائكة؟ قـال: أنا ملك الموت. قال: هل تستطيع أن ترينى الصورة التى تقـبض فيها روح المؤمن؟ قال: نعم. ثم التفت إبراهيم فإذا هو بشاب، فذكر من حسن وجهـه، وحسن ثيابه، وطيب رائحته، فقال: يا ملك الموت، لو لم يلق المؤمن عند الموت إلا صورتك لكان حسبه، ثم قبض روحه[1].

ويراه الكافر فى صورة غير طيبة بل صورة مرعبة مفزعة.

يقـول القرطبى: أمـا مشـاهدة ملك الموت ومـا يدخل على الـقلب منه من الـفزع والروع، فهو أمر لا يعبر عنه لعظم هوله، وفظـاعة رؤيته، ولا يعلم حقيقة ذلك إلا الذى يتبدى له، ويطلع عليه، وإنما هى حكايات تضرب، وأمثال تروى[2]

قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢] فالتوفى هنـا أضيف إليه سبحانه، وتارة يضاف إلى ملك الموت كـما فى قوله سبحانه: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: ١١] وتارة يضـاف إلى أعوانه كـما فى

---

(١) ذكره أبو الشيخ فى العظمة (٤٤٩) وأبو نعيم فى حلية الأولياء٥/ ٣٧٥ من كلام كعب الأحبار وذكره القرطبى فى التذكرة١/ ٦٥

(٢) التذكرة١/ ٦٤

قوله: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١] لكن المتوفى فى الحقيقة هو الله رب العالمين.

قال الكلبى: يقبض ملك الموت الروح، ثم يسلمها إلى ملائكة الرحمة إن كان من أهل التوحيد والإيمان، أو يسلمها لملائكة العذاب إن كان من أهل الكفر والعصيان.

وعن ثابت البنانى -رحمه الله- قال: الليل والنهار أربع وعشرون ساعة ليس منه ساعة تأتى على ذى روح إلا وملك الموت قائم عليها، فإن أمر بقبضها قبضها وإلا ذهب، وهذا عام فى كل ذى روح[(١)]

الداهية الثالثة: خوف سوء الخاتمة:

وخوف سوء الخاتمة قد قطع قلوب العارفين، فعن سهل بن سعد رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: **«إن العبد ليعمل عمل أهل النار، وإنه من أهل الجنة، ويعمل عمل أهل الجنة، وإنه من أهل النار، وإنما الأعمال بالخواتيم»**[(٢)]

وفى رواية لمسلم: **«إن الرجل ليعمل الزمان الطويل بعمل أهل الجنة ثم يختم له عمله بعمل أهل النار، وإن الرجل ليعمل الزمان الطويل بعمل أهل النار ثم يختم له بعمل أهل الجنة»**[(٣)]

واعلم أخى المسلم: أن سوء الخاتمة -أعاذنى الله وإياك منها- لا تكون لمن استقام ظاهره، وصلح باطنه، وإنما تكون لمن كان له فساد فى العقل، أو إصرار على الكبائر، وإقدام على العظائم. أو ربما يكون العبد مستقيمًا ثم يتغير حاله، ويخرج عن طريقته مثل إبليس وغيره فيروى: أنه كان بمصر رجل ملتزم مسجدًا للأذان والصلاة، وكان عليه بهاء العبادة وأنوار الطاعة فرقى يومًا المنارة -المئذنة- على عادته للأذان، وكان تحت المنارة دار لنصرانى ذمى، فاطلع فرأى ابنة صاحب الدار، فافتتن بها، وترك الأذان، ونزل إليها، ودخل الدار، فقالت له: ما شأنك؟ ما تريد؟ قال: لا أريد إلا أنت. قالت: لماذا؟ قال لها: قد سلبت لبى، وقلبى. قالت: لا أجيبك إلى ريبة. قال: أتزوجك، قالت: أنت مسلم وأنا نصرانية، وأبى لا يزوجنى منك. قال لها: أتنصر؟ قالت: إن فعلت أفعل، فتنصر ليتزوجها، وأقام معهم فى الدار، فلما كان فى أثناء ذلك اليوم رقى إلى السطح فسقط منه فمات، فلا هو بدينه ولا هو بها[(٤)] فنعوذ بالله من سوء العاقبة، وسوء الخاتمة.

---

(١) رواه أبو نعيم فى الحلية بإسناد حسن ٢/ ٣٢٦

(٢) رواه البخارى فى القدر (٦٦٠٧) فتح وأحمد فى مسنده (٢٢٧١١). والبر.

(٣) رواه مسلم فى كتاب القدر أيضا (٢٦٥١) ورواه أحمد فى مسنده (١٠٢٣٥) والترمذى (٢١٣٧) وقال حسن صحيح.

(٤) تذكرة القرطبى ١/ ٣٨.

ويقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة: ٨] ويقول: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

وقال سبحانه: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨] يروى أن ملك الموت دخل على سليمان بن داود -عليهما السلام- فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم إليه النظر، فلما خرج قال الرجل: من هذا؟ قال: هذا ملك الموت عليه السلام.

قال: لقد رأيته كأنه ينظر إلىّ فكأنه يريدنى. قال سليمان عليه السلام فما تريد؟ قال: أريد أن تحملنى الريح فتلقينى بالهند، فإنى لا أطيق البقاء بأرض بها ملك الموت. قال: فدعا بالريح فحمله عليها، فألقته بالهند، ثم أتى ملك الموت سليمان عليه السلام، فقال: إنك كنت تديم النظر إلى رجل من جلسائى.

قال: كنت أعجب منه، إنى أمرت أن أقبض روحه بالهند، وهو عندك، فذهبت فوجدته هناك بالهند(١).

تأهب للذى لابد منه ... فإن الموت ميقات العباد
أترضى أن تكون رفيق قوم ... لهم زاد وأنت بغير زاد

والموت من الأمور الخمسة التي اختص مولانا تبارك وتعالى بها فى علم الغيب عنده، قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤] لقد رأى الإمام مالك بن أنس -رحمه الله- ملك الموت فى المنام، فقال له: يا ملك الموت، كم بقى من عمرى؟ قال: فأشار إليه بخمس. يقول مالك: فقلت له: أخمسة أيام أم أعوام أم أسابيع؟ لكنى استيقظت قبل أن يجيبنى. فذهب إلى ابن سيرين وقص عليه رؤيته فقال له: يا مالك لا هى خمسة أيام ولا ليال، ولا أعوام، وإنما هى من الخمسة التى اختص الله بها نفسه، ثم تلا عليه الآية السابقة(٢)

قال الحسن: فضح الموت الدنيا فلم يترك لذى لب فرحًا، وما ألزم عبد قلبه ذكر الموت إلا صغرت فى عينه الدنيا وهان عليه كل ما فيها.

• كفى بالموت واعظا •

تفكر يا مغرور فى الموت وسكراته، فيا له من وعد ما أصدقه، ومن حاكم ما أعدله؟ فكفى به واعظًا، وكفى بالموت مبكيًا للعيون، ومفرقًا للجماعات، وهادما للذات، وقاطعًا للأمنيات.

---

(١) حلية الأولياء لأبى نعيم٤/ ١١٨ والزهد للإمام أحمد ص٥٣ والعظمة لأبى الشيخ (٤٥٣).
٢) حلية الأولياء.

فهل تفكرت يابن آدم فى يوم مصرعك، وانتقالك من موضعك، وكيف يكون حالك إذا خانك الصاحب والرفيق، وهجرك الأخ والصديق؟.

أخى الحبيب:

إن الرسول الأعظم ﷺ يأمرنا أن نبادر بالأعمال الصالحة قبل أن يأتينا الموت.

عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**بادروا بالأعمال سبعًا: هل تنتظرون إلا فقرًا منسيًا؟ أو غنى مطغيًا، أو مرضًا مفسدًا، أو هرمًا مفندًا، أو موتًا مجهزًا، أو الدجال فشر غائب ينتظر، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر**»[1]

فجاهد نفسك قبل حلول الموت، اغتنم الفرصة فى حياتك قبل أن يصدمك هاذم اللذات، ومفرق الجماعات، وميتم البنين والبنات.

فعن أبى بن كعب رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلث الليل قام فقال: «**يا أيها الناس، اذكروا الله، جاءت الراجفة، تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه، جاء الموت بما فيه**»[2] جاء بما فيه من الأهوال، وقد بعث إليك رسولاً بعد رسول، وخبرًا بعد خبر، ثم يأتيك، ولسان حاله يقول: أنا الخبر الذى ليس بعده خبر، وأنا الرسول الذى ليس بعده رسول، فإذا ما قبض روحك، وصرخ أهلك كأن لسان حاله يقول لهم: على من تصرخون؟ على من تبكون؟ فو الله ما ظلمت له أجلاً، ولا أكلت له رزقًا، بل دعاه ربه، فليبك الباكى على نفسه، فإن لى فيكم عودة ثم عودة حتى لا أبقى منكم أحدًا.

فإذا وضعت على المغتسل، فماذا يكون حالك؟ إنهم يصبون عليك الماء، لا تدرى ولا تشعر ببرودة، ولا بحرارة، فأين بدنك القوى ساعتها؟! ما أضعفك.

أين لسانك الفصيح ما أسكتك؟! أين أذنك السماعة من أصمك؟ أين أحباؤك الخلص ما أوحشك؟ ثم تحمل على الأعناق إلى أجران المقابر، ليدرسك الدود هناك فطوبى لك إن صحبك رضوان الله، والويل لك إن صحبك سخط الله.

طوبى لك إن كان مأواك الجنان، والويل لك إن كان مأواك النيران.

طوبى لك إن كان عملك خيرًا، وطوبى لك إن كنت من التائبين، والويل لك إن كنت من العاصين، إنك ستذهب إلى سفر بعيد فهل حملت معك الزاد؟ هل تزودت من العمران لهذا الخراب؟ وهل حملت الغنى لهذا الفقر؟ وهل حملت من النور لهذه الظلمة؟ ثم يدخلونك القبر. القبر. بيت الوحشة. بيت الظلمة. بيت الدود يضعون عليك التراب، الذى خلقت منه، وإليه عدت، ومنه ستخرج: ﴿**منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى**﴾.

---

(١) رواه الترمذى وحسنه.

(٢) رواه الترمذى وقال: حديث حسن.

تعود إلى الأرض التى طالما نادت عليك وقالت بلسان حالها: كنت على ظهرى ضاحكًا فسوف تصير فى بطنى باكيًا، وكنت على ظهرى فرحًا، فسوف تصير فى بطنى حزينًا، أكلت على ظهرى لذيذ الطعام والشراب، فسوف يأكلك الدود فى بطنى.

ثم يدعك الأهل وحيدًا فريدًا، تقاسى الأهوال.

تذكر فى مشيبك والمآب	ودفنك بعد عزك فى التراب
إذا وافيت قبراً أنت فيه	تقيم به إلى يوم الحساب
وفى أوصال جسمك حين تبقى	مقطعة ممزقة الإهاب
فلولا القبر صار عليك ستراً	لنتنت الأباطح والرواب
خلقت من التراب فصرت حيًا	وعلمت الفصيح من الخطاب
وعدت إلى التراب فصرت فيه	كأنك ما خرجت من التراب
فطلق هذه الدنيا ثلاثًا	وبادر قبل موتك بالمتاب
خلقنا لـ لممات ولو تركنا	لضاق بنا الفسيح من الرحاب
ينادي فى صبيحة كل يوم	لدوا للدود وابنوا للخراب

أخى الحبيب:

تلك هى النهاية تلك هى الدنيا، تخيل نفسك بعد ما توضع فى قبرك، ويمر عليك مائة سنة أو أكثر من بعد موتك، من بعد أن يأكلك الدود، وتصير ترابًا، ربما هدم قبرك، ودرست معالمه، فجاء بعد ذلك رجل فأخذ رمادك، وصنع من هذا الرماد إناءً من الفخار، فشرب منه وهو لا يدرى أن هذا الإناء كان فى ساعة ما رجلاً من الرجال، يأكل ويشرب ويلهو، ويلعب!!.

بل وربما جاء رجل وصنع منك لبنة ووضعت فى جدار!! ذكر القرطبى فى كتابه «التذكرة»:

«أن رجلين تخاصما على جدار فيما بينهما، فأنطق الله عز وجل لبنة من الجدار، فقالت: يا هذان، فيم تختصمان؟ فوالله إننى كنت يومًا ملكًا من ملوك الدنيا، فملكت فيها مائة سنة، ثم مت، فتحللت ترابًا، فظللت كذا وكذا من السنين، ثم جاء خزاف -أى فخار- فصنع منى إناءً، فشرب الناس فيه كذا وكذا من السنين، ثم تكسرت فصرت ترابًا كذا وكذا من السنين، ثم جاء صاحب هذا الجدار فصنع منى اللبنة التى ترون!! ففيم الخصام؟! وفيم تتشاجران؟!!»[1]

---

(١) التذكرة فى أحوال الموتى وأمور الآخرة للإمام القرطبى.

فالدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة كما وصفها خير البشر ﷺ حين قال: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء»[1]

يا نفس قد أزف الرحيل، وأظلك الخطب الجليل
فتأهبي يا نفس لا يلعبن بك الأمل الطويل
فلتنزلن بمنزل ينسى الخليل فيه الخليل
وليركبن عليك فيه من الثرى ثقل ثقيل

فانتبه من غفلتك، واستيقظ من رقدتك، واعلم أن اليوم عمل ولا حساب، وغدا حساب ولا عمل، اعلم أن الأموات يتمنون أن يصلوا ركعتين، يتمنون أن يسبحوا تسبيحة.

عن مطرف بن عبد الله -رحمه الله- قال: شهدت جنازة ثم اعتزلت في ناحية قريبًا من قبر، فركعت ركعتين خفيفتين لم أرض إتقانهما، فنعست، فرأيت صاحب القبر يكلمني، فقال: ركعت ركعتين لم ترض إتقانهما؟! فقلت: قد كان ذلك.

قال: تعملون ولا تعلمون، ونعلم ولا نستطيع أن نعمل، لأن أكون ركعت مثلك ركعتين أحب إليَّ من الدنيا بحذافيرها[2]

فللموت فاعمل يا عبد الله، فإنك لا محالة لاقيه، لا محالة أنك زائل من الدنيا:

للموت فاعمل بجد أيها الرجل واعلم بأنك من دنياك مرتحل
إلى متى أنت في لهو وفي لعب تمسي وتصبح باللذات مشتغل
كأنني بك يا ذا اللهو في كرب بين الأحبة قد أودى بك الأجل
لما رأوك صريعًا بينهم جزعوا وودعوك وقالوا قد مضى الرجل
فاعمل لنفسك يا مسكين في مهل مادام ينفعك التذكار والعمل
إن التقي بجنان الخلد مسكنه ينال حورًا عليها التاج والحلل
والمجرمين بنار لا خمود لها في كل وقت من الأوقات تشتعل

• كلمات على فراش الموت[3] •

١- أبو بكر الصديق:

ولما احتضر أبو بكر الصديق رضي الله عنه جاءت السيدة عائشة رضي الله عنها، فتمثلت بهذا البيت:

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يومًا، وضاق بها الصدرا

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٢١) وابن ماجه (٤١٠٠) كلاهما في الزهد وصححه الألباني في ص.ج (٥٢٩٢) والسلسلة الصحيحة (٩٤٣).

(٢) شرح الصدور للسيوطي ص٢٦٧ ط التوفيقية وشعب الإيمان للبيهقي (١٨٩ ١).

(٣) اقرأ رسالة شيخي المبارك الشيخ وحيد بن عبد السلام بعنوان كلمات على فراش الموت، وكتاب وصايا العلماء عند حضور الموت ط/ دار الحرمين بالقاهرة ففيهما الإفادة.

فكشف أبو بكر عن وجهه، وقال: ليس كذا، ولكن قولي: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩] وقال: انظروا ثوبيّ هذين فاغسلوهما وكفنوني فيهما، فإن الحي أحوج إلى الجديد من الميت! ودخلوا عليه، فقالوا: ألا ندعو لك طبيبًا ينظر إليك؟ فقال: قد نظر إليَّ طبيبي، وقال: إني فعَّال لما أريد[1].

٢- عمر بن الخطاب:

لما طعن عمر رضي الله عنه، وعرف الصحابة أنه ميت، قال ابن عباس: فدخلنا عليه، وجاء الناس يثنون عليه، وجاء رجل شاب فقال: أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى من الله، قد كان له صحبة مع رسول الله ﷺ، وقدمت في الإسلام ما قد علمت، ثم وليت فعدلت، ثم شهادة! فقال عمر: وددت أن ذلك كان كفافًا لا عليَّ ولا ليّ!.

٣- عثمان بن عفان:

لما أصيب عثمان رضي الله عنه من دعاة الفتنة الثائرين عليه، دعا الله تعالى قائلا: اللهم اجمع أمة محمد ﷺ... ثلاثًا.

وروى أنه لما ضرب، والدماء تسيل على لحيته، جعل يقول: ﴿لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

٤- معاوية بن أبي سفيان[2]:

عند موته قال لمن حوله: أجلسوني، فأجلسوه، فجلس يذكر ربه جل وعلا، ويسبح الله سبحانه وتعالى، ثم بكى وقال لنفسه موبخًا لها: الآن يا معاوية؟! الآن جئت تذكر ربك بعد الانحطام والانهدام؟ أما كان هذا وغض الشباب نضير ريان؟! ثم تمثل بقول الشاعر:

هو الموت لا منجى من الموت والذى ... نحاذر بعد الموت أدهى وأفظع

ثم قال: يا رب، يا رب، ارحم الشيخ العاصي، ذا القلب القاسي.. اللهم فأقل العثرة، واغفر الزلة، وجد بحلمك على من لم يرج غيرك، ولم يثق إلا بك، فإنك واسع المغفرة، يا رب، أين لذى خطيئة مهرب إلا إليك.

ثم قال لأم ولده: أريني الوديعة التي استودعتك إياها، فجاءت بسفط مختوم مقفلاً عليه. فظننا أن فيه جوهرًا -أي مكحول راوى القصة- فقال: إنما كنت أدخر هذا لمثل اليوم. قال: افتحيه، ففتحته، فإذا منديل عليه ثلاثة أثواب، فقال: هذا قميص رسول الله ﷺ كساني، وهذا رداء رسول الله كساني لما قدم من حجة الوداع. قال: ثم مكثت بعد

---

(١) ذكره بنحوه ابن الجوزى فى صفة الصفوة١/ ١١٠

(٢) انظر الإحياء ووصايا العلماء عند حضور الموت ص٧٥،٧٦.

ذلك مليًّا، ثم قلت: يا رسول الله، اكسنى هذا الإزار الذى عليك، قال: إذا ذهبت إلى البيت أرسلت به إليك يا معاوية.

قال: ثم أرسل به إليَّ، ثم دعا رسول الله بالحجام، فأخذ من شعره ولحيته، فقلت: يا رسول الله هب لى هذا الشعر. قال: خذه يا معاوية، فهو مصرور فى طرف الرداء.

فإذا مت فكفنونى فى قميص رسول الله ﷺ، وأدرجونى فى ردائه، وأزرونى بإزاره، وخذوا من شعر رسول الله، فاحشوا به شدقى ومنخرى، وذروا سائره على صدرى، وخلوا بينى وبين رحمة ربى أرحم الراحمين.

٥- مروان بن عبد الملك -رحمه الله-:

لما حضرت الوفاة عبد الملك بن مروان قال: أشرفوا بى على الغوطة (فى دمشق) ففعلوا فرأى غسالاً يغسل ثوبًا بيده، ثم يضرب به المغسلة، فقال عبد الملك: ليتنى كنت غسّالاً آكل من كسب يدى يومًا بيوم، ولم آل من أمر الدنيا شيئًا -أى لم أتولَّ- فبلغ ذلك أبا حازم التابعى- رحمه الله- فقال: الحمد لله الذى جعلهم إذا حضرهم الموت يتمنون ما نحن فيه، وإذا حضرنا الموت لم نتمن ما هم فيه.

وقيل له فى مرضه الذى مات فيه: كيف تجدك يا أميرالمؤمنين؟ قال: أجدنى كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤].

٦- هارون الرشيد:

ولما حضرت الوفاة هارون الرشيد طلب ممن حوله أن يرى قبره الذى سيدفن فيه، فلما رآه نظر إليه، ثم التفت إلى أحبابه، وقال: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٨، ٢٩] وبكى حتى علا صوته، ونظر إلى السماء وقال: يا من لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه.

٧- إبراهيم النخعى:

لما حضره الموت بكى، فقيل ما يبكيك يا أبا عمران؟ قال: ما لى لا أبكى! وأنا أنتظر رسل ربى عز وجل، لا أدرى يبشرونى بجنة أم بنار؟![1]

٨- عبد الله بن المبارك:

ولما حضرت الوفاة عبد الله بن المبارك -رحمه الله- قال لنصر مولاه: اجعل رأسى على التراب! فبكى نصر، فقال له عبد الله: ما يبكيك؟ قال: ذكرت ما كنت فيه من السعة والنعيم، وها أنت ذا تموت فقيرًا غريبًا! فقال: اسكت، فإنى سألت الله عز وجل أن يحيينى حياة الأغنياء، ويميتنى موت الفقراء!.

(١) صفة الصفوة ٣/ ٤٣.

٩- الإمام الشافعي:

ودخل المزني على الإمام الشافعي -رحمه الله- في مرضه الذي مات فيه، فقال له: كيف أصبحت اليوم يا إمام؟ فقال: أصبحت من الدنيا راحلاً، ولإخواني مفارقًا، ولسوء عملي ملاقيًا، ولكأس المنية شاربًا، وعلى الله واردًا، ولا أدري روحي تصير إلى الجنة فأهنيها، أم إلى النار فأعزيها، ثم بكى وقال:

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي ... جعلت رجائي نحو عفوك سلمًا
تعاظمني ذنبي، فلما قرنته ... بعفوك ربي كان عفوك أعظما
فمازلت ذا عفو عن الذنب سيدي ... تجود وتعفو منه وتكرما
ولولاك ما يغوي إبليس عابد ... كيف وقد أغوى صفيك آدما(١)

١٠- مالك بن دينار:

لما حضرته الوفاة -رحمه الله- كان يقول: اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب البقاء في الدنيا لبطن ولا لفرج، ثم قال: لولا أني أكره أن أصنع شيئًا لم يصنعه أحد كان قبلي لأوصيت أهلي، إذا أنا مت أن يقيدوني، وأن يجمعوا يدي إلى عنقي، فينطلقوا بي على تلك الحال حتى أدفن كما يُصنع بالعبد الآبق، فإذا سألني ربي، قلت: أي رب لم أرض لك نفسي طرفة عين قط. فتأمل أحوال هؤلاء، وقارن بينك وبينهم، ثم.

دع عنك ما قد فات في زمن الصبا ... واذكر ذنوبك وابكها يا مذنب
لم ينسه الملكان حين نسيته ... بل أثبتاه وأنت لاه تلعب
والروح منك وديعة أودعتها ... ستردها بالرغم منك وتسلب
وغرور دنياك التي تسعى لها ... دار حقيقتها متاع يذهب
الليل فاعلم والنهار كلاهما ... أنفاسنا فيهما تُعد وتحسب

• موعظة •

أخي الحبيب:

الموت لا شك آت فاستعد له ... إن اللبيب بذكر الموت مشغول
فكيف يلهو بعيش أو يلذ به ... من التراب على عينيه مجعول

يقول الحسن البصري -رحمه الله- واعظًا لأهل البصرة: أيها الناس: استعدوا للرحيل، فلم يبق من الدنيا إلا القليل، فخذوا أهبة التحويل، فليس إلى البقاء من سبيل.

أما علمتم أنكم على أسرة المنايا تحملون، وإلى البلاء في دار البلاء عن قريب تسلمون، وبأعمالكم التي عملتموها تفردون، وعلى ديان يوم الدين تعرضون؟!.

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي ٢/ ١٥٣

أمركم بالطاعة فما أطعتم، ونهاكم عن المعصية فما انتهيتم، وخوفتكم فما خفتم ولا ارعويتم وشوقتكم إلى الجنة فما اشتقتم، ولا اشتهيتم. فياذا الشيبة المؤذنة باقتراب الأجل، ما انتظارك؟!. ويا ذا الشيبة القادرة على اكتساب العمل ما اعتذارك؟!. ويا أيها المطيع هواه، والمضيع حظه من أخراه فى دنياه، المقيم على ذنوبه وخطاياه، ليت شعرى ما عذركم؟! إذا أوقفتم بين يديه!!. وما حجتكم إذا قد متم عليه؟![1].

أخى الحبيب:

انتبه فإن الموت قادم، وإذا جاءك الموت فمن ذا يصلى عنك؟ ومن ذا يصوم عنك، فكم من صديق شيعته، وكم من حبيب فى قبره وضعته، ثم تعود بعد ذلك لتأكل وتشرب، وتفرح وتلعب.

فلا عين تخشع، ولا قلب يخضع، ولا مذنب إلى ربه يرجع!.

فما بال القلوب أصبحت قاسية، ما بالها أشبه فى قساوتها بالحجارة، بل أشد منها: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤].

فطهر قلبك من الشرك، وانزع منه الغل والحقد، وعمره بالإيمان تكن من أولياء الرحمن يقول وهب بن منبه -رحمه الله- وجدت فى آخر الزبور مكتوب:

يا داود، اسمع منى والحق أقول: من لقينى وهو يحبنى أدخلته جنتى.

يا داود، اسمع منى والحق أقول: من لقينى وهو يخاف عذابى لم أعذبه.

يا داود، اسمع منى والحق أقول: من لقينى وهو مستحٍ من معاصيه أنسيت الحفظة ذنوبه.

يا داود، إنما يكفى أوليائى اليسير من العمل كما يكفى الطعام القليل من الملح.

يا داود، هل تدرى متى أتولاهم؟ إذا طهروا قلوبهم من الشرك، ونزعوا قلوبهم من الشك، وعلموا أن لى جنة ونارًا وأنى أحيى وأميت، وأبعث من فى القبور، وأنى لم أتخذ صاحبة ولا ولدا، فإن توفيتهم بيسير من العمل، وهم يوقنون بذلك جعلته عظيمًا عندهم. هل تدرى يا داود من أسرع مرًا على الصراط؟ الذين يرضون بحكمى، وألسنتهم رطبة من ذكرى[2].

نسألك اللهم أن توقظنا من غفلتنا، وأن تتجاوز عن جرائمنا بعفوك وغفرانك وألحقنا يا ربنا بالذين أنعمت عليهم فى دار رضوانك، وارزقنا كما رزقتهم من لذيذ مناجاتك، واغفر لنا ولجميع المسلمين، يا رب العالمين.

---

(١) المواعظ والمجالس ص١٣٣ ط/ مكتبة الإيمان.

(٢) حلية الأولياء٤/ ٤٧ الزهد للإمام أحمد ص٨٩ والزهد لابن المبارك (٤٧٧).

الوصية رقم (٣٠)
حاسبوا أنفسكم

عن شداد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: **«الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله»**[1] ودان نفسه: أى حاسبها.

صدق رسول الله ﷺ

وكان عمر بن الخطاب ﷺ يقول: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم»[2]

• فى رحاب هذه الوصية •

إن سيد المرسلين، وإمام الغر المحجلين سيدنا محمدًا يريد أن يجعلنا من الأكياس الفطناء، فليس الكيس الفطن من نسى الله تعالى، واتبع هواه، وأضله شيطانه، ولكن الكيس الفطن هو الذى يحاسب نفسه، ويوقفها عند كل عمل من الأعمال، لكى يزكيها ويطهرها، لأن النفس كالطفل إن أدبتها وهذبتها صلحت واستقامت، وإن أهملتها وتركتها خابت وخسرت، أو أنها مثل البعير إن عقلتها ثبتت، وإن تركتها شردت.

يقول الحسن البصرى -رحمه الله-:

إنَّ المؤمن قوَّام على نفسه، يحاسب نفسه لله عزوجل، وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة، إنَّ المؤمن يفجأ الشيء يعجبه، فيقول: إنى لأشتهيك، وإنك لمن حاجتى، ولكن والله ما من صلة إليك، هيهات هيهات، حيل بينى وبينك، ويفرط منه الشيء، فيرجع إلى نفسه، فيقول: ما أردت إلى هذا؟ مالى ولهذا؟ والله لا أعود إلى هذا أبدًا إن شاء الله، إن المؤمنين قوم أوثقهم القرآن، وحال بينهم وبين هلكتهم إنَّ المؤمن أسير فى الدنيا، يسعى إلى فكاك رقبته، لا يأمن شيئًا حتى يلقى الله، يعلم أنه مأخوذ عليه فى سمعه، فى بصره، فى لسانه، فى جوارحه، يعلم أنه مأخوذ عليه من ذلك كله»[3]

ويجب على كل إنسان أن يعلم أنه عبد مربوب، ولا نجاة له إلا بتقوى الله، ثم عليه بعد ذلك أن يفكر، لأى شيء خلقه الله؟ ولماذا خرج إلى هذه الدنيا الفانية؟ فيعلم أنه لم

---

(١) رواه ابن المبارك فى الزهد ص٣٨ رقم ١٧ ورواه أحمد فى مسنده بإسناد حسن (١٧٠٥٩) جـ١٣/ ٢٧٢ ورواه الحاكم وصححه٤/ ٢٥١ ووافقه الذهبى، ورواه الترمذى وحسنه (٢٤٥٩) وأبو نعيم فى الحلية١/ ٢٦٧،٨/ ١٧٤ والطبرانى فى الكبير (٧١٤١) وحسنه الألبانى فى الصحيحة بمجموع طرقه مع أنه ضعفه فى سنن الترمذى.

(٢) رواه أحمد فى الزهد ص١٤٩

(٣) رواه ابن المبارك فى الزهد، وذكره الغزالى فى الإحياء٤/ ٣٧٠.

يخلقه الله عز وجل عبثًا، قال سبحانه: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦] لقد نزل فى هذه الدار الفانية للابتلاء والاختبار، فماذا يكون مصيره بعد هذا الامتحان؟ هل سينجح فيكون فى النعيم المقيم، أم أنه يكون من الخاسرين، فيكون له العذاب الأليم؟!.

إذا فهم العبد أنه لا نجاة إلا بطاعة ربه، لأن الطاعة هى سبيل نجاحه ونجاته كان بذلك من الفطناء، الأكياس، الذين أرادهم النبى ﷺ بقوله: «**الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت..**» ودان نفسه أى حاسبها، وإن كان بخلاف ذلك فهو عاجز كما بين المصطفى ﷺ فى الوصية التى نحن بصدد الحديث عنها: «**والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله**».

• النفس فى القرآن •

أخى الحبيب:

والنفس فى القرآن الكريم على ثلاثة:

أولها: النفس اللوامة:

والنفس اللوامة هى تلك النفس التى أقسم بها مولانا عز وجل فى صدر سورة القيامة فقال سبحانه: ﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۝ وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ١، ٢] فما هى النفس اللوامة، وما أوصافها؟

يقول ابن القيم -رحمه الله-[1]: اختلف فيها، فقالت طائفة: هى التى لا تثبت على حال واحدة. أخذوا هذا المعنى من لفظة «التلوم» وهو التردد، فهى كثيرة التقلب والتلون، وهى من أعظم آيات الله سبحانه وتعالى، لأنها مخلوقة من مخلوقاته، تتقلب، وتتلون فى الساعة الواحدة فضلاً عن اليوم والشهر والعام والعمر، ألوانًا متلونة، فتارة تقبل على الله، وتارة تعرض، وتارة تذكر المولى عز وجل، وتارة تغفل، وتارة تفرح، وتارة تحزن، وتارة ترضى، وتارة تغضب.

وقال طائفة أخرى: اللفظة مأخوذة من اللوم، ثم اختلفوا: ١- فقالت فرقة هى نفس المؤمن، وهذا من صفاتها المجردة.

قال الحسن البصرى -رحمه الله-: إن المؤمن لا تراه إلا يلوم نفسه دائمًا، يقول: ما أردت بهذا؟ لم فعلت هذا؟ كان غير هذا أولى، أو نحو ذلك من الكلام.

٢- وقال غيره: هى نفس المؤمن توقعه فى الذنب، ثم تلومه عليه، فهذا اللوم من الإيمان، بخلاف الشقى، فإنه لا يلوم نفسه على ذنب، ولكنها تلومه على فوات الذنب منه، لأن نفسه تحصل لها اللذة بمواقعة هذا الذنب وارتكابه.

(١) من الروح لابن القيم ص٣٦١، ٣٦٢ بتصرف ط/ مكتبة نصير.

٣- وقال طائفة: بل اللوم للنوعين، فإن كل واحد يلوم نفسه برًا كان أو فاجرًا: فالسعيد يلومها على ارتكاب معصية الله، وترك طاعته. والشقى يلومها على فوات حظها وهواها من الذنب والمعصية.

٤- وقال طائفة أخرى: هذا اللوم يكون يوم القيامة، فإن كل واحد يلوم نفسه، إن كان مسيئًا، فيلوم نفسه على إساءته، وإن كان محسنًا لامها على تقصيرها فى الخير والطاعة.

ثم يقول ابن القيم:

وهذه الأقوال كلها حق، ولا تنافى بينها، فإن النفس موصوفة بهذا كله، وباعتباره سميت لوامة، لكن هذه النفس اللوامة نوعان:

١- لوامة ملومة: وهى التى رضيت بأعمالها ولم تلم نفسها فهى نفس جاهلة ظالمة يلومها الله -تعالى- وملائكته، وأما الأخرى:

٢- فنفس لوامة غير ملومة: وهى التى لا تزال تلوم صاحبها وتعاتبه على تقصيره فى طاعة الله تعالى، فهى أشرف النفوس، لأنها لا تأخذها فى الله لومة لائم.

ثانيها: النفس الأمارة بالسوء:

وهى تلك النفس التى ذمها القرآن الكريم فى سورة يوسف، وذلك من خلال حديثه عن امرأة العزيز: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٣].

وقد امتحن الله تعالى الإنسان بهاتين النفسين: الأمارة، واللوامة.

لكن ما هى أوصاف هذه النفس؟.

النفس الأمارة الشيطان قرينها وصاحبها، هو الذى يعدها ويُمنيها، ويأمرها بالسوء ويزينه لها، ويريها الباطل فى صورة الحق، ويطيل الأمل أمامها، ويمدها بالشهوات المهلكة، ويستعين عليها بهواها، فينقلها من عز الطاعة إلى ذل المعصية، ومن السماع الرحمانى (القرآن) إلى السماع الشيطانى (الأغانى المفسدة) ومن الاستعداد لرب العالمين، إلى الاستعداد للقاء إخوان الشياطين.

ثالثها: النفس المطمئنة:

وهى التى أكرم الله بها صاحبها، وهى التى ذكرها الله تعالى فى مختتم سورة الفجر: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧: ٣٠].

فما هى أوصاف النفس المطمئنة؟

هى تلك النفس التى أيدها الله تعالى بجنود عديدة، فجعل الملك قرينها وصاحبها الذى يوجهها، ويقذف فيها الحق، ويزجرها عن الباطل، ويمدها بما علمها من القرآن والذكر، وجميع أعمال الخير والبر، وحبب إليها الطاعات على اختلاف أنواعها: كالصلاة

والزكاة، والصيام والحج، والجهاد، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والإخلاص، والتوكل، والإنابة، والمراقبة، والصبر والحلم وغير ذلك.

وأصعب شيء على النفس المطمئنة تخليص الأعمال من الشيطان، ومن الأمارة، فلو وصل منها عمل واحد لنجا به العبد، ولكن أبت الأمارة والشيطان أن يدعا عملاً واحدًا يصل إلى الله، كما قال بعض العارفين: «والله لو أعلم أن لى عملا واحدًا وصل إلى الله لكنت أفرح بالموت من الغائب يقدم على أهله».

وقال عبد الله بن عمر ﷺ: «لو أعلم أن الله قبل منى سجدة واحدة لم يكن غائب أحب إلىَّ من الموت» ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

فالملك قرين النفس المطمئنة، والشيطان قرين الأمارة، قال ﷺ: **«إن للشيطان لمة بابن آدم، وللملك لمة؛ فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر، وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله وليحمد الله، ومن وجد الآخر فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم»**.

لكن هل للإنسان أنفس متعددة أم هى نفس واحدة؟

هى نفس واحدة، فتكون أمارة، ثم لوامة، ثم مطمئنة، على حسب طاعة الإنسان لله تعالى والتزامه بأوامره، والابتعاد عن نواهيه.

• وجوب محاسبة النفس •

إن من العجب العجاب أن العبد يسعى بنفسه فى هوان نفسه وهو يزعم أنه لها مكرم، ويجتهد فى حرمانها من حظوظها وشرفها وهو يزعم أنه يسعى فى حفظها، ويبذل جهده فى تحقيرها وتصغيرها وتدنيسها وهو يزعم أنه يسعى فى صلاحها، ولذا كان بعض السلف يقول فى خطبته: «ألا رُبَّ مهين لنفسه وهو يزعم أنه مكرم لها، ومذل لنفسه وهو يزعم أنه مراع لحقها، وكفى بالمرء جهلاً أن يكون مع عدوه لنفسه يبلغ منها بفعله ما لا يبلغه منها عدوه».

فالعاقل هو الذى يعمل فى عزها ورفع شأنها، ولن يرتفع شأن النفس إلا إذا أوقفها صاحبها عند كل أمر من أمورها، وحاسبها كمحاسبة الشريك لشريكه يقول ميمون بن مهران -رحمه الله-: «لا يكون العبد تقيًا حتى يكون لنفسه أشد محاسبة من الشريك لشريكه، فيعلم من أين مطعمه، ومن أين ملبسه، ومن أين مشربه، من حل ذلك أم من حرام؟»[1] ولهذا قيل: النفس كالشريك الخوان إن لم تحاسبه ذهب بمالك.

وقد دل على وجوب محاسبة العبد لنفسه قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].

---

(١) حلية الأولياء لأبى نعيم٤/ ٨٩ وصفة الصفوة لابن الجوزى٤/ ١٣١ ط/ دار الفكر.

قال ابن كثير -رحمه الله-:

«أى حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم، وعرضكم على ربكم»(١)

ثم تأمل ختام النداء الربانى، تأمل ختام الأمر الإلهى لأهل الإيمان ختم بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أى اعلموا أنه عالم بجميع أعمالكم وأحوالكم، لا تخفى عليه منكم خافية ولا يغيب عنه من أموركم جليل ولا حقير. فانتبه، ولا تكن من الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم فانتبه أخى الحبيب، فقد كان سيدنا أبو بكر الصديق ﷺ يقول فى خطبته: «أما تعلمون أنكم تغدون وتروحون لأجل معلوم؟ فمن استطاع أن يقضى الأجل وهو فى عمل الله عز وجل فليفعل، ولن تنالوا ذلك إلا بالله عز وجل، إنَّ قومًا جعلوا آجالهم لغيرهم، فنهاكم الله أن تكونوا أمثالهم، فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر ١٩] أين من تعرفون من إخوانكم؟ قَدِمُوا على مَا قَدَّمُوا فى أيام سلفهم وخلوا بالشقوة والسعادة، أين الجبارون الأولون، الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحوائط؟ قد صاروا تحت الصخر والآبار، هذا كتاب الله لا تنقضى عجائبه.

فاستضيئوا منه ليوم ظلمة، واستضيئوا بسنائه وبيانه، إن الله أثنى على زكريا وأهل بيته، فقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠] فلا خير فى قول لا يراد به وجه الله، ولا خير فى مال لا ينفق فى سبيل الله، ولا خير فيمن يغلب جهله حلمه، ولا خير فيمن يخاف فى الله لومة لائم»(٢).

فلو تأملت قول صديق الأمة الأكبر فى هذه الخطبة المباركة، وحاسبت نفسك، وطرحت عليها تلك الأسئلة لفزت بالسعادة فى حياتك الدنيوية والأخروية، فالفلاح والنجاح لمن زكى نفسه بالطاعة، وطهرها من دنس الذنوب والمعاصى، طهرها من الغفلة، وأيقظها بالذكر والتوبة، قال تعالى بعد ما أقسم بسبعة أشياء من مخلوقاته، ومنهم النفس: ﴿قَدْ أَفْلَحَ من زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٩] وخسر وخاب من غفل عنها وأهمها: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ١٠] فلا تكن ممن أهملها وفرط فى حقها بالمحاسبة والتأنيب، قال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨] قال قتادة: «أى أضاع نفسه وغبن، ومع ذلك تراه حافظًا لماله، مضيعًا لدينه».

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٣٤٢.

(٢) رواه ابن جرير فى تفسيره، وساقه ابن كثير فى التفسير ٤/ ٣٤٢ وقال: هذا إسناد جيد ورواته ثقات.

قال مالك بن دينار -رحمه الله-:

«رحم الله عبدًا قال لنفسه: ألست صاحبة كذا؟ ألست صاحبة كذا؟ ثم ذمها وخطمها ثم ألزمها كتاب الله عز وجل، فكان لها قائدًا»(١)

وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى بعض عماله: «حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدة، فإن من حاسب نفسه في الرخاء قبل حساب الشدة عاد أمره إلى الرضا والغبطة، ومن ألهته حياته، وشغلته أهواؤه عاد أمره إلى الندامة والخسارة».

وعن وهب بن منبه قال: مكتوب في حكمة آل داود عليه السلام: «**حق على العاقل أن لا** يغفل عن أربع ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه وساعة يخلو فيها مع إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه، ويصدقونه عن نفسه، وساعة يخلي فيها بين نفسه، وبين لذاتها فيما يحل ويَجْمُل، فإن في هذه الساعة عونًا على تلك الساعات، وإجمامًا للقلوب»(٢)

• السلف الصالح يحاسبون أنفسهم •

أخي الحبيب:

هيا بنا لنقف مع تلك النخبة الصالحة من السلف الصالح رضوان الله عليهم وهم يحاسبون أنفسهم، فهذا هو **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه، لقد كان يضرب قدميه بالدرة إذا جنه الليل، ويقول لنفسه: ماذا عملت اليوم؟(٣)

وأبو طلحة الأنصاري رضي الله عنه لما شغله الطائر في صلاته، جعل حائطه صدقة لله.

وعبد الله بن سلام رضي الله عنه كان يحاسب نفسه، فحمل حزمة من الحطب على ظهره فقيل له: يا أبا يوسف قد كان في بنيك وغلمانك ما يكفونك هذا، فقال: أردت أن أجرب نفسي هل تنكره؟(٤)

فإذا كان هؤلاء أصحاب رسول ﷺ، وكيفية محاسبتهم أنفسهم، فإن التابعين والصالحين ممن تخرجوا في جامعتهم، فنهجوا نهجهم كانوا يحاسبون أنفسهم فهذا هو:

إبراهيم التيمي -رحمه الله- يقول: مثلت نفسي في النار أعالج أغلالها وسعيرها، وآكل من زقومها، وأشرب من زمهريرها، فقلت: يا نفسي أي شيء تشتهين؟ قالت: أرجع إلى الدنيا، فأعمل عملاً أنجو به من هذا العذاب.

ومثلت نفسي في الجنة مع حورها، وألبس من سندسها وإستبرقها وحريرها، فقلت:

---

(١) الإحياء ٤/ ٣٧٠

(٢) ذكره ابن القيم في إغاثة اللهفان وعزاه لأحمد ص٦٨ ط/ دار ابن خلدون.

(٣)، (٤) إحياء علوم الدين٤/ ٣٦٩، ٣٧٠.

يا نفسي أي شيء تشتهين؟ قالت: أرجع إلى الدنيا، فأعمل عملاً أزداد به من هذا الثواب! فقلت لها: أنت في الدنيا، وفي الأمنية[١]

وقال حذيفة بن قتادة: قيل لرجل: كيف تصنع بنفسك في شهواتها؟ فقال: ما على وجه الأرض أبغض إليَّ منها، فكيف أعطيها شهواتها؟!.

وهذا هو: توبة بن الصمة: كان محاسبًا لنفسه، فحسب يومًا فإذا هو ابن ستين سنة، فحسب أيامها، فإذا هي أحد وعشرون ألف يوم وخمسمائة يوم، فصرخ وقال: يا ويلتي، ألقى ربي بأحد وعشرين ألف ذنب؟! كيف وفي كل يوم آلاف من الذنوب؟! ثم خرج مغشيًّا عليه، فحرك فإذا هو ميت، فسمعوا قائلا يقول: يا لها من ركضة إلى الفردوس الأعلى![٢]

وهذا: **حسان بن سنان:** يمر بغرفة، فيقول: متى بنيت هذه؟ ثم أقبل على نفسه يعاتبها، ويؤنبها، فيقول لها: تسألين عما لا يعنيك؟! لأعاقبنك بصوم سنة، فصامها[٣]

فينبغي للعبد أن يحاسب نفسه على الأنفاس، وعلى معصية القلب والجوارح في كل ساعة، فإن الإنسان لو رمى بكل معصية يفعلها حجرًا في داره لامتلأت داره في مدة يسيرة، ولكنه يتساهل في حفظ المعاصي وهي مثبتة ﴿**أحصاه الله ونسوه**﴾.

فينظر العبد في رأس ماله، وفي الربح، وفي الخسران لتتبين له الزيادة من النقصان، فرأس مال العبد الفرائض، وربحه النوافل والفضائل، وخسرانه المعاصي، فليحاسبها أولاً على الفرائض، وإن ارتكب معصية اشتغل بعقابها، ليستوفي منها ما فرط فيه. وهذا أحد العلماء يحاسب نفسه، فيقول:

لِمَ لا أنوح وأندب ... وجميع جسمي مذنب
نفسي لشدة خبثها ... غير الخطا لا تخطب
في السر تعصي ربها ... بين الورى تتأدب
تخشى الخلائق ثم لا ... تخشى الإله وترقب
هذا الرياء بعينه ... هذا النفاق المغضب
يا ويلها، يا ويلها ... مما يداها تكسب
إن أزمعت شرًّا ... فما شيء يعوق ويحجب
إن فاتها ما تشتهي ... تحردُ عليَّ وتغضب

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم٤/ ٢١١ والإحياء.

(٢)، (٣) الإحياء٤/ ٣٧١، وإغاثة اللهفان.

مَلَكُ اليمين أرحته لم يلق خيراً يكتب
مَلَكُ الشمال بعكسه ليلاً نهاراً يتعب[1]

• كيفية محاسبة النفس •

لقد وضح لنا الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى كيفية محاسبة النفس فقال: محاسبة النفس نوعان: نوع قبل العمل، ونوع بعده.

النوع الأول: هو أن يقف عند أول همه وإرادته، ولا يبادر بالعمل حتى يتبين رجحانه على تركه.

قال الحسن البصري -رحمه الله-: «رحم الله عبدًا وقف عند همه، فإن كان لله مضى، وإن كان لغيره تأخر».

يسأل العبد نفسه، إذا أراد أن يقبل على عمل من الأعمال: لمن أعمل؟ وكيف أعمل؟ هل أبتغي بعملي هذا وجه الله؟ هل كان موافقًا لهدى رسول الله ﷺ؟

النوع الثاني:

محاسبته بعد العمل، وهي ثلاثة أنواع:

الأول: محاسبتها على طاعة قصرت فيها من حق الله تعالى، فلم توقعها على الوجه الذي ينبغي. وحق الله تعالى في الطاعة ستة أمور هي:

١- الإخلاص في العمل.

٢- متابعة الرسول ﷺ فيه، لأن الله تعالى لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصًا صوابًا، والخالص هو: ما ابتغيت به وجه الله، والصواب هو ما وافق هدى الحبيب المصطفى ﷺ.

٣- النصيحة لله فيه.

٤- شهود مشهد الإحسان فيه.

٥- شهود منة الله عليه.

٦- شهود تقصيره فيه بعد ذلك كله.

فيحاسب نفسه: هل وفَّى هذه المقامات حقها، وهل أتى بها في الطاعات؟

الثاني: أن يحاسب نفسه على كل عمل كان تركُهُ خيرًا له من فعله.

الثالث: أن يحاسب نفسه على أمر مباح، أو معتاد: لم فعله؟ وهل أراد به الله، والدار الآخرة؟ فيكون رابحًا، أو أراد به الدنيا وعاجلها، فيخسر ذلك الربح، ويفوته الظفر به؟

---

(١) مختصر منهاج القاصدين ص٥٦٤ هامش.

قال: وجماع ذلك أن يحاسب نفسه أولاً على الفرائض، فإذا تذكر فيها نقصًا تداركه، إما بقضاء أو إصلاح، ثم يحاسب على المناهى، فإن عرف أنه ارتكب منها شيئًا تداركه أيضًا بالتوبة والاستغفار، والحسنات الماحية، ثم يحاسب نفسه على الغفلة، فإن كان قد غفل عما خلق له تداركه بالذكر، والإقبال على الله.

ثم يحاسبها بما تكلم به لسانه أو مشت به رجلاه، أو بطشته يداه، أو سمعته أذناه: ماذا أردت بهذا؟ ولم فعلت؟ وعلى أى وجه فعلته؟ ويعلم أنه لابد أن ينشر لكل حركة وكلمة منه ديوان لم فعلته؟ وكيف فعلته؟ فالأول سؤال عن الإخلاص، والثانى سؤال عن المتابعة.

قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣] ﴿لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٨] فإذا سئل الصادقون وحوسبوا على صدقهم، فما الظن بالكاذبين. قال قتادة: كلمتان يُسئل عنهما الأولون والآخرون: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين، فيُسألون عن المعبود وعن العبادة. قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨].

قال محمد بن جرير: أىْ ليسألنكم الله عز وجل عن النعيم الذى كنتم فيه فى الدنيا: ماذا عملتم فيه؟ ومن أين وصلتم إليه؟ وفيم أصبتموه؟ وماذا عملتم به؟.

وقال قتادة: إنَّ الله سائل كل عما استودعه من نعمته وحقه، والمسئول عنه نوعان:

١- نوع أخذ من حله، وصرف فى حله، فيسأل عن شكره.

٢- نوع أخذ بغير حله وصرف فى غير حقه، فيسأل عن مستخرجه، وعن مصرفه.

• فوائد محاسبة النفس •

أخى الحبيب:

وفى محاسبة النفس عدة مصالح منها: -

١- من حاسب نفسه فى الدنيا خف عنه الحساب فى الآخرة:

فالمسلم إذا حاسب نفسه فى الدنيا خف فى القيامة حسابه، وحضر عند السؤال جوابه فالوقوف بين يدى الله طويل.. والحساب عسير.. والخطب كبير!!.

ولذلك يقول النبى ﷺ عن عائشة ﵂ «من نوقش الحساب عذب» فقالت عائشة: يا رسول الله، ألم يقل الله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٧، ٨].

فقال رسول الله ﷺ: **«يا عائشة، ليس ذلك هو الحساب، إنما ذلك هو العرض فمن نوقش الحساب يوم القيامة عذب»**(١).

فسوف تعرض على الله تعالى: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ [الكهف: ٤٨] ليعرض عليك أعمالك التى حواها كتاب: ﴿لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩] فيا له من موقف شديد، يا له من موقف تشيب له الرءوس، ويا حسرة من لم يجاهد نفسه فى الدنيا ولم يحاسبها. إنك ستقف أمام الله تعالى ليس بينك وبين مولاك ترجمان كما أخبر النبى العدنان: **«ما منكم من أحد إلا وسيكلمه ربه يوم القيامة ليس بينه وبين ربه ترجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة»**(٢).

فتخيل نفسك الآن وقد وقفت أمام مولاك للحساب، تصور أنك أمام رب العالمين وقد أحضرتك الملائكة، والكل محيط بك، تحيطك الملائكة، وتحيط بك البشرية كلها والكل صامت، الجميع خاشع، وجلال الحى القيوم قد ملأ النفوس بالهيبة والعظمة والجلال، فياحسرة قلبك ساعتها على ما فرطت فى جنب الله.

فإن كنت ممن يحاسب نفسه فى الدنيا، فسوف يعطيك ربك كتابك بيمينك، وساعتها ستقول: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ١٩: ٢٤] ثم يدنيك مولاك ويقررك كما فى حديث ابن عمر: **«يدنى المؤمن من ربه يوم القيامة حتى يضع الله عليه كنفه وستره، ثم يقول: أتعرف؟ فيقول: أعرف، ثم يقول: أتعرف؟ فيقول: أعرف، فيقول الله: أنا سترتها عليك فى الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم»**(٣). ساعتها، يفرح قلبك، ويشرق وجهك، وينور وجهك.

٢- ومنها: الاطلاع على عيوبها:

والعبد إذا لم يطلع على عيوب نفسه لم يمكنه إزالة تلك العيوب، لكنه إذا ما اطلع على عيوبها، وتفقد أحوالها، عرف مواطن الضعف فيها، حينئذ يعرف داءها، فيمكنه مداواتها، وإذا حصل ذلك فإن العبد يمقت نفسه فى جنب الله تعالى.

ولذلك كان السلف الصالح رضوان الله عليهم يمقتون أنفسهم فى ذات الله، يقول

---

(١) رواه أحمد فى مسنده١٧/ ٢٥٧ برقم (٢٤٠٨٢) بإسناد صحيح ورواه البخارى (١٠٣) فتح١/ ١٩٧ ومسلم (٢٨٧٦) وأبو داود بنحوه (٣٠٩٣) والترمذى وقال: حسن صحيح (٣٣٢٧).

(٢) رواه البخارى ومسلم (١٠١٦) والترمذى وقال: حسن صحيح (٢٤١٥) وأحمد فى مسنده (١٨١٦٢) جـ١٤/ ١١٤

(٣) رواه البخارى ومسلم وأحمد والترمذى.

أبو الدرداء ﷺ: «لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس فى جنب الله، ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أشد مقتًا منك للناس»(١).

وهذا هو **محمد بن واسع** -رحمه الله- يقول: «لو كان يوجد للذنوب ريح ما قدرتم أن تدنوا منى من نتن ريحى»(٢) يقول هذا الكلام مع أنه كان من الذين يقومون الليل كله، كان من الذين مُلئت قلوبهم بخوف الله وخشيته، لدرجة أن مطر الوراق -رحمه الله- يقول: ما اشتهيت أن أبكى قط حتى أشتفى إلا نظرت إلى وجه محمد بن واسع.

وقال **أبو حفص النيسابورى**: «من لم يتهم نفسه على دوام الأوقات، ولم يخالفها فى جميع الأحوال، ولم يجرها إلى مكروهها فى سائر أوقاته كان مغرورًا، ومن نظر إليها باستحسان شىء منها فقد أهلكها».

ويقول أيضًا: «من لم يزن أفعاله وأحواله فى كل وقت بالكتاب والسنة، ولم يتهم خواطره فلا تعده فى ديوان الرجال»(٣).

وهذا هو **سفيان الثورى** -رحمه الله- وقد بلغ من العبادة وخوف الله ما بلغ يقول عنه عبد الرحمن بن مهدى: «ما عاشرت فى الناس رجلاً أرق من سفيان، وكنت أرمقه الليلة بعد الليلة فما كان ينام أول الليل، ثم ينتفض فزعًا مرعوبًا ينادى: النار النار شغلنى ذكر النار عن النوم والشهوات، ثم يتوضأ ويقوم للصلاة»(٤) ومع ذلك كان يتهم نفسه، فعن ابن أبجر قال: لما حضرت سفيان الوفاة قال: يابن أبجر قد نزل بى ما ترى، فانظر من يحضرنى، فأتيته بقوم فيهم حماد بن سلمة، وكان من أقربهم إلى رأسه، يقول حماد: فتنفس، فقلت له: أبشر فقد نجوت مما كنت تخاف، وتقدم على رب كريم غفور.

فقال: يا أبا سلمة، أترى الله يغفر لمثلى، أتطمع لمثلى أن ينجو من النار؟ قال: إى والله إنى لأرجو ذلك. قال: فكأنما سرى عنه(٥).

وكان من أولئك الصالحين الذين يستصغرون أنفسهم، ويحتقرون أعمالهم، عندما قاموا على حسابها فى الدنيا «**صلة بن أشيم**» رحمه الله، فتأمل كيف كان يجاهد نفسه فى طاعة الله وعبادته، وكيف يحتقرها فى جنب الله؟!.

يقول حماد بن جعفر: خرجنا فى غزوة إلى كابل (اسم بلد) وفى الجيش صلة بن أشيم فنزل الناس وقت العتمة، فقلت: لأرمقن عمله، فأنظر ما يذكر الناس من عبادته، فصلى العتمةَ ثم اضطجع، فالتمس غفلة الناس حتى هدأت العيون، قام، فدخل غيضة -

(١) الزهد للإمام أحمد ص١٦٧ ط/ الريان.
(٢) صفة الصفوة ٣/ ١٥٣ لابن الجوزى.
(٣) صفة الصفوة ٤/ ٨٢ والحلية لأبى نعيم.
(٤) المرجع السابق٣/ ٧٢.
(٥) صفة الصفوة ٣/ ٧٣، ٧٤.

مكان كثيف الأشجـار- فدخلت في إثره، فتوضأ ثم قام يصلي، فـجاء أسد حتى دنا منه، قال: فصعدت في شجرة، قال: فتراه التفت أو عده جرذا -أي فأرًا- حتى سجد، فقلت: الآن يفترسه، فجلس ثم سلم، فقـال أيها الأسد اطلب الرزق من مكان آخر، فولى وإن له لزئيرا تصدعُ الجبال منه، الله أكبر. . الله أكبر. يقول: ومازال كذلك حتى كانِ عند الصبح جلس فـحمد الله عـز وجل بمحاق لم أسـمع بمثلها إلا مـا شاء الله، ثم قـال: اللهم إني أسألك أن تجيرني من النار، أو مثلي يجتـرئ أن يسألك الجنة؟ ثم رجع، فأصبح كأنه بات على الحشايا(١).

وتأمل عامر بن عبد الله التميمي: كان يقال له: راهب هذه الأمة، وكان من التابعين ومن الثمانية الذين ينتهي الزهد إليهم. وكان ممن يحاسب نفسه، ويعالجها، ويداويها بطاعة الله كان يصلي كل يوم ألف ركـعة، وفي يوم وجد أن رجله قد تورمت من القـيام، فأخذ يقول لنفسه مـخاطبًا إياها: يا نفسي بهذا أمرت، ولهـذا خلقت، يوشك أن يذهب العناء، ثم يقول لها: يا مأوى كل سوء، فوعزة ربك لأزحفن بك زحوف البعير»(٢).

واعلم أن العبد المسلم إذا اطلع على عيب نفسه، فـإنه حينئذ يمقتها ويزدريها، وذلك يسبب رفع درجته عند ملك الملوك جل وعلا.

يقول ابن القيم:

«ومقت النفس في ذات الله من صفات الصديـقين، ويدنو به العبد من الله في لحظة واحدة أضعاف ما يدنو بالعمل».

٣-ومنها: أن محاسبة النفس، تحض العبد على الأعمال الصالحة، وتُضْعف الأعمال السيئة:

فالعبد حين يحاسب نـفسه فيشعر بالتفريط في أعماله الصـالحة، فإنه حينئذ يحرص كل الحرص على أن يتزود بما بقي له من العمر قبل أن يفارق هذه الدنيا التي عرف أنها هينة حقيرة، وأنها دار ممر، لا دار مستقر.

فعن عـليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه قـال: إن الدنيا قـد ارتحلت مدبرة، وإنَّ الآخـرة قد ارتحلت مقـبلة، ولكل منهما بنون، فـكونوا أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الـدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغدًا حساب ولا عمل.

٤- ومنها: أنها تجعل العبد الذي يحاسب نفسه مستعدًا للرحيل عن الدنيا:

تجعله يستعد للـقاء ربه، لأن الليل والنهار مرورهما قضاء لعمـره، ونهاية لحياته قال رجل لمحمد بن واسع -رحـمه الله-: كيف أصبحت؟ قال: مـا ظنك برجل يرتحل كل يوم مرحلة إلى الآخرة.

وقال الحسن: يابن آدم إنما أنت مجموعة كلما مضى يوم مضى بعضك.

---

(١) المرجع السابق٣/ ١١٥. (٢) المرجع السابق٣/ ١٠٦

يابن آدم، إنما أنت بين راحلتين مطيتين يوضعانك، يوضعك الليل إلى النهار، والنهار إلى الليل حتى يسلمانك إلى الآخرة، فمن أعظم منك خطراً.

وقال بعض الحكماء: كيف يفرح بالدنيا من يومه يهدم شهره، وشهره يهدم سنته، وسنته تهدم عمره.

وقال الفضيل بن عياض -رحمه الله- وقد قابل رجلاً: كم أتت عليك؟ قال: ستون سنة قال: فأنت منذ ستين سنة تسير إلى ربك؟ توشك أن تصل، فقال الرجل: إنا لله وإنا إليه راجعون، فقال الفضيل: أتعرف تفسير قولك: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦] قال: نعم، عرفت أني لله عبد، وأني إليه راجع.

قال: من عرف أنه لله عبد، وأنه إليه راجع، عرف أنه موقوف، ومن عرف أنه موقوف عرف أنه مسئول، ومن عرف أنه مسئول، فليعد للسؤال جوابًا. فقال الرجل: فما الحيلة يرحمك الله؟ قال: يسيره على من يسره الله. قال: وما هي؟ قال: أن تحسن فيما يبقى، يغفر الله لك فيما مضى(١).

٥- أن المحاسبة تفتح للعبد باب الذل والانكسار والخضوع لله رب العالمين:

فإذا حاسب العبد نفسه، وحصل له في نفسه الذل والخضوع لله، حصل له خوف من الله تعالى، وتلك درجة من درجات المؤمنين الصادقين، ودل ذلك على أن الله سيغفر ذنوبه، فيكون من الفائزين، وإلا كان من الخاسرين الهالكين.

قال رسول الله ﷺ: **«إن رجلاً حضره الموت، فلما شعر بدنو أجله، أوصى أهله، وقال لهم: إذا أنا مت فاجمعوا لي حطبًا كثيراً، وأوقدوا فيه ناراً حتى إذا أكلت لحمي، وخلصت إلى عظمي فامتحشت، فخذوها فاطحنوها، ثم انظروا يومًا راحًا فاذروه في اليم، ففعلوا، فجمعه الله، فقال له: لم فعلت ذلك؟ قال: من خشيتك فغفر الله له»**(٢).

٦- أن المحاسبة تخلص النفس من العجب والغرور:

وإذا تخلصت النفس من هذا الداء الخطير فقد نجت من الهلاك، لأنه من أخطر المهلكات بنص حديث رسول الله ﷺ الذي يقول فيه: **«ثلاث منجيات، وثلاث مهلكات: فأما المنجيات، فتقوى الله في السر والعلانية، والقول بالحق في الرضا والغضب، والقصد في الغنى والفقر، وأما المهلكات: فهوى متبع، وشح مطاع، وإعجاب المرء بنفسه، وهي أشدهن»**(٣).

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم٨/ ١١٣ (٢) رواه البخاري ومسلم وابن ماجه والنسائي وأحمد.

(٣) رواه أبو نعيم في الحلية٢/ ٣٤٣ والبيهقي في الشعب والبزار وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة بمجموع طرقه رقم (١٨٠٢).

• محاسبة نفس •

ذكر هذه المحاسبة الإمام الغزالى فى الإحياء[1]، فرأيت من تمام الفائدة أن أسوقها لكل مؤمن يود أن يحاسب نفسه.

يا نفس ما أعظم جهلك، تدعين الفطنة والذكاء وأنت أشد الناس غباوة وحمقًا، أما تعلمين أنك صائرة إلى الجنة أو النار؟ فكيف يلهو من لا يدرى إلى أيتهما يصير؟ وربما اختطف فى يومه أو غده! أما تعلمين أن كل ما هو آت قريب، وأن الموت يأتى بغتة من غير موعد، ولا يتوقف على سن دون سن، فمالك لا تستعدين للموت وهو قريب منك؟!.

يا نفس، إن كانت جرأتك على معصية الله تعالى لاعتقاد أن الله لا يراك فما أعظم كفرك! وإن كانت مع علمك باطلاعه عليك، فما أشد وقاحتك، وأقل حياءك! ألك طاقة على عذابه؟.

ويحك يا نفس كأنك لا تؤمنين بيوم القيامة، أتحسبين أنك ستتركين سدى، فما أجهلك! أما تتفكرين أنه مماذا خلقك؟ من نطفة خلقك فقدرك ثم السبيل يسرك ثم أماتك فأقبرك؟ أتكذبينه فى قوله: ﴿إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾ [عبس: ٢٢] فإن لم تكونى مكذبة فما لك لا تأخذين حذرك!.

ويحك يا نفس لا ينبغى أن تغرك الحياة الدنيا، ولا يغرنك بالله الغرور، لا تضيعى أوقاتك، فالأنفاس معدودة، فإذا مضى منك نفس فقد ذهب بعضك، فاغتنمى الصحة قبل السقم، والفراغ قبل الشغل، والغنى قبل الفقر، والشباب قبل الهرم، والحياة قبل الموت، واستعدى للآخرة على قدر بقاءك فيها.

يا نفس أما تنظرين إلى الذين مضوا قبلك كيف بنوا وعلوا، ثم ذهبوا وخلوا، وكيف أورث الله أرضهم وديارهم أعداءهم؟ أما ترين كيف يجمعون ما لا يأكلون، ويبنون ما لا يسكنون، ويؤملون ما لا يدركون؟!.

ويحك يا نفس فقد أشرفت على الهلاك، واقترب الموت، وورد النذير، فمن ذا يصلى عنك بعد الموت، ومن ذا يصوم عنك بعد الموت؟ ومن ذا يترضى عنك ربك بعد الموت؟.

يا نفس، أما تعلمين أن الموت موعدك، والقبر بيتك، والتراب فراشك، والدود أنيسك، والفزع الأكبر بين يديك؟.

---

(١) الإحياء ٤/ ٣٨٢، ٣٨٣ بتصرف واختصار.

يا نفس، أما تستحيين من الله؟ ويحك أهو أهون الناظرين إليك؟ أتزينين ظاهرك للخلق وتبارزين الله فى السر بالعظائم؟ أتأمرين الناس بالخير وأنت واقعة فى الرذائل؟ تذكرين بالله وأنت له ناسية؟! أتفرحين بزيادة مالك ولا تحزنين بنقصان عمرك فما فائدة مال يزيد مع عمر ينقص؟.

ويحك يانفس هل تعرفين قدر نعمة الإسلام!.

يا نفس هل حققت التوحيد لله جل وعلا!!

يا نفس هل استعنت بالله فى كل أمرك!!

يا نفس هل أعطيت من حرمك، ووصلت من قطعك، وعفوت عمن ظلمك؟!.

ويحك يا نفس أما تخافين من عذاب القبر وأيامه، وسكرات الموت وآلامه والحساب ودقته، والصراط وحدته!!.

• موعظة •

أخى الحبيب:

اعلم أن بينك وبين الله والجنة قنطرة تقطع بخطوتين: خطوة عن نفسه، وخطوة عن الخلق، فعلى العبد أن يحط من نفسه ويلغيها فيما بينه وبين الناس، ويسقط الناس ويلغيهم فيما بينه وبين الله، فلا يلتفت إلا لمن دله على الله وعلى الطريق الموصلة إليه.

لقد صاح بالصحابة واعظ: ﴿**اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ**﴾ [الأنبياء: ١] فجزعت للخوف قلوبهم وجرت من الحذر العيون ﴿**فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا**﴾ [الرعد: ١٧].

تزينت الدنيا لعلى بن أبى طالب، فقال: أنت طالق، لا رجعة لى فيك، وكانت تكفيه واحدة للسنة، لكنه جمع الثلاث لئلا يتصور للهوى جواز المراجعة، ودينه الصحيح، وطبعه السليم يأنفان المحلل، كيف وهو أحد رواة حديث: «**لعن الله المحلل**»(١).

يقول على بن أبى طالب رضي الله عنه:

لا تكن ممن يرجو الآخرة بغير عمل، ويؤخر التوبة لطول الأمل، ويقول فى الدنيا بقول الزاهدين، ويعمل فيها عمل الراغبين، إن أعطى من الدنيا لم يشبع، وإن مُنِعَ منها لم يقنع، ويأمر الناس بما لا يفعله، يحب الصالحين ولا يعمل بأعمالهم، ويبغض المسيئين وهو منهم، يكره الموت لكثرة ذنوبه، إن سقم ظل نادمًا، وإن صح أمن لاهيًا، يعجب من نفسه إذا عوفى، لا يثق من الرزق بما ضمن له، ولا يعمل من العمل بما فرض عليه، إن استغنى بطر، وإن افتقر قنط وحزن، فهو من الذنب فى حال النعمة والمحنة موقر، يطلب الزيادة ولا يشكر، ويتكلف من الناس ما لا يُؤمر».

اللهم إنا نعوذ بك من نفس لا تشبع، ومن عين لا تدمع، ومن علم لا ينفع، ومن

---

(١) رواه أبو داود.

قلب لا يخشع، ومن دعاء لا يسمع. اللهم امنن علينا بإصلاح عيوبنا، واجعل التقوى زادنا، وفي دينك اجتهادنا، وعليك توكلنا واعتمادنا.

اللهم اهدنا لنورك بقدرتك، وأعطنا من فضلك بحولك وقوتك، اللهم هب لنا لسانًا لا يفتر عن ذكرك، وهب لنا روحًا منك، وأكرمنا بالنظر إلى وجهك، بفضلك وكرمك يا رب العالمين.

الوصية رقم (٣١)
من استطاع منكم الباءة فليتزوج

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء»**(١).

صدق رسول الله ﷺ

• في رحاب هذه الوصية •

في هذا القبس النبوى الشريف يوجه أستاذ البشرية ﷺ شباب الأمة توجيهًا من توجيهاته الرشيدة الحكيمة التى تحفظ عليهم دينهم وحياتهم، فيأمرهم بالزواج صيانة لدينهم وأعراضهم، وتعففًا عن الفواحش.

وما ذلك من الرسول ﷺ إلا اهتمامًا بالشباب ورعاية لهم، لأنهم هم الطاقة الفعالة، والقوة المحركة، فى الحرب والسلم، وهم رجال الأمة حاضرًا ومستقبلاً، عليهم تعقد الآمال، وإليهم تسند الأعمال، فهم قلب الأمة النابض، ودمها المتدفق، ولقد استهل الرسول الأعظم ﷺ وصيته العظيمة بنداء يشعر أصحابه بالقوة والنشاط، ويوحى بالحب والتقدير، ثم بعد النداء يأتى الأمر المقترن باللام: «فليتزوج» وهذا الزواج عند وجود الاستطاعة، فإن عدمت، فليسارع الشباب إلى الصوم، فهو السلاح الذى يقاوم الشاب به شهوته، لأنه عبادة يتعلم منها المسلم الصبر على المكاره، وبذلك يشتد العزم، وتقوى الروح، وتسمو النفس إلى الكمال والعلا.

• الفوائد الحاصلة من الزواج •

وقد ندب الله تعالى إلى الزواج، فقال سبحانه: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٢] ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ [النساء: ٣] وقال سبحانه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢٢].

---

(١) رواه البخارى (١٩٠٥) ومسلم (١٤٠٠) وأبو داود (٢٠٤٦) وأحمد (٤٢٧١) والترمذى (١٠٨٠) وذكره الألبانى فى ص.ج (٧٩٧٥).

ولهذا خاطب النبى ﷺ الشباب يدعوهم إلى الزواج والمبادرة إليه، متى كان قادراً على مؤن الزواج، ونفقاته، وكان به توقان إلى النساء، حتى لا تزل به القدم فى مهوات المعاصى، فتقوده نفسه، ويغريه شيطانه، فيقع فيما لا يحل من الموبقات، والذنوب المهلكات، فإن للشباب فتوة ونزوة تدفع الشباب إلى إطاعة شهوته، وتقهره على إرضائها دون أن يبالى بسوء مغبة، أو حسنها فكم جر ذلك من ويلات، وأعقب من أدواء استفحل فيما بعد شرها، وعم ضررها، وأصبحت ملاقاتها عسيرة، وتدارك أخطارها في غير الوسع والطاقة؟!.

وكم من شاب أغرته شهوته، واستعبدته لذته، فأعطى نفسه من الذنوب والمعاصى حظها، وأروى من الموبقات غلتها.

لذلك فإن الزواج يحصن صاحبه، ويدفع عنه غوائل الشهوة، قال ﷺ: «**من رزقه الله امرأة صالحة فقد أعانه على شطر دينه، فليتق الله فى النصف الآخر**»[1] بل بشر النبى ﷺ الشباب الذى يقبل على تلك الحياة الزوجية السليمة بأن الله معينه وموفقه، فعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**ثلاثة حق على الله عونهم: المجاهد فى سبيل الله، والمكاتب الذى يريد الأداء، والناكح الذى يريد العفاف**»[2].

ومعلوم أن النفس البشرية ملول بطبعها، وهى عن الحق نفور، فإذا أرغمت كلت، وإن روحت قويت، ولذلك قال سيدنا على بن أبى طالب رضي الله عنه: «روحوا القلوب ساعة بعد ساعة، فإنها إذا كلت عميت».

فالاستئناس بالمرأة يزيل الكرب، ويروح القلب، ولهذا قال النبى ﷺ: «**حبب إلىَّ من دنياكم ثلاث: الطيب، والنساء، وجعلت قرة عينى فى الصلاة**»[3].

فالمبادرة إلى الزواج الشرعى تدعو إلى العفة، وغض البصر عن المحرمات، كما بين الرسول ﷺ فى نص الوصية: «**فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج**».

وتأمل فى حياة المتزوج عندما يفاجئه مرض أو تنتابه نائبة، وعنده زوجة صالحة كيف يكون محاطًا بعطفها، وقيامها بخدمته، نائمًا على فراش الراحة والهناء، تخفف عنه آلامه، وتسليه وتؤنسه، وتقوم على خدمته، وتضمر الخير له، ولهذا أوصى النبى ﷺ أتباعه بأن يتخذ كل واحد لنفسه زوجة لكى تعينه على أمر دينه ودنياه، فقال: «**ليتخذ أحدكم قلبًا شاكرًا، ولسانًا ذاكرًا، وزوجة مؤمنة صالحة تعينه على آخرته**»[4]

---

(١) رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبى ٢/ ١٦١

(٢) رواه الترمذى (١٦٥٥) وابن حبان فى صحيحه، والحاكم وصححه، وأحمد فى مسنده وذكره الألبانى فى صحيح النسائى (١٧ ٣).

(٣) رواه أحمد فى مسنده (١٢٢٣٣) والنسائى والحاكم وصححه الألبانى فى ص.ج (٣١٢٤).

(٤) رواه أحمد فى مسنده (٢٢٣٦٦) وابن ماجه (١٨٥٦).

ويبين الرسول الأكرم ﷺ أن الزواج من الفطرة التى فطر الناس عليها، وأنها من سنته، فقال: «**من أحب فطرتى فليستن بسنتى ومن سنتى النكاح**»(١).

• خطورة تأخير الزواج •

وأما الإبطاء عن الزواج حتى يتقدم فى العمر فصاحبه على خطر، فقد لا يستطيع تربية أولاده لضعف قوته، وعجزه عن تحصيل ما به حياتهم وتوفير أسباب السعادة لهم.

وربما اخترمته المنية فيتركهم كزغب القطا، مهيض الجناح، أيتام لا يقدرون على التخلص من الأكدار، والأنكاد.

كما أن الإبطاء عن الزواج يزيد من كثرة البنات العانسات، ويفوت عليهن نصرتهن وجنى ثمارهن، وليس لهن قدرة على دفع الشهوة كالرجال، ولهذا فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما لرجل: تزوج فإن خير هذه الأمة أكثرها نساء ولهذا أيضًا كان الزواج من سنة الأنبياء والمرسلين، قال سبحانه: ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً** ﴾ [الرعد: ٣٨].

• أسس اختيار الزوجة •

لقد وضع الشارع الحكيم أسسًا لاختيار الزوجة المسلمة ومنها:

١ - اختيار ذات الدين:

فالدين هو الأساس السليم فى اختيار الرجل لزوجته، ولذلك يقول النبى ﷺ: «**تنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك**»(٢)

فقد جرت العادة أن الناس يرغبون فى نكاح المرأة لواحدة من هذه الخصال:

الأولى: المال، لأنها إن كانت ذات مال فقد تستغنى بمالها عن مطالبته بما تحتاج إليه غيرها من النساء، وقد يحصل له منها ولد، فيعود إليه بالإرث.

الثانية: وتنكح لأجل حسبها وهو الشرف بالآباء والأقارب.

الثالثة: كما أنها تنكح لجمالها، فالجمال مطلوب فى كل شىء، لا سيما فى المرأة.

الرابعة: وتنكح لدينها، ولمسلم من حديث جابر رضي الله عنه: «**فعليك بذات الدين**».

لأن اللائق بذوى المروءات وأرباب الديانات أن يكون الدين مطمح نظرهم فى كل شىء، ولا سيما فيما يدوم أمره، ويعظم خطره، فلذلك اختاره النبى ﷺ بأبلغ وجه وأكده، حيث عبر بالظفر الذى هو غاية البغية، ومنتهى الاختيار.

---

(١) رواه البيهقى فى سننه الكبرى.

(٢) رواه البخارى (٥٠٩٠) ومسلم (١٤٦٦) وأبو داود (٢٠٣٢) وأحمد فى مسنده (٩٤٨٩) وابن ماجه.

ولذلك ورد فى حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن النبى ﷺ قال: **«تخيروا الأكفاء لنطفكم، فانكحوا الأكفاء، وأنكحوا إليهم»**(١)

والمرأة الكفء صاحبة الدين عون لزوجها على دينه، ولذلك جعلها رسول الإسلام ﷺ أعظم وأجل متاع للرجل فى دنياه، فقال: **«الدنيا كلها متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة»**(٢) وفى رواية أخرى أنه ﷺ قال لأحد أصحابه: **«ألا أخبرك بخير ما يكنز المرء؟ المرأة الصالحة التى إذا نظر إليها سرته، وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته فى نفسها ومالها»**(٣)

٢- تفضيل البكر:

فقد رغب الرسول المصطفى، والنبى المجتبى ﷺ الشباب فى اختيار من تكون شريكة لحياتهم، بأن تكون بكراً، فقال لجابر بن عبد الله، وقد خطب امرأة ثيبًا: **«هلا تزوجت بكراً تلاعبها وتلاعبك»**(٤)

وحث الرسول ﷺ الشباب على اختيار البكر إنما هو مناسب للفطرة الإنسانية، لأن البكر تألف بأول زوج لها، أما الثيب فإنها تقارن بين زوجها الأول، وبين زوجها الحالى، وربما وجدت عند السابق ما ليس فى زوجها الحالى، مما يدفعها إلى النفور منه.

٣- حث على المرأة الولود:

فقال ﷺ: **«تزوجوا الودود الولود فإنى مكاثر بكم الأمم يوم القيامة»**(٥) وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إنى لأُكره نفسى على الجماع رجاء أن يخرج الله نسمة تسبحه وتذكره.

لكن الأمر فى عصرنا قد انقلب، وصرنا نحارب مكاثرة النسل، ورجعنا إلى أيام الجاهلية، أيام أن كانوا يئدون البنات خشية الفقر، لكن رب العالمين نهى عن ذلك فقال: ﴿**وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا**﴾ [الإسراء: ٣١].

• الإسلام ينهى عن الرهبانية •

فلا رهبانية فى الإسلام، والرهبانية هى العكوف على العبادة وعدم الزواج وقد نهى الرسول ﷺ عن ذلك كما فى حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: **«كان رسول الله ﷺ يأمرنا**

(١) رواه الحاكم ٢/١٦٣ وابن ماجه وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (١٠٦٧).

(٢) رواه مسلم (١٤٦٧) وأحمد فى مسنده وابن ماجه.

(٣) رواه الحاكم ٢/٣٣٣ وأبو داود (١٦٦٤) وضعفه الألبانى.

(٤) رواه مسلم (٧١٥) والبخارى (٥٠٧٩) وأحمد فى مسنده، وأبو داود (٢٠٤٨).

(٥) رواه ابن حبان وصححه (٤٠٤٤) وذكره الألبانى فى السلسلة الصحيحة برقم (٢٧٨٢).

بالباءة وينهى عن التبتل نهيًا شديدًا، ويقول: تزوجوا الودود الولود، فإنى مكاثر بكم الأنبياء يوم القيامة»(١)

ولما جاءه عكاف بن وداعة الهلالى ﷺ فى يوم من الأيام سأله الرسول قائلاً له: **«يا عكاف، ألك زوجة؟ قال: لا. قال: ولا جارية، قال: لا. قال: وأنت صحيح موسر؟ قال: نعم، والحمد لله. قال: فأنت إذا من إخوان الشياطين، إما أن تكون من رهبان النصارى، فأنت منهم وإما أن تكون منا فاصنع كما نصنع، وإن من سنتنا النكاح، شراركم عزابكم، وأراذل موتاكم عزابكم، ويحك يا عكاف! تزوج، فقال: زوجنى من شئت، فقال له: فقد زوجتك على اسم الله والبركة: كريمة بنت كلثوم الحميرى»**(٢)

فلذلك حرص السلف الصالح رضوان الله عليهم على ترك العزوبة، فكان عبد الله بن مسعود ﷺ يقول: لو لم يبق من عمرى إلاّ عشرة أيام، أحببت أن أتزوج حتى لا ألقى الله عزبًا.

وتزوج الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله فى اليوم الثانى من وفاة امرأته، وقال: أكره أن أبيت عزبًا.

• مغالاة المهور.... مشكلة الشباب •

أخى الحبيب:

إن من الأسباب الرئيسية لتوقف كثير من الشباب عن الزواج، ثقل المهور، والتبذير الشديد فى تجهيز العروسين، وغير ذلك.

ولذلك جعل النبى ﷺ أفضل النساء من سهل مهرها، وتيسرت خطبتها فعن عائشة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«إن من يمن المرأة تيسير خطبتها، وتيسير صداقها، وتيسير رحمها»**(٣)، وفى رواية أخرى: **«إن أعظم النكاح بركة أيسره مؤنة»**(٤)

فالمغالاة فى المهور، والإسراف فى الجهاز والنفقات تمحق بركة الزواج، وهذا هو الذى جعل أكثر الشباب عزبًا، وجعل أكثر البنات عوانس، والجريمة جريمة أولياء الأمور الذين يتشددون فى هذا الأمر، وهذا من أقوى أسباب الفساد فى الأمة والعياذ بالله.

فالعاقل من إذا جاءه من يرضى دينه وعقله فليزوجه، وينقاد لدينه الحق، وتعاليمه السامية، ويرضى بالميسور وعليه ألا ينخدع بالمظاهر الخداعة الزائفة، فديننا الحنيف لا يُعنى

(١) رواه أحمد وابن حبان وصححه والحديث حسن بشواهده.

(٢) رواه أحمد فى مسنده برقم (٢١٣٤٢) بإسناد ضعفه حمزة الزين وقال رواه الطبرانى صحيحًا من طريق آخر ١٨/ ٨٦ وقد رواه ابن حجر فى الإصابة ٤/ ٥٣٥ وابن الأثير فى أسد الغابة ٣/ ٢٦٩

(٣) رواه أحمد فى مسنده (٢٤٣٥٩) بإسناد حسن ورواه الطبرانى والبيهقى بإسناد جيد.

(٤) رواه أحمد فى مسنده وهو حسن بشواهده

بالمظاهر، ولا بالشكليات بقدر ما يراعى جوهـر الإنسان وطيب معدنه، ونقاء قلبه، ولذلك فى يوم من الأيام يمر رجل من الأغنياء على رسولنا ﷺ فيقول لأصحابه: **«ما تقولون فى هذا؟»** فقـالوا: حرى إن خـطب أن ينكح وإن شـفع يشفع لـه، وإن تكلم يسـمع له، ثم سكت رسول الله ﷺ فمر رجل من فقراء المسلمين، فقال رسول الله ﷺ: **«ما تقولون فى هذا؟»**.

قالوا: حرى إن خطب أن لا ينكح، وإن شفع ألا يشفع، وإن قال لا يسمع.

فقال ﷺ: **«هذا خير من ملء الأرض مثل هذا»**(١)

وهكذا أراد قائد الأمة أن يعلمهم أن هـذا الرجل الذى ازدرته أعينهم أفضل عند الله من مثل ملء الأرض مـن الآخر الذى وقع فى نفوسـهم موقع الإجلال والتـقدير. ولذلك فطن السلف الصالح إلى هذا، فهذا هو:

• سعيد بن المسيب ... وعبد الله بن أبى وداعة •

قال أبو وداعة: كنت أجالس سعيد بن المسيـب فى حلقة الدرس، ففقدنى أيامًا فلما جئـته، قال لى: أين كـنت؟ قال له عبـد الله: توفيت زوجـتى، فاشتـغلت بها، فـقال له سعيد: هلا أخبرتنا فشهدناها.

يقول عبد الله: فلما أردت أن أقوم قال: هل أحدثت امرأة غيرها؟.

فقال: يرحمك الله، ومن يزوجنى وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة؟!.

قال سعيد: إن فعلت تفعل؟

قال: نعم. ثم حـمد الله وأثنى عليه، وصـلى على النبى ﷺ وزوجنى ابنته على درهمين وفى مساء ذلك اليوم إذا بالباب يقرع، فقلت: من بالباب؟.

قال: سعيد. قال عـبد الله: ففكرت فى كل إنسان أعرفه اسمه سعـيد إلا سعيد بن المسيب، فإنه لم يُر منذ أربعين سنة إلا ما بين بيتـه والمسجد، فقام وفتح الباب وظن أنه بدا له فى الأمر شيء، فقال له: فما تأمرنى؟

قال سعيد: رأيتك رجلاً عزبًا فكـرهت أن تبيت الليلة وحدك، وهذه زوجتك، فإذا هى قائمة خلفه فى طوله، ثم دفعها وردَّ الباب.

• والد الإمام أبى حنيفة والتفاحة •

وبينما رجل يمشـى فى إحدى طرقات مدينة الكوفـة بالعراق، إذا به يجد بسـتانًا قد رمى بتفاحـة خارج الأسوار، ومن شدة الجوع أخذ التـفاحة وأكل منها حتى أكل نـصفها، فتذكر أنه ليس له حق فيما يأكل، فأمسك عن النصف الآخر، ويذهب إلى حارس البستان ويقول له: أتسامحنى فيما أكلت؟

(١) رواه البخارى (٥٠٩١) وابن ماجه (٤١٢٠).

فيقول له الحارس: أنا لا أملك السماح لك، لأن البستان ليس ملكًا لى.

فقال له الرجل: فمن يملكه؟ فدله على صاحب البستان، فلما ذهب إليه وطرق الباب، وفتح له صاحب الحديقة، وقال له: ما اسمك؟.

قال: ثابت. قال: فيم جئتنا؟.

قال: أكلت نصف تفاحة، وها هو النصف الآخر، جئت بك، أتسامحنى فيما أكلت؟ فقال له صاحب البستان -وقد عرف فيه الورع والزهد- أسامحك بشرط فقال: ماهو؟ قال له: أن تتزوج ابنتى، ولكنى لا أغشك فى الزواج فإن ابنتى هذه عمياء العينين، صماء الأذنين، بكماء اللسان، قعيدة الرجلين لا تمشى، فإما أن تقبل زواجها، وإما لا سماح حتى أقف معك أمام الله الواحد الديان. فماذا يفعل الرجل أمام هذا الامتحان العسير؟! فقال: أتزوجها وأتاجر فيها مع الله رب العالمين، فقبل الزواج، وعقد العقد، وقال له: ليس لى بيت أدخل فيه فقال له أبوها: إذا صليت العشاء فسوف أدبر لك الأمر، وصلى الرجل العشاء، وجاء إلى غرفة الدخول، ولكن ماذا يفعل؟ فتح الباب عليها، وقال: سألقى عليها السلام، فإذا لم ترد فسوف ترد الملائكة.

فعندما دخل وألقى عليها السلام ردت عليه السلام، وقامت واقفة، وسلمت عليه بيدها، فإذا العينان سليمتان، والرجلان كذلك، والوجه كفلقة القمر، فأخذته الدهشة، فقالت له: لا تندهش، ولا تعجب، قال لها: لقد قال عنك أبوك كذا وكذا، فقالت: والله ما كذب أبى، فأنا عمياء العينين، لأننى لا أنظر بهما إلى ما يغضب الله ورسوله. وأما أننى صماء، فلأننى لا أسمع بأذنى إلا ما يرضى الله تعالى ورسوله. أما قوله عنى، بأننى خرساء بكماء، فلأن لسانى لا يتحرك إلا بذكر الله، وقراءة كتابه الكريم، وأما أننى مقعدة فلأننى ما مشيت برجلى إلا إلى بيت الله.

فبارك الله له فيها، وأنجبت له أبا حنيفة النعمان، أنجبت له إمامًا صار بعد ذلك ثلاثة أرباع العلم، أنجبت إمامًا ظل أربعين عامًا يصلى الفجر بوضوء العشاء.

• جواز عرض البنات على أهل الصلاح •

لقد كان السلف الصالح رضوان الله عليهم يعرضون بناتهم، أو أخواتهم على من ظهرت عليه علامات الصلاح والتقوى.

١- فها هو سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما تأيمت حفصة رضي الله عنها، ومات زوجها خنيس بن حذافة السهمى- متأثرًا بجراحة أصابته فى غزوة أحد، عرضها عمر على أبى بكر الصديق رضي الله عنه، فلم يجبه بشىء، وعرضها على عثمان، فقال له: بدا لى أن لا أتزوج اليوم، فوجد عليهما -أى حزن- وشكا حاله إلى النبى ﷺ فقال: تتزوج حفصة من هو خير من عثمان، ويتزوج عثمان من هى خير من حفصة، ثم خطبها رسول ﷺ،

فزوجه عمر[١] وزوج رسول الله عثمان بابنته رقية بعد وفاة أختها ولما زوجها عمر، لقيه أبو بكر، فاعتذر، وقال: «لا تجد عليَّ، فإن رسول الله ﷺ كان قد ذكر حفصة، فلم أكن لأفشي سره، ولو تركها لتزوجتها»[٢]

٢- ويحكى القرآن الكريم لنا قصة سيدنا موسى عليه السلام مع نبى الله شعيب بعدما سقى لأولاده الأغنام، عرض عليه أن يتزوج إحدى ابنتيه لما ظهر له أنه من المؤمنين الصالحين، قال له: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾ [القصص: ٢٧].

قال القرطبى:

فى المسألة السادسة: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ﴾ الآية. فيه عرض الولى ابنته على الرجل، وهذه سنة قائمة، فقد عرض صالح مدين ابنته على صالح بنى إسرائيل، وعرض عمر بن الخطاب ابنته حفصة على أبى بكر وعثمان، وعرضت الموهوبة نفسها على الرجل الصالح، اقتداء بالسلف الصالح[٣]

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاءت امرأة إلى النبى ﷺ تعرض عليه نفسها - أى ليتزوجها- قالت: يا رسول الله، ألك بى حاجة؟ فقالت ابنة أنس -وكانت حاضرة- ما أقل حياءها، واسوأتاه، فقال أنس لابنته: هى خير منك، رغبت فى النبى ﷺ، فعرضت عليه نفسها»[٤]

وفى هذا الحديث فوائد:

١- حسن أدب المرأة وبراعتها فى عرضها لمسألتها بأسلوب التلميح الذى أغنى عن التصريح بأسلوب مهذب يصون حياءها.

٢- أقرت الشريعة جواز هذا العرض، لذلك لم ينهها النبى ﷺ عن ذلك.

٣- عظيم خلق النبى الأكرم، وكمال أدبه حيث إنه قد اكتفى بالسكوت حرصًا على شعور المرأة، وعدم خجلها.

لطيفة:

قال بعض العلماء يكره نكاح الحنانة والمنانة، والأنانة، والحداقة، والبراقة، والمراض.

فالحنانة: التى لها ولد تحن إليه أو زوج تحبه من قبلك.

والمنانة: التى تمن على زوجها بما تفعله.

---

(١) رواه البخارى. (٢) رواه البخارى.

(٣) الجامع لأحكام القرآن المجلد ٥١٥٧/٧ ط دار الغد.

(٤) رواه البخارى (٥١٢٠) وابن ماجه (١ ٢٠).

والأنانة: كثيرة الأنين الكسلانة.

والحداقة: التى تسرق كل شىء بحدقتها، وتحب أن تطلع على كل شىء وتكلف زوجها.

والبراقة: التى تشتغل بتبريق وجهها ويديها ورجليها من تحمير وتبييض، وتنميق وتحسين والشراقة كثيرة الكلام قليلة الصمت.

والممراض: هى التى تتمارض غالب أوقاتها، وليس فيها مرض، إنما تهرب من العمل، أو من الاستمتاع بها، تحب النوم والراحة.

الوصية رقم (٣٢)
أدِّ الأمانة لمن ائتمنك

عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك»**(١).

صدق رسول الله ﷺ

• فى رحاب هذه الوصية •

أخى الحبيب:

ها هو المحدث العظيم، والصحابى الجليل سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه يأتينا ليحدثنا بوصية عن سيد البشر ﷺ، وهى وصية موجزة قليلة المبنى، عظيمة المعنى، لأنها أوصت بخلق عظيم من أخلاق الإسلام السامية، وقررت مبدأ من مبادئه التى تنشر المودة بين الناس، وتثبت فيهم روح المحبة، وتجعل العلاقة الاجتماعية بينهم قائمة على الثقة المتبادلة، والأخوة الخالصة، وتجعل كل إنسان يحافظ على حقوق غيره من المواطنين، فيعرف ما له، وما عليه، فتطمئن النفوس، وتسلم الأرواح والأموال والأعراض، أتدرى ما هذا الخلق العظيم؟ وما هو هذا المبدأ السامى؟ إنه خلق الأمانة، ولقد أوصانا رسول الإسلام سيدنا محمد ﷺ بهذا الخلق العظيم، وتلك الصفة القويمة بأمر فى غاية الإيجاز، وهو قوله: **«أدِّ»** ثم قابل هذا الأمر بنهى عن ضد هذا الخلق، فقال: **«ولا تخن»**.

---

(١) رواه الترمذى (١٢٦٤) وقال: حسن غريب، ورواه أحمد فى مسنده مطولاً (١٥٣٦٢) جـ ١٦٩/١٢ والحاكم وصححه ٤٦/٢ ووافقه الذهبى وقال الهيثمى فى المجمع: رواه الطبرانى فى الكبير والصغير ورجال الكبير ثقات (١٤٤/٤ - ١٤٥) ورواه أبو داود وصححه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود (٣٥٣٥) ٣٨١/٢

ولكى يتخلق الإنسان بهذا الخلق العظيم، لابـد أن يكون ذا ضمير يقظ، يحثه على فعل الخـيرات، واجتناب المنكرات، ويـدفعه إلى أن يؤدى ما عـليه من الواجبـات، فيؤدى ذلك بعزيمة صادقة، وهمة عالية، نتيجـة لهذه المراقبة لله عز وجل، هذه المراقبة التى تدعوه أن يؤدى واجبه على أكمل وجه، ولو نامت أعين الرقباء.

والوصيـة فيها دعوة صـريحة، وأمر واضح يحـثنا على أداء الأمانة إلى أصحـابها، وعدم معاقبة المسيئ بالسيئة، لأن الخيانة من طبع اللئام، وأهل الإيمان ليسوا كذلك، وحسن خلق المؤمن يحتم عليه ألا ينحدر بسلوكه إلى تصرفات اللئام المنافقين، لكن ما هى الأمانة؟ وما أنواعها؟.

• مفهوم الأمانة فى الإسلام •

الأمانة: هى ضد الخيانة.

قال الراغب: والأمن والأمان، والأمانة فى الأصل مصادر، ويجعل الأمان تارة اسمًا للحالة التى يكون عليها الإنسـان فى الأمن، وتارة لما يؤمن عليه الإنسان.

فهى إذن مأخـوذة من: (أمن يأمن أمنًا، وأمانًا، وأمانـة) بمعنى لم يخف، إذ الأمن ضد الخوف، وأخذت منـه الأمانة التى هى ضد الخيانة، لأن من كـان لديه خلق الأمانة لم يخف صاحب الحق منه على حقه، ولا صاحب الـعهد منه على عهده، بل يكون فى أمن وأمنة من جهته، ولذلك قال ابن منظور: الأمان والأمانة بمعنى...

وقال القرطبى:

الأمانة تعم جميع وظائف الدين.

ونسب هذا القـول لجمهور المفـسرين، فالأمانة هى الـفرائض التى ائتمن الله علـيها العباد، واختلف فى تفاصيل بعضها على أقوال:

فقيل: هى أمانات الأموال كالودائع وغيرها.

وقيل: فى كل الفرائض، وأشدها أمانة المال.

وقيل: من الأمانة أن ائتمنت المرأة على فرجها.

وقيل: الأمانة هى الصلاة، وكذلك الصيام.

وعلى ذلك فالفرج أمانة، والأذن أمانة، والعـين أمانة، والسان أمانة، والبطن أمانة، والرجل أمانة؟.

لذلك جاء الربط بين الأمانة والإيمان فى قوله ﷺ: «**لا إيمان لمن لا أمانة له**» فالأمانة تطلق على الـشيء المستأمن عـليه، كما تـطلق على الخلق النفـسى، أو السلوك، فتـسمى الوديعة أمانـة، ويجب ردها عند طلبها، والعـارية تسمى أمانة، ويجب ردها عنـد طلبها، وتقول للرجل: مالى أمانة عندك، أو بيـتى وأهلى أمانة عندك، وتقول لمعلم ولدك: ولدى

أمانة بين يديك، لذلك ورد ذكرها فى القرآن الكريم بصيغة الجمع قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨].

وقال جل شأنه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨].

كما تشمل كتمان السر، وإخلاص المشورة للمستشير، وصدق التبليغ فيما كلف الشخص أن يبلغه.

فالذى يستودعك سرًا واثق بك، مطمئن إلى كتمانك، فأنت سره الأمين.

والذى يستشيرك يفضى إليك بما فى نفسه، ويتوقع أن تبدى له رأيك صريحًا وإن خالفه، فإن فعلت فأنت أمين.

والذى يكلفك تبليغ خبر إلى آخر، فإذا ما نقلت الخبر كما هو فأنت أمين.

فالأمانة نطاقها واسع فى الإسلام تشمل حياته كلها.

• حث القرآن الكريم على أداء الأمانة •

ولقد حث القرآن الكريم على أداء الأمانة بعدما تحملها الإنسان لجهله بحقيقتها كما فى قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ [الأحزاب: ٧٢].

قال القرطبى:

قال تعالى لآدم: «يا آدم إنى عرضت الأمانة على السموات والأرض فلم تطقها فهل أنت حاملها بما فيها؟ فقال: وما فيها يارب؟ قال: إن حملتها أجرت، وإن ضيعتها عذبت، فاحتملها بما فيها، فلم يلبث فى الجنة إلا قدر ما بين صلاة الأولى إلى العصر حتى أخرجه الشيطان منها».

وعن الحسن: أن الأمانة عرضت على السموات والأرض والجبال. قالت: وما فيها؟ قيل لها: إن أحسنت جوزيت، وإن أسأت عوقبت فقالت: لا[1]

وقد يتبادر سؤال: كيف أبت السموات والأرض والجبال؟ وهل كان هذا الإباء مثل إبليس؟ وقد أجاب الإمام فخر الدين الرازى بقوله: لم يكن إباؤها كإباء إبليس فى قوله تعالى: ﴿أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٣١]. من وجهين:

أحدهما: أن السجود هناك كان فرضًا، والأمانة هاهنا كانت عرضًا.

ثانيهما: أن الإباء كان هناك استكبارًا، وهاهنا استصغارًا، استصغرت أنفسهن، بدليل قوله تعالى: ﴿وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾.

وكيف حملها الإنسان ولم تحملها هذه الأشياء؟ فيه جوابان:

---

(١) تفسير القرطبى ٨/ ٥٥٢٢، ٥٥٢٣.

أحدهما: بسبب جهله بما فيها وعلمهن. ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾.

الثاني: أن الأشياء نظرت إلى أنفسهن، فرأين ضعفهن فامتنعن، والإنسان نظر جانب المكلف، وقال: المودع عالم قادر لا يعرض الأمانة إلا على أهلها، وإذا أودع لا يتركها، بل يحفظها بعينه وعونه، فقبلها، وقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٤][1].

لما تحملها الإنسان أمره الله تعالى بأدائها، وحفظها، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا...﴾ وإن كان الأمر خاصًّا، إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فقد روى فى سبب نزولها ما يأتى: «لما دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح أغلق عثمان بن طلحة بن عبد الدار، وكان سادن الكعبة باب العكبة، وصعد السطح وأبى أن يدفع المفتاح إليه، وقال: لو علمت أنك رسول الله لم أمنعه، فلوى علىٌّ بن أبى طالب رضي الله عنه يده، وأخذه منه وفتح، ودخل رسول الله ﷺ وصلى ركعتين، فلما خرج سأله العباس رضي الله عنه أن يعطيه المفتاح، ويجمع له السقاية والسدانة، فنزلت هذه الآية، فأمر عليًّا أن يرده إلى عثمان ويعتذر إليه، فقال عثمان لعلى بن أبى طالب: أكرهت وآذيت ثم جئت ترفق، فقال له: لقد أنزل الله فى شأنك قرآنًا، وقرأ عليه الآية، فقال عثمان: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فهبط جبريل عليه السلام، وأخبر الرسول ﷺ أن السدانة فى أولاد عثمان أبدًا [2]. وفى رواية أن النبى ﷺ قال لعثمان: **«هاك خالدة تالدة لا ينزعها منك إلا ظالم»**[3].

ثم يقول الإمام الفخر الرازى بعد أن ذكر هذه القصة:

واعلم أن نزول هذه الآية عند هذه القصة لا يوجب كونها مخصوصة بهذه القضية، بل تدخل فيها جميع أنواع الأمانات»[4].

فهو كما قلنا العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ولقد مدح الله المؤمنين الصادقين، وبين أن الفلاح غنيمتهم، والفوز نصيبهم فى هذه الدنيا، أما عند الله فهو الفردوس الأعلى، والنعيم الأوفى، والعيش الرخى، والخلود الدائم، فاسمع إليه وهو يحدثك عن أوصافهم، ويمدح أخلاقهم، ويعدد فضائلهم، ويذكر أسباب نجاحهم، فيقول سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥

(١) التفسير الكبير للفخر الرازى ٢٤/ ٦٢٨
(٢) المرجع السابق ٩/ ٢٥٩ وأسباب النزول للواحدى ص١٣٠، ١٣١ ط/ دار الحديث وابن كثير ١/ ٥٦٤.
(٣) ذكره الهيثمى فى المجمع ٣/ ٢٨٥ والطبرانى فى الكبير (١١٢٣٤).
(٤) تفسير الفخر الرازى ٩/ ٢٦٠.

إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١: ١١] وقد مدحهم في موضع آخر، وبين جزاءهم العظيم، فقال جل شأنه: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ [المعارج: ٣٢: ٣٥].

ثم حذر القرآن الكريم من الخيانة، فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧] فتأمل إنه يناديهم بنداء الإيمان، ناداهم لينهاهم عن الخيانة، وهى أمر خطير لا تليق بالمؤمن، وإنما هى للمنافقين، الذين يظهرون خلاف ما يبطنون، ولذلك يقول: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أى عظم جريمة الخيانة وآثارها السيئة على النفس والمجتمع معًا، وقد بين أن السبب الذى تتأتى منه الخيانة ربما يكون فى غالب الأمر حب المال والولد، وهو حب فطرى إذا لم يقاومه العبد بالخوف من الله تعالى، وبمراقبته تعالى، ولذلك عقب على هذا النداء بقوله ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢٨] وهذا تنبيه لهم على أن تركهم ما تدعوهم إليه أنفسهم من خيانة الأمانة لأجل الحفاظ على أموالهم، وإسعاد أولادهم عند الله ما هو خير منه، وهو الجنة.

فإن تركوا ما تدعو إليه نفوسهم، إلى ما يدعوهم إليه ربهم سبحانه وتعالى، فإن الله يجزيهم بأعظم جزاء، فمن ترك شيئًا من أمور دنياه عوضه الله خيرًا منه فى دنياه وأخراه.

• أنواع الأمانات •

يقول الإمام الرازى:

واعلم أن معاملة الإنسان، إما أن تكون مع ربه، أو مع سائر العباد، أو مع نفسه، ولابد من رعاية الأمانة فى جميع هذه الأقسام الثلاثة(١).

فيتبين لنا من كلامه أن الأمانة تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

١ - أمانة مع الله تعالى:

فكيف تكون الأمانة مع الله تعالى؟ تكون الأمانة مع الله تعالى بفعل المأمورات، وترك المنهيات، تكون بطاعته سبحانه وتعالى فيما أمر، تكون برعاية ما خلقت من أجله وأنت ما خلقت إلا لعبادته سبحانه وتعالى وتوحيده، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ

(١) المرجع السابق ٩/ ٢٦٠

﴿الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦: ٥٨] تكون أمينًا مع مولاك إذا ما أديت الشرائع والشعائر كما أمرك **﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾** [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣] قال ابن مسعود رضي الله عنه: الأمانة فى كل شىء لازمة فى الوضوء والجنابة، والصلاة، والزكاة، والصوم. ولذلك وعد النبى ﷺ من يقوم بأداء هذه الأمانة مع ربه بالجنة، والنعيم يوم القيامة.

فعن أبى الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«خمس من جاء بهن مع إيمان دخل الجنة: من حافظ على الصلوات الخمس، على وضوئهن، وركوعهن، وسجودهن، ومواقيتهن، وصام رمضان، وحج البيت إن استطاع إليه سبيلاً، وأعطى الزكاة طيبة بها نفسه وأدى الأمانة قالوا: يا أبا الدرداء: وما أداء الأمانة؟ قال: الغسل من الجنابة»**[١] فكل هذه العبادات أمانة، حتى الغسل من الجنابة أمانة يعتبر من الأمانة مع الله تعالى والحديث الذى رواه سعيد بن المسيب رحمه الله عن سمرة بن جندب رضي الله عنه وقد جاء فيه: **«ورأيت رجلاً من أمتى قد بسط عليه عذاب القبر، فجاءه وضوؤه فاستنقذه من ذلك... ورأيت رجلاً من أمتى، ورأيت النبيين جلوسًا حلقًا حلقًا وكلما دنا إلى حلقة طرد، فجاءه غسله من الجنابة، فأخذ بيده، فأقعده إلى جنبى...»**[٢].

إذا اعترفت لخالقك بالربوبية والوحدانية، فأنت قد أديت الأمانة، أما إذا خنت فطرتك التى فطرك عليها، لأنه قد فطرك على توحيده، ولذلك يقول سبحانه فى الحديث القدسى الذى رواه مسلم عن عياض المجاشعى: **«وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم، وأنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بى، مالم أنزل به سلطانًا»**[٣] فتكون حينئذ خائنًا للأمانة، لأنك نقضت العهد مع مولاك، العهد الذى أخذه عليك وأنت فى عالم الذر، فى المراحل الأولى لبداية تكوينك، قبل أن تخرج إلى هذا العالم، قال سبحانه: **﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ﴾** [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣].

٢- أمانة مع الناس:

فكيف تكون الأمانة مع الناس؟ وما هى صورها؟.

---

(١) رواه أبو داود وحسنه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود (٤٢٩) جـ١/ ١٢٦، ١٢٧ وقال الهيثمى فى المجمع: رواه الطبرانى فى الكبير وإسناده حسن.

(٢) رواه الحافظ أبو موسى المدينى، وقال: هذا حديث حسن جدا قاله ابن القيم فى الوابل الصيب ص١١٣

(٣) رواه مسلم.

والأمانة مع الناس هى الاعتراف لأصحاب الحقوق بحقوقهم، وحفظها ورعايتها لهم، وأداؤها إليهم غير منقوصة، وعدم التعرض لها بعدوان، أو ظلم، أو هضم، وهذه الحقوق أنواع كثيرة: مادية، ومعنوية، ولها صور مختلفة، ولكل نوع من تلك الحقوق أمانة تتناسب معه:

أ- حقوق الأموال:

وتشمل: **الودائع**، ويكون أداؤها بحفظها، ورعايتها، وتأديتها لأصحابها بأعيانها إذا كانت أعيانًا ، وبأوصافها التامة إذا كانت موصوفة فى الذمة.

ولذلك نرى سيد الأمناء محمدًا ﷺ لما هاجر إلى المدينة ترك عليًّا ينام فى فراشه، أتدرى لماذا؟ هل كان نوم علىٍّ بغير الأقدار؟!.

لا ، ولكنه تركه لكى يؤدى الأمانات التى كانت عنده لمشركى مكة، وكان من الممكن أن يفجعهم فيها، وهم الذين آذوه، ودبروا لقتله وطردوه، ومع ذلك ردَّ لهم الأمانات.

يقول ميمون بن مهران: «ثلاثة يؤدين إلى البر والفاجر: الأمانة، والعهد، وصلة الرحم»[(١)] والمماطلة فى الدين مع القدرة على أدائه خيانة لقوله ﷺ: «**مطل الغنى ظلم**»[(٢)] وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله**»[(٣)]

ب- الأعراض:

وتكون بعدم التعرض لها بمكروه، ولها صور متعددة، فالغيبة والنميمة تعتبر خيانة لذلك يقول النبى ﷺ: «**المسلم أخو المسلم لا يخونه ولا يكذبه ولا يخذله كل المسلم على المسلم حرام**»[(٤)] وقد عرف الرسول المؤمن والمسلم، فقال: «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمؤمن من أمن الناس بوائقه. قيل: وما بوائقه؟ قال: شره وأذاه**»[(٥)] وأعظم خيانة هى الزنا، وقذف المحصنات المؤمنات.

ج- الأسرار:

فلو حدثك شخص ما بحديث بينك وبينه فهذا أمانة، ولذلك يقول النبى ﷺ كما فى حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه «**إذا حدث الرجل الحديث ثم التفت فهى أمانة**»[(٦)].

ومن صور الأمانة أن تحفظ حقوق المجالس التى تشارك فيها، فلا تدع لسانك يفشى أسرارها، ويسرد أخبارها، فعليك أن تصونها ما دامت هذه المجالس مبنية على قوانين الأدب وشرائع الدين، وإلا فليست لها حرمة.

---

(١) ذكره أبو نعيم فى الحلية ٤/ ٨٧ بإسناد صحيح مطولا وذكره الخرائطى فى المساوئ (٤١٤) ص١٥٨

(٢) رواه البخارى (٢٢٨٧) ومسلم (١٥٦٤).

(٣) رواه البخارى.

(٤) رواه الترمذى (١٩٢٧) وقال: حسن غريب وذكره الألبانى فى ص.ج (٦٧٠٦).

(٥) رواه البخارى ومسلم.

(٦) رواه الترمذى وذكره الألبانى فى ص.ج (٤٨٦).

وقد جعل الإسلام لـلحياة الزوجية قداستـها، فجعل إفشاء سر الزوج خـيانة، فعن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها أنها كانت عند رسول الله ﷺ، والرجال والنساء قعود عنده، فقال: **«لعلَّ رجلاً يقول ما يفعل بأهله، ولعل امرأة تخبر بما فعلت مع زوجها؟»** فأرم القوم، فقلت: إي والله يا رسول الله إنهن ليقلن، وإنهم ليفعلون، قال: **«فلا تفعلوا فإنما ذلك مثل الشيطان لقي شيطانة في طريق فغشيها والناس ينظرون»**(١) وهذا أمر خطير لأنه غالبًا ما يحدث بين نساء العصر في مواقع الأعمال ولذلك اعتبره الرسول ﷺ من أعظم الأمانة، فقال ﷺ في الحديث الذي رواه عنه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: **«إنَّ من أعظم الأمانة عند الله يوم القيامة الرجل يفضي إلى امرأته، وتفضي إليه ثم ينشرها»**(٢)

د- في الأعمال المسندة إلى صاحبها:

فتعتبر الوظيفة التي تعمل فيها أمانة **«كلكم راع ومسئول عن رعيته، فالإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع في أهله، وهو مسئول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها، والخادم في مال سيده راع، وهو مسئول عن رعيته»**(٣).

وهذا هو صحابي جليل هو سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: كنت أرعى لعقبة ابن أبي معيط، فمرَّ بي رسول الله ﷺ وأبو بكر، فقال: **«هل من لبن؟ قال: قلت: نعم، ولكني مؤتمن ....»**(٤) فرفض عبد الله أن يسقيهم لأنه أمين على هذا العمل.

ومن الأمانة ألا يستغل الرجل منصبه الذي عين فيه، لجر منفعة إلى شخصه أو قرابته، فإن التشبع من المال العام جريمة عظمى، لأنه إذا اكتسب من وراء ذلك مالاً فهو سحت.

قال ﷺ: **«من استعملناه على عمل فرزقناه رزقًا، فما أخذ بعد ذلك فهو غلول»**(٥) والله تعالى يقول: ﴿**وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ**﴾ [آل عمران: ١٦١].

وقد شدد الإسلام في ضرورة عن استغلال النفوذ، كما شدد في رفض المكاسب التي تأتي من طريق النفوذ أو المنصب، فعن عدي بن عميرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من استعملناه منكم على عمل فكتمنا مخيطًا فما فوق كان غلولاً يأتي به يوم القيامة، فقام إليه رجل أسود -من الأنصار- كأني أنظر،فقال: يا رسول الله، اقبل عني**

(١) رواه أحمد في مسنده (٢٧٥٥) ١٨/ ٥٩٤ بإسناد حسن.

(٢) رواه أحمد في مسنده (١١٥٩٥) ١١/ ٢١٧ وحسنه حمزة الزين وقال: يتقوى بما رواه مسلم ٢/ ١٠٦٠ رقم ١٤٣٧ في النكاح تحريم إفشاء سر المرأة، وضعفه الألباني في سنن أبي داود.

(٣) رواه البخاري.

(٤) رواه أحمد في مسنده بإسناد صحيح وتخرج في موضع آخر.

(٥) رواه أبو داود بإسناد حسن.

عملك!! قال: وما لك؟ قال: سمعتك تقول: كذا وكذا. قال: وأنا أقوله الآن: من استعملناه منكم على عمل فليجئ بقليله وكثيره، فما أوتى منه أخذ وما نهى عنه انتهى»[١].

وحدث أن استعمل النبى ﷺ رجلاً من الأزد، يقال له: ابن التبينة، على الصدقة، فلما قدم بها، قال: هذا لكم، وهذا أهدى إلىّ.

قال راوى الحديث: فقام رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: **«أما بعد: فإنى أستعمل الرجل منكم على العمل مما ولانى الله فيأتى فيقول: هذا لكم، وهذا هدية أهديت إلىّ. أفلا جلس فى بيت أبيه وأمه حتى تأتيه هديته إن كان صادقًا؟! والله لا يأخذ أحد منكم شيئًا بغير حقه إلا لقى الله يحمله يوم القيامة! فلا أعرفن أحداً منكم لقى الله يحمل بعيراً له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تيعر، ثم رفع يديه حتى رئى بياض إبطيه، يقول: اللهم هل بلغت!!»**[٢].

كذلك من الأمانة فى تولى الأعمال أن يكون الرجل جديراً بهذه الوظيفة، لائقًا بها، فلا يسند منصب إلا لصاحبه الحقيق به، ولا تملأ وظيفة إلا بالرجل الذى ترفعه كفايته العلمية أو العملية، التى تؤهله إليها، فعن أبى ذر رضي الله عنه قال: قلت يارسول الله ألا تستعملنى؟ قال: فضرب بيده على منكبى، ثم قال: **«يا أبا ذر، إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزى وندامة، إلا من أخذها بحقها، وأدى الذى عليه فيها»**[٣]. ألم تر إلى يوسف عليه السلام، فإنه لم يرشح نفسه لإدارة شئون وزارة المالية والتموين بنبوته وتقواه فحسب، بل بحفظه وعلمه، ﴿**قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ**﴾ [يوسف: ٥٥] لكن أبا ذر لما طلب الولاية لم يره الرسول جلدًا فحذره منها.

هـ- ترك التطفيف فى الكيل والوزن:

فإذا كان المسلم تاجراً يبيع السلع فعليه أن يبين ما فيها من عيوب، لأن ذلك أمانة، إذا لم يبينها كان خائنًا للأمانة، يقول ﷺ: **«من باع عيبًا لم يبينه لم يزل فى مقت الله، ولم تزل الملائكة تلعنه»**[٤].

و- الشهادة أمام القضاء أمانة:

فإن زور شهادته فقد خان الأمانة، وإن كتمها فقد خان الأمانة.

وكما يقول الفخر الرازى: واعلم أن هذا باب واسع.

---

(١) رواه مسلم (١٨٣٣).

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه ابن ماجه بإسناد لا بأس به.

النوع الثالث: الأمانة مع النفس:

أخي الحبيب:

عيناك وما تبصر بهما، وما تغمز وما تغرى، وما تتجمل، وما تفعل أى شيء بهما، وأذناك وما تسمع بهما، وفمك، وأنفك، وبطنك، ويداك، ورجلاك، وما بينهما، وسائر جوارحك الظاهرة، وما تفعل بها أمانة.

فإن استعملتها فى طاعة الله خالقك ومالكك، ومالك كل شيء فى الكون، كنت أمينًا راعياً للأمانة، حافظًا لها، وساعتها تكون قد قدمت الدليل التجريبى على أنك تتحلى بخلق الأمانة.

وإن استعملتها فى معصية الله، وفى غير ما أذن الله لك بأن تستعملها فيه كنت خائنًا، غير راع للأمانة، ولا حافظ لها.

إن ما تسرقه وما تنهبه وتبطش به، أو تتجسسه أو تتلذذ به مما لا حق لك فيه خيانة وما تستخدم لسانك فيه، وفمك من كذب وافتراء وغيبة ونميمة، فهو من الخيانة المناقضة للأمانة. وما تفعل بعينك مما لم يأذن به الله، وما تضمر مع ذلك فى صدرك، فهو من خيانة الأعين، وخيانة الصدور، واذكر أن ربك الخالق المالك الرقيب عليك ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

أخي الحبيب:

اعلم أن ذاتك هى ملك خالقك، وليس من حقك أن تؤذى نفسك، أو تقتلها منتحرًا، أو تقطع أى عضو من أعضائك، أو تفسده دون إذن من الخالق المالك جل وعلا.

وليس من حقك أن تتناول طعامًا أو شرابًا يضر ببدنك، ويفسد جسدك.

وسوف تُسأل عنها يوم القيامة وتشهد عليك هذه الأعضاء ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤] ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [فصلت: ٢٠، ٢١].

• تضييع الأمانة من علامات الساعة •

أخي الحبيب:

إن تضييع الأمانة من علامات الساعة بنص أحاديث النبى المصطفى ﷺ عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: بينما كان النبى ﷺ يحدث إذ جاءه أعرابى فقال: متى الساعة؟ فمضى رسول الله ﷺ، فقال بعض القوم: سمع ما قال فكره ما قال، وقال بعضهم: بل لم يسمع، حتى إذا قضى حديثه قال: «**أين أُرَاه السائل عن الساعة؟ قال: ها أنا يا رسول الله. قال: فإذا ضيعت الأمانة، فانتظر الساعة**».

قال: كيف إضاعتها؟ قال: **«إذا وسد الأمر لغير أهله فانتظر الساعة»**[١].

وفى حديث آخر يقسم الرسول ﷺ لتأكيد أن تضييع الأمانة من علامات الساعة، فيقول: **«إنَّ الله يبغض الفحش والتفحش، والذى نفس محمد بيده لا تقوم الساعة حتى يخون الأمين، ويؤتمن الخائن حتى يظهر الفحش والتفحش وقطيعة الأرحام، وسوء الجوار...»**[٢]

ولقد أشار النبى ﷺ وأخبرنا عن زمن يأتى على الناس فترفع فيه الأمانة من جذور قلوب الرجال، وذلك إذا فسدت فطرتهم التى فطرهم الله عليها، فيقول فى الحديث الذى يرويه عنه كاتم سر النبى ﷺ سيدنا حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: فقال: حدثنا رسول الله ﷺ حديثين، فقد رأيت أحدهما، وأنا أنتظر الآخر.

حدثنا: **«إنَّ الأمانة نزلت فى جذور قلوب الرجال، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن، وعلموا من السنة»** ثم حدثنا رسول الله عن رفع الأمانة فقال: **«ينام الرجل فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل الوكت، ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل المجل، كجمر دحرجته على رجلك فنفط، فتراه منتبراً، وليس فيه شىء»**.

ثم أخذ رسول الله حصى، فدحرجه على رجله، ثم قال: **«فيصبح الناس يتبايعون، فلا يكاد أحد يؤدى الأمانة، حتى يقال: إنَّ فى بنى فلان رجلاً أميناً، حتى يقال للرجل: ما أجلده! ما أظرفه! ما أعقله! وما فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان»**[٣]

الوكت: الأثر اليسير القليل فى الشىء، كالنقطة التى تكون فى الشىء على غير لونه.

مثل المجل: المْجَلَ والمَجْل والمُجُول هو ما يحدث فى الجلد من تنفط إذا أصابته نار، أو مشقة من عمل، فيجتمع ماء من الجسم تحت الجلد الذى تنفط.

ويرتفع منتبراً - أى منفصلاً عما تحته من اللحم.

وفى الحديث أمور منها:

١- أن الأمانة فطرة فطر الله الناس عليها، وتلك الفطرة تتفق ولا تختلف مع كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

٢- سوف يأتى زمان على الناس تفسد فيه هذه الفطرة حتى لا يبقى منها إلا مظاهر خداعة فارغة وتفسد هذه الفطرة بما تصيبهم الأهواء والملذات، فينتشر الرياء والنفاق.

---

(١) رواه البخارى.

(٢) رواه أحمد فى مسنده (٦٨٧٢) بإسناد صحيح.

(٣) رواه البخارى ومسلم وأحمد فى مسنده (٢٣١٤٨).

٣- أنه كان من وسائل التربية النبوية العملية والتوضيحية حيث التشبيه بالحسيات.

١- أمانة الأنبياء

١- سيد الأمناء سيدنا محمد ﷺ

أخا الإسلام:

لقد جاء رسول الإسلام سيدنا محمد ﷺ بالأمانة فى مبعثه، بل وقبل بعثته، بل ومنذ صباه كان يلقب بالصادق الأمين ﷺ.

١- وتأمل شهادة جعفر أمام ملك الحبشة فقد جاء فيها: «أيها الملك كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتى الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيئ الجوار، ويأكل القوى منا الضعيف، وكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه، وصدقه، وأمانته، وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه، من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء...».

هذا هو كلام جعفر بن أبى طالب رضي الله عنه فيروى لنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

٢- أن هرقل ردَّ على أبى سفيان فقال له: «سألتك ماذا يأمركم. فزعمت أنه يأمر بالصلاة والصدق والعفاف، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة. قال: وهذه صفة نبى»(٢)

ولا شك أن أعظم مظهر من مظاهر أمانته ﷺ هو نهوضه بتبليغ الرسالة التى ائتمنه الله عليها، وكلفه أن يقوم بها، فبلغها للناس أعظم ما يكون التبليغ، وقام بأدائها أعظم ما يكون الأداء، واحتمل فى سبيلها أشق ما يحتمله بشر.

وقد عرف العرب أمانة الرسول ﷺ قبل بعثته، فكانوا يسمونه بالأمين ولهذا رحبوا بتحكيمه فيما كان بينهم من نزاع، وارتضوا ما قضى به، وكان سنه آنذاك خمسًا وثلاثين سنة - أى قبل بعثته بخمس سنوات.

فقد هدمت قريش الكعبة ليجددوا بناءها، ولما جمعوا الحجارة، وقاموا بالبناء حتى بلغ هذا البنيان موضع الركن -الحجر الأسود- حينئذ اختصموا وتنازعوا فكل قبيلة تود أن ترفعه دون الأخرى، حتى كادوا يتقاتلون، فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة بالدم، وأدخلوا أيديهم فيها، ثم تعاقدوا على الموت. فسموا لعقة الدم، ومكثوا على ذلك أربع ليال أو خمسًا، ثم أشار أحدهم بأن يحكموا بينهم أول من يدخل من باب الكعبة،

فرضوا، فكان أول داخل عليهم رسـول الله ﷺ، فلما رأوه قالـوا: هـذا الأمـين، رضـينا حكمه، هذا محمد . . »[1]

٣- جاء رجل إلى النبى ﷺ يسأله، فقال: «**اجلس سيرزقك الله**» ثم جاء آخر، ثم ثالث، فقال لهم: اجلسوا. فجاء رابع بأربع أواق، وقال: يا رسول الله، إنّ هذه صدقة.

فدعا الرسول ﷺ الرجل الأول فأعـطاه أوقية، ودعا الثـانى فأعطاه أوقيـة، ودعا الثالث، فأعطاه أوقـية، وبقيت معه أوقية واحـدة، فعرض بها للقوم، فمـا قام أحد. فلما كان الليل وضعـها تحت رأسه، فجعل لا يأخـذه النوم، فيرجع ويصلى، فقـالت له السيدة عائشـة: يا رسول الله، هل بـك شىء؟ قال: «لا» قالت: أجاءك أمـر من الله؟ قال: لا. قالت: إنك صنعت الليلة شيئًا لم تكن تفعله.

فأخرج الأوقية، وقال: «**هذه التى فعلت بى ما ترين، إنى خشيت أن يحدث أمر من الله، ولم أمضها**»[2]

٢- أمانة سيدنا يوسف عليه السلام

إن جميع أنبياء الله تعالى اتصفوا بالأمانة، وعملوا بها، لأنهم لو لم يكونوا أمناء لما اختـارهم الله لرسالته، ولكان اخـتيارهم للـرسالة عبثًـا، وهو محال على الله تـعالى ومن هؤلاء الأنبياء على سبيل المثال: سيدنا يوسف عليه السلام.

وقد كان سـيدنا يوسف عليه السلام أمينًا مع امـرأة العزيز، فلم يخن الـعزيز حين راودته زليخا فقد كان رده عليها: ﴿**مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ**﴾ [يوسف: ٢٣] لم يخن سيـده، وعلل ذلك بأن الله لم يكتب الفلاح لـلظالمين، والخيانة ظلم للـغير، وظلم للنفس، وخيانة لـها، ألم نقل: إن الفرج أمانة، وأداء هذه الأمانة يكون باستـعمالها فى الأمور التى أحلها الله تعالى وأباحها، ألم نبين أن الله سبحانه كتب الفلاح للمؤمنين فى سورة «المؤمنون»؟!

وفى النهـاية تجىء امـرأة العزيز وتـبرئ ساحـة يوسف من الخـيانة، وتـقول ﴿**الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ**﴾ [يوسف: ٥١، ٥٢].

ولقد كان أمينًا مع صاحبيه فى السجن حـين عبر لهما عن الرؤيا، فالعلماء يقولون: إن تعبير الرؤيا كمن جاء يستفتى عن حكم شرعى، فإن كان عالمًا بالفتوى أفتاه، وإلا أصبح خائنًا لأمانة العلم، وكذلك الرؤيا.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ١٢٩ بتصرف دار الفجر.

(٢) من أخلاق النبى صلى الله عليه وسلم ص١٤٦ د/ أحمد الحوفى دار النهضة.

٣- أمانة سيدنا موسى عليه السلام

يقول الشيخ الغزالي:

وكذلك شوهدت مخايل الأمانة على موسى عليه السلام حين سقى لابنتي الرجل الصالح، ورفق بهما، واحترم أنوثتهما، وكان معهما عفيفًا شريفًا: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤](١).

فلما عادتا إلى أبيهما، وعلم ما كان منه، أمر إحداهما بأن تذهب إلى موسى عليه السلام لكي تستدعيه ليقدم له الشكر، فلما حضرت إليه، وجدت موسى عليه السلام ما زال يجلس في مكانه، في ظل شجرة، فقالت له بأدب جم: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص: ٢٥] فقام معها ليذهب إلى النبي الصالح شعيب عليه السلام فلما سارت أمامه لتدله على الطريق خشي موسى عليه السلام أن يعبث الهواء بثيابها فيكشف عن ساقيها، فينظر إليها موسى عليه السلام. ألم نقل إن النظر بالعين أمانة؟!.

فطلب موسى منها أن تسير خلفه فإذا كان المكان المحدد عند البيت، عليها أن ترمي بحصاة أمامه، فيعرف، فلما جاءت إلى أبيها وصفته بالأمانة قائلة: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

٤- أمانة شعيب عليه السلام

وهذا هو نبي الله شعيب عليه السلام يتلطف مع قومه في تبليغ الدعوة إليهم، فيقول لهم بأسلوب رقيق: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٧٧، ١٧٨] وكان قومه تجارًا يكيلون ويزنون، والبيع والشراء كما أشرنا أمانة، ونقص الوزن، والتطفيف خيانة وإذا به ينصحهم ويقول لهم: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الشعراء: ١٨١: ١٨٣] وكأنه يريد أن يقول لهم: التزموا بالأمانة، فقليل من الحلال، خير من كثير من الحرام. ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٨٦].

٢- أمانة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم

١ – أمانة أبي بكر الصديق:

لقد كان جميع أصحاب رسول الله ﷺ أمناء أوفياء، ومنهم سيدنا أبو بكر، صديق هذه الأمة، ولقد بلغ من أمانته رضي الله عنه أن نراه وهو على فراش الموت يحتضر، يستدعي ابنته

(١) خلق المسلم للشيخ محمد الغزالي ص٣٠ دار الريان.

عائشة ﵂، ويقول لها: يا عائشة، انظرى اللقحة (الناقة) التى كنا نشرب من لبنها ، والجفنة التى كنا نصطبغ فيها، والقطيفة التى كنا نلبسها، فإنا كنا ننتفع بذلك حين كنا نلى أمر المسلمين، فإذا مت فرديه إلى عمر بن الخطاب، فلما مات أرسلت بهذه الأشياء إلى عمر، فقال: رحمك الله يا أبا بكر. لقد أتعبت من جاء بعدك(١).

وفى عهد الرسول ﷺ لما تأيمت حفصة بنت عمر بن الخطاب من خنيس بن حذافة السهمى، فقال عمر: «أتيت عثمان بن عفان فعرضت عليه حفصة، فقال: سأنظر فى أمرى، فلبث ليالى، ثم لقينى فقال: قد بدا لى أن لا أتزوج يومى هذا.

قال عمر: فلقيت أبا بكر، فقلت: إن شئت زوجتك حفصة، فصمت أبو بكر، فلم يرجع أى لم يرد علىَّ بشىء، وكنت أوجد عليه منى على عثمان، فلبثت ليالى ثم خطبها رسول الله فأنكحتها إياه، فلقينى أبو بكر، فقال: لعلك وجدت علىَّ حين عرضت علىَّ حفصة، فلم أرجع إليك شيئًا. فقال عمر: قلت: نعم. قال أبو بكر: فإنه لم يمنعنى أن أرجع إليك فيما عرضت علىَّ إلا أنى كنت قد علمت أن رسول الله ﷺ قد ذكرها، فلم أكن لأفشى سر رسول الله ﷺ ولو تركها رسول الله ﷺ قبلتها»(٢)

٢- أمانة عمر بن الخطاب ﵁:-

-ولو تتبعنا أمانة كل واحد منهم على سبيل الحصر ما وسعنا هذا المقام لكننا نقطف من ثمرات من بستان حياتهم.

فهذا موقف لعمر إن دل على شىء، فإنما يدل على أمانته وورعه:

قدم على عمر بن الخطاب مسك وعنبر من البحرين، فقال عمر: والله لوددت أنى وجدت امرأة حسنة الوزن تزن لى هذا الطيب، حتى أقسمه بين المسلمين، فقالت له امرأته عاتكة بنت زيد: أنا جيدة الوزن، فهلم أزن لك. قال: لا قالت له: لم؟ قال: إنى أخشى أن تأخذيه فتجعليه هكذا: وأدخل أصابعه فى صدغيه، وتمسحين عنقك، فأصيب فضلاً على المسلمين(٣).

وقد شبهه سيدنا على بن أبى طالب بسيدنا موسى ﵇، حين قالت عنه ابنة شعيب ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

فعن أبى بكر العبسى قال: دخلت حين الصدقة مع عمر بن الخطاب، وعثمان، وعلى بن أبى طالب فجلس عثمان فى الظل، وقام علىٌّ على رأسه يملى عليه ما يقول عمر، وعمر قائم فى الشمس فى يوم شديد الحر، عليه بردتان سوداوان، متزر بواحدة، وقد وضع الأخرى على رأسه، وهو يتفقد إبل الصدقة، فيكتب ألوانها، وأسنانها، فقال

(١) ذكره ابن سعد فى الطبقات ٣/ ١٩٢ بإسناد صحيح.

(٢) حلية الأولياء لأبى نعيم ١/ ٣٦١ وقد رواه أحمد وابن حبان والنسائى بإسناد صحيح.

(٣) رواه ابن أبى الدنيا فى الورع وأحمد فى الزهد ص١٤٨ وهو حسن لغيره.

عليٌّ لعثمان: أما سمعت قول ابنة شعيب فى كتاب الله عز وجل: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦] وأشار عليٌّ بيده إلى عمر، وقال: هذا هو القوى المتين[١].

وعن عبد الرحمن الأشعرى، أنه خرج إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فنزل عليه، وكان لعمر ناقة يحلبها، فانطلق غلامه ذات يوم فسقاه لبنًا فأنكره، فقال: ويحك من أين هذا اللبن؟.

قال: يا أمير المؤمنين، إنّ الناقة انفلت عليها ولدها، فشرب لبنها، فحلبت لك ناقة من مال الله، فقال عمر: ويحك سقيتنى نارًا! ادع لى عليًّا بن أبى طالب، قال: فدعاه، فقال: إنَّ هذا عمد إلى ناقة من مال الله، فسقانى لبنها أفتحله لى؟ قال: نعم، يا أمير المؤمنين هو حلال لك ولحمها[٢].

٣- أمانة علىٍّ بن أبى طالب رضي الله عنه:

وهذا هو سيدنا على بن أبى طالب سليل بيت النبوة، وابن عم رسول الله ﷺ ، فقد كان إمامًا أمينًا، ومن أمانته: ما رواه على بن ربيعة الوالبى، قال: إنَّ عليًّا بن أبى طالب قد جاءه ابن النباج، فقال: يا أمير المؤمنين، امتلأ بيت مال المسلمين: من صفراء، وبيضاء، فقال: الله أكبر!!.

فقام متوكئًا على ابن النباج حتى قام على بيت مال المسلمين، فقال:

هذا جناى وخياره فيه وكل جان يده إلى فيه

يابن النباج، علىَّ بأشياع الكوفة، قال: فنودى فى الناس، فوزع جميع ما فى بيت مال المسلمين، وهو يقول: يا صفراء ويا بيضاء غرى غيرى هاوها. حقى ما بقى منه دينار ولا درهم، ثم أمره بنضجه، وصلى فيه ركعتين[٣].

ويروى أنه كان فى بيت مال المسلمين عقد جميل من اللؤلؤ، فعلمت به ابنة سيدنا على رضي الله عنه فأرادت أن تتزين به فى عيد الأضحى، فأرسلت إلى علىٍّ بن رافع خازن بيت المال تطلب منه أن يعيرها ذلك العقد تتزين به فى العيد، ثم ترده بعد ثلاثة أيام، فأرسل إليها خازن بيت المال العقد بعد أن استوثق منها أنها ترده.

فلما لبسته وتزينت به رآه عليها أمير المؤمنين، فعرفه، فقال لها: من أين جاء إليك هذا العقد؟.

قالت: استعرته من أبى رافع لأتزين به فى العيد، ثم أرده.

فأرسل علىٌّ رضي الله عنه إلى الخازن، فلما جاءه، قال له: أتخون المسلمين يابن رافع؟ فقال والدهشة تَعلو وجهه: معاذ الله أن أخون المسلمين يا أمير المؤمنين!!.

(١) أسد الغابة لابن الأثير ٣/ ٣٣٧ ومختصر تاريخ دمشق لابن عساكر ١٨/ ٣١٩ وإسناده حسن.

(٢) سيرة ومناقب عمر بن الخطاب لابن الجوزى ص١٤٠

(٣) رواه أبو نعيم فى حلية الأولياء ١/ ٨١ بإسناد حسن.

فقال عليٌّ رضي الله عنه: كيف أعرت بنت أمير المؤمنين العقد الذى فى بيت مال المسلمين بغير إذنى ورضاهم؟

فقال: يا أمير المؤمنين إنها ابنتك، وسألتنى أن أعيرها العقد على أن ترده بعد ثلاثة أيام. فقال عليٌّ: رده، وإياك أن تعود لمثله، فتنالك عقوبتى. ثم قال: ويل لابنتى، لو كانت أخذت العقد على غير عارية مضمونة لكانت إذن أول هاشمية قطعت يدها فى السرقة.

فلما بلغ ذلك ابنته، قالت له: يا أمير المؤمنين، أنا ابنتك، وبضعة منك، فمن أحق بلبسه منى ..؟ فقال لها: يا ابنة أبى طالب؛ لا تذهبى بنفسك عن الحق أكل نساء المهاجرين والأنصار يتزين فى العيد بمثل هذا؟! فأخذه رافع ورده[١].

٤- أمانة عبد الله بن رواحة:

لقد بعثه الرسول ﷺ إلى خيبر ليخرص ما على نخلها من ثمر، فجمع له اليهود حليًّا من حلى نسائهم، فقالوا: هذا لك، وخفف عنا، وتساهل فى التقدير. فقال عبد الله: يا معشر يهود، والله إنكم لمن أبغض خلق الله إلىَّ، ولكن ذلك لا يحملنى على أن أحيف عليكم، فأما ما عرضتم علىَّ من الرشوة فإنها سحت، وإننا لا نأكلها. فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض[٢].

٣- أمانة التابعين

١- عامر بن قيس التميمى:

فعن أبى عبدة العنبرى قال: لما هبط المسلمون المدائن فى معركة القادسية، وبينما كان العمال يحصون الغنائم، وإذ برجل يقبل على القوم، أشعث أغبر، ومعه حُقٌّ كبير الحجم، ثقيل الوزن، فتأملوه، فإذا هو حُقٌّ لم تقع عيونهم على مثله قط. ولا وجدوا فيما جمعوه شيئًا يعدله، فنظروا فى داخله، فإذا هو قد ملئ بروائع الدرر والجواهر، فقالوا له: أين أصبت هذا الكنز الثمين؟.

قال: غنمته فى معركة كذا فى مكان كذا فقالوا: وهل أخذت منه شيئًا؟ فقال: هداكم الله والله إنَّ الحُقَّ، وجميع ما ملكته ملوك فارس لا يعدل عندى قلامة ظفر ولولا حق مال المسلمين فيه ما رفعته من أرضه، ولا أتيتكم به فقالوا: من أنت أكرمك الله؟

---

(١) السلسلة الذهبية ١/٣١٨ نقلا عن مواقف وحكايات عن الأمانة ١٠ - ١٤

(٢) من أخلاق النبى ﷺ د/ الحوفى ص١٤٨

فقال: لا والله، لا أخبركم لتحمدونى، ولا أخبر غيركم ليعطونى، ولكنى أحمد الله تعالى وأرجو ثوابه، ثم تركهم ومضى، فأمروا رجلاً منهم أن يتبعه، فعرف أنه عامر بن عبد الله التميمى، زاهد البصرة[١]. إنه لو أخذه لم يره أحد، إلا أن أمانته اقتضت ذلك!.

٢- أمانة عمر بن عبد العزيز -رحمه الله-:

عن خالد بن أبى الصلت قال: أُتى عمر بن عبد العزيز بماء قد سخن فى فحم الإمارة، فكرهه ولم يتوضأ به[٢]

وفى ليلة من الليالى وقد حضر إليه رسول من أحد عماله، فلما دخل عليه أمر بسراج فأوقد حتى أضاء المكان، ثم أخذ يسأله عن أحوال المسلمين، وعن الفقراء والمساكين، وعن أبناء السبيل؛ وهل كل مسلم يأخذ حقه؟حتى فرغ من معرفة أحوال كل شيء، فإذا بالرجل يسأل: وكيف حالك يا أمير المومنين؟ وكيف حال أسرتك؟ عندئذ نفخ عمر السراج فأطفأه، ثم أمر بسراج آخر ضعيف لا يكاد يضيئ؛ فقال: يا أمير المؤمنين، رأيتك فعلت شيئا ما رأيتك فعلت مثله: قال: وما هو؟ قال: إطفاؤك الشمعة عند مسألتى إياك عن حالك وشأنك.

فقال عمر: إن السراج الذى أطفأته من مال المسلمين، وكنت أسالك عن مصالحهم وأمورهم فلما صرت لشأنى وعيالى أطفات سراج المسلمين[٣] فأى أمانة بعد هذه الأمانة؟!.

٣- أمانة رجل من بنى إسرائيل:

فعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ذكر رجلاً من بنى إسرائيل أن يسلفه ألف دينار، فقال: ائتنى بالشهداء أشهدهم، فقال: كفى بالله شهيدا. قال: فائتنى بالكفيل، قال: كفى بالله كفيلا. قال: صدقت، فدفعها إليه إلى أجل مسمى. فخرج فى البحر، فقضى حاجته، ثم التمس مركبا يركبها يقدم عليه للأجل الذى أجله، فلم يجد مركبا، فأخذ خشبة فنقرها ، فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة منه إلى صاحبه، ثم زجج موضعها، ثم أتى بها إلى البحر، فقال: اللهم إنك تعلم أنى كنت تسلفت فلانًا ألف دينار، فسألنى كفيلا، فقلت: كفى بالله كفيلا، فرضى بك، وسألنى شهيدًا، فقلت: كفى بالله شهيدًا فرضى بك، وإنى جهدت أن أجد مركبًا أبعث إليه الذى له، فلم أقدر، وإنى استودعتكها، فرمى بها فى البحر حتى ولجت فيه، ثم انصرف وهو فى ذلك يلتمس مركبًا يخرج إلى بلده، فخرج الرّجل الذى كان أسلفه ينظر لعل مركبًا قد جاء بماله، فإذا بالخشبة التى فيها المال، فأخذها لأهله حطبًا، فلما نشرها وجد المال والصحيفة، ثم قدم الذى كان قد

(١) صفة الصفوة لابن الجوزى ٣/ ١١١ بتصرف وصور من حياة التابعين ص٣٠، ٣١ د/ عبد الرحمن رأفت.
(٢) حلية الأولياء ٥/ ٢٩٤. (٣) سيرة عمر بن العزيز.

أسلفه، فأتى بالألف دينار، فقال: والله ما زلت جاهدًا فى طلب مركب لآتيك بمالك، فما وجدت مركبًا قبل الذى أتيت فيه. قال: هل كنت بعثت إلىَّ بشىء؟ قال: أخبرك أنى لم أجد مركبًا قبل الذى جئت فيه. قال: فإن الله قد أدى عنك الذى بعثت فى الخشبة، فانصرف بالألف دينار راشدًا[١]. الله أكبر. الله أكبر.

فتأمل أخى الحبيب: لقد علم الله صدق أمانته، فأدى عنه، وسخر له البحر فى أداء أمانته، لإخلاصه، ومراقبته لله عز وجل.

• عاقبة الخيانة •

١- إن رسولنا محمدًا ﷺ نفى الإيمان عن خائن الأمانة، فعن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ ما خطبنا إلا وقال: «**لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له**» رواه البيهقى فى شعب الإيمان بسند حسن.

فقد جعل النبى ﷺ عدم الأمانة مؤثرًا فى صحة الإيمان.

٢- ولقد جعل النبى ﷺ الخيانة من علامات النفاق، والنفاق متناقض مع الإيمان، فعن أبى هريرة ﷺ أن النبى ﷺ قال: «**آية المنافق ثلاث، إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان**»[٢] وفى رواية عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ: «**أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذ خاصم فجر**»[٣].

٣- إن خائن الأمانة يعذب بسبب خيانته لها فى الدنيا والآخرة:

فعن ابن مسعود ﷺ قال: يؤتى بالعبد يوم القيامة، وإن قتل فى سبيل الله، فيقال له: أدِّ أمانتك، فيقول: أىْ ربِّ كيف، وقد ذهبت الدنيا؟ فيقال: انطلقوا به إلى الهاوية، فينطلق به إلى الهاوية، وتمثل له أمانته كهيئتها يوم دفعت إليه، فيراها، فيعرفها، فيهوى فى أثرها حتى يدركها، فيحملها على منكبيه حتى إذا ظن أنه خارج قُلِتُ عن منكبيه، فهو يهوى فى أثرها أبد الآبدين، ثم قال: الصلاة أمانة، والوضوء أمانة، والوزن أمانة، والكيل أمانة، وأشياء عددها، وأشد ذلك الودائع قال: -يعنى زاذان- فأتيت البراء بن عازب، فقلت: ألا ترى إلى ما قال ابن مسعود؟! قال: كذا.

قال: صدق، أما سمعت الله تعالى يقول: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا**﴾ [النساء: ٥٨][٤]

---

(١) رواه البخارى وأحمد فى مسنده (٨٥٧١) وذكره ابن كثير فى البداية والنهاية ٢/ ١٣٩

(٢) رواه البخارى ومسلم وأحمد فى مسنده (٨٦٧٠) وهو فى ص. ج للألبانى برقم (١٦).

(٣) رواه البخارى ومسلم وأحمد (٦٧٦٨) والألبانى فى ص.ج (٨٨٦).

(٤) رواه أحمد والبيهقى موقوفًا، وذكر عبد الله بن أحمد فى كتاب الزهد أنه سأل أباه عنه، فقال: إسناده جيد، ذكره المنذرى فى الترغيب والترهيب ٤/ ٥.

قالوا: إنَّ رجلا أودع جاره ألف دينار، وأمره بالمحافظة عليها حتى يعود من سفره فقبض الرجل الوديعة منه، وأقسم له أيماناً مؤكدة أنه سيحافظ له عليها، وسوف يرعاها حق رعايتها حتى يعود، فمات صاحب الوديعة فى سفره، فقامت زوجته برعاية أولاده من بعده، وعلمت أن لزوجها وديعة عند جارهم. فتوجهت إليه، وذكرت له ما حدث لزوجها فى سفره، وطالبته برد الوديعة التى عنده، لكى تستعين بها على تربية أولادها، ولكن الرجل أنكر الوديعة، وخان الأمانة، وحلف أنه ما أخذ من زوجها قليلاً ولا كثيراً، فرفعت أمره إلى القاضى، فحلف كذلك زوراً بين يديه أنه ما أخذ من زوجها مالاً.

فانصرفت المرأة باكية متحسرة، وأخذت تجتهد فى الدعاء عليه، ولم تمض إلا أيام قلائل حتى أصابه دعاؤها، فمات فجأة قبل أن يستغفر الله من ذنبه، وقبل أن يرد الحقوق والأمانات إلى أهلها. فلما جردوه من ثيابه، ليغسلوه وجدوا على جسمه «ألف كية بالنار» فأخبروا بذلك رجلاً من الصالحين، فقال لهم: إنها كيات بعدد الدنانير التى خان فيها ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ [النازعات: ٢٦].

واعلم أخى الحبيب أن الله يبغض الخائنين، وكفى بذلك عقوبة لهم، قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: ١٠٧].

الوصية رقم (٣٣)
أمِّروا أحدكم

عن أبى سعيد الخدرى، وأبى هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: **«إذا خرج ثلاثة فى سفر، فليؤمروا أحدهم»**(١).

صدق رسول الله ﷺ

• فى رحاب هذه الوصية •

فى هذه الوصية الحكيمة يوصينا رسول الإسلام ﷺ بأدب من آداب السفر، وهو إمارة واحد من المسافرين إذا كان عددهم ثلاثًا أو أكثر على سبيل الندب، واختيار الرفيق قبل الطريق، وليكن هذا الرفيق ممن يعين على أمور الدين، فيذكره إذا نسى، ويعينه ويساعده إذا ذكر، فإن المرء على دين خليله، ولا يعرف الرجل إلا برفيقه، «وقد نهى النبى ﷺ أن يسافر الرجل وحده»(٢) فقال ﷺ: **«لو يعلم الناس ما فى الوحدة ما سار راكب بليل وحده»**(٣).

---

(١) رواه أبو داود بإسناد حسن.

(٢) قال العراقى فى تخريج الإحياء: أخرجه أحمد من حديث ابن عمر بإسناد صحيح.

(٣) رواه البخارى.

ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يؤمرون أحدهم عليهم إذا كانوا فى سفر، ويقولون: هذا أميرنا، أمره رسول الله ﷺ[1] لكن عليهم أن يؤمروا أحسنهم أخلاقًا، وأرفقهم بالأصحاب، وأسرعهم إلى الإيثار، وطلب الموافقة، وإنما يحتاج إلى الأمير، لأن الآراء تختلف فى تعيين المنازل والطريق ومصالح السفر ولا نظام إلا فى الوحدة، ولا فساد إلا فى الكثرة، وإنما انتظم أمر العالم لأن مدبر الكل واحد، وهو الله رب العالمين إذ ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] ومهما كان المدبر واحدًا انتظم أمر التدبير، وإذا كثر المدبرون فسدت الأمور فى الحضر وفى السفر، إلا أن مواطن الإقامة لا تخلو عن أمير عام كأمير البلد، وأمير خاص كرب الدار، وأما السفر فلا يتعين له أمير إلا بالتأمير، فلهذا ندب التأمير ليجتمع شتات الآراء، ثم على الأمير أن لا ينظر إلا لمصلحة القوم، وأن يجعل نفسه، وقاية لهم.

• آداب المسافر •

ذكر الإمام النووى آدابًا للمسافر قبل سفره، إذا استقر عزمه على السفر فليجتهد فى تحصيل أمور، منها:

أن يوصى بما يحتاج إلى الوصية به، وليشهد على وصيته، ويستحل من بنيه معاملة فى شيء، أو مصاحبة، ويسترضى والديه، وشيوخه، ومن يندب إلى بره، واستعطافه ويتوب إلى الله ويستغفره من جميع الذنوب والمخالفات، وليطلب من الله تعالى المعونة على سفره، وليجتهد فى تعلم ما يحتاج إليه فى سفره.

١- **فإن كان غازيًا:** تعلم ما يحتاج إليه الغازى من أمور القتال، وغير ذلك من الدعوات وأمور الغنائم، وتعظيم تحريم الهزيمة فى القتال، وما إلى ذلك.

٢- **وإن كان حاجًا أو معتمرًا:** تعلم مناسك الحج والعمرة، أو استصحب معه كتابًا بذلك، ولو تعلمها واستصحب كتابًا كان أفضل.

٣- **وإن كان تاجرًا:** تعلم ما يحتاج إليه من أمور البيوع وما يصح منها، وما يبطل وما يحل، وما يحرم، وما يستحب وما يكره، وما يباح، وما يرجح على غيره.

٤- **وإن كان متعبدًا سائحًا معتزلاً للناس:** تعلم ما يحتاج إليه فى أمور دينه، فهذا أهم ما ينبغى له أن يطلبه.

٥- **وإن كان ممن يصيد:** تعلم ما يحتاج إليه أهل الصيد، وما يحل من الحيوان، وما يحرم، وما يحل به الصيد، وما يحرم، وما يشترط ذكاته، وما يكفى فيه قتل الكلب، أو السهم وغير ذلك.

---

(١) أخرجه البزار والحاكم عن عمر وقال الحاكم صحيح على شرط الشيخين كذا قال العراقى.

٦- **وإن كان راعيًا:** تعلم ما يحتاج إليه مما قدمناه فى حق غيره، ممن يعتزل الناس، وتعلم ما يحتاج إليه من الرفق بالدواب، وطلب النصيحة لها ولأهلها، والاعتناء بحفظها، والتيقظ لذلك، واستأذن أصحابها فى ذبح ما يحتاج إلى ذبحه فى بعض الأوقات لعارض.

٧- **وإن كان رسولاً من سلطان أو نحوه:** اهتم بتعلم ما يحتاج إليه من آداب مخاطبات الكبار، وجوابات ما يعرض فى المحاورات، وما يحل له من الضيافة والهدايا، وما لا يحل، وما يجب عليه من مراعاة النصيحة، وإظهار ما يبطنه، وعدم الغش والخداع والنفاق، والحذر من التسبب إلى مقدمات الغدر، أو غيره مما يحرم، وغير ذلك.

٨- **وإن كان وكيلاً أو عاملاً فى قراض أو نحوه:** تعلم ما يحتاج إليه مما يجوز أن يشتريه وما لا يجوز، وما يجوز أن يبيع به، وما لا يجوز، وما يجوز التصرف فيه، وما لا يجوز، وما يشترط الإشهاد فيه، وما لا يشترط، وما يجوز له من الأسفار، وما لا يجوز[١]. ا.هـ.

وذكر الإمام الغزالى فى الإحياء[٢] آدابًا للمسافر من أول نهوضه إلى آخر رجوعه، فقال:

الأول: أن يبدأ برد المظالم، وقضاء الديون، وإعداد النفقة لمن تلزمه نفقته، ويرد الودائع، إن كانت عنده، ولا يأخذ لزاده إلا الحلال الطيب، وليأخذ قدرا يوسع به على رفقائه.

قال ابن عمر ﷺ: من كرم الرجل طيب زاده فى سفره.

ولابد فى السفر من طيب الكلام، وإطعام الطعام، فقد كان عبد الله بن المبارك إذا أراد سفره إلى الحج من بلده (مرو) جمع أصحابه، وقال لهم: من منكم يريد الحج؟ فيأخذ منهم نفقاتهم، فيضعها عنده فى صندوق، ويقفل عليه، ثم يحملهم، وينفق عليهم أوسع النفقة، ويطعمهم أطيب الطعام، ثم يشترى لهم من مكة ما يريدون من الهدايا، والتحف، ثم يرجع بهم إلى بلده، فإذا وصلوا صنع لهم طعامًا، ثم جمعهم عليه، ودعا بالصندوق الذى فيه نفقاتهم فرد إلى كل واحد نفقته[٣]

ومن آدابه أيضًا: إظهار مكارم الأخلاق فى السفر، فإنه يخرج خبايا الباطن. ومن صلح لصحبة السفر، صلح لصحبة الحضر، وقد يصلح فى الحضر ما لا يصلح فى السفر. لذلك قيل: إذا أثنى على الرجل معاملوه فى الحضر، ورفقاؤه فى السفر فلا تشكوا فى صلاحه.

---

(١) الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار للنووى ص٢٧٨-٢٧٩ ط/ دار الريان.

(٢) الإحياء ٣/ ٣١٧

(٣) لطائف المعارف.

الثانى: أن يختار رفيقًا فلا يخرج وحده:

فعن ابن عـمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**لو أن الناس يعـلمون من الوحـدة ما أعلم ما سار راكب بليل وحده**»(١)

أى لو ثبت عـلم الناس ما أعلـم من ضرر الوحـدة الدنيوى والدينـى كحرمـانه من الصلاة فى جماعـة، وعدم من يعينه فى حوائجه ولأنه ربما مـرض فى الطريق فلا يجد من يتولى تمريضه، أو يموت فلا يجد من يتولى أمره، وحمل تركته لأهله.

والمسافر وحده شـبهه الرسول ﷺ بالشيطان، فقال: «**الراكب شيطان، والـراكبان شيطانان، والثلاثة ركب**»(٢)

قال العـراقى: إن المعنى مع الراكب شـيطان، أو أن المعنى تشبـيهه بالـشيطان، لأن عادته الانفراد فى الأماكن الخالية كالأَودية والحشوش.

وقال الخطابى: مـعناه أن التفرد والـذهاب وحده فى الأرض من فعل الشـيطان وهو شيء يحمل عليـه الشيطان، ويدعوه إليه، فـقيل لذلك إن فاعله شيطـان. فإذا وجد ثلاثة تعاونوا وتعاضدوا على نوائب السفر، ودفع ما فيه من الضرر(٣).

والثالث: أن يودع رفـقاء الحضـر والأهل والأصدقـاء، وليدعُ عند الوداع بـدعاء رسولُ الله ﷺ. قال بعضهم: صحبت عبد الله بن عمر رضي الله عنهما من مكة إلى المدينة حرسها الله، فلما أردت أن أفارقه شيعنى وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قال لقمان: إن الله إذا استودع شيئًا حفظه، وإنى أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك**»(٤).

وقال موسى بن وردان: أتيت أبا هريرة رضي الله عنه أودعه لـسفر أردته، فقال: ألا أعلمك يابن أخى شيئًا علمنيه رسول الله ﷺ عند الوداع؟ فقلت: بلى، قال: قل: «**أستودعك الله الذى لا تضيع ودائعه**»(٥)

الرابع: أن يصلى قبل سفره صلاة الاستخارة، فيصلى ركعتين من غير الفريضة، ثم يدعو بدعاء الاستخارة وهو: «اللهم إنى أستخـيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقـدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خيـر لى فى دينى ودنياى ومعاشى وعاقبـة أمرى، أو قال: عاجل أمرى وآجله، فاقـدره لى، ويسره لى، ثم بارك لى فيه، وإن كنت تـعلم أن هذا الأمر شر لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى، أو قـال: عاجل أمرى وآجله فاصرفه عنى، واصرفنى

---

(١) رواه البخارى ورواه أحمد وابن ماجه والترمذى.

(٢) رواه أبو داود والترمذى والنسائى بأسانيد صحيحة. (٣) دليل الفالحين لابن علان ٣/ ٤٤٨.

(٤) رواه النسائى فى اليوم والليلة وأبو داود مختصرا وإسناده جيد قاله العراقى.

(٥) رواه ابن ماجه بإسناد حسن.

عنه، واقدر لى الخيـر حيث كان، ثم رضنى به»[١] ويسمى حاجته. ويسـتحب أن يستشير فى سفره من يعلم منه النصيحة، والشفـقة والصلاح والاستقامة لقوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

الخامس: أن يرحل عن المنزل بـكرة، فقد روى جـابر رضي الله عنه أن النبى ﷺ رحل يوم الخميس وهو يـريد تبوك، وقال: «**اللهم بارك لأمـتى فى بكورها**»[٢] ويستحـب أن يبتدئ بالخروج يوم الخميس، فقد روى كعب بن مالك رضي الله عنه: «أن النبى ﷺ خرج فى غزوة تبوك يوم الخميس، وكان يحب أن يخرج يوم الخميس»[٣]

السادس: أن لا ينزل حتـى يحمى النار فـهى السنة، ويكون أكثـر سيره ليـلاً. قال ﷺ: «**عليكم بالدلجة، فإن الأرض تطوى بالليل ما لا تطوى بالنهار**»[٤]

السابع: أن يحتاط بـالنهار فلا يمشى منفـردًا خارج القافلة لأنه ربما يغـتال أو ينقطع ويكون بالليل متحفظًا عند النوم.

الثامن: أن يرفق بالدابة فلا يحملها ما لا تطيق، ولا يضـربها فى وجهها فإنه منهى عنه ولا ينام عليها، فإنه يثقل بالنوم، وتتأذى به الدابة، ويستحب أن ينزل عن الدابة غدوة وعشية يروحها بذلك فهو سنة، وفيه آثار عن السلف.

قال أبو الدرداء رضي الله عنه لبعير له عند الموت: أيها البـعير لا تخاصمنى إلى ربك، فإنى لم أك أحمـلك فوق طاقتـك. وفى النزول عن الدابة سـاعة صدقـتان، إحداهمـا: ترويح الدابة. والثانية: إدخال السرور على قلب المكارى أى مؤجرها وفيه فائدة أخرى وهى رياضة البدن وتحريك الرجلين، والحذر من خدر الأعضاء بطول الركوب.

التاسع: ينبغى أن يصحب معه فى سفره ستة أشياء: المرآة والمكحلة، والمقراض - المقص- والسواك والمشط.

• آداب الرجوع من السفر •

١- كان النبى ﷺ إذا قفل من غزو أو حـج أو عمرة أو غيره يكبـر على كل شرف من الأرض ثلاث تكبيرات ويقول: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، لـه الملك وله الحمد، وهو على كـل شيء قدير، آيبـون تائبـون عابدون ساجـدون لربنا حـامدون، صـدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده**»[٥]

٢- **فإذا أشرفـ على بلده أو مدينته فليقل:** اللهم اجعل لنا بها قرارًا ورزقا حسنًا.

٣- وعليه إذا قدم أن يـرسل إلى أهله من يبشرهم بقدومـه، كيلا يقدم عليـهم بغتة فيرى ما يكرهه.

---

(١) رواه البخارى. (٢) رواه الترمذى وحسنه. (٣) متفق عليه.
(٤) رواه أبو داود من حديث أنس. (٥) رواه مسلم.

٤- ولا ينبغي له أن يطرقهم ليلاً: فعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«إذا أطال أحدكم الغيبة فلا يطرقن أهله ليلاً»**[١] وفي رواية عن أنس: **(كان رسول الله لا يطرق أهله ليلاً، وكان يأتيهم غدوة أو عشية)**[٢]

٥- ويستحب لمن حضر من سفر أن يبتدئ بالمسجد فيصلي ركعتين. فعن كعب بن مالك رضي الله عنه **«أن رسول الله ﷺ كان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلى ركعتين»**[٣].

٦- وينبغي أن يحمل لأهل بيته وأقاربه تحفة من مطعوم أو غيره على قدر إمكانه.

• أذكار السفر •

أذكار السفر التي يستحب للمسافر أن يدعو بها من حين خروجه من بيته، وركوبه السيارة أما ما يقوم مقامها من طائرة، أو سفينة، أو قطار لكي يرضى مولاه، فيحفظه في سفره ويرجعه إلى أهله سالمًا غانمًا.

١- دعاء ركوب الدابة أو ما يقوم مقامها: فعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجًا إلى سفر كبر ثلاثًا، ثم قال: **«سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون. الحمد لله ثلاثا. سبحانك اللهم إني ظلمت نفسي فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»**[٤]

٢- دعاء السفر: كان ﷺ إذا سافر يتعوذ من وعثاء السفر، وكآبة المنقلب فيقول: **«اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهم هون علينا سفرنا هذا،واطو عنا بعده، اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنظر، وسوء المنقلب في الأهل والمال»**[٥]

٣- دعاء دخول القرية أو البلد: كان ﷺ يدعو قائلا: **«اللهم رب السموات السبع وما أظللن، ورب الأراضين السبع وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما ذرين، أسألك خير هذه القرية، وخير أهلها، وخير ما فيها، وأعوذ بك من شرها، وشر أهلها، وشر ما فيها»**[٦].

٤- الدعاء إذا نزل منزلا: كان يقول: **«أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق»**[٧]

---

(١) متفق عليه. (٢) متفق عليه. (٣) متفق عليه.

(٤) رواه أبو داود بإسناد صححه الألباني وذكره الألباني في صحيح الترمذي ٣/ ١٥٦

(٥) رواه مسلم.

(٦) رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي ٢/ ١ وابن السني (٥٢٤).

(٧) رواه مسلم.

الوصية رقم (٣٤)
دع ما يريبك إلى ما لا يريبك

عن الحسن بن على رضي الله عنه قال: حفظت من رسول الله ﷺ: **«دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الصدق طمأنينة، وإن الكذب ريبة»**[1]

صدق رسول الله ﷺ

تأمل أخى الحبيب هذه الوصية العظيمة، والتى يرويها لنا رجل كان أحب الناس إلى رسول الله ﷺ إنه الحسن بن على رضي الله عنه، ذلكم الرجل الذى قال فيه المصطفى ﷺ: **«اللهم إنى أحبه فأحبه»**[2] إنه هو وأخوه الحسين سيدا شباب أهل الجنة، وفاطمة أمه سيدة نساء العالمين، إنه الرجل الذى قال عنه رسول الإنسانية وجده ﷺ **«إن ابنى هذا سيد، يصلح الله به بين فئتين عظيمتين»**[3]

يوصينا اليوم بوصية من جوامع كلمه ﷺ، وعلى الرغم من إيجازها، وقلة كلامها إلا أنها تشتمل على شعبة من أعظم شعب الإسلام، وخلق من أخلاق الأنبياء والمرسلين، ومن بعدهم الصالحين المؤمنين إنها توصى كل مسلم بأن يكون ورعًا بعيدا عن الشبهات، إنه يوقف أهل الإيمان عن تخطى الشبهات، فإن الحلال المحض الذى لا شك فيه لا يحصل لمؤمن فى قلبه منه ريب، والريب هو القلق والاضطراب، بل تسكن إليه النفس ويطمئن به القلب، وأما المشتبهات فيحصل بها للقلوب القلق والاضطراب الموجب للشك ولذلك يوضح الرسول ﷺ أن الحلال بين ظاهر أجلى من الشمس فى رائعة النهار، والحرام كذلك بين ظاهر فيقول فى الحديث الذى رواه عنه النعمان بن بشير رضي الله عنه: **«الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى، يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب»**[4]

فلهذا الحديث أصل من أصول الشريعة الإسلامية، فالحلال ما أحله الشارع الحكيم بنص من كتاب أو سنة، والحرام هو ما حرمه الشارع الحكيم بنص من كتاب أو سنة.

وبين الحلال والحرام شبهات، من اشتبه فيها وقف عندها حتى يسأل أهل الذكر حتى لا يقع في محذور، وهذا ما يسمى بالورع. فما هو الورع؟

---

(١) رواه النسائى (٥٢٦٩) والترمذى فى صفة القيامة (٢٥١٨) وأحمد فى مسنده (١٦٢٩) بإسناد صحيح.
(٢) رواه البخارى (٣٧٤٩) ومسلم (٢٤٤٢).
(٣) رواه الترمذى فى المناقب (٣٧٣٣) بإسناد حسن. (٤) رواه البخارى.

• ما هو الورع؟ •

واختلفت كلمة السلف الصالح فى تعريف الورع، وقد جمعه النبى ﷺ فى كلمات معدودة: **«دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»** وقوله ﷺ: **«من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه»**[(١)] وقال لأبى هريرة رضي الله عنه **«كن ورعًا تكن أعبد الناس»**[(٢)] وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: الورع ترك كل شبهة، وترك ما لا يعنيك هو ترك الفضلات[(٣)]. فيشمل: فضول الكلام، وفضول النظر، وفضول الاستماع، والبطش والمشى، والفكر وسائر الحركات الظاهرة والباطنة.

وقال أبو سليمان الدارانى رحمه الله: الورع أول الزهد، كما أن القناعة أول الرضا[(٤)]

وقال يحيى بن معاذ -رحمه الله-: الورع: الوقوف على حد العلم من غير تأويل، وقال: الورع على وجهين:

١- ورع فى الظاهر. ٢- وورع فى الباطن.

فورع الظاهر ألا يتحرك إلا لله، وورع الباطن هو: أن لا تدخل فى قلبك سواه[(٥)]

وقال سفيان الثورى -رحمه الله-: ما رأيت أسرع من الورع، ما حاك فى نفسك فاتركه[(٦)]

وقال سهل بن عبد الله التسترى -رحمه الله-: الحلال هو الذى لا يعصى الله فيه، والصافى منه الذى لا ينسى الله فيه.

وسأل الحسن غلامًا، فقال له: ما ملاك الدين؟ قال: الورع.

قال: فما آفته؟ قال: الطمع. فعجب الحسن منه.

وقال بعض السلف: لا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يدع ما لا بأس به حذرًا مما به بأس[(٧)].

وقال بعض الصحابة: كنا نترك سبعين بابًا من الحلال مخافة أن نقع فى باب من الحرام.

وقال الحسن: مثقال ذرة من الورع خير من ألف مثقال من الصوم والصلاة.

وقال بشر بن الحارث: أشد الأعمال ثلاثة: الجود فى القلة، والورع فى الخلوة، وكلمة الحق عند من يخاف منه[(٨)]

---

(١) رواه الترمذى وصححه الألبانى فى صحيح ابن ماجه (٣٩٧٦).

(٢) رواه الترمذى وحسنه وابن ماجه (٤٢١٧) وصححه الألبانى.

(٣) (٧) انظر مدارج السالكين لابن القيم جـ٢/ ٢٢ ، ٢٣ والرسالة القشيرية ص١٨٤

(٨) مدارج السالكين ٢/ ٢٣

• أئمة في الورع والزهد •

١- سيدنا أبو بكر:

فهذا سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه كان له غلام يخرج له الخراج، وكان أبو بكر رضي الله عنه يأكل من خراجه، فجاء في يوم بشيء فأكل منه أبو بكر، فقال له الغلام: أتدرى من أين لى بهذا الطعام؟ فقال له: ومن أين لك هذا؟.

قال الغلام: كنت قد تكهنت لإنسان فى الجاهلية، وما أحسن الكهانة، إلا أنى خدعته، فلقينى، فأعطانى ذلك الذى أكلت منه.

فأدخل أبو بكر الصديق رضي الله عنه أصبعه فى حلقه، فقاء كل ما فى بطنه، ثم قال: والله لو لم تخرج إلا مع نفسى لأخرجتها، اللهم إنى أعتذر إليك مما حملت العروق، وخالط الأمعاء[1].

٢- عمر بن الخطاب:

فعن عبد الله بن عمر، قال: اشتريت إبلاً ورجعتها إلى الحمى، فلما سمنت قال: دخل عمر السوق، فرأى إبلا سمانًا، فقال: لمن هذه الإبل السمينة؟ فقيل: لعبد الله بن عمر قال: فجعلت أسعى، فقلت: ما لك يا أمير المؤمنين؟ قال: ما هذه الإبل؟ قلت إبل اشتريتها، وبعثت بها إلى الحمى، أبتغى ما يبتغى المسلمون. قال: يقال: ارعوا إبل ابن أمير المؤمنين، اسقوا إبل ابن أمير المؤمنين، يا عبد الله بن عمر، اغد على رأس مالك واجعل باقيه فى بيت مال المسلمين[2].

وحياة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه كانت كلها زهد، وكلها ورع، وابتعاد عن كل الشبهات فعن عبد الرحمن الأشعرى أنه خرج إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فنزل عليه، وكان لعمر ناقة يحلبها، فانطلق غلامه ذات يوم فسقاه لبناً، فأنكره عمر، فقال له: ويحك من أين هذا اللبن؟ قال: يا أمير المؤمنين، إن الناقة انفلت عليها ولدها، فشرب لبنها، فحلبتُ لك ناقة من مال الله.

فقال له عمر: ويحك، سقيتنى نارًا! ادع على عليًّا بن أبى طالب، قال: فدعاه، فقال: إنَّ هذا عمد إلى ناقة من مال الله، فسقانى لبنها، أفتحله لى؟ قال: نعم، يا أمير المؤمنين هو لك حلال ولحمها[3]

(١) رواه البخارى (٣٨٤٢).

(٢) سيرة ومناقب عمر بن الخطاب لابن الجوزى ص١٣٨

(٣) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ١٤

٣- على بن أبى طالب:

فعن عـمرو بن يحيى، عن أبيـه، قال: أهدى إلى على بن أبى طالب أزقـاق سمن وعسل، فرآها قد نقصـت، فسأل، فقيل: بعثت أم كلثوم فأخذت منـه، فبعث من يُقومهُ، فقوموه أى قدروه بخمسة دراهم، فبعث إلى أم كلثوم أن ابعثى إلى بخمسة دراهم[١]

٤- أخت بشر الحافى:

جاءت مخة أخت بشر بن الحارث إلى الإمام أحمد بن حنبل، فقالت: إنى امرأة رأس مالى دانـقان، أشتـرى القطن فأغـزله وأبيعه بنـصف درهم، فأتقـوت بدانق من الجمـعة إلى الجمعة، فـمر ابن طاهر الطائف ومعه مشـعل فوقف يكلم أناسًا، فاستغـنمت ضوء المشعل، فغزلت طاقات، ثم غاب عنى المشعل، فعلمت أن لله فى مطالبة، فخلصنى خلصك الله.

فقال لها: تخرجين الدانقين، ثم تبقين بلا رأس مال حتى يعوضك الله خيرًا منه[٢].

وفى رواية أنّ الإمـام أحمد بكى وقـال لها: من بيـتكم يخرج الـورع الصادق، لا تغزلى فى شعاعها[٣]

٥- والد إمام الحرمين:

وهذا والد إمام الحرمين الإمام الجوينى -رحمـه الله- كان والده يعمل نساخًا للكتب بالأجرة فاجـتمع له مبلغ من المال الحلال، من كـسب يده، لم يخالطه شبهة، فـاشترى به جارية تتصـف بالصلاح والخير وحرص الرجـل على أن يطعمها الحـلال من الطعام إلى أن حملت بالجويـنى، واستمر على رعايتـها بالحلال حتى وضعت جنينـها، ثم أمرها ألا تدع أحدًا يرضعه غيـرها، لكن فى يوم من الأيام، وقد انشغلت عنه بأمور المنـزل، كما تنشغل معظم الأمهات، فبكى الطفل الصغير، وصدفـة دخلت إلى البيت جارية مرضعة للجيران، فأخذته وشغلته بثديها، فرضع منها مصة أو مصتين، فدخل الوالد عليها، فرأى هذا الأمر، فأنكر عليها ذلـك، وقال لزوجته: هذه الجارية ليست ملكًا لنا، ولـيس لها أن تتصرف فى لبنها، وأصحابها لم يأذنوا لها فى ذلك، ثم أخذ الجوينى الرضيع ونكس رأسه إلى أسفل، ومسح على بطنه، وأدخـل أصبعه فى فيه، ولـم يزل يفـعل به ذلك حتى استقاء جـميع ما شربه، وهو يقول: يسهل علىَّ أن يموت، ولا يفسد طبعه بشرب لبن غير أمه.

لذلك كان إمام الحرمـين الإمام الجوينى -رحمه الله- يتحدث إلـى طلابه بالساعات الطوال، فإذا أصابه تلجلج، أو لحقه فترة، وانقطاع عن المناظرة، يقول: هذا من بقايا تلك المصة[٤]

---

(١) صفة الصفوة ١/ ١٣٥ (٢) المرجع السابق ٢/ ٣١٦ (٣) الرسالة القشيرية ص١٨٥

(٤) انظر طبقات الشافعية ٥/ ١٦٨، ١٦٩ بتصرف والبداية والنهاية لابن كثير ١٢/ ١٢٨

٦- حسان بن أبى سنان:

يقول حسان: ما شيء أهون من الورع، إذا رابك شيء فدعه.

قال عبد الله بن المبارك -رحمه الله-: كتب غلام لحسان بن أبى سنان إليه من الأهواز: إنّ قصب السكر أصابته آفة، فاشتر السكر فيما قبلك، فاشتراه من رجل فلم يأت عليه إلا قليل، فإذا فيما اشتراه ربح ثلاثين ألفًا.

قال: فأتى صاحب السكر، فقال له: يا هذا إن غلامى كان قد كتب إلىّ فلم أعلمك، فأقلنى فيما اشتريت منك، فقال له الآخر: قد أعلمتنى الآن، وقد طيبته لك، قال: فرجع فلم يحتمل قلبه، فأتاه فقال: يا هذا إنى لم آت هذا الأمر من قبل وجهه، فأحب أن تسترد هذا البيع، قال: وما زال به حتى استرده[1].

هل تأملت هذا أخى الحبيب؟! لو كان ذلك فى زماننا، لقال صاحب هذا البيع، إن التجارة شطارة، وهكذا يكون الشغل. لكنه لم يقبل هذا الربح، بمجرد أنه قد شك فى هذا الربح فعمل بقول الرسول الأعظم: **«دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»**.

٧- الحجاج بن دينار:

كان قد بعث طعامًا إلى البصرة مع رجل، وأمره أن يبيعه يوم يدخل بسعر يومه، فأتاه كتابه: إنى قدمت البصرة، فوجدت الطعام رخيصًا فحبسته، فزاد الطعام -أى غلا- فازددت أى ربحت فيه كذا وكذا.

فماذا فعل الحجاج؟ لو كان فى عصرنا لشجع هذا الغلام، وأعد له على ذلك مكافأة!. لكنه كتب إليه: إنك قد خنتنا وعملت بخلاف ما أمرناك به، فإذا أتاك كتابى فتصدق بجميع ثمن ذلك الطعام على فقراء البصرة، فليتنى أسلم إن فعلت ذلك[2]

وأمثال ذلك كثير وكثير

فقد تنزه يزيد بن زريع عن خمسمائة ألف من ميراث أبيه فلم يأخذه، لأن أباه كان يلى أعمال السلاطين، لكن يزيد كان يعمل الخوص ويتقوت منه إلى أن مات.

• درجات الورع •

قال ابن القيم:

وهو -أى الورع- على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: تجنب القبائح لصون النفس، وتوفير الحسنات، وصيانة الإيمان بداية هذه -أى الدرجة- ثلاث فوائد من فوائد تجنب القبائح.

(١) صفة الصفوة لابن الجوزى ٣/١٩٩ وجامع العلوم والحكم لابن رجب ص١٤٢/١٤٣

(٢) جامع العلوم والحكم لابن رجب ص١٤٣

أحدها: صون النفس، وهو حفظها وحمايتها عما يشينها، ويعيبها، ويزرى بها عند الله عز وجل وملائكته، وعباده المؤمنين، وسائر خلقه.

فإن من كرمت عليه نفسه، وكبرت عنده، صانها، وحماها، وزكاها، وعلاها ومن هانت عليه نفسه، وصغرت عنده، ألقاها فى الرذائل، ولم يصنها عن القبيح.

ثانيها: وأما توفير الحسنات فمن وجهين:- **أحدهما:** توفير زمانه على اكتساب الحسنات، فإذا اشتغل بالقبائح نقصت عليه الحسنات التى كان مستعداً لتحصيلها.

والثانى: توفير الحسنات المفعولة عن نقصانها. فإن السيئات قد تحيط الحسنات.

ثالثها: وأما صيانة الإيمان، فلأن الإيمان عند أهل السنة يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية.

الدرجة الثانية: حفظ الحدود عند ما لا بأس به، إبقاء على الصيانة والتقوى، وصعوداً عن الدناءة، وتخلصًا عن اقتحام الحدود.

فالعارف يترك كثيراً من المباح إبقاء على صيانته.

ومعنى الصعود عن الدناءة: هو الرفع عن طرقاتها وأفعالها أى الابتعاد عنها.

«وأما التخلص عن اقتحام الحدود» فالحدود: هى النهايات، وهى مقاطع الحلال والحرام.

فحيث ينقطع وينتهى فذلك حده، فمن اقتحمه وقع فى المعصية، وقد نهى الله تعالى عن تعدى حدوده وقربها، قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة: ١٨٧] وقال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩] فالحدود يراد بها أواخر الحلال، وحيث نهى عن القرب فالحدود هناك أوائل الحرام.

لقد رهن الإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله- سطلاً[١] له عند بقال بمكة، فلما أراد فكاكه أخرج البقال إليه سطلين، وقال: خذ أيهما لك، فقال الإمام: أشكل علىّ سطلى، فهو لك والدراهم لك، فقال البقال: سطلك هذا وأنا أردت أن أجربك، فقال: لا آخذه، وترك السطل عنده[٢].

الدرجة الثالثة: التورع عن كل داعية تدعو إلى شتات الوقت.

فالمخلص الورع يصون الله بعبادته وحده، وإرادة وجهه وخشيته وحده، ورجائه وحده، والطلب منه، والذل له، والافتقار إليه وحده[٣]

---

(١) السطل: هو إناء من معدن كالمرجل له علاقة كنصف الدائرة مركبة فى عروتين.

(٢) الرسالة القشيرية ص١٨٧ (٣) مدارج السالكين ٢/ ٢٨

• الخوف يثمر الورع •

الخوف يثمر الورع والاستعانة، وقصر الأمل، وقوة الإيمان باللقاء تثمر الزهد، والمعرفة تثمر المحبة، والخوف والرجاء والقناعة تثمر الرضا، والذكر يثمر حياة القلب، والإيمان بالقدر يثمر التوكل، والورع يثمر الزهد، والرضا يثمر الشكر، والعزيمة والصبر يثمران جميع الأحوال والمقامات، والإخلاص والصدق كل منهما يثمر الآخر ويقتضيه، والمعرفة تثمر الخُلق، والفكر يثمر العزيمة، والمراقبة تثمر عمارة الوقت، وحفظ الأيام والحياء والخشية والإنابة، وإماتة النفس وإذلالها وكسرها يوجب حياة القلب وعزه وجبره، ومعرفة النفس ومقتها يوجب الحياء من الله عز وجل.

وملاك ذلك كله أمران: أحدهما: أن تنقل قلبك من وطن الدنيا، فتسكنه فى وطن الآخرة ثم تقبل به كله على معانى القرآن واستجلائها وتدبرها، وفهم ما يراد منه، وما نزل لأجله، وأخذ نصيبك وحظك من كل آية من آياته، وتنزلها على داء قلبك. فهذه طريقة مختصرة قريبة سهلة، موصلة إلى الرفيق الأعلى، آمنة لا يلحق سالكها خوف ولا عطب، ولا جوع ولا عطش، ولا فيها آفة من آفات سائر الطريق، وعليها من الله حارس وحافظ يكلأ السالكين فيها ويحميهم، ويدفع عنهم والله المستعان.

الوصية رقم (٣٥)
سلوا الله وأنتم موقنون بالإجابة

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«إن هذه القلوب أوعية، وبعضها أوعى من بعض، فإذا سألتم الله عز وجل، أيها الناس فاسلوه وأنتم موقنون بالإجابة، فإن الله لا يستجيب لعبد دعاه عن ظهر قلب غافل»**[1]

صدق رسول الله ﷺ

فكن أخا الإسلام منتفعًا بهذه الوصية الجليلة، والتى قرر الرسول ﷺ فيها حقيقتين:
الحقيقة الأولى: أن القلوب مثل الأوانى فى الحفظ والسعة فكما أن الأوانى تحفظ ما بها من سوائل أو مطعومات، وبعضها يتسع عن بعض، فكذلك القلوب تحفظ العلم والذكر ونحو ذلك من المعانى، وبعضها يتسع عن بعض، فهو كما يقول علماء البلاغة تشبيه بليغ.

(١) رواه الإمام أحمد (٦٦٥٥) وصححه الشيخ أحمد شاكر فى تحقيق المسند ٦/ ٢١٣ وحسنه الهيثمى فى المجمع ١٠/ ١٤٨

والحقيقة الثانية: أن المسلم إذا أراد أن يدعو مولاه جل وعلا، فلابد وأن يستحضر عظمته فى قلبه، لأنه سبحانه لا يستجيب دعاء من دعاه وقلبه غافل لاهٍ فتعالوا بنا لنقرر هاتين الحقيقتين:

اعلم -رحمنى الله وإياك- أن القلب فى أصل الوضع سليم من كل آفة، والحواس الخمس توصل إليه الأخبار فترقم فى صفحته، فينبغى أن يستوثق من سدّ الطرق التى يخشى عليه منها الفتن، فإنه إذا اشتغل بشىء منها أعرض عما خلق له من التعظيم للخالق والفكر فى المصالح، ورب فتنة علق به طرفها، فكانت سببًا فى هلاكه.

فعن النعمان بن بشير ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«ألا وإن فى الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب»**(١).

وعن ثابت قال: قيل لعيسى ابن مريم عليه السلام: لو اتخذت حمارًا تركبه لحاجتك؟.

قال: أنا أكرم على الله من أن يجعل لى شيئًا يشغلنى به(٢)!!.

وعن وهيب أن ابن عمر ﷺ باع جملاً، فقيل له: لو أمسكته؟ فقال: لقد كان موافقًا، ولكنه أذهب شعبة من قلبى، فكرهت أن أشغل قلبى بشىء(٣) أرأيت كيف كان السلف الصالح رضوان عليهم يريدون أن لا يشغلوا قلوبهم بشىء عن خالقهم جل وعلا، إنهم يجعلون قلوبهم آنية مملوءة بربهم، وبحبه فلا يحبون أن ينشغلوا عنه طرفة عين.

وهذا هو أحد الأعلام الذى يريد ألا يجعل فى قلبه نصيبًا لأحد سوى مولاه فعن الحارث بن نبهان قال: قدمت من مكة، فأهديت إلى مالك بن دينار ركوة(٤)، فكانت عنده، فجئت يومًا فجلست فى مجلسه، فلما انقضى المجلس، قال لى: يا حارث، تعال خذ تلك الركوة، فقد شغلت علىَّ قلبى! فقلت: يا أبا يحيى، إنما اشتريتها لك تتوضأ فيها، وتشرب.

فقال: يا حارث، إنى إذا دخلت المسجد، جاءنى الشيطان، فقال لىَ: يا مالك، إن الركوة قد سرقت، فقد شغلت علىَّ قلبى!

تأمل إنه رفض الركوة التى يستعين بها فى وضوئه وشرابه لأن قلبه قد انشغل بشأنها(٥)!

وعن إسحاق بن محمد -رحمه الله- قال:

قالت رابعة: شغلوا قلوبهم عن الله عز وجل، ولو تركوها لجالت فى الملكوت ثم رجعت إليهم بطرائف الفوائد.

---

(١) رواه البخارى (٥٢) ومسلم (١٥٩٩) وأحمد فى مسنده.

(٢)، (٣)، (٥) ذم الهوى لابن الجوزى ص٥٧ (٤) الركوة: هى الإناء الصغير.

فتأمل قلبك أيها المؤمن، وانظر ما الذى يشغله عن رب الأرض والسموات، فإن كان قد انشغل بحب الشهوات، واتباع المحرمات، فعالجه بالقناعة باليسير، وإن كان مشغولا بطول الأمل، فعالجه بكثرة ذكر الموت، والنظر فى موت الأقران.

وإن كان مشغولاً بحب الولد، فعالجه بأن تذكره بأنه هبة من الله وعطائه.

وعن محمد بن حامد قال: قال أحمد بن خضرويه: القلوب أوعية، فإذا امتلأت من الحق، أظهرت زيادة أنوارها على الجوارح، وإذا امتلأت من الباطل أظهرت زيادة ظلمها على الجوارح[١]

فهذا الأثر يقرر ويؤكد على الوصية التى نعيش معها، فانظر هل امتلأ قلبك حقًّا، أم امتلأ بالباطل؟.

إذا كان قلبك قد امتلأ بالحق فلا يعنيك الأمر بعد ذلك، وتأمل ما ذكره ابن الجوزى رحمه الله يقول:

قال مالك بن دينار رحمه الله: رأيت جنازة وما خلفها سوى رجل واحد، فقلت: جنازة، وما معها سوى رجل واحد، فقيل: هذا من المذنبين الخاطئين المسرفين، فما يصلى عليه أحد. قال: فصليت عليه، ثم أدخلته فى قبره، ثم ملت إلى ظل شجرة، كانت قريبة منه، فغلبتنى عيناى، فنمت قريبًا منها، فرأيت كأن ملكين نزلا، فقال أحدهما للآخر: اختبر عينيه، قال: ما نظر بهما إلى خير قط. قال: اختبر أذنيه قال: ما سمع بهما خيراً قط. قال: اختبر يديه، قال: ما بسطهما إلى خير قط. قال: اختبر رجليه، قال: ما سعى بهما إلى خير قط. قال: انظر إلى قلبه، فنظر طويلاً ثم قال لصاحبه: لقد رأيت قلبه مملوءاً بالتوحيد.

قال: اكتبه من السعداء. قال مالك: فاستيقظت سعيدًا بما رأيت من رحمة الله[٢].

تأمل حشو قلبك:

فطبيب القلوب بين أنها إما أن تكون محشوة مملوءة بالنور، وإما أن تكون محشوة بالظلمة، إما أن يكون مليئًا بالإيمان والإخلاص، وإما بالنفاق والرياء.

يقول حبيب قلوبنا ﷺ: **«القلوب أربعة: قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر، وقلب أغلف مربوط على غلافه، وقلب منكوس، وقلب مصفح، فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن سراجه فيه نوره، وأما القلب الأغلف، فقلب الكافر، وأما القلب المنكوس، فقلب المنافق عرف ثم أنكر، وأما القلب المصفح، فقلب فيه إيمان ونفاق، فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة**

(١) ذم الهوى لابن الجوزى ص٥٨

(٢) روح الأرواح لابن الجوزى ص٥٣.

يمدها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه، كمثل القرحة يمدها القيح والصديد، فأى المادتين غلبت على الأخرى، غلبت عليه»(١).

وكذلك الصالحون قسموا القلوب من حيث صلابتها وقوتها إلى أقسام ثلاثة: قال السرى السقطى -رحمه الله-:

«القلوب ثلاثة: قلب مثل الجبل لا يزيله شىء، وقلب مثل النخلة، أصلها ثابت والريح تميلها، وقلب كالريشة يميل مع الريح يمينًا وشمالاً»(٢)

فتأمل قلبك من أى هذه الأنواع التى بينها طبيب القلوب ﷺ. أم من أى الأنواع التى بينها السرى رحمه الله.

صدأ القلب ودواؤه:

قال رجل للحسن البصرى -رحمه الله-: يا أبا سعيد! أشكو إليك قسوة قلبى.

قال: ادنه من الذكر(٣).

وقد روى أن رجلاً سأل السيدة عائشة رضي الله عنها:- ما دواء قسوة القلب؟.

فأمرته بعيادة المرضى وتشييع الجنائز. وتوقع الموت(٤)!!.

وشكا رجل إلى مالك بن دينار -رحمه الله- فقال:

أدمن الصيام، فإن وجدت قسوة فأقلل من الطعام(٥).

وعن إبراهيم الخواص قال: دواء القلوب خمسة أشياء: قراءة بالتدبر، وخلاء البطن، وقيام الليل، والتضرع عند السحر، ومجالسة الصالحين(٦)

ويقول عبد الله بن خبيق -رحمه الله-:

خلق الله القلوب مساكن للذكر، فصارت مساكن للشهوات! ولا يمحو الشهوات من القلوب إلا خوف مزعج، أو شوق مقلق(٧)

واعظ الله فى القلب:

فعن النواس بن سمعان رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: **«ضرب الله مثلاً صراطًا مستقيمًا، وعلى جانبى الصراط سوران، فيهما أبواب مفتحة وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى الصراط داع يدعو، يقول: يا أيها الناس، اسلكوا الصراط جميعًا ولا تعوجوا. وداع يدعو على الصراط، فإذا أراد أحدكم فتح شىء من تلك الأبواب قال: ويلك! لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تلجه»**.

---

(١) رواه أحمد فى مسنده (١١٠٧١) وصححه حمزة الزين فى تحقيق المسند جـ١٠/٥٨ ورواه أبو نعيم فى الحلية ٤/٣٨٥ والطبرانى فى الصغير وذكره الهيثمى فى المجمع ١/٦٣ وقال: رجال أحمد رجال الصحيح. (٢) حلية الأولياء ١٠/١٢٤ (٣): (٧) ذم الهوى ص ٦٢ ، ٦٣

فالصراط: الإسلام.

والستور: حدود الله.

والأبواب المفتحة: محارم الله.

والداعي من فوق: واعظ الله يذكِّر في قلب كل مسلم[١].

ويقول خالد بن معدان: ما من عبد إلا وله عينان في وجهه يبصر بهما أمر الدنيا، وعينان في قلبه يبصر بهما أمر الآخرة، فإذا أراد الله بعبد خيرًا فتح عينيه اللتين في قلبه، فأبصر بهما ما وعد الله بالغيب، وإذا أراد الله به غير ذلك، تركه على ما فيه، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

فرغ قلبك من الأخلاط:

قال محمد بن الفضل: ما خطوت أربعين سنة خطوة لغير الله عز وجل، وأربعين سنة ما نظرت في شيء أستحسنه حياء من الله عز وجل[٢]

وقال ضيغم لكلاب: إنَّ حبه تعالى شغل قلوب محبيه عن التلذذ بمحبة غيره، فليس لهم في الدنيا مع حبه لذة تداني محبته، ولا يأملون في الآخرة من كرامة الثواب، أكبر عندهم من النظر إلى وجه محبوبهم. قال: فسقط كلاب مغشيا عليه.

وعن عبد الجبار بن بشران قال: سمعت سهلاً يقول: من نظر إلى الله عز وجل قريبًا منه، بعد عن قلبه كل شيء سوى الله عز وجل، ومن طلب مرضاته أرضاه الله عز وجل، ومن أسلم قلبه تولى الله عز وجل جوارحه[٣].

وقال ابن سمعون في مجلسه: لما سمعت قول رسول الله ﷺ: «**إن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه صورة ولا تمثال**»[٤] قلت: إذا كان الملك لا يدخل بيتًا فيه صورة أو تمثال، فكيف تدخل شواهد الحق قلبًا فيه أوصاف غيره من البشر؟!.

أخا الإسلام:

كن منتفعًا بالشطر الثاني من الوصية المباركة وهي قوله ﷺ: «**فإذا سألتم الله فاسألوه وأنتم موقنون بالإجابة، فإن الله لا يستجيب لعبد دعاه عن ظهر قلب غافل**».

فهذا الشطر منها يتحدث عن أدب من آداب الدعاء لله عز وجل وهو:

أن يجزم بالدعاء، ويوقن بالإجابة، ويصدق رجاؤه فيه، ولذلك يقول النبي ﷺ: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يقبل دعاء من قلب غافل لاه»[٥].

---

(١) رواه أحمد برقم (١٧٥٦٦) صحح إسناده حمزة الزين ١٣/ ٤٤٥ وصححه الحاكم ١/ ٧٣ ووافقه الذهبي وقال الألباني في تخريج أحاديث المشكاة ١/ ٦٧ وهو كما قال.

(٢)، (٣) ذم الهوى ص ٦٩، ٧٠

(٤) رواه البخاري (٣٢٥٥) ومسلم (٨٧) وأحمد ١١٧٩٧

(٥) رواه الترمذي وصححه الألباني في ص.ج برقم ٢٤٥

قال سفيان بن عيينة -رحمه الله تعالى-: لا يمنعن أحدكم من الدعاء ما يعلم من نفسه، فإن الله عز وجل أجاب دعاء شر الخلق. إبليس اللعين، إذ قال: ﴿**قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**﴾ [الحجر ٣٦].

ويقول الله تعالى فى حديثه القدسى: «**يابن آدم، إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى، يابن آدم، لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك، يابن آدم لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا لأتيتك بقرابها مغفرة**»[1]

فإذا دعوت ربك بقلب غافل لاه فكيف يستجيب لك؟

ولذلك لما مرَّ إبراهيم بن أدهم رحمه الله على قومه وهم فى السوق، التفوا حوله، وقالوا له: يا إبراهيم، لماذا ندعو فلا يستجاب لنا؟.

فقال رحمه الله: لأن القلوب ماتت فى عشرة أشياء: عرفتم الله فلم تؤدوا حقه، وزعمتم حب النبى وتركتم سنته، وقرأتم القرآن، ولم تعملوا به، وأكلتم نعمة الله ولم تؤدوا شكرها، وقلتم: إن الشيطان عدوكم ووافقتموه، وقلتم: إنَّ الجنة حق ولم تعملوا لها، وقلتم: إن النار حق، ولم تهربوا منها، وقلتم. إنّ الموت حق ولم تستعدوا له، وانشغلتم بعيوب الناس ونسيتم عيوبكم، ودفنتم موتاكم ولم تعتبروا بهم».

فإذا ما غفل القلب، وأصيب بمرض الغفلة فأنى يستجاب لصاحبه؟!.

لأن القلوب هى محل الأنوار، ومورد الزوائد من الجبار، ولأن الله جعل القلب أميرا.

فقال: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ**﴾ [ق: ٣٧].

ثم جعله لديه أسيرًا، فقال: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ**﴾ [الأنفال: ٢٤].

فالقلوب كما قال سيد الأحباب ﷺ «**القلوب أوعية ...**».

وقال على الفارسى رحمه الله: القلوب أوعية وظروف، وكل وعاء وظرف لنوع من المحمولات، فقلوب الأولياء أوعية المعارف، وقلوب العارفين أوعية المحبة، وقلوب المحبين أوعية الشوق، وقلوب المشتاقين أوعية الأنس، ولهذه الأحوال آداب من لم يستعملها فى أوقاتها هلك من حيث يرجو به النجاة[2]

• موعظة •

فيا أخى:

يا من يرحل كل يوم مرحلة، وكتابه قد حوى حتى الخردلة، ما ينتفع بالنذير والنذر

(١) رواه الترمذى بإسناد حسن (٣٥٤).

(٢) حلية الأولياء لأبى نعيم ١٠/ ٣٦٢ ٣٦٣

متصلة، ولا يصغى إلى ناصح وقد عزله، ودروعه مخرقة، وللسهام مرسلة، ونور الهدى قد بدا، ولكن ما رآه ولا تأمله، قد انعكف بعد الشيب على العيب بصبابة ووله. كن كيف شئت فبيننا الحساب والزلزلة، ونعّم جلدك فلابد للديدان أن تأكله، فيا عجبًا من فتور مؤمن موقن بالجزاء والمسألة.

ويحك يا هذا! من استدعاك وفتح لك منزله، فقد أولاك لو علمت منزلة، فبادر ما بقى من عمرك، واستدرك أوله، فبقية عمر المؤمن جوهرة لا قيمة لها[(١)]

فيارب

أشكو إليك ذنوبًا لست أنكرها ... وقد رجوتك ياذا المن تغفرها

من قبل سؤالك لى فى الحشر يا أملى ... يوم الجزاء على الأهوال تذكرها

أرجوك تغفرها فى الحشر يا أملى ... إذ كنت سؤلى كما فى الأرض تسترها[(٢)]

اللهم اجعل زخرف الطاعة لى شعارًا، ومرضاتك لى دثارا، وزد قلوبنا بخوفك واعصمنا من سخطك، يا من هو عند ألسن الناطقين، ويا من هو عند قلوب الذاكرين، ويا من هو عند فكرة الحامدين، ثبت قلوبنا على دينك، وقوها بحفظ كتابك. يا رب العالمين.

الوصية رقم (٣٦)

آثروا ما يبقى على ما يفنى

عن أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من أحب دنياه أضر بآخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنياه. فآثروا ما يبقى على ما يفنى**»[(٣)].

صدق رسول الله ﷺ

• فى رحاب هذه الوصية •

كن أخا الإسلام منتفعًا بهذه الوصية العظيمة، لأن فيها ترغيب فى الإقبال على الحياة الأخروية، فهى دار البقاء ﴿وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [الأعلى: ١٧].

فالدنيا كلها يوم واحد بعث رسول الله ﷺ فى آخره قبل غروب شمسه بيسير، ويوضح ذلك حديث أبى سعيد رضي الله عنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ العصر نهارًا، ثم قام فخطبنا فلم يترك شيئًا قبل قيام الساعة إلا أخبر به، حفظهُ من حفظه ونسيه من نسيه، وجعل الناس يلتفتون إلى الشمس، هل بقى منها شىء؟ فقال ﷺ: «**ألا إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقى من يومكم هذا فيما مضى منه**»[(٤)] وفى رواية لابن عمر

(١) الكَبائر للذهبى ص ١٢٨ (٢) الحلية ١٠/ ٦٣

(٣) رواه أحمد فى مسنده (١٩٥٨٥) جـ٧/١٥ بإسناد صحيح وذكره الهيثمى فى المجمع١٠/ ٢٤٩ ورواه الحاكم٤/ ٣٠٨ وقال: حديث صحيح ووافقه الذهبى ورواه البيهقى٣/ ٣٧٠ وابن حبان (٧٠٩).

(٤) رواه الترمذى (٢١٩٢) وقال: حسن صحيح ورواه أحمد فى مسنده.

قال: خرج علينا رسول الله ﷺ والشمس على أطراف السعف، فقال: «**ما بقى من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقى من يومكم هذا فيما مضى**»(١)

فإذا كان حالها هكذا أخى الحبيب، فلم تؤثرها على الباقية؟ لم تؤثرها على دار البقاء والخلود؟ لم تؤثرها على روح وريحان وجنة نعيم إن كنت من عباد الله المقربين يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:

إن الله جعل الدنيا كلها قليلاً، فما بقى منها إلا قليل من قليل. ومثل ما بقى منها كالثغب شرب صفوه، وبقى كدره.

• لا تؤثر الفناء على البقاء •

فما مثلها إلا كمثل حوض كبير مُلِئَ ماء، وجعل موردًا للأنام والأنعام، فجعل الحوض ينقص على كثرة الوارد، حتى لم يبق منه إلا كدرٌ فى أسفله، قد بالت فيه الدواب وخاضته الناس والأنعام.

كما روى مسلم فى صحيحه: عن عتبة بن غزوان أنه حمد الله وأثنى عليه ثم قال: «**أما بعد فإن الدنيا قد آذنت بصرم، وولت حَذَّاء، ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء. يتصابها صاحبها، وإنكم منتقلون منها إلى دار لا زوال لها، فانتقلوا بخير ما بحضرتكم، فإنه قد ذكر لنا أن الحجر يلقى من شفة جهنم، فيهوى فيها سبعين عامًا لا يدرك لها قعرًا..**».

لا تؤثر ما مثلت بمنام، والعيش فيها بالحلم، والموت باليقظة على ما فيها الخلود والبقاء.

لا تؤثر من مثلت بطعام مسموم لذيذ الطعم، طيب الرائحة، من تناول منه قدر حاجته كان فيه الشفاء، ومن زاد على حاجته كان فيه حتفه، على ما فيها لحم طير مما يشتهون وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون.

لا تؤثر من مثلت بالطعام فى المعدة، إذا أخذت الأعضاء منه حاجتها، فحبسه قاتل أو مؤذ، ولا راحة لصاحبه إلا فى خروجه على ما فيها سدر مخضود: ﴿**وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ**﴾ [الواقعة: ٢٩ - ٣٤].

هل تؤثر ما مثلت بامرأة من أقبح النساء، وقد انتقبت على عينين فتنت بهما الناس وهى تدعو الناس إلى منزلها، فإذا أجابوها، كشفت لهم عن منظرها، وذبحتهم بسكاكينها، وألقتهم فى الحفر، وقد سلطت على عشاقها تفعل بهم ذلك قديمًا وحديثًا

(١) رواه ابن أبى الدنيا بإسناد حسنه العراقى فى تخريج الإحياء.

والعجب أن عشاقها يرون إخوانهم صرعى قد حلت بهم الآفات، وهم ينافسون في مصارعهم[١]: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم: ٤٥] هل تؤثر ذلك على من قال الله عنهن في الباقية: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ [الواقعة: ٣٥: ٣٧].

ويكفي أن رسول الله ﷺ عرضت عليه مفاتيح كنوزها، ولو أخذها لكان أشكر خلق الله بها، ولم تنقصه مما له عند الله شيئًا، فاختار جوع يوم، وشبع يوم، ومات ودرعه مرهونة على طعام لأهله.

• أقسام الناس تجاه الفانية •

وقد انقسم الناس بعد رسولنا محمد ﷺ إلى أربعة أقسام:

١- قسم لم يريدوا الدنيا ولم تردهم، كأبي بكر الصديق رضي الله عنه ومن سلك سبيله.

٢- قسم أرادتهم الدنيا ولم يريدوها، كعمر بن الخطاب رضي الله عنه ومن سلك سبيله.

٣- وقسم أرادوا الدنيا وأرادتهم، كخلفاء بني أمية ومن سلك سبيلهم، عدا عمر بن عبد العزيز، فقد أرادته الدنيا، لكنه لم يردها.

٤- وقسم أرادوها ولم تردهم، كمن أفقر الله منها يده، وأسكنها في قلبه، وامتحنه بجمعها.

ولا يخفى أن خير الأقسام: القسم الأول، والثاني إنما فضل لأنه لم يردها فالتحق بالأول[٢].

• فليكن بلاغ المسلم منها كزاد الراكب •

فهذا هو سلمان الفارسي رضي الله عنه بلغ من زهده وورعه أنه كان يخشى أن تبسط عليه الدنيا، فقد قيل رئي سلمان في سرية هو أميرها على حمار وعليه سراويل والجند يقولون: جاء الأمير.

وعن مالك بن أنس أن سلمان الفارسي كان يستظل بالفيء حيثما دار، ولم يكن له بيت، فقال له رجل: ألا نبني لك بيتًا تستظل به من الحر، وتسكن فيه من البرد؟ فقال سلمان: نعم، فلما أدبر صاح به فسأله: كيف تبنيه؟ قال: أبنيه إن قمت أصاب رأسك، وإن اضطجعت فيه أصاب رجليك، قال سلمان: نعم[٣]

سلمان الفارسي رضي الله عنه، كان إذا سئل عن اسمه، قال: عبد الله.

وعن نسبه، قال: ابن الإسلام.

---

(١) عدة الصابرين لابن القيم ص٢٧٤ بتصرف.
(٢) عدة الصابرين ص٢٧٥.
(٣) صفة الصفوة ١/ ٢٣٤

وعن ماله، قال: الفقر.

وعن حانوته، قال: المسجد.

وعن كسبه، قال: الصبر.

وعن لباسه، قال: التقوى والتواضع.

وعن وساده، قال: السهر في طاعة الله.

وعن فخره، قال: سلمان منا آل البيت.

وعن سيره، قال: إلى الجنة.

وعن دليله في الطريق، قال: إمام الخلق، وهادى الأئمة(١)

وعن أنس رضي الله عنه قال: دخل سعد وابن مسعود عـلى سلمان عند الموت فبكى، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: عهد إلينا رسول الله ﷺ عهداً لم نحفظه، قال: «ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب».

وأما أنت يا سعد، فاتق الله فى حكمك إذا حكمت، وفى قسمك إذا قسمت، وعند همك إذا هممت.

قال ثابت: فبلغنى أنه ما ترك إلا بضعة وعشرين درهما نفيقة كانت عنده(٢)

• آثر ثواب الآخرة على شهوات نفسك •

فالدنيا دار تعب، ولذلك كان نزول آدم إلى دار التعب صعوداً لا هبوطاً.

يا آدم، لا يغرنك قول: ﴿اهْبِطُوا مِنْهَا﴾ [البقرة: ٣٨] ففى كل يوم يُنادى ألف ألف مرة ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾ [يونس: ٢٥].

نزل آدم إلى دار المجاهدة، فـظهر من ثمرته صـبر الخليل، وثبوت الذبيـح، وجهاد يوسف، وكمال محمد، ثم جاء الأولياء فى هذه الأمة فخجلت عند زهدهم الرهبنة.

وهذا هو سيدنا عـبد الله بن مـسعود رضي الله عنه يقول عنه الأحوص الجـشمى: دخلنا على ابن مســعود وعنده بنون لـه -ثلاثة غلمان- كـأنهم الدنانيـر حسنًا، فجـعلنا نتعـجب من حسنـهم، فقال لـنا: كأنكم تغـبطونى بهم. قـلنا: والله إى والله، بمثل هؤلاء يغـبط المرء المسلم.

فرفع رأسه إلى سقـف بيت له صغير، قد عشش فيـه خطَّاف وباض، فقال: والذى نفسـى بيده، لأن أكون قـد نفضت يدى عن تراب قـبورهم أحب إلى أن يسـقط عش هذا الخطاف، وينكسر بيضه.

---

(١) الفوائد لابن القيم ص٤٩.

(٢) رواه ابن ماجه بإسناد صـحيح (٤١٠٤) جـ٢/ ١٣٧٤ ورواه الحاكم٤/ ٣١٧ وصححـه ووافقه الذهبى ورواه الترمذى.

وكان ﷺ يقول: حبذا المكروهات: الموت والفقر، وأيم الله إنْ هو إلا الغنى والفقر، وما أبالي بأيهما بليت، إن حق الله في كل واحد منهما واجب، وإن كان الغنى إن فيه للعطف -أي على المساكين- وإن كان الفقر إن فيه للصبر[١]

وكان يعظ أصحابه فيقول لهم: إنكم في ممر من الليل والنهار في آجال منقوصة، وأعمال محفوظة، والموت يأتي بغتة، فمن زرع خيرًا يوشك أن يحصد رغبة، ومن زرع شرًا يوشك أن يحصد ندامة، ولكل زارع مثل ما زرع، لا يسبق بطئ بحظه، ولا يدرك حريص، مالم يقدر له، فإن أعطى خيرًا فالله أعطاه، ومن وقى شرًا فالله وقاه»[٢]

• أعرض عمَّا يفنى، وأقبل على ما يبقى •

حكى أن ملكًا من ملوك الدنيا، تفكر فيما هو فيه من أمور الدنيا، فعلم أن ما هو فيه منقطع وأن آخره الموت، فانساب من قصره ليلاً حتى أتى ساحل البحر، فجعل يضرب اللبن -أي الطوب النيئ- وجعل يقتات بثمنه، ويعبد الله عز وجل، فبلغ ذلك ملكًا كان بالقرب منه، فبعث إليه رسولاً ليستدعيه، فأبى أن يأتيه، فبعث إليه ثانية، فأبى أن يخرج، فخرج إليه الملك بنفسه، فلما رآه الملك العابد فرَّ منه، فتبعه الملك وهو يقول: «يا عبد الله، لا بأس عليك، فلم يلتفت إليه، فجعل يؤانسه ويلاطفه حتى سكن إليه، فقال له: ما حملك على اختيار هذه الأرض؟ قال: وجدت قلبي في مفارقة بني آدم. قال له: فكيف تصبر على الوحدة؟

قال: من أنس بالله استوحش من سواه.

قال: فما سبب خروجك من ملكك؟

قال: ذكرت عاقبة ما أنا فيه، فرأيتها تؤول إلى الزوال، فأعرضت عما يفنى، وأقبلت على طلب ما يبقى، وفررت من ذنبي إلى ربي.

فقال الملك: ما أنت أحق مني بالخوف من ربي، ثم خلى الملك الثاني سبيل دولته، فكانا يعبدان المولى عز وجل[٣]

• مالي وللدنيا.. •

إن رسول الأمة ﷺ يريد أن يعلم الأمة درسًا عظيمًا في حب ما تبقى، وبغض ما يفنى، يريد منهم أن يقبلوا على الآخرة، ويعرضوا عن الدنيا، فيقول لهم: «ما لي وللدنيا، إنما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب قال -أي نام وقت الظهيرة- في ظل شجرة ثم راح وتركها»[٤].

---

(١) صفة الصفوة١/ ١٧٤ (٢) المرجع السابق١/ ١٧٥ والزهد لأحمد.

(٣) المواعظ والمجالس لابن الجوزي ص١٤ مكتبة الإيمان.

(٤) رواه الترمذي في الزهد (٢٣٧٨) وأحمد في مسنده (٢٧٤٤) وقال الترمذي حسن صحيح وابن ماجه في الزهد (٤١٠٩) بإسناد صحيح وصححه الألباني في ص.ج (٥٦٦٨).

وإلى هذا أشار المسيح عيسى عليه السلام بقوله: «الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها» وهذا مثل صحيح، فإن الحياة معبر إلى الآخرة، والمهد هو الركن الأول للقنطرة واللحد وهو الركن الثانى على الآخرة، ومن الناس من قطع نصف القنطرة، ومنهم من قطع ثلثيها، ومنهم من لم يبق له إلا خطوة واحدة، وهو غافل عنها.

ويقول المسيح أيضًا: «لا تتخذوا الدنيا ربًا فتتخذكم عبيدا، واعبروها ولا تعمروها، واعلموا أن أصل كل خطيئة حب الدنيا، ورب شهوة أورثت أهلها حزنًا طويلاً، ما سكنت الدنيا فى قلب عبد إلا أناط -أى تعلق- قلبه منها بثلاثة شغل لا ينفك عناؤه، وفقر لا يدرك غناؤه، وأمل لا يدرك منتهاه».

• لا مكان للفانية فى قلوب الصالحين •

أخى الحبيب:

لم تكن الفانية لها أى أثر فى قلوب الأولياء والصالحين، لأنهم كانو يؤثرون الباقية على الفانية، فهذا هو

١- **الحسن البصرى** -رحمه الله- يقول: رحم الله عبدًا جعل العيش عيشًا واحدًا، رحم الله رجلاً لبس خلقًا، وأكل كسرة، ولصق بالأرض، وبكى على الخطيئة ودأب فى العبادة، وهرب من العقوبة ابتغاء الرحمة، حتى يأتيه أجله وهو على ذلك وهذا هو:

٢- **إبراهيم بن أدهم** -رحمه الله-: قال ابن بشار: خرجت أنا وإبراهيم بن أدهم، وأبو يوسف الغسولى، وأبو عبد الله السنجارى نريد الإسكندرية، فمررنا بنهر يقال له: «نهر الأردن» فقعدنا نستريح، وكان مع أبى يوسف كسيرات يابسات، فألقاها بين أيدينا، فأكلنا وحمدنا الله عز وجل، فقمت أسعى أتناول ماء لإبراهيم، فبادر إبراهيم فدخل النهر حتى بلغ الماء إلى ركبتيه، فأخذ بكفيه من الماء، فملأها ثم قال: بسم الله، وشرب، ثم قال: الحمد لله، وفعل ذلك ثلاثًا، ثم مد رجليه فى الماء وقال: يا أبا يوسف، لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من النعيم والسرور لجالدونا عليه بالسيوف أيام الحياة...[١].

٣- **محمد بن واسع** -رحمه الله-: لقد كان رحمه الله تعالى فى فتح يزيد بن المهلب لجرجان سنة ٩٨ هـ قالوا: أصاب يزيد بن المهلب أموالاً كثيرة جدًا، فكان من جملتها تاج فيه جواهر نفيسة، فقال: أترون أحدًا يزهد فى هذا؟ قالوا: لا نعلمه.

قال: والله إنى لأعلم رجلاً، لو عرض عليه هذا وأمثاله، لزهد فيه، ثم دعا بمحمد ابن واسع وكان فى الجيش مغازيًا، فعرض عليه أخذ التاج، فقال: لا حاجة لى فيه، فقال: أقسمت عليك لتأخذنه، فأخذه، فلما خرج به من عنده، أمر يزيد رجلاً أن يتبعه فينظر ماذا يصنع بالتاج، فمرَّ به سائل، فطلب منه شيئًا فأعطاه التاج بكماله، وانصرف[٢].

(١) صفة الصفوة لابن الجوزى ٤/ ١٠٢ وحلية الأولياء ٧/ ٣٧٠.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٩/ ١٨٣

•موعظة•

الواجب على العاقل أن لا يغتر بالدنيا وزهرتها، وحسنها وبهجتها، فلا يشتغل بها عن الآخرة الباقية، والنعم الدائمة، بل ينزلها حيث أنزلها الله تعالى، لأن عاقبتها لا محالة صائرة إلى الفناء، فيخرب عمرانها، ويموت سكانها، وتذهب بهجتها، وتبيد خضرتها، فلا يبقى رئيس متكبر مؤمَّرٌ، ولا فقير مسكين محتقر إلا ويجرى عليهم كأس المنايا، ثم يصيرون إلى التراب.

فالعاقل لا يركن إلى دار هذا نعتها، ولا يطمئن إلى دنيا هذه صفتها، وقد ادخر له، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فيضن بترك هذا القليل، ويرضى بفوت ذلك الكثير.

لا تأس فى الدنيا على فائت وعندك الإسلام والعافية
إن فات أمر كنت تسعى له ففيهما من فائت كافية

أخى الحبيب:

الدنيا بحر طافح، والناس فى أمواجها يعومون، فمن أوتى من الدنيا أشياء ثلاثة فقد أوتى الدنيا بحذافيرها: الأمن، والقوت، والصحة، لا يغتر بشىء منها إلا كل خداع ولا يركن إليها إلا كل مناع.

فالعاقل يعلم أن مالم يبق لغيره عليه غير باق، وأن ما سلب عن غيره لا يترك عليه فاترك الاغترار بها، والاعتبار بتقلبها بأهلها، فمن اشتهى أن يكون حرًّا فليجتنب الشهوات، وإنْ كانت لذيذة، وليعلم أن كل لذيذ ليس بنافع، ولكن كل نافع هو اللذيذ، وكل الشهوات مملولة إلا الأرباح فإنها لا تمل، وأعظم الأرباح الجنة، والاستغناء بالله عن الناس.

«فإذا استغنى الناس بالدنيا فاستغن أنت بالله، وإذا فرحوا بالدنيا فافرح أنت بالله، وإذا أنسوا بأحبابهم، فاجعل أنسك بالله، وإذا تعرفوا إلى ملوكهم وكبرائهم وتقربوا إليهم لينالوا بهم العزة والرفعة، فتعرف أنت على الله وتودد إليه تنل غاية العز والرفعة»(١)

اللهم نسألك أن تفك أسرنا من قيد الذنوب، وارحم تضرعنا إليك يا كاشف ضر أيوب، ولا تطردنا عن بابك، ولا تحرمنا يوم القيامة من النظر إلى وجهك الكريم.

---

(١) الفوائد لابن القيم ص١٣٢

الوصية رقم (٣٧)
انظروا إلى من هو أسفل منكم

عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم**»(١)

صدق رسول الله ﷺ

• فى رحاب هذه الوصية •

أخى الحبيب:

إن هذه الوصية الجليلة من سيد الأنام محمد ﷺ وهو طبيب القلوب، إنه يداوى الجراح ببلسمه الشافى، فيصف الدواء هنا لأولئك الذين امتحن الله قلوبهم بالفقر، أو أولئك الذين يعيشون فى هذه الدنيا، ويأكلون نعم الله ولا يشكرونها، لأنهم ينظرون دائمًا، ويتطلعون إلى من فوقهم، لذلك فإن هذه الوصية جامعة لكل معانى الخير، لأن المرء لا يكون بحال تتعلق بالدين من عبادة ربه مجتهدًا فيها إلا وجد من فوقه، فمتى طلبت نفسه اللحاق به استقصر حاله، فيكون أبدًا فى زيادة تقربه من ربه.

ولا يكون على حال خسيسة من الدنيا إلا وجد من أهلها من هو أخس حالاً منه، فإذا تفكر فى ذلك عرف أن نعمة الله تعالى قد وصلت إليه دون كثير ممن فضل عليه بذلك من غير أمر أوجبه، فيلزم نفسه الشكر، فيعظم اغتباطه بذلك فى معاده.

وفى الوصية دواء الداء، لأن الشخص إذا نظر إلى من هو فوقه، لم يأمن أن يؤثر ذلك فيه حسدًا، ودواؤه أن ينظر إلى من هو أسفل منه، ليكون ذلك داعيًا إلى الشكر(٢).

حقًا إنك إذا نظرت إلى من هو أعلى منك أصبت بالضجر والقلق، وعدم شكر نعمة الله عليك لكنك إن تأملت من هو أقل منك فى الدنيا، فى المال، فى الصحة، فى الملبس، فى المأكل، فى المشرب، فى المسكن، فى العمل، فى كل الأمور الدنيوية، سيكون ذلك حافزا على مزيد من الطاعة لمن أولاك نعمه، وشكرًا له على نعمائه، فافهم أخى الحبيب هذا وتأمله.

• ازهد فى الدنيا يحبك الله •

أخى الحبيب:

اعلم أنه لم تتم الرغبة فى الآخرة إلا بالزهد فى الدنيا، ولا يستقيم الزهد فيها إلا بعد أن تنظر نظرتين صحيحتين: -

---

(١) رواه البخاري (٦٤٩٠) ومسلم (٢٩٦٣) والترمذي (٢٤٥٣) وابن ماجه (٤١٣٨).

(٢) حب الدنيا لفضيلة الشيخ / مجدي فتحي السيد بتصرف ص٦٥ دار الصحابة.

النظرة الأولى: أن تنظر فى الدنيا، وسرعة زوالها، وفنائها، ونقصها، وخستها، وألم المزاحمة عليها، والحرص عليها، وما فى ذلك من الغصص، والنغص، والأنكاد، وآخر ذلك الزوال والفناء، وما يعقبه من الحسرة والأسف.

النظرة الثانية: أن تنظر إلى الآخرة بعين قلبك وفكرك، وتعلم أنها آتية لا ريب فيها، وأن مجيئها لابد منه، وأن تفكر إلى شرف ما فيها من الخيرات والجنات، يقول سبحانه: ﴿وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [الأعلى:١٧].

فخيرات الدنيا زائلة فانية، وخيرات الآخرة دائمة باقية. خيرات الدنيا كلها آهات وحسرات، وعقبات، لكن خيرات الآخرة فيها، خيرات حسان، جوار وولدان، وريح وريحان، وحور عين: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ [النساء: ٧٧].

يقول ابن القيم(١): فإذا تم له هذان النظران آثر ما يقتضى العقل إيثاره، وزهد فيما يقتضى الزهد فيه. فكل أحد مطبوع على أن لا يترك النفع العاجل، واللذة الحاضرة إلى النفع الآجل، واللذة الغائبة المنتظرة، إلا إذا تبين له فضل الآجل على العاجل، وقويت رغبته فى الأعلى الأفضل، فإن آثر الفانى الناقص، كان ذلك إما لعدم تبين الفضل له، وإما لعدم رغبته فى الأفضل.

وكل واحد من الأمرين يدل على ضعف الإيمان، وضعف العقل والبصيرة. فإن الراغب فى الدنيا الحريص عليها، المؤثر لها، إما أن يُصدِّق بأن ما هناك أشرف وأفضل وأبقى، وإما أن لا يصدق، فإن لم يصدق بذلك كان عادمًا للإيمان رأسًا، وإن صدق بذلك ولم يؤثره، كان فاسد العقل، سيئ الاختيار لنفسه وهذا تقسيم حاصر ضرورى، لا ينفك العبد من أحد القسمين منه.

فإيثار الدنيا على الآخرة، إما من فساد فى الإيمان، وإما من فساد فى العقل، وما أكثر ما يكون منهما، ولهذا نبذها الرسول ﷺ وراء ظهره، هو وأصحابه وصرفوا عنها قلوبهم، وطرحوها ولم يألفوها، وهجروها، ولم يميلوا إليها، وعدوها سجنًا لا جنة، فزهدوا فيها حقيقة الزهد، ولو أرادوها لنالوا منها كل محبوب، ولوصلوا منها إلى كل مرغوب.

فقد عرضت عليهم مفاتيح كنوزها فردوها، ولم يبيعوا حظهم من الآخرة بها، وعلموا أنها معبر وممر، لا دار مقام ومستقر، وأنها دار عبور لا دار سرور، وأنها سحابة صيف تنقشع عما قليل، وخيال طيف ما استتم الزيارة حتى أذن بالرحيل(٢)

---

(١) الفوائد لابن القيم ص١٠٧ بتصرف ط/ دار الحياة.

(٢) الفوائد لابن الجوزى بتصرف واختصار ص١٠٨

ولذلك ضرب لها سيد الزاهدين المثل فقال ﷺ: «**ما لي وللدنيا، إنما أنا كراكب استظل بشجرة ثم راح وتركها**»[١] ورغب أصحابه وأتباعه في الزهد فيها فقال لهم «**ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس**»[٢].

ويوضح الرسول ﷺ لأمته أن من أحبه الله تعالى حماه من الدنيا، ومن شرها وخطرها كما يحمى أحدنا قريبه السقيم المريض لذيذ الطعام، وحلوالشراب، خوفًا عليه من زيادة المرض والسقم، فيقول ﷺ: «**إن الله تعالى ليحمي عبده المؤمن الدنيا وهو يحبه كما تحمون مريضكم الطعام والشراب، تخافون عليه**»[٣]

والمقصود بحب الله تعالى لعبده: إرادة الخير له، وإعطاؤه الثواب بما يصبه عليه من البلاء فهو يحول بينه وبين لذات الدنيا، لئلا يمرض قلبه بحبها، وينشغل بمتاعها.

فهنيئًا لمن حماه الله من شر الدنيا وشهواتها، فعن الفضيل بن عياض -رحمه الله- أن الله أوحى إلى موسى عليه السلام:

«**يا موسى، أيحزن عبدى المؤمن أن أزوى عنه الدنيا، وهو أقرب له منى، ويفرح أن أبسط له الدنيا، وهو أبعد له منى**»[٤]

• القرآن الكريم يحث على الزهد في الدنيا •

وكما يقول الإمام ابن القيم:

القرآن مملوء من التزهيد في الدنيا، والإخبار بخستها، وقلتها وانقطاعها، وسرعة فنائها، والترغيب في الآخرة، والإخبار بشرفها ودوامها، فإذا أراد الله بعبد خيرًا أقام في قلبه شاهدًا يعاين به حقيقة الدنيا والآخرة، ويؤثر منهما ما هو أولى بالإيثار[٥]

ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿**قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً**﴾ [النساء: ٧٧] لأن متاع الآخرة كثير، وباق لا نفاد له، ولا زوال، وهي وإن كانت خيرًا للمتقين، فهي شر ووبال على المجرمين.

وقال تعالى: ﴿**وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ [الزخرف: ٣٣: ٣٥].

---

(١) خرج في موضع آخر وقد رواه أحمد والترمذي وابن ماجه وهو في ص.ج للألباني برقم (٥٦٦٨).

(٢) ص.ج للألباني (٩٢٢).

(٣) رواه أحمد في مسنده (٢٣٥١٣) بإسناد صحيح ورواه الحاكم وصححه٤/ ٢٠٨ وأقره الذهبي وذكره الهيثمي في المجمع٢/ ٢٩١ والمنذري في الترغيب وقالا رجاله ثقات.

(٤) ذكره أبو نعيم في حلية الأولياء ٨/ ١ ١بإسناد حسن.

(٥) مدارج السالكين لابن القيم٢/ ١٠ ط/ دار الحديث.

وقال سبحانه: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

وقال سبحانه: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ١٤] والآيات كثيرة كما ذكر الإمام ابن القيم.

• أقوال السلف في الزهد •

وقد أكثر الناس من الكلام في الزهد، فكل أشار إلى ذوقه، ونطق عن حاله، يقول ابن القيم: سمعت ابن تيمية - يقول: الزهد ترك ما لا ينفع في الآخرة. والورع ترك ما تخاف ضرره في الآخرة.

وهذه العبارة أحسن ما قيل في «الزهد والورع» وأجمعها[(١)]

وقال أبو سليمان الداراني -رحمه الله-: الزهد ترك ما يشغل عن الله[(٢)].

وقال الإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله-: الزهد على ثلاثة أوجه: ترك الحرام وهو زهد العوام.

والثاني: ترك الفضول من الحلال، وهو زهد الخواص.

والثالث: ترك ما يشغل العبد عن الله تعالى، وهو زهد العارفين[(٣)]

وقال رجل ليحيى بن معاذ: متى أدخل حانوت التوكل، وألبس رداء الزهد وأقعد مع الزاهدين؟ فقال: «إذا صرت من رياضتك لنفسك في السر إلى حد لو قطع الله عنك الرزق ثلاثة أيام لم تضعف في نفسك، فأما ما لم تبلغ هذه الدرجة فجلوسك على بساط الزاهدين جهل، ثم لا آمن عليك أن تفتضح»[(٤)]

وقال أيضًا: «لا يبلغ أحد حقيقة الزهد حتى يكون فيه ثلاث خصال: عمل بلا علاقة، وقول بلا طمع، وعز بلا رياسة».

وقال الجنيد -رحمه الله- سمعت سريًا يقول: إنَّ الله عز وجل سلب الدنيا عن أوليائه، وحماها عن أصفيائه، وأخرجها من قلوب أهل وداده، لأنه لم يرضها لهم.

وقال: الزهد في قوله تعالى: ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٣].

نزل أعرابي بقوم، فقدموا له طعامًا ثم قام إلى ظل خيمة لهم، فنام هناك، فاقتلعوا الخيمة فأصابته الشمس فانتبه، وقام وهو يقول:

ألا إنما الدنيا كظل بنيته ... ولابد يومًا أن ظلك زائل[(٥)]

---

(١) مدارج السالكين٢/ ١٠، ١١ (٢) الرسالة القشيرية ص١٩١ ومدارج السالكين٢/ ١٢

(٣) المرجع السابق ص١٩٢ والمدارج٢/ ١٣ (٤) المرجع السابق٢/ ١٢ والرسالة ص٩١.

(٥) حب الدنيا لفضيلة الشيخ/ مجدي فتحي السيد ص٩٠ دار الصحابة.

• الزهد في سنة النبي ﷺ •

عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول فى دعائه: **«اللهم أحينى مسكينًا، وأمتنى مسكينًا، واحشرنى فى زمرة المساكين»**(١).

وكان صلوات ربى وتسليماته عليه يقول: **«طوبى لمن هدى إلى الإسلام وكان عيشه كفافًا، وقنع»**(٢)

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«من كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه، وفرق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له، ومن كانت الآخرة همه، جعل الله غناه فى قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهى راغمة»**(٣).

وعن أبى رجاء العطارى قال: سمعت ابن عباس رضي الله عنهما يقول: قال رسول الله ﷺ: **«اطلعت فى الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء، واطلعت فى النار فرأيت أكثر أهلها النساء»**(٤)

بل لقد ورد أن الفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم، وأنت تعلم طول اليوم عند ربك: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عند رَبِّكَ كَأَلْف سَنَة مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧].

فعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم، وهو خمسمائة عام»**(٥).

ولذلك أمرنا الرسول الأعظم ﷺ بأن نتجنب فتنتها، لأنها تحسن فى نفوس أصحابها، فقال فى الحديث الذى رواه أبو سعيد الخدرى رضي الله عنه: **«إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء»**(٦)

يقول النووى فى شرح مسلم: «الدنيا خضرة حلوة» يحتمل أن المراد به شيئان: أحدهما: حسنها للنفوس، ونضارتها ولذتها كالفاكهة الخضراء الحلوة، فإن النفوس تطلبها طلبًا حثيثًا، فكذا الدنيا.

والثانى: سرعة فنائها كالشىء الأخضر فى هذين الوصفين(٧)

---

(١) رواه ابن ماجه والطبراني في الكبير وصححه الألباني في ص.ج برقم (١٢٦١).

(٢) رواه الترمذي وصححه الألباني في ص.ج (٣٩٣١).

(٣) رواه الترمذي وهو في ص.ج للألباني (٦٥١٠). (٤) رواه مسلم (٢٧٣٧) والبخاري (٦٤٤٩).

(٥) رواه الترمذي وأحمد وابن ماجه وهو صحيح كما فى ص.ج للألباني برقم (٨٠٧٦).

(٦) رواه مسلم (٢٧٤٢). (٧)صحيح مسلم بشرح النووي جـ٩/ ٥٥ ط/ دار الفجر.

فهو ينظر هل تعملون فيها بطاعته، أم بمعصيته وشهواتكم.

وجاء أبو ذر رضي الله عنه إلى النبي ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: **«يا أبا ذر، أترى كثرة المال هو الغنى؟»**. قلت: نعم يا رسول الله. فقال: **وترى قلة المال هو الفقر؟**. قلت: نعم يا رسول الله. فقال النبي ﷺ: **«ليس كذلك، إنما الغنى غنى القلب، والفقر فقر القلب»**[1].

لقد أعطى الرسول ﷺ لأبي ذر والأمة أجمع درسًا تربويًا يجب أن يعيه كل مسلم، وهذا الدرس يقرر فيه الرسول ﷺ أن الغنى يكون محله القلب، فإن غنى القلب غنيت يداه، وإن افتقر لم ينفعه شيء.

ورحم الله القائل:

طوبى لمن رزق الكفا ف وكان منه في الكفاية
فلهذه الدنيا الدنيـ ـية والمقام بها نهاية
وذهاب من كان قبلك فيه موعظة وآية

ورحم الله أبا حازم المديني عندما قال: وجدت الدنيا شيئين: فشيء منها هو لي، فلن أعجله قبل أجله، ولو طلبته بقوة السموات والأرض. وشيء منها هو لغيري، فذلك ما لم أنله فيما مضى، ولا أرجوه فيما بقي، فيمنع الذي لغيري مني، ففي أي هذين أفني عمري؟.

ووجدت ما أعطيته في الدنيا شيئين: فشيء يأتي أجله قبل أجلي، فأغلب عليه، وشيء يأتي أجلي قبل أجله فأموت، وأخلفه لمن بعدي.

ففي أي هذين أعصي ربي؟![2].

• الزهد لا يعني تحريم الحلال، ولا إضاعة المال •

يقول ابن القيم[3]:

والذي أجمع عليه العارفون أن الزهد سفر القلب من وطن الدنيا، وأخذه في منازل الآخرة، وعلى هذا صنف المتقدمون كتب الزهد، كالزهد لعبد الله بن المبارك، والزهد لأحمد، ولهناد بن السري، ولغيرهم.

ومتعلقه ستة أشياء. لا يستحق العبد اسم «الزهد» حتى يزهد فيها، وهي: المال، والصور، والرياسة، والناس، والنفس، وكل ما دون ذلك.

وليس المراد رفضها من الملك، فقد كان سليمان، وداود عليهما السلام أزهد أهل زمانهما، ولهما من المال والملك والنساء ما لهما، وكان نبينا محمد ﷺ من أزهد البشر

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (١٦٤٣) والحاكم ٤/٣٢٧ وصححه وأقره الذهبي.

(٢) حلية الأولياء ٣ / ٢٣٧ والزهد لابن المبارك (٦٣٢).

(٣) مدارج السالكين ٢/١٣، ١٤

على الإطلاق، وله تسع نسوة، وكان على بن أبى طالب وعثمان بن عفان والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف لهم من الأموال ما لهم.

فهذا عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، وهو من المهاجرين، عمل بالتجارة حتى صار صاحب أموال فتصدق منها على عهد الرسول ﷺ بشطرها أربعة آلاف، ثم تصدق بأربعين ألفًا، ثم تصدق بأربعين ألف دينار، ثم حمل على خمسمائة فرس فى سبيل الله، ثم حمل على خمسمائة راحلة فى سبيل الله. وكان عامة ماله من التجارة[1] ومع ذلك كان من الزاهدين وكان الحسين بن على رضي الله عنهما من الزهاد، مع أنه كان من أكثر الأئمة محبة للنساء، ونكاحًا لهن، وكان عبد الله بن المبارك من الأئمة الزهاد، مع مال كثير، وكذلك الليث بن سعد من أئمة الزهد.

ومن أحسن ما قيل فى الزهد، قول الحسن: ليس الزهد فى الدنيا بتحريم الحلال، ولا إضاعة المال ولكن أن تكون بما فى يد الله أوثق منك بما فى يدك، وأن تكون فى ثواب المصيبة أرغب منك فيها، لو لم تصبك.

• صفوة الخلق هم أزهد الناس •

١- رسولنا محمد ﷺ:

هو سيد الزاهدين، وإمام المتقين، وقائد الغر المحجلين، يقول فى الحديث الذى يرويه عنه أزهد أصحابه فى الدنيا أبو هريرة رضي الله عنه: «**لو كان لى مثل أحد ذهبًا، لسرنى أن لا تمر علىَّ ثلاث ليال، وعندى منه شىء، إلا شىء أرصده لدَين**»[2]

وعن عمرو بن الحارث رضي الله عنه قال: «ما ترك رسول الله ﷺ عند موته دينارًا ولا درهمًا، ولا عبدًا، ولا أمة، ولا شيئًا إلا بغلته البيضاء، التى كان يركبها، وسلاحه، وأرضًا جعلها لابن السبيل صدقة»[3]

مع أنه قد أعطاه مولاه خزائن الدنيا، كما فى حديث أبى مويهبة: «**إنى قد أعطيت مفاتيح خزائن الدنيا، والخلد فيها ثم الجنة..**»[4]

وراودته الجبال الشم من ذهب عن نفسه فأراها أيما شمم

ومع ذلك يروى لنا جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: لما حفر رسول الله ﷺ الخندق أصابهم جهد شديد، حتى ربط النبى ﷺ حجرًا على بطنه من الجوع[5].

(١) أسد الغابة لابن الأثير ٣/ ١٤٣ والهيثمي في المجمع ٩/ ١٥٥
(٢) رواه أحمد في مسنده (٧٤٧٨) ومسلم (٩٩١) والبخارى.
(٣) رواه البخاري وأحمد في مسنده (٢٤٠٥٨).
(٤) رواه أحمد والحاكم وقال صحيح علي شرط مسلم ووافقه الذهبى ٣/ ٥٥، ٥٦.
(٥) رواه أحمد (١٤١٥٤) بإسناد صحيح.

وعن عائشة ﵂ قالت: توفى رسول الله ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودى فى ثلاثين صاعًا من شعير[١].

وعنها قالت: كان فراش رسول الله ﷺ من أدم حشوه ليف[٢]

٢- كليم الله موسى ﵇:

قال ابن عباس ﵄ سار موسى من مصر إلى مدين، ليس له طعام إلا البقل، وورق الشجر، وكان حافيًا، فما وصل مدين حتى سقطت نعل قدمه، وجلس فى الظل وهو صفوة الله من خلقه، وإن بطنه لاصق بظهره من الجوع، وإن خضرة البقل لترى من داخل جوفه، وإنه لمحتاج إلى شق تمرة.

٣- عيسى ﵇: ذلكم النبى الزاهد، الذى كان يقول: «إدامى الجوع، وشعارى الخوف، ولباسى الصوف، وصلاتى -أى دفئى- فى الشتاء مشارق الشمس، وسراجى القمر، ودابتى رجلاى، وطعامى وفاكهتى ما أنبتت الأرض أبيت وليس لى شىء، وأصبح وليس لى شىء، وليس على الأرض أحد أغنى منى»[٣]

وكان ﵇ يقول: حلاوة الدنيا مرارة الآخرة، ومرارة الدنيا حلاوة الآخرة، ثم يقول: يا بنى إسرائيل تهاونوا بالدنيا تهن عليكم الآخرة، فإن الدنيا ليست بأهل الكرامة، وكل يوم تدعو إلى الفتنة والخسارة.

• موعظة •

رحم الله سفيان الثورى حين قال: عليك بالزهد، يبصرك الله عورات الدنيا، وعليك بالورع يخفف الله حسابك، ودع ما يريبك إلا ما لا يريبك، وادفع الشك باليقين يسلم لك دينك.

فالزاهد فى الدنيا قوته ما وجد، ومسكنه حيث أدرك، ولباسه ما ستر عورته، والدنيا سجنه، والقرآن أنسه، والذكر رفيقه، والزهد قرينه، والاعتبار فكرته، والتقوى زاده، والأيام مراحله، والجنة منزلهُ.

فطوبى للزاهدين فى الدنيا، الراغبين فى الآخرة، أولئك الذين يتصفون بالكياسة، وتأمل أخى الحبيب: إنه لما بعث الله عز وجل موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون قال لهما: **«لا يغرنكما لباسه الذى ألبسته، فإن ناصيته بيدى، ولا ينطق إلا بإذنى، ولا يغركما، ولا يعجبكما ما متع به من زهرة الدنيا، وزينة المترفين، فلو شئت أن أزينكما بزينة من الدنيا ليعلم فرعون حين يراها أن مقدرته تعجز عما أوتيتما لفعلت، ولكننى أرغب بكما عن ذلك، وأزوى ذلك عنكما، وكذلك أفعل بأوليائى، إنى لا أزودهم عن نعيمها كما يزود الراعى الشفيق غنمه عن مبارك العرة، وما ذاك لهوانهم علىّ، ولكن ليستكملوا**

(١) رواه مسلم (١٦٠٣) والبخارى.
(٢) رواه مسلم (٢٠٨٢) والبخارى.
(٣) رواه ابن عساكر.

نصيبهم من كرامتى موفورا لم يكلمه الطمع، ولم تنقصه الدنيا بغرورها، إنما يتزين لى أوليائى بالخشوع والذل والخوف. والتقوى تثبت فى قلوبهم، فتظهر على أجسادهم»(١)

إلهى فك أسرنا من قيد الذنوب، وارحم تضرعنا إليك يا كاشف ضر أيوب.

إلهى، جـ على فقر ذنوبنا بسعة عفوك، وارحم ضعف عزائمنا بقوة رحمتك يا رب العالمين.

الوصية رقم (٣٨)
عليكم بسنتى

عن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة، وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله؛ كأنها موعظة مودع، فأوصنا، فقال: **«أوصيكم بتقوى الله عز وجل، والسمع والطاعة، وإن تأمر عليكم عبد حبشى، وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتى، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة»**(٢)

صدق رسول الله ﷺ

• فى رحاب هذه الوصية •

هذا الصحابى الجليل العرباض بن سارية رضي الله عنه ينقل لنا موعظة من مواعظ رسولنا الأعظم ﷺ، فلقد كانت عادة النبى ﷺ فى أصحابه أنه يتفقدهم دائما بالموعظة ليرقق قلوبهم، ويجعلهم يقبلون على الله تبارك وتعالى بقلوب صافية، وأفئدة خالصة يقول سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «كان رسول الله ﷺ يتخولنا بالموعظة»(٣)

لأن الله سبحانه وتعالى قد أمره بالوعظ لأمته، قال تعالى: ﴿**وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا**﴾ [النساء: ٦٣] لكن هذه الوصية كانت تختلف عن الوصايا والمواعظ السابقة كما فهم كثير من الحاضرين، لأن دموعهم قد ذرفت، وقلوبهم قد وجلت، ووقعت فى هذه المرة بالذات موقعها فى نفوسهم، لذلك طلبوا منه المزيد، لإحساسهم بأنها موعظة مودع، فقال العرباض بن سارية رضي الله عنه: فماذا تعهد إلينا وماذا تريد أن نفعل بعدك؟ فقال لهم: «**أوصيكم بتقوى الله**» وكثيرًا ما كان النبى ﷺ يبدأ وصاياه بمثل هذه العبارة، وبتلك الوصية العظيمة(٤) لأنها وصية الله تعالى فى الأولين،

---

(١) حلية الأولياء١/ ١١،١ لأبي نعيم وابن الجوزي في صفة الصفوة.

(٢) رواه أحمد فى مسنده (١٧٠٧٩) بإسناد صحيح وهو فى صحيح سنن أبى داود للألبانى (٤٦٠٧) جـ٣/ ١١٨، ورواه ابن ماجه (٤٣) والترمذى وقال: حسن صحيح وهو فى ص.ج للألبانى (٢٥٤٤)

(٣) رواه البخارى وأحمد (٣٥٨٧).

(٤) أفردنا للتقوى وصية خاصة فى هذا الكتاب «اتق الله حيث ما كنت..» وفى كتاب (من وصايا القرآن الكريم) للمؤلف.

والآخرين، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١].

فالرسول ﷺ يود منا أن نعبد الله كأننا نراه، فإن لم نكن نراه فهو مطلع علينا ويرانا، فالتقوى هي جماع كل خير، يقول سفيان بن عيينة: «لا يصيب رجل حقيقة التقوى حتى يحيل بينه وبين الحرام حاجزًا من الحلال، وحتى يدع الإثم وما تشابه منه»[١] المتقى من قال، قال لله، ومن عمل عمل لله.

الله يدرى كل ما تضمر   يعلم ما تخفى وما تظهر
وإن خدعت الناس لم تستطع   خداع من يطوى ومن ينشر

ثم يأمرنا النبى ﷺ، ويوصينا بالسمع والطاعة لأولياء الأمور، حتى ولو كان هذا الأمير عبدًا حبشيًا مجدوع الأنف، شريطة أن يكون موافقًا لكتاب الله وسنة رسول الله وقد أوصى الرسول ﷺ كثيرًا من الصحابة رضوان الله عليهم بهذه الوصية، فقد أوصى أبا ذر الغفارى بذلك حيث قال: «إن خليلى أوصانى أن أسمع وأطيع ولو كان عبدًا حبشيًا مجدع الأطراف»[٢]

ثم يوصينا أن نتبع سنته، وسنة الخلفاء الراشدين من بعده، وهم أبو بكر، وعمر، وعثمان وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهم أجمعين، ثم يحذرنا من البدع، لأنها تجعل العبد يتخبط في الضلالات حتى تؤدى به إلى دخول النار، والعياذ بالله.

• عليكم بسنتى •

ما هى السنة؟.

والسنة لها تعريفان:

١- **الأول فى اللغة:** وهى الطريقة. وقد توصف بأنها الطريقة المسلوكة، أو الطريقة المعتادة مرضية كانت أو غير مرضية.

وبهذا المعنى وردت آيات قرآنية، وأحاديث نبوية منها قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٧].

وقال تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ [الفتح: ٢٣].

وقد روى عن النبى ﷺ: **«من سن فى الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء. ومن سن فى الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»**.

وقوله ﷺ: **«لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه. قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: فمن ؟»**.

---

(١) حلية الأولياء جـ٧ / ٢٨٨

(٢) رواه مسلم.

٢- التعريف الثاني:

في الاصطلاح: فقد تعددت تعريفات السنة بتعدد المعرفين لها، فهي عند المحدثين: كل ما صدر -أو أثر- عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير.

فالقولية: مثل قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى». وقوله ﷺ في البحر: «هو الطهور ماؤه الحل ميتته».

والسنة الفعلية: أي الأفعال التي صدرت عنه ﷺ مثل: وضوئه، وكيفية صلاته، وأدائه لمناسك الحج وغير ذلك.

والسنة التقريرية: هي ما أقره النبي ﷺ من فعل ما صدر عن بعض الصحابة رضوان الله عليهم، وعلم به أو شاهده، وسكت عنه ولم ينكره، مثل ما رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: «خرج رجلان في سفر فحضرت الصلاة، ولم يجدا الماء، فصليا، ثم وجد الماء في الوقت، فأعاد أحدهما الوضوء والصلاة، ولم يعد الآخر، ثم ذكرا ذلك للنبي ﷺ، فقال للذي لم يعد: (أصبت السنة وأجزأتك صلاتك) وقال للذي توضأ: «لك الأجر مرتين» ومثل ما رواه ابن عمر قال: كنا مع رسول الله ﷺ فأتي بضب، فجعل القوم يأكلون، فنادت امرأة من نسائه: إنه ضب، فقالوا: أولا تأكل يا رسول الله؟ قال: «لا. كلوا فإنه حلال» أو «كلوا فلا بأس إنه ليس بحرام ولكنه ليس من طعامي».

أما السنة عند الفقهاء فتطلق على ما يقابل الفرض.

• العمل بالسنة هو طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم •

أخي الحبيب:

إذا آمنت بأن محمدًا ﷺ رسول الله، وصدقته فيما جاء به، وجب عليك كذلك أن تطيعه فيما أمرك به، وتجتنب ما نهاك عنه، لأن الله سبحانه قد ألزمنا بذلك في كتابه قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢٠] فطاعة المؤمن واجبة عليه لله تعالى ثم لرسوله محمد ﷺ، قال سبحانه: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ [التغابن: ١٢] إشارة إلى تلازم الطاعتين، وتداوم الحالتين، فمن أطاع الله فقد أطاع الرسول، ومن أطاع الرسول فقد أطاع الله، فلا تصح طاعة أحدهما دون الآخر.

ولذلك كرر سبحانه وتعالى في الآية السابقة طلب الطاعة مسندًا إلى رسول الله ﷺ على سبيل الاستقلالية في: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾.

إشارة إلى وجوب طاعة النبي ﷺ فيما ثبت عنه بالسنة، فهناك أمور تشريعية

تفردت بها السنة ولم ينص عليها القرآن، ولهذا أمرنا الله عز وجل أن نطيع نبيه فى كل شيء فيما أخبر به عن ربه، فهو المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى.

وقد جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: ثلاث فى القرآن مقرونة بثلاث لا يعتد بواحدة منها دون الأخرى وهي: قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣] وذكر الألوسى في تفسير قوله تعالى: ﴿من يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠] أنه جاء فى الأثر عن مقاتل، أن النبى ﷺ كان يقول: «من أحبنى فقد أحب الله تعالى، ومن أطاعنى فقد أطاع الله تعالى».

فقال المنافقون: ألا تسمعون إلى ما يقول هذا الرجل؟ لقد قارف الشرك، وهو ينهى عنه، ما يريد إلا أنْ نتخذه ربًّا - كما اتخذت النصارى عيسى ابن مريم، فنزلت الآية الكريمة: ﴿من يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾(١)

وطاعة النبى ﷺ ليست طاعة هوى واختيار، إن شاء المسلم فعل، وإن شاء ترك، كلا، وإنما هى طاعة إلزام، وجزء لا يتجزأ من حقيقة الإيمان، ولهذا قال عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤] فهى تكليف ربانى، وأمر إلهى، وعد الله عليه جزيل الثواب، وهدد على تركه بسوء العذاب.

وقال سبحانه: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

قال شارح الطحاوية: «فالواجب كمال التسليم للرسول ﷺ، والانقياد لأمره، وتلقى خبره بالقبول والتصديق، دون أن يعارضه بخيال باطل يسميه معقولاً أو يحمله شبهة أو شكًّا. أو يقدم عليه آراء الرجال، وزبالة أذهانهم، فيوحده بالتحكيم والتسليم، والانقياد والإذعان كما وحد المرسل بالعبادة والخضوع والذل والإنابة والتوكل، فهما توحيدان لا نجاة للعبد من عذاب الله إلا بهما. توحيد المرسل، وتوحيد متابعة الرسول فلا يحاكم إلى غيره، ولا يرضى بحكم غيره»(٢) لذلك قال سبحانه: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

والآيات فى ذلك كثيرة، فطاعة الله تعالى أصل، وكذلك طاعة رسول الله ﷺ، وقد أجمع أهل التأويل، وعلماء الأمة على أن طاعة النبى ﷺ تعنى: الالتزام بسنته، والسير على طريقته، فينزل المرء على حكمه، ويسير على نهجه، وإلا فهو كافر فى ملته، مشكوك فى عقيدته.

---

(١) روح المعانى للألوسى، والتفسير الكبير للرازى جـ٩/ ٣٢٩ (٢) شرح الطحاوية ١/ ٢٢٨

•وجوب طاعة النبي ﷺ من السنة المطهرة•

أخي الحبيب:

وقد وردت أحاديث فى السنة النبوية المطهرة تـدل على وجوب طاعته، والسير على طريقته واتباع سنته، فمن اتبع سنته فقد فاز بالجنة يوم القيامة.

فـعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ قال: **«منْ أطاعـني فـقد أطـاع الله، ومن عصـاني فقد عصى الله، ومـن أطاع أميرى فقـد أطاعنى، ومن عصى أمـيرى فقد عـصانى»**

فيقول ابن حجر معلقًا على هذا الحديث:

«فكأن التقدير: أطيعـوا الله فيما نص عليكم فى القرآن، وأطيعوا الـرسول فيما بين لكم من القـرآن، وما ينصه عليكـم من السنة. أو المعنى: أطيعـوا الله فيما يـأمركم به من الوحى المتعبد بتلاوته، وأطيعوا الرسول فيما يأمركم به من الوحى الذى ليس بقرآن».

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أيضًا: **«كل أمتـى يدخلون الجنة إلا من أبى، قـالوا: ومن يأبى أن يدخل الجنة يا رسول الله؟ قال: من أطاعنى دخل الجنة، ومن عصانى فقد أبى»**.

فالهدى كل الهـدى فى اتباع الرسول ﷺ، والضلال عين الضـلال فى عدم سلوك هديه، واتباع سنته، لذلـك قال ابن مسعود رضي الله عنه: «لو تركتم سنة نبـيكم لضللتم» واسمع إلى هذا المثل الذى ضربـته ملائكة الرحمن، للنبى الـعدنان حين قالوا له: «إن مثـله كمثل رجل بنى دارًا وجعل فيها مأدبة، وبـعث داعيًا، فمن أجاب الداعى دخل الدار، وأكل من المأدبة... فـالدار الجنة، والداعى محـمد ﷺ، فمن أطاع مـحمدًا فـقد أطاع الله، ومن عصى محـمدًا فقد عصى الله تعالى، ومـحمد فَرْق بين الناس». فكيـف بقوم ابتلاهم الله تعالـى بضيق الأفق، وعمـى البصيـرة، فأنكروا سنة النبـى المصطفى ﷺ، زاعمين أنه لا يجوز إلا أن نحرم ما حـرم القرآن، ونحل ما أحله القرآن لكن لا عجب، فـقد أخبر عنهم سيد البشرية، وأستاذ الإنسانية منذ أربعة عشر قرنًا من الزمان، فقال ﷺ: **«ألا إنى أوتيت القرآن ومـثله معـه، ألا يوشك رجل شبـعان على أريكتـه، يقول: عليكم بـهذا القرآن، فـما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه..»**.

وفى رواية: **«يوشك أن يقـعد الرجل على أريكتـه، فَيحدث بحـديثى، فيقـول: بينى وبينكم كتـاب الله، فما وجدتم فيـه حلالاً استحللناه، ومـا وجدنا فيه حرامًـا حرمناه،وإن ما حرّم رسول الله ﷺ كما حرّم الله»**.

ولله در عمر بن عـبد العزيز -رحمه الله- حـين قال: «سن رسول الله ﷺ، وولاة الأمر بعده سننًا، الأخذ بها تصديق بكتاب الله،واستعمال لطاعة الله، وقوة على دين الله،

ليس لأحد تغييرها، ولا تبديلها، ولا النظر فى رأى من خالفها، من اقتدى بها فهو مهتد، ومن انتصر بها فهو منصور، ومن خالفها، واتبع غير سبيل المؤمنين، ولاه الله ما تولى، وأصلاه جهنم، وساءت مصيرا».

وقال ابن شهاب -رحمه الله-:

بلغنا عن رجال من أهل العلم أنهم قالوا: الاعتصام بالسنة نجاة.

وقال أبى بن كعب رضي الله عنه: «عليكم بالسبيل والسنة، فإنه ما على الأرض من عبد على السبيل ،والسنة، ذكر الله فى نفسه، ففاضت عيناه من خشية ربه، فيعذبه الله أبدا. وما على الأرض من عبد على السبيل والسنة ذكر الله فى نفسه، فاقشعر جلده من خشية الله، إلا كان مثله كمثل شجرة قد يبس ورقها فهى كذلك، إذ أصابتها ريح شديدة فتحاتت عنها ورقها إلا حط عنه خطاياه، كما تحات الشجرة عن ورقها».

• السلف الصالح يتتبعون سنة النبى ﷺ •

إن أشد الناس اتباعًا لسنته ﷺ، وحرصًا عليها، وإقبالاً على فعلها، إنما هم أصحاب النبى ﷺ الذين اختارهم الله لصحبة النبى ﷺ، ومنهم على سبيل المثال:

١- عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

فقد جاء فى الصحيحين، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوم أن كان يؤدى مناسك الحج، جاء إلى الحجر الأسود، فقبله، فقال: «إنى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أنى رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك»(١)

وهذا هو ابنه:

٢- عبد الله بن عمر:

قال مجاهد: كنا مع ابن عمر رضي الله عنهما فى سفر، فمر بمكان فحاد عنه، فسئل: لم فعلت ذلك؟ قال: رأيت رسول الله ﷺ فعل ذلك ففعلت(٢)

وينقل إلينا نافع وصفًا لحاله، وهو يتبع آثار النبى ﷺ، فيقول: «لو نظرت إلى ابن عمر رضي الله عنهما إذا اتبع أثر النبى ﷺ لقلت: مجنون»(٣)

وروى أن رجلاً قال لابن عمر: «إنا نجد صلاة الخوف، وصلاة الحضر فى القرآن، ولا نجد صلاة السفر؟ فقال: إنّ الله تعالى بعث محمدًا ﷺ، ولا نعلم شيئًا، وإنما نفعل كما رأينا محمدًا ﷺ يفعل»(٤) وهذا هو:

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه فى كتاب الحج.
(٢) مسند الإمام أحمد.
(٣) الحلية لأبى نعيم ١/ ٣١٠.
(٤) مسند الإمام أحمد.

٣- عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:

فعن جابر رضي الله عنه قال: لما استوى رسول الله ﷺ يوم الجمعة قال: «**اجلسوا**» فسمع ذلك ابن مسعود رضي الله عنه، فجلس على باب المسجد، فرآه رسول الله ﷺ، فقال: «**تعالَ يا عبد الله بن مسعود**»(١)

فتأمل سرعة استجابة هذا الصحابى الجليل لأوامر النبى الأكرم ﷺ دون أى مناقشة، إنه الأدب الأعظم، الذى علمه لهم أستاذ البشرية ﷺ. وهاْ هو:

٤- صديق الأمة الأكبر: أبو بكر رضي الله عنه:

يقول: لست تاركا شيئًا، كان رسول الله ﷺ، كان يعمل به، إلا عملت به، إنى أخشى إن تركت شيئًا من أمره أن أزيغ.

٥- نساء الصحابة:

فعن أبى أسيد الأنصارى أنه رأى رسول الله ﷺ وهو خارج من المسجد، فاختلط الرجال مع النساء فى الطريق، فقال رسول الله ﷺ للنساء:

«**استأخرن، فإنه ليس لكن أن تحققن الطريق، عليكن بحافات الطريق**» فكانت المرأة تلتصق بالجدار حتى إن ثوبها ليتعلق بالجدار من لصوقها به(٢).

إنه الاتباع لسنة النبى ﷺ وطاعته فيما أمر، والمبادرة إلى تنفيذ سنته.

وهذا الذى ذكرنا إنما هى أمثلة فقط على أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا أشد الناس تمسكًا، واقتداء برسول الله ﷺ، لا على سبيل الحصر.

وكذلك كان من بعدهم، فهذا هو:

٦- أبو القاسم الجنيد -رحمه الله-:

كان رحمه الله يقول: كتابنا هذا -يعنى القرآن- سيد الكتب وأجمعها، وشريعتنا أوضح الشرائع وأدقها، وطريقتنا مشيدة بالكتاب والسنة، فمن لم يقرأ القرآن، ويحفظ السنة، ويفهم معانيها، لايصح الاقتداء به.

وكان يقول: لو رأيتم رجلاً قد تربع فى الهواء، فلا تقتدوا به حتى تروا صنعه عند الأمر والنهى، فإن رأيتموه ممتثلاً لجميع الأوامر الإلهية، مجتنبًا لجميع المناهى، فاقتدوا به، وإن رأيتموه بخل بالأوامر، ولا يجتنب المناهى، فاجتنبوه(٣)

---

(١) رواه أبو داود فى سننه (١٠٩١) وصححه الألبانى ١/ ٣٠.

(٢) رواه أبو داود وحسنه الألبانى (٥٢٧٢) فى صحيح سنن أبى داود٣/ ٢٩٥ والسلسلة الصحيحة (٨٥٦) والمشكاة (٤٧٢٧).

(٣) تنبيه المغترين للشعرانى ص٢٠ ط/ دار الكتب العلمية بيروت.

٧- أحمد بن حنبل -رحمه الله-:

يقول الإمام أحمد: كنت يومًا مع جماعة تجردوا، ودخلوا الماء، فاستعملت الحديث: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، لم يدخل الحمام إلا بمئزر**» فلم أتجرد، فرأيت تلك الليلة قائلاً يقول لى: يا أحمد، أبشر فإن الله قد غفر لك باستعمالك السنة، وجعلك إمامًا يقتدى بك[1].

• الرد على منكرى السنة •

أخى الحبيب:

إن هناك طائفة أعمى الله بصيرتهم، وخيب سعيهم، فأنكروا سنة النبى المصطفى ﷺ، وقد أخبرنا النبى ﷺ عنهم فى الحديث الذى سبق:

«**يوشك رجل شبعان على أريكته، يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، ألا لا يحل لكم الحمار الأهلى، ولا كل ذى ناب من السباع ولا لقطة من مال المعاهد**».

ويستند هؤلاء الضلال الذين طمس الله على قلوبهم، وجعل على أبصارهم غشاوة إلى آيات منها قوله تعالى: ﴿**مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ**﴾ [الأنعام: ٣٨] وقول سبحانه: ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ**﴾ [النحل: ٨٩] كما استندوا إلى حديث موضوع لا أصل له، وضعه هؤلاء لترويج إشاعتهم الكاذبة: «ما آتاكم عنى فاعرضوه على كتاب الله، فإن وافق، فأنا قلته، وإن خالف فلم أقله» فبالإضافة إلى ما فيه من ركاكة فى الألفاظ، إلا أن بعرضه على عموم بعض الآيات القرآنية الكريمة لردته، فخذ مثلاً قوله تعالى: ﴿**وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَلِكُمْ**﴾ [النساء: ٢٤] بعد أن عدد المحرمات من النساء، فالمفهوم من هذه الآية يقتضى حل الجمع بين المرأة وخالتها، وعمتها، مع أن السنة تمنع ذلك، لقوله ﷺ: «**لا يجمع بين المرأة وعمتها، وبين المرأة وخالتها**» وقد انعقد الإجماع على ذلك.

وخذ مثلاً قوله تعالى: ﴿ **قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا** ﴾ [الأنعام: ١٤٥] ووردت السنة بتحريم الحمر الأهلية، وكل ذى ناب من السباع، وذى مخلب من الطير، قال البراء بن عازب رضي الله عنه: «نهانا رسول الله ﷺ عن لحوم الحمر الإنسية نضيجًا ونيئًا» فهذه الأحاديث لو عرضت على القرآن الكريم لردتها فدل هذا على إبطال رأى ضعاف النفوس الذين يقولون بغير ذلك فالسنة من القرآن الكريم كالمذكرة التفسيرية للقانون، فهى تشرح عبارته، وتبين المراد منه. وقد وردت أحكام مجملة بين القرآن تفصيلها بعد ذلك.

---

(١) الشفاء للقاضى عياض٢/ ١٣ ط/ الحلبى.

أخى المسلم:

هيا بنا لنقول لهذا المنكر ما قاله الإمام ابن حزم -رحمه الله-: «فى أى قرآن وجد أن الظهر أربع ركعات. وأن المغرب ثلاث ركعات. وأن الركوع على صفة كذا، والسجود على صفة كذا، وصفة القراءة فيها والسلام. وبيان ما يجتنب فى الصوم، وبيان كيفية الزكاة فى الذهب والفضة، والغنم والإبل والبقر، ومقدار الأعداد المأخوذة منها الزكاة، ومقدار الزكاة المأخوذة، وبيان أعمال الحج، وصفة الرضـاع المحرم من المأكل، وصفتى الذبح والضحايا، وأحكام الحدود، وصفة وقوع الطلاق، وأحكام البيـوع، وبيان الربا و الأقضية، و التداعى، والأيمان، والصدقات، وسائر أنواع الفقه؟

وإنما فى القرآن جملٌ لو تركنا وإياها لم ندر كـيف نعمل بها، وإنما المرجوع إليه فى كل ذلك النقل عن النبى ﷺ، فلابد من الرجوع إلى الحديث ضرورة. »[1]

نقول له تأمل قول الإمام الشافعى فى الرسالة، فى باب فرض الطاعة للرسول: «إنَّ قوله تعالى: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ يدل على أن كل تكـليف كلفَ الله به عباده فـى باب الوضوء والصلاة والزكـاة والصوم والحج، وسائر الأبواب فـى القرآن، ولم يكن ذلك التكليف مبينًـا فى القرآن الكريم، فحينئذ لا سبيل لنا إلى الـقيام بتلك التكاليف إلا ببيان الرسول ﷺ، وإذا كان الأمر كـذلك، لزم القول بأن: طاعة الرسـول عين طاعة الله»[2] ويقول أيضًـا: «وما سنَّ رسول الله ﷺ فيما ليس لله حـكم. فبحكم الله سنَّه، وكذلك أخبـرنا الله فى قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَاطِ اللَّهِ﴾ [الشورى: ٥٢] وقد سنَّ رسول الله مع كتاب الله، وسنَّ فيما ليس فيه بعينه نص كتاب، وكل ما سنَّ فقد ألزمنا الله اتباعه، وجعل فى اتباعه طاعته. وفى العنود عن اتباعها معصيته التى لم يعذر بها خلقًا، ولم يجعل له من اتباع سنن رسول الله ﷺ مخرجًا»[3].

ولقد تحدث الإمام الشافعى -رحمه الله- فى «كتاب الأم» عن تلك الطائفة التى تنكر حجية السنة، والعمل بها، وذكر أنهم على فريقين:

الأول: الذين لا يقبلون الحديث إلا فيما كان فيه القرآن.

الثانى: الذين لا يقبلـون حديثًا اكتفاء بكتاب الله، وقـد أفضى بهم ذلك إلى عظيم من الأمر، فقالوا: من جاء بما يقع عليه اسم صلاة، وأقل ما يقع عليه اسم زكاة، فقد أدى ما عليه، لا وقت فى ذلك، ولو صلى ركعتين فى كل يوم أو فى كل الأيام. وقالوا أيضًا: مالم يكن فى كتاب الله، فليس على أحد فيه فرض[4]

---

(١) الأحكام فى أصول الأحكام لابن حزم٢/ ٧٩، ٨٠ بتصرف.

(٢)، (٣) الرسالة للإمام الشافعى ص٨٨، ٨٩ ط/ الحلبة بتحقيق أحمد شاكر.

(٤) انظر بالتفصيل كتاب الأم٧/ ٢٧٥، ٢٧٦

وقد رد الشافعي -رحمه الله- على هؤلاء، وفند مزاعمهم وأبطلها، كما أورد الأدلة القاطعة والحجة القوية على أن العمل بالسنة فرض كالعمل بالقرآن، وذلك إذا ما تحقق شرطان في السنة وهما: أن لا يخالف متن السنة مبادئ الإسلام، وأحكامه الكلية، وأن يصح سندها.

• منزلة السنة من القرآن •

ولقد فصَّل الإمام ابن القيم -رحمه الله تعالى- هذه المسألة في كتابه: أعلام الموقعين، فقال: «والسنة مع القرآن الكريم على ثلاثة أوجه:

أحدها: أن تكون السنة موافقة للقرآن من كل وجه.

فيكون توارد القرآن والسنة على الحكم الواحد، من باب توارد الأدلة وتضافرها.

الثاني: أن تكون السنة بيانًا لما أريد بالقرآن وتفسيرًا له.

الثالث: أن تكون موجبة لحكم سكت القرآن عن إيجابه، أو محرمة لما سكت عن تحريمه ولا تخرج عن هذه الأقسام[1]

بينما فصل كثير من العلماء، فزادوا على الإمام ابن القيم أمورًا لكنها غالبًا لا تخرج عن هذه الأقسام الثلاثة.

وقد قسموها إلى ما يأتي[2]:

النوع الأول: سنة موافقة للقرآن:

فتكون مقررة لما جاء به القرآن، ومؤكدة له، فمثلاً حديث: «**بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله...**» موافق للآيات الآتية: ﴿**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ**﴾ [آل عمران: ١٨].

وقوله سبحانه: ﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ**﴾ [البقرة: ٤٣].

وقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ**﴾ [البقرة: ١٨٣].

وقوله: ﴿**وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً**﴾ [آل عمران: ٩٧].

النوع الثاني: سنة مبينة لمجمل القرآن:

وذلك كما حدث بالنسبة للصلاة ومواقيتها، والزكاة ومقاديرها، والصوم وأركانه.

ومنها ما أشكل فهمه كما في قوله تعالى. ﴿**وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ**﴾ [البقرة: ١٨٧] فالآية المباركة تفيد أن الأكل والشرب

---

(١) انظر أعلام الموقعين ٢/ ٣٢٣.

(٢) انظر بحوث في تاريخ التشريع الإسلامي للدكتور/ محمد عبد الفتاح السنهاوي ص١٣٣، ١٣٤ بتصرف ومن وصايا القرآن الكريم للمؤلف جـ٢/ ٧٣١ ط/ التوفيقية.

حلال للصائم حتى يطلع الفجر، لكن ذلك قد استشكل على صحابى جليل يسمى «عدى ابن حاتم» فلم يستطع فهم المعنى المراد، لذلك لما نزلت هذه الآية يقول: «عمدت إلى عقالين: أحدهما أسود، والآخر أبيض، وقال: فجعلتهما تحت وسادتى، وجعلت أنظر إليهما، فلما تبين لى الأبيض من الأسود أمسكت، فلما أصبحت غدوت إلى رسول الله ﷺ، فأخبرته بالذى حدث، فقال: «**إن وسادك لعريض إنما ذلك بياض النهار من سواد الليل..**».

النوع الثالث: سنة مخصصة لعموم القرآن:

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿**يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ**﴾ [النساء: ١١] فقد أفادت هذه الآية الميراث لكل ولد سواء أكان الولد قاتلاً أم لا؟ لكن السنة قد خصصت هذا العموم حيث منعت ميراث القاتل، فقال ﷺ: «**ليس للقاتل شىء من الميراث**».

النوع الرابع: سنة مقيدة لمطلق القرآن:

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿ **وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا** ﴾ [المائدة: ٣٨] فالآية مطلقة لم تحدد اليد اليمنى أو اليسرى، أو ما يجب فيه القطع من مقدار السرقة ونصابها لكن السنة المطهرة وضحت ذلك.

فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «**القطع فى ربع دينار فصاعداً**»[1].

النوع الخامس: سنة ناسخة للقرآن:

فقد ذهب الجمهور إلى أن السنة، وقد ورد أمثلة كثيرة منها، قوله تعالى: ﴿**وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً (١٥) وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا** ﴾ [النساء: ١٥، ١٦] فالآية نصت على أن عقوبة الزانية كانت الحبس فى البيت إلى الوفاة، وعقوبة الزوج الإيذاء، ثم نسخ هذا الحكم بالسنة، فقال النبى ﷺ: «**البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام**»[2]

النوع السادس: سنة تضمنت لحكم سكت عنه القرآن:

فقد روى أن جدة جاءت إلى أبى بكر تطلب ميراثها، فلم يجد لها فى كتاب الله شيئًا، ولم يكن قد سمع من رسول الله ﷺ شيئًا فى ذلك، فأمرها بالرجوع، حتى يسأل أصحابه، وبعد أن صلى الظهر، قام فخطب فيهم، فقال: «هل سمع أحد منكم شيئًا فى

---

(١) رواه البخارى (٦٧٩٠) ومسلم (١٦٨٤) وأحمد فى مسنده والنسائى.

(٢) رواه مسلم (١٦٩٠) وأبو داود (٤٤١٥) والترمذى.

الجدة من رسول الله؟ فقام المغيرة بن شعبة، فقال: أشهد أن رسول الله ﷺ قضى للجدة بالسدس ثم قام محمد بن مسلمة فشهد بما شهد به المغيرة، فقضى بالسدس للجدة.

النوع السابع: السنة القصصية:

وذلك مثل الأحاديث التى رويت عنه ﷺ مثل قصة أصحاب الغار وتوسلهم بالأعمال الصالحة فى تفريج كربهم، ومثل قصة الثلاثة (الأقرع، والأبرص، والأعمى) وتمثيل الملك لهم، وغير ذلك.

النوع الثامن: السنة التى لم يقصد منها التشريع:

مثل زواجه ﷺ بأكثر من أربعة، وغير ذلك.

الوصية رقم (٣٩)
قل خيراً أو اصمت

عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيرًا أو ليصمت»**[١]

صدق رسول الله ﷺ

• فى رحاب هذه الوصية •

هذه الوصية العظيمة تعتبر جزءًا عظيمًا من جماع آداب الخير كله، لأن جماع آداب الخير يتفرع من أربعة أحاديث:

١- قول النبى ﷺ: **«من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»**.

٢- وقوله للذى اختصر الوصية: **«لا تغضب»**.

٣- وقوله: **«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»**.

٤- وحديث هذه الوصية العظيمة.

وهى دعوة لكل فرد من أفراد المجتمع المسلم أنه إذا أراد أن يتكلم، فإن كان ما يتكلم به خيرًا محققًا يثاب عليه، واجبًا أو مندوبًا فليتكلم. وإن لم يظهر له أنه خير يثاب عليه، فليمسك عن الكلام سواء ظهر له أنه حرام أو مكروه أو مباح مستوى الطرفين ولذلك قال بعض السلف: يعرض على ابن آدم يوم القيامة ساعات عمره، فكل ساعة لم يذكر الله فيها تتقطع نفسه عليها حسرات[٢]

وقد خرج الطبرانى من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعًا: **«ما من ساعة تمر بابن آدم لم يذكر الله فيها بخير، إلا حسر عندها يوم القيامة»**[٣].

---

(١) رواه البخارى ومسلم. (٢) جامع العلوم والحكم لابن رجب ص١٧٦

(٣) رواه أبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى الشعب وحسنه الألبانى فى ص.ج (٥٧٢٠).

فمن هنا يُعلم أن ما ليس بخير من الكلام، فالسكوت عنه أفضل من التكلم به، اللهم إلا ما تدعو إليه الحاجة مما لابد منه. وقد خرج الإمام أحمد وابن حبان من حديث البراء بن عازب أن رجلاً قال: **«يا رسول الله، علمني عملاً يدخلني الجنة، فذكر الحديث، وفيه قال: فأطعم الجائع، واسق الظمآن، وأمر بالمعروف، وانه عن المنكر، فإن لم تطق ذلك فكف لسانك إلا من خير»**[١]

فليس الكلام مأموراً به على الإطلاق، ولا السكوت كذلك، بل لابد من الكلام بالخير، والسكوت عن الشر.

• الحث على لزوم الصمت •

أخا الإسلام:

إن رسولنا محمداً ﷺ حثنا على لزوم الصمت إلا من تكلم بخير، فقال ﷺ: **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»**[٢] ومن الملاحظ أنه جعله علامة على تمام الإيمان بالله واليوم الآخر.

قال ابن حبان: الواجب على العاقل أن يلزم الصمت إلى أن يلزمه التكلم، فما أكثر من ندم إذا نطق، وأقل من يندم إذا سكت، وأطول الناس شقاء، وأعظمهم بلاء من ابتلى بلسان مطلق، وفؤاد مطبق ولقد أحسن القائل:

إن كان يعجبك السكوت فإنه ... قد كان يعجب قبلك الأخيارا
ولئن ندمت على سكوت مرة ... فلقد ندمت على الكلام مرارا
إن السكوت سلامة، ولربما ... زرع الكلام عداوة وضرارا
وإذا تقرب خاسر من خاسر ... زادا بذلك خسارة وتبارا

أخي الحبيب:

إنَّ كلام المرء بيان فضله، وترجمان عقله، فأقصره على الجميل، واقتصر منه على القليل، فطوبى لمن أنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من قوله.

قالوا لعيسى ابن مريم عليه السلام: «دلنا على عمل ندخل به الجنة! قال: لا تنطقوا أبدا. قالوا: لا نستطيع ذلك؟ قال: فلا تنطقوا إلا بخير».

وقال رجل لسلمان رضي الله عنه: أوصني. قال: لا تتكلم. قال: وكيف يصبر رجل على أن لا يتكلم؟ قال: فإن كنت لا تصبر عن الكلام. فلا تتكلم إلا بخير أو اصمت.

وقال بعض الحكماء: فى الصمت سبعة آلاف خير، وقد اجتمع ذلك كله فى سبع كلمات. فى كل كلمة منها ألف:

---

(١) رواه أحمد فى مسنده (١٧٩٠٢) بإسناد صحيح مطولا

(٢) سبق تخريجه.

أولها: أن الصمت عبادة من غير عناء.

ثانيها: زينة من غير حلي.

ثالثها: هيبة من غير سلطان.

رابعها: حصن من غير حائط.

خامسها: الاستغناء عن الاعتذار إلى أحد.

سادسها: راحة الكرام الكاتبين.

سابعها: ستر لعيوبه. ويقال: الصمت زين للعالم، وستر للجاهل[١].

فالواجب على العاقل أن ينصف أذنيه من فيه، ويعلم أنه إنما جعلت له أذنان وفم واحد ليسمع أكثر مما يقول، لأنه إذا قال ربما ندم، وإن لم يقل لم يندم، وهو على رد مالم يقل أقدر منه على رد ما قال، والكلمة إذا تكلم بها ملكته، وإن لم يتكلم بها ملكها، قال سبحانه: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

قال ابن جرير في تفسير هذه الآية:

كأن الله تعالى يقول: **«يا بن آدم بسطت لك صحيفة، ووكل بك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك، فيحفظ لك حسناتك، وأما الذي عن شمالك فيحفظ عليك سيئاتك، فاعمل بما شئت أقلل أو أكثر، إذا مت طويت صحيفتك، فجعلت في عنقك معك في قبرك حتى تخرج يوم القيامة»**[٢]

وعن أبي بكر بن عياش قال: اجتمع أربعة ملوك، ملك فارس، وملك الروم، وملك الهند، وملك الصين، فتكلموا بأربع كلمات كأنما رمي بهن عن قوس واحدة، فقال أحدهم: أنا على قول ما لم أقل أقدر مني على رد ما قلت، وقال الآخر: إذا قلتها ملكتني وإذا لم أقلها ملكتها. وقال آخر: لا أندم على مالم أقل، وقد أندم على ما قلت. وقال الآخر: عجبت لمن يتكلم بالكلمة إن رفعت عليه ضرته، وإن لم ترفع عليه لم تنفعه[٣].

يقول عبد الله بن المبارك:

الصمت أزين بالفتى ... من منطق في غير حينه

والصدق أجمل بالفتى ... في القول عندي من يمينه

وعلى الفتى بوقاره ... سمة تلوح على جبينه

فمن الذي يخفي عليك ... إذا نظرت إلى قرينه

---

(١) تنبيه الغافلين للسمرقندي ص١٦٥ (٢) تفسير ابن جرير جـ٦/ ١

(٣) حلية الأولياء لأبي نعيم ٨/ ١٧ والمستطرف في كل فن مستظرف للأبشيهي١/ ١٣ وتنبيه الغافلين ص١٦٢ وابن أبي الدنيا في الصمت (٦٥) ص٦٧ والإحياء٣/ ٩٦

رب امــرئ مـتـيـقـن غلب الشقاء على يقينه
فأزاله عن رأيه فابتاع دنياه بدينه[١]

• السلف الصالح كانو يحفظون ألسنتهم •

أخا الإسلام:

لقد كان السلف الصالح -رضوان الله عليهم- يتكلفون لحفظ اللسان، ويحاسبون أنفسهم فى الدنيا، وهكذا ينبغى على المسلم أن يحاسب نفسه فى الدنيا قبل أن يحاسب فى الآخرة، لأن حساب الدنيا أيسر من حساب الآخرة، وحفظ اللسان فى الدنيا أيسر من ندامة الآخرة، فهذا هو الصحابى الجليل:

أبو بكر الصديق: صديق هذه الأمة، يدخل عليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فيجده يجذب لسانه، فقال له عمر: مه غفر الله لك.

فقال أبو بكر: هذا الذى أوردنى الموارد[٢]

وهذا هو الصحابى الجليل: «عبد الله بن عباس» رضي الله عنهما، قال ابن يزيد: رأيت ابن عباس آخذاً بلسانه وهو يقول: «ويحك قل خيراً تغنم، أو اسكت عن سوء تسلم، وإلا فاعلم أنك ستندم»[٣]

وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: والله الذى لا إله إلا هو ما على الأرض شيء أحوج إلى طول سجن من لسانى[٤].

وهذا هو لقمان الحكيم عليه السلام الذى ذاع صيته، واشتهر اسمه، وذكره رب العالمين تبارك وتعالى فى قرآنه، بل وسمى سورة من سوره باسم «لقمان» يسأله أحد أتباعه فيقول له: ما الذى صيرك إلى ما أرى؟ أى بعد ما كنت عبداً حبشياً غليظ الشفتين، فصار حالك إلى أحسن ما يكون، والناس يتعلمون منك الحكمة.

فقال لقمان: «إنَّ الذى صيرنى إلى ما ترى إنما هو غض بصرى، وكف لسانى، وعفة طعمتى، وحفظى فرجى، وقولى بصدق، ووفائى بعهدى، وتكرمى ضيفى، وحفظى جارى، وتركى ما لا يعنينى، فذلك الذى صيرنى إلى ما ترى»[٥].

ولما سئل القاسم بن سلام عن عبد الله بن عون -رحمه الله- وكان من التابعين. فقال: «ما ساد ابن عون الناس أن كان أتركهم للدنيا، وإنما ساد ابن عون الناس بحفظ لسانه»[٦].

---

(١) حلية الأولياء٨/ ١٧٠ (٢) الحلية ١/ ٣٣ وصفة الصفوة لابن الجوزى ١/ ١٠٥

(٣) الحلية١/ ٣٢٨ وابن أبى الدنيا فى الصمت (٤٤٢) ص٢٥٩

(٤) الحلية١/ ١٣٤ الزهد لابن المبارك (٣٨٤) ص٨١، ٨٢، والزهد لأحمد وابن حبان فى روضة العقلاء ص٤٦ ط/ دار المغنى - السعودية. (٥) البداية والنهاية لابن كثير جـ٢/ ١٢٤

(٦) حلية الأولياء٣/ ٣٧، ٣٨ وصفة الصفوة جـ٣/ ١٨٠

وهذا هو إبراهيم التيمى -رحمه الله- يقول عن الربيع بن خثيم: حدثنى من صحب الربيع بن خثيم عشرين سنة، فما سمع منه كلمة يعاقب عليها[١].

وروى عنه أيضًا: أنه كان إذا أصبح وضع قرطاسًا وقلمًا، ولا يتكلم بشىء إلا كتبه وحفظه، ثم يحاسب نفسه عند المساء[٢]

وقال موسى بن سعيد: لما أصيب الحسين بن على رضي الله عنهما -أى قتل- فقال رجل من أصحاب الربيع بن خثيم: إنْ تكلم الربيع فاليوم يتكلم، فجاء حتى فتح الباب وأخبره بأن الحسين قد قتل، فنظر إلى السماء فقال: ﴿اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر:٤٦] ما زاد على ذلك شيئًا[٣].

وهذا هو: «إبراهيم بن أدهم» رحمه الله كان يطيل السكوت، فإذا تكلم ربما انبسط. قال أبو إسحاق الفزارى رحمه الله: فأطال السكوت ذات يوم، فقلت: لو تكلمت؟ فقال: «الكلام على أربعة وجوه: فمن الكلام كلام ترجو منفعته، وتخشى عاقبته، والفضل فى هذا السلامة منه، ومن الكلام كلام لا ترجو منفعته، ولا تخشى عاقبته، فأقل مالك فى تركه: خفة المؤنة على بدنك ولسانك، ومن الكلام كلام ترجو منفعته وتأمن عاقبته، فهذا الذى يجب عليك نشره» قال خلف بن تميم لأبى إسحاق: أُراه قد أسقط ثلاثة أرباع الكلام. قال: نعم[٤]

وهذا هو حاتم الأصم يوصى أحد أتباعه، فيقول: تعاهد نفسك فى ثلاثة مواضع: إذا عملت فاذكر نظر الله تعالى عليك، وإذا تكلمت فانظر سمع الله منك، وإذا سكت فانظر علم الله فيك[٥]

ويقول عبد الله بن المبارك -رحمه الله-: «لو أن الملكين اللذين يكتبان أعمالكم عدُّوا عليكم يتقضيانكم أثمان الصحف التى ينسخان فيها أعمالكم، لأمسكتم من فضول كلامكم، فإذا كانت الصحف من عند ربكم، أو لا تربعون على أنفسكم؟»[٦]

• آفات اللسان •

أخا الإسلام:

لقد ذكر الإمام الغزالى -رحمه الله- فى كتابه «إحياء علوم الدين» كتابًا خاصًا أسماه «كتاب آفات اللسان» وقد ذكر فيه عشرين آفة، فهيا بنا لنتعرف على بعض منها:

---

(١)، (٢) تنبيه الغافلين للسمرقندى ١٦٢ وصفة الصفوة٣/ ٢٩.

(٣) المرجع السابق ص١٦٢، وروضة العقلاء لابن حبان ص٤٦، ٤٧.

(٤) رواه ابن أبى الدنيا فى الصمت (٥٠) ص٦١ وعيون الأخبار لابن قتيبة٢/ ١٨٠، ١٨١

(٥) حلية الأولياء لأبى نعيم٨/ ٧٥. (٦) رواه ابن أبى الدنيا (٧٤٨) ص٣٨٢.

١- الكلام فيما لا يعنيك:

إن الإنسان الذى يتكلم فيما لا يعنيه إنسان مضيع لأوقاته، مع أن رأس ماله فى هذه الدنيا أوقاته، فإن صرفها فيما لا يعنيه ولم يدخر بها ثوابًا فى الآخرة فقد ضيع رأس ماله، ورحم الله عبد الله بن المبارك حين قال:

أدبت نفسى فما وجدت لها	**من بعد تقوى الإله من أدب**
فى كل حالاتها، وإن قصرت	**أفضل من صمتها عن الكذب**
وغيبة الناس إنّ غيبتهم	**حرّمها ذو الجلال فى الكُتُب**
إنْ كان من فضة كلامُك يا	**نفسى فإن السكوت من ذهب**[١]

لذلك نهانا نبى الإسلام ﷺ أن نتكلم ونضيع أوقاتنا فيما لا يعنينا، بل جعل تركه من حسن الإسلام، وكمال الإيمان، فقال: **«من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»**[٢]

بل ورد ما هو أشد من هذا، قال أنس بن مالك رضي الله عنه: استشهد غلام منا يوم أحد فوجدنا على بطنه حجرًا مربوطًا من الجوع، فمسحت أمه عن وجهه التراب، وقالت: هنيئًا لك الجنة يا بنى! فقال ﷺ: **«وما يدريك لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه، ويمنع ما يضره»**[٣].

يقول وهب بن منبه: «كان فى بنى إسرائيل رجلان بلغت بهما عبادتهما أن يمشيا على الماء، فبينما هما يمشيان فى البحر إذ هما برجل يمشى فى الهواء، فقالا له: يا عبد الله بأى شىء أدركت هذه المنزلة؟ قال: بشيئين من الدنيا: فطمت نفسى عن الشهوات، وكففت لسانى عما لا يعنينى، ورغبت فيما دعانى إليه، ولزمت الصمت، فإن أقسمت على الله أبر قسمى، وإن سألته أعطانى»[٤]

٢- فضول الكلام:

والمقصود بفضول الكلام -أى الكلام الزائد عن حاجة صاحبه-.

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: «أنذركم فضول الكلام، بحسب أحدكم ما بلغ حاجته»

ويقول يعلى بن عبيد: دخلنا على محمد بن سوقة، فقال: أحدثكم بحديث لعله ينفعكم، فإنه قد نفعنى، قال لنا عطاء بن رباح: «يا بنى أخى، إنّ من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام، وكانوا يعدون فضول الكلام، ما عدا كتاب الله، أن تقرأه، أو تأمر

(١) سير أعلام النبلاء٨/ ٤١٦ وابن أبى الدنيا فى الصمت (٧٥٦) ص٣٨٤

(٢) رواه الترمذى (٢٣١٨) وابن أبى الدنيا فى الصمت (١٠٧) ص٨٦ وأحمد فى مسنده (١٧٣٧) بإسناد صحيح. ومالك فى الموطأ وابن ماجه.

(٣) رواه الترمذى فى سننه (٢٣١٦) وقال حديث غريب وضعفه الهيثمى فى المجمع١٠/ ٣٠٣ لأجل يحيى بن يعلى.

(٤) رواه ابن أبى الدنيا فى الصمت (٧٥٤) ص٣٨٣، ٣٨٤

بمعروف، أو تنهى عن منكر، أو تنطق بحاجتك فى معيشتك، التى لابد لك منها، أتنكرون: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠: ١٢] ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧، ١٨] أما يستحى أحدكم، أنه لو نشرت عليه صحيفته التى أملى صدر نهاره، كان أكثر ما فيها ليس من أمر دينه، ولا دنياه!!»(١)

٣- الخوض فى الباطل:

وهو الكلام فى المعاصى، كحكاية أحوال النساء، ومجالس الخمر، ومقامات الفساق، وتنعم الأغنياء، وأنواع الباطل كثيرة لا يمكن حصرها، وقد بين النبى ﷺ خطره، فقال ﷺ: **«إنَّ أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوضًا فى الباطل»**(٢)

وكان الربيع بن خثيم يقول: «لا خير فى الكلام إلا فى تسع: تهليل، وتكبير، وتسبيح، وتحميد، وسؤالك من الخير، وتعوذك من الشر، وأمرك بالمعروف، ونهيك عن المنكر، وقراءتك للقرآن»(٣)

٤- المراء والجدال:

والمراء هو كل اعتراض على كلام الغير بإظهار خلل فيه، إما فى اللفظ، أو فى المعنى، أو فى قصد المتكلم، وترك المراء يكون بترك الإنكار والاعتراض.

وهذا منهى عنه لقول النبى ﷺ: **«ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدال»** ثم تلا قوله تعالى: **﴿ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون﴾** [الزخرف: ٥٨](٤).

قال بلال بن سعيد: إذا رأيت الرجل لجوجًا مماريًا معجبًا برأيه، فقد تمت خسارته(٥).

وقال ابن أبى ليلى: لا أمارى صاحبى، فإما أن أكذبه، وإما أن أغضبه(٦)

وكان مسلم بن يسار يقول: إياكم والمراء، فإنها ساعة جهل العالم، وبها يبتغى الشيطان زلته(٧).

---

(١) حلية الأولياء٣/ ٣١٥ وابن أبى الدنيا فى الصمت (٧٨) ص٧٤ وابن الجوزى فى صفة الصفوة٢/ ١٢٦

(٢) رواه ابن المبارك فى الزهد عن ابن مسعود وأحمد فى الزهد وابن أبى الدنيا فى الصمت (٧٤) وهو حسن.

(٣) حلية الأولياء٢/ ١٢٩ وابن أبى الدنيا فى الصمت (٨٧) ص٧٨

(٤) رواه أحمد فى مسنده (٢٢٠٦٤) والترمذى وقال حسن صحيح وابن ماجه بسند صحيح ورواه الحاكم وصححه وأقره الذهبى.

(٥)، (٦) تهذيب موعظة المؤمنين للقاسمى٢/ ٢٣

(٧) رواه أحمد فى الزهد (٣٠٧) ط/ الريان وأبو نعيم فى الحلية٢/ ٢٩٤ وابن أبى الدنيا فى الصمت (١٢٥) ص٩٥

وقد سمع الربيع بن خثيم رجلاً يلاحى رجلاً -أى يماريه ويجادله- فقال: مه -أى اصمت- لا تلفظ إلا بخير، ولا تقل لأخيك إلا ما تحب أن تسمعه من غيرك، فإن العبد مسؤول عن لفظه محصى عليه ذلك كله: ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦](١).

فيا أخى الحبيب: كل كلام تسمعه تأمله، إن كان حقًّا فصدق به، وإن كان باطلاً أو كذبًا فانظر فيه، فإما أن يكون متعلقًا بالدين، وإما أن لا يكون متعلقًا به، فإن كان متعلقًا بالدين فرد عليه ردًّا حسنًا جميلاً، قال تعالى: ﴿وجادلهم بالتى هى أحسن﴾ [النحل: ١٢٥].

وإن كان غير متعلق بالدين فاسكت عنه.

٥- الخصومة:

وهى لجاج فى الكلام ليستوفى به مال، أو حق مغصوب، وهى من أبغض الأشياء إلى الله تعالى، وقد بين لنا رسول الإسلام ﷺ ذلك فى حديث عائشة رضي الله عنها: **«إنَّ أبغض الرجال إلى الله الألد الخصيم»**(٢) وذلك لأن الخصومة توغر الصدر، وتهيج الغضب، وإذا هاج الغضب نسى المتنازع فيه، وبقى الحقد والغل بين المتخاصمين حتى يفرح كل واحد بمساءة صاحبه، ويحزن بمسرته، ويطلق اللسان فى عرضه، لذلك قال الحكماء: الكلام اللين يغسل الضغائن المستكنة فى الجوارح.

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: «البر شيء هين: وجه طليق، وكلام لين»(٣).

٦- التقعر فى الكلام:

وهو التشدق، وتكلف السجع والفصاحة، والتصنع فيه، لأنه ينبغى أن يقتصر فى كل شيء على مقصوده، ومقصود الكلام تفهيم الغرض، وما وراء ذلك تصنع مذموم، ولا يدخل فيه تحسين ألفاظ التذكير والخطابة من غير إفراط ولا إغراب، وقد بين الرسول ﷺ أولئك الذين يتشدقون ويتكلفون الكلمات فقال: **«ألا هلك المتنطعون» ثلاث مرات»**(٤). وقد وضح للأمة أن الله سبحانه وتعالى يبغض هذا الصنف من الناس، فقال: **«إن الله يبغض البليغ من الرجال الذى يتخلل بلسانه تخلل الباقرة بلسانها»**(٥)

---

(١) رواه ابن أبى الدنيا فى الصمت (١٢٨) ص ٩٦، ٩٧

(٢) رواه البخارى.

(٣) رواه ابن أبى الدنيا (٣١٨)ص٢ ٢

(٤) رواه مسلم فى صحيحه وأبو داود فى سننه وأحمد فى مسنده وابن أبى الدنيا فى الصمت.

(٥) رواه أحمد وأبو داود وابن أبي الدنيا وصححه الألبانى فى ص.ج (١٨٧٥) وفى السلسلة الصحيحة (٢/ ٥٦٩).

٧- الفحش والبذاء:

وهو مذموم، ومنهى عنه، ومصدره الخبث واللؤم، وقد حذر منه حبيبنا محمد ﷺ، فقال: «**إياكم والفحش، فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش**»(١).

ونفى النبى ﷺ أن يكون ذلك من أخلاق أهل الإيمان، فقال: «**ليس المؤمن بالطعان، واللعان، ولا الفاحش، ولا البذيء**»(٢) والطعَّان أى الذى يقع فى أعراض الناس والفاحش هو الذى يتكلم بكلام قبيح شنيع، أو أعماله فاحشة.

ولذلك لما سئلت السيدة عائشة عن خلق رسول الله ﷺ قالت: «**كان أحسن الناس خلقًا، لم يكن فاحشًا ولا متفحشًا، ولا صخابًا فى الأسواق، ولا يجزى بالسيئة مثلها، ولكن يعفو ويصفح**»(٣) فتخلق بأخلاق رسولك، وسر على دربه تكن معه يوم القيامة.

٨- المزاح:

وهو أيضًا مذموم ومنهى عنه فى الباطل، لأن المداومة عليه اشتغال باللعب والهزل، والإفراط فيه يورث الضحك والضغينة، وما سمى المزاح مزاحًا إلا لأنه زاح عن الحق ولذلك أوصى الحكماء باجتنابه، فقال سعيد بن العاص -رحمه الله- لابنه: « يا بنى لا تمازح الشريف، فيحقد عليك، ولا تمازح الدَّنِىء فيجترئُ عليك»(٤)

ولذلك كان النبى ﷺ يمزح، لكنه لا يقول إلا الحق، وقد سئل: يا رسول الله تمزح؟ قال: «**نعم ولا أقول إلا الحق**»(٥) وهذا هو المزاح المحمود، وله أمثلة كثيرة نذكرها فى موضعها وقال عمر بن عبد العزيز: «اتقوا الله، وإياكم والمزاحة، فإنها تورث الضغينة، وتجر القبيحة، تحدثوا بالقرآن، وتجالسوا به، فإن ثقل عليكم، فحديث حسن من حديث الرجال»(٦)

• موعظة •

أخى الحبيب:

إذا كنت قد وقفت على خطر اللسان فماذا تنتظر بعد ذلك؟! فليكن نطقك ذكرًا وسكوتك عبرًا، ليكن نطقك تسبيح لله وتقديس، وقراءة قرآن، وتهليل وتحميد فمن حفظ

---

(١) رواه مسلم وأحمد وابن المبارك فى الزهد والحاكم فى المستدرك وابن أبي الدنيا فى الصمت.

(٢) رواه أحمد فى مسنده والترمذى والبخارى فى الأدب المفرد وصححه الألبانى فى ص.ج (٥٣٨١) والسلسلة الصحيحة (٢٣٢٠).

(٣) رواه الترمذى وقال حسن صحيح ورواه أبو داود وأحمد والبيهقى ومسلم.

(٤) روضة العقلاء ص٧٢ وابن أبى الدنيا فى الصمت ص٢٤٢.

(٥) رواه الترمذى وقال حسن صحيح ورواه البخارى فى الأدب المفرد.

(٦) الزهد لابن المبارك وابن أبى الدنيا فى الصمت ص٢٤١

لسانه لأجل الله تعالى فى الدنيا، أطلق الله لسانه بالشهادة عند الموت، لكن من سرح لسانه فى أعراض المسلمين، وتتبع عوراتهم أمسك الله لسانه عن الشهادة عند الموت.

وقد قالوا: إن مريم عليها السلام لما نذرت، وقالت: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٦] أطلق الله لسان صبى لا يعرف الخطاب؛ أنطقه لأجل براءتها.

قال سعيد بن جبير رحمه الله: يؤتى بالعبد يوم القيامة، فيدفع له كتابه، فلا يرى فيه صلاته وقيامه، ولا صيامه، فيقول: يا رب، هذا كتاب غيرى، كانت لى حسنات ليس فى هذا الكتاب، فيقال له: إن ربك لا يضل ولا ينسى، ذهب عملك باغتيابك الناس[1]

فتب إلى الله يا عبد الله، يا من أطلقت لسانك فى أعراض المسلمين، وتكلمت فيما لا يعنيك تب إلى مولاك، واذكر ما قدمت يداك، وكن خائفًا من سيدك ومولاك، قبل أن يطلع على باطن زللك وجفاك، أقبل إلى بابه، ولا تبتعد عن جنابه، ورافق أحبابه عساك أن تنجو يوم يفر المرء من أخيه، ولا تبع الباقى بالفانى،أما ظهر لك الخسران،اسهر ليلك فى تلاوة القرآن، وبت ساجدا لله وقائما. واسأله أن يتقبل منا صالح الأعمال، وأن يجنبنا مواطن الضلال، وأن يهدينا إلى أفضل الأعمال، اللهم اغفر لنا وللمسلمين يا رب العالمين.

الوصية رقم (٤٠)
سلوا الله العافية.. وإياكم والكذب

عن أبى بكر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**اسألوا الله العافية فإنه لم يعط أحد خيراً من العافية بعد يقين، وإياكم والكذب، فإنه مع الفجور، وهما فى النار**»[2].

صدق رسول الله ﷺ

• فى رحاب هذه الوصية •

الرسول ﷺ وهو معلم البشرية، وأستاذ الإنسانية، يعلم أمته ما يكون سببًا فى سعادتها فى الحياة الدنيوية، والأخروية، لذا نراه يوصينا هنا بوصية عظيمة، تنقسم إلى وصيتين: الأولى: «**اسألوا الله العافية..**» فما هى العافية؟.

(١) بحر الدموع لابن الجوزى.

(٢) رواه الخرائطى فى المساوئ (١١٠) ص٥٦ وقال محققه الشيخ مجدى السيد إسناده حسن والحديث صحيح. ورواه ابن ماجه (٣٨٤٩) والترمذى بنحوه (٣٥٠٩) وقال حسن صحيح وأحمد فى مسنده ٥/ ١٧

والعافية هى رفع البلاء، ورفع الأذى، والوقاية مما لا تحمد عقباه.

العافية هى أن يعافيك الله من الناس، ويعافيهم منك، وإذا عافاك منهم، أغناك عنهم، وصرف أذاهم عنك. ولذا قد ورد بأنه ﷺ أوصى بهذا الشطر من الوصية عمه العباس، ففى رواية: **«يا عباس، ياعم رسول الله، سل الله العافية فى الدنيا والآخرة»**.

وأما الشطر الثانى من الوصية، فهو تحذير من خلق ذميم، ألا وهو الكذب.

الكذب حلية الفجار، وزينة الأشرار.

الكذب رذيلة ممقوتة، وسجية ملعونة، وعادة ذميمة، وطبع لئيم يضر بصاحبه قبل أن يضر غيره، لأنه يهدى إلى الفجور، وسوء الأخلاق، وسوء الأخلاق سبيل إلى النار، وبئس المصير، ولأنه يكون بأعظم نعمة من نعم الله على البشرية كلها وهو اللسان الذى فضله الله، ورفع درجته على سائر الجوارح، فقد أنطقه دونها بتوحيده.

فلا يجب على العاقل أن يعود آلة خلقها الله تعالى للنطق بتوحيده بالكذب، فما أضرار هذا الخلق الذميم على الفرد والمجتمع؟

• إياكم والكذب •

أخى الحبيب:

وبعد أن وقفت بك مع فضيلة الصدق والصادقين، ها أنذا أقف مع هذه الرذيلة التى حذرنا منها رسول الإسلام ﷺ، وقدم للتنفير من هذه الرذيلة بأسلوب التحذير **«إياكم»** وهذا التحذير المقصود منه تأكيد فضيلة الصدق التى حث عليها بأسلوب الإغراء، لأنه كما يقول العلماء: الأمر بالشىء يستلزم النهى عن ضده.

فلا تقربوا الكذب، ولا تسلكوا مسالك الكذابين، لأنه رذيلة من أقبح الرذائل، بل هو أساسها وينبوعها، فما خطر هذه الصفة؟ وما خطر الكذابين على الفرد والمجتمع؟ هيا بنا لنتعرف على ذلك:

• القرآن الكريم يحذر أتباعه عاقبة الكذب •

أخى المسلم:

لقد بين لنا القرآن الكريم، وهو الدستور الحكيم أن عاقبة الكذب وخيمة فى الدنيا والآخرة ومن تلك العقوبات:

١ - سواد وجوههم يوم القيامة: وأنت تعلم أن الناس فى القيامة صنفان: إما أن تبيض وجوههم، وإما أن تسود، قال سبحانه: ﴿**يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ**﴾ [آل عمران: ١٠٦] فأما الذين تبيض وجوههم فهم أهل الصدق والإيمان، وأما الذين تسود وجوههم فهم الكذابون، قال سبحانه: ﴿**وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ**﴾ [الزمر: ٦٠].

٢- أن الله سبحانه يفضحهم على رءوس الخلائق يوم القيامة:

نعم يكشف الله سبحانه يوم القيامة عن حقيقتهم أمام الملائكة والأنبياء والصالحين، وكل الخلائق حتى الجن، يقول سبحانه: ﴿وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [هود: ١٨] أى حسرة بعد هذه الحسرة؟! وأى ندامة بعدما فضحوا فى الآخرة، ونادى كل الخلق عليهم بالإشارة: هؤلاء هم الذين كانوا يكذبون فى الدنيا على الله وعلى عباد الله؟!.

٣- ومنها: أن الله سبحانه نفى عن الكذابين صفة الإيمان:

قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [النحل: ١٠٥] لأن أهل الإيمان لا يكذبون، فهم يعلمون أن الله يعلم سرهم ونجواهم، يعلمون أن الله يعلم السر وأخفى، يعلمون أن الله مطلع عليهم فى ظاهرهم، وباطنهم، وأنهم إليه راجعون لأجل ذلك فهم يبتعدون عنه، وعن أهله.

٤- ومنها: أنهم لن يبلغوا آمالهم، ولن يستطيعوا تحقيقها بالكذب:

قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦] ثم يقول بعدها مباشرة: ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ١١٧] أى أنهم لن يبلغوا ما يريدون، ولن يحققوا ما يتمنون فى الدنيا الفانية، ثم يعقبها الآخرة التى يقاسون فيها العذاب الأليم.

٥- ومنها: عدم هداية الله لهم:

قال سبحانه فى مفتتح سورة الزمر: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣] أى لا يرشد إلى الهداية من قصده الكذب والافتراء على الله سبحانه وتعالى.

أخى الحبيب:

ولو تتبعنا آيات القرآن الكريم لوجدنا أنه لا تخلو سورة من سوره إلا وذكرت عاقبة الكذّابين، وإن كانوا ممن يصدون عن سبيل الله، ويفترون على الله الكذب، ويكذبون آياته ورسله ومعجزاته، وهذا أشنع أنواع الكذب.

فقد ذكر الكذب فى القرآن الكريم فى مائتين وثلاث وثمانين موضعًا بجميع مشتقاته (كذب، كذبت، كذبتم، كذبوا، كذبنا، كذبوك، كذبوكم، يكذبونك، المكذبين... إلخ)[١]

• السنة النبوية تحذر من الكذب •

أخى الحبيب:

ولما كان الكذب أصل كل الشرور، وسبب كل فجور، كما يقول الحسن البصرى رحمه الله: «الكذب جماع النفاق»[٢] والنفاق نهايته أليمة: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم من ص ٧٠٢:٧٠٦ محمد فؤاد عبد الباقى ط/ دار الحديث.

(٢) ذكره ابن أبى الدنيا فى الصمت (٥١٨) ص٢٩٧ والزهد لأحمد.

مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥] حذرت السنة النبوية المطهرة ونفرت منه، لأن مساوئه عظيمة، وعواقبه سيئة فما هى عواقبه؟

١- أنه يؤدى بصاحبه إلى الهلاك فى النار يوم القيامة:

كما بينت الوصية التى نحن بصدد الحديث عنها فى قوله ﷺ: **«إياكم والكذب، فإن الكذب يهدى إلى الفجور، وإن الفجور يهدى إلى النار»** فنلاحظ أن الرسول ﷺ قرن الكذب بالفجور، فهما قرينان، ويتضح ذلك جليًا فى حديث رسول الله ﷺ الذى يرويه لنا صديق هذه الأمة أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فيقول: قام فينا رسول الله ﷺ مقامى هذا عام أول، ثم ذرفت عيناه، فلم يستطع من العبرة أن يتكلم، ثم قال مثل ذلك ثلاثًا، ثم قال:

«اسألوا الله العافية، فإنه لم يعط أحد خيرًا من العافية بعد يقين، وإياكم والكذب، فإنه مع الفجور، وهما فى النار»(١)

يقول الشيخ مجدى فتحى السيد فى حديثه عن الكذب والكاذبين:

نستخلص من هذا الحديث النبوى ما يلى:

١- التحذير من الكذب والتساهل فيه.

٢- الكذب أشد الأمور ضررًا علينا فى الدنيا والآخرة.

٣- الكذب هو بداية طريق الفجور.

٤- الفجور موصل إلى النار والعار.

٢- أن الكذب خصلة من خصال النفاق:

فعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان»**(٢)

والمنافق هو الذى يظهر خلاف ما يبطن سواء كان ذلك فى نفاق العقيدة، أم فى نفاق السلوك، والمقصود هنا النفاق السلوكى، فيظهر الصدق، ويبطن الكذب.

٣- أن للكذابين عقوبة من نوع خاص:

ولك أن تتعرف على هذه العقوبة من خلال الرؤيا التى رآها رسولنا محمد ﷺ والتى قصها علينا سمرة بن جندب رضي الله عنه، فقال: كان رسول الله ﷺ إذا صلى الغداة، أقبل علينا بوجهه الكريم، فقال لأصحابه: **«هل رأى أحد منكم الليلة رؤيا؟** وقد سألنا ذات

---

(١) رواه أحمد فى مسنده (٥) ١٦٨/١ مطولاً وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر وبرقم (١٧) ورواه البخاري فى الأدب المفرد والخرائطى فى مساوئ الأخلاق (١٠٩) مكتبة القرآن بتحقيق الشيخ مجدى فتحى السيد.

(٢) رواه البخارى ومسلم (١٠٧) والترمذى (٢٦٢٩) وأحمد فى مسنده والنسائى.

غداة هذا السؤال، فقلنا: لا، قال: لكنى رأيت الليلة، أنه أتانى اثنان، وأنهما أخذا بيدى، فقالا لى: انطلق، فانطلقت معهما، فأخرجانى إلى أرض مستوية، فأتينا على رجل مضطجع، وآخر قائم عليه بصخرة، فإذا هو يهوى بالصخرة على رأسه فيثلغ[١] بها رأسه، فيتهدهده الحجر، فيتبعها ويأخذها، فلا يرجع حتى يصح رأسه كما كان، فيعود عليه بمثل ذلك.

فقلت: سبحان الله! ما هذا؟ فقالا لى: انطلق، فانطلقت معهما، حتى أتيا على رجل مستلق على قفاه، وإذا آخر قائم عليه بكلوب(٢) من حديد، فإذا هو يأتى أحد شقى وجهه، فيشق شدقه[٣] حتى يبلغ قفاه، ومنخره إلى قفاه، ثم يتحول إلى الجانب الآخر، فيفعل به مثل ذلك، فلا يفرغ منه حتى يصح الجانب الأول كما كان، فيعود إليه، فيفعل به مثل ذلك. قال: قلت: سبحان الله! ما هذا؟ قالا لى: انطلق... إلى أن قال: قلت لهما: إنى رأيت فى هذه الليلة عجبًا، فما هذا الذى رأيته؟.

قالا: فأما الأول الذى رأيته يثلغ رأسه بالحجر، فإنه رجل يأخذ القرآن، ثم يرفضه، وينام عن الصلاة المكتوبة.

وأما الذى يشرشر شدقه إلى قفاه، فإنه رجل يخرج من بيته، فيكذب الكذبة فتبلغ الآفاق... إلخ»[٤].

٤- أن الكذب محل غضب الله تعالى وسخطه:

فعن سلمان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يدخلون الجنة: الشيخ الزانى، والإمام الكذاب، والعائل[٥] المزهو[٦]»[٧] وفى رواية عن أبى هريرة ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر»[٨]

والمقصود بالعائل المستكبر: الفقير الذى يتكبر على خلق الله رغم فقره.

لكن ما سبب تخصيص هؤلاء بهذا الوعيد؟

---

(١) يثلغ: يخدش ويكسر. (٢) كلوب: حديدة معوجة من أولها تشبه الخطاف.

(٣) شدقه: جانب فمه.

(٤) رواه البخارى وأحمد فى مسنده (٨٢٩٦) فى مسنده والخرائطى بنحوه فى مساوئ الأخلاق رقم (١٣٠) والطبرانى فى الكبير (٥) العائل: الفقير وفى المسند العامل.

(٦) المزهو: المعجب بنفسه.

(٧) رواه البزار بإسناد جيد قاله المنذري فى الترغيب ٣/ ٦٠١ ورواه ابن أبى الدنيا فى الصمت (٤٧٦) ص٢٨٠ عن أبى هريرة بإسناد صحيح، ورواه البيهقى فى الشعب والطبرانى فى الكبير.

(٨) رواه مسلم وأحمد فى مسنده.

وسبب تخصيص هؤلاء بهذا الوعيد أن كلا منهم التزم المعصية المذكورة مع بعدها منه، وعدم ضرورته إليها، وضعف دواعيها عنده، فلما لم يكن إلى هذه المعاصي ضرورة مزعجة، ولا دواعي معتادة أشبه إقدامهم عليها المعاندة، والاستخفاف بحق الله تعالى، وقصد معصيته، لا لحاجة غيرها.

فإن الشيخ لكمال عقله، وتمام معرفته بطول ما مر عليه من الزمان، وضعف أسباب الجماع والشهوة للنساء، وقلة دواعيه لذلك وعنده ما يريحه من دواعي الحلال في هذا، وتخلى سره منه، فكيف بالزنا الحرام؟!.

وإنما دواعي ذلك الشباب والحرارة الغريزية، وقلة المعرفة، وغلبة الشهوة، لضعف العقل، وصغر السن.

وكذلك الحاكم لا يخشى من أحد من رعيته، ولا يحتاج إلى مداهنة ومصانعة، فإن الإنسان إنما يداهن ويصانع بالكذب من يحذره، ويخشى أذاه، أو معاتبته، ويطلب عنده بذلك منزلة أو منفعة، فهو غني عن الكذب مطلقًا.

وكذلك الفقير العائل قد عدم المال، وإنما سبب الفخر والخيلاء، والكبر، والارتفاع عن القرناء بالثروة في الدنيا، لكونه ظاهرًا فيها، وحاجات أهلها إليه.

فإذا لم يكن عنده أسبابها، فلماذا يستكبر ويستحقر غيره؟!.

فلم يبق فعله، وفعل الشيخ الزاني، والحاكم الكاذب إلا لضرب من الاستخفاف بحق الله تعالى[1].

٥- حرم الرسول ﷺ الكذب ولو على طفل صغير:

حرم النبي ﷺ أن يكذب الوالد على ولده، أو الأم على ولدها، لأنهما قدوة له والطفل حسب ما ينشأ، فإن نشأ في بيئة وجد أباه يكذب أو أمه، أو أخاه الأكبر، فسوف يتعود على ذلك، لهذا السبب حذر النبي ﷺ أولياء الأمور من الكذب على أولادهم.

فعن عبد الله بن عامر رضي الله عنه قال: دعتني أمي يومًا ورسول الله ﷺ قاعد في بيتنا، فقالت: ها، تعالَ أعطيك! فقال لها رسول الله ﷺ: **وما أردت أن تعطيه؟** قالت: أعطيه تمرًا، فقال لها رسول الله: **«أما إنك لو لم تعطه شيئًا كتبت عليك كذبة»**[2].

٦- وحرم الرسول ﷺ اليمين الكاذبة وجعل عقوبتها نار جهنم:

وسمى الرسول اليمين الكاذبة باليمين الغموس، وسميت بذلك لأنها تغمس صاحبها في نار جهنم يوم القيامة، وقد عدها الرسول من كبائر الذنوب التي توجب عقاب الله تعالى فقال ﷺ فيما رواه عنه الصحابي الجليل: عمران بن حصين رضي الله عنه: **«من حلف**

---

(١) انظر دليل الفالحين لابن علان جـ٣/ ٧٣.

(٢) صحيح سنن أبي داود للألباني وحسنه (٤٩٩١) ٣/ ٢٢٦ والسلسلة الصحيحة (٧٤٨) والمساوئ للخرائطي (١٣٩).

على يمين كاذبة مصبورة، فليتبوأ مقعده من النار»[١] وفى رواية: عن عبد الله بن مسعود أن النبى ﷺ قال: **«من حلف على يمين بإثم، ليقتطع بها مال امرئ مسلم بغير حقه لقى الله تعالى يوم القيامة، وهو عليه غضبان»**[٢]

٧- بين الرسول ﷺ أن ترك الكذب يؤدى بصاحبه إلى دخول الجنة:

فعن أنس رضي الله عنه أن رسول ﷺ قال: **تكفلوا لى بست أتكفل لكم بالجنة**، قالوا: وما هى يا رسول الله؟ قال: **إذا حدث أحدكم فلا يكذب، وإذا وعد فلا يخلف، وإذا ائتمن فلا يخن، وغضوا أبصاركم، واحفظوا فروجكم، وكفوا أيديكم»**[٣]

فهل رأيت أخى الحبيب أن ترك الكذب يصل بك إلى جنة الله رب العالمين، لأن من قام بهذ الست، ومن بينها عدم الكذب والبعد عنه. ولذلك يقول الفضيل بن عياض رحمه الله: أصل الإيمان عندنا، وفرعه، وداخله، وخارجه بعد الشهادة بالتوحيد، وبعد الشهادة للنبى ﷺ بالبلاغ، وبعد أداء الفرائض: صدق الحديث، وحفظ الأمانة، وترك الخيانة، ووفاء بالعهد، وصلة الرحم، والنصيحة لجميع المسلمين»[٤]

٨- الكذب يمحق البركة من السلعة:

والسلعة قد تكون عند التجار، أو الصناع، وقد بين لنا سيد البشر ﷺ **أن أكذب** الناس الصنَّاع، فعن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ: **«أكذب الناس الصناع»**[٥] والتجار كذلك، لأن كلا منهما يروج سلعته بالأيمان الكاذبة، وقد قال النبى ﷺ محذرًا، ومبينًا عاقبة اليمين الكاذبة فى حق التجار والصناع: **«اليمين الكاذبة، منفقة للسلعة، ممحقة للكسب»**[٦]

أى أنها تروج السلعة لدى الصانع أو التاجر فيكسب المال الوفير، لكن الله قد نزع منه البركة والنماء.

ولذلك ورد فى حديث آخر وجهه لأرباب الصناعات، وللتجار، لكى يعلموا أنه لا ينفع إلا الصدق، مهما جمعتم من الأموال، فليست فيها البركة ما دام الصدق قد جانبها، يقول ﷺ: **«البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبينا بورك لهما فى بيعهما، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما»**[٧]

---

(١) صحيح سنن أبى داود للألبانى (٣٢٤٢) جـ٢/ ٣١١ والسلسلة الصحيحة (٢٣٣٢) وأحمد فى مسنده.

(٢) صحيح سنن أبى داود (٣٢٤٣) مطولا والبخاري ومسلم وأحمد والترمذى.

(٣) رواه أحمد بلفظ (اضمنوا) (٢٢٦٥٦) وذكره الألبانى فى ص.ج (١٠١٨) والبيهقى فى الشعب وذكره الهيثمى فى المجمع ٤/ ١٤٥ والمنذري فى الترغيب.

(٤) ذكره البيهقى فى الشعب.

(٥) رواه أحمد (٩٢٦٧) بإسناد صححه حمزة الزين فى تخريج المسند ٩/ ١٦٦ وقال: انفرد به أحمد.

(٦) رواه البخارى ومسلم وأحمد (٩٣٢٠) وأبو داود.

(٧) رواه البخارى ومسلم وأحمد (٤٤٨٤) وأبو داود (٣٤٥٩) جـ٢/ ٣٦٤ للألبانى والترمذى (١٢٦٤).

جاء في دليل الفالحين:

كما أن التاجر إذا صدق في سلعته، ولم يغش بورك له في معاملته، كذلك العبد إذا صدق في معاملته مع ربه ولم يغش في أداء حق عبوديته برياء أو سمعة، أو انظر لعمله بورك له في تلك المعاملة وأعطى أمله[١]

واعلم أخي الحبيب: أن الحلف لترويج التجارة بالكذب يوقع صاحبه في إثم عظيم وعاقبة وخيمة يوم أن يقف أمام مولاه في ساحة القضاء يوم لقاء رب الأرض والسماء، يوم لا ينظر الله فيه إلى ثلاثة أصناف، ولا يكلمهم، وتلك أقبح العقوبات وأشدها فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: رجل منع ابن السبيل فضل ماء عنده، ورجل حلف على سلعة بعد العصر -يعني: كاذبًا- ورجل بايع إمامًا، فإن أعطاه وفى له، وإن لم يعطه لم يف له»**[٢]

فالتجار إما أن يكونوا أبرارًا وإما أن يكونوا فجارًا، لأن التجارة سلاح ذو حدين، إما أن يصدق البائع في بيعه وشرائه، ويتحرى الأمانة والصدق ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، فحينئذ يكون من الأبرار، الذين قال فيهم النبي ﷺ: **«التاجر الصدوق مع النبيين والصديقين والشهداء»**[٣] وفي رواية: **«التاجر الأمين الصدوق المسلم مع الشهداء يوم القيامة»**[٤]

وإما أن يغش التاجر ويكذب، ويخون ويغدر، ويحلف كاذبًا فيكون من الفجار الذين قال النبي ﷺ عنهم: **«إنَّ التجار هم الفجار»** قيل: يا رسول الله، أليس قد أحل الله البيع؟ فقال ﷺ: **«بلى ولكنهم يحلفون، فيأثمون، ويحدثون، فيكذبون»**[٥]

وعن رفاعة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«يا معشر التجار»**، فرفعوا أعناقهم وأبصارهم إليه فقال لهم: **«إنَّ التجار يبعثون يوم القيامة فجارًا إلا من اتقى الله وبر وصدق»**[٦].

فلماذا إذن يحاول التجار أن يلبسوا البضاعة الرديئة ثوب البضاعة الحسنة، لا شك في أنهم يريدون أن تكثر أموالهم، وتزداد ثرواتهم، لكنها في الحقيقة إلى زوال، وإلى فناء، وقد أحسن القائل:

وما المال والأهلون إلا ودائع ... ولابد يومًا أن ترد الودائعا

أرى طالب الدنيا وإن طال عمره ... ونال من الدنيا سرورًا وأنعما

كبان بنى بنيانه فأقامه ... فلما استوى ما قد بناه تهدما

---

(١) دليل الفالحين ١/٢١٣ لابن علان. (٢) رواه البخاري ومسلم وأبو داود (٣٤٧٤) جـ١/٣٦٧ للألباني.

(٣) رواه الترمذي وحسنه. (٤) رواه ابن ماجه بسند حسن.

(٥) أحمد في مسنده (١٥٦٠٩) والخرائطي في المساوئ (١٢٢) والحاكم وصححه ٢/ ٦٠ وأقره الذهبي.

(٦) رواه الترمذي في جامعه وابن ماجه في سننه بسند صحيح.

هب الدنيا تساق إليك عفواً ... أليس مصير ذلك إلى انتقال

وما دنياك إلا مثل فيء ... أظلك ثم آذن بالرحيل

واعلم أخا الإسلام أن التجارة نوعان: ١- تجارة مع الله ، ٢- وتجارة مع الناس فكن الأول، ولا تكن الثانى فتهلك، كن متاجرًا مع مولاك وأعد الزاد، وإلا ستندم.

ستندم إن رحلت بغير زاد ... وتشقى إذ يناديك المنادى

تأهب للذى لابد منه ... فإن الموت ميقات العباد

أترضى أن تكون رفيق قوم ... لهم زاد وأنت بغير زاد

• السلف الصالح يذمون الكذب ويحذرون منه •

أخا الإسلام:

وكما حذر رسولنا ﷺ من الكذب، ونهانا عنه، وأمرنا باجتنابه، فلقد حذرنا أيضًا أولئك الأطهار الذين تخرجوا فى جامعة حبيبنا محمد ﷺ، فماذا قالوا عن هذه الرذيلة، وذلكم الداء الخطير؟

يقول سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه: «اتقوا الكذب، فإن الكذب مجانب للإيمان»[(١)] إن صديق الأمة الأكبر يحذر من الكذب بصيغة الأمر، ثم يؤكد أنه ينافى الإيمان، فكأن الكذَّاب ليس بمؤمن، بل منافق كما وصفه النبى ﷺ.

وهذا هو فاروق الأمة عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحذر هو الآخر من الكذب لكنه بأسلوب آخر فيقول: «لا يغرنكم صلاة امرئ وصيامه، ولكن إذا حدث كذب، وإذا اؤتمن خان»[(٢)].

وهذا هو سيدنا على بن أبى طالب رضي الله عنه يأتى السوق يومًا فيحذر التجار من الحلف بالأيمان الكاذبة، فيقول: «يا معشر التجار إياكم والحلف، فإن الحلف ينفق السلعة ويمحق البركة، وإن التاجر فاجر إلا من أخذ الحق وأعطاه»[(٣)].

وهذا هو سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه صاحب الوصية التى نحن بصدد الحديث عنها يحذر من تلك الرذيلة الذميمة فيقول: «لا يزال العبد يكذب، وتنكت فى قلبه نكتة سوداء حتى يسود قلبه كله، فيكتب عند الله من الكاذبين»[(٤)] وكان يقول أيضًا: «أعظم الخطايا اللسان الكذوب»[(٥)] وكان يقول ناصحًا: «كل الخلال يطوى عليها المؤمن إلا الخيانة

---

(١) مساوئ الأخلاق للخرائطى (١٣٢) ص٦٤ وأحمد فى مسنده (١٦) ١/ ١٧٥ بإسناد صحيح مطولاً.

(٢) المساوئ (١٥٢) ص٦٩

(٣) المساوئ (١٥٧) ص٧٠ وقال محققه الشيخ مجدي السيد إسناده حسن.

(٤) موطأ الإمام مالك موقوفًا فى باب(٧) ما جاء فى الصدق والكذب رقم (١٨) ٢/ ٣٧٩ ط/ جمعية إحياء التراث السعودية.

(٥) ذكره السمرقندى فى تنبيه الغافلين ص١٢٠ والمستطرف ص٢٧٨

والكذب»[١] وهذا هو ترجمان القرآن، حبر الأمة، عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يقول: «الكذب فجور، والنميمة سحر، فمن كذب فقد فجر، ومن نم فقد سحر»[٢]

وذاكم هو التابعي الجليل مسروق بن الأجدع رحمه الله يقول: «ليس شيء أعظم عند الله من الكذب»[٣]

وقال مطرف رحمه الله: «ما أحب أني كذبت ولي الدنيا وما فيها»[٤].

وكان إياس بن معاوية بن قرة رحمه الله يقول: «ما يسرني أني كذبت كذبة لا يطلع عليها إلا أبي معاوية بن قرة، لا أسأل عنها يوم القيامة، وإن لي الدنيا بحذافيرها»[٥]

ولم يكن الكذب مذمومًا فقط في الشريعة الإسلامية، وإنما كان مذمومًا حتى في شرع من قبلنا؛ فعن هزيل بن شرحبيل قال:

قال موسى عليه السلام: **«رب أي عبادك خير عملاً؟ قال: «من لا يكذب لسانه، ولا يفجر قلبه، ولا يزني فرجه»**[٦].

وعن مالك بن دينار رحمه الله قال: «قرأت في بعض الكتب: ما من خطيب يخطب، إلا عرضت خطبته على عمله، فإن كان صادقًا صدق، وإن كان كاذبًا قرضت شفتاه بمقراضين من نار، كلما قرضتا نبتتا»[٧]

وتأمل وصية الله تبارك وتعالى لكليمه موسى عليه السلام في الألواح يقول فيها: **«أن اعبدني ولا تشرك بي شيئًا، ولاتحلف باسمي كاذبًا، فإني لا أزكي ولا أطهر من حلف باسمي كاذبًا، واشكر لي ولوالديك، أنسأ لك في أجلك، وأقيك المتالف، ولا تسرق، ولا تزن فأحجب عنك نور وجهي، وتغلق عن دعائك أبواب سماواتي..»**[٨]

وأنشد عبد العزيز بن سليمان الأبرش يقول:

كم من حسيب كريم كان ذا شرف ... قد شانه الكذب وسط الحيّ إن عمدا

وآخر كان صعلوكًا فشرفه ... صدق الحديث وقول جانب الفندا

فصار هذا شريفًا فوق صاحبه ... وصار هذا وضيعًا تحته أبدا[٩]

وقد أوصى أعرابي ابنه حين رآه يكذب:

عجبت من الكذب المشيد بكذبه، وإنما يدل على عيبه، ويتعرض للعقاب من ربه. فالآثام له عادة، والأخبار عنه متضادة.

---

(١) الصمت لابن أبي الدنيا (٤٩). (٢) عيون الأخبار لابن قتيبة ٢/ ٣١.

(٣) الصمت (٥٥٠). (٤) الصمت (٤٩٥).

(٥) المساوئ (١٣٨) ص٦٥ وأبو نعيم في الحلية بسند حسن ٣/ ١٢٣

(٦) الصمت لابن أبي الدنيا (٤٨٥). (٧) المرجع السابق (٤٩٨).

(٨) شعب الإيمان للبيهقي (٤٨٥٨).

(٩) روضة العقلاء لابن حبان ص٥٢ ط/ دار المغني للنشر والتوزيع - السعودية.

إن قال حقًا لم يصدق، وإن أراد خيرًا لم يوفق.

فهو الجانى على نفسه بفعاله، والدال على فضيحته بمقاله.

فما صح من صدقه نسب إلى غيره، وما صح من كذب غيره نسب إليه، كما قال الشاعر:

حسب الكذوب من المهانة بعض ما يحكى عنه
فمتى سمعت بكذبة من غيره نسبت إليه[1]

• صور وأنواع من الكذب •

١- افتراء الكذب على الله ورسوله:

وهذا النوع أشنع وأقبح أنواع الكذب، لأنه افتراء فى الدين، وتلاعب بشرائع الله لعباده، وتجرؤ عظيم على النار، وقد أوضحنا أنه من أظلم الظلم افتراء الكذب على الله، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ...﴾ [الأنعام: ٩٣].

ولقد أوضح الرسول عاقبة من يكذب عليه متعمدًا، فقال: «**ومن كذب عليَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار**»[2] وهذا وعيد شديد من الرسول ﷺ لمن يحدث بحديث يكذب فيه متعمدًا عليه ﷺ كمن يضع الحديث وغيره.

٢- شهادة الزور من أشد أنواع الكذب، وأقبح الكبائر:

لأن الأصل فى الشهادة أن تكون سندًا لجانب الحق، ومعينة للقضاء على إقامة العدل، والحكم على الجناة المنحرفين بما يستحقونه من العقوبة، وإلا فهى ظلم، وبغى، وفساد وحين تتحول الشهادة عن وظيفتها تكون سندًا للباطل، وتضليلاً للقضاء، وساعتها يحكم القاضى بغير الحق، مستندًا إلى تلك الشهادة الكاذبة المزورة، لذلك فإنها حينئذ تحمل جريمتين كبريين فى آن واحد:

الأولى: عدم تأديتها لوظيفتها الطبيعية فى إثبات الحق.

الثانية: قيامها بجريمة إيجابية، تُهضَمُ فيها الحقوق، ويظلم فيها البرآء، ويستعان بها على الإثم والبغى والعدوان.

وهى فى هذه الحالة كالقاضى الذى بيده سلطة القضاء ليحكم بالعدل، فيحكم بعكسه: بالجور والظلم، متبعًا فى ذلك شيطانه وهواه، أو طامعًا فى عرض من أعراض الدنيا الزائلة.

---

(١) أدب الدنيا والدين للماوردى ص٣١٨ ط/ دار الريان والمستطرف ص٢٧٨ التوفيقية.

(٢) رواه البخارى ومسلم وأحمد وأبو داود والترمذى.

وهي أيضًا كالمستأمن الذي يخون من استأمنه.

والجريمة في كل ذلك بجريمتين، والظلم بظلمين، ولكل من أصحاب هذه الجرائم كفلان من العقاب.

وقد أوضح رسولنا ﷺ أنَّ شهادة الزور من أكبر الكبائر فقال في الحديث الذي رواه عنه سيدنا أبو بكر ﷺ: **«ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى يا رسول الله. قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين»** وكان متكئًا فجلس، فقال: **«ألا وقول الزور، وشهادة الزور...»**(١) فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت.

يقول الشيخ محمد الغزالي في كتابه: «خلق المسلم»:(٢)

والحيف في الشهادة من أشنع الكذب. فالمسلم لا يبالي إذا قام بشهادة ما أن يقرر الحق، ولو على أدنى الناس منه، وأحبهم إليه، لا تميل به قرابة ولا عصبية، ولا تزيغه لرغبة أو رهبة.

وتزكية المرشحين لمجلس الشورى، أو المناصب العامة، نوع من الشهادة، فمن انتخب المغموط في كفايته وأمانته، فقد كذب وزور، ولم يقم بالقسط، والله تعالى يقول: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾** [النساء: ١٣٥].

٢- قذف البرآء بما لم يفعلوا:

ومن أقبح أنواع الكذب أيضًا: قذف الإنسان البريء بتهمة لم يرتكبها، كقذف المؤمنات المحصنات بالزنى، وقد حدد القرآن عقوبة القاذف الذي لم يثبت تلك الجريمة النكراء بأربع من الشهود، فقال سبحانه: **﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾** [النور: ٤: ٥]. ويقول النبي ﷺ: **«من قذف مملوكه وهو بريء مما قال، ضرب له يوم القيامة»**(٣)

٣- اليمين الغموس:

ومن أقبح صور الكذب، الكذب الذي يؤكد ويوثق باليمين، وهو الحلف بالله عز وجلٍ لتوثيق الكلام الكاذب.

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأحمد.

(٢) خلق المسلم ص٢٧ ط/ دار الريان للتراث.

(٣) رواه البخاري ومسلم وأبو داود وأحمد والترمذي والبيهقي والخرائطي في المساوئ.

وهذه اليمين الكاذبة الفاجرة هى اليمين الغموس، وسميت بذلك، لأنها تغمس صاحبها فى الإثم الكبير، ثم تغمسه فى النار.

وهى من أعظم الكبائر، لأن فيها استغلال لثقة المخاطب بأيمان الحالف بالله، وأنه لا يتجرأ على أن يحلف بالله كاذبًا، فيصدقه ويستسلم له، ويعتبر يمينه بقوة وبمثابة البينة «الشهود».

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبى ﷺ قال: **«الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس»**[(١)] وفى رواية: أن أعرابيًا جاء إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، ما الكبائر؟ قال: **الإشراك بالله قال:** ثم ماذا؟ قال: **اليمين الغموس. قلت:** وما اليمين الغموس؟ قال: **«الذى يقتطع بها مال امرئ مسلم»**[(٢)]

فالكذب جماع كل شر، وأصل كل ذم لسوء عواقبه، وخبث نتائجه، لأنه ينتج النميمة، والنميمة تنتج البغضاء، والبغضاء تئول إلى العداوة، وليس مع العداوة أمن، ولا راحة. ولذلك قيل: من قل صدقه، قل صديقه.

وصدق الشاعر حين قال:

وما شىء إذا فكرت فيه ... بأذهب للمروءة والجمال

من الكذب الذى لا خير فيه ... وأبعد بالبهاء من الرجال[(٣)]

• ما يرخص فيه من الكذب •

لقد بينت لنا السنة المطهرة أمورًا رخص فيها الشارع الحكيم، الذى لا ينطق عن الهوى، ومن تلك الأمور ما يلى:-

١ - الإصلاح بين المتخاصمين:

وذلك فى حالة ما لم توجد وسيلة للإصلاح بينهما أنجح من أن يركب مركب الكذب على مقدار الضرورة، دون إسراف ولا زيادة، فعن أم كلثوم بنت عقبة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«ليس الكذاب الذى يصلح بين الناس، فينمى خيرًا أو يقول خيرًا»**[(٤)] ومعنى «ينمى خيرًا» أى يذيع أقوالاً فيها بعض الكذب للإصلاح بين الناس، ولإزالة ما بينهم من عداوات.

٢- الكذب على العدو فى حالة الحرب:

وذلك لتضليله، ولإيقاعه فى فخ من فخاخ الخداع الحربى.

ولكن لا يدخل فى هذا جواز الكذب عليه بتأمينه، أو معاهدته ثم الغدر به، فهذا غير جائز قطعًا، بل هو من كبائر الذنوب.

---

(١) رواه البخاري وأحمد (٦٨٨٤).
(٢) رواه البخارى ومسلم.
(٣) أدب الدين والدنيا للماوردى.
(٤) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى وأحمد.

فعن أم كلثوم بنت عقبة قالت: «لم أسمع النبى ﷺ يرخص فى شىء من الكذب مما تقول الناس إلا فى الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته، وحديث المرأة زوجها»(١) ولذلك روى أهل السيرة أن رسول الله ﷺ لما سار إلى بدر نزل قريبًا منها، وهناك وقف على شيخ، فسأله عن قريش، وعن محمد وأصحابه، وما بلغه عنهم، فقال الشيخ: لا أخبركما حتى تخبرانى من أنتما، فقال رسول الله ﷺ: **«إذا أخبرتنا أخبرناك»** قال: وذاك بذاك، ثم قال الشيخ: إنه بلغنى أن محمدًا وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدقنى الذى أخبرنى، فهم اليوم بمكان كذا وكذا بالمكان الذى فيه رسول الله ﷺ وأصحابه، وبلغنى أن قريشًا خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدقنى الذى أخبرنى، فهم اليوم بمكان كذا وكذا بالمكان الذى به قريش، فلما فرغ من خبره قال: فمن أنتم؟ فقال رسول الله ﷺ **«نحن من ماء»** ولم يكذب النبى ﷺ وإنما أوهم الرجل، فوقف مبهوتًا يحدث نفسه، أمن ماء العراق؟ ! أمن من ماء كذا؟!(٢).

لذلك كان عمران بن حصين رضي الله عنه يقول: «إنَّ فى المعاريض لمندوحة عن الكذب»(٣)

٣- الرجل يحدث زوجته أو تحدثه:

فعن أسماء بنت يزيد: قالت: قال رسول الله ﷺ: **«يا أيها الناس، ما يحملكم أن تتابعوا على الكذب، كتتابع الفراش فى النار، الكذب كله على ابن آدم حرام إلا فى ثلاث خصال:**

- **رجل كذب على امرأته ليرضيها.**
- **ورجل كذب فى الحرب فإن الحرب خدعة.**
- **وحديث الرجل امرأته، وحديث المرأة زوجها(٤)**

وتأمل هذه القصة فإنها تزيدك إيضاحًا.

فعن ابن أبى عزرة الدؤلى، وكان فى خلافة عمر رضي الله عنه يخلع النساء التى يتزوجها فطار له فى الناس من ذلك أحدوثة فكرهها، فلما علم بذلك، قام بعبد الله بن الأرقم حتى أدخله بيته، فقال لامرأته وابن الأرقم يسمع: أنشدك بالله هل تبغضيننى؟.

فقالت امرأته: لا تناشدنى. قال: بلى. فقالت: اللهم نعم.

---

(١) رواه مسلم وأبو داود والخرائطى فى المساوئ.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٣/ ٢٦٤ والسيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٠٧

(٣) ذكره الخرائطى فى المساوئ (١٧١) ص٧٥ بإسناد حسنه الشيخ مجدى السيد وقال: رواه البيهقى فى سننه.

(٤) رواه الترمذى وحسنه.

فقال ابن أبى عزرة لعبد الله: أتسمع؟! ثم انطلق حتى أتى عمر، ثم قال: يا أمير المؤمنين، يحدثون أنى أظلم الناس، وأخلعهن، فاسأل عبد الله بن الأرقم عما سمع من امرأتى، فسأل ابن الأرقم فأخبره، فأرسل عمر إلى المرأة فجاءت، فقال لها: أنت التى تحدثين زوجك أنك تبغضينه؟. قالت: يا أمير المؤمنين، إنى أول من تاب، وراجع أمر الله، إنه يا أمير المؤمنين أنشدنى بالله فتحرجت أن أكذب، أفأكذب يا أمير المؤمنين؟. قال: نعم فاكذبى، فإن كانت إحداكن لا تحب أحدًا فلا تحدثه بذلك، فإن أقل البيوت الذى يبنى على الحب، ولكن الناس يتعاشرون بالإسلام والإحسان[1].

لكن اعلم أخى المسلم.. وأختى المسلمة أنه ليس من الكذب المباح أن تكذب المرأة على ضرتها، إذ تخبرها بأن زوجها اصطفاها بكذا أو خصها بشيء، أو أكرمها بكذا، مع أنه لم يفعل، فإنه من الكذب المحرم.

فعن أسماء رضي الله عنها أن امرأة قالت: يا رسول الله، إنَّ لى ضرةً فهل علىَّ جناح إنْ تشبعت من زوجى غير الذى يعطينى؟ فقال النبى ﷺ: **«المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبَىْ زُورٍ»**[2].

• أمثال شعبية تحرض على الكذب •

أخى الحبيب:

لقد جاءت أمثال شعبية تحث أصحابها على الكذب، ومن تلك الأمثال:

١- «كذب مساوى، ولا صدق مبعزق»:

وهذا المثل مخالف لما أمر به الشارع الحكيم رب العالمين حيث قال سبحانه: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ** ﴾ [غافر: ٢٧] مع ما قد حثنا عليه من التزام الصدق ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ** ﴾ [التوبة: ١١٩] وقد حثنا عليه رسول الإسلام سيدنا محمد ﷺ فى أقواله وأفعاله وسلوكياته كلها.

فهذا قول هراء يتعارض مع ما حث عليه الشرع من ضرورة التحلى بالأخلاق الفاضلة من الصدق والبر، والوفاء، إن فيه دعوة صريحة لإباحة الكذب، لكن كيف يكون حال المسلمين لو اتخذوا هذا المثل قاعدة صريحة للتعامل فى حياتهم اليومية، هل ترغب أخى الحبيب، يا من تنطق بهذا المثل أن يخدعك أحد الناس بكذب مقبول؟! لقد صدق رسولنا ﷺ حين يقول فى الحديث الذى رواه عنه الصحابى الجليل النواس بن سمعان قال: **«كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثًا هو لك مصدق وأنت به كاذب»**[3] فإياك أن تتخذ هذا

---

(١) ذكره الخرائطى فى المساوئ (١٨٤) ص٧٩، ٨٠ وقال الشيخ مجدي السيد محقق المساوئ إسناده حسن.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) رواه الإمام أحمد فى مسنده بإسناد حسنه حمزة الزين برقم (١٧٥٦٧) ١٣/٤٤٦ ورواه أبو داود رقم (٤٩٧١) وضعفه الألبانى فى السلسلة الضعيفة (١٢٥١).

المثل دستوراً لك في حياتك، واعلم أنه: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]

ومنها قولهم:

٢- (اتمسكن لحد ما تتمكن) ومعناه أن تظهر التذلل والمسكنة، والنفاق والرياء والكذب حتى تتملك الأمر، وتتمكن منه، وساعتها افعل ما تريد.

وهذا المثل أيضًا تافه حقير، لأنه يحض على الكذب، وعلى الرياء، ويحثك على أن تكون ذا وجهين، تأتي هذا بوجه، وهذا بوجه آخر، وقد ذم القرآن الكريم هذا الصنف، فقال سبحانه: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء: ١٠٨].

فانبذ هذا المثل، وتحلَّ بالصدق والأخلاق الكريمة تفز بسعادة الدارين: الدنيا والآخرة.

• مخلوقات فطرها الله على قبح الكذب •

أخا الإسلام:

إن كل الكائنات الحية والجمادات تسبح بحمد ربها، وتعرف لربها حقه وقدره، قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ من فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور ٤١].

لذلك فهي تذم الكذب لما فطرها الله على الصدق، يقول الإمام ابن القيم:

وهذه النملة من أهدى الحيوانات، وهدايتها من أعجب شيء، فإن النملة الصغيرة تخرج من بيتها وتطلب قوتها، وإن بعدت عليها الطريق. ثم يقول: ولقد حدثني أن نملة خرجت من بيتها فصادفت شق جراده، فحاولت أن تحمله فلم تطق، فذهبت وجاءت معها بأعوان يحملنه معها، قال: فرفعت ذلك من على الأرض فطافت في مكانه، فلم تجده، فانصرفوا وتركوها، قال: فوضعته، فعادت تحاول حمله فلم تقدر، فذهبت وجاءت بهم فرفعته، فطافت، فلم تجده، فانصرفوا، قال: فعلت ذلك مراراً، فلما كان في المرة الأخرى استدار النمل حلقة ووضعها في وسطها، وقطعوها عضواً عضواً.

قال شيخنا -أي ابن تيمية-: وقد حكيت له هذه الحكاية، فقال: هذه النملة فطرها الله سبحانه على قبح الكذب، وعقوبة الكذاب[1]

أرأيت أخي الحبيب، كيف فطر الله تلك الحشرة الصغيرة الضعيفة على قبح الكذب، وعقوبة الكذابين، وهذا هو هدهد سليمان عليه السلام حين سأله بعد ما حضر، وكان سليمان يتفقد الطير فلم يجد الهدهد، فتوعده بعذاب أليم، ﴿لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ٢١] فلما جاء الهدهد بادر بعرض عذره، وخاطبه خطابًا

---

(١) شفاء العليل لابن القيم ص١٥٣ ط/ المكتبة التوفيقية.

هيجه به على الإصغاء إليه، والقبول منه، فقال: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: ٢٢] فوصف الخبر بأنه يقين صادق، لا شك فيه ولا ريب فيه، ولا كذب فيه ثم كشف عن حقيقة الخبر كشفًا مؤكدًا بأدلة التأكيد، فقال: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ۝ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [النمل: ٢٣، ٢٤] فأراد نبى الله سليمان عليه السلام أن يختبره، فقال له: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [النمل: ٢٨].

فتأمل أخى الحبيب كيف فطر الله الهدهد على الصدق والصراحة، فلم ينافق، ولم يكذب حتى ينجو بنفسه من الوعيد الذى توعده به سليمان عليه السلام بل لازم الحق والصدق، فأنجاه الله تعالى.

فمن ذا الذى علم النملة، وفطرها على قبح الكذب، وعقوبة الكذاب؟

ومن ذا الذى علم الهدهد الصدق وحسن التصرف؟ إنه الله رب العالمين.

يا من يرى مد البعوض جناحه ... فى ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى نياط عروقها فى نحرها ... والمخ فى تلك العظام النحل
امنن علىَّ بتوبة تمحو بها ... ما كان منى فى الزمان الأول

فإذا كانت هذه الكائنات لا تكذب فما بالك أنت أيها الإنسان، يا من كرمك ربك، وخلقك فسواك فعدلك، ما لك تتغافل عنه ولا تذكره، وتلك المخلوقات توحده وتعبده روى أحمد فى الزهد عن أبى هريرة رضي الله عنه: «أن نبيًّا من الأنبياء خرج يستسقى بالناس فإذا هم بنملة ترفع قوائمها، وتقول: اللهم إنا خلق من خلقك، اسقنا ولاتؤاخذنا بذنوب بنى آدم فقال لقومه: ارجعوا فقد سقيتم بدعاء غيركم»[1]

فبئس العبد عبد سها ولها ... ونسى المبدأ والمنتهى
بئس العبد عبد طغى وعتا ... ونسى الجبار الأعلى

• موعظة •

أخى الحبيب:

عليك بالصدق فى مقالك، والرفق فى أفعالك، فمن صدق فى مقاله جل قدره، ومن رفق فى أعماله تم أمره، واعلم أن اللسان سيف قاطع فلا تأمن حده، واعلم أن طول السكوت يولد السلامة، وكثرة الكلام تولد الندامة، وأحسن الكلام ما صحت أصوله،

(١) رواه الدارقطنى فى سننه (١٨٨) والحاكم فى المستدرك ١/ ٣٢٥ وقال: صحيح الإسناد وصححه الألبانى فى مشكاة المصابيح برقم (١٥١٠).

وتمت فصوله، وأبلغ الكلام ما ظهرت مبانيه، واتضحت معانيه، أحسن الكلام ما أعرب عن الضمير، واستغنى عن التفسير.

واعلم أن من وثق بالله أغناه، ومن توكل عليه كفاه، ومن خافه قلت من الناس مخافته، ومن عرفه تمت معرفته، الصدق لباس الدين، والزهد أمارة اليقين، والإحسان أنفس عُدة، والإخوان أفضل عدة، والتقوى خير زاد والدين أقوى عماد، والطاعة أقوى حرز، والقناعة أبقى عز، الحق أظهر ظهير، والباطل أضعف نصير، من شكر دامت نعمته، ومن صبر حقت محبته، من ذل عقله ذل فعله، وإذا نزل القضاء عمى البصر، وبطل الحذر.

قيل: لما توفي كسرى أنوشروان، وجد مكتوبًا على منطقته هذه الكلمات الأربع: «إذا كان القدر حقًّا فالحذر محال، وإذا كان الرزق مقسومًا فالحرص محال، وإذا كان الأجل محتومًا فالطمأنينة إلى الدنيا غرور، وإذا الغدر طباعًا فالثقة بكل أحد عجز»[1].

أخي الحبيب:

اعلم أن الدهر ثلاثة: يوم مضى لا يعود إليك، ويوم أنت فيه لا يدوم عليك، ويوم لا تدرى ما يكون منه، ولا تعرف ما حاله؟ فاغتنم لأمسك الماضى بغير فائدة، واعمل ليومك الفانى ولغدك الآتى.

والسعيد من اعتبر بأمسه، واستظهر لنفسه، والشقى بغيره، وكل يحصد ما زرع، ويجازى بما صنع، فلا تغرنك نفسك، ولا سلامة أمسك، فمدة العمر قليلة، وسلامة النفس مستحيلة.

واعلم أن الخير كله مجموع فى أربعة: الصمت، والنطق، والنظر، والحركة.

فكل نطق لا يكون فى ذكر الله فهو لغو، وكل صمت لا يكون فى فكر الله فهو سهو، وكل نظر لا يكون عبرة فهو غفلة، وكل حركة ليست فيها عبودية لله فهى باطلة.

فيارب أنت ذو عفو ومغفرة   فنجنا من عذاب القبر والنكد

واجعل إلى جنة الفردوس موئلنا   مع النبيين والأبرار فى الخلد

إلهى؛ ها نحن قد أنخنا ببابك فتعطف علينا مع أحبابك، كفانا عزًّا أن نكون لك عبيدًا وكفانا شرفًا أن تكون لنا ربًّا. إلهى، أنت لنا كما نحب فاجعلنا لك كما تحب، اللهم إنك قبلت ألوفًا من السحرة حين ذكروك مرة، وسجدوا لك سجدة، وإنا لم نزل مقرين بربوبيتك معترفين بوحدانيتك، ما سجدنا قط إلا بين يديك، ولا رفعنا حوائجنا إلا

(١) العقد النفيس ونزهة الجليس للثعالبى ص٦٧ ط/ دار الصحابة بطنطا والأثر ذكره أيضًا صاحب العقد الفريد ٢/ ١٢ ابن عبد ربه الأندلسى.

إليك، فجد علينا بفضلك وأدركنا بلطفك، وعاملنا برأفتك، فأنت ملاذنا إن ضاقت الحيل، وملجؤنا إذا انقطع الأمل.

اللهم دلنا بك عليك، وارحم ذلنا بين يديك، واجعل رغبتنا فيما لديك واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين.

• موعظة •

أخي الحبيب:

يا طويل الأمل في قصير الأجل، أما رأيت مستلبًا وما كمل؟ أتؤخر الإنابة وتعجل الزلل.

يا من يُعِدُّ غدًا لتوبته أعلى يقين من بلوغ غد؟
المرء في زلل على أمل ومنية الإنسان بالرصد
أيام عمرك كلها عدد ولعل يومك آخر العدد[1]

أخي؛ التوبة التوبة قبل أن تصل إليك النوبة، الإنابة قبل أن يغلق باب الإجابة، والإفاقة الإفاقة، فالدنيا معشوقة والوقت سيف. يا غافلا عن مصيره، يا واقفًا في تقصيره، سبقك أهل العزائم، وأنت في اليقظة نائم، قم في الأسحار نادبًا، وقف على الباب تائبًا، واستدرك من العمر ذاهبًا، ودع اللهو والهوى جانبًا، فإذا ما لاح الغرور رأى راهبًا، وطلق الدنيا إن كنت للأخرى طالبًا.

فيا هذا أقبل على ربك ترَ من إقبالك عليه عجبًا، واحفظ الله يحفظك، واطلب الله تجده تجاهك، واضرع إلى مولاك.

فيارب إن عظمت ذنوبي كثرة فلقد علمت بأن عفوك أعظم
أدعوك ربي كما أمرت تضرعا فإن رددت يدي فمن ذا يرحم؟!
إن كان لا يرجوك إلا محسن فمن الذي يرجو المسيئ المجرم؟!
مالي إليك وسيلة إلا الرجا وجميل عفوك ثم إني مسلم

اللهم إنا نشكو إليك ما نحن فيه من طاعتك مقصرون، وعلى معصيتك مصرون، وبعظمتك جاهلون، وبالقيام بما يلزمنا في حقك عاجزون، اجعلنا من الذين يعاملونك بما تحب، وتعاملهم بما يحبون، اللهم ألحقنا بالذين وجهوا إليك وجوههم، وأخلصوا لك في أعمالهم: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

---

(١) المدهش لابن الجوزي ص٢٤٧

الوصية رقم (٤١)
خذوا العلم بحظ وافر

عن أبى الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من سلك طريقًا يبتغى فيه علمًا سهل الله له طريقًا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضًا لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من فى السموات، ومن فى الأرض، حتى الحيتان فى الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا، ولا درهمًا، وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر»**[1].

صدق رسول الله ﷺ

• فى رحاب هذه الوصية •

إن أبا الدرداء رضي الله عنه ينقل لنا هذه الوصية المباركة من رسولنا وحبيبنا محمد ﷺ، وهى وصية عظيمة ابتدأها النبى ﷺ بأسلوب من أساليبه الفصيحة البليغة، ابتدأها بأسلوب الشرط والجزاء، فرتب ﷺ سلوك طريق العلم على الجزاء العظيم من الله تبارك وتعالى وهو أنه سبحانه يسهل له طريقًا إلى الجنة، ثم يبين المزايا التى يحصل عليها طالب العلم من ربه جل وعلا فأولها: أن الملائكة تضع له أجنحتها رضًا بما يصنع، وقد أكد الرسول ﷺ الأسلوب بإن للدلالة على أن ذلك حاصل بالفعل، فهو عليه السلام ما ينطق عن الهوى. وثانيها: أن من فى السموات والأرض، ومن فى البحر حتى الحيتان ليستغفرون له، فقد ذكر البر والبحر، وعالم السماء من الملائكة الكرام، وسبب هذا الاستغفار أن العالم يعلم الخلق مراعاة هذه المخلوقات، فهو يعرفهم بفضل نعمة الله تعالى على الخلق فى تسخيرها لهم، ويعرفهم بالنسبة للحيوانات ما يؤكل منها وما لا يؤكل، وما يحل، وما يحرم، ولذلك فهو أرحم الناس بها، وأشفقهم عليها.

ثم يؤكد الرسول ﷺ على فضل العلماء على العباد، ويوضح أن فضلهم على العباد كفضل القمر على سائر الكواكب، وأنهم ورثة الأنبياء فى الحكمة والعلم لا فى الأموال، لأنهم لم يتركوا مالاً مثل الملوك، ولم يطلبوا الدنيا مثلهم، حتى إنهم لو تركوا قليلاً من المال فهو صدقة، وليس ميراثًا، ولذلك يقول النبى ﷺ: **«نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه فهو صدقة»**[2] وقد يتوهم بعض الناس أن سليمان عليه السلام ورث داود عليه السلام فى المال،

---

(١) رواه الترمذى (٢٦٨٢) وابن ماجه (٢٢٣) وهو فى صحيح سنن أبى داود (٣٦٤١) للألبانى ٤٠٧/٢ وصححه وأحمد فى مسنده (٨٢٩٩) بإسناد صحيح.

(٢) رواه البخارى.

كما هو ظاهر فى قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ [النمل: ١٦] فهو ليس ميراث المال، وإنما هو ميراث العلم والحكمة، فمن أخذ من هذا الميراث، أخذ بنصيب وافر عظيم.

• فضل العلم من كتاب الله تعالى •

أخى الحبيب:

يكفى العلم شرفًا أن أول اتصال بين السماء والأرض، وأول آيات نزلت من السماء تحث على طلب العلم، حين كان النبى ﷺ يتعبد فى غار حراء حين نزل عليه قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ [العلق: ١-٤] وقال سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩] وقد فرق بين ستة نفر فى كتابه:

١- فرق بين الخبيث والطيب فقال سبحانه: ﴿قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾ [المائدة: ١٠٠] يعنى الحلال والحرام.

٢- وفرق بين النور والظلمة، فقال: ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ [الرعد: ١٦].

٣- وفرق بين الأعمى والبصير، فقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ [الرعد: ١٦].

٤- وفرق بين الجنة والنار، كما فرق بين أهلها، فقال سبحانه: ﴿لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ [الحشر: ٢٠].

٥- وفرق بين الظل والحرور، فقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ (٢٠) وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ﴾ [فاطر: ١٩].

٦- وفرق بين الأحياء والأموات، فقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ﴾ [فاطر: ٢٢] أى العلماء والجهال، فالعلم حياة، والجهل موت.

وإذا تأملت هذه الفروق وجدتها ناشئة عن الفرق بين العالم والجاهل.

والله سبحانه وتعالى قد استشهد بأولى العلم على أجل وأعظم مشهود عليه، وهو توحيده تبارك وتعالى، فقال سبحانه: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨] وهذا يدل على شرفهم، وعلو منزلتهم من وجوه:

١- أنه استشهد بهم دون غيرهم من خلقه.

٢- أنه سبحانه وتعالى قرن شهادتهم بشهادته وشهادة الملائكة الكرام.

٣- أن فى هذه الشهادة تزكية لهم، فإنه سبحانه لا يشهد أحدًا من خلقه إلا من كان عادلاً.

وقد رفع الله تعالى درجة العلماء فوق كل الدرجات، فقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

ومن هذا الرفع، والتكريم أنه سبحانه وتعالى وصفهم بعدة أوصاف فى كتابه:

١- وصفهم بأنهم أهل خشيته، بل إنه سبحانه خصهم من بين الناس بذلك، بأسلوب القصر، فقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

٢- وصفهم بأنهم أهل الإيمان الحق بربهم، قال سبحانه: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧].

٣- وصفهم بالبكاء من خشيته، فقال سبحانه: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٩] والله سبحانه وتعالى لما أراد أن يبرهن للملائكة أن آدم عليه السلام له أحقية الخلافة فى الأرض وصفه بالعلم، فقال جل شأنه: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣١، ٣٢].

أن الله سبحانه وتعالى جعل العلم حياة ونورًا، والجهل موتًا وظلمة، والشر كله سببه عدم الحياة والنور، والخير كله سببه النور والحياة، فإن النور يكشف عن حقائق الأشياء، ويبين مراتبها، قال سبحانه: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢] أى كان ميتًا بالجهل قلبه، فأحياه بالعلم، وجعل له من الإيمان نورًا يمشى به فى الناس.

والله سبحانه وتعالى علم أنبياءه ورسله عليهم السلام، واختص سبعة منهم بسبعة:

١- علم آدم الأسماء كلها، ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١].

٢- علم الخضر الفراسة: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥].

٣- وعلم يوسف علم التعبير، وتأويل الرؤيا، فقال: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ١٠١].

٤- علم داود صنعة الدروع: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

٥- علم سليمان منطق الطير: ﴿وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ﴾ [النمل: ١٧].

٦- علم عيسى التوراة والإنجيل: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: ٤٨].

٧- علم نبينا محمدًا ﷺ الشرع والتوحيد، فقال: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣] وعلمه الكتاب والحكمة والقرآن، فقال: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة: ١٢٩]. ﴿الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ [الرحمن: ١، ٢].

فعلم آدم كان سببًا له فى حصول سجود التحية، وعلم الخضر كان سببًا فى وجود تلميذ له مثل موسى عليه السلام ويوشع. وعلم يوسف عليه السلام كان سببًا لوجدان الأهل والمملكة،

وعلم داود كان سببًا لوجدان الرياسة والدرجة، وعلم سليمان كان سببًا لوجدان بلقيس والغلبة، وعلم عيسى كان سببًا لزوال التهمة عن أمه، وعلم محمد ﷺ كان سببًا لوجود الشفاعة[(١)].

ومن فضائل العلم أن الله سبحانه وتعالى جعل الكلب إذا تعلم وأرسله المالك على اسمه تعالى صار صيده النجس طاهرًا، والنكتة أن العلم هناك انضم إلى الكلب فصار النجس ببركة العلم طاهرًا، أما الكلب الجاهل فلا يحل أكل صيده، فدل ذلك على شرف العلم وفضله[(٢)] قال تعالى[(٣)]: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٤].

• ذم الجاهلين في القرآن الكريم •

ولقد ذم الله سبحانه وتعالى أهل الجهل في مواضع كثيرة من كتابه. قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١] وقال سبحانه: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٣٧].

وقال سبحانه: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الفرقان: ٤٤] فلم يقتصر سبحانه وتعالى على تشبيه الجهال بالأنعام، بل جعلهم أضل سبيلاً منهم.

وقال: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عند اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِين لا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢] فقد أخبر أن الجهال شر الدواب عنده على اختلاف أصنافها من الحمير والسباع، والكلاب والحشرات، وسائر الدواب، فالجهال شر منهم، وليس على دين الرسل أضل من الجهال، بل هم أعداؤهم على الحقيقة، قال تعالى لنبيه، وقد أعاذه: ﴿فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥].

وقال كليمه موسى عليه السلام: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧] وقال لأول رسله نوح عليه السلام: ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦] وأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يعرض عنهم، فقال: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] وأثنى على عباده بالإعراض عنهم، والتولي عنهم، كما في قوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

كل هذا يدل على قبح الجهل عنده سبحانه وتعالى، وبغضه للجهل وأهله[(٤)].

---

(١) مفاتيح الغيب للإمام فخر الدين الرازي جـ٢/ ٧ ٦، ٦٠٨

(٢) المرجع السابق جـ٢/ ٦٢٢ بتصرف.

(٣) المرجع السابق ومفتاح دار السعادة لابن القيم١/ ٢٣٦

(٤) مفتاح دار السعادة لابن القيم جـ١/ ٢٣١ ط/ دار ابن عفان.

• الكتب السماوية تنطق بفضل العلم •

يقول الفخر الرازي:

إن سائر الكتب من عند الله ناطقة بفضل العلم.

أما التوراة، فقال تعالى لموسى عليه السلام: **«عظم الحكمة، فإني لا أجعل الحكمة في قلب عبد إلا وأردت أن أغفر له، فتعلمها ثم اعمل بها، ثم ابذلها كي تنال بها كرامتي في الدنيا والآخرة».**

وأما الزبور، فقال سبحانه: **«يا داود، قل لأحبار بني إسرائيل ورهبانهم، حادثوا من الناس الأتقياء، فإن لم تجدوا فيهم تقيًا، فحادثوا العلماء، فإن لم تجدوا عالمًا فحادثوا العقلاء، فإن التقى والعلم، والعقل ثلاث مراتب ما جعلت واحدة منهن في أحد من خلقي، وأنا أريد أريد إهلاكه».**

وقدم الله تعالى التقى على العلم، لأن التقى لا يوجد بدون العلم، كما أن الخشية لا تحصل إلا مع العلم، والموصوف بالأمرين أشرف من الموصوف بأمر واحد، ولهذا السر قدم العالم على العاقل، لأن العالم لابد أن يكون عاقلاً، أما العاقل فقد لا يكون عالمًا فالعقل كالبذر، والعلم كالشجر، والتقوى كالثمر. وأما الإنجيل فقد قال الله تعالى فيه: **«ويل لمن سمع بالعلم فلم يطلبه، كيف يحشر مع الجهال في النار، اطلبوا العلم وتعلموه، فإن العلم إن لم يسعدكم لم يشقكم، وإن لم يرفعكم لم يضركم، وإن لم يرفعكم لم يضعكم، وإن لم يغنكم لم يفقركم، ولا تقولوا: نخاف أن نعلم، ولكن قولوا: نرجو أن نعلم فنعمل».**

وقال مقاتل بن سليمان: وجدت في الإنجيل: إنَّ الله تعالى قال لعيسى عليه السلام: **«يا عيسى، عظم العلماء، واعرف فضلهم، لأني فضلتهم على جميع خلقي إلا النبيين والمرسلين كفضل الشمس على الكواكب، وكفضل الآخرة على الدنيا، وكفضلي على كل شيء»**[1].

ولله در القائل:

تعلم فليس المرء يولد عالمًا	**وليس أخو علم كمن هو جاهل**
وإن كبير القوم لا علم عنده	**صغيرٌ إذا التفَّت عليه المحافل** [2]

• فضل العلم والعلماء من سنة خير الأنبياء •

وفي فضل العلم والعلماء أحاديث كثيرة منها:-

١- عن معاوية رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»**[3] وهذا يدل على أن من لم يفقهه في دينه لم يرد به خيراً.

---

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازي ٢/ ٦١٤، ٦١٥

(٢) روضة العقلاء لابن حبان ص٣٤ دار المغني - السعودية.

(٣) رواه البخاري (٧١) ومسلم (١٠٣٧) وأحمد في مسنده (٢٧٩١).

٢- وعن أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه أن رسول الله قال: **«مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم، كمثل غيث أصاب أرضًا، فكانت منها طائفة طيبة، قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا، وأصاب طائفة منها أخرى، إنما هى قيعان، لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً، فذلك مثل من فقه فى دين الله، ونفعه ما بعثنى الله به فعلم وعلَّم ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به»**(١)

فقد شبه النبى ﷺ العلم والهدى الذى جاء به بالغيث -وهو المطر الذى ينزل عند شدة الحاجة إليه- لما يحصل بكل واحد منهما من الحياة والمنافع والأغذية والأدوية، وسائر مصالح العباد، فإنها بالعلم والمطر

وشبه القلوب بالأرض التى يقع عليها المطر، لأنها المحل الذى يمسك الماء، فينبت النبات النافع، كما أن القلوب تعى العلم، فيثمر فيها ويزكو، وتظهر بركته وثمرته.

فقد اشتمل هذا الحديث الشريف العظيم على التنبيه على شرف العلم والتعليم، وعظم موقعه، وشقاء من ليس من أهله.

وفيه دلالة على أن حاجة العباد إلى العلم كحاجتهم إلى المطر، بل أعظم ، وأنهم إذا فقدوا العلم، فهم بمنزلة الأرض التى فقدت الغيث.

قال الإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله-: «الناس محتاجون إلى العلم أكثر من حاجتهم إلى الطعام والشراب، لأن الطعام والشراب يحتاج إليه فى اليوم مرة، أو مرتين، والعلم يحتاج إليه بعدد الأنفاس»(٢)

٣- وعن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لعلى بن أبى طالب رضي الله عنه: **«لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم»**(٣) وهذا يدل على شرف العلم، وعلو منزلة أهله، بحيث إذا اهتدى رجل واحد بالعالم كان ذلك خيرًا له من حمر النعم، فما الظن بمن يهتدى به كل يوم طوائف الناس!!.

٤- وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلى ضلالة، كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا»**(٤)

---

(١) رواه البخارى (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢) وأحمد فى مسنده (١٩٤٦٤).

(٢) مفتاح دار السعادة لابن القيم ١/٢٤٨

(٣) رواه البخارى (٣٠٠٩) ومسلم (٢٤٠٦) وأحمد فى مسنده.

(٤) رواه مسلم (٢٦٧٤)، وأحمد فى مسنده (٩١٣٣)، والترمذى (٢٦٧٤)، وابن ماجه وأبو داود.

فقد أخبر نبينا ﷺ أن المتسبب إلى الهدى بدعوته له مثل أجر من اهتدى به، والمتسبب إلى الضلالة بدعوته عليه من الوزر مثل وزر من ضلَّ به، لأن هذا بذل قدرته فى هداية الناس، وهذا بذل قدرته فى ضلالهم، فنزّل كل واحد منهما منزلة الفاعل التام.

٥- وعن أبى أمامة رضي الله عنه قال: ذكر لرسول الله ﷺ رجلان: أحدهما عالم، والآخر عابد، فقال رسول الله ﷺ: **«فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم»** ثم قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة فى جحرها، وحتى الحوت فى بحره، ليصلون على معلمى الناس الخير»**(١) وهو مروى عن أحد الصحابة أيضًا قال ابن عباس رضي الله عنهما علماء هذه الأمة رجلان: رجل أعطاه الله علمًا فبذله للناس، ولم يأخذ عليه صفدًا -أى عطاءً- ولم يشتر به ثمنًا، أولئك يصلى عليهم طير السماء، وحيتان البحر، ودواب الأرض، والكرام الكاتبون، ورجلٌ آتاه الله علمًا فضن به عن عباده، وأخذ به صفدًا، واشترى به ثمنًا، فذلك يأتى يوم القيامة ملجمًا بلجام من نار»(٢).

٦- وعن أبى ذَر الغفارى رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: **«يا أبا ذر، لأن تغدو فَتَعَلَّم آية من كتاب الله خير لك من أن تصلى مائة ركعة، ولأن تغدو فَتَعلَّم بابًا من العلم خير لك من أن تصلى ألف ركعة»**(٣)

وفى هذا الحديث دلالة على أن العلم أفضل من صلاة النافلة، وأن العلم الدينى الشرعى أفضل العلوم. وقد ذكر الإمام ابن القيم مائة وثلاثة وخمسين وجهًا على فضل العلم وأهله.

• فضل العلم من الآثار وأقوال السلف •

لقد وردت آثار كثيرة عن السلف الصالح رضوان الله عليهم تدل على شرف العلم، وفضل العلماء. فمنها:

قال كعب الأحبار: طالب العلم كالغادى الرائح فى سبيل الله عز وجل(٤)

وجاء عن بعض الصحابة رضي الله عنهم إذا جاء الموت طالب العلم وهو على هذا الحال مات وهو شهيد(٥)

وقال سفيان بن عيينة: من طلب العلم فقد بايع الله عز وجل(٦)

وقال أبو الدرداء: من رأى الغدو والرواح إلى العلم ليس بجهاد فقد نقص عقله(٧)

---

(١) رواه الترمذى فى سننه (٢٦٨٥) والطبرانى فى الكبير وصححه الألبانى فى ص.ج (٤٢١٣).

(٢) ذكره ابن القيم فى مفتاح دار السعادة ١/ ٢٥٢، ٢٥٣

(٣) رواه ابن ماجه بسند حسن. قاله المنذرى فى الترغيب ١/ ٩٧، ٩٨.

(٤: ٧) مفتاح دار السعادة لابن القيم جـ١

وعن كميل بن زياد قال: أخذ على بن أبى طالب رضي الله عنه بيدى، فأخرجنى إلى الجبانة فلما أصحر -أى وصل إلى الصحراء- تنفس الصعداء، ثم قال: يا كميل، إنَّ هذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها، فاحفظ ما أقول لك، الناس ثلاثة: عالم ربانى، ومتعلم، على سبيل النجاة، وهمج أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق، يا كميل، العلم خير من المال، العلم يحرسك، وأنت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو بالإنفاق، وصنيع المال يزول بزواله، يا كميل معرفة العلم زين يزان به، يكتسب الإنسان به الطاعة فى حياته، وجميل الأحدوثة بعد وفاته، والعلم حاكم، والمال محكوم عليه(١)

وفى كتاب كليلة ودمنة: أحق من لا يستخف بحقوقهم ثلاثة: العالم والسلطان والإخوان، فأما من استخف بالعالم، أهلك دينه، ومن استخف بالسلطان، أهلك دنياه، ومن استخف بالإخوان أهلك مروءته(٢)

• إمام العلماء معاذ بن جبل يوصينا بالعلم •

يقول معاذ بن جبل رضي الله عنه: تعلموا العلم، فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة لأنه معالم الحلال والحرام، ومنار سبل أهل الجنة، وهو الأنيس فى الوحشة، والصاحب فى الغربة، والمحدث فى الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والسلاح على الأعداء، والزين عند الأخلاء، يرفع الله به أقوامًا فيجعلهم فى الخير قادة تقتص آثارهم، ويقتدى بفعالهم، وينتهى إلى رأيهم، ترغب الملائكة فى خلتهم، وبأجنحتها تمسهم، ويستغفر لهم كل رطب ويابس، وحيتان البحر وهوامه، وسباع البحر وأنعامه، لأن العلم حياة القلوب من الجهل، ومصابيح الأبصار من الظُّلم، يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار، والدرجات العلا فى الدنيا والآخرة، التفكر فيه يعدل الصيام، ومدارسته تعدل القيام، به توصل الأرحام، وبه يعرف الحلال من الحرام، وهو إمام العمل، والعمل تابعه، يلهمه السعداء، ويحرمه الأشقياء»(٣)

ولله در على بن أبى طالب حين قال:

ما الفخر إلا لأهل العلم أنهم	على الهدى لمن استهدى أدلاء
وقدر كل امرئ ما كان يحسنه	والجاهلون لأهل العلم أعداء
ففز بعلم تعش حيًا به أبدا	الناس موتى وأهل العلم أحياء (٤)

(١) مفاتيح الغيب للرازى ٢/ ٦١٩ والإحياء ١/ ١٦ (٢) مفاتيح الغيب للرازى ٢/ ٦١٩، ٦٢٠

(٣) ذكره المنذرى فى الترغيب ١/ ٩٥ وقال: رواه ابن عبد البر فى كتاب العلم.. وهو حديث حسن وليس له إسناد قوى، وذكره الغزالى فى الإحياء ١/ ٢٢ وقال العراقى: رواه أبو الشيخ ابن حبان فى كتاب الثواب وابن عبد البر، وقال: ليس له إسناد قوى ط/ مصر للطباعة. (٤) الإحياء ١/ ١٦

وعن يزيد بن عميرة قال: لما حضرت معاذ بن جبل الوفاة، قالوا: أوصنا، فقال: العلم والإيمان مكانهما، فمن ابتغاهما وجدهما -قالها ثلاثًا- فالتمسوا العلم عند أربعة: عند عويمر أبى الدرداء، وسلمان، وابن مسعود، وعبد الله بن سلام، الذى كان يهوديًّا فأسلم(١).

• أبو هريرة يدعو الناس إلى ميراث رسول الله •

ولقد كان سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه محدث الصحابة يحث إخوانه على العلم وطلبه، فى كل مكان، ففى يوم كان يمر بالسوق فى المدينة، فوجد الناس قد انشغلوا بالبيع والشراء فخاف عليهم من إقبال الدنيا، وانصرافهم عن طلب العلم، فقال لهم: ما أعجزكم يا أهل المدينة!!. فقالوا: وما رأيت من عجزنا يا أبا هريرة؟!.

فقال: ميراث رسول الله ﷺ يقسم وأنتم ها هنا؟!. ألا تذهبون وتأخذون نصيبكم؟!. قالوا: وأين هو يا أبا هريرة؟. قال: فى المسجد. فخرجوا سراعًا، ووقف «أبو هريرة» لهم حتى رجعوا، فلما رأوه قالوا: يا أبا هريرة لقد أتينا المسجد، فدخلنا فيه، فلم نر شيئا يقسم.

فقال لهم: أو ما رأيتم فى المسجد أحدًا؟!.

قالوا: بلى.. رأينا قومًا يصلون، وقومًا يقرءون القرآن، وقومًا يتذاكرون فى الحلال والحرام... فقال: ويحكم ذلك ميراث رسول الله ﷺ يقسم بين ورثته(٢).

رضى الله عنك يا أبا هريرة، يا حافظ حديث رسول الله ﷺ.

فعنه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له: «**ألا تسألنى من هذه الغنائم التى يسألنى أصحابك؟ قلت: أسألك أن تعلمنى مما علمك الله، فنزع نمرة كانت على ظهرى، فبسطها بينى وبينه، حتى كأنى أنظر إلى النمل يدب عليها، فحدثنى حتى إذا استوعبت حديثه، قال: اجمعها فصرها إليك فأصبحت لا أسقط حرفًا مما حدثنى**»(٣)

العلم أنفس شىء أنت ذاخره ... من يدرس العلم لم تدرس مفاخره
أقبل على العلم واستقبل مقاصده ... فأول العلم إقبال وآخره(٤)

ولذلك لم يكن أحد أحفظ لحديث رسول الله ﷺ من أبى هريرة رضي الله عنه لأنه كان ملازمًا للرسول الأعظم ﷺ. لذلك يقول عن نفسه: «ما من أصحاب النبى أحد أكثر منى حديثًا عنه مني، إلا ما كان من عبد الله بن عمرو، فإنه كان يكتب ولا أكتب»(٥)

(١) ذكره البخارى فى التاريخ.
(٢) رواه الطبرانى فى الأوسط بإسناد حسن قاله الهيثمى فى المجمع ١/ ١٢٤
(٣) رواه البخارى (١١٩) والترمذى. (٤) المستطرف ص٢٥
(٥) رواه البخارى وأحمد والترمذى.

• اداب طالب العلم •

ينبغي لطالب العلم عدة أمور حتى ينفعه علمه، وينتفع من العلماء والأساتذة ومنها:

١- **إخلاص النية**: فيصحح نيته، وينقى سريرته، لأن العلم عبادة كما علمت، وأنت مأمور بإخلاص العبادة لله تعالى: ﴿**وما أُمِرُوا إلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾ [البينة: ٥].

وإخلاص النية فى طلب العلم بأن يقصد وجه الله تعالى، والعمل به، وإحياء شريعته، ونصر السنة، وقمع البدعة، وقد قال النبى ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى**»[١]

وقال يزيد بن ميسرة: من أراد بعلمه وجه الله تعالى، أقبل الله بوجهه ووجوه العباد إليه، ومن أراد بعلمه غير وجه الله صرف وجهه ووجوه العباد عنه[٢].

وقال أبو يوسف -رحمه الله-:

يا قوم أريدوا الله بعلمكم، فإنى لم أجلس مجلسًا قط أنوى فيه أن أتواضع إلا لم أقم حتى أعلوهم، ولم أجلس مجلسًا قط أنوى فيه أن أعلوهم إلا لم أقم حتى أفتضح.

إنى رأيت الناس فى عصرنا ... لا يطلبون العلم للعلم
إلا مباهاة لأصحابه ... وعدة للغش والظلم

ولذلك يقول النبى ﷺ: «**إنَّ الله عز وجل لا يقبل من العلم إلا ما كان خالصًا، وابتغى به وجهه**»[٣] ويقول: «**من طلب العلم ليباهى به العلماء، ويمارى به السفهاء أو ليصرف وجوه الناس إليه فهو فى النار**»[٤]

٢- **التواضع**:

فقد قيل: «من تواضع للعلم ناله، ومن لم يتواضع له لم ينله» وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**تعلموا العلم، وتعلموا للعلم السكينة والوقار، وتواضعوا لمن تعلمون منه**»[٥]

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «**ليس من أمتى من لم يجل كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا حقه**»[٦] لذلك ينبغى للمتعلم أن ينظر إلى من يتعلم منه بعين الاحترام والتوقير، لأن هذا أقرب إلى الانتفاع به، وكان بعض المتقدمين إذا ذهب إلى معلمه تصدق بشىء وقال: «اللهم استر عيب معلمى عنى، ولا تذهب بركة علمه منى».

---

(١) رواه البخارى.
(٢) المستطرف ص٢٤
(٣) رواه النسائى بإسناد جيد.
(٤) رواه ابن ماجه بإسناد حسن.
(٥) رواه الطبرانى بإسناد لا بأس به.
(٦) رواه أحمد فى مسنده (٢٢٦٥٤) بإسناد صحيح والطبرانى والحاكم.

وقال الربيع صاحب الشافعي -رحمهما الله- يقول: ما اجترأت أن أشرب الماء والشافعي ينظر إليَّ هيبةً له.

٣- وينبغي لطالب العلم أن يكون في مظهره سنيًّا، وفي باطنه تقيًّا، وفي عقيدته سلفيًّا، وفي حركاته متبعًا، وفي أفعاله مقتفيًا، وللبدع مجتنبًا، وللمخالفات منكرا.

وذلك لأن العلم إذا لاقى أرضًا خصبة نما وترعرع، واستوى على سوقه، وآتى ثماره، وإذا لاقى أرضًا قاسية صلدة، أو سبخة رخوة، لم يكن له كبير فائدة، ولا كثير نفع. قال الخطيب البغدادي: يجب على طالب العلم أن يتجنب اللهو والعبث، والتبذل في المجالس بالسخف والضحك، والقهقهة، وكثرة التنادر، وإدمان المزاح، والإكثار منه فكثرة المزاح والضحك تضع من القدر، وتزيل المروءة.

وقال الإمام مالك: إنَّ حقًّا على من طلب العلم أن يكون له وقار وسكينة، وخشية، وأن يكون متبعًا لأثر من مضى قبله[1]

٤- أن يكون خاشعًا لله تعالى: قال ابن مسعود رضي الله عنه: «ليس العلم بكثرة الرواية، إنما العلم الخشية»[2].

٥- أن يزهد في الدنيا: فيأكل الطيب المباح، ويترك الحرام القبيح، ولا يحرص على متاع الدنيا وحبها.

قال الحسن البصري -رحمه الله-: «من أحب الدنيا وسرته ذهب خوف الآخرة من قلبه، ومن أراد علمًا ثم ازداد على الدنيا حرصًا لم يزدد من الله إلا بعدا، ولم يزدد من الله إلا بغضًا»[3].

وعن سفيان الثوري رحمه الله قال: «العالم طبيب الدين، والدرهم داء الدين، فإذا اجتر الطبيب الداء إلى نفسه، فمتى يداوي غيره؟!»[4]

٦- أن يكون ورعا تقيًّا، هاجرا للشبع، والنوم.

يا طالب العلم باشر الورعا	**وباين النوم واهجر الشبعا**
ما ضر عبداً صحت إرادته	**أجاع يومًا في الله أو شبعا**
ما ضر عبداً صحت عزائمه	**أين من الأرض، أين ما صقعا**
ما طمعت نفس عابد فنوى	**سؤال قوم إلا لهم خضعا [5]**

ويقول لقمان الحكيم لابنه: يا بني إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة، وخرست الحكمة، وقعدت الأعضاء عن العبادة.

---

(١) الركائز الأساسية لطالب العلم لشيخي المبارك: وحيد عبد السلام غفر الله له.

(٢) روضة العقلاء لابن حبان ص٣٧ (٣ :٥) روضة العقلاء ص٣٥

٧- أن يعمل بما علم:

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: لا تكون عالمًا حتى تكون متعلمًا، ولا تكون بالعلم عالمًا، حتى تكون به عاملاً [(١)]

ويقول ابن حبان: العاقل لا يشتغل فى طلب العلم إلا وقصده العمل به؛ لأن من سعى فيه لغير ما وصفنا ازداد فخرًا وتجبرًا، وللعمل تركًا وتضييعًا، فيكون فساده فى المتأسيين به فيه أكثر من فساده فى نفسه، ويكون مثله كما قال الله تعالى: ﴿ومِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٥][(٢)].

وقال مالك بن دينار: «إذا طلب الرجل العلم ليعمل به سره علمه، وإذا طلب العلم لغير أن يعمل به زاده علمه فخرًا.

٨- أن يصون علمه ويعظمه: وقد أحسن الشاعر الحكيم حين قال:

لو أن أهل العلم صانوه صانهم	**ولو عظموه فى النفوس لعظما**
ولكن أهانوه فهانوا ودنسوا	**محياه بالأطماع حتى تجهما[(٣)]**

الوصية رقم (٤٢)
استحيوا من الله حق الحياء

عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «**استحيوا من الله حق الحياء، من استحيا من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما وعى، وليحفظ البطن وماحوى، وليذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا، فمن فعل ذلك، فقد استحيا من الله حق الحياء**»[(٤)].

صدق رسول الله ﷺ

• فى رحاب هذه الوصية •

أخى الحبيب:

وها هو سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ينتقل بنا إلى وصية أخرى من وصايا سيد البشر ﷺ، فيوصينا أن نراقب الله تعالى ونستحى منه سبحانه وتعالى وأرشدنا فيها إلى كيفية هذه المراقبة، وذلك الاستحياء، فعلمنا أنه يكون بحفظ الرأس وما وعاه من بصر، وسمع، ونطق، بآلات هذه الأشياء من عين، وأذن ولسان، وكذلك بحفظ البطن وما حوته

(١)، (٢) المرجع السابق ص٣٤. (٣) المستطرف ص٢٤

(٤) رواه أحمد فى مسنده (٣٦٧١) ٣/ ٥٣٩ وأبو نعيم فى الحلية ٤/ ٢٠٩ والترمذى والحاكم وحسنه الألبانى فى ص.ج برقم ٩٤٨

من مأكل ومشرب، وشهوة، ومن استحيا من الله استحيا الله منه، ولذلك يقول يحيى بن معاذ: «من استحيا من الله مطيعًا استحيا الله منه وهو مذنب»[١].

فالمسلم يراقب ربه كأنه يراه، وهو ما أشار إليه الرسول ﷺ بقوله: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[٢]

«والذى يستحى الإنسان منهم ثلاثة: البشر، وهم أكثر من يستحى منه، ثم نفسه، ثم الله عز وجل. وممن استحيا من الناس ولم يستح من نفسه، فنفسه عنده أخس من غيره، ومن استحيا منهما ولم يستح من الله فلعدم معرفته بالله عز وجل، فإن الإنسان يستحى ممن يعظمه، ويعلم أنه يراه أو يسمع نجواه فيبكته، ومن لا يعرف الله فكيف يستعظمه»[٣].

ويعلق الإمام ابن القيم على كلام يحيى الرازى فيقول: وهذا الكلام يحتاج إلى شرح. ومعناه: أن من غلب عليه خلق الحياء من الله حتى فى حال طاعته. فقلبه مطرق بين يديه إطراق مستح خجل. فإنه إذا واقع ذنبًا استحيا الله عز وجل من نظره إليه فى تلك الحالة لكرامته عليه، فيستحى أن يرى من وليه، ومن يكْرُم عليه ما يشينه عنده. وفى الشاهد شاهد بذلك. فإن الرجل إذا اطلع على أخص الناس به، وأحبهم إليه -وأقربهم منه- من صاحب أو ولد، أو من يحبه وهو يخونه، فإنه يلحقه من ذلك الاطلاع عليه حياء عجيب، حتى كأنه هو الجانى وهذا غاية الكرم.

ثم يقول: وأما حياء الرب تعالى من عبده: فذاك نوع آخر، لا تدركه الأفهام، ولا تكيفه العقول، فإنه حياء كرم وبر و جود وجلال، فإنه تبارك وتعالى حيى كريم يستحى من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفرًا، ويستحى أن يعذب ذا شيبة شابت فى الإسلام[٤]

وقال المناوى: «استحيوا من الله حق الحياء» بترك الشهوات والنهمات، وتحمل المكاره على النفس حتى تصير مدبوغة، فعندها تطهر الأخلاق، وتشرق أنوار الأسماء فى صدر العبد، ويقرر علمه بالله تعالى فيعيش غنيًا بالله ما عاش»[٥]

• حقيقة المراقبة •

يقول ابن القيم:

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «المراقبة».

قال الله تعالى: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ**﴾ [البقرة: ٢٣٥]. وقال تعالى: ﴿**وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا**﴾ [الأحزاب: ٥٢] وقال تعالى: ﴿**وَهُوَ مَعَكُمْ**

---

(١) الرسالة القشيرية (٣٠٨) ومدارج السالكين لابن القيم ٢/ ٢٧١

(٢) جزء من حديث رواه مسلم.

(٣) الذريعة إلى مكارم الشريعة ص٢٨٩ للأصفهانى بتصرف.

(٤) مدارج السالكين لابن القيم ٢/ ٢٧١، ٢٧٢

(٥) فتح القدير ١/ ٤٨٨.

أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد:٤] وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤] وقال تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] وقال: ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩] إلى غير ذلك.

«فالمراقبة» دوام علم العبد، وتيقنه باطلاع الحق سبحانه وتعالى على ظاهره وباطنه.

فاستدامته لهذا العلم واليقين: هى «المـراقبة» وهى ثمرة علمه بأن الله سبحانه رقيب عليه، ناظـر إليه، سامع لقولـه، وهو مطلع على عمله كل وقـت وكل لحظة، وكل نفس وكل طرفة عين. والغـافل عن هذا بمعزل عن حال أهل البدايات. فـكيف بحال المريدين؟ فكيف بحال العارفين؟.

قال الجـريرى: من لم يُحَـكِّم بينه وبيـن الله تعالى التـقوى والمراقـبة لـم يصل إلى الكشف والمشاهدة.

وقيل: من راقب الله فى خواطره، عصمه فى حركات جوارحه.

وقيل لبعضهم: متى يهش الراعى غنمـه بعصاه عن مراتع الهلكة؟ فقال: إذا علم أن عليه رقيبًا.

وقال ذو النون: علامة المراقبة إيثار ما أنزل الله ، وتعظيم ما عظم الله ، وتصغير ما صغر الله تعالى[١].

وقيل: الرجاء يحرك إلى الطاعة، والخوف يبعدك عن المعاصى، والمراقبة تؤديك إلى طريق الحقائق[٢]

وقال إبراهيم الخواص: المراقبة خلوص السر والعلانية لله عز وجل.

وقال أبو حـفص لأبى عثمـان النيسـابورى: إذا جلست للناس فكن واعـظًا لقلبك ونفـسك، ولا يغرنـك اجتمـاعهـم عليك، فـإنهم يراقبـون ظاهرك، والله يراقـب باطنك

و«المراقبة» هى التعبد باسمه: «الرقيب، الحفـيظ، العليم، السميع، البصير» فمن عقل هذه الأسماء، وتعبد بمقتضاها حصلت له المر[illegible][٣]

• القرآن الكريم يحثك على المراقبة •

أخى الحبيب:

وإذا تتبعت آيات القرآن الكريم وجدت أن مولاك تبارك وتعالى يريد أن يلفت نظرك إلى أنه يطلع عليك، ويراقب أحوالك سرًا وعلانية، قال سبحانه: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ

---

(١)، (٢) الرسالة القشيرية ص٢٦٣ ط/ التوفيقية.

(٣) مدارج السالكين ٢/ ٦٧، ٦٨ ط/ دار الحديث.

الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: ٨: ١٠] يراك ويطلع عليك منذ أن كنت جنينًا صغيرًا في عالم الأرحام، ثم هو يرعاك ويكلؤك حتى تخرج إلى عالم الدنيا، فيربيك بقدرته، ويغذيك بنعمته، ويمن عليك بفضله وكرمه، وهو مراقب لك حتى يتوفاك، حتى تصير إلى عالم القبور، ولسان حاله يقول لك: «رجعوا وتركوك وفى التراب دفنوك، ولو كانوا معك، ما نفعوك، ولم يبق لك إلا أنا، وأنا الحى الذى لا يموت».

فاعلم أخى الحبيب أن رقابة الحق جلَّ وعلا لا تسقط بحال من الأحوال، فهو وحده المطلع عليك فى كل كبيرة وصغيرة، فى الحركات والسكنات، رقابة تسقط أمامها رقابة البشر، فالبشر يغفل وينام، ويسهو ويموت، لكنه جل وعلا حى لا يموت، فهو الذى يسمع دبيب النملة السوداء، على الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧].

فالحال واحد فى علمه بهذا فاحذر من معصيته سرًا كما تحترز عنه جهرًا فإنه لا يتفاوت ذلك بالنسبة إلى علم الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٣، ١٤] أى وليس سبحانه عالم بالسر والجهر فقط، وإنما هو يعلم خطرات القلوب وبواطنها. ثم لماذا إذا كان الأمر كذلك تعصيه؟ وأنت مهما طال عمرك، ومهما طال بقاؤك فأنت فى سفر إليه سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦].

ورحم الله الإمام ابن القيم حين قال: «الناس منذ خلقوا لم يزالوا مسافرين، وليس لهم حط عن رحالهم إلا فى الجنة أو النار، والعاقل يعلم أن السفر مبنى على المشقة، وركوب الأخطار، ومن المحال عادة أن يُطْلَبَ فيه نعيم ولذة وراحة، إنما ذلك بعد انتهاء السفر.

«ومن المعلوم أن كل وطأة قدم، أو كل آن من آنات السفر غير واقفة، ولا المكلف واقف، وقد ثبت أنه مسافر على الحال التى يجب أن يكون المسافر عليها من تهيئة الزاد الموصل، وإذا نزل، أو نام، أو استراح فعلى قدم الاستعداد للسير»[1]

(١) الفوائد لابن القيم الجوزية ص٢٠٨ ط/ دار مكتبة الحياة.

• الرسول الأعظم يوجه أمته إلى مراقبة الله تعالى •

أخي الحبيب:

وهذا هو أشد الناس مراقبة لله عز وجل، وأقواهم خشية له فى السر والعلانية يعلم أمته ويوجهها إلى مراقبة الله وخشيته، وهو الذى قال عن نفسه: «**والله لأنا أعلمهم بالله، وأشدهم خشية له**» ماذا قال سيد المراقبين لمولاه؟.

يقول ﷺ: «**إنَّ رجلاً حضرته الوفاة، فلما يئس من الحياة أوصى أهله، إذا أنا مت، فاجمعوا لى حطبًا كثيرًا وأوقدوا فيه نارًا، حتى إذا أكلت لحمى، وخلصت إلى عظمى، فامتحشت، فخذوها، فاطحنوها، ثم انظروا يومًا راحًا، فاذروه فى اليم.. ففعلوا، فجمعه الله تعالى، فقال له: لم فعلت ذلك؟ قال: من خشيتك، فغفر الله له**»[١].

هكذا يعلم الرسول ﷺ الأمة المحمدية كيفية المراقبة، ويوجههم إليها، فهذا الرجل الذى ما فعل الحسنات فى دنياه، يعلم أنه لو رجع إلى الله سوف يحاسبه الله تعالى، فأمر أولاده أن يحرقوه، ويذروه فى يوم عاصف، ومع ذلك جمع الله أجزاءه، وحاسبه وسأله، فإذا كان الأمر كذلك، وأنه لا مفر، ولا مهرب منه سبحانه إلا إليه وحده سبحانه، فلماذا لا نراقبه؟! لماذا نعصيه ولا نستحى منه مع أن عودتنا إليه؟! ومرة أخرى يرشد الرسول ﷺ الأمة المحمدية إلى مراقبته سبحانه تعالى فيقول: «**ما كرهت أن يراه الناس منك فلا تفعله بنفسك إذا خلوت**»[٢]

ولذلك كان أحد السلف يعظ ابنه فيقول له:

وإذا خلوت بريبة فى ظلمة ... والنفس داعية إلى الطغيان
فاستحيى من نظر الإله وقل ... لها إن الذى خلق الظلام يرانى

فكان الإمام أحمد يبكى عندما يسمع ذلك ويقول:

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا ... تقل خلوت ولكن قل علىَّ رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ... ولا أن ما تخفيه عنك يغيب[٣]

فإياك أن تبارز بالمعاصى من هو أقرب إليك من حبل الوريد، وإياك أن ترضى الناس بسخط الله تعالى، لذلك يقول النبى ﷺ: «**من أرضى الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس، ومن أسخط الناس برضا الله كفاه الله مؤنة الناس**»[٤]

---

(١) رواه البخارى ومسلم والبيهقى فى شعب الإيمان.
(٢) رواه ابن حبان فى روضة العقلاء ص٢٧ وذكره الألبانى فى السلسلة الصحيحة (١٠٥٥) وحسنه.
(٣) روضة العقلاء لابن حبان ص٢٧ وجامع العلوم والحكم ص٢١٦ ط/دار العاصمة السعودية.
(٤) رواه أبو نعيم فى الحلية عن عائشة ٨/١٨٨ وذكره الألبانى فى ص.ج (٦٠١٠).

فرحم الله امرءًا نظر فـفكر، وفكر فاعتبر، واعتـبر فأبصر، وأبصر فصـبر. فلقد أبصر أقوام ثم لم يصبروا فذهب الجزع بقـلوبهم، فلم يدركوا ما طلبوا، ولا رجعوا إلى ما فارقوا، فخسروا الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين.

واعمل صالحًا تفر به إلى مولاك، ولذا يقول بعض الصالحين: «من خاف شيئًا هرب منه، ومن خاف الله هرب إليه» فـأنت حين تخاف وحشًا كأسد أو نحـوه، فإنك تفر منه، وأما إذا خفت من مولاك فـأنت تفر إليه. يقول ﷺ: «**من استطـاع أن يكون له خبء من عمل صالح فليفعل**»(١)

أيها المراقب لمولاك؛ المعتذر يبكي على الفتور، بكاء الثكلى بين القبور، ويندب زمان الوصال، ويتـأسف على تغير الحال. والخـائف ينادي: ليت شعري، ما الـذى أسقطنى من عينك! أقلت: ﴿**هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ**﴾؟ [الكهف: ٧٨].

• خشية الملائكة الكرام •

يقول الله تعالى: ﴿**يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾ [النحل: ٥٠].

ويقول: ﴿**وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ**﴾ [الرعد: ١٣].

فهكذا أخبرنا رب العالمين جـل وعلا أن الملائكة الكرام وهم الذين لا يعصون الله ما أمرهم، ويفـعلون ما يؤمرون، وقد أخـبرنا حبيب قلوبنا مـحمد ﷺ أن جبريل عليه السلام يبكى من خشيـة الله، فيقول: «**مررت ليلة الإسـراء والمعراج بالملأ الأعلى، وجـبريل عليه السلام كالحلس البالى من خشية الله تعالى**»(٢)

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قـال لجـبريل عليه السلام: «**مـا لى لا أرى مـيكائـيل يضحك؟ قال: ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار**»(٣)

وقيل: لما ظهر على إبـليس ما ظهر -أى من المعصية والطرد والـلعن- طفق جبريل وميكائيل عليهما السـلام يبكيان، فأوحى الله إليـهما: مالكما تبكيان كل هذا البكاء؟ فقالا: يا رب، ما نأمن مكرك؟! فقال الله تعالى: هكذا كونا(٤)

وقيل: إن جبريل عليه السلام جاء إلى النبى ﷺ يومًا وهو يبكى، فقـال له: ما يبكيك؟ قال: ما جفت لى عين منذ أن خلق الله تعالى جهنم، مخافة أن أعصيه.

---

(١) صححه الألبانى فى ص.ج (٦٠١٨).

(٢) رواه الطبرانى فى الأوسط، وحسنه الألبانى فى ص.ج (٥٨٦٤).

(٣) رواه فى مـسنده (١٣٢٧٦) ١١/ ١٥٣ بإسنـاد حسن وذكـره الهيـثمـى فى المجمع ١٠/ ٣٨٥ وقـال العـراقى فى تخريج الإحيـاء: رواه أحـمد وابن أبى الدنيـا فى كتـاب الخائفـين بإسناد جـيد ورواه البيهقى.

(٤) أخرجه ابن شاهين فى شرح السنة من حديث عمر، وسنده ضعيف قاله العراقى فى الإحياء ٤/ ١٥٩

أخا الإسلام:

إذا كان هذا هو حال الملائكة الكرام، وحال جبريل وميكائيل عليهما السلام، فما لنا لا نخشى الله ولا نراقبه؟ يا من أنفاسه عليه معدودة، وأبواب التقى فى وجهه مسدودة، وأعماله بالنفاق والرياء عليه مردودة، بادر الأرباح قبل فوات الموسم، قبل أن تعرض الخلائق على جبارها، فيحاسبها بإعلانها وإسرارها لقد خاب الغافلون، وفاز المتيقظون، من كتب عليه الشقاء كيف يسلم؟ ومن عميت عينا قلبه كيف يفهم؟!.

فانتبه وتيقظ، ولا تحسب أن تحصيل المعالى سهل.

• خشية الأنبياء والمرسلين •

١- إمام المرسلين سيدنا محمد ﷺ:

ها هو سيد الأولين والآخرين ﷺ يقول فى الحديث الذى روته عنه أم العلاء الأنصارية: «**والله لا أدرى وأنا رسول الله ما يفعل بى ولا بكم، وقال: لن ينجى أحدا منكم عمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته**»[١]

وعن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه قال: أتيت النبى ﷺ وهو يصلى، وفى صدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء[٢]

وعن عطاء قال: دخلت أنا وعبيد بن عمير على عائشة رضي الله عنها فقال عبيد بن عمير: حدثينا بأعجب شيء رأيتيه من رسول الله ﷺ، فبكت وقالت: قام ليلة من الليالى، فقال: «**يا عائشة، ذرينى أتعبد لربى**» قالت: قلت: والله إنى لأحب قربك، وأحب ما يسرك، قالت: فقام فتطهر، ثم قام يصلى، فلم يزل يبكى حتى بل حجره، ثم بكى فلم يزل يبكى حتى بل الأرض، وجاء بلال يؤذن بالصلاة فلما رآه يبكى، قال يا رسول الله تبكى وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «**أفلا أكون عبداً شكوراً، لقد نزلت الليلة آيات ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها ثم تلا: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾**»[٣] [آل عمران: ١٩٠] صلوات ربى وتسليماته عليك يا رسول الله، فأنت القائل: «**من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا وإن سلعة الله غالية، ألا وإن سلعة الله الجنة**»[٤]

---

(١) رواه البخارى ومسلم.

(٢) رواه أبو داود وصححه الألبانى ورواه الترمذى فى الشمائل وقال النووى: إسناده صحيح.

(٣) رواه ابن حبان فى صحيحه ورواه أبو الشيخ فى أخلاق النبى وصححه الألبانى.

(٤) رواه البخارى.

٢- خشية آدم عليه السلام:

وذكر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزل آدم عليه السلام بالحجر يمسح بـه دموعه حين أهبط من الجنة، ولم ترقأ عين آدم حين خرج من الجنة حتى رجع إليها(١)

وذكر أن آدم عليه السلام بكى على جبل الهـند ثلاثمائة عام حتى صار فـى وجهه خطاف أسودان، وما ضحك حتى أتاه الملك، فقال: «حياك الله وبارك»(٢).

٣- خشية نوح عليه السلام:

فعن يزيد الرقاشى، قال: «إنما سمى نوحًا عليه السلام، لأنه كان نواحًا».

وعن وهيب بن الورد قال: لما عاتب الله نوحًـا فى ابنه، فأنزل عليه: ﴿ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [هود: ٤٦] بكى ثلاثمائة عام حتى صـار تحت عينه أمثال الجداول من البكاء(٣).

٤- خشية داود عليه السلام:

عن شهر بن حوشب قال: «كان داود عليه السلام سمى النواح فى الكتاب»(٤).

وقال مجاهد: كان داود عليه السلام يؤتى بالإناء ليشرب، فمـا يشرب إلا ثلثه أو نصفه، ثم يذكر خطيئته، فـينتحب النحبة تكاد مفاصلهُ تزول بعضها عـن بعض، ثم ما يتمه حتى يملأه من دموعه(٥).

وعن إسـماعيـل بن عبـيد قـال: كان داود عليه السلام إذا عوتب فـى كثرة البـكاء قال: «دعونى أبكى قـبل يوم البكاء، قبل احـتراق العظام، واشتـعال اللحى، قبـل أن يؤمر بى ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون»(٦).

٥- خشية يحيى بن زكريا عليه السلام:

فعن مجـاهد قال: كان يحيى بن زكريـا -عليهما السلام- يأكـل العشب، وإن كان ليبكى من خشيـة الله ما لو كان القار على عينه لخرقه، وكانت الدمـوع قد اتخذت مجرى فى وجهه.

---

(١) رواه البيهقى فى الشعب (٨٣٧) بإسناد صحيح.

(٢) رواه ابن أبى الدنيا فى الرقة والبكاء بإسناد حسن.

(٣) رواه أحمد فى الزهد ص٦٦ والرقة والبكاء ص٢٣١ بإسناد صحيح لابن أبى الدنيا.

(٤) الرقة والبكاء لابن قدامة ص٤٨ رقم ١٨ بإسناد حسن.

(٥) الزهد لأحمد ص٩٠ والرقة والبكاء لابن أبى الدنيا ص٢٤٧

(٦) الزهد لأحمد ص٨٨ والرقة والبكاء لابن قدامة ص٤٨ رقم ١٦ بإسناد حسن.

• ٣- خشية أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم •

١- أبو بكر الصديق:

كان رضي الله عنه يقول: وودت أنى شعرة فى جنب عبد مؤمن، وكان إذا قام إلى الصلاة كأنه عود من خشية الله تعالى.

٢- عثمان بن عفان:

كان رضي الله عنه يقول: «لو تعلمون ما أنتم لاقون بعد الموت، ما أكلتم طعامًا على شهوة، ولا شربتم شرابًا على شهوة، ولا دخلتم بيتًا تستظلون به، ولخرجتم إلى الصعيد تضربون صدوركم، وتبكوا على أنفسكم، ولوددت أنى شجرة تعضد ثم تؤكل».

٣- على بن أبى طالب:

كان رضي الله عنه يقول: أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى، وطول الأمل فأما اتباع الهوى، فيصد عن الحق، وأما طول الأمل، فينسى الآخرة، ألا وإن الدنيا قد ترحلت مدبرة، ألا وإنَّ الآخرة، قد ترحلت مقبلة، ولكل واحدة منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولاحساب، وغدًا حسابٌ ولا عمل[١]، وكان يبكى كثيرًا.

٤- زرارة بن أبى أوفى:

كان رضي الله عنه فى يوم من الأيام يصلى الفجر بأصحابه، فقرأ قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ۝ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ [المدثر: ٨،٧] فأخذته شهقة فمات[٢]

٥- الحسن بن على:

وصفه أحدهم، فقال: «كان إذا أقبل، فكأنما أقبل من دفن حميم له، وإذا جلس فكأنه أسير أمر بقطع رقبته، وإذا ذكرت النار، فكأنها لم تخلق إلا له».

• ٤- صفحات مشرقة من مراقبة التابعين •

١- عمر بن عبد العزيز:

١- كان رحمه الله يجمع العلماء كل ليلة، فيتذاكرون الموت والقيامة والآخرة، ثم يبكون كأن بين أيديهم جنازة، حتى قالت زوجته فاطمة: ما رأيت أحدًا أشد فرقًا -أى خوفًا- من عمر كان إذا صلى العشاء فى مسجده، ثم يرفع يديه فلا يزال يبكى حتى تغلبه عينه[٣].

---

(١) رواه أبو نعيم فى حلية الأولياء ١/ ٧٦ بإسناد رجاله ثقات وأحمد فى الزهد والجليس الصالح ٣/ ١٦١ ط/ دار الصحابة. (٢) صفة الصفوة ٣/ ١٢٤

(٣) حلية الأولياء ٥/ ٢٦٠ بإسناد حسن والجليس الصالح ٣/ ١٧٠

٢- ويحكى أن قومًا دخلوا على عمر بن عبد العزيز يعودونه فى مرضه، فإذا بشاب من بينهم ناحل الجسم، فقال له عمر: يا فتى، ما الذى بلغ بك ما أرى؟.

فقال: يا أمير المؤمنين، أسقام وأمراض.

فقال له: سألتك بالله إلا صدقتنى!.

فقال: يا أمير المؤمنين، ذقت حلاوة الدنيا فوجدتها مرة، وصغر عندى زهرتها وحلاوتها واستوى عندى ذهبها وحجرها، وكأنى أنظر إلى عرض ربى، والناس يساقون إلى الجنة والنار، فأظمأت لذلك نهارى، وأسهرت ليلى، وقليل حقير كل ما أنا فيه فى جنب ثواب الله وعقابه.

٢- أبو جعفر الباقر:

رجل من آل بيت رسول الله ﷺ، كان يتعبد فى جوف الليل، ويدعو قائلاً: «إلهى، أمرتنى فلم أئتمر، وزجرتنى فلم أزدجر، هذا عبدك بين يديك، ولا أعتذر»[١].

ويقول جابر الجعفى إنه سمع أبو جعفر يقول له: يا جابر، إنى لمحزون، وإنى لمشتغل القلب. قلت: ولم حزنك، وشغل قلبك؟ قال: يا جابر، إنه من دخل وقلبه صاف خالص دين الله شغله عما سواه، يا جابر ما الدنيا؟ وما عسى أن تكون؟! هل هو إلا مركب ركبته، أو ثوب لبسته، أو امرأة أصبتها؟! يا جابر، إنَّ المؤمنين لم يطمئنوا إلى الدنيا لبقاء فيها، ولم يأمنوا قدوم الآخرة عليهم، ولم يصمهم عن ذكر الله ما سمعوا بآذانهم من الفتنة، ولم يعمهم عن نور الله ما رأوا بأعينهم من الزينة، ففازوا بثواب الأبرار[٢]

٣- موسى بن جعفر الكاظم:

كان موسى بن جعفر يدعى العبد الصالح من عبادته واجتهاده.

فقد كان يسجد السجدة من أول الليل إلى ما شاء الله، وسمع وهو يقول فى سجوده: عظيم الذنب عندى فليحسن العفو عندك، يا أهل التقوى، ويا أهل المغفرة، وجعل يرددها حتى أصبح[٣]

٤- الأسود بن يزيد:

كان الأسود بن يزيد يجتهد فى العبادة، ويصوم فى الحر حتى يخضر جسده ويصفر، فكان علقمة بن قيس يقول له: لم تعذب نفسك؟ فيقول: كرامتها أريد، وكان يصلى حتى يسقط، فدخل عليه أنس بن مالك والحسن، فقالا له: إنَّ الله عز وجل لم يأمرك بكل هذا؟ فقال: إنما أنا عبد مملوك لا أدع من الاستكانة شيئًا إلا جئت به[٤].

---

(١)، (٢) حلية الأولياء ٣/ ١٨٢، ١٨٣

(٣) سيرة آل بيت النبى ﷺ للشيخ مجدى السيد ص٣٧٣ دار/ التوفيقية.

(٤) ذكر نحوه فى صفة الصفوة لابن الجوزى ٣/ ١٢

٥- أبو مسلم الخولانى:

كان رحمه الله قد علق سوطًا فى مسجد بيته يخوف به نفسه، وكان يقول لنفسه: قومى، فوالله لأزحفن بك زحفًا حتى يكون الكلل منك لا منى، فإذا داخلته الفترة -أى الكسل- تناول سوطه، وضرب به ساقه، وقال: أنت أولى بالضرب من دابتى[1] وكان يقول: أيظن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم يستأثرون به دوننا، كلا. والله لنزاحمهم عليه زحامًا حتى يعلموا أنهم قد خلفوا وراءهم رجالاً

٦- رجل من السلف:

وكان أحد السلف يجهد نفسه فى العبادة، فقيل له: قد أجهدت نفسك! فقال: كم عمر الدنيا؟ فقيل: سبعة آلاف سنة، فقال: كم مقدار يوم القيامة؟ فقيل: خمسون ألف سنة، فقال: كيف يعجز أحدكم أن يعمل سُبع يوم حتى يأمن ذلك اليوم؟!.

وهكذا كانت سيرة السلف الصالح رضوان الله عليهم فى مراقبة الله تعالى وخشيته، ومحاسبة أنفسهم، مما جعل الحسن البصرى -رحمه الله- يقول عنهم: «أدركت أقوامًا، وصحبت طوائف منهم، ما كانوا يفرحون بشىء من الدنيا أقبل، ولا يتأسفون على شىء منها أدبر، ولهى -أى الدنيا- كانت أهون فى أعينهم من هذا التراب الذى تطؤونه بأرجلكم. ثم يقول: وأدركتهم عاملين بكتاب ربهم وسنة نبيهم، إذا جنهم الليل، فقيام على أطرافهم، يفترشون وجوههم، تجرى دموعهم على خدودهم، يناجون ربهم فى فكاك رقابهم، إذا عملوا الحسنة فرحوا بها، ودأبوا فى شكرها، وسألوا الله أن يتقبلها، وإذا عملوا السيئة أحزنتهم وسألوا الله تعالى أن يغفرها لهم».

● ٥- نساء السلف ومراقبتهن لله عز وجل ●

أخى الحبيب:

إذا حدثتك نفسك بأن هؤلاء الصالحين رجال أقوياء، لا تستطيع أن تقتدى بهم، فحاول جاهدًا مع نفسك أن تنهج نهجهم، فإن لم تستطع فتشبه بهم، فعساك أن تكون معهم، فإن التشبه بالرجال فلاح، ثم تأمل أحوال النساء المجتهدات فى عبادة الله تعالى، وازجر نفسك، وقل لها: اعملى يا نفس، فعساك أن تكونى مثل امرأة، فإن لم تبلغى منزلتها، فلماذا تعصين ربك؟.

---

(١) حلية الأولياء ٢/ ١٢٩ وصفة الصفوة ٤/ ١٤٥

١- رابعة العدوية[١]:

كانت كثيرة البكاء، فقرأ عندها رجل آية من كتاب الله تعالى فيها ذكر النار، فصاحت ثم سقطت مغشيًّا عليها، خوفًا من عذاب النار[٢].

يأتيها رجل فى يوم من الأيام بأربعين دينارًا، وقال لها: استعينى بها على بعض حوائجك، فبكت ورفعت رأسها إلى السماء، وقالت: هو يعلم أنى أستحى منه أن أسأله الدنيا وهو يملكها، فكيف آخذها ممن لا يملكها؟![٣]

وكانت تقول لسفيان الثورى: إنما أنت أيام معدودة، إذا ذهب يوم ذهب بعضك، ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكل وأنت تعلم، فاعمل.

كانت تصلى الليل كله، فإذا طلع الفجر هجعت فى مصلاها هجعة خفيفة حتى يسفر الفجر، فكانت تقوم من مرقدها وتقول وهى فزعة:

يا نفسى كم تنامين؟! وإلى كم تقومين، يوشك أن تنامى نومة لا تقومين منها إلا لصرخة يوم النشور، فكان هذا دأبها حتى ماتت[٤]

٢- معاذة بنت عبد الله -أم الصهباء-:

كانت تحيى الليل صلاة، فإذا غلبها النوم قامت، فجالت فى الدار وهى تقول: يا نفسى، النوم أمامك لو قدمت لطالت رقدتك فى القبر على حسرة... وهى على ذلك حتى تصبح[٥]

٣- عجردة العمية:

كانت رحمها الله تعالى تحيى الليل صلاة، وربما تقوم من أول الليل إلى السحر، فإذا كان السحر نادت بصوت لها محزون: إلهى: إليك قطع العابدون دجى الليالى بتبكير الدلج إلى ظلم الأسحار يستبقون إلى رحمتك، فبك يا إلهى أسألك لا بغيرك أن تجعلنى فى أول زمرة السابقين، وأن ترفعنى لديك فى عليين فى درجة المقربين، وأن تلحقنى بعبادك الصالحين، فأنت أرحم الرحماء، وأعظم العظماء يا كريم، ثم تخر ساجدة فلا تزال تبكى، وتدعو فى سجودها حتى يطلع الفجر فكان ذلك دأبها ثلاثين سنة[٦].

---

(١) قال بعض الناس: إن رابعة أسطورة اخترعها الصوفية لكن لو لم يكن لرابعة حقيقة ما ترجم ابن الجوزى فى صفة الصفوة، وما ترجم لها أبو نعيم فى حلية الأولياء، وما ترجم لها الإمام الذهبى فى سير أعلام النبلاء، وما ترجم لها ابن العماد فى شذرات الذهب، والقشيرى فى رسالته، وأبو طالب المكى فى قوت القلوب وغير ذلك.

(٢): (٤) صفة الصفوة لابن الجوزى ٤/ ١٧، ١٨.

(٥) المرجع السابق ٤/ ١٤

(٦) صفة الصفوة ٤/ ١٩، ٢٠

٤- حبيبة العدوية:

فعن عبد الله المكى قال: كانت حبيبة العدوية -رحمها الله- إذا صلت العتمة قامت على سطح فشدت عليها درعها، وخمارها، فقالت: إلهى، غارت النجوم، ونامت العيون، وغلقت الملوك أبوابها، وبابك مفتوح، وخلا كل حبيب بحبيبه، وهذا مقامى بين يديك فإذا كان السحر قالت: اللهم هذا الليل قد أدبر، والنهار قد أسفر، فليت شعرى، هل قبلت منى ليلتى فأهنأ، أم رددتها علىّ فأعزى؟[1]

٥- حسنة العابدة:

فعن محمد بن قدامة قال: بلغنا أن امرأة كان يقال لها: «حسنة» تركت نعيم الدنيا، فأقبلت على العبادة، فكانت تصوم النهار، وتحيى الليل، وليس فى بيتها شىء، كلما عطشت خرجت إلى النهر فشربت بكفيها، وكانت جميلة، فقالت لها امرأة: تزوجى، فقالت: هات رجلاً زاهدًا لا يكلفنى من أمر الدنيا شيئًا، وما أظنك تقدرين عليه، فوالله ما فى نفسى أن أعبد الدنيا، ولا أتنعم مع رجال الدنيا، فإن وجدت رجلاً يبكى ويبكينى، ويصوم ويأمرنى، ويتصدق ويحضنى عليه فبها ونعمت، وإلا فعلى الرجال السلام[2].

قل للمفرط يستعد ... ما من ورود الموت بد
قد أخلق الدهر الشباب ... وما مضى لا يسترد
فإلى متى شغل الفتى ... فى لهوه والأمر جد؟
والعمر يقصر كل يوم ... بى وآمالى تُمد

يا هذا لا تبرح من المكان وإن طردت، لا تزل عن الجناب ولو أبعدت، وقل بلسان التملق: إلى من أذهب؟.

يا من كان له قلب فمات، يا من كان له وقت ففات، ارجع إلى مولاك، وراقبه فى السر والعلانية.

يروى أن العبد إذا بكى من خشية الله تعالى بكى معه الملكان الموكلان به، فإذا صعد إلى السماء، قال الله تعالى لهما -وهو أعلم-: من ماذا بكيتما؟ فيقولان: إلهنا، عبدك بكى من خشيتك فساعدناه، فيقول الله عز وجل لهما: قد عفوت عنه بمساعدتكما إياه[3]

• ثمرات المراقبة لله عز وجل •

أخى الحبيب:

إن للمراقبة ثمرات عظيمة، يجد المراقب ثمرتها فى الدنيا والآخرة، فهيا بنا لنقطف ثمرات من ثمار المراقبة لله عز وجل:

---

(١) صفة الصفوة ٤/ ١٩، ٢٠ (٢) المرجع السابق ٤/ ٢٤.

(٣) المواعظ والمجالس ص١٢٠ ط/ مكتبة الإيمان.

الثمرة الأولى: التعويض الرباني للمراقب مولاه:

ولذلك جاء في الأثر: **«عبدى كن لى كما أريد أكن لك كما تريد»**.

قيل لأبى بكر المسكى: إنا نشم منك رائحة المسك مع الدوام فما سببه؟ فقال: والله لى سنين عديدة لم أستعمل المسك، ولكن سبب ذلك أن امرأة احتالت علىّ حتى أدخلتنى دارها، وأغلقت دونى الأبواب، وراودتنى عن نفسى، فتحيرت فى أمرى، فضاقت بى الحيل، فقلت لها: إن لى حاجة إلى الطهارة، فأمرت جارية لها أن تمضى بى إلى بيت الراحة، ففعلت، فلما دخلتُ بيت الراحة أخذت العذرة وألقيتها على جميع جسمى، ثم رجعت إليها وأنا على تلك الحالة، فلما رأتنى دهشت، ثم أمرت بإخراجى فمضيت واغتسلت، فلما كانت الليلة رأيت فى المنام قائلاً يقول لى: فعلت ما لم يفعله أحد غيرك، لأطيبن ريحك فى الدنيا والآخرة، فأصبحت والمسك يفوح منى، واستمر ذلك إلى الآن[١].

الثمرة الثانية: نيل مراد العبد:

قال الحسن بن زيد: ولينا بديار مصر رجل، فوجد على بعض عماله، فحبسه وقيده، فأشرفت عليه ابنة الوالى، فهويته، فكتبت إليه، وكان قد نظر إليها:

أيها الرامى بعينيـ ... ـه وفى الطرف الحتوف
إن ترد وصلاً فقد ... أمكنك الظبى الألوف

فأجابها الفتى:

إن ترينى زانى العينين ... فالفرج عفيف
ليس إلا النظر الفا ... تر والشعر الظريف

فكتبت إليه:

قد أردناك على عشقك ... إنسانًا عفيفًا
فتأبَّيْتَ فلا زلـ ... ـت لقيديك حليفًا

فأجابها:

ما تأبيت لأنى ... كنت للظبى عيوفا
غير أنى خفت ربًّا ... كان بى برًّا لطيفًا

فذاع هذا الشعر، وبلغ الخبر الوالى، فدعا به، فزوجه إياها ودفعها إليه[٢]

الثمرة الثالثة: كرم الله تعالى لمن يراقبه:

كان (المبارك) عبدًا رقيقًا أعتقه سيده، ثم اشتغل أجيرًا عند صاحب بستان، وفى ذات يوم خرج صاحب البستان مع أصحاب له، وقال للمبارك: ائتنا برمان حلو، فقطف رمانات ثم قدمها إليهم، فإذا هى حامضة.

(١) المواعظ والمجالس ص١٢٠ لابن الجوزى. (٢) ذم الهوى ص٢١٢، ٢١٣ ط/ دار الكتب العلمية.

فقال صاحب البستان: أما تعرف الحلو من الحامض؟! قال: لم تأذن لى أن آكل حتى أعرف الحلو من الحامض. فقال له: أنت من كذا، وكذا سنة تحرس البستان، وتقول هذا -فظن أنه يمكر به- فسأل عنه، فقالوا: ما أكل رمانة واحدة، فقال له صاحب البستان: يا مبارك.. أريد أن أستشيرك عن أمر هام.. إننى ليس عندى إلا ابنة واحدة، فلمن أزوجها؟ فقال له: يا سيدى لقد كان اليهود يزوجون للمال، والنصارى للجمال، والعرب للحسب، والمسلمون يزوجون للتقوى، فمن أى الأصناف أنت زَوِج ابنتك للصنف الذى أنت منه.

فقال: والله لا أزوجها إلى على التقوى، وما وجدت إنسانًا أتقى لله منك، فقد أعتقتك وزوجتك ابنتى، ووهبت لك هذا البستان بما فيه.

الله أكبر.. تأمل إنه عندما راقب مولاه، وخاف منه، فعف عن ما فى البستان من رمان ساق الله إليه البستان كله، وصاحبته.

ولذلك قيل: من ترك شيئًا فى الحرام، عوضه الله خيراً منه فى الحلال، وقد تخرج عبد الله بن المبارك من هذا البيت العفيف، الذى ضرب به المثل فى خشية الله ومراقبته.

الثمرة الرابعة: المراقبة تجعل صاحبها يقيم حدود الله:

إن العبد الذى يراقب الله تعالى ويخشاه، يكادح مع نفسه، ويبعدها عن شهواتها التى ربما أوقعته فى غضب الله وسخطه، فإذا ما زلفت منه معصية قاد نفسه إلى الاعتراف بها، وطلب القصاص من نفسه، رجاء أن يكون ذلك كفارة له عن وقوعه فى فخ هذه المعصية، وحتى يفوز برضوان الله تعالى ومغفرته.

فهذا هو ماعز بن مالك الأسلمى، يأتى رسول الله ﷺ، فيقول: يا رسول الله! إنى قد ظلمت نفسى وزنيت، وإنى أريد أن تطهرنى.. فردَّه فلما كان من الغد أتاه، فقال: يا رسول الله: إنى قد زنيت. فردَّه الثانية، فأرسل رسول الله ﷺ إلى قومه، فقال: «**أتعلمون بعقله بأسًا تنكرون منه شيئًا؟**» فقالوا: ما نعلمه إلا وفىَّ العقل من صالحينا فيما نرى؛ فأتاه الثالثة، فأرسل رسول الله ﷺ فسأل عنه، فأخبروه أنه لا بأس به ولا بعقله، فلما كان الرابعة حفر له حفرة ثم أمر به فرجم.

فجاءت الغامدية، فقالت: يا رسول الله! إنى قد زنيت فطهرنى، فردّها، فلما كان الغد جاءت الغامدية، فقالت: يا رسول الله، إنى قد زنيت، فطهرنى، وأنه ردّها فلما كان الغد قالت: يا رسول الله، لم تردنى لعلك أن تردنى كما رددت ماعزًا، فو الله إنى لحبلى. قال: «**إما لا، فاذهبى حتى تلدى**» فلما ولدت أتته بالصبى فى خرقة. قالت: هذا قد ولدته. قال: «**اذهبى فأرضعيه حتى تفطميه**» فلما فطمته أتته بالصبى فى يده كسرة خبز، فقالت: هذا يا نبى الله قد فطمته، وقد أكل الطعام، فدفع الصبى إلى رجل من المسلمين. ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها، وشد عليها ثيابها ورجموها، فأقبل خالد بن الوليد

بحجر، فرمى رأسها، فنضح الدم على وجهه، فسبها فقال له النبى ﷺ: **«فو الذى نفسى بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له»** وفى رواية: **«لو وزعت على أهل المدينة لوسعتهم، لقد جادت بنفسها لله»**.

ثم أمر بها فصلى عليها، ودفنت(١)

فتأمل أخى الحبيب ثمرة المراقبة التى جعلت ماعزًا يأتى إلى رسول الله مرة بعد مرة ويطلب منه أن يقيم عليه الحد، وتأمل الغامدية إن الرسول أمرها أن تذهب حتى تضع فهى لو لم تحضر إلى رسول الله، لم يبحث عنها، ثم يردها حتى تفطمه، ثم تأتى هى إليه، وكان بوسعها أن تخرج إلى بلد أخرى مهاجرة بابنها، لكنها المراقبة، والخشية من الله تعالى.

الثمرة الخامسة: أنها توصل صاحبها إلى التقوى:

فإذا ما راقب العبد مولاه فى كل شىء حتى فى خطرات نفسه، فلا شك أن يصبح من المتقين الخائفين. والعبد إذا استحى من الله تعالى فإنه يتقرب إليه، لذلك قال الحارث المحاسبى: المراقبة علم القلب بقرب الرب.

ويوصى النبى ﷺ أبا ذر الغفارى، فيقول له: **«أوصيك بتقوى الله فى سر أمرك وعلانيته وإذا أسأت فأحسن، ولا تسألن أحدًا شيئًا، ولا تقبض أمانة، ولا تقض بين اثنين»**(٢) أى إلا بالعدل.

الثمرة السادسة: إصلاح ما بين العبد وبين الناس:

ولذلك يقول سليمان التيمى -رحمه الله-:

إن الرجل ليصيب الذنب فى الستر، فيصبح وعليه مذلته(٣)

ويقول خطاب العابد -رحمه الله-:

إن العبد ليذنب الذنب فيما بينه وبين الله، ثم يجىء إلى إخوانه، فيرون أثر ذلك عليه(٤).

وهذا من أعظم الأدلة على وجود الإله الحق المجازى بذرات الأعمال فى الدنيا قبل الآخرة، لا يضيع عنده عمل عامل، ولا ينفع من قدرته حجاب ولا استتار.

فالسعيد من أصلح بينه وبين الله تعالى، فإن من أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الخلق، ومن التمس محامد الناس بسخط الله عاد حامده من الناس له ذامًا.

---

(١) رواه مسلم فى كتاب الحدود.

(٢) رواه أحمد فى مسنده (٢٠٥٩٢) بإسناد ضعيف وحسنه الألبانى فى ص.ج (٢٥٤٤) وفى صحيح الترغيب برقم (٨٠٤) لشواهده.

(٣) صفة الصفوة ٣/ ١٧٤

(٤) حلية الأولياء ١٠/ ١٤٤

وقال أبو سليمان الداراني -رحمه الله-:

إن الخاسر من أبدى للناس صالح عمله، وبارز بالقبيح من هو أقرب إليه من حبل الوريد[١]. وعن أبي جعفر السائح قال: كان حبيب أبو محمد الفارسي تاجرًا يكرى الدراهم -أي بالربا- فمر ذات يوم، فإذا هو بصبيان يلعبون، فقال بعضهم لبعض: قد جاء آكل الربا، فنكس رأسه، وقال: يا رب أفشيت سرى إلى الصبيان، فرجع فجمع ماله كله، وقال: يا رب! إني أسير، وإني قد اشتريت نفسي منك بهذا المال كله، وأخذ في العبادة، ثم مرّ ذات يوم بأولئك الصبيان، فلما رأوه قال بعضهم لبعض: اسكتوا فقد جاء حبيب العابد، فبكى وقال: يا رب، أنت تذم مرة، وتحمد مرة، وكله من عندك[٢].

أرأيت أخي الحبيب إلى هذا العابد لما راقب مولاه في سر وعلانيته أصلح الله ما بينه وبين الناس، بل لقد أصبح له حال مع الله تعالى.

فعن حماد قال: شهدت حبيبًا الفارسي يومًا، فجاءته امرأة، فقالت: يا أبا محمد كأنها طلبت منه شيئًا، فقال لها: كم لك من العيال، فقالت: كذا وكذا، فقام حبيب إلى وضوئه فتوضأ ثم جاء إلى مصلاه فصلى بخضوع وسكون، فلما فرغ قال: يا رب، إن الناس يحسنون ظنهم بي، وذاك من سترك علي، فلا تخلف ظنهم بي، ثم رفع حصيره، فإذا بخمسين درهما، فأعطاها إياها، ثم قال: يا حماد أكتم ما رأيت حياتي[٣].

• موعظة •

إخواني، سار المتقون المراقبون ورجعنا، ووصلوا إلى ربهم وانقطعنا، وأجابوا داعي الله بالطاعة والمراقبة وامتنعنا، ونجوا من الإشراك والرياء ووقعنا، فهيا ننظر في آثارهم، ونستخلص أخبارهم، فنبكي على ما فرطنا في جنب الله.

لقد سافر القوم على رواحل الصدق، فقطعوا أرض الصبر حتى وقعوا برياض الأنس، فعبقت قلوبهم بنشر القرب، وتعطرت بنسيم الوصل.

لقد كان البكاء دأبهم، والدمع شرابهم، والجوع طعامهم، والصمت كلامهم، فلو نازلهم الخوف صاروا ولهين، وإن فاجأهم الفكر عادوا متحرين، ولو جن عليهم الليل لرأيتهم ساهرين، وإن هبت رياح الأسحار لشاهدتهم مستغفرين، ولو رجعوا وقت الفجر بالأجر، نادى منادى الهجر ياخيبة النائمين!!.

يا مدمن الذنب أما تستحي	والله في الخلوة ثانيكما
غرّك من ربك إمهاله	وستره طول مساويكا

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي ص٢١٧ دار العاصمة السعودية.

(٢) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي ص٢١٧ دارالعاصمة السعودية.

(٣) صفة الصفوة جـ٣/ ١٨٧ ط/ دار الفكر.

كان أحدهم إذا سئل عن حاله كيف أصبح يقول: كيف يصبح من ربه يطالبه بأداء الفرائض، ونبيه يطالبه بأداء السنن، والملكان بتصحيح العمل، ونفسه تطالبه بهواها، وإبليس يطالبه بالفحشاء، وملك الموت يراقب قبض روحه، وعياله يطالبونه بالنفقة؟!.

كان أحدهم إذا رأى من هو أكبر منه قال: هذا سبقني بالإيمان والعمل الصالح فهو خير منى، وإذا رأى من هو أصغر منه قال: سبقته إلى الذنوب والمعاصى فهو خير منى.

فشتان بين نسيج دود القز، ونسيج العنكبوت، وشتان بين شجرة الصنوبر، وشجرة الدبا لما أخذ دود القز ينسج أقبلت العنكبوت تتشبه وقالت: لك نسج، ولى نسج، فقالت دودة القز: ولكن نسجى أردية للملوك، ونسجك شبكة للذباب، وعند مس النسجين يتبين الفرق فاللهم نور دنيانا بنور من توفيقك، واقطع أيامنا فى الاتصال بك، وانظم شتاتنا فى سلك طاعتك، واجعلنا من عبادك المتقين، ومتعنا بالنظر إلى وجهك الكريم وتقبل منا يا رب العالمين.

الوصية رقم (٤٣)
إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث

عن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «**إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يجهل، فإن امرؤٌ شاتمه أو قاتله فليقل: إنى صائم إنى صائم**»(١)

صدق رسول الله ﷺ

• فى رحاب هذه الوصية •

قال الحافظ ابن حجر(٢):

(**فلا يرفث**) بالضم والكسر ويجوز فى ماضيه التثليث، والمراد بالرفث هنا: هو بفتح الراء والفاء: الكلام الفاحش، وهو يطلق على هذا ويطلق على الجماع وعلى مقدماته وعلى ذكره مع النساء أو مطلقًا، ويحتمل لما هو أعم منها.

(**ولا يجهل**) أى لا يفعل شيئًا من أفعال الجهَّال كالصياح والسفه ونحو ذلك. وفى رواية: «**فلا يرفث ولا يجادل**» قال القرطبى: لا يفهم من هذا أن غير الصوم يباح فيه ما ذكر، وإنما المراد أن المنع من ذلك يتأكد بالصوم.

«**وإن امرؤ قاتله أو شاتمه**» وفى رواية: «**فإن سابه أحد أو قاتله**» وفى رواية للنسائى: «**وإن امرؤ جهل عليه فلا يشتمه ولا يسبه**» وعند ابن خزيمة: «**فإن سابك أحد فقل: إنى صائم وإن كنت قائمًا فاجلس**» وفى رواية: «**فإن سابه أحدٌ أو ماراه**».

---

(١) رواه البخارى ومسلم.

(٢) فتح البارئ لابن حجر العسقلانى جـ٤/ ١٢٦

فليقل: «إني صائم» اتفقت الروايات كلها على أنه يقول: «إني صائم» فمنهم من ذكرها مرتين، ومنهم من اقتصر على واحدة، وقد استشكل ظاهره بأن المفاعلة تقتضى وقوع الفعل من الجانبين، والصائم لا تصدر منه الأفعال التى رتب عليها الجواب خصوصًا المقاتلة.

والجواب عند ذلك: بأن المراد بالمفاعلة التهيؤ لها، أى تهيأ أحد لمقاتلته أو مشاتمته فليقل: إنى صائم، فإنه إذا قال ذلك أمكن أن يكف عنه، فإن أصر دفعه بالأخف فالأخف كالصائل، هذا فيمن يروم مقاتلته حقيقة، فإن كان المراد بقوله «قاتله» شاتمه لأن القتل يطلق على اللعن، واللعن فى جملة السب فالمراد من الحديث: أن لا يعامله بمثل عمله، بل يقتصر على قوله: «إنى صائم».

واختلف فى المراد بقوله: «فليقل إنى صائم» هل يخاطب بها الذى يكلمه بذلك، أو يقولها فى نفسه؟.

وبالثانى -أى يقولها فى نفسه- جزم المتولى، ونقله الرافعى عن الأئمة، ورجح النووى الأول فى «الأذكار» وقال فى شرح «المهذب»: كل منهما حسن، والقول باللسان أقوى، ولو كان جمعها لكان حسنًا، ولهذا التردد أتى البخارى فى ترجمته بالاستفهام فقال: «باب: هل يقول إنى صائم إذا شُتم؟».

وقال الرويانى: إن كان رمضان فليقل بلسانه، وإن كان غيره، فليقل فى نفسه وادعى ابن العربى أن موضع الخلاف فى التطوع، وأما الفرض، فيقول بلسانه قطعًا.

وأما تكرير قوله: «إنى صائم» فليتأكد الانزجار منه، أو ممن يخاطبه بذلك. انتهى.

ولذلك يقول النبى ﷺ مؤكدًا على ذلك ومحذرًا: «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه» وفى رواية عن الطبرانى: «من لم يدع الخنا والكذب».

ولذلك حذر سيد الصائمين ﷺ بصورة أخرى أشد فقال: «رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش، ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر»[1]

• درجات الصائمين •

يقول الإمام الغزالى[2]:

اعلم أن الصوم ثلاث درجات: صوم العموم، وصوم الخصوص، وصوم خصوص الخصوص.

---

(١) رواه ابن ماجه وذكره الألبانى فى ص.ج رقم (٣٤٨٨).

(٢) إحياء علوم الدين للإمام الغزالى ١/ ٢٧٧ وتهذيب الإحياء ص٩٠ ومختصر منهاج القاصدين ص٦٧

أما صوم العموم، فهو كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة.

وأما صوم الخصوص فهو كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل، وسائر الجوارح عن الآثام.

أما صوم خصوص الخصوص، فصوم القلب عن الهمم الدنية، والأفكار الدنيوية، وكفه عما سوى الله عز وجل بالكلية.

قال بعض السلف: أهون الصيام ترك الشراب والطعام.

وقال جابر: إذا صمت، فليصم سمعك وبصرك ولسانك عن الكذب والمحارم، ودع أذى الجار، وليكن عليك وقار وسكينة في صومك، ولا تجعل يوم صومك، ويوم فطرك سواء.

إذا لم يكن في السمع مني تصاون ... وفي بصري غض وفي منطقي صمت
فحظي إذا من صومي الجوع والظما ... فإن قلت: إني صمت يومي فما صمت

وسر هذا أن التقرب إلى الله تعالى بترك المباحات لا يكمل إلا بعد التقرب إليه بترك المحرمات، فمن ارتكب المحرمات ثم تقرب بترك المباحات، كان بمثابة من يترك الفرائض ويتقرب بالنوافل وإن كان صومه مجزئًا عند الجمهور بحيث لا يؤمر بإعادته، لأن العمل إنما يبطل بارتكاب ما نهي عنه فيه لخصوصه، دون ارتكاب ما نهي عنه لغير معنى يختص به[1].

•صوم الجوارح•

١- صوم اللسان:

ذلكم العضو الصغير الخطير، لابد أن يصوم ليس في رمضان فقط بل دائمًا وأبدًا، لأنه هو المورد لصاحبه موارد العطب، فمن حفظ لسانه أراح نفسه، لذلك يقول إمام الأمة وقائدها الأعظم ﷺ: **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيرًا أو ليصمت»**[2] والصمت يكسب المحبة والوقار.

يقول الأحنف بن قيس: الصمت أمان من تحريف اللفظ، وعصمة من زيغ المنطق، وسلامة من فضول القول، وهيبة لصاحبه[3]

وقد قال له عمر بن الخطاب ناصحًا: «يا أحنف من كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه قل حياؤه، ومن قل حياؤه قل ورعه، ومن قل ورعه مات قلبه»[4]

---

(١) لطائف المعارف ص٢٩٢.

(٢) رواه البخاري ومسلم وأحمد وغيرهم.

(٣)، (٤) روضة العقلاء لابن حبان ص٤٢ ط/ دار المغني السعودية.

وها هو النبى المصطفى ﷺ يوصى أحد أصحابه الكرام، فيقول له: «**عليك بحسن وطول الصمت، فوالذى نفسى بيده ما تجمل الخلائق بمثلها**»(١)

وتدبر قوله تعالى: ﴿**مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ**﴾ [ق: ١٨].

هل الغيبة تضر بالصوم؟.

ذكر ابن حجر أن الغيبة تضر بالصيام، وقد حكى عن عائشة، وبه قال الأوزاعى: إن الغيبة تفطر الصائم وتوجب عليه قضاء ذلك اليوم.

وأفرط ابن حزم، فقال: «يبطله -أى الصوم- كل معصية من متعمد لها ذاكر لصومه سواء كانت فعلاً أو قولا، لعموم قوله: «**فلا يرفث ولا يجهل**» والجمهور وإن حملوا النهى على التحريم إلا أنهم خصوا الفطر بالأكل والشراب والجماع»(٢)

قال أبو العالية: «الصائم فى عبادة مالم يغتب وإن كان نائمًا على فراشه»(٣).

٢- صوم العين:

ويكون بكف البصر وغضه عن المحرمات، قال تعالى: ﴿**قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ**﴾ [النور: ٣٠، ٣١] لأن غض البصر يورث القلب نوراً واشراقًا، يظهر على وجه صاحبه، كما أن إطلاق البصر يورثه ظلمة تظهر فى وجهه وجوارحه.

ولهذا -والله أعلم- ذكر الله سبحانه آية النور فى قوله تعالى: ﴿**اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ [النور: ٣٥] عقيب قوله: ﴿**قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم**﴾ [النور: ٣٠](٤)

وقال شجاع الكرمانى: من عمر ظاهره باتباع السنة، وباطنه بدوام المراقبة، وغض بصره عن المحارم، وكف نفسه عن الشهوات، وأكل من الحلال، لم تخطئ فراسته(٥)

فإذا جال بصرك هنا وهناك فى المحرمات، فأين صومك إذن؟ فليس الصيام بالكف عن الطعام والشراب والشهوة كما علمت، ولكن الصيام دوام المراقبة لله تعالى.

واعلم أخى الحبيب أنه ما من عبد إلا وله عينان يرى بهما أمور دنياه، وعينان يرى بهما أمور الآخرة، فإذا ما حافظت على عينيك اللتين تنظر بهما فى الدنيا إلا ويفتح الله لك عينيك اللتين تبصران أمور الآخرة. **قال بعض السلف**: ما من عبد إلا وله فى وجهه عينان يبصر بهما أمر الدنيا، وعينان فى قلبه يبصر بهما أمر الآخرة، فإذا أراد الله بعبد خيراً فتح عينيه اللتين فى قلبه، فأبصر بهما من اللذة والنعيم ما لا خطر له مما وَعَدَ به من لا

---

(١) رواه البيهقى فى الشعب عن أنس وحسنه الألبانى فى ص. ج (٤٠٤٨).

(٢) فتح البارى. (٣) الزهد للإمام أحمد ص٣٦٧

(٤) روضة المحبين لابن القيم الجوزية ص٩٥، وإغاثة اللهفان من مصائد الشيطان.

(٥) حلية الأولياء ٢٣٨/١٠ وروضة المحبين ص٩٦

أصدق منه حديثًا، وإذا أراد به غير ذلك تركه على ما هو عليه[١]، ثم قرأ: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

فمن صام بجوارحه عوضه الله إيمانًا يجد حلاوته في قلبه، وفي كل حياته.

٣- صوم القلب:

فيصوم القلب عن الهوى، والهوى هو ميل الطبع إلى ما يلائمه، وما سمي الهوى بذلك إلا لأنه يهوى بصاحبه إلى النار.

والقلب هو أشرف أعضاء البدن، وهو الذي قال عنه رسولنا محمد ﷺ: «**إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**»[٢] فهو الأمير، وإذا صلح الأمير صلحت الرعية، وإذا فسد فسدت الرعية، لذلك كان النبي ﷺ يدعو ربه، ويقول: «**اللهم يا مثبت القلوب ثبت قلوبنا على طاعتك**»[٣] صوم القلب يكون بإيقاظه من الغفلة، وجعل صاحبه يبذل التعب لكي يرتاح، إيقاظ يجعل صاحبه متيقظًا فيعطش نفسه ليوم الري، ويجيع نفسه ليوم الشبع الأكبر.

في جنازة داود الطائي، قام ابن السماك خطيبًا يخطب الناس بعد أن أهيل على أخيه التراب، ويقول: «يا داود ما أعجب شأنك! وقد يزيد في العجب أنك من أهل زمانك، ألزمت نفسك الصمت حتى قومتها على العدل، أهنتها وأنت تريد كرامتها، وأذللتها وأنت تريد عزها، وأجعتها وأنت تريد شبعها، وأظمأتها وأنت تريد ريها، وخشنت الملبس، وإنما تريد لينه، وخشنت المطعم وإنما تريد طيبه.

أما كنت تشتهي من الماء بارده، ولا من الطعام طيبه، ولا من الملبس لينه؟ بلى، ولكنك زهدت فيه لما بين يديك مما دعيت إليه، ورغبت فيه، فما أصغر ما بذلت، وما أحقرما تركت وما أيسر ما فعلت في جنب ما أملت وطلبت؟!»[٤]

أيقظ قلبك بصيامه عن الدنيا، وأبعده عن طريق الغفلة، فها هو الحسن البصري رحمه الله يضرب للغافل عن آخرته، الساهي في دنياه، فمثله كمثل الكبش يأكل العلف المقدم له، ولكن السكين تشحذ لذبحه، والتنور يسجر لكي يطهيه، وهو لاه ساه عن ذلك بطعامه وشرابه يقول: «يابن آدم، السكين تشحذ، والتنور يسجر، والكبش يعتلف»[٥] أفق من نومة الغفلة، يقول سيدنا أبو الدرداء رضي الله عنه عجبت من ثلاث: مؤمل للدنيا والموت يطلبه، وغافل وليس بمغفول عنه، وضاحك ملء فيه لا يدري أرضى عنه ربه أم سخط؟!.

---

(١) روضة المحبين لابن قيم الجوزية ص١٥٩

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه أحمد في مسنده (٢٦٤٤٥) جـ١٨/ ٢٦٧ بإسناد حسن.

(٤) حلية الأولياء ٧/ ٣٣.

(٥) حلية الأولياء ٢/ ١٥٢ وسير أعلام النبلاء ٤/ ٥٨٦.

٤- صوم الأذن:

إن الأذن نعمة عظيمة من نعم الله تعالى على الإنسان، فنعمه سبحانه وتعالى لا تعد ولا تحصى: ﴿**وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا**﴾ [النحل: ١٨] ونعمة السمع التي آتها الأذن على المسلم أن يصونها، وصونها يكون بحفظها، قال تعالى: ﴿**إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً**﴾ [الإسراء: ٣٦] فالمؤمن الحق هو الذى يوظف سمعه فى طاعة الله عز وجل، يوظفه فى سماع الخير، يسمع به كلام الرحمن بدلا من أن يسخره فى سماع كلام الشيطان، يسمع القرآن، بدلاً من أن يسمع قرآن الشيطان لكن هل للشيطان قرآن؟! نعم للشيطان قرآن، وهو الغناء.

يقول قتادة: لما أهبط إبليس، قال: يا رب، لعنتنى فما عملى؟ قال: السحر، قال: فما قرآنى؟ قال: الغناء. قال: فما كتابى؟ قال: الوشم. قال: فما طعامى؟ قال: كل ميتة وكل ما لم يذكر اسم الله عليه. قال: فما شرابى؟ قال: كل مسكر. قال: فأين مسكنى؟ قال: الأسواق. قال: فما صوتى؟ قال: المزامير. قال: فما مصايدى؟ قال: النساء.

فإن كنت صائمًا فليصم سمعك عن كل قبيح صنه عن كل ما يحرم قوله أو يكره، لأن كل واحد منهما ينافى الكمال المطلوب من الإنسان التحلى به، وقد سوى الله سبحانه بين القول الزور والفعل المذموم في التنفير، فقال سبحانه: ﴿**سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ**﴾ [المائدة: ٤٢].

٥- صوم البطن:

إن جسد الإنسان فى هذه الحياة الدنيوية لا ينمو إلا بما يتناوله من المأكل والمشرب فإن كان هذا المأكل والمشرب من الحلال فمصير هذا الجسد إلى جنة الله رب العالمين، إلى النعيم الأبدى، لكن إذا نبت هذا الجسد وترعرع على الحرام والسحت كان مصيره إلى العذاب يوم القيامة، قال ﷺ: «**كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به**»[1].

المال ينفد حله وحرامه ... يومًا وتبقى فى غد آثامه

ليس التقى بمتق لإلهه ... حتى يطيب طعامه وشرابه

فليحذر العاقل أن يتناول عند فطره وفى جميع أوقات عمره شيئًا من الحرام، أو ما فيه شبهة، فلا ينبغى لمن صام عن الحلال طيلة نهاره، أن يفطر على الحرام آخر النهار ولذلك فإن صحابة رسول الله ﷺ ضربوا المثل الأعلى فى البعد عن الحرام من الطعام والشراب وغيره، فها هو سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه وقد كان له غلام يجمع له الخراج، وكان يقدم الطعام له، وفى يوم من الأيام جاءه غلامه بطعام فأكل منه دون أن يسأله، فقال

---

(١) رواه الطبرانى وأحمد والدارمى عن جابر وابن حيان وصححه الألبانى فى ص.ج (٤٥١٩).

له الغلام: أتدى من أين هذا الطعام؟ فقال أبو بكر: من أين هو؟ قال الغلام: كنت تكهنت لإنسان فى الجاهلية وما أحسن الكهانة إلا أنى خدعته، فلقينى فأعطانى ذلك الذى أكلت منه، فأدخل أبو بكر أصبعه فى فيه، واستقاء كل شىء فى بطنه. وفى رواية أنه قال: لو لم تخرج إلا مع نفسى لأخرجتها، اللهم إنى أعتذر إليك مما حملت العروق، وخالط الأمعاء.

وأكل الحلال من الطعام من أعظم الأسباب للقرب من رب الأرباب، فعن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: **«الاستحياء من الله تعالى أن تحفظ الرأس وما وعى، وتحفظ البطن وما حوى، وتذكر الموت والبلى ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء»**(١)

٦- صوم الفرج:

وصوم الفرج يكون بحفظه وصيانته من الحرام، والبعد به عن ما لا يرضى الله تعالى قال تعالى: ﴿**قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ**﴾ [النور: ٣٠] فإرسال الطرف مبدأ المحنة، والنظر بريد الزنا، ونهاية المحنة بلوغ النفس وطرها فى الحرام.

فعن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: **«كتب على ابن آدم حظه من الزنا فهو مدرك ذلك لا محالة، فالعينان تزنيان وزناهما النظر، والأذنان تزنيان وزناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرجل زناها الخطا، والقلب يهوى ويتمنى، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه»**(٢)

وفى حديث أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: **«من حفظ ما بين لحييه، وما بين رجليه دخل الجنة»**(٣) وفى رواية عن حديث أبى موسى رضي الله عنه: **«من حفظ ما بين فقميه، وفرجه دخل الجنة»**(٤)

قال أبو إدريس الخولانى: أول ما وصى الله به آدم عليه السلام عند إهباطه إلى الأرض حفظ فرجه، وقال: لا تضعه إلا فى حلال(٥)

---

(١) رواه أحمد فى مسنده (٣٦٧١) وضعفه الشيخ احمد شاكر، والترمذى (٢٤٥٨) وذكره الألبانى فى ص.ج (٩٣٥).

(٢) رواه مسلم (٢٦٥٧) وأحمد فى مسنده (٨١٩٩) والبخارى (٦٢٤٣).

(٣) رواه الحاكم ٤/٣٩٧ وصححه ووافقه الذهبى والحديث حسن بشواهده.

(٤) رواه أحمد فى مسنده (١٨٧٣٨) والحاكم ٤/٣٩٩ وسكت عنه الذهبى وهو صحيح بشواهده ذكره الألبانى فى ص.ج (٢ ٦٢).

(٥) جامع العلوم والحكم ص ٤٢٨ ط/ السعدية.

٧- اليد والرجل:

فالعاقل هو الذى ينظر قبل أن يفعل الشيء، فلا يمد يده ولا رجله إلى منهى عنه ليكمل له صومه، فكلما حفظ المسلم جوارحه عن العبث، وعن كل ما حرم الله نال بذلك أعالى الدرجات، فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «**اضمنوا لى ستًا من أنفسكم، أضمن لكم الجنة: اصدقوا إذا حدثتم، وأوفوا إذا عاهدتم، وأدوا إذا ائتمنتم، واحفظوا فروجكم، وغضوا أبصاركم، وكفوا أيديكم**»[١]

يقول ابن الجوزى:

ينبغى لمن أصبح صائمًا أن يقول للسانه: إنك اليوم صائم عن الكذب، والنميمة، وقول الزور، والباطل والغيبة، ولعينيه: إنكما اليوم صائمتان عن النظر إلى ما لا يحل لكما، وللأذنين: إنكما اليوم صائمتان من الاستماع إلى ما يكره ربكما، ولليدين: إنكما اليوم صائمتان من البطش فيما حرم الله عليكما من الغش فى البيع والشراء، والأخذ والعطاء، وللبطن: إنك اليوم صائمة عن المطعم فانظرى على ماذا تفطرى؟ وتجنبى المطعم الخبيث الذى تدعين إليه، فإن الله طيب، ولا يقبل إلا الطيب، وللقدمين: إنكما اليوم صائمتان من السعى إلى ما يكتب عليكما من الوزر[٢]

•صوم التطوع•

ولقد رغب الرسول ﷺ فى صوم التطوع، فقال: «**من صام يومًا فى سبيل الله، باعد الله منه جهنم مسيرة مائة عام**»[٣].

وفى رواية أخرى: «**من صام يومًا فى سبيل الله جعل الله بينه وبين النار خندقًا كما بين السماء والأرض**»[٤] وكما ورد ما بين الأرض التى نعيش عليها وبين السماء الأولى خمسمائة عام، فأى ثواب أعظم من أن يباعد بينك وبين النار مسيرة خمسمائة عام؟ إن عطاء الله واسع، بل إن عطاءه سبحانه ليس له حد. والأحاديث فى ذلك كثيرة وصوم التطوع ينقسم إلى قسمين:

١- **القسم الأول**: مطلق: وقد أثنى الله تعالى على الصائمين فى سورة الأحزاب، فقال سبحانه: ﴿**وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا**﴾ [الأحزاب: ٣٥].

---

(١) رواه أحمد فى مسنده (٢٦٥٦) وذكره الألبانى فى ص.ج (١٠١٨).

(٢) بستان الواعظين ورياض السامعين لابن الجوزى ص٢٤٥

(٣) رواه النسائى وحسنه الألبانى فى ص.ج برقم (٦٣٣).

(٤) رواه الترمذى وصححه الألبانى فى ص.ج برقم (٦٣٣٣)

٢- **القسم الثانى:** مقيد بزمن، وهو على ضربين:

(أ) معين: وهو نوعان:

النوع الأول صوم أشهر معينة وتشمل: شهر الله المحرم، شهر شعبان، شهر شوال، شهر رجب، الأشهر الحرم.

النوع الثانى: صوم أيام من هذه الأشهر وتشمل: صوم عشر ذى الحجة، صوم يوم عرفة، صوم يوم عاشوراء، وصوم يوم الاثنين والخميس، وصوم الأيام البيض.

(ب) مبهم: وتشمل، صوم يوم وإفطار يوم، وصوم ثلاثة أيام من كل شهر.

١- صوم شهر الله المحرم:

ويستحب صوم شهر الله المحرم لأحاديث منها:

عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل**»[١]

وقال الحسن: إنّ الله افتتح السنة بشهر حرام، وختمها بشهر حرام، فليس شهر فى السنة بعد شهر رمضان أعظم عند الله من المحرم، وكان يسمى شهر الله الأصم، من شدة تحريمه[٢]، ثم يقول ابن رجب[٣]:

وأفضل شهر الله المحرم عُشره الأول، وقال أبو عثمان النهدى: كانوا يعظمون ثلاث عشرات: العشر الأخير من رمضان، والعشر الأول من ذى الحجة، والعشر الأول من المحرم ولما كانت الأشهر الحرم أفضل الأشهر بعد رمضان أو مطلقًا، وكان صيامها كلها مندوبًا إليه، كما أمر به النبى ﷺ، وكان بعضها ختام السنة الهلالية، وبعضها مفتاحًا لها، فمن صام شهر ذى الحجة سوى الأيام المحرم صيامها منه، وصام المحرم، فقد ختم السنة بالطاعة، وافتتحها بالطاعة، فيرجى أن تكتب له سنته كلها طاعة، فإن من كان أول عمله طاعة، وآخره طاعة فهو فى حكم من استغرق بالطاعة ما بين العملين، وفى حديث مرفوع: «**ما من حَافظَيْن يرفعان إلى الله صحيفة فيرى فى أولها وفى آخرها خيرًا إلا قال الله لملائكته: أشهدكم أنّى قد غفرت لعبدى ما بين طرفيها**»[٤]

وقال ابن المبارك: من ختم نهاره بذكر الله كتب نهاره كله ذكرًا.

يشير إلى أن الأعمال بالخواتيم. وقد سمى النبى ﷺ شهر المحرم «شهر الله»

---

(١) رواه مسلم (١١٦٣) وأحمد فى مسنده (٨٥١٥) وذكره الألبانى فى ص.ج (١١٢١).

(٢، ٣) لطائف المعارف لابن رجب الحنبلى باختصار وتصرف ص٧٩: ٨٢.

(٤) ذكره الهيثمى فى المجمع ١٠/٢٠٨ من حديث أنس بن مالك بلفظ مقارب، وقال: رواه البزار، وفيه تمام بن نجيح، وثقه ابن معين وغيره، وضعفه البخارى، وبقية رجاله رجال الصحيح.

وإضافته إلى الله تدل على شرفه وفضله، فإن الله تعالى لا يضيف إليه إلا خواص مخلوقاته.

ولما كان هذا الشهر مختصًا بإضافته إلى الله تعالى، وكان الصيام من بين الأعمال مضافًا إلى الله تعالى، فإنه له من بين الأعمال، فناسب أن يختص هذا الشهر بالصيام دون غيره.

شهر الله الحرام مبارك ميمون — والصوم فيه مضاعف مسنون
وثواب صائمه لوجه إلهه — في الخلد عند مليكه مخزون

٢- صوم شهر شعبان:

فيستحب صومه كله أو جله -أي معظمه- لأنه ﷺ كان يصومه، ويفضله مما جعل السيدة عائشة ﷺ، وأصحابه الكرام ﷺ، وعلى رأسهم أسامة بن زيد -الحب بن الحب- فيقول له في حديث طويل: «... **ولم أرك تصوم من الشهور ما تصوم من شعبان؟ قال: ذاك شهر يغفل الناس عنه بين رجب ورمضان، وهو شهر ترفع فيه الأعمال إلى الله رب العالمين، فأحب أن يرفع عملي وأنا صائم**»[(١)].

وعن عائشة ﷺ قالت: «كان أحب الشهور إلى رسول الله ﷺ أن يصومه شعبان، ثم يصله برمضان»[(٢)]

وفي رواية عن أم سلمة ﷺ: «أنه لم يكن يصوم من السنة شهرًا تامًا، إلا شعبان يصله برمضان»[(٣)]

والمراد: أن النبي ﷺ كان صيامه في شهر شعبان أكثر من صيامه فيما سواه.

وقيل: المراد أنه ﷺ كان يصوم من أوله تارة، ومن آخره تارة أخرى، ومن أثنائه طورًا، فلا يُخلي شيئًا منه من صيام، ولا يخص بعضه بصيام دون بعض. لذلك فإن هذه الأحاديث لا تعارض بينها وبين ما روى أنه ﷺ ما كان يصوم شهرًا كاملاً سوى رمضان، لأنه ﷺ لما كان يصوم غالب شهر شعبان فصار كأنه يصومه كله، فقد ورد:

أن عبد الله بن شقيق قال: سألت عائشة ﷺ عن صوم رسول الله ﷺ، فقالت: ما علمته صام شهرًا حتى يفطر منه، ولا أفطر حتى يصوم منه، حتى مضى لسبيله»[(٤)] وفي رواية: «ما صام رسول الله شهرًا كاملاً منذ قدم المدينة إلا رمضان»[(٥)]

---

(١) رواه أحمد في مسنده والنسائي وحسنه الألباني في ص.ج رقم (٣٧١١).

(٢) رواه أحمد في مسنده بإسناد صححه حمزة الزين (٢٥٤٢٥) جـ١٧/ ٦٢٣

(٣) رواه أبو داود وصححه الألباني برقم (٢٣٦٦) في صحيح سنن أبي داود جـ٢/ ٥٣ .

(٤) رواه مسلم (١١٥٦) والنسائي (٢٣٤٩) وأحمد (٢٤٢١٥) جـ١٧/ ٣٠١.

(٥) رواه أحمد في مسنده بإسناد صحيح (٢٥١١٣) ١٧/ ٥٤٨ .

وعن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «ما صام رسول الله ﷺ شهرًا كاملاً قط غير رمضان، وإن كان ليصوم إذا صام حتى يقول القائل: والله لا يفطر، وإن كان ليفطر إذا أفطر حتى يقول القائل والله لا يصوم»[١].

ولا ينافى ما ورد هنا أن الرسول ﷺ قال: «وهو شهر ترفع فيه الأعمال إلى الله رب العالمين» وبين ما ورد أنها ترفع يوم الاثنين والخميس كما سيأتى لجواز رفع أعمال الأسبوع مفصلة فى هذين اليومين، ورفع أعمال العام مجملة فى شهر شعبان.

حكم صوم يومين فى آخر شعبان:

وصوم يوم أو يومين قبل رمضان منهى عنه، قال رسول الله ﷺ: «**لا تقدموا شهر رمضان بصوم قبله بيوم ولا بيومين إلا أن يكون رجل كان يصوم صومًا فليصمه**»[٢] وفى رواية: «**لاتقدموا الشهر بيوم ولا بيومين، إلا أن يوافق ذلك صومًا كان يصومه أحدكم**»[٣].

وعلى هذا فيجوز صوم يوم أو يومين إذا لم يقصد الاحتياط لشهر رمضان، أما إذا قصد الاحتياط لصوم رمضان فلا يجوز. وكذلك لو كان من عادته أن يصوم شعبان فلا بأس، لكن إذا لم يكن من عادته الصيام فى شعبان فلا يجوز، وذلك لحديث عمران بن حصين رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال لرجل: «**هل صمت من سرر هذا الشهر شيئًا؟ يعنى شعبان. قال: لا. قال: فإذا أفطرت فصم يومين**»[٤].

قال ابن حجر: «السرر بفتح السين المهملة ويجوز كسرها وضمها جمع سرة، ويقال: سرار بفتح أوله وكسره، ورجح الفراء الفتح، وهو من الاستسرار، قال أبو عبيد والجمهور: المراد بالسرر هنا آخر الشهر، سميت بذلك لاستسرار القمر فيها، وهى ليلة ثمان وعشرين وتسع وعشرين وثلاثين..»[٥].

والرجل الذى قال له الرسول ﷺ ذلك، كان معتاد الصيام آخر الشهر أو لنذره، فتركه خوفًا من أن يدخل فى النهى المتقدم، فبين له النبى ﷺ أن الصوم المعتاد لا يدخل فى النهى، وإنما جاء النهى للذى لم يتعود صيام شىء من شعبان.

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأحمد فى مسنده (١٩٩٨) ٢/ ٤٧٩.
(٢) رواه البخارى وأحمد فى مسنده (١٠١٣٧) وهو فى ص.ج للألبانى (٧٣٩٢).
(٣) رواه الترمذى وأحمد (٩٦١٨) وصححه الألبانى فى ص.ج (٧٣٩٣).
(٤) رواه أحمد فى مسنده (١٩٨٦٣) بإسناد صحيح جـ١٥/ ٩١
(٥) فتح البارى ٤/ ٢٧١

٣- صوم الأشهر الحرم:

وسميت بذلك لحرمتها، وحرمة القتال فيها، فى الجاهلية، وصدر الإسلام، وهى أربعة: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب، قال سبحانه: ﴿**إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ**﴾ [التوبة: ٣٦] وقد ثبت تفصيل هذه الأربعة فى السنة النبوية المطهرة كما فى حديث أبى بكر ﷺ أن النبى ﷺ قال: «**إنَّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والأرض السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم، ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان**»[١]

قال ابن رجب:

قد كان بعض السلف يصوم الأشهر الحرم كلها، منهم ابن عمر والحسن البصرى، وأبو إسحاق السبيعى، وقال الثورى: الأشهر الحرم أحبّ أن أصوم فيها[٢].

جاء فى كفاية الأخيار:

وأفضل الأشهر للصوم بعد رمضان الأشهر الحرم[٣].

٤- صوم شهر رجب:

جاء فى الدين الخالص:

لم يثبت من طريق صحيح فى صوم رجب نهى ولا ندب إلا:

(أ) ما ورد فى الترغيب فى صوم الأشهر الحرم وهو منها.

(ب) وما ورد فى صوم الاثنين والخميس وثلاثة أيام من كل شهر، وصوم أيام البيض، وصوم داود.

(جـ) وما ورد فى مطلق التطوع[٤]

وقال ابن رجب الحنبلى:

وأما الصيام فلم يصح فى فضل صوم رجب بخصوصه شيء عن النبى ﷺ ولا عن أصحابه، ولكن روى عن أبى قلابة قال: فى الجنة قصر لصوام رجب.

قال البيهقى: أبو قلابة من كبار التابعين لا يقول مثله إلا عن بلاغ[٥]

٥- صوم شهر شوال:

وأما صوم شوال فالوارد الصحيح أنه يستحب صيام ستة أيام منه فقط، لأحاديث منها: ما رواه أبو أيوب الأنصارى وجابر بن عبد الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) رواه البخارى ومسلم.
(٢) لطائف المعارف ص٢٢٩
(٣) كفاية الأخيار ص٣٢٩.
(٤) الدين الخالص ٨/ ٤٢٥.
(٥) لطائف المعارف ص٢٢٨

«**من صام رمضان وأتبعه ستًّا من شوال كان كصوم الدهر**»[١] وفى رواية: «**من صام رمضان ثم أتبعه ستًّا من شوال كان كصيام الدهر**» وفى رواية: «**من صام رمضان وستًّا من شوال فكأنما صام السنة كلها**» وجاء تفصيل هذا الحديث فى حديث آخر: «**صيام شهر رمضان بعشرة أشهر، وصيام ستة أيام بعده بشهرين، فذلك صيام السنة**»[٢]

«**جعل الله الحسنة بعشر أمثالها، الشهر بعشرة أشهر، وصيام ستة أيام بعد الشهر تمام السنة**»[٣].

أما ما ورد عن صومه بأكمله: «**من صام رمضان وشوالاً والأربعاء والخميس والجمعة دخل الجنة**» فقد ضعفه العلماء، فأورده الألبانى فى ضعيف الجامع برقم ٥٦٦٠٢ وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد٣/ ١٩٠ وقال: رواه أحمد وفيه من لم يسم، وبقية رجاله ثقات. وقال الشيخ حمزة الزين فى تحقيق مسند الإمام أحمد فى الحديث رقم (١٥٣٧٢) جـ١٢/ ١٧٥ إسناده ضعيف لجهالة الراوى عن الصحابى.

وقد انقسم الفقهاء فى حكم صيام ستة أيام من شوال إلى فريقين: فريق كرهها وفريق استحبوا صيامها، فأما الذين كرهوا صيامها فجماعة من الفقهاء منهم الثورى وأبو حنيفة، وأبو يوسف، وعللوا ذلك بمشابهة أهل الكتاب، يقصدون الزيادة فى صومهم المفروض عليهم، وقد روى عن مالك أنه كرهها، وقيل: إنه كان يصومها، وإنما كرهها على وجه يخشى منه أن يعتقد فرضيتها. ولئلا يزاد فى رمضان ما ليس منه، وأما الذين استحبوا صيامها، فاختلفوا فى صفة صيامها على ثلاثة أقوال:

أحدها: يستحب صيامها من أول الشهر متابعة، وهو قول الشافعى وابن المبارك.

والثانى: لا فرق بين أن يتابعها أو يفرقها من الشهر كله، وهما سواء، وهو قول وكيع وأحمد.

والثالث: أنه لا يصام عقيب يوم الفطر، فإنها أيام أكل وشرب، ولكن يصام ثلاثة أيام قبل أيام البيض أو بعدها، وهو قول معمر وعبد الرزاق[٤]

٢- صوم الأيام

١- صوم يوم عرفة:

ويوم عرفة هو اليوم التاسع من شهر ذى الحجة، وصومه سنة مؤكدة على الاستحباب لمن ليس واقفًا بعرفة، وذلك لأحاديث منها: عن أبى قتادة ﷺ أن النبى ﷺ قال: «**صوم يوم عرفة يكفر سنتين سنة ماضية ومستقبلة**»[٥]

---

(١) رواه مسلم (١١٦٤) والترمذى (٧٥٩) وقال حسن صحيح.
(٢) رواه أحمد فى مسنده (٢٢٣١١) وابن ماجه (١٧١٦) وابن حبان فى صحيحه (٩٢٨) وهو صحيح.
(٣) ذكره الألبانى فى ص.ج (٣٠٩٤).
(٤) لطائف المعارف ص٣٩٠، ٣٩١ باختصار وتصرف.
(٥) رواه أحمد (٢٢٥١٥) بإسناد صحيح ومسلم فى صحيحه وابن حبان.

وعنه أيضًا: «**من صام يوم عرفة غفر الله له سنتين: سنة أمامه، وسنة خلفه**»[١]

ومعناه: أن صيام يوم عرفة يكفر ذنوب السنة الماضية، ويحول بين صائمه وبين الذنب فى السنة الآتية، والمكفَّر من الذنوب هى الذنوب الصغائر لا الكبائر عند جمهور أهل العلم، لأن الكبائر لا يكفرها إلا أمرين: ١- التوبة النصوح - ٢- أن يعفو عنه رب العالمين جل وعلا، فإن لم يكن له صغائر خفف الله عنه الكبائر وإن لم يكن له، رفع بذلك درجته.

قال أهل العلم: إن الحكمة من كون يوم عرفة مكفراً لذنوب عامين أمور منها:

١-أنه من خصوصيات أمة الحبيب المصطفى.

٢- أنه من شهر حرام توسط بين شهرى حرام من عامين، فناسب أن يكفر العامين.

أما من كان واقفًا بعرفة فلا يستحب له الصيام، لأنه يضعفه عن الدعاء والذكر وسائر الأعمال المطلوبة منه فى هذا اليوم، كما أنه يوم عيد لأهل الموقف لاجتماعهم فيه.

فعن عكرمة قال: دخلت على أبى هريرة فى بيته فسألته عن صوم يوم عرفة بعرفات فقال أبو هريرة: نهى رسول الله ﷺ عن صوم يوم عرفة بعرفات[٢]

وقد اختلف بعض الصحابة يوم حجة الوداع، هل رسول الله صائم أم لا؟ فأرسلت إليه أم الفضل بنت الحارث بقدح فيه لبن، وهو واقف على بعيره، فشرب[٣].

٢- صوم تسع ذى الحجة:

يستحب صيام تسعة أيام من بداية شهر ذى الحجة، لحديث هنيدة بن خالد عن امرأته عن بعض أزواج النبى ﷺ قالت: «كان رسول الله ﷺ يصوم تسع ذى الحجة، ويوم عاشوراء، وثلاثة أيام من كل شهر، أو اثنين من الشهر والخميس»[٤].

ولا يعارضه حديث عائشة ﵂ قالت: «ما رأيت رسول الله ﷺ صائمًا العشر قط»[٥]

---

(١) رواه ابن ماجه وذكره الألبانى فى ص.ج (٦٣٣٥).

(٢) رواه الحاكم وصححه ١/ ٤٣٤ ووافقه الذهبى ورواه ابن ماجه (١٧٣٢) ورواه أحمد فى مسنده بإسناد صحيح (٩٧٢٢) جـ٩/ ٣٠٣.

(٣) رواه أبو داود بسند صححه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود (٢٤٤١) جـ٢/ ٧٩.

(٤) رواه أحمد فى مسنده (٢٦٣٤٨) جـ١٨/ ٢٣٢ بإسناد صحيح ورواه أبو داود، باب: فى صوم العشر وصححه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود برقم (٢٤٣٧ جـ٢/ ٧٨).

(٥) رواه أبو داود فى سننه وصححه الألبانى (٢٤٣٩) جـ٢/ ٧٩ باب فى فطر العشر وأحمد فى (٢٤ ٢٩)

لأن عائشة رضي الله عنها قد أخبرت بأنها لم تره صائمًا، ولا يلزم من نفى رؤيتها عدم صيامه فى الواقع، وقد ثبت أنه كان يصوم تسع ذى الحجة والمثبت مقدم على النافى، ويحتمل أنها أرادت أنه لم يصمها لعارض كمرض أو سفر، أو نحوه.

وقد ورد فى فضل صيامها والعمل الصالح فيها أحاديث منها: عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبى ﷺ قال: «**ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله من هذه الأيام** -يعنى أيام العشر- قالوا: يا رسول الله ولا الجهاد فى سبيل الله؟ قال: **ولا الجهاد فى سبيل الله إلا رجلاً خرج بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشىء**»(١)

وعن جابر رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «**أفضل أيام الدنيا أيام العشر**»(٢).

وعنه أيضًا: «**ما من أيام أحب إلى الله وأفضل من أيام العشر، قيل: ولا مثلهن فى سبيل الله؟ قال: ولا مثلهن فى سبيل الله إلا رجل عفر جواده، وعفر وجهه**»(٣).

٣- صوم يوم عاشوراء:

وهو يوم العاشر من شهر الله المحرم، وهو يوم كانت تعظمه قريش فى الجاهلية فكانوا يصومونه، وكان النبى ﷺ يصومه قبل الهجرة، ولما هاجر صامه كذلك وأمر بصيامه، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان يوم عاشوراء يومًا تصومه قريش فى الجاهلية، وكان رسول الله ﷺ يصومه فى الجاهلية، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، صامه وأمر بصيامه، فلما فرض رمضان، كان هو الفريضة، وترك عاشوراء، فمن شاء صامه، ومن شاء تركه»(٤).

فقد كانت قريش تعظمه وتقوم بكسوة الكعبة فيه.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ما رأيت النبى ﷺ يتحرى صيام يوم فضّله على غيره إلا هذا اليوم يوم عاشوراء، وهذا الشهر -يعنى رمضان-»(٥)

وعنه أيضًا أن النبى ﷺ، لما قدم المدينة وجد اليهود صيامًا يوم عاشوراء، فقال لهم رسول الله ﷺ: «**ما هذا اليوم الذى تصومونه؟** فقالوا: هذا يوم عظيم أنجى الله فيه موسى وقومه، وغرق فرعون وقومه، فصامه موسى شكرًا لله، فنحن نصومه، فقال رسول الله ﷺ: **فنحن أحق بموسى منكم**» فصامه رسول الله ﷺ وأمر بصيامه(٦)

---

(١) رواه البخارى. (٢) رواه ابن حبان وحسنه الألبانى فى ص.ج (١١٣٣)

(٣) رواه ابن حبان والبزار وحسنه الهيثمى فى المجمع ٤/١٧

(٤) رواه البيهقى وأبو داود برقم (٢٤٤٢) وصححه الألبانى ٢/٧٩ والبخارى رقم (٢٠٠٢) ومسلم (١١٢٥). (٥) رواه البخارى (٢٠٠٦) ومسلم (١١٣٢) والنسائى

(٦) رواه البخارى ومسلم.

فكان قدوم النبى ﷺ إلى المدينة فى شهر ربيع الأول فى أول السنة الثانية للهجرة، وقد فرض الصيام فى نفس العام فى شهر شعبان، فلما نزل رمضان، قال ﷺ لأصحابه: **«هذا يوم من أيام الله فمن شاء صامه ومن شاء تركه»**[1] وفى رواية عن ابن عمر: **«فمن أحب منكم أن يصومه فليصمه، ومن كرهه فليدعه»**[2]

ولذلك قيل: إن صوم يوم عاشوراء كان فرضًا قبل رمضان، فلما شرع صوم رمضان نسخ من الفرضية إلى الاستحباب.

ولقد استمر الرسول ﷺ على صيامه بعد فرض الصوم فى رمضان استحبابًا حتى قال صحابة رسول الله ﷺ له: إنَّ هذا اليوم تعظمه اليهود، ونحن نحب مخالفتهم وعدم التشبه بهم، فأضاف إليه صوم تاسوعاء، أوصوم عاشوراء ويومًا بعده ففى صحيح مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: حين صام النبى ﷺ يوم عاشوراء وأمرنا بصيامه، قالوا: يا رسول الله ! إنه يوم تعظمه اليهود والنصارى؟ فقال رسول الله ﷺ: **«فإذا كان العام المقبل صمنا يوم التاسع»** فلم يأت العام المقبل، حتى توفى رسول الله ﷺ[3].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبى ﷺ قال: **«صوموا يوم عاشوراء، وخالفوا اليهود، صوموا قبله يومًا وبعده يومًا»**[4] وفى رواية **«أو بعده»** فأو إما أن تكون شكًّا من الراوى أو للتخيير، والراجح التاسع والعاشر أو العاشر والذى بعده.

وصوم يوم عاشوراء له ثواب عظيم فهو كما قال النبى ﷺ: **«صوم عاشوراء يكفر سنة ماضية»**[5] وقال: **«صيام عاشوراء إنى أحتسب على الله أن يكفر السنة التى قبله»**[6]. فهو موسم شرعى يستحب صيامه، وإحياؤه بالطاعة، والتوسعة على الأهل والأقارب والفقراء بلا تكلف.

قال ابن الحاج: يوم عاشوراء موسم شرعى والتوسعة فيه على الأهل واليتامى والمساكين والصدقة مندوب إليها بلا تكلف. ولم يكن السلف يعتادون فيه طعامًا مخصوصًا، بل كان بعضهم يترك التوسعة فيه قصدًا نلتنبيه على أنها غير واجبة. أما ما يفهمه الناس أن عاشوراء يختص بذبح الدجاج وغيره، وطبخ الحبوب وغيرها، فلم يكن السلف يفعلون ذلك فى هذه المواسم، ولا يعرفون تعظيمها إلا بكثرة العبادة، والصدقة والخير[7]

---

(١) رواه أبو داود وصححه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود (٢٤٤٣) جـ٢/٧٩، ٨٠.

(٢) رواه ابن ماجه وذكره الألبانى فى ص.ج (٤٤٥٧).

(٣) رواه مسلم (١١٣٤) وأبو داود (٢٤٤٥) جـ٢/ ٨٠.

(٤) رواه أحمد فى مسنده (٢١٥٤) جـ٢/ ٥٤٦، ٥٤٧ بإسناد حسنه الشيخ أحمد شاكر.

(٥) رواه أحمد (٢٢٤٣٤) ومسلم.

(٦) رواه مسلم والترمذى وقد سبق تخريجه.

(٧) المدخل لابن الحاج ٢/ ٢٨٩

٤- يوم الاثنين والخميس:

فقد ورد أن النبى ﷺ كان يحب أن يصومهما، تقول السيدة عائشة ﵂: كان النبى ﷺ يتحرى صيام الاثنين والخميس»[١].

ولما سئل عن سبب هذا التحرى، وتلك المحافظة على صوم هذين اليومين قال: **«ذاك يوم ولدت فيه، ويوم بعثت، أو أُنزل علىَّ فيه»**[٢] وفى مرة أخرى يقول: **«إن الأعمال ترفع يوم الاثنين والخميس، فأحب أن يرفع عملى وأنا صائم»**[٣] وفى رواية أخرى: **«الأعمال تعرض كل اثنين وخميس، فيغفر لكل مسلم إلا المتهاجرين، فيقول: أخروهما»**[٤].

٥- صوم أيام البيض:

وهى أيام الليالى المقمرة التى يكون فيها القمر من أول الليل إلى آخره، وهى أيام الثالث عشر، والرابع عشر، والخامس عشر.

وليس فى الشهر أبيض كامل سوى هذه الأيام لأن ليلها أبيض ونهارها أبيض وتخصيص هذه الأيام بالصيام، لأن الكسوف غالبًا يقع فيها، وقد ورد الأمر بمزيد من العبادة والتضرع إلى الله تعالى فى هذه الحالة، فإذا صادف الكسوف صادف الذى يعتاد صيام البيض صائمًا، فيتهيأ له أن يجمع بين أنواع العبادات من الصيام والصلاة والصدقة، بخلاف من لم يصمها فإنه لا يتأتى له استدراك صيامها»[٥] وقد ورد تحديدها فى السنة المطهرة:

فعن ملحان القيسى، قال: كان رسول الله ﷺ يأمرنا أن نصوم البيض: ثلاث عشرة، وأربع عشرة، وخمس عشرة، قال: **«هن كهيئة الدهر»**[٦].

وقد أوصى الرسول ﷺ سيدنا أبا ذر بصيامها، فقال له: **«يا أبا ذر، إذا صمت من الشهر ثلاثة أيام، فصم ثلاث عشرة، وأربع عشرة، وخمس عشرة»**[٧]

وعنه أيضًا: **«إذا كنت صائمًا فعليك بالغر البيض: ثلاث عشرة، وأربع عشرة، وخمس عشرة»**[٨]

---

(١) ذكره الألبانى فى ص.ج (٤٨٩٧). (٢) رواه مسلم

(٣) رواه البيهقى فى الشعب وصححه الألبانى فى ص.ج (١٥٨٣).

(٤) رواه أحمد وذكره الألبانى فى ص.ج (٤٨٠٤).

(٥) فتح البارى لابن حجر ٤/ ٢٦٦، ٢٦٧ بتصرف.

(٦) رواه أبو داود وصححه الألبانى (٢٤٤٩) جـ٢/ ٨١ وأحمد فى مسنده (٢٦٣٦٠).

(٧) رواه أحمد فى مسنده (٢١٣٢٩) وذكره الألبانى فى ص.ج (٦٧٣).

(٨) رواه أحمد فى مسنده (٢١٢٣١) وابن حبان وصححه والبيهقى فى السنن وذكره الألبانى فى ص.ج رقم (١٤٣٥).

والأحاديث في ذلك كثيرة، وكلها تدل على استحباب صوم هذه الأيام.

٦- صوم ثلاثة أيام من كل شهر:

يستحب صيام ثلاثة أيام من كل شهر، فإنه كصيام الدهر، وقد ورد في ذلك أحاديث منها:

عن أبي ذر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**من صام ثلاثة أيام من كل شهر فقد صام الدهر كله**»[١].

وعن أبي قتادة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**ثلاث من كل شهر، ورمضان إلى رمضان، فهذا صيام الدهر كله**»[٢]

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: أوصاني حبيبي ﷺ بثلاثة لا أدعهن إن شاء الله تعالى أبدًا: أوصاني بصلاة الضحى، وبالوتر قبل النوم، وبصيام ثلاثة أيام من كل شهر[٣]

لكن أي الأيام كان النبي يصومها؟.

لقد وردت أحاديث تفيد بأن النبي ﷺ كان يصوم من غرة كل شهر ثلاثة أيام، ومنها: عن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ يصوم -يعني-: من غرة كل شهر ثلاثة أيام»[٤] ووردت أحاديث أخرى تدل على أنه لم يكن يحدد صيام هذه الأيام، فكان يصومها في أي وقت شاء من الشهر، فعن معاذة قالت قلت لعائشة: أكان رسول الله ﷺ يصوم من كل شهر ثلاثة أيام؟ قالت: نعم، قلت: من أي شهر كان يصوم؟ قالت: ما كان يبالي من أي أيام الشهر كان يصوم»[٥] وفي رواية عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يصوم ثلاثة أيام من كل شهر قيل: من أيّه؟ قالت: لم يكن يبالي من أيّه كان[٦].

لكن هل هذه الأيام الثلاثة هل نفس أيام البيض (الثالث عشر، والرابع عشر، والخامس عشر؟).

يقول ابن حجر: وفي كلام غير واحد من العلماء أيضًا أن استحباب صيام البيض غير استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر[٧].

وذكر الإمام النووي في شرح مسلم أنهم اختلفوا في تعيين هذه الثلاثة المستحبة من كل شهر، فبعضهم قال: ثلاثة من أوله، ومنهم من قال: بأنهم أيام البيض، ومنهم من قال:

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٢١٩٨) جـ ١٥/ ٤٨٢ بإسناد صحيح.

(٢) رواه مسلم. (٣) رواه البخاري ومسلم نحوه ورواه أحمد في مسنده (٧١٣٨).

(٤) رواه أبو داود وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢٤٥٠) جـ٢/ ٨١.

(٥) رواه أبو داود وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢٤٥٣) جـ٢/ ٨٢.

(٦) رواه أحمد في مسنده، وابن ماجه وهو صحيح على شرط الشيخين.

(٧) فتح الباري ٤/ ٢٦٧

أول يوم من الشهر، والعاشر، والعشرين، ومنهم من قال بخلاف ذلك، وكلهم خير، فافعل أخي المسلم ما تستطيع، ولا تشق على نفسك، ولا تحمل نفسك ما لا تطيق: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

وكما قال النبي ﷺ لعثمان بن مظعون: **«فاتق الله يا عثمان، فإن لأهلك عليك حقًّا، ولضيفك عليك حقًّا، وإن لنفسك عليك حقًّا، فصم وأفطر وصل ونم»**[(١)].

٧- صوم يوم وإفطار يوم:

وهو صيام داود عليه السلام، وهو أحب الصوم إلى الله وأفضله، لما فيه من مشقة على النفس، لأن صاحبه لا يعتاد الصيام ولا الفطر، وفاعله يستطيع أن يؤدى حق نفسه، وأهله، يوم فطره، خلافا لمن يتابع الصوم، فإنه لايستطيع أن يقوم بهذه الحقوق، ومما دل على أنه أفضل الصيام وأحبه أحاديث منها:

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال لى رسول الله ﷺ: **«أحب الصيام إلى الله صيام داود، كان يصوم يومًا ويفطر يومًا، وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه»**[(٢)]

وكانت هذه التجزئة أحب إلى الله تعالى، لأنه أخذ بالرفق على النفوس التى يخشى منها السآمة المؤدية إلى ترك العبادة، والله تعالى يحب أن يولى فضله، ويديم إحسانه وإنما كان ذلك أرفق، لأن النوم بعد القيام يريح البدن، ويذهب ضرر السهر، وذبول الجسم بخلاف السهر إلى الصباح.

قال ابن المنير: كان داود عليه السلام يقسم ليله ونهاره لحق ربه، وحق نفسه، فأما الليل فاستقام له فيه ذلك فى كل ليلة، وأما النهار: فلما تعذر عليه أن يجزئه بالصيام لأنه لا يتبعض جعل عوضًا من ذلك أن يصوم يومًا، ويفطر يومًا، فينزل ذلك منزلة التجزئة فى شخص اليوم[(٣)]

وعن ابن عمرو أيضًا: **«أفضل الصوم صوم أخى داود، كان يصوم يومًا، ويفطر يومًا، ولا يفر إذا لاقى»**[(٤)] وكان سيدنا داود عليه السلام بهذه الطريقة من العبادة، وبهذا التقسيم كان أعبد البشر، يقول النبى ﷺ كما روى عنه سيدنا أبو الدرداء رضي الله عنه: **«كان داود عليه السلام أعبد البشر»**[(٥)] وفى رواية لمسلم: **«فصم صوم داود نبى الله عليه السلام، فإنه كان أعبد الناس»**.

---

(١) رواه أبو داود وغيره، وذكره الألبانى فى ص.ج (٧٩٤٦).

(٢) رواه البخارى ومسلم وأحمد فى مسنده (٦٤٩١) ٦/ ٤٤، ٤٥ وأبو داود وصححه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود (٢٤٤٨) جـ٢/ ٨١.

(٣) فتح البارى وفتح المبدى للشرقاوى.

(٤) رواه الترمذى وهو فى ص.ج للألبانى (١١٢).

(٥) رواه الترمذى وهو فى ص.ج للألبانى (٤٤٥٣) وحسنه.

هل كان من أمة محمد ﷺ من صام صيام داود عليه السلام ؟.

نعم فالخير في رسولنا محمد ﷺ، وفى أمته إلى يوم القيامة، فقد كان الكثير من السلف الصالح رضوان الله عليهم يصومون صوم داود عليه السلام فيصومون يومًا ويفطرون يومًا آخر، وقد نقل الإمام أبو نعيم فى الحلية أخبارًا عن الكثير منهم، وكذلك الإمام الذهبى فى سير أعلام النبلاء، وابن الجوزى فى صفة الصفوة، فهيا بنا لنقف على أخبار صومهم، ونرى هل صاموا مثل صيام سيدنا داود عليه السلام أم لا؟.

١- عبد الله بن عون:

قال بكار بن محمد: كان ابن عون يصوم يومًا ويفطر يومًا[١].

٢- سليمان بن طرخان:

فعن محمد بن الأعلى قال: قال لى معتمر بن سليمان: لولا أنك من أهلى ما حدثتك بهذا عن أبى، مكث أبى أربعين سنة يصوم يومًا ويفطر يومًا ويصلى صلاة الفجر بوضوء العشاء[٢].

٣- إبراهيم النخعى:

حدثت عنه زوجته فقالت: إنّ إبراهيم كان يصوم يومًا ويفطر يومًا[٣].

٤- سليمان بن يسار:

كان يصوم الدهر، وكان أخوه عطاء يصوم يومًا ويفطر يومًا[٤].

٥- العماد المقدسى:

قال الضياء: لم أر أحدًا أحسن صلاة منه، ولا أتم خشوع وخضوع، وكان يسبح عشرًا يتأنى فيها، وكان يصوم يومًا ويفطر يومًا، وكان إذا دعا كان القلب يشهد بإجابة دعائه من كثرة ابتهاله وإخلاصه[٥]

٦- ابن أبى ذئب:

قال أخوه: كان أخى يصوم يومًا ويفطر يومًا ثم سرد الصوم، وكان شديد الحال يتعشى الخبز والزيت[٦]

•موعظة•

أخا الإسلام:

أرأيت هؤلاء الرجال الذين قاموا الليل، وصاموا النهار؟ إنهم يخافون يومًا تتقلب فيه القلوب والأبصار.

---

(١) حلية الأولياء لأبى نعيم الأصفهانى ٣/ ٤ دار الكتب العلمية بيروت.

(٢) الحلية ٣/ ٢٨ وصفة الصفوة ٣/ ١٧٢ السير ٦/ ١٩٧

(٣) الحلية ٤/ ٢٢٤ وصفة الصفوة ٣/ ٤٢.

(٤) صفة الصفوة ٢/ ٤٨.

(٥) السير ٢٢/ ٤٨، ٤٩

(٦) السير ٧/ ١٤١

رجال المساجد مأواهم، والله جل جلاله معبودهم ومولاهم، تركوا المعاصي خوفًا من الحساب، وبادروا إلى الطاعة وحسن الأعمال.

رجال ركبوا فلك السلامة، وجروا بريح الاستقامة، فقطعوا بحار العطب والندامة، ونجوا من الأهوال يوم القيامة.

رجال صحبوا القرآن بحسن العمل، ولم يغتروا بطول الأمل، ونصبوا لأعينهم تقريب الأجل، فلو رأيتهم لرأيت قومًا يتلون كتاب الله بشفاة ذابلة، ودموع وابلة، وزفرات قاتلة، وأجسام ناحلة، وعقول زائلة، وخواطر في عظمته جل جلاله حائلة.

لله قوم شروا لله أنفسهم ... فأتعبوها بذكر الله أزمانًا
أما النهار فقد وافوا صيامهم ... وفى الظلام تراهم فيه رهبانًا
أبداتهم أتعبت فى الله أنفسهم ... وأنفس أتعبت فى الله أبدانًا
ذابت لحومهم خوف العذاب غداً ... وقطعوا الليل تسبيحًا وقرآنًا

رجال إذا نظروا اعتبروا، وإذا سكتوا تفكروا، وإذا ابتلوا استرجعوا، وإذا جهل عليهم حلموا، وإذا علموا تواضعوا، وإذا سئلوا بذلوا، قد عملوا بالسنة والكتاب، ونطقوا بالحكمة والصواب، وحاسبوا أنفسهم قبل الحساب، وخافوا من عقوبة رب الأرباب.

لله قوم لدار الخلد أخلصهم ... وخصهم بجزيل الملك مولانا
فلو تراهم غداً فى دار ملكهم ... قد توجوا من حلى الكون تيجانا
وقد دعاهم إلى الفردوس سيدهم ... إلى الزيارة والتسليم ركبانًا

فكن كهؤلاء الرجال، تفز كما فازوا بالجنة والنعيم، ورؤية وجه الله الكريم. اللهم اجعلنا من الفائزين يوم الدين، واجعلنا يا ربنا من الذين يشربون من حوض نبينا الأمين، واحشرنا معه بفضلك وكرمك يا رب العالمين، واغفر لنا ولجميع المسلمين.

الوصية رقم (٤٤)
صوموا لرؤيته

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر الله له ما تقدم من ذنبه»**(١)

وعنه أيضًا: **«صوموا لرؤيته، وأفطِروا لرؤيته فإن غم عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين»**(٢)

صدق رسول الله ﷺ

---

(١) رواه البخاري ومسلم (٧٥٩) وأبو داود وصححه الألباني (١٣٧٢) ١/ ٣٧٨ والترمذي (٨٠٨) وقال: حسن صحيح وأحمد في مسنده (٩٢٥٩) والنسائي (١٦٠٢).

(٢) رواه البخاري ومسلم والترمذي وقال حسن صحيح ورواه أحمد في مسنده (١٩٨٥).

• في رحاب هذه الوصية •

أخي الحبيب:

وها هو المحدث العظيم، الذى تخرج فى جامعة الرسول ﷺ، من كلية أصول الدين، قسم الحديث، يضع بين أيدينا وصية من وصاياه ﷺ الحكيمة، إنه أبو هريرة رضي الله عنه ووصيته التى جاءنا بها، وصية عن صيام رمضان.

وينوع لنا الصحابى الجليل فى أسلوب الوصية، فمرة ينقل لنا وصيته ﷺ التى قد تضمنت الحث على صيام رمضان بأسلوب الشرط والجزاء، فيقول ﷺ: **«من صام رمضان»** لكن ما صفة هذا الصيام؟ يقول: **«إيمانًا واحتسابًا» أى مصدقًا بما ورد فيه من الثواب**، محتسبًا قاصدًا به وجه الله تعالى. ما جزاؤه؟ **«غفر له ما تقدم من ذنبه»** ومرة أخرى يورد لنا الوصية بأسلوب الأمر، فيقول: **«صوموا لرؤيته» أى لرؤية هلال رمضان،** ذلكم الشهر الذى تسكب فيه العبرات لتغسل أدران المعاصى والموبقات **هو الشهر الذى تلين فيه قلوب** المؤمنين بالموعظة الحسنة، هو الشهر **الذى ترفع فيه أكف الضراعة بالليل** والنهار لتستقبل الرحمات الربانية، والفيوضات الإلهية، **شهر من أطاع فيه الملك الجبار،** واتبع فيه السنة والآثار، **غفر الله له ما قد سلف من الذنوب والأوزار، شهر أنزل الله فيه كتابه،** وفتح للتائبين فيه أبوابه، فلا دعاء فيه إلا **مسموع، ولا عمل إلا مرفوع، المساجد بذكر الله** فيه معمورة، وقلوب المؤمنين فيه مسرورة، **والرحمة من الله لملتمسها مبذولة.**

إنه شهر كالتاج على رأس الزمان، فزنوا أعمالكم فى هذا الشهر بميزان، واشتروا خلاصكم بما عز وهان، فإن عجزتم فسلوا المعين وقد أعان؛ ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥].

• فضائل الصوم •

الصوم كما يقول الإمام الغزالي:

(زكاة النفس، ورياضة الجسم، وداع للبر، فهو للإنسان وقاية، وللجماعة صيانة، في جوع الجسم صفاء القلب، وإيقاد القريحة، وإنفاذ البصيرة).

إنه أستاذ يعلم الرحمة، وينشر المحبة بين الناس.

يقول أحمد شوقي في وصف الصيام:

«الصوم حرمان مشروع، وتأديب بالجوع، وخشوع لله وخضوع، لكل فريضة حكمة، وهذا الحكم ظاهره العذاب، وباطنه الرحمة، يستثير الشفقة، ويحض على الصدقة، ويسنُّ خِلالَ البر، حتى إذا جاع من ألف الشبع، وعرف المترف أسباب المتع، عرف الحرمان كيف يقع، وألم الجوع إذا لذع..».

إن للصوم فضائل متعددة منها:

١- الصوم هو طريق المؤمنين إلى رضوان الله وجنته:

ويظهر ذلك جليًّا في حديث أبي أمامة رضي الله عنه قال: أنشأ رسول الله ﷺ جيشًا، فأتيته، فقلت: يا رسول الله، ادع الله لي بالشهادة، قال: **«اللهم سلمهم وغنمهم»** فغزونا، فسلمنا وغنمنا، حتى ذكر ذلك ثلاث مرات، قال: ثم أتيته، فقلت: يا رسول الله، إني أتيتك تترى ثلاث مرات، أسألك أن تدعو لي بالشهادة، فقلت: **«اللهم سلمهم وغنمهم»**، فسلمنا وغنمنا يا رسول الله، فمرني بعمل أدخل به الجنة، فقال ﷺ: **«عليك بالصيام فإنه لا مثل له»**[١]

قال: فكان أبو أمامة لا يرى في بيته الدخان نهارًا إلا إذا نزل به ضيف، فإذا رأوا الدخان، عرفوا أنه قد اعتراهم ضيف».

٢- أن الصوم كفارة للخطايا:

فعن حذيفة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«فتنة الرجل في أهله وماله ونفسه وولده وجاره، يكفرها الصيام، والصلاة، والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»**[٢].

وخص الرجل لأنه غالبًا صاحب الحكم في داره وأهله، وإلا فالنساء شقائق الرجال في الأحكام. (والمعنى): فتنته أي معاصيه ومخالفاته التي يرتكبها بالركون إلى شهواته وشيطانه، والحسنات تذهب السيئات، وخص هذه الأربع بالذات لأنهن أصول المكفرات

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٢٢٠٤٠) بإسناد صحيح والنسائي وابن حبان في صحيحه ورجاله ثقات.

(٢) رواه البخاري ومسلم وأحمد (٢٣٣٠٥) والترمذي.

فنبه بالصلاة والصيام على العبادة الفعلية، وبالصدقة على العبادة المالية، وعلى الأمر بالمعروف على العبادة القولية.

٣- الصوم وقاية من النار:

قال ﷺ: «**الصيام جنة وحصن حصين من النار**»[١]

وقال: «**الصيام جنة من عذاب الله**»[٢] ومعنى جنة: أى وقاية فى الدنيا من المعاصى وحفظ فى الآخرة من النار، بإذن الله الواحد القهار.

وفى رواية: «**من صام يومًا فى سبيل الله، باعد الله بذلك اليوم حر جهنم عن وجهه سبعين خريفًا**»[٣] أى سبعين سنة، فمن صام يومًا فى سبيل الله باعده الله حتى يكون بينه وبين النار مسيرة سبعين خريفًا، أو عجل الله له العقوبة هذا القدر، وخص الخريف بالذكر، لأنه وقت بلوغ الثمار، وحصول سعة العيش، وفى رواية بلفظ «زحزح»، «باعده».

٤- أن للصوم بابًا معينًا ينادى عليهم، وهو الريان:

فعن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ فى الجنة بابًا يقال له: الريان يدخل منه الصائمون يوم القيامة، لا يدخل منه أحد غيرهم، فإذا دخلوا أغلق، فلم يدخل منه أحد**»[٤]

٥- أن العبد إذا ختم له بصوم دخل الجنة مع السابقين الأولين:

فعن حذيفة رضي الله عنه قال: أسندت النبى ﷺ إلى صدرى، فقال: «**من قال لا إله إلا الله ختم له بها دخل الجنة، ومن صام يومًا ابتغاء وجه الله ختم له بها دخل الجنة، ومن تصدق بصدقة ابتغاء وجه الله ختم له بها دخل الجنة**»[٥]

وفى رواية: «**يا حذيفة، من ختم له بصيام يوم يريد به وجه الله عز وجل أدخله الله الجنة**» وعن أبى مالك الأشعرى رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «**إن فى الجنة غرفًا يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، قيل لمن؟ قال: لمن أطعم الطعام، وألان الكلام، وتابع الصيام، وصلى بالليل والناس نيام**»[٦]

---

(١) رواه أحمد فى مسنده (٩١٩٧) والبيهقى فى الشعب وحسنه الألبانى فى ص.ج رقم (٣٨٨٠).

(٢) رواه أحمد (١٦٢٢٦) وذكره الألبانى فى ص.ج رقم (٣٨٦٧).

(٣) رواه أحمد (٨٦٧٥) وابن ماجه والنسائى وصححه الألبانى فى ص.ج برقم (٦٣٢٩).

(٤) رواه البخارى ومسلم والترمذى.

(٥) رواه أحمد فى مسنده بسند لابأس به قاله المنذرى فى الترغيب وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب ١/ ٤١٢.

(٦) خرِّج فى موضع آخر.

٦- أن الصوم يشفع لصاحبه يوم القيامة:

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، يقول الصيام: أى ربى منعته الطعام والشهوة، فشفعنى فيه، ويقول القرآن: رب منعته النوم بالليل، فشفعنى فيه، فيشفعان للعبد»**(١).

٧- تشريف الصوام بإضافة الصوم لله عز وجل:

ولو لم يكن للصوام فضيلة ومنقبة سوى أن الصوم أضيف لله عز وجل تشريفًا لقدره وتعريفًا بعظيم فخره لكفى، فعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«قال الله عز وجل: كل عمل ابن آدم له، إلا الصوم، فإنه لى وأنا أجزى به، ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك»**(٢).

فقوله: **«إلا الصيام فإنه لى»** قال الإمام النووى -رحمه الله-: اختلف العلماء فى معناه مع كون جميع الطاعات لله: فقيل: سبب إضافته إلى الله تعالى، أنه لم يُعبد أحد غير الله تعالى به، فلم يعظم الكفار فى عصر من العصور معبودًا لهم بالصيام، وإن كانوا يعظمونه بصورة السجود والصدقة والذكر وغيره.

وقيل: لأن الصوم بعيد من الرياء لخفائه، بخلاف الصلاة والحج والغزو والصدقة وغيرها من العبادات الظاهرة. وقيل: لأنه ليس للصائم ولا لنفسه فيه حظ، بخلاف غيره من العبادات.

وقيل: لأن الاستغناء عن الطعام والشراب من صفات الله تعالى، فتقرب الصائم بها يتعلق بهذه الصفة، وإن كانت صفات الله تعالى لا يشبهها شىء.

وقيل: معنى (الصوم لى) أى أنا المنفرد بعلم مقدار ثوابه، أو تضعيف حسناته، وغيره من العبادات أظهر سبحانه وتعالى بعض مخلوقاته على مقدار ثوابها.

وقيل: أضيف إلى الله تعالى إضافة تشريف كقوله: ﴿نَاقَةَ اللَّهِ﴾ [الشمس: ١٣] مع أن العالم كله لله(٣)

٨- أن للصوام فرحتين، ورائحة أفواههم أطيب من ريح المسك:

فعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«قال الله عز وجل: كل عمل ابن آدم له إلا الصوم وأنا أجزى به، والصيام جنة، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يسخب، فإن سابه أحد أو قاتله، فليقل: إنى صائم، والذى نفس محمد بيده لخلوف فم**

---

(١) رواه أحمد فى مسنده (٦٦٢٦) بإسناد صحيح وصححه الألبانى فى ص.ج ٣٨٨٢

(٢) رواه البخارى ومسلم.

(٣) شرح صحيح مسلم بشرح النووى.

الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، وللصائم فرحتان يفرحهما: إذا أفطر فرح بفطره، وإذا لقى ربه فرح بصومه»[١].

قال المازرى فى معنى الحديث: هذا مجاز واستعارة، لأن استطابة الروائح من صفات الحيوان الذى له طبائع، تميل إلى شىء فتستطيبه، وتنفر من شىء فتستقذره، والله تعالى متقدس عن ذلك، لكن جرت عادتنا بتقريب الروائح الطيبة منا، فاستعير ذلك فى الصوم لتقريبه من الله.

وقال القاضى: وقيل: يجازيه الله به فى الآخرة، فتكون نكهته أطيب من ريح المسك، كما أن دم الشهيد يكون ريحه ريح المسك.

وقيل: يحصل لصاحبه من الثواب، أكثر مما يحصل لصاحب المسك فى مجالس الخير.

وقيل: رائحته عند ملائكة الله تعالى أطيب من رائحة المسك[٢].

٩- دعوة الصائم مستجابة:

فعن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: **«ثلاث دعوات مستجابات: دعوة الصائم، ودعوة المظلوم، ودعوة المسافر»**[٣]

١٠- أن الصوم شعار المؤمنين الأبرار:

عن أنس رضي الله عنه أن النبى قال: **«جعل الله صلاة قوم أبرار، يقومون الليل ويصومون النهار، ليسوا بأثمة ولا فجار»**[٤]

١١- أن الله أعلا منزلتهم وشرفهم بالصلاة عليهم من ملائكته الأطهار:

فعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبى ﷺ قال: **«إن الله وملائكته يصلون على المتسحرين»**[٥] ولا يتسحر إلا الصوام، فأعظم بها من منزلة، وأكرم بها من عبادة، تجعل رب العالمين، وملائكته الأطهار، يصلون -أى يدعون ويستغفرون- للصائمين.

• الجزاء من جنس العمل •

أخى الحبيب:

أترى ماذا يكون جزاء من قلصت شفاههم من شدة العطش؟!.

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأحمد وابن حبان والنسائى.

(٢) شرح صحيح مسلم.

(٣) رواه أحمد فى مسنده (١٠٧٥٠) وصححه الألبانى فى ص.ج رقم (٣٠٣٠).

(٤) ذكره الألبانى فى ص.ج برقم (٣٠٩٧).

(٥) رواه أبو نعيم فى الحلية ٨/ ٣٢ وابن حبان فى صحيحه، والطبرانى فى الأوسط، وحسنه الألبانى فى ص.ج (١٨٤٤).

ماذا يكون جزاء من تشققت أشداقهم من شدة الجوع فى الدنيا؟

ترى ماذا يكون جزاء من ضمرت بطونهم؟

إن الصائم يترك طعامه وشرابه وشهواته لا لأجل أحد سوى الله رب العالمين جل وعلا، إنها ساعات قليلة يعقبها حياة أبدية فى الدار الآخرة، تصوم شهراً واحداً فى العام، ولا تدرى كم تصوم، هل عامًا واحدًا ثم تفارق الحياة إلى حياة أخرى أبدية، إما منعمًا تكون، وإما شقيًا أو محرومًا هل يمر عليك رمضان عامين أم ثلاثة أم أكثر؟ لا تدرى ثم يكون لك من التكريم من رب العالمين فى الآخرة.

يقول ابن رجب:

إن كل شيء ناقص فى عرف الناس فى الدنيا، حتى إذا انتسب إلى طاعته سبحانه وتعالى وإلى رضاه فهو الكامل فى الحقيقة.

فخلوف أفواه الصائمين لهو أطيب من ريح المسك، عرى المحرمين لزيارة بيته أجمل من لباس الحلل، نوح المذنبين على أنفسهم من خشيته أفضل من تسبيح المدلين، انكسار المخبتين لعظمته هو الجبر، ذل الخائفين من سطوته هو العز، تهتك المحبين فى محبته أحسن من الستر، بذل النفوس للقتل فى سبيله هو الحياة، وجوع الصائمين لأجله هو الشبع، عطشهم فى طلب مرضاته هو الرى، نصب المجتهدين فى خدمته هو الراحة[١] فالصائم فى رمضان قد ترك طعامه وشرابه وشهوته فما جزاء ذلك عند الله؟.

ولقد قال النبى ﷺ لرجل من أهل البادية: «**إنك لن تدع شيئًا اتقاء الله عز وجل إلا أعطاك الله خيراً منه**»[٢] فماذ يعطى الصائم؟.

يعطى الصائم فى الجنة ما شاء الله من طعام وشراب ونساء، قال تعالى: **﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾** [الحاقة: ٢٤]قال مجاهد وغيره: نزلت فى الصائمين.

قال يعقوب بن يوسف الحنفى: بلغنى أن الله تعالى يقوم لأوليائه يوم القيامة:

يا أوليائى، طالما نظرت إليكم فى الدنيا وقد قلصت شفاهكم عن الأشربة، وغارت أعينكم، وجفت بطونكم، كونوا اليوم فى نعيمكم، وتعاطوا الكأس فيما بينكم، و**﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾** [٣]

وقال الحسن: تقول الحوراء لولى الله وهو متكئ معها على نهر العسل تعاطيه الكأس: إن الله نظر إليك فى يوم صائف بعيد ما بين الطرفين، وأنت فى ظمأ هاجرة من

(١) لطائف المعارف لابن رجب ص٣٠٣.

(٢) رواه أحمد فى مسنده بسند صحيح وانفرد به (٢٠٦١٧) جـ١٥/٣٠٦.

(٣) لطائف المعارف ص٢٩٦

شدة العطش، فباهى بك الملائكة، وقال: انظروا إلى عبدى ترك زوجته وشهوته ولذته وطعامه وشرابه من أجلى، رغبة فيما عندى، اشهدوا أنى قد غفرت له، فغفر لك يومئذ وزوجنيك»(١).

وفى حديث عبد الرحمن بن سمرة، عن النبى ﷺ فى منامه الطويل، قال: «**ورأيت رجلاً من أمتى يلهث عطشًا، كلما ورد حوضًا منع منه، فجاءه صيام رمضان، فسقاه، وأرواه**»(٢). وعن أنس موقوفًا: «**إنَّ لله مائدة لم تر مثلها عين، ولم تسمع أذن، ولا خطر على قلب بشر، لا يقعد عليها إلا الصائمون**».

وعن بعض السلف قال: بلغنا أنه يوضع للصوام مائدة يأكلون عليها، والناس فى الحساب، فيقولون: يا رب نحن نحاسب وهم يأكلون؟! فيقال لهم: إنهم طالما صاموا وأفطرتم، وقاموا ونمتم.

ورأى أحدهم بشر بن الحارث فى المنام وبين يديه مائدة وهو يأكل، ويقال له: كل يا من لم يأكل، واشرب يا من لم يشرب(٣)

فيا أخى الحبيب:

ألا من خاطب فى هذا الشهر إلى الرحمن؟! ألا من راغب فيما أعده الله للطائعين فى الجنان؟ ألا من طالب لما أُخبر به من النعيم المقيم، مع أنه ليس الخبر كالعيان؟!.

من يرد ملك الجنان	فليدع عنه التوانى
وليقم فى ظلمة الليل	إلى نور القرآن
وليصل صومًا بصوم	إنَّ هذا العيش فانى
إنما العيش جوار الله	فى دار الأمان

لكن ماذا عمن عطش نفسه فى يوم صائف وهو فى الصيام؟.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ بعث أبا موسى على سرية فى البحر، فبينما هم كذلك، قد رفعوا الشراع فى ليلة مظلمة، إذا هاتف فوقهم يهتف: ياأهل السفينة قفوا أخبركم بقضاء قضاه الله على نفسه، فقال أبو موسى: أخبرنا إن كنت مخبرًا، قال: إنَّ الله تعالى قضى على نفسه أنه من أعطش نفسه له فى يوم صائف، سقاه الله يوم العطش(٤)

---

(١) لطائف المعارف ص٢٩٦

(٢) جزء من حديث ذكره الهيثمى فى المجمع ٧/ ١٧٩ وقال: رواه الطبرانى بإسنادين كلاهما ضعيف وقد ذكره ابن القيم فى الوابل الصيب من الكلم الطيب ص١١٣ وقال: رواه الحافظ أبو موسى المدينى، وقال: حديث حسن جدًا، وكان شيخ الإسلام ابن تيمية يعظم شأنه.

(٣) صفة الصفوة لابن الجوزى جـ٢/ ٢٠٣

(٤) لطائف المعارف ص٥٥٢، وصفة الصفوة ١/ ٢٤٥

فكان أبو موسى يتوخى اليوم الشديد الحر الذى يكاد الإنسان ينسلخ فيه حراً فيصومه.

قال كعب الأحبار: إن الله تعالى قال لموسى عليه السلام: إنى آليت على نفسى أنه من عطش نفسه لى أن أرويه يوم القيامة.

وقال غيره: مكتوب فى التوراة، طوبى لمن جوع نفسه ليوم الشبع الأكبر، طوبى لمن عطش نفسه يوم الرى الأكبر.

ولقد كان الصالحون يعرفون ذلك، فقد نزل الحجاج بن يوسف الثقفى فى بعض أسفاره بماء بين مكة والمدينة، فدعا بغدائه، وبحثوا عن رجل يتناول معه الغداء، فلم يجدوا إلا أعرابيًّا فى الصحراء، فدعاه الحجاج، فقال له لقد دعانى من هو خير منك فأجبته، قال له: أتعرف من أنا؟ قال: نعم أنت الحجاج بن يوسف، لكن الله هو الذى دعانى إلى الصيام فصمت، فقال الحجاج: فى هذا الحر الشديد؟ قال: نعم، صمت ليوم أشد منه حرًّا، قال: أفطر اليوم، وصم غدًا، قال: إن ضمنت لى البقاء إلى غدٍ، قال: ليس ذلك إلىَّ، قال الأعرابى: فكيف تسألنى عاجلاً بآجل لا تقدر عليه؟!(١)

أخى الحبيب:

لكن ماذا عن تغيير رائحة أفواههم؟.

لقد ذكرنا حديث رسول الله ﷺ الذى يقول فيه: **«ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من رائحة المسك»**(٢) وقد روى الأصبهانى عن أنس مرفوعًا: **«يخرج الصائمون من قبورهم يعرفون بريح أفواههم، أفواههم أطيب من ريح المسك»**(٣)

وقال مكحول: يروح أهل الجنة برائحة، فيقولون: ربنا ما وجدنا ريحًا منذ دخلنا الجنة أطيب من هذه الريح، فيقال: هذه رائحة أفواه الصوام.

يقول ابن رجب:

وقد تفوح رائحة الصيام فى الدنيا، وتستنشق قبل الآخرة، وهو نوعان:

أحدهما: ما يدرك بالحواس الظاهرة.

فقد كان عبد الله بن غالب -رحمه الله- من الصوام المجتهدين، فلما دُفن كان يفوح من تراب قبره رائحة المسك، فرئى فى المنام، فسئل عن تلك الرائحة التى توجد من قبره، فقيل: تلك رائحة التلاوة والظمأ.

---

(١) لطائف المعارف ص٥٥٢.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) رواه الديلمى، وهو ضعيف وهو فى كنز العمال ٨/ ٢٣٦٤٤

الثانى: ما تستنشقه الأرواح والقلوب، فيوجب ذلك للصائمين المخلصين، المودة والمحبة فى قلوب المؤمنين(١)

وفى حديث الحارث الأشعرى، عن النبى ﷺ أن زكريا عليه السلام قال لبنى إسرائيل: **«آمركم بالصيام، فإن مثل ذلك كمثل رجل فى عصابة، معه صرة فيها مسك، فكلهم يعجبه ريحه، وإن ريح الصائم أطيب عند الله من ريح المسك»**(٢).

شهر الصيام لقد علوت مكرمًا ... وغدوت من بين الشهور معظَّما
يا صائمى رمضان هذا شهركم ... فيه أباحكم المهيمن مغنما
يا فوز من فيه أطاع إلهه ... متقربًا متجنبًا ما حرما
فالويل كل الويل للعاصى الذى ... فى شهره أكل الحرام وأجرما

• فضائل شهر رمضان •

لقد فاضل الله تعالى بين الأيام والليالى، والأشهر، ففضل الله تعالى شهر رمضان على سائر الشهور، وجعله لأفضل أمة أخرجت للناس، لأمة الإسلام، أمة الحبيب محمد ﷺ، شهر فرض الله صيام نهاره، وسن حبيبه محمد ﷺ قيامه، كما قال فى حديث عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الله عز وجل فرض صيام رمضان، وسننت قيامه، فمن صامه وقامه خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه»**(٣)

فقد حظى هذا الشهر الكريم بفضائل عظيمة ما حظى بها شهر غيره، فهو أفضل الشهور بالنسبة لأهل الإيمان، لأن فيه غنم لهم من الخيرات، وتكفير السيئات، وفيه نقمة على العصاة والفجار، بنص حديث النبى المختار، يقول أبو هريرة رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«أظلكم شهركم، هذا لمحلوف رسول الله ﷺ ما مر بالمؤمنين شهر خير لهم منه، ولا بالمنافقين شهر شر لهم منه، إن الله عز وجل ليكتب أجره ونوافله من قبل أن يدخله، ويكتب إصره وشقاءه من قبل أن يدخله، وذلك أن المؤمن يُعِدُّ فيه القوة للعبادة من النفقة، ويعد المنافق اتباع غفلة الناس، واتباع عوراتهم فهو غنم للمؤمن يغتنمه الفاجر»**(٤)

ومعناه: أن المؤمن يجمع قوته ونفقته لنفسه ولأولاده وأهل بيته قبل حلول شهر رمضان، لأن الاشتغال بالعبادة من صوم فى النهار، وقيام فى الليل، واعتكاف فى بيت الله

---

(١) لطائف المعارف ص٣٠١.

(٢) رواه الترمذى (٢٨٦٧) وقال: حسن صحيح غريب ورواه أحمد فى مسنده، والحاكم فى المستدرك وصححه.

(٣) رواه أحمد فى مسنده بسند صحيح (١٦٦٠) ٢/ ٣٠٦،٣٠٧ ورواه ابن ماجه والبزار والنسائى.

(٤) رواه أحمد فى مسنده وحسن إسناده الشيخ أحمد شاكر فى تخريج المسند (٨٨٥٦) جـ٩/ ٣١ ورقم (١٠٧٢٩) وحسنه أيضًا.

فربما عطل أسباب المعيشة فى هذا الشهر، فهو خير عظيم لهم لما يكتسبونه من فعل الخيرات، والتقرب إلى رب الأرض والسموات.

لكن المنافقين الفجار ينتهزون الفرصة فى غفلة أهل الإيمان عن الدنيا، وإقبالهم على الله تعالى، فيتتبعون عوراتهم، ويسيئون إليهم، فهو نقمة عليهم، لأنهم يظنون أن هذه الأفعال غنيمة قد حصلوا عليها فى حق أهل الإيمان.

فهيا بنا لنتتبع سويًا فضائل هذا الشهر العظيم، شهر رمضان:

١- وأول ما يطالعنا من هذه الفضائل، **أنه شهر القرآن الكريم:**

قال تعالى: ﴿**شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ**﴾ [البقرة: ١٨٥].

قال العلماء: إن القرآن قد نزل من اللوح المحفوظ جملة واحدة إلى سماء الدنيا فى ليلة القدر من شهر رمضان، فجعل فى بيت العزة، ثم نزل به جبريل مفرقًا بعد ذلك على حسب الأحداث والوقائع، قال تعالى: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ**﴾ [القدر: ١].

وليس ذلك فقط بل إن رمضان شهر نزول الكتب السماوية كلها: التوراة، الإنجيل، الزبور، وصحف إبراهيم وموسى، فقد نقل إلينا الصحابى الجليل واثلة بن الأسقع قال: قال النبى ﷺ: «**أنزلت صحف إبراهيم أول ليلة من رمضان، وأنزلت التوراة لست مضت من رمضان، وأنزل الإنجيل لثلاث عشرة مضت من رمضان، وأنزل الزبور لثمان عشرة خلت من رمضان، وأنزل القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان**»(١)

ولو لم يكن لشهر رمضان إلا هذه الفضيلة لكفته، فأنعم بالقرآن من كتاب، إنه دستور الأمة، ومنهجها القويم، وهو أعظم زاد لهم إلى الله تبارك وتعالى.

نعم هو أجل النعم وأعظمها، لأن فيه شفاء للناس، لأن فيه رحمة بل رحمات للمؤمنين شفاء من الهوى، شفاء من الأدناس، والأحقاد، والنزعات الشيطانية ﴿**أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾ [العنكبوت: ٥١] فالحمد لله على نعمة الإسلام وكفى بها نعمة، والحمد لله على نعمة القرآن وكفى بها نعمة.

٢- **ومن فضائله، أنه شهر تكفير الذنوب والسيئات:**

فعن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «**الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر**»(٢).

---

(١) رواه أحمد فى مسنده (١٦٩٢١) بسند حسن جـ١٣/٢٢٣ لأجل عمران القطان ورواه الطبرانى فى الكبير (١٨٥) وحسنه الألبانى فى ص.ج (٩ ١٥). (٢) تم تخريجه فى موضع آخر.

وويل ثم ويل لمن أدرك هذا الشهر الكريم ولم يُغفر له، فعن كعب بن عجرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال لأصحابه: «أحضروا المنبر» فلما ارتقى درجة قال: «آمين» فلما ارتقى الثانية قال: «آمين» فلما ارتقى الثالثة، قال: «آمين» فلما نزل، قلنا: يا رسول الله، لقد سمعنا منك اليوم شيئًا ما كنا نسمعه، قال: «**إن جبريل عرض لى فقال: بَعُد -أى من الجنة- من أدرك رمضان، فلم يغفر له، فقلت: آمين، فلما ترقيت الثانية قال: بَعُد من ذكرت عنده فلم يصل عليك، فقلت آمين، فلما ترقيت الثالثة قال: بَعُد من أدرك أبويه الكبر عنده أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة، فقلت: آمين**»[1]

فتيقظ أيها الغافل قبل فوات الأوان، واعرف قدر زمانك، فهو رأس مالك، ولذلك يقول سرى السقطى -رحمه الله-: «السنة شجرة، والشهور فروعها، والأيام أغصانها، والساعات أوراقها، وأنفاس العباد ثمرتها، وشهر رجب أيام توريقها، وشعبان أيام تفريعها، ورمضان أيام قطفها، والمؤمنون قطّافها»[2].

وقال أبو بكر الوراق: شهر رجب شهر الزرع، وشهر شعبان شهر السقى للزرع، ورمضان شهر حصاد الزرع.

٣- رمضان شهر تفتح فيه أبواب الجنان:

فعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا كان أول ليلة من شهر رمضان صفدت الشياطين، ومردة الجن، وغلقت أبواب النار، فلم يفتح منها باب، وفتحت أبواب الجنة فلم يغلق منها باب، وينادِ منادٍ: يا باغى الخير أقبل، ويا باغى الشر أقصر، ولله عتقاء من النار، وذلك كل ليلة**»[3]

فاجتهد فى رمضان وسع جهدك حتى تكون من عتقاء الله من النار، وحتى تكون من أهل الجنة، حتى تكون فى منزلك الأول، ودائمًا يحن الإنسان إلى نشأته:

فحيَّ على جنات عدن فإنها	**منازلك الأولى وفيها المخيم**
ولكننا سبى العدو فهل ترى	**نعود إلى أوطاننا ونسلم**
فلله أبصار ترى الله جهرة	**فلا الحزن يغشاها ولا هى تسأم**
فيا نظرة أهدت إلى الوجه نضرة	**أمن بعدها يسلو المحب المتيم**
أحبتنا عطفا علينا فإننا	**بنا ظمأ والمورد العذب أنتم**

(١) رواه الطبرانى والحاكم وصححه وذكره المنذرى فى الترغيب وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب (٩٨٥).

(٢) ذكره ابن رجب فى لطائف المعارف ص٢٣٤

(٣) رواه الترمذى وابن ماجه، وابن خزيمة فى صحيحه بإسناد صحيح.

٤- وشهر تغلق فيه أبواب النيران:

وذلك للحديث السابق، رب العالمين تبارك وتعالى يجعل أبواب النار مغلقة فى شهر رمضان لأنه شهر تنزل فيه الرحمات، لكن النار عذابها شديد، وقعرها بعيد، إنها بيت الخزى والهوان، جعلها الله لمن عصاه ولو كان شريفًا قرشيًا، فكيف الخلاص منها، ونبينا محمد ﷺ يقول عنها: «**لو أن قطرة من الزقوم قطرت فى دار الدنيا، لأفسدت على أهل الأرض معايشهم، فكيف بمن يكون الزقوم طعامه؟!**»(١)

فهل تصبر على عذابها وسمومها؟ هل تحذر سلاسلها وأغلالها؟

إذا برزت ليوم العرض نار	**لها الناس الوقود مع الحجارة**
يفر المرء حقًا من أخيه	**وينكر فى المعاد من استزاره**
فلا الخل الحميم يغيث خلا	**ولا الجار المجير يجير جاره**

٥- وهو شهر الصبر:

سماه الرسول ﷺ شهر الصبر، وأوصى أصحابه بصيامه، فقال فى الحديث الذى رواه عنه الصحابى الجليل: أبو أمامة الباهلى فيقول له: «**صم شهر الصبر رمضان، صم شهر الصبر، وثلاثة أيام من كل شهر**»(٢).

فإن الصيام من الصبر، وقد قال الله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ [الزمر: ١٠] وقد قال ﷺ: «**التسبيح نصف الميزان، والحمد لله تملؤه، والتكبير يملأ ما بين السماء والأرض، والصوم نصف الصبر، والطهور نصف الميزان**»(٣)

والصبر ثلاثة أنواع: ١- صبر على طاعة الله. ٢- وصبر عن محارم الله.
٣- وصبر على أقدار الله المؤلمة وتجتمع الثلاثة كلها فى الصوم، فإن فيه صبرًا على طاعة الله، وصبرًا عما حرم الله على الصائم من الشهوات، وصبرًا على ما يحصل للصائم فيه من ألم الجوع والعطش، وضعف النفس والبدن.

قال الحسن البصرى: الصبر كنز من كنوز الجنة، لا يعطيه الله إلا لعبد كريم عنده
وقال عمر بن عبد العزيز: ما أنعم الله على عبد نعمة، فانتزعها منه، فعاضه مكانها الصبر إلا كان ما عوضه خيرًا مما انتزعه.(٤)

وقد كان النبى ﷺ يقول لأصحابه: «**ما رزق عبد خيرًا له ولا أوسع من الصبر**»(٥)

---

(١) رواه الترمذى وقال: حسن صحيح.
(٢) رواه ابن ماجه وصححه الألبانى فى ص.ج رقم ٣٧٩٤
(٣) رواه الترمذى وحسنه(٣٥١٤).
(٤) عدة الصابرين لابن قيم الجوزية ص١٠١ / دار التوفيقية.
(٥) رواه الحاكم وصححه عن أبى هريرة وصححه الألبانى فى ص.ج رقم ٥٦٢٦.

٦- رمضان شهر يضاعف الله فيه أجر الطاعات:

يقول ابن رجب[١]: واعلم أن مضاعفة الأجر للأعمال تكون بأسباب منها: شرف المكان المعمول فيه ذلك العمل، كالحرم.

ومنها: شرف الزمان، كشهر رمضان، وعشر ذى الحجة، ففى الصحيحين عن النبى ﷺ قال: **«عمرة فى رمضان تعدل حجة» وفى رواية «عمرة فى رمضان كحجة معى»**[٢]

وذكر أبو بكر بن أبى مريم عن أشياخه أنهم كانوا يقولون: إذا حضر شهر رمضان فانبسطوا فيه بالنفقة، فإن النفقة فيه مضاعفة كالنفقة فى سبيل الله، وتسبيحة فيه أفضل من ألف تسبيحة فى غيره.

وقال النخعى: صوم يوم فى رمضان أفضل من ألف يوم، وتسبيحه فيه أفضل من ألف تسبيحة، وركعة فيه أفضل من ألف ركعة[٣]

٧- أن رمضان شهر تصفد فيه الشياطين:

ففى شهر رمضان المعظم يلطف الله بأمة محمد ﷺ، فيغل فيه الشياطين ومردة الجن، حتى لا يقدروا على ما كانوا يقدرون عليه فى غيره من تسويل الذنوب، ولهذا تقل المعاصى فى شهر رمضان فى الأمة المحمدية، فعن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: **«إذا كانت أول ليلة من شهر رمضان صفدت الشياطين ومردة الجن، وغلقت أبواب النار فلم يفتح منها باب، وفتحت أبواب الجنة فلم يغلق منها باب»**[٤]

وفى رواية: **«إذا دخل شهر رمضان فتحت أبواب السماء، وغلقت أبواب جهنم، وسلسلت الشياطين»**[٥] ومعنى صفدت: أى سدت وأُوثقت.

ابن آدم، لو عرفت قدر نفسك ما أهنتها بالمعاصى، أنت المختار من المخلوقات، ولك أعدت الجنة، إن اتقيت، فهى أقطاع المتقين، والدنيا أقطاع إبليس، فهو فيها من المنظرين فكيف رضيت لنفسك بالإعراض عن أقطاعك ومزاحمة إبليس على أقطاعه، وأن تكون غدًا معه فى النار من جملة أتباعه؟ إنما طردناه عن السماء لأجلك حيث تكبر على السجود لأبيك، وطلبنا قربك لتكون من خاصتنا وحزبنا، فعاديتنا وواليت عدونا ﴿ **أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا** ﴾ [الكهف: ٥٠].

---

(١) لطائف المعارف لابن رجب ص٢٨٤، ٢٨٥

(٢) رواه أحمد فى مسنده (٢٨٠٩) وابن ماجه عن جابر ورواه البخارى.

(٣) لطائف المعارف ص٢٨٥، ٢٨٦ (٤) رواه البخارى ومسلم.

(٥) رواه أحمد فى مسنده (٧٧٦٧) والنسائى والبيهقى فى الشعب وذكره الألبانى فى ص.ج (٥٢٨).

أبشروا يا معاشر المسلمين، فهذه أبواب الجنة الثمانية فى هذا الشهر لأجلكم قد فتحت، ونسماتها على قلوب المؤمنين قد نفحت ، وأبواب الجحيم كلها لأجلكم مغلقة، وأقدام إبليس وذريته من أجلكم موثقة.

ففى هذا الشهر يؤخذ من إبليس بالثأر، وتستخلص العصاة من أسره فما يبقى لهم عنده آثار كانوا أفراخه قد غذاهم بالشهوات فى أوكاره، فهجروا اليوم تلك الأوكار. نقضوا معاقل حصونه بمعاول التوبة والاستغفار، خرجوا من سجنه إلى حصن التقوى والإيمان، فأمنوا من عذاب النار، قصموا ظهره بكلمة التوحيد، فهو يشكو ألم الانكسار، فى كل موسم من مواسم الفضل يحزن، ففى هذا الشهر يدعو بالويل، لما يرى من تنزل الرحمة، ومغفرة الأوزار غلب حزب الرحمن، وهرب حزب الشيطان، فما بقى له سلطان إلا على الكفار، عزل سلطان الهوى، وصارت الدولة لسلطان التقوى، ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُوْلِي الأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢].

٨- رمضان فيه ليلة خير من ألف شهر:

إنها ليلة القدر، إنها ليلة نزول القرآن، إنها ليلة تَنزلُ الملائكة الأطهار، ومعهم جبريل وميكائيل، وإسرافيل، إنها ليلة العتق من النيران، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ [القدر].

إنها ليلة اتصال العالم الأرضى بالعالم العلوى الملائكى النورانى.

قال ابن رجب: واختلف فى ليلة القدر والحكمة فى نزول الملائكة فى هذه الليلة، فالملوك والسادات لا يحبون أن يدخل دارهم أحد حتى يزينون دارهم بالفرش والبسط، ويزينوا عبيدهم بالثياب والأسلحة، فإذا كانت ليلة القدر، أمر الرب تبارك وتعالى الملائكة بالنزول إلى الأرض، لأن العباد زينوا أنفسهم بالطاعات، بالصوم والصلاة فى ليالى رمضان، فيقول الرب تعالى: أنت طعنتم فى بنى آدم وقلتم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠] فقلت لكم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ اذهبوا إليهم فى هذه الليلة حتى تروهم قائمين ساجدين راكعين، لتعلموا أنى اخترتهم على علم على العالمين.

قال الإمام مالك بن أنس: بلغنى أن رسول الله ﷺ أُرى أعمار الناس قبله، أو ما شاء الله من ذلك، فكأنه تقاصر أعمار أمته ألا يبلغوا من العمل الذى بلغ غيرهم فى طول العمر، فأعطاه الله ليلة القدر، وجعلها خيرًا من ألف شهر[1]

---

(١) موطأ الإمام مالك فى كتاب الاعتكاف باب ما جاء فى ليلة القدر ١/ ٢١٣ رقم ١٥ قال ابن عبد البر: هذا أحد الأحاديث الأربعة التى لا توجد فى غير الموطأ، لا مسندًا ولا مرسلاً، وليس منها حديث منكر، ولا ما يدفعه أصل.

روى عن مجاهد، أن النبى ﷺ ذكر رجلاً من بنى إسرائيل لبس السلاح ألف شهر، فعجب المسلمون من ذلك، فأنزل الله تعالى هذه السورة[١]

وقال النخعى: العمل فيها خير من العمل فى ألف شهر. وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «**من قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه**»[٢]

هي ليلة القدر التى شرفت على	**كل الشهور وسائر الأعوام**
من قامها يمحو الإله بفضله	**عنه الذنوب وسائر الآثام**
فيها تجلى الحق جل جلاله	**وقضى القضاء وسائر الأحكام**
فادعه واطلب فضله تعطى المنى	**وتجاب بالإنعام والإكرام**
فالله يرزقنا القبول بفضله	**ويجود بالغفران للصوام**
ويذيقنا فيها حلاوة عفوه	**ويميتنا حقًا على الإسلام**

إنها ليلة الشرف والعظمة، إنها ليلة تقدر فيها الأمور والأحكام، وتقدير الله للأمور لا يحدث فى تلك الليلة، فإنه سبحانه قدر المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض فى الأزل، بل المراد إظهارها للملائكة بكتابتها فى اللوح المحفوظ.

وقيل: معنى ليلة القدر أى الضيق فإن الأرض تضيق عن الملائكة لكثرتها وسميت ليلة القدر بهذا الاسم لأنه نزل فيها كتاب ذو قدر، على لسان ملك ذى قدر، على رسول ذى قدر، على أمة ذات قدر.

والرسول الكريم ﷺ يوصينا بأن نتحرى هذه الليلة فى الوتر الأخير من شهر رمضان، فيقول فى الحديث الذى رواه ابن عمر رضي الله عنهما: «**تحروا ليلة القدر فى العشر الأواخر من رمضان**»[٣] وفى رواية: «**تحروا ليلة القدر فى السبع الأواخر**»[٤] وفى رواية عن عائشة رضي الله عنها أن النبى ﷺ قال: «**تحروا ليلة القدر فى الوتر من العشر**»[٥] وفى رواية: «**التمسوها فى العشر الأواخر من رمضان، فى تاسعة تبقى، فى سابعة تبقى، فى خامسة تبقى**»[٦] والمشهور عند ابن عباس وغيره أنها ليلة السابع والعشرين، وقد أخفاها الله تعالى، قال الفخر الرازى: إن الله تعالى أخفى هذه الليلة لوجوه:

أحدها: أنه أخفاها كما أخفى سائر الأشياء: فإنه أخفى رضاه فى الطاعات حتى يرغبوا فى الكل، وأخفى غضبه فى المعاصى ليحترزوا عن الكل، وأخفى وليه فيما بين

(١) أسباب النزول للواحدى النيسابورى ص٣٩١.　(٢) رواه البخارى ومسلم وأحمد وغيرهم.

(٣) رواه الإمام مالك فى الموطأ ١/٢١٢ ورواه البخارى ومسلم وأحمد.

(٤) رواه البخارى ومسلم وأحمد فى مسنده ومالك فى الموطأ.

(٥) رواه أحمد (٢٤٣٢٦) جـ١٧/٣٣٣ بسند رجاله ثقات.

(٦) رواه البخارى (٢١ ٢) والترمذى (٧٩٤) وقال حسن صحيح.

الناس حتى يعظموا الكل، وأخفى الإجابة فى الدعاء ليبالغوا فى كل الدعوات، وأخفى الاسم الأعظم ليعظموا كل الأسماء، وأخفى الصلاة الوسطى ليحافظوا على الكل. وأخفى قبول التوبة ليواظب المكلف على جميع أقسام التوبة، وأخفى وقت الموت ليخاف المكلف، فكذا أخفى هذه الليلة ليعظموا جميع ليالي رمضان.

ثانيها: كأنه تعالى يقول: لو عينت ليلة القدر، وأنا عالم بتجاسركم على المعصية، فربما دعتك الشهوة فى تلك الليلة إلى المعصية، فوقعت فى الذنب، فكانت معصيتك مع علمك أشد من معصيتك لا مع علمك، فلهذا أخفيتها عليك(١).

واعلم أخى الحبيب: أن من مرت عليه ليلة القدر ولم يوفقه الله لعمل صالح فيها فهو المحروم من الخير كله، لذلك يقول ﷺ: **«أتاكم شهر رمضان، شهر مبارك، فرض الله عليكم صيامه، تفتح فيه السماء، وتغلق فيه أبواب الجحيم، وتغل فيه مردة الشياطين، لله فيه ليلة خير من ألف شهر من حرم خيرها فقد حرم»**(٢).

وفى رواية عن أنس: **«إن هذا الشهر قد حضركم، وفيه ليلة خير من ألف شهر من حرمها فقد حرم الخير كله، ولا يحرم خيرها إلا محروم»**(٣).

للـيلة القـدر عنـد الله تفـضـيـل ... وفى فـضلـهـا قـد جـاء تنـزيل
فجـد فيـها على خـير تنال بـه أجراً ... فـللـخـيـر عـند الله تـفـضـيـل
واحرص على فعل أعـمال تسر بها ... يوم المـعـاد ولا يـغـررك تـأمـيـل
فـتب إلى الله واحـذر من عـقـوبتـه ... عن كـل ما فـيـه توبـيخ وتنكـيل
ولا تغـرنـك الدنـيـا وزخـرفـتـهـا ... فكل شىء سـوى التقـوى أباطيل

٩- رمضان شهر النفحات:

نعم شهر رمضان هو شهر النفحات الربانية، والفيوضات الإلهية، وقد أوصانا رسولنا محمد ﷺ بأن نغتنم هذه النفحات، فقال فى الحديث الذى رواه أنس بن مالك رضي الله عنه: **«افعلوا الخير دهركم، وتعرضوا لنفحات رحمة ربكم، فإن لله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده»**(٤) وفى رواية: **«إن لربكم فى أيام دهركم لنفحات ألا فتعرضوا لها لعل أحدكم أن يصيبه منها نفحة لا يشقى بعدها أبدًا»**(٥).

---

(١) تفسير مفاتيح الغيب للفخر الرازى جـ٣٢/ ٥٣١، ٥٣٢.

(٢) رواه النسائى والبيهقى وذكره المنذرى فى الترغيب وحسنه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب (٩٨٩).

(٣) رواه ابن ماجه وحسنه الألبانى فى الترغيب (٩٩٠) جـ١/ ٤١٨.

(٤) رواه الطبرانى فى الكبير، وقال الهيثمى فى المجمع إسناد رجاله رجال الصحيح وحسنه الألبانى فى السلسلة الصحيحة رقم (١٨٩٠) وقد روى الحديث أيضًا البيهقى فى الشعب وابن أبى الدنيا فى الفرج بعد الشدة، وأبو نعيم فى الحلية من حديث أنس.

(٥) رواه الطبرانى من حديث محمد بن مسلمة.

١٠- **رمضان شهر العتق من النار:**

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«إنَّ لله عند كل فطر عتقاء، وذلك في كل ليلة»** وفي رواية: **«في كل يوم وليلة، لكل عبد منهم دعوة مستجابة»**[١].

ويقول ابن رجب:[٢]

والشهر كله شهر رحمة ومغفرة، وعتق من النيران، ولكن الأغلب على أوله الرحمة، وهي للمحسنين المتقين، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦]. وقال الله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] فيفاض على المتقين في أول الشهر خلع الرحمة والرضوان، ويعامل أهل الإحسان بالفضل والإحسان، وأما أوسط الشهر، فالأغلب عليه المغفرة، فيغفر فيه للصائمين وإن ارتكبوا فيه بعض الذنوب الصغائر فلا يمنعهم ذلك من المغفرة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦].

وأما آخر الشهر فيعتق فيه من النار من أوبقته الأوزار، واستوجب النار بالذنوب الكبار، وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعا: **«لله في كل ليلة في شهر رمضان عند الإفطار ألف ألف عتيق من النار»**.

فيا من أعتقه مولاه من النار! إياك أن تعود بعد أن صرت حرًّا إلى رق الأوزار أيبعدك مولاك عن النار وأنت تتقرب منها؟ وينقذك منها وأنت توقع نفسك فيها ولا تحيد عنها؟!.

إن كانت الرحمة للمحسنين فالمسيئ لا ييأس منها، وإن تكن المغفرة مكتوبة للمتقين فالظالم لنفسه غير محجوب عنها.

إن كان عفوك لا يرجوه ذو خطأ ... فمن يجود على العاصين بالكرم

فينبغي لمن يرجو العتق في شهر رمضان أن يأتي بأسباب توجب العتق من النار، وهي متيسرة في هذا الشهر، كإخراج الصدقات، والاستغفار من الخطيئات، والبعد عن الرفث والسيئات.

قال ابن الجوزي[٣]:

قيل: الشهور الاثنى عشر كمثل أولاد يعقوب عليه السلام. وشهر رمضان بين الشهور كيوسف بين إخوته، فكما أن يوسف أحب الأولاد إلى يعقوب، كذلك رمضان أحب الشهور إلى علام الغيوب.

---

(١) رواه الترمذي (٦٨٢) وابن ماجه (١٦٤٣) وأحمد في مسنده (٢٢١٠٢) بسند صحيح.

(٢) لطائف المعارف ص٣٧٨.

(٣) بستان الواعظين لابن الجوزي ص٢٤٩، ٢٥٠ ط/ دار المنار مكتبة فياض.

نكتة حسنة لأمة محمد ﷺ: إن كان في يوسف من الحلم والعفو ماغمر جفاهم حين قال: ﴿**لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم**﴾ [يوسف: ٩٢] فكذلك شهر رمضان فيه الرأفة والبركات، والنعمة والخيرات، والعتق من النار، والغفران من الملك القهار ما يغلب جميع الشهور، وما اكتسبنا فيه من الآثام والأوزار.

نكتة حسنة: الإشارة فيه جاء إخوة يوسف معتمدين عليه فى سد الخلل، وإزاحة العلل، بعد أن كانوا أصحاب خطايا وزلل، فأحسن لهم الإنزال، وأصلح لهم الأحوال، وبلغهم غاية الآمال، وأطعمهم فى الجوع وأذن لهم فى الرجوع، ﴿**وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها**﴾ [يوسف: ٦٢] فسد الواحد خلل أحد عشر، كذلك شهر رمضان واحد، والشهور أحد عشر، وفى أعمالنا خلل، وأى خلل، وتقصير وأى تقصير، وتفريط فى طاعة العليم الخبير، ونحن نرجو أن نتلافى فى شهر رمضان ما فرطنا فى سائر الشهور، ونصلح فيه فاسد الأمور، ويختمه علينا بالفرح والسرور، ونعتصم فيه بحبل الملك الغفور.

إشارة أخرى: كان ليعقوب أحد عشر ولداً ذكوراً وبين يديه حاضرون ينظر إليهم ويراهم، ويطلع على أحوالهم وما يبدو من أفعالهم، ولم يرتد بصره بشىء من ثيابهم، وارتد بقميص يوصف بصيراً، وصار بصره منيراً، وصار قوياً بعد الضعف، بصيراً بعد العمى، فكذلك المذنب العاصى إذا شم روائح رمضان، وجلس فيه مع الذاكرين وقرأ القرآن، وصحبهم بشرط الإسلام والإيمان، وترك الغيبة وقول البهتان، يصير إن شاء الله مغفوراً له بعد ما كان عاصياً، وقريباً بعد ما كان قاصياً، ينظر بقلبه بعد العمى، ويسعد بقربه بعد الشقا، ويقابل بالرحمة بعد السخط.

فالله الله اغتنموا هذه الفضيلة، فى هذه الأيام القليلة، تعقبكم النعمة الجزيلة، والدرجة الجليلة، والراحة الطويلة إن شاء الله. هذه والله الراحة الوافرة، والمنزلة السائرة، والحالة الرضية، والجنة السرية، والنعمة الهنية، والعيشة الرضية، لا تنال إلا بالوقار، لهذا الشهر الذى عظمه الجبار، وفضل به محمداً المختار، ومن لا يوقره كان مصيره إلى النار.

• موعظة •

إخوانى، هذا شهر ليس مثله فى سائر الشهور، ولا فضلت به أمة غير هذه الأمة فى سائر الدهور، الذنب فيه مغفور، والسعى فيه مشكور، والمؤمن فيه محبور، والشيطان مبعد مثبور، والإثم فيه مهجور، وقلب المؤمن فيه بذكر الله معمور، وقد أناخ بفنائكم، وهو عما قليل راحل عنكم، شاهد لكم وعليكم، وهو ضيف مسئول، من عند رب لا يحول ولا يزول، وسيخبر عن المحروم منكم والمقبول.

فالله الله أكرموا نهاره بتحقيق الصيام، واقطعوا ليله بطول البكاء والقيام، فلعلكم أن تفوزوا بدار الخلد والسلام، مع النظر إلى وجه ذى الجلال والإكرام، ومرافقة نبى خير الأنام:

شهر الصيام لقد كرمت نزيلا وشفيت من كل القلوب عليلاً
شهر الأمانة والصيانة والتقى والفوز فيه لمن أراد قبولاً
فيه الجنان تفتحت لقبوله والحور فيه تزينت تحفيلاً
طوبى لعبد صح فيه صيامه ودعا المهيمن بكرة وأصيلاً
وبليله قد قام يختم ورده متبتلاً لـلإلهه تبتيلا
شهر يفوق على الأشهر بليلة من ألف شهر فضلت تفضيلاً
فاجهد عساك تنالها فيما بقى بالجد واحذر أن تكون غفولاً

أفق يا ذا الغى والمحال، واستيقظ يا ذا السهو والإغفال، وانتبه من السكرات الطوال أترضى يا مسكين أن يرد صومك فى وجهك من غير قبول من الله؟.

أتستحسن أن تكون جائعًا عطشان وليس لك جاه عند الله؟ أين النية المجردة؟ أين التوبة المجددة؟ أين الندامة المؤكدة؟ أين الحلال من الطعام؟ أين اجتناب الطعمة الحرام؟ أين الرحمة لذوى الفقر والضعفاء والأيتام؟ أين الإخلاص للملك العلام؟ أين التزام شريعة الإسلام؟ أين الأسوة بالنبى عليه الصلاة والسلام؟ انظر يا مسكين إذا قطعت نهارك بالعطش والجوع، وأحييت ليلك بطول السجود والركوع، إنك فيما تظن صائم، مع أنك فى بحار سكراتك هائم، فأين أنت من التواضع والخشوع؟ أين أنت من الذلة لمولاك والخضوع؟ أتحسب أنك من أهل الصيام والأمان الفائزين فى شهر الصيام؟! كلا والله حتى تخلص النية وتجردها، وتطهر الطوية وتجودها، وتجتنب الأعمال الدنية، وتكثر من البكاء والحسرة، وتسيل الدموع والعبرة، وتلزم الفكرة والعبرة، وتسأل مولاك إقالة العثرة، فحينئذ يكون صيامك من الذنوب شفاء، ومن العيوب سترة وغطاء. أين الصائمون؟ أين القائمون؟ أين الطائعون؟ أين العاملون؟ أين الخاشعون؟ أين الذاكرون؟ أين الصابرون؟ أين المتصدقون؟ أين الآمرون بالمعروف؟ أين المغيثون للملهوف؟ لقد ذهبوا والله مع الصالحين، وانقلبوا مع المؤمنين ونزلوا مع النبيين والصديقين، وبقينا نحن فى هذه الدنيا، فاغتنم عمرك، واحذر أن تكون من الغافلين، تاجر مع مولاك فإنك تربح، وعامله فإنك تفلح، واعتذر إليه فهو قابل عذرك، واستغفره فإنه غافر ذنبك، وارغب إليه يكشف كربك، واسأله من فضله يوسع رزقك، وتب إليه فإنه يعظم حظك. فهذا شهر تستر فيه القبائح والذنوب، وتلين فيه النفوس والقلوب، وينفس الله فيه عن الحزين المكروب.

روى أن الحسن البصرى -رحمه الله- مرّ بقوم يضحكون فى رمضان، فوقف عليهم، وقال: إن الله تعالى قد جعل شهر رمضان مضماراً لخلقه يستبقون فيه بطاعته، فسبق أقوام ففازوا، وتخلف أقوام فخابوا، فالعجب للضاحك اللاعب فى اليوم الذى فاز فيه المسارعون، وخاب فيه الباطلون، أما والله لو كشف الغطاء لاشتغل المحسن بإحسانه، والمسيئ بإساءته[١].

اللهم إنى أسالك خشيتك فى الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الإخلاص فى الرضا والغضب، وأسألك القصد فى الفقر والغنى، وأسألك نعيمًا لا ينفد، وأسألك قرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضا بالقضاء، وأسألك برد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك فى غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة، اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين[٢] يا رب العالمين.

الوصية رقم (٤٥)
من عمل عمل قوم لوط فاقتلوه

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط، فاقتلوا الفاعل والمفعول به**»[٣]

صدق رسول الله ﷺ

• فى رحاب هذه الوصية •

ها هو حبر الأمة، سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ينقل إلينا وصية من وصايا أستاذ البشرية، وفقيه الإنسانية سيدنا محمد ﷺ، وهى وصية موجزة لكنها حددت عقوبة نوع، وحد من الحدود التى هى جريمة نكراء، وهى جريمة «اللواط».

إنها جريمة عظيمة، وفاحشة كبيرة، ورذيلة من أسوأ الرذائل، وعمل من أخبث الأعمال، وخصلة من أخس الخصال، التى لا يمكن أن تليق بهذا المخلوق الذى استخلفه الله تعالى فى أرضه، وكرمه، وكان من تكريمه إياه ، أنه خلقه بيده، وأسجد له ملائكته، وخلق منه الذكر والأنثى، وجعل الأنثى هى محل الحرث، وقضاء الشهوة، وطبعه إلى أن ينساق إلى ذلك، لكنه لما نسى الخالق الأعظم، انحرفت طبيعته، وانتكست فطرته، فأصبح

(١) بستان الواعظين لابن الجوزى ص٢٥٢ ط/ دار المنار مكتبة فياض.

(٢) رواه الحاكم وصححه، وذكره الألبانى فى ص.ج رقم (١ ١٣).

(٣) رواه أحمد فى مسنده (٢٧٢٧) وحسنه الشيخ أحمد شاكر ٣/ ٢١٧ وقال الألبانى فى صحيح سنن أبى داود حسن صحيح (٤٤٦٢) ٣/ ٧٣ والمشكاة (٣٥٧٥) وأبو نعيم فى الحلية ٣/ ٣٤٣ والترمذى (١٤٨١) والخرائطى فى مساوئ الأخلاق (٤٣٥).

يسير خلف شهوات نفسه ناسيًا تكريم الله إياه، وأخذ يمارس هذه الرذيلة النكراء، لأن فيه من الخزى والعار ما لا تطيقه النفوس الكريمة، ولا تتحمله الطباع السليمة، لذلك فقد قرر رسول الإنسانية وأوصى بقتله، وتلك عقوبة فظيعة لكنها عادلة، لأن هذا العمل أشد من الزنا، لأن الزنا وإن كان كبيرة من الكبائر إلا أنه لم يخالف الفطرة التى فطره الله عليها، بخلاف هذا العمل، فقد خالف الشريعة والطبيعة، ولأنه بارتكابه هذه الجريمة الشنيعة يفعل ما تأباه الحيوانات العجماء. أليس من أعظم المصائب أن تنحط درجة الإنسان عن درجة الحيوان؟!.

• ماذا قال العلماء عن اللواط؟ •

يقول الشيخ مجدى السيد:

اللواط يجمع صفات الشر كلها من قلة الدين، وذهاب الورع، وفساد المروءة وقلة الغيرة.

فاللوطى لا يعرف الورع، والخوف من الرحمن، ولا وفاء بعهد له، ولا صدق فى حديث له، ولا محافظة له على صديق.

فالغدر والخيانة، وقلة الحياء والكذب، وذهاب الغيرة من قلبه هى من أخص خصائصه[1]

قال مجاهد: لو أن الذى يعمل ذلك العمل -يعنى عمل قوم لوط- اغتسل بكل قطرة فى السماء، وكل قطرة فى الأرض لم يزل نجسًا، وقد ذكر الله تعالى عقوبة اللوطية، وما حل بهم من البلاء فى عشر سور من القرآن الكريم وهى: سورة الأعراف، وهود، والحجر، والأنبياء، والفرقان، والشعراء، والنمل، والعنكبوت، والصافات، والقمر، وجمع على القوم بين عمى البصر، وخسف الديار، والقذف بالأحجار، ودخول النار وقال محذرًا لمن عمل عملهم، ما حل بهم من العذاب الشديد[2]: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩] وقال بعض العلماء:

إذا علا الذكر الذكر هربت الملائكة، وعجت الأرض إلى ربها، ونزل سخط الجبار جل جلاله عليهم، وغشيتهم اللعنة، وحفتهم بهم الشياطين، واستأذنت الأرض ربها أن تخسف بهم، وكبرت الملائكة، واستعرت الجحيم، فإذا جاءته رسل الله لقبض روحه نقلوها إلى ديار إخوانهم، وموضع عذابهم، فكانت روحه بين أرواحهم وذلك أضيق مكانًا من تنور الزناة. فلا كانت لذة توجب هذا العذاب الأليم، وتسوق صاحبها إلى مرافقة أصحاب الجحيم، تذهب اللذات، وتبقى الحسرات، وتفنى الشهوة، ولذلك كان الإمام أحمد ينشد:

---

(١) اللواط واللواطيون للشيخ مجدى فتحى السيد ص٨ دار الصحابة.

(٢) روضة المحبين لابن القيم ص٣٤٥ ط/ دار التوفيقية.

تفنى اللذاذة ممن نال صفوتها ... من الحرام ويبقى الخزى والعار
تبقى عواقب سود فى مغبتها ... لا خير فى لذة بعدها النار(١)

•نهاية اللوطية وعاقبتهم•

أخى الحبيب:

كان قوم لوط عليه السلام يعيشون فى قرية تسمى (سدوم) وكان أهلها يرتكبون هذه الجريمة النكراء، فحذرهم نبى الله لوط، لكنهم لم ينتهوا، ولم ينزجروا عما هم عليه فحاق بهم العذاب الأليم، ونزل بهم الهلاك المحقق، اسمع إلى كتاب الله وهو يتحدث عن عاقبتهم: ﴿وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٣:٣٥]

لما استنصر نبى الله لوط عليه السلام بربه تبارك وتعالى، أرسل إليه ملائكة كراما جاءوا سيدنا إبراهيم عليه السلام، وكانوا قد نزلوا لأمرين: ١- بشارة إبراهيم عليه السلام بوجود ولد صالح له من امرأته سارة، ٢- إنزال العذاب بقوم لوط المفسدين.

حتى أن لوطًا قد استبطأ عذابهم، فقال له ربه: ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١] فوالله ما كان هلاكهم، ونجاة نبيه، وأوليائه إلا ما بين السحر وطلوع الفجر، وإذا بديارهم قد اقتلعت من أصلها، ورفعت نحو السماء حتى سمعت الملائكة نباح الكلاب، ونهيق الحمير.

قال مجاهد: «نزل جبريل فأدخل جناحه تحت مدائن قوم لوط، فرفعها حتى سمع أهل السماء نبيح الكلاب، وأصوات الدجاج والديكة، ثم قلبها، فجعل أعلاها أسفلها، ثم أتبعوا بالحجارة»(٢) فبرز المرسوم إلى مدير عمليات النسف والتدمير: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [هود: ٨٢] أخذهم على غرة وهم نائمون، وجاءهم بأسهم وهم فى سكرتهم يعمهون، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون، فقلبت لذاتهم آلامًا، فأصبحوا بها يعذبون:

وقال ابن الجوزى -رحمه الله-:

اعلم أن الله عز وجل قص علينا من قصة عمل قوم لوط إيثارهم الفاحشة، وميلهم إليها، وشرح عقابه إياهم فى الدنيا، فأطال فى ذكر ذلك، ما لم يطل فى ذكر كفرهم.

---

(١) المرجع السابق ص٣٤٦

(٢) ذم اللواط للآجرى ص٣٥ بتحقيق الشيخ مجدى السيد- مكتبة القرآن.

ومعلوم أن الكفر أعظم من الفاحشة، ولكنه أراد تحذيرنا من تلك الأفعال، وقصة القوم في القرآن في مواضع، وقد عرفنا منها أنه عاقبهم في الدنيا بالرجم والحجارة[١]. فهكذا كانت نهايتهم الأليمة، وعقوبتهم الشديدة، وقد جعلهم الله آية للعالمين، وموعظة للمتقين، وجعل ديارهم بطريق السالكين: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٧٥:٧٧].

فيا ناكحي الذكران يهنيكم البشرى ... فيوم معاد الناس إن لكم أجرا
كلوا واشربوا وازنوا ولوطوا وأبشروا ... فإن لكم زفراً إلى جهنم الحمرا
فإخوانكم قد مهدوا الدار قبلكم ... وقالوا إلينا عجلوا لكم البشرى
وها نحن أسلاف لكم في انتظاركم ... سيجمعنا الجبار في ناره الكبرى
فلا تحسبوا أن الذين نكحتمو ... يغيبون عنكم بل ترونهم جهرا
ويلعن كلا منكما بخليله ... ويشقى به المحزون في الكرّة الأخرى
يعذب كلا منكما بشريكه ... كما اشتركا في لذة توجب الوزرا [٢]

• السنة المطهرة تحذر من اللواط •

أخا الإسلام:

وعندما نقلب صفحات السنة المطهرة، نجد الرسول المصطفى ﷺ قد لعن صاحب هذه الرذيلة القبيحة، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«لعن الله من وقع على بهيمة، ولعن الله من عَمِلَ عَمَلَ قوم لوط ثلاثًا»**[٣] واللعن معناه أنه تعرض للطرد من رحمة الله تعالى، والوقوع تحت سخطه، بسبب شؤم ذنبه، وسوء فعله، وخبث جريمته.

فكيف يكون حال من طُرد من رحمته سبحانه؟ أم كيف يكون حال من سخط عليه مولاه؟

إن أهم شيء كان النبي ﷺ يخاف منه على أمته، إنما هو عمل قوم لوط.

لأجل ذلك نراه يحدثنا عن ذلك، فيقول في الحديث الذي يرويه عنه الصحابي الجليل جابر بن عبد الله رضي الله عنه: **«إنّ أخوف ما أخاف على أمتي عمل قوم لوط»**[٤]

---

(١) ذم الهوى لابن الجوزي ص١٦٢ ط/ دار الكتب العلمية.

(٢) الداء والدواء لابن القيم الجوزية ص٢٢٢.

(٣) رواه أحمد في مسنده (٢٩١٥) جـ٣/ ٢٨٢ بإسناد صحيح وأبو نعيم في الحلية ٩/ ٢٣٢ وابن الجوزي في ذم الهوى ص١٥٩ والحاكم ٤/ ٣٥٦ وصححه وأقره الذهبي.

(٤) رواه أحمد في مسنده (١٥٠٣١) بإسناد حسن ١٢/ ٧١، والترمذي (١٤٨٢)، والحاكم وصححه وأقره الذهبي ٤/ ٣٥٧.

فالعاقل اللبيب يقبل ما أرشده إليه الرسول الحبيب، من إتيان ما خلق من الزوجات الحلال، والجوارى من السرارى ذوات الجمال، ولا يتبع كل شيطان مريد، فيحق عليه الوعيد، ويدخل فى قوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٢].

قال قتادة وعكرمة: يعنى ظالمى هذه الأمة، والله، ما أجار الله منها ظالمًا بعد.

ويقول ابن كثير: جعل الله مكان تلك البلاد بحيرة منتنة، لا ينتفع بمائها، ولا بما حولها من الأراضى المتاخمة لفنائها، لرداءتها ودناءتها، فصارت عبرة ومثلة وعظة، وآية على قدرة الله تعالى وعظمته، وعزته فى انتقامه ممن خالف أمره، وكذب رسله، واتبع هواه، وعصى مولاه(١).

فقولوا لمن خرج عن الشرع فى طلب هذه الفاحشة وشرد، قد رمى القوم بالحجارة، وخوفهم بالبرد. فليحذر العازمون على طروق طريقهم من وعيد: ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾.

أخى الحبيب:

وبعد أن عرفت ذلك، فهيا بنا لنستمع إلى ما قاله أحد علماء الإسلام، وهو الإمام ابن حجر الهيثمى فى كتابه: «الزواجر عن اقتراف الكبائر» يقول: أجمعت الأمة على أن من فعل بمملوكه فعل قوم لوط من اللوطية المجرمين، الفاسقين الملعونين، فعليه لعنة الله، ثم عليه لعنة الله، ثم عليه لعنة الله، والملائكة، والناس أجمعين. وقد فشا ذلك فى المترفين، لذلك فعليهم أشد اللعنة الدائمة الظاهرة، وأعظم الخزى والبوار، والعذاب فى الدنيا والآخرة، ما داموا على هذه القبائح الشنيعة البشيعة الفظيعة الموجبة للفقر، وهلاك الأموال، وانمحاق البركات، والخيانة فى المعاملات والأمانات، ولذلك تجد أكثرهم افتقر من سوء ما جناه، وقبيح معاملته لمن أنعم عليه وأعطاه، ولم يرجع إلى بارئه، وخالقه، وموجده ورازقه، بل بارزه بهذه المبارزة المبينة على خلع جلباب الحياء، والمروءة، والتخلى عن سائر صفات أهل الشهامة، والفتوة، والتحلى بصفات البهائم، بل أفظع وأقبح صفة وخلة، إذ لا نجد حيوانًا ذكرًا ينكح مثله، فناهيك برذيلة تعف عنها الحمير، فكيف يليق فعلها بمن هو فى صورة رئيس أو كبير، كلا، بل هو أسفل من قدره، وأشأم من خبره، وأنتن من الجيف، وأحق بالشرر والسرف، وأخو الخزى والمهانة، وخائن عهد الله، وماله عنده من الأمانة فبعدًا له وسحقًا، وهلاكًا فى جهنم وحرقًا(٢)

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ١/ ١٧١

(٢) الزواجر عن اقتراف الكبائر لابن حجر الهيثمى ٢/ ٢٣٥

• اللواط الأكبر واللواط الأصغر •

واللواط الأكبر هو أن يعلو الذكر ذكرًا مثله، وهو أخطر من اللواط الأصغر الذى هو إتيان الرجل للمرأة فى دبرها، لذلك قال عبد الله بن عمرو رضي الله عنه: «إتيان النساء فى أدبارهن: اللوطية الصغرى»(١)

وقد لعن النبى ﷺ من يفعل ذلك -أى من يأتى امرأة فى دبرها- حتى ولو كانت زوجته، فعن أبى هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: **«ملعون من أتى امرأة فى دبرها»**(٢) فعليه أن يتوب إلى الله -أى من فعل ذلك- ويستغفره من هذه الكبيرة، وإلا فقد عرض نفسه لسخط الله وغضبه، وعدم نظره سبحانه وتعالى إليه فعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«لا ينظر الله إلى رجل يأتى المرأة فى دبرها»** أى لا ينظر إليه نظر رحمة وعطف(٣)

وعن على بن أبى طالب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«لا تأتوا النساء فىْ استاهن -أى أدبارهن- فإن الله لا يستحى من الحق»**(٤)

وقد نهى السلف الصالح رضوان الله عليهم عن هذه الجريمة الشنيعة، وهى ما يسمى باللواط الأصغر، يقول المحدث الأعظم سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه: «من أتى حائضًا أو امرأة فى دبرها، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ»(٥).

وسئل أبو الدرداء رضي الله عنه عن إتيان المرأة فى دبرها، فقال: وهل يفعل ذلك إلا كافر(٦).

وسئل ابن عباس رضي الله عنهما عن ذلك، فقال: هذا يسألنى عن الكفر(٧).

وسئل عطاء بن أبى رباح -رحمه الله- عن إتيان النساء فى أدبارهن، فقال: «تلك كفر، وما بدأ قوم لوط إلا ذاك، أتوا النساء فى أدبارهن، ثم أتى الرجال الرجال»(٨).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، هلكت.

---

(١) رواه أحمد فى مسنده بإسناد صحيح والطبرانى فى الأوسط والبزار كما ذكره الهيثمى فى المجمع ٢٩٨/٤

(٢) رواه أحمد فى مسنده (٩٦٩٤) بإسناد حسن وحسنه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود برقم (٢١٦٢) ٦٠١/١ وابن ماجه (١٩٢٣)

(٣) رواه الترمذى بإسناد حسن، والخرائطى فى مساوئ الأخلاق (٤٣٨) بتحقيق الشيخ/ مجدى السيد.

(٤) رواه أبو داود و غيره. (٥) شعب الإيمان للبيهقى (٥٣٨٠). (٦) السابق (٥٣٧٩)،

(٧) السابق (٥٣٧٨). (٨) مساوئ الأخلاق للخرائطى (٤٤٣).

فقال رسول الله ﷺ: «وما أهلكك؟» قال عمر: حولت رحلي الليلة قال: فلم يرد عليه الرسول ﷺ، حتى نزل عليه قوله تعالى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣] فقال رسول الله ﷺ: «أقبل، وأدبر، واتق الدبر، والحيضة»[١] فالمقصود من قول عمر: حولت رحلي، فهو كناية عن تغييره لطريقة الجماع بالنسبة لزوجته، فنصحه النبي ﷺ، ووضح له أن هذا الأمر جائز، فيجوز من جهة القبل أو الدبر، لكن عليه أن يجتنب مؤخرة المرأة من الخلف، وزمن الحيض.

• أضرار الشذوذ الجنسي في نظر الطب الحديث •

لقد أثبت الطب الحديث أضرارًا جسيمة لمن يجامع زوجته من دبرها وذلك لعدة أسباب منها ما يأتي:

١- أن الغشاء المخاطي المغطي للشرج رقيق وضعيف، عن ذلك الذي يغطي مهبل المرأة، وعلى ذلك فجماع المرأة من دبرها يصيبها بتمزق للغشاء المخاطي للشرج والمستقيم وحدوث شرخ مزمن شرجي، وهذا الشرخ يتسبب في آلام شديدة. عند الجماع، وعند كل تبرز، ولا يمكن علاجه إلا بعملية جراحية.

٢- تمزقات الجدار المبطن للشرج تؤدي إلى نزول دم من المرأة أثناء عملية الجماع وهذا الدم يؤدي إلى العدوى بأمراض خطيرة منها نقص المناعة ، أو الأيدز، بينما لا تحدث هذه التمزقات في حالة جماع المرأة من الفرج.

٣- للمهبل حموضة خاصة تقتل الميكروبات، فلا تصيب الرجل أثناء الجماع من القبل بينما لا توجد هذه الحموضة في المستقيم والشرج، لذلك يصاب الرجل بالالتهابات في القناة البولية والبروستاتا، والحويصلات المنوية، والمثانة والكليتين، وقد يصاب بالعقم من جراء هذه الالتهابات.

٤- للفرج غدد تفرز سوائل تلين عملية الجماع، بينما لا توجد هذه الغدد في الشرج.

٥- المهبل خالٍ من القاذورات، وبقايا الطعام العفن والتي تشغل المستقيم.

٦- عضلات المستقيم ضعيفة جدًا عن عضلات المهبل، ولذلك قد يحدث ثقب للمستقيم أثناء الجماع يستلزم عملية جراحية خطيرة.

٧- الجماع من الدبر ليس فيه المعنى الإنساني للزواج، وهو الإنجاب، كما أنه يمنع حدوث الذرية نتيجة الالتهابات.

---

(١) رواه أحمد والترمذي وغيرهما بإسناد صحيح.

٨- لا تشعر المرأة بلذة الجماع من الدبر، لأن الشرج ليس به أعصاب الإحساس الجنسى التى توجد بالفرج. فسبحان من خلق الزوجين الذكر والأنثى.

ومن الأمراض التى عاقب الله سبحانه وتعالى بها أصحاب الشذوذ الجنسى:

١- مرض السيلان، وهو مرض خطير، ينتقل بسرعة، وينشأ هذا المرض الفتاك من جرثومة خاصة، فأول ما يصيب فإنه يصيب الأنثيين بالتهابات شديدة، يحدث بسببها عسر البول، وربما أدى إلى امتناعه مطلقًا مما يجعل المصاب يحتاج إلى عملية جراحية.

٢- مرض (القرحة الزهرية) وهو عبارة عن قرحة صغيرة تظهر فى طرف العضو، تسيل منها مادة تسبب قروحًا غيرها، فلا تزال تتسع، وتتعمق حتى تتلف العضو.

٣- ومنها: (مرض الزهرى) يظهر على هيئة قروح جلدية، وبول زلالى، ثم يصاب الجهاز التناسلى، ويعرض صاحبه للأمراض التى تفتك به، وأكثر ما يصاب بالزهرى من أعضاء الجسم بعد الجلد الدماغ، مما يجعله يؤثر على العين، وربما أصابها بالعمى، وقد ثبت أن ٢٢٪ ممن يصابون بالزهرى الدماغى يبرءون، ١٩٪ يغتالهم المرض فيموتون، و٥٩٪ يعيشون عيشة منغصة بالأسقام والآلام، وغير ذلك مما ذكرنا، لا مجال للحديث عنه، نسأل الله أن يعافينا من الأمراض ما ظهر منها وما بطن.

• عقوبة اللواط فى الدنيا •

أخا الإسلام:

بالنظر فى الوصية التى نحن بصدد الحديث عنها يتبين لنا أن القتل هو عقوبة هذه الجريمة النكراء، والعقوبة فى الحديث صريحة: «**من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به**» يقول الشوكانى فى نيل الأوطار:

«وما أحق مرتكب هذه الجريمة، ومقارف هذه الرذيلة الذميمة، بأن يعاقب عقوبة يصير بها عبرة للمعتبرين، ويعذب تعذيبًا يكسر شهوة الفسقة المتمردين، فحقيق بمن أتى بفاحشة قوم ما سبقهم بها من أحد من العالمين أن يصلى من العقوبة بما يكون فى الشدة والشناعة مشبهًا لعقوبتهم، وقد خسف الله بهم، واستأصل بذلك العذاب بكرهم وثيبهم»[1] وعلى هذا فجريمة اللواط عقوبتها القتل، وقد ذهب إلى ذلك الإمام مالك وأحمد، وقول للشافعى، سواء كان الفاعل أو المفعول بكرًا أم ثيبًا.

وهذا القول مروى عن كثير من الصحابة رضوان الله عليهم منهم: أبو بكر، وعمر، وابن عباس وقد نقل بعض الحنابلة إجماع الصحابة على أن الحد فى اللواط هو القتل.

---

(١) نيل الأوطار للشوكانى.

لكنهم اختلفوا فى كيفية قتله:

١- يرجم بالحجارة حتى الموت أحصن أم لم يحصن.

٢- يرجم بعد أن يرمى من أعلى مكان فى القرية، فقد سئل ابن عباس رضي الله عنهما «ما حد اللوطى؟ فقال: ينظر إلى أعلى بيت فى القرية، فيرمى منكسًا، ثم يتبع بالحجارة».

وقال إبراهيم النخعى -رحمه الله-: «لو كان أحد ينبغى له أن يرجم مرتين لكان ينبغى للوطى أن يرجم مرتين».

٣- يحرق، وإلى ذلك فعل أبو بكر وغيره من الصحابة، وقد حرقهم ابن الزبير وهشام ابن عبد الملك. لأن أبا بكر حين استشار أصحاب رسول الله ﷺ قال على بن أبى طالب: «إن هذا ذنب لم تعص به أمة من الأمم إلا أمة واحدة صنع الله تعالى بها ما علمتم أرى أن نحرقه بالنار»[1]

٤- يحز رقبته كالمرتد.

٥- يهدم عليه جدار.

والرأى الثانى: ذهب الشافعية إلى أن اللواط حده كحد الزنى، يجلد البكر، ويرجم المحصن، وهذا المذهب مروى عن بعض التابعين كعطاء وابن المسيب وغيرهما.

وقد استدل الشافعية بأدلة متعددة ذكرها الفخر الرازى فى تفسيره.

لكن الأدلة الواردة بقتل الفاعل والمفعول به مطلقًا مخصصة لعموم أدلة الزنى التى تفرق بين البكر والثيب، وهى مبطلة للقياس، لأنه لا قياس مع النص.

فتكون هذه الأدلة مرجوحة، لأن اللواط يختلف عن الزنى.

يقول ابن القيم رحمه الله:

اختلف الناس فى عقوبته على ثلاثة أقوال:

١- أنها أعظم من عقوبة الزنى، كما أن عقوبته فى الآخرة أشد.

٢- أنها مثلها.

٣- أنها دونهما[2].

والرأى الثالث: يقولون بالتعزير لكل منهما وهو مذهب الأحناف، وللإمام قتله تعزيرا، والأصح أنه يقتل والله أعلم.

---

(١)، (٢) انظر روضة المحبين لابن القيم من ص٣٣٧: ص٣٤٧ ففيه بغيتك ط/ التوفيقية وانظر ذم الهوى لابن الجوزى من ص١٦٢: ص١٦٨

• عقوبته فى الآخرة •

وقد روى فى ذلك أحاديث منها:

١- عن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**سبعة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولا يجمعهم مع العالمين، يدخلون النار أول الداخلين، إلا أن يتوبوا فمن تاب تاب الله عليه: الناكح يده، والفاعل والمفعول به، ومدمن خمر، والضارب أبويه حتى يستغيثا، والمؤذى جيرانه حتى يلعنوه، والناكح حليلة جاره**»[١].

وعن عبد الله بن عمرو قال: يحشر اللوطيون يوم القيامة فى صورة القردة والخنازير[٢]

٢- وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «**من مات من أمتى يعمل عمل قوم لوط نقله الله إليهم حتى يحشر معهم**»[٣]

• نصيحة إلى كل مسلم •

أخا الإسلام:

هذا هو أحد علماء الإسلام، العلامة «الآجرى» ينصح المسلمين أن يحفظوا أنفسهم بعيدًا عن هذه الجريمة النكراء، فيقول: اتقوا الله يا معشر المسلمين، يا أهل الصلاة، والزكاة، والصيام، ويا حجاج بيت الله الحرام.

يا من أوجب الله الكريم عليهم الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر: احذروا عمل قوم لوط، واقبلوا على الله الكريم ما وعظكم به تفلحوا، واحفظوا فروجكم إلا عن الزوجة، أو ملك اليمين من الإماء، أما سمعتم قول مولاكم جل من قائل: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ**﴾ [المؤمنون: ١:٧] فاتقوا الله يا معشر المسلمين، ولا تعتدوا بفروجكم إلى ما لا يحل لكم، واعلموا أن عقوبة من عمل بعمل قوم لوط اللعنة من الله عز وجل، ومن رسوله، مع شدة العقوبة فى الدنيا والفضيحة، وما أعد له فى الآخرة من العذاب أعظم إن لم يتب[٤].

---

(١) ذم الهوى لابن الجوزى ص١٦٧، وروضة المحبين لابن الجوزى ص٣٤٥ والآجرى فى ذم اللواط وابن كثير فى التفسير ١/ ٢٧٠ والألبانى فى إرواء العليل ٨/ ٥٨ وقال: إن أبا الشيخ أخرجه فى مجلس من مجالسه. (٢)، (٣) ذم الهوى.

(٤) ذم اللواط للآجرى ص٢٧، ٢٩ بتصرف يسير - مكتبة القرآن بتحقيق الشيخ مجدى فتحى السيد.

ثم يقول: فإن قال قائل: فإذا عرفنا من يعمل عمل قوم لوط، ومن يصحب الغلمان الذين يشار إليهم بالفسق، ومن يتصنع للفساق، وأشباه هؤلاء، كيف يكون وصفهم عندنا؟ قيل له: من عرفت من الناس من هذه صفته، فإياك أن تعاشره، ولا تجالسه، ولا تصاحبه، فإن كان ذا قرابة، أو جارًا، فانصحه، وعرفه قبيح ما هو عليه، فإن أبى القبول منك، وإلا فاهجره، ولا تسلم عليه، وإن مرض، وكان ممن يجب أن تعوده، فعده، وانصحه، وأعلمه أنك إن لم تتب إلى الله عز وجل، وأقمت على هذه الفواحش التى أنت مقيم عليها، لم نعدك فى مرضك، ولم نسلم عليك، وهجرناك، وحذرناك، وحذرنا منك إخواننا، ونهينا عن صحبتك، فلعله يتوب إذا نصحتموه إن شاء الله تعالى[1]

• الفرق بين اللواط والزنى •

يقول ابن القيم:

ومن تأمل قوله سبحانه فى الزنا: ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ [الإسراء: ٣٢]. وقوله عن اللواط: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠] تبين لك تفاوت ما بينهما، وأنه سبحانه نكَّر الفاحشة فى الزنا فقال: ﴿فَاحِشَةً﴾ أى هو فاحشة من الفواحش، ولكنه عرفها فى اللواط، فقال: ﴿الْفَاحِشَةَ﴾ أى أتأتون الخصلة التى استقر فحشها عند كل أحد، فهى لظهور فحشها وكماله غنية عن ذكرها، بحيث لا ينصرف الإثم إلى غيرها، ثم أكد سبحانه شأن فحشها بأنها لم يعملها أحد من العالمين قبلهم، فقال: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠] ثم زاد فى التأكيد بأن صرح بما تشمئز منه القلوب، وتنبو عنه الأسماع، وتنفر منه الطباع أشد النفرة، وهو إتيان الرجل رجلاً مثله ينكحه كالأنثى، فقال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ [الأعراف: ٨١].

ثم نبه سبحانه عن استغنائهم عن ذلك، وأن الحامل لهم عليه ليس إلا مجرد الشهوة، لا الحاجة التى لأجلها مال الذكر إلى الأنثى، من قضاء الوطر، ولذة الاستمتاع، وحصول المودة والرحمة التى تنسى المرأة لها أبويها، وتذكر بعلها، وحصول النسل، وغير ذلك من المصالح التى تتأتى من النكاح السليم الصحيح، الذى هو اتصال الرجل بزوجته شرعًا.

---

(١) ذم اللواط للآجرى ص٢٧، ٢٩ بتصرف يسير -مكتبة القرآن بتحقيق الشيخ مجدى فتحى السيد.

ثم أكد سبحانه وتعالى قبح هذا العمل بأنه عكس الفطرة الصحيحة التى فطر الله الناس عليها، وهى شهوة النساء دون الذكور، لكنهم قلبوا الأمور وعكسوها، فلهذا قلب الله عليهم ديارهم، فجعل عاليها سافلها، بل ونكسهم فى العذاب على رءوسهم. فتأمل الفارق بين الفاحشتين، تجد أن فاحشة اللواط أبشع وأشنع فى كل الأحوال(١)

•موعظة•

أخى الحبيب:

لقد ذهبت اللذات، وأعقبت الحسرات، وانقضت الشهوات، فقوم لوط تمتعوا قليلاً، وعذبوا طويلاً، لقد رتعوا مرتعًا وخيمًا فأعقبهم عذابًا أليمًا، أسكرتهم خمرة تلك الشهوات، فما استفاقوا إلا فى دنيا المعذبين، وأرقدتهم تلك الغفلة فما استيقظوا إلا وهم فى منازل الهالكين.

فيا أيها الضال عن طريق الهدى، أما تسمع صوت الحادى وقد حدا، من لك إذا ظهر الجزاء وبدا، ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦].

فيا من تكتب لحظاته، وتجمع لفظاته، وتُعلم عزماته، وتحسب حركاته، إن راح أوغدا ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦].

ويحك إن الرقيب حاضر، يرعى عليك اللسان والناظر، وهو إلى جميع أفعالك ناظر فعد إلى مولاك، وراقبه واطلب منه أن يغفر ذنوبك، ويستر عيوبك.

ولا تشغل قلبك من الدنيا إلا بقدر ما تحققه من عمرك، ولتكن جرأتك على المعاصى بقدر صبرك على النار، وإذا أردت أن تعصيه فانظر مكانًا لا يراك فيه.

اللهم اجعلنى لك ذاكرًا، ولنعمائك شاكرًا، ومنك راهبًا، ولك مطاوعًا، وإليك مخبتًا، (رب تقبل توبتى، واغسل حوبتى، وأجب دعوتى، وثبت حجتى، واهد قلبى، وسدد لسانى، واسلل سخيمة قلبى(٢)) يا أرحم الراحمين.

---

(١) انظر من وصايا القرآن للمؤلف جزء ٢ص ٦٣٠

(٢) رواه أحمد فى مسنده والحاكم فى المستدرك عن ابن عباس وصححه الألبانى فى ص.ج برقم (٣٤٨٥).

الوصية رقم (٤٦)
لمثل هذا فأعدوا

عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: بينما نحن مع رسول الله ﷺ، إذ بَصُرَ بجماعة، فقال: **«علام اجتمع هؤلاء؟»** قيل: على قبر يحفرونه، قال: ففزع رسول الله ﷺ فبدر بين أصحابه مسرعًا، حتى انتهى إلى القبر فجثى عليه، قال: فاستقبلته من بين يديه لأنظر ما يصنع، فبكى حتى بلّ الثرى من دموعه، ثم أقبل علينا فقال: **«أي إخوانى لمثل هذا اليوم فأعدوا»**(١).

صدق رسول الله ﷺ

• فى رحاب هذه الوصية •

إن البراء بن عازب رضي الله عنه كان فى يوم من الأيام يجلس مع رسول الله ﷺ كعادته ليتعلم منه، ويتفقه على يديه، وبينما الرسول ﷺ مع أصحابه، إذ رأى جماعة منهم قد اجتمعوا، فأراد أن يتعرف النبى ﷺ على حالهم، فقال للبراء:

ما سبب هذا الاجتماع؟ فأخبروا رسول الله ﷺ أنهم قد اجتمعوا لمعاونة أحدهم على حفر قبر، حينئذ فزع رسول الله ﷺ، وأسرع إليهم ليعاونهم، ثم أخذ ينظر إلى القبر ويبكى حتى بللت دموعه الأرض من كثرتها، ثم أراد أن يوعظهم فى هذا المقام، وفى هذا الاجتماع، فقال لهم موصيًا، وناصحًا:

«لمثل هذا اليوم فأعدوا» أى لمثل هذه الساعة، ولمثل هذا المكان الموحش، الذى هو مصير بنى الإنسان بعد صعود الأرواح إلى عالم آخر، ذلك المكان الذى لو نجا صاحبه ويسره الله عليه لكان ما بعده أيسر، وأسهل! لما روى عن النبى ﷺ أنه قال: **«إنّ القبر أول منازل الآخرة، فإن نجا منه صاحبه، فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه»**(٢)

فيا له من مكان ما أضيقه! ويا له من مكان ما أظلمه!.

فانتبه أخى الحبيب من نومة الغفلة، واعمل ليوم النقلة، واستعد لظلمة القبر، مادمت فى فسحة ومهلة، ولا تقطع أيامك بالمحال، وجنب نفسك سوء الفعال، فإن الموت نازل بك، والقبر أمامك.

---

(١) رواه أحمد فى مسنده (١٨٥٠٨) جـ١٤/ ٢٢١ بإسناد صحيح والبخارى فى التاريخ، وابن ماجه فى الزهد (٤١٩٥) ٢/ ١٤٠٣ وحسنه الألبانى فى ص.ج برقم (٢٦٥٩).

(٢) رواه أحمد فى مسنده (٤٥٤) بإسناد صححه الشيخ أحمد شاكر ١/ ٣٦٠ ورواه الترمذى وابن ماجه والحاكم.

• وصف القبر •

فيا من اشتغلت باللذات، وأفنيت عمرك بالشهوات، وعصيت إله الأرض والسموات، سيكون مصيرك فى بيت الوحشة والحسرات، بيت وصفه سيد الأولين والآخرين بأنه أفظع المناظر، يقول النبى ﷺ: «**ما رأيت منظرًا قط إلا والقبر أفظع منه**»(١) نعم ما أصدق وصف سيد البشر ﷺ فهو بيت الوحشة، ومنزل الضيق والغمة، فيه كربات وحسرات، وأهوال مقطعات. من ظلمات القبور، وسؤال منكر ونكير، والخلود فيه إلى يوم النشور.

ماذا لو نظرت حالك بعد ما توضع فى القبر، لو رآك أحب الناس إليك، لولى منك فرارًا، ولملئ منك رعبًا، فهذا هو عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- يدخل عليه رجل من جلسائه، فيقول له: «يا فلان، قد أرقت الليلة متفكرًا، قال: فيم يا أمير المؤمنين؟ قال: فى القبر وساكنه، إنك لو رأيت الميت بعد ثلاث فى القبر لاستوحشت من قربه، بعد طول الأنس منك بناحيته، ولو رأيت بيتًا تجول فيه الهوام، ويجرى فيه الصديد، وتخترقه الديدان، مع تغير الرائحة، وبلى الأكفان، بعد حسن الهيئة وطيب الريح، ونقاء الثوب، ثم شهق شهقة خر مغشيًا عليه»(٢)

وعن وهيب بن الورد، قال: بلغنا أن رجلاً فقيهًا دخل على عمر بن عبد العزيز، فقال: سبحان الله، كأنه يعجب من أمره الذى هو عليه، فقال له: تغيّرت بعدنا! فقال له عمر: وتبينت ذلك، فقال له: الأمير أعظم من ذلك، فقال له: يا فلان، فكيف لو رأيتنى بعد ثلاث، وقد أدخلت قبرى، وقد خرجت الحدقتان، فسالتا على الخدين، وتقلصت الشفتان، عن الأسنان، وانفتح الفم، ونتأ البطن، فعلا الصدر وخرج الصديد من الدبر.

فاستعد أخى الحبيب لهذا المكان المريب، وتذكر من مضى، واعتبر بمن سبق، ومر عليهم مخاطبًا، وادعهم إن كنت داعيًا، وسل غنيهم: ما بقى من غناه؟ وسل فقيرهم: ما بقى من فقره؟ وسلهم عن الألسن التى كانوا بها يتكلمون، وعن الأعين التى كانوا إلى اللذات بها ينظرون، وسلوهم عن الجلود الرقيقة، والوجوه الحسنة، ما صنع بها الديدان تحت الأكفان؟ سلهم: أين خدمهم وعبيدهم؟ ودورهم وكنوزهم؟ أين ثمارهم اليانعة؟ أين رقاق ثيابهم؟ أين طيب نحورهم؟ أين كسوتهم لصيفهم وشتائهم؟ لقد سالت الحدق على الوجنات، وامتلأت الأفواه دمًا وصديدًا، ودبت دواب الأرض فى الأجساد، ففرقت أعضاءهم

---

١) رواه أحمد فى مسنده والترمذى والحاكم وحسنه الألبانى فى ص.ج (٩٣٥).

(٢) أهوال القبور لابن رجب ص١٩٥ (٣) من كلام عمر بن عبد العزيز مختصرا وبتصرف.

ولذلك ذكر أنه لا يأتي على الميت في قبره أشد وأصعب من أول ليلة يبيت فيها، فعندئذ يدفن، وينصرف المشيعون، فيقول بلسان حاله إن كان من أهل الشقاء: ياليتني مع من انصرف لعظم ما يعاين من هول المطلع.

•القبر يتكلم•

أخي الحبيب:

لا تظن أن القبور صامتة، بل إنها تتكلم وتخاطب أصحابها، وتنذرهم لكننا لا نسمعها.

فعن عبيد بن عمير -رحمه الله- عن أبيه قال:

«يجعل للقبر لسانا ينطق به، فيقول:

ابن آدم، كيف نسيتني؟ أما علمت أني بيت الأكلة، وبيت الدود، وبيت الوحشة؟»(١)

ويقول أيضًا:

«إنَّ القبر ليبكي، يقول في بكائه: أنا بيت الوحشة، أنا بيت الوحدة، أنا بيت الدود»(٢).

وعن بلال بن سعد -رحمه الله- يقول: «ينادي القبر في كل يوم: أنا بيت الغربة، وبيت الدود والوحشة، وأنا حفرة من حفر النار، أو روضة من رياض الجنة، وإن المؤمن إذا وضع في لحده كلمته الأرض من تحته، فتقول: والله لقد كنت أحبك وأنت على ظهري تمشي، فكيف وقد صرت في بطني، فإذا وليتك فستعلم ما أصنع، فيتسع له مد بصره».

وإذا وضع الكافر قالت: «والله لقد كنت أبغضك وأنت تمشي على ظهري، فإذا وليتك فستعلم ما أصنع، فتضمه ضمة تختلف منها أضلاعه»(٣)

وقال أسيد بن عبد الرحمن -رحمه الله-:

«بلغني أن المؤمن إذا مات، وحمل قال: أسرعوا بي، فإذا وضع في لحده كلمته الأرض، فتقول: إن كنت لأحبك وأنت على ظهري، فأنت الآن أحب إليّ.

فإذا مات الكافر، وحمل قال: ارجعوا بي، فإذا وضع في لحده كلمته الأرض وقالت: إن كنت لأبغضك وأنت على ظهري، فأنت الآن أبغض إليّ»(٤)

---

(١) ذكره أبو نعيم في حلية الأولياء ٣/ ٢٧١ بإسناد صحيح.

(٢) شرح الصدور للسيوطي ص١٥٠ ط/ التوفيقية وابن أبي شيبة في مصنفه ١٣/ ٤٤٣.

(٣) أخرجه البيهقي في الشعب والسيوطي في شرح الصدور ص١٥١ ط/ التوفيقية.

(٤) ابن المبارك في الزهد (١٦٢).

وعن محمد بن صبيح -رحمه الله- قال:

«بلغنا أن الرجل إذا وضع فى قبره، فعذب أو أصابه بعض ما يكره، ناداه جيرانه من الموتى: أيها المتخلف فى الدنيا بعد إخوانه، أما كان لـك فينا معتبر؟ أما كان لك فى تقدمنا إياك فكرة؟ أما رأيت انقطاع أعمالنا هنا وأنت فى المهلة؟ فهلا استدركت ما فات؟!».

وتناديه بقاع القبـر: «أيها المغتر بظهر الأرض، هلا اعتـبرت بمن غيب من أهلك فى بطن الأرض، ممن غرته الدنيا قبلك؟ ثم ساق به إلى أجله إلى القبور، وأنت تراه محمولاً- تناديه أحبته- إلى المنزل الذى لابد منه»(١)

وعن عمر بن ذر قال: «إذا دخل المؤمن حفرته، نادته الأرض: أمطيع أم عاصٍ؟ فإن كان صالحًا، ناداه مناد من ناحية القبر عودي عليه خضرة، وكوني عليه رحمة، فنعم العبد كان لله، ونعم المردود إليك، فتقول الأرض: الآن استحق الكرامة»(٢).

• القبر بيت الوحشة والظلمة •

إن القبر هو بيتـك يابن آدم تحت الأرض فلا تغفل عن زخرفته بالعـمل الصالح فعن عبد الله بن العيزار قال: لابن آدم بيـتان: بيت على ظهر الأرض، وبيت فى بطن الأرض، فعمد إلى الذى علـى الأرض فزخرفه وزينه، وجعل فيه أبوابًا للـشمال، وأبوابًا للجنوب، وصنع فيه ما يصلحه لشتائه وصيفه، ثم عمد إلى الذى فى بطن الأرض فخربه، فأتى عليه آت، فقال: أرأيت هذا الذى أراك قد أصلحته، كم تـقيم فيه؟ قال: لا أدرى. قال: فالذى خربته، كم تقيم فيه؟ قال: فيه مقامى، قال: تقرّ بهذا على نفسـك، وأنت رجل تعقل؟!.

وعن أنس بن مـالك ﷺ قال. «ألا أخـبركم بـيومـيـن وليلتيـن لم يسمع الخـلائق بمثلهما؟ أول يوم يجيئك البشيـر من الله، إما برضى الله، وإما بسخطه، ويوم تقف فيه بين يدى الله، تأخذ فيه كتابك، إما بيمينك، وإمـا بشمالك، ليلة يبيت الميت فى قبره لم يبت ليلة قبلها مثلها، وليلة صبيحتها يوم، ليس بعدها ليلة»(٣)

وشهد الحسن البـصرى رحمه الله جنازة، فاجتمع عليه النـاس، فقال: «اعملوا لمثل هذا اليوم -رحمكم الله- فإنما هم إخوانكم تقدموكم، وأنتم بالأثر، أيها الخالف بعد أخيه، أنت الميت غدًا، والباقى بعدك، والميت فى أثرك أولاً فأول». ولهذا كان الصالحون ﷺ إذا أرادوا العبـرة والموعظة ذهبـوا إلى القبور وتـأملوا حال أهلهـا، ومن بين هؤلاء الصـالحين الحسن البصرى -رحمه الله-.

---

(١) ذكره ابن أبى الدنيا فى القبور وابن منده والسيوطى فى شرح الصدور ص١٥١ ط/ التوفيقية.

(٢) المرجع السابق ص١٥١ وأهوال القبور لابن رجب الحنبلى ص٥٥

(٣) رواه البيهقى فى الشعب والسيوطى فى شرح الصدور ص١٥٢

افتقده أحبابه يومًا، فلما أمسى، قال له أصحابه: أين كنت اليوم؟ قال: كنت اليوم عند إخوان لى، إن نسيت ذكرونى، وإن غبت عنهم لم يغتابونى، فقال له أصحابه: نعم الإخوان والله هؤلاء، يا أبا سعيد، دلنا عليهم. قال: هؤلاء أصحاب القبور.

فأكثر أخى الحبيب من ذكر القبر، وأعد الزاد لبيت الظلمة ! بيت الوحدة ! بيت الدود، بيت الخراب، لذلك يقول سفيان الثورى رحمه الله: «من أكثر من ذكر القبر وجده روضة من رياض الجنة، ومن غفل عنه وجده حفرة من حفر النار»(١)

أخى الحبيب: استعد لسفرك، وتأهب لرحيلك، وحول جهازك من المنزل الذى أنت عنه ظاعن، إلى المنزل الذى أنت فيه مقيم، ولا تغتر بما اغتر به البطالون قبلك من طول آمالهم، فقصروا عن ربهم وزادهم، فندموا عند الموت أشد الندامة، وأسفوا على تضييع العمر أشد الأسف، فلا الندامة عند الموت تنفعهم، ولا حمدوا أنفسهم على التقصير.

• أمنية أصحاب القبور •

يقول ابن رجب:

غاية أمنية الموتى فى قبورهم حياة ساعة يستدركون فيها ما فاتهم من توبة وعمل صالح، وأهل الدنيا يفرطون فى حياتهم فتذهب أعمارهم فى الغفلة ضياعًا، ومنهم من يقطعها بالمعاصى.

قال بعض السلف: أصبحتم فى أمنية ناس كثير يعنى: أن الموتى كلهم يتمنون حياة ساعة، ليتوبوا فيها ويجتهدوا فى الطاعة، ولا سبيل لهم إلى ذلك(٢)

لو قيل للقوم ما مُنَاكُمُ طلبوا ... حَيَاةَ يَوم ليتُوبوا فَاعْلَمِ
ويحك يا نفس ألا تيقُّظُ ... ينفع قبل أن تزل قدمى
مضى الزمان فى توان وهوى ... فاستدركى ما قد بقى واغتنمى

وعن أبى هريرة ﷺ قال: مر رسول الله ﷺ على قبر دفن حديثًا، فقال: «**ركعتان خفيفتان مما تحقرون وتَنَفَّلُون يزيدهما هذا فى عمله أحب إليه من بقية دنياكم**»(٣)

وعن كميل بن زياد قال: خرج على بن أبى طالب ﷺ يومًا إلى المقابر، فلما أشرف عليها قال: «يا أهل القبور. يا أهل البلى. يا أهل الوحشة، ما الخبر عندكم؟ فإن الخبر عندنا: أن الأموال قد قسمت، والأولاد قد يتمت، واستبدلت الأزواج. . فهذا خبر ما عندنا فما خبر ما عندكم؟ ثم التفت إلىَّ وقال: يا كميل، لو أذن لهم فى الجواب

(١) شرح الصدور ص ١٥٢
(٢) لطائف المعارف ص٥٧٦ ط/ دار ابن كثير.
(٣) رواه الطبرانى فى الأوسط وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (١٣٨٨).

لقالوا: «إن خير الزاد التقوى، ثم بكى، وقال: يا كميل: القبر صندوق العمل، وعند الموت يأتيك الخبر»[١]

فيا ساعيًا إلى خطاه تذكر حبسك، ويا مأسورًا في سجن الهوى خلص نفسك قبل أن تعز السلامة، وينصب الميزان، وينشر الديوان، وقد حوى ما كان، ويشهد عليك الجلد والملك والمكان، فحينها تخرس الألسن، وتنطق الجلود، ويشيب المولود، وتظهر الوجوه بين بيض وسود[٢]

فيا غافلاً عن نفسه! أمرك عجيب ، يا قتيل الهوى! داؤك غريب، يا طويل الأمل! ستدعى فتجيب، وهذا عن قليل، وكل آت قريب، هلا تذكرت لحدك، كيف تبيت وحدك، ويباشر الثرى خدك، وتقتسم الديدان جلدك، ويضحك المحب بعدك، ناسيًا عنه بُعْدك؟! والأهل مذ وجدوا المال ما وجدوا فقدك، إلى متى وحتى متى تترك رشدك؟ أما تحسن أن تحسن قصدك؟ الأمر جد مجد، فلازم جدك[٣].

مالي وقفت على القبور مسلمًا ... قبر الحبيب فلم يرد جوابي
يا صاحبي مالك لا ترد جوابنا ... أنسيت بعدي خلة الأحباب
قال الحبيب: وكيف لي بجوابكم ... وأنا رهين جنادل وتراب
أكل التراب محاسني فنسيتكم ... وحجبت عن أهلي وعن خلاني
فعليكم مني السلام تقطعت ... مني ومنكم خلة الأحباب

• إن للقبر ضمة لم ينج منها أحد •

أخي الحبيب:

هلا تذكرت ضمة القبر، لو تذكرت ضمة القبر ما نامت عينك، ولا هنأ عَيْشك ولا تلذذت بطعام ولا بشراب.

إن للقبر ضمة لا ينجو منها صالحًا ولا طالحًا، لا صغيرًا ولا كبيرًا، وضمة القبر ليست كعذابه، العذاب يكون للعصاة، والضمة تكون لهم جميعًا.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**لو نجا أحد من ضمة القبر، لنجا سعد ابن معاذ، ولقد ضُم ضمة، ثم روخي عنه**»[٤]

لكن لماذا سعد بن معاذ رضي الله عنه؟ أتدرى لماذا؟.

---

(١) حياة الصحابة للكاندهلوى.

(٢) من وصايا القرآن / للمؤلف جـ١/ ٢٠٥ بتصرف.

(٣) التبصرة لابن الجوزى.

(٤) صححه الألبانى فى صحيح الجامع

لأن سعد بن معاذ اهتز له عرش الرحمن، يوم أن استشهد في غزوة أحد، وفتحت له أبواب السماء، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«هذا الذي تحرك له العرش، وفتحت له أبواب السماء، وشهده سبعون ألفًا من الملائكة، لقد ضم ضمة، ثم فرج عنه»**[١] وفي رواية عن سعد بن أبي وقاص: **«لقد نزل من الملائكة في جنازة سعد بن معاذ سبعون ألفًا ما وطئوا الأرض قبل، وبحق أعطاه الله ذلك»**[٢]

وفي رواية: **«إنَّ للقبر ضغطة لو كان أحد ناجيًا منها لنجا سعد بن معاذ»**[٣]

إن ضمة القبر لا يفلت منها أحد حتى الصبيان الذين لم يبلغوا الحلم، ولذا قال ﷺ: **«لو أفلت أحد من ضمة القبر لأفلت هذا الصبي»**[٤] قاله لما دفن صبيًا صغيرًا وفي رواية عن أنس: **«لو أن أحدًا نجا من ضمة القبر لنجا هذا الصبي»**.

وأخرج عليٍّ بن معبد في كتابه الطاعة والعصيان، من طريق إبراهيم الغنوي، عن رجل قال: كنت عند عائشة رضي الله عنها، فمرت جنازة صبي صغير، فبكت، فقلت لها: ما يبكيك؟ قالت: هذا الصبي، بكيْتُ له شفقة عليه من ضمة القبر[٥]

لكنها تخفف بدعاء الصالحين، فقد أخرج الطبراني من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: توفيت زينب بنت رسول الله ﷺ، فخرجنا معه، فرأيناه مهتمًا شديد الحزن فقعد على القبر هنيهة، وجعل ينظر إلى السماء، ثم نزل فيه، فرأيته يزداد حزنًا، ثم خرج، فرأيته سري عنه وتبسم، فسألناه، فقال: **«كنت أذكر ضيق القبر وغمه، وضعف زينب، فكان ذلك يشق عليَّ، فدعوت الله أن يخفف عنها ففعل، ولكن ضغطها ضغطة سمعها ما بين الخافقين إلا الإنس والجن»**[٦]

لكن ما سبب هذه الضغطة؟

قيل: إن سبب هذه الضغطة، أنه ما من أحد إلا وقد ألم بخطيئة ما، وإن كان صالحًا، فجعلت هذه الضغطة جزاء له، ثم تدركه الرحمة[٧]

---

(١) رواه النسائي في السنن الكبرى ٤/ ١ والطبراني في الأوسط والبيهقي في الدلائل ٤/ ٢٨ وصحح إسناده الألباني.

(٢) رواه ابن سعد في الطبقات ٣/ ٩٢ وابن كثير في البداية والنهاية ٤/ ١٢٨ وابن عبد البر في الاستيعاب ٢/ ٦٠٣

(٣) رواه الطبراني في الأوسط وقال الهيثمي في المجمع ٣/ ٤٧ رجاله موثقون.

(٤) رواه الطبراني في الكبير وصححه الألباني في ص.ج رقم (٥٢٣٨).

(٥) شرح الصدور للسيوطي ص١٤٤

(٦) رواه الطبراني في الكبير ١/ ٢٥٧ وقال الهيثمي في المجمع ٣/ ٤٧ رجاله رجال الصحيح.

(٧) شرح الصدور للسيوطي ص١٤٥ ونوادر الأصول للترمذي.

وأما الأنبياء والرسل فلا نعلم أن لهم فى القبور ضمة، ولا سؤالاً لعصمتهم.

وعن محمد التيمى قال: كان يقال: «إنَّ ضمة القبر، إنما أصلها أنها أمهم، ومنها خلقوا، فغابوا عنها الغيبة الطويلة، فلما رد إليها أولادها ضمتهم ضم الوالدة غاب عنها ولدها، ثم قدم عليها، فمن كان لله مطيعًا ضمته برأفة ورفق، ومن كان عاصيًا ضمته بعنف، سخطًا منها عليه لربها»(١)

• موعظة •

يقول شميط بن عجلان:

أيها المغتر بطول صحته، أما رأيت ميتًا قط من غير سقم؟

أيها المغتر بطول المهلة، أما رأيت مأخوذًا قط من غير عدة؟

إنك لو فكرت فى طول عمرك لنسيت ما قد تقدم من لذاتك.

أبالصحة تغترون؟ أم بطول العافية تمرحون؟ أم للموت تأمنون؟.

أم على ملك الموت تجترءون؟!

إن ملك الموت إذا جاء لم يمنعه منك ثروة مالك، ولا كثرة احتشادك.

أما علمت أن ساعة الموت ذات كرب وغصص، وندامة على التفريط؟

ثم يقول:

رحم الله عبدًا عمل لساعة الموت.

رحم الله عبدًا عمل لما بعد الموت.

رحم الله عبدًا نظر لنفسه قبل نزول الموت(٢)

وقال خليد العصرى:

كلنا قد أيقن بالموت، وما نرى له مستعدًا!

وكلنا قد أيقن بالجنة، وما نرى لها عاملاً!

وكلنا قد أيقن بالنار، وما نرى لها خائفًا!

فعلام تعرجون؟ ما عسيتم تنظرون؟ الموت؟ فهو أول وارد عليكم من الله بخير أو بشرٍ، يا إخواتاه، سيروا إلى ربكم سيرًا جميلاً(٣).

وتزودوا لهذا السفر الطويل بخير زاد ألا وهو زاد التقوى، واعلموا أن الدنيا ليست لكم بدار فاعبروها ولا تعمروها.

اللهم هون علينا سكرات الموت، وأنقذنا من هول العرض، ووفقنا إلى صالح الأعمال، واهدنا لأحسن الأخلاق فإنه لايهدى لأحسن الأخلاق إلا أنت، واحشرنا مع الأنبياء والصالحين، يا رب العالمين.

---

(١) شرح الصدور للسيوطى ص١٤٥ ونوادر الأصول للترمذى.

(٢) صفة الصفوة ٣/ ٢ ٢		(٣) المرجع السابق ٣/ ١٢٦

الوصية رقم (٤٧)
اتقى الله واصبرى

عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أتى على امرأة تبكى على صبى لها، فقال لها: **«اتقى الله واصبرى»**.

فقالت: وما تبالى بمصيبتى، فلما ذهب قيل لها، إنه رسول الله ﷺ، فأخذها مثل الموت. فأتت بابه، فلم تجد عنده بوابين، فقالت: يا رسول الله ، لم أعرفك، فقال: **«إنما الصبر عند أول صدمة»**[١].

صدق رسول الله ﷺ

• فى رحاب هذه الوصية •

لقد زار النبى ﷺ القبور يومًا ليعلمنا كيفية زيارتها لكى نستعد للدار الآخرة بالأعمال الصالحة، وذات يوم زار مقبرة المدينة، فرأى امرأة تبكى على ولدها عند قبره بصوت يدل على السخط والجزع، وعدم الرضا، فماذا يفعل النبى ﷺ وهو قائد الأمة؟ هل يتركها لسخطها وحزنها؟ إنه المرشد الأعظم والنبى الأكرم فأوصاها بتقوى الله تعالى والخوف منه، وأوصاها بالصبر عند وقوع المصائب، لأن ذلك قضاء الله وقدره، فالموت مكتوب على العباد جميعًا، والجزع لا يرد مفقودا بل يضم إلى المصيبة مصيبة أعظم، وهى السخط على قضاء الله تعالى، الذى لا مفر منه ولكن المرأة بدلاً من أن تمتثل لوصية الرسول الأعظم ﷺ ازدادت فى معصيته، وقالت له: تنح عنى، فإنك لست مصابًا مثلى، ولم تكن تعرفه لتواضعه ﷺ فى مشيه، ورفقته بأمته، ولأنها مشغولة بالحزن والبكاء على ولدها، ولو عرفته لما خاطبته بهذه اللهجة، فلما عرفته ضاق صدرها، واشتد كربها، فأسرعت إلى بيته فلم تجد عنده بوابًا، فاعتذرت له، فأخبرها أن الصبر الحقيقى هو الذى يكون عند مفاجأة المصائب.

• حقيقة الصبر •

الصبر حلية الأولياء، وفضيلة الأتقياء، ووسام الشرفاء، وصفة الأنبياء وقد عرفه الصالحون من هذه الأمة بتعريفات متعددة:

قال ابن عطاء: الصبر هو الوقوف مع البلاء بحسن الأدب[٢]

وقال عمر بن عثمان: الصبر هو الثبات مع الله تعالى، وتلقى بلاءه بالرحب والدعة[٣]

---

(١) رواه البخارى (١٣٠٢) وأحمد فى مسنده (١٢٥٥٧) وابن ماجه (١٥٩٦) والنسائى (١٨٦٩).

(٢)، (٣) انظر مدارج السالكين لابن القيم جـ٢/ ١٦٤، ١٦٥ والرسالة القشيرية ص٢٥٥، ٢٥٦ ط/ المكتبة التوفيقية.

وقال ذو النون -رحمه الله-: هو التباعد عن المخالفات، والسكون عند تجرع غصص البلية، وإظهار الغنى -مع حلول الفقر- بساحات المعيشة[١]

وقيل: هو الغنى فى البلوى بلا ظهور شكوى.

وقال أبو على الدقاق: الصبر كاسمه.

الصبر مثل اسمه مرٌ مذاقه لكن عواقبه أحلى من العسل [٢]

إذن فالصبر عند المصيبة يعتبر حبس النفس عن الجزع والتسخط.

والصبر عند المرض، يكون بحبس اللسان عن الشكوى، والتضجر.

ويكون عند فقد عزيز -مثلا- بمنع الجوارح عن لطم الخدود، أو شق الجيوب أو دعاء بدعوى الجاهلية. ونحو ذلك.

فهو رحمة أنزلها الله تعالى فى قلوب أهل الإيمان، ولولاها لهلك العبد.

ولذلك ينبغى للعبد أن يعلم علم اليقين أن الأشياء كلها، قد فرغ منها، فلا سبيل لأحد إلى تغييره، فلابد من الصبر، حلواً كان أو مراً، ليبقى لك الثواب، وإلا، لم ينفعك شيء وتكون مأزوراً، فعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**أول ما خلق الله تعالى القلم. فأخذه بيمينه -وكلتا يديه يمين- قال: فكتب الدنيا، وما يكون فيها من عمل معمول، بر أو فجور، رطب أو يابس، فأحصاه عنده فى الذكر، فقال: اقرءوا إن شئتم: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾** [الجاثية: ٢٩] فهل تكون النسخة إلا من شيء قد فرغ منه»[٣] وفى رواية أخرى. «**فكتب ما كان، وما هو كائن إلى الأبد**».

• الصبر فى القرآن الكريم •

أخى الحبيب:

وبالنظر فى آيات القرآن الكريم تجد أن مادة (ص ب ر) بجميع مشتقاتها قد وردت فى القرآن الكريم حوالى مائة مرة وثلاث مرات.

إن الصبر خلق عظيم من أخلاق القرآن الكريم، وقد أوصانا الله تعالى به، لأن الابتلاء سنة ماضية، والمؤمن الحق هو الذى يعلم أن هذه الدنيا التى يعيش فيها إنما هى دار ابتلاء واختيار، منذ أن نزل الإنسان عليها فهو مبتلى:

إن مَنَّ الله عليك بالصحة والعافية فأنت مبتلى، وإن مرضت وسقم جسدك فأنت مبتلى، إن منَّ الله عليك بالمال فأنت مبتلى، قال سبحانه: ﴿**وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ**﴾ [الأنبياء: ٣٥].

---

(١)، (٢) انظر مدارج السالكين لابن القيم جـ٢/ ١٦٤، ١٦٥ والرسالة القشيرية ص٢٥٥،٢٥٦ ط/ المكتبة التوفيقية.

(٣) ذكره الآجرى فى «الشريعة» ص١٧٥ وابن أبى عاصم فى السنة (١٠٦) بإسناد صحيح.

لا راحة من هذا الابتلاء إلا إذا مَنّ الله عليك بدخول الجنة، قال عز وجل: ﴿الٓمٓ ۝١ أحسب النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُون ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِين مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذين صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١: ٣].

وبالصبر ينال المسلم الصابر أمنيته، يقول الإمام ابن تيمية: بالصبر واليقين تنال الإمامة فى الدين. قال سبحانه: ﴿وجَعَلْنا منْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُون بِأَمْرِنا لمَّا صَبَرُوا وكَانُوا بآيَاتنَا يوقنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤] ولما كان الإنسان هو المخلوق العاقل المبتلى، كان الصبر خصيصة من خصائصه التى تميزه.

قال الغزالى فى الإحياء: «الصبر خاصية الإنس، ولا يتصور ذلك فى البهائم، ولا الملائكة، أما البهائم فلنقصانها، وأما الملائكة فلكمالها»(١) فما دام الصبر من خصائصك أيها الإنسان، فلم الجزع؟ لم الهلع وعدم الصبر؟! وقد قال حبيبك محمد ﷺ «**عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير -وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن- إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له**»(٢) لم لا تصبر، والصبر جزاؤه الجنة؟ وهى سلعة غالية، وثمنها هو: الصبر على البأساء تصيب الأموال، والضراء تصيب الأبدان، والزلزلة تصيب النفوس، ولابد أن يصل هذا الزلزال النفسى إلى حد يصل إلى أن يقول الرسول ومن معه من أهل الإيمان: متى نصر الله؟! قال سبحانه: ﴿أَمْ حسبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذين خَلَوْا من قَبْلكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّه أَلا إِنَّ نَصر اللَّه قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤] كيف لا تصبر، وقد حفت الجنة بالابتلاءات والشهوات، كما قال سيد الكائنات: «**حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات**»(٣)

وقد بشر الله تعالى أهل الصبر بالجزاء الأوفى يوم القيامة، قال سبحانه. ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] يوفى أجره ما دام واثقًا فى موعود ربه، فيتسلى فى مصيبته بعلمه أن الله سوف يجبر له كل مصاب.

ولقد بشر مولانا تبارك وتعالى أولئك الذين اتخذوا الصبر شعارهم، بشرهم فى الدنيا وهم أحياء، فقال سبحانه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بشيءٍ مِّن الْخوْف وَالْجُوع وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمرَاتِ وبشِّرِ الصَّابِرِين ۝١٥٥ الَّذِين إِذَا أَصَابتهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا للَّه وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُون﴾ [البقرة: ١٥٥، ١٥٦] بشرهم لأن بلاءهم كان عامًا، قد أصاب قلوبهم

(١) إحياء علوم الدين ٤/ ٧٩ ط/ مصر للطباعة.

(٢) رواه مسلم (٢٢٩٥) وأحمد فى مسنده (١٨٨٣٦) وصححه الألبانى فى صحيح الجامع.

(٣) رواه البخارى ومسلم وأحمد فى مسنده (٨٩٢٤) وذكره الألبانى فى ص.ج (٣١٢٦).

بالخوف، وبطونهم بالجوع، وأموالهم بالنقص، وأنفسهم بالموت، وثمرهم وزروعهم بالآفات، ومن رحمة الله العلى القدير أنه جعل البلاء فى هذا كله: ﴿**بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ**﴾ وشىء تدل على التقليل والتحقير لأن ما هو أكثر وأكبر لا يطيقونه، فمسهم شىء قليل منه، تخفيفًا عنهم، وتقديرًا لضعفهم ثم عقب على ذلك بقوله: ﴿**أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ**﴾ [البقرة:١٥٧] فإذا ما ابتلاك الله تعالى فاصبر، وليكن عزاؤك فى هذا أن سيد الأولين والآخرين ﷺ هو وإخوانه من الأنبياء والمرسلين أوذوا فى الله حق الإيذاء، وتلك سنة الله فى خلقه، فالإنسان كلما ازداد إيمانًا ازداد بلاءً وإيذاءً، ولذلك يقول النبى الأكرم ﷺ: «**أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان فى دينه صلبًا اشتد بلاؤه، وإن كان فى دينه رقة ابتلى على قدر دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض وما عليه خطيئة**»(١)

• القرآن الكريم رتب خيرات الدنيا والآخرة على الصبر •

إن كل خير من الخيرات، والفوز بالجنات، والفلاح بأعلى الدرجات، مرتب على فضيلة الصبر فهيا بنا لنقف قليلاً مع هذه الخيرات التى ذكرها رب الأرض والسموات، ومنها:

١- **معية الله للصابرين:** وقد ذكرت هذه المعية فى مواضع متعددة فى كتاب الله جل وعلا:

أ- ففى سورة البقرة: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ [البقرة: ١٥٣].

ب- وفى نفس السورة: ﴿**كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ [البقرة: ٢٤٩].

جـ- وفى سورة الأنفال: ﴿**وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ [الأنفال: ٤٦].

د- وفى السورة نفسها: ﴿**وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ [الأنفال: ٦٥،٦٦].

وهذه المعية منه سبحانه وتعالى تتضمن حفظهم ورعايتهم، وتأييدهم بنصره، وحمايته لهم، وليس المراد بها الإحاطة والعلم، لأن الإحاطة والعلم معية عامة لكل الخلق، قال سبحانه: ﴿**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ**﴾ [الحديد: ٤].

---

(١) رواه أحمد والترمذى وابن ماجه وصححه الألبانى فى ص.ج ١/ ٢٣٠ (٩٩٢).

٢- محبة الله لهم:

قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦] والمحبة هنا معناها إرادة الخير والثواب والرحمة لهم.

٣- أن الله يحفظهم من كيد الأعداء:

قال سبحانه: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢].

٤- نيل الدرجات العلا في الجنة، وتسليم الملائكة عليهم:

قال سبحانه: ﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣].

وقال سبحانه: ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٢].

٥- الحصول على درجة الإمامة في الدين:

قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ [السجدة: ٢٤].

• الصبر على فقد الولد •

أخي الحبيب:

إن للصبر على فقد الولد جزاءً عظيمًا عند الله رب العالمين بينه رسولنا ﷺ ففي الحديث الذي رواه عنه أبو هريرة رضي الله عنه: **«لا يموت لإحداكن ثلاثة من الولد فتحتسبهم إلا دخلت الجنة، واثنان»** وفي رواية: **«فتمسه النار إلا تحلة القسم»**[١] وها هو أبو حسان يطلب من الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله عنه أن يحدثه بشيء مما سمعه من رسول الله ﷺ عن ثواب من فقد ولده، فيقول: «إنه قد مات لي ابنان فما أنت محدثي عن رسول الله ﷺ بحديث تطيب به أنفسنا عن موتانا؟ فيقول أبو هريرة: نعم **«صغارهم دعاميص الجنة»** -أي صغار أهلها- **يتلقى أحدهم أبويه، فيأخذ بيده، كما آخذ أنا بصنفة ثوبك هذا** -أي بطرفه- **فلا ينتهي حتى يدخله الله وإياه الجنة»**[٢] أي لا يتركه حتى يدخل معه الجنة. وعن أنس ابن مالك رضي الله عنه قال: أصيب حارثة يوم بدر -وهو غلام- فجاءت أمه إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، قد عرفت منزلة حارثة مني، فإن يك في الجنة أصبر وأحتسب، وإن تكن الأخرى ترى ما أصنع؟! فقال ﷺ: **ويحك، أو هبلت؟! أو جنة واحدة هي؟ إنها جنان كثيرة، وإنه لفي جنة الفردوس»**[٣]

---

(١) رواه مسلم (٢٠٢٨) وأحمد في مسنده (٨٩٠٢).

(٢) رواه مسلم (٢٩ ٢) وأحمد في مسنده (١٠٢٧٤). (٣) رواه البخاري.

وهذا هو أنس أيضًا يحدثنا عن أم سليم ﵂، تلك المرأة التى أسلمت وكان الإسلام هو مهرها، فيقول أنس:

«اشتكى ابن لأبى طلحة، فمات وأبوه طلحة خارج، فلما رأت امرأته أنه قد مات هيأت شيئا، وجعلت ابنها فى جانب البيت، فلما جاء زوجها، قال: كيف الغلام؟ قالت: هدأت نفسه، وأرجو أن يكون قد استراح، وظن أبو طلحة أنها صادقة، فبات، فلما أصبح اغتسل، فلما أراد أن يخرج أعلمته أنه قد مات، فصلى مع النبى ﷺ، ثم أخبره بما كان منها، فقال رسول الله ﷺ: «**لعل الله أن يبارك لكما فى ليلتكما**» فقال رجل من الأنصار: لقد رأيت لهما تسعة من الأولاد كلهم قد حفظ القرآن الكريم[(١)]

فعلى المسلم أن يصبر على قضاء الله تعالى وبلائه، فإن له ما أعطى، وله ما أخذ وكل شيء عنده بمقدار.

فعن أسامة بن زيد ﵄ قال: كنت مع رسول الله ﷺ إذ جاء رسول إحدى بناته، وعنده: سعد وأبى بن كعب ومعاذ -أن ابنها يجود بنفسه، فبعث إليها: «**لله ما أخذ، ولله ما أعطى، كل بأجر، فلتصبر، ولتحتسب**»[(٢)]

•أمور تخفف ثقل البلاء•

أما عن الأمور التى تخفف البلاء عن المبتلى، فهى كثيرة. منها:[(٣)]

١- **معرفة أن الله يحبك**: «**إن الله إذا أحب عبدًا ابتلاه**» وإذا أحبك الله جاءت ثمرة المحبة «**كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى عليها، ولئن سألنى لأعطينه، ولئن استعاذنى لأعيذنه**».

٢- **ملاحظة حسن الجزاء**: فلو قال لك رجل مثلا: سأضربك ضربة بيدى، ثم أعطيك مائة ألف جنيه، فهل ستشعر بألم الضربة؟ بالطبع لا (ولله المثل الأعلى) فلك أن تتخيل، أن الله يبتليك، ويقول لك: إن ثمن هذا البلاء هو الجنة!! لا شك أن حلاوة الأجر ستنسيك مرارة الألم

٣- **انتظار الفرج**: فإنك إذا جاءك المرض تكون بين حالين، إما أن تموت صابرًا محتسبًا فلك الأجر العظيم، وإما أن تشفى محتسبًا أيضًا فلك سعادة الدارين، واعلم أن الله لطيف بعباده. ومن لطفه تعالى بعباده أن تكون أنت فى قمة البلاء، وعلى الرغم من ذلك يلقى الله فى قلبك الراحة والرضا بقضاء الله، والثقة فى الأجر والثواب من عند الله.

---

(١) رواه البخارى ومسلم (١٩٠٩) بألفاظ قريبة

(٢) رواه مسلم (٦٣٥) والبخارى.

(٣) مواقف من حياة الأنبياء والصحابة والتابعين ١/ ٣٧ بتصرف لمحمود المصرى.

يا صاحب الهم إن الهم منفرج … أبشر بقرب فإن الفارج الله
إذا بليت فثق بالله وارض به … إن الذي يكشف البلوى هو الله
إذا قضى الله فاستسلم لقدرته … ما لمرء حيلة فيما قضى الله
اليأس يقطع أحيانًا بصاحبه … لا تجزعن فإن الكافى الله
والله ما لك غير الله من أحد … فقل بقلب سليم حسبى الله

٤- **تهوين البلية:** وذلك بأن تحمد الله على أن البلاء فى الدنيا، وليس فى الدين، وتحمده أيضًا أنها لم تكن أشد من ذلك.

٥- **سماع سير أهل البلاء:** فإن ذلك يهون عليك البلاء، وذلك لأن سماع سيرتهم يجعل الإنسان يشعر بأن هناك من ابتلى بمثل هذا البلاء -فيتصبر بسيرته-.

• شخصيات صابرة ذكرها القرآن •

لقد كان هذا الخلق العظيم من أخلاق صفوة خلق الله: أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام، ولقد حكى القرآن الكريم لنا صبر شخصيات منهم، فذكر:

١- **أيوب عليه السلام:**

وإذا ذكر أيوب ذكر الصبر، ولقد قال علماء التفسير والتاريخ وغيرهم: «كان أيوب عليه السلام رجلاً كثير المال -من سائر صنوفه وأنواعه- من الأنعام، والعبيد، والمواشى والأراضى المتسعة، وله أهل ومال كثير، وولد، فسلب ذلك كله شيئًا فشيئًا، وهو يصبر ويحتسب، ويذكر مولاه عز وجل فى ليله ونهاره، وصباحه ومسائه وابتلى بعد ذلك فى جسده، بأنواع البلاء، حتى طال مرضه، وانقطع عنه أصحابه وأحبابه، ولم يبق له أحد إلا زوجته، التى كانت ترعى له حقه، وتعرف له قدره، وتعينه على قضاء حاجته، لكن أيوب لم يزده ذلك إلا صبرًا واحتسابًا، وحمدًا لله وشكرًا وقد كانت مدة بلائه ثلاث عشرة سنة كما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه «أن أيوب عليه السلام ابتلى، فلبث فى بلائه ثلاث عشرة سنة»[1].

وظل صابرًا محتسبًا، حتى شمت به الأعداء، وتلك أخطر وأشد من البلاء، فرفع أيوب عليه السلام يده، وقال مناديًا ربه: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣] وتأمل حسن الأدب فى دعاء أيوب عليه السلام، إنه لم يسأله شيئًا معينًا كالشفاء، أو العافية، أو أن يعيد إليه أهله وماله، وولده، بل إنه اكتفى بأن ذكر نفسه بالحاجة والضعف، وذكر ربه بما هو أهله، ولم يزد على ذلك شيئًا.

فماذا كان رد السماء على أيوب عليه السلام؟

---

(١) رواه ابن حبان وصححه الحاكم وابن أبى حاتم انظر فتح البارى ٦/ ٤٢٢١.

لقد شرفه مولاه بإجابة ندائه، فرد عليه عافيته، وأمواله، وأولاده، قال سبحانه: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٤، ٨٥].

قال وهب بن منبه:

أوحى الله إليه «أني قد رددت عليك أهلك، ومالك، ومثلهم معهم، فاغتسل بهذا الماء، فإن فيه شفاءك، وقرب عن صاحبتك قربانًا»[١] ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤١: ٤٤].

لقد شرفه مرة أخرى بقوله: (عبدنا) فأضافه إليه إضافة تخصيص وتقريب، ولم يدخل بينه وبينه لام الملك، فيقول: عبدًا لنا.

وشرفه حين جعل له مخرجًا من يمين حلفه على امرأته، وهو فى مرضه تخليصًا له من مأزق الحنث، وتكريمًا له على جميل صبره، ثم توجه هذا كله بتلك العبارة الندية: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ فهذا التذييل يحمل أسباب التشريف السابق، وهو فى ذاته تشريف جديد فى كل جملة من الجمل الثلاث، وحسبك أن يسجل الله له فضيلة الصبر بقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾ فوصل اسمه باسمه، ووصفه بالصبر فأظهر مكانه فى القوة والعزيمة.

ثم قال: ﴿نِّعْمَ الْعَبْدُ﴾ وليس هناك أشرف من وصف الإنسان بالعبودية لله تعالى، فكيف بمن قيل فيه: نعم العبد؟[٢]

٢- إبراهيم عليه السلام:

ذلكم الرجل الذى جاهد فى الله حق جهاده حتى نصر الله الحق، وهزم الباطل، لقد دعا إلى توحيد الله تعالى ملكًا من ملوك الدنيا، يدعى النمرود، فما كان منه ومن قومه إلا أن قالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨].

جمعوا له حطبًا كثيرًا، وأضرموه نارًا، فكان لها شرر عظيم، ولهب مرتفع، فلما ألقوه فى النار، قال إبراهيم: حسبى الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم حين ألقى فى النار[٣]، وقالها محمد ﷺ حين قالوا له: إن الناس قد جمعوا لكم، فاخشوهم فما زادهم ذلك إلا إيمانًا وتثبيتًا.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٢/ ٢٢٣

(٢) الصبر فى القرآن د/ يوسف القرضاوى.

(٣) رواه البخارى بنحوه عن ابن عباس.

قال سعيد بن جبير: لما ألقى إبراهيم فى النار، جعل خازن المطر يقول: متى أومر بالمطر فأرسله؟ فكان أمر الله أسرع من أمره، قال سبحانه: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

فسبحان من أخرج هذا السيد من آزر، ثم أعانه بالتوفيق وآزر، ثم بعث إليه البيان فأعان ووازر، فلما رأيناه قد رحل عن المنجنيق وسافر، ولم يتزود إلا التسليم، ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

عبدٌ بذل نفسه لنا، فبلغناه من المنى، وعرفناه المناسك عند البيت ومنى، ولما رمى فى النار لأجلنا، قلنا لها بلسان التفهيم: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ قدم ماله إلى الضيفان، وسلم ولده إلى القربان، واستلم للرمى فى النيران، فلما رأينا محبنا فى بيداء الوجد يهيم، قلنا: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾[1]

٢- إسماعيل عليه السلام:

وهذا بطلٌ آخر من أبطال الصبر، إنه إسماعيل الذبيح عليه السلام، الذى ضحى بنفسه لأجل الله عز وجل، حين جاءه الخليل، وقال له: ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ [الصافات: ١٠٢] فماذا كان الجواب من هذا الابن البار؟ كان الجواب: ﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢] يا لله! ويا لروعة الإيمان والطاعة والإذعان!

وليس هذا فقط بل سعى معه حتى ينفذ قضاء الله، وقال له: يا أبت كبنى على وجهى حتى لا يحول ذلك بينك وبين تنفيذ أوامر الله جل وعلا.

وفعل إبراهيم عليه السلام ذلك، وأمسك بالسكين، وأخذ يسنها حتى أخذت فى الحجر، فأمسك بها يمررها على رقبة إسماعيل، لكنها لم تأخذ، لم تذبح، ما هذا؟ لقد أخذت فى الحجر، لكنها لم تأخذ فى رقبة إسماعيل، فماذا حدث؟ لقد رمى بها بعيدًا وقال لها: قبحك الله. لكن الله بقدرته أنطق السكين، فقالت:

يا إبراهيم أنا من قبل الجليل، لا من قبل الخليل، الخليل يقول: اقطعى، والجليل، يقول لا تقطعى، وأنا من قبل الجليل، لا من قبل الخليل، وكيف أقطع رقبة إسماعيل ونور محمد ﷺ يسطع فى وجهه وجبينه؟!.

إن الذى جعل النار بردًا وسلامًا على إبراهيم، هو الذى جعل السكين بردًا وسلامًا على إسماعيل.

---

(١) التبصرة لابن الجوزى جـ١/ ١٥٧، ١٥٨ ط/ ابن خلدون.

يا للعظمة! لقد أسلم الوالد ولده، وأسلم الولد عنقه، وتله أبو للجبين، وتهيأ للذبح بالسكين، وهنا كان الابتلاء قد بلغ غايته، وحقق ثمرته، فجاءت البشرى من السماء: ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٤: ١٠٧] وبهذا دخل إسماعيل عليه السلام ديوان الصابرين، وسجل اسمه بمداد من النور مع الخالدين، وكان عليه السلام أنموذجًا للصبر على طاعة الله جل وعلا

٣- يعقوب وابنه يوسف -عليهما السلام-:

ثم تذكر أخي الحبيب نبي الله يعقوب عليه السلام ذلكم النبي الذي فقد ولده، ومهجة فؤاده يوسف عليه السلام وهو طفل صغير، فماذا كان حاله؟.

لقد صبر وتحمل، لم ييأس، ولم يضجر، ولم يفقد الأمل في مولاه، ولم يسب الدهر أو يلعنه حين جاء إخوة يوسف ومعهم قميصه الملطخ بالدماء. بل إنه سلم الأمر لله وعرف أنهم افتروا عليه الكذب والبهتان، فقال لهم: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف:١٨] فاشتد به الحزن والألم، وأخذ منه الأسف مأخذه، حتى ابيضت عيناه من الحزن وهو كظيم. لكن لمن يتضرع؟ ولمن يرفع أكف الضراعة؟ ولمن يشكو؟! لا لأحد سوى رب العالمين، الذي يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء، لا لأحد سوى من إليه الملجأ والمشتكى، فقال بلسان المؤمن الصابر. ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦] وحزن يعقوب عليه السلام على فقد ولده لا ينافي الصبر، لا ينافي الشكوى إلى الله، وإنما ينافي الشكوى من الله تعالى بإظهار الجزع والتبرم، والسخط على القضاء، ولهذا رأى بعضهم يشكو إلى رجل آخر فقره، فقال له: يا هذا، تشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك؟!

أخي الحبيب:

وتذكر يا من دخلت السجن ظلمًا وعدوانا، بلا جناية أو جريمة، تذكر أن نبي الله يوسف عليه السلام دخله.

تذكر يا من طرده إخوته، وظلموه، تذكر ما فعل إخوة يوسف بيوسف عليه السلام، تذكر صبره حين وضع في الجب وهو صغير، تذكره حين صبر على الشهوة ومراودة امرأة العزيز، حين صبر عن معصية الله جل وعلا، تذكره حين صبر على كيد النسوة اللاتي قطعن أيديهن، وتأمل عاقبة صبره، لقد جمع الله بينه وبين أبيه، وإخوته، وهو يقول: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

• نساء مؤمنات صابرات •

١- زنيرة رضي الله عنها:

كانت من السابقات إلى الإسلام، وكانت مولاة بنى مخزوم، وكان أبو جهل يعذبها، ويجعل الأطفال يعبثون بعينها، فلما أسلمت عميت، فقال المشركون: أعمتها اللات والعزى لكفرها بهما! فقالت: وما يدرى اللات والعزى من يعبدها؟! إنما هذا من السماء وربى قادر على رد بصرى، فأصبحت من الغد، وقد ردَّ الله بصرها، فقالت قريش: هذا من سحر محمد.

ولما رأى أبو بكر ما ينالها من العذاب اشتراها فأعتقها، وهى أحد السبعة الذين أعتقهم أبو بكر رضي الله عنه(١)

٢- غزيلة بنت جابر بن حكيم رضي الله عنها:

وهى المرأة التى وهبت نفسها للنبى ﷺ، وكانت تكنى أم شريك، كانت من قبيلة دوس، أسلمت ثم جعلت تدخل على نساء قريش فتدعوهن سرًّا، وترغبهن فى الإسلام، حتى ظهر أمرها بمكة، فأخذوها، وقالوا: لولا قومك لفعلنا بك وفعلنا، لكنا سنردك إلى قومك.

تقول: فحملونى على بعير ليس تحتى شىء، ثم تركونى ثلاثًا لا يطعمونى ولا يسقونى، وكانوا إذا نزلوا منزلاً أوثقونى فى الشمس، واستظلوا هم منها، وحبسونى عن الطعام والشراب.

فبينما هم قد نزلوا منزلاً، وأوثقونى فى الشمس إذا أنا ببرد شىء على صدرى، فتناولته فإذا هو دلو من ماء، فشربت منه قليلاً ثم نزع منى فرفع، ثم عاد فتناولته فشربت منه، ثم رفع، ثم عاد فتناولته ثم رفع مرارًا، ثم تركت فشربت حتى رويت، ثم أفضت سائره على جسدى وثيابى.

فلما استيقظوا إذ هم بأثر الماء ورأونى حسنة الهيئة، فقالوا لى انحللت فأخذت سقاءنا فشربت منه؟ قلت: لا والله، ولكنه كان من الأمر كذا وكذا، قالوا: لئن كنت صادقة لدينك خيرمن ديننا، فلما نظروا إلى أسقيتهم وجدوها كما تركوها، فأسلموا عند ذلك(٢)

(١) أسد الغابة لابن الأثير ٥/ ٢٩٢،٢٩٣ والاستيعاب لابن عبد البر ٤/ ١٨٤٩ وابن هشام فى السيرة النبوية ١/ ٢٠٤ ط/ دار الفجر.

(٢) أسد الغابة٥/ ٤٦١ وصفة الصفوة لابن الجوزى ٢/ ٢٨ ط/ دار الفكر.

٣- سمية بنت خَبَّاط رضي الله عنها:

أم عمار بن ياسر رضي الله عنهما، وكانت من السابقات إلى الإسلام، كانت سابعة سبعة فى الإسلام، وكانت ممن يعذب فى الله عز وجل أشد العذاب.

وقد كان النبى ﷺ يمر بعمار بن ياسر، وأبيه، وأمه، وهم يعذبون بالأبطح فى رمضاء مكة، فيقول لهم النبى ﷺ: **«صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة»**[١] ولقد طعنها أبو جهل اللعين بحربة فى قبلها فماتت، فكانت أول شهيدة فى الإسلام[٢]

٤- زوجة فتح الموصلى:

وهذه زوجة فتح الموصلى رحمها الله انقطعت إصبعها فضحكت، فقال لها بعض من معها: أتضحكين وقد انقطع أصبعك؟ فقالت: **«أخاطبك على قدر عقلك، حلاوة** أجرها أنستنى مرارة قطعها»[٣]

٥- امرأة تعظ الرجال:

وقد روى مالك فى الموطأ عن يحيى بن سعيد عن القاسم قال: هلكت امرأة لى، فأتانى محمد بن كعب القرظى يعزينى بها، فقال: إنه كان فى بنى إسرائيل رجل فقيه، عالم عابد مجتهد، وكانت له امرأة، وكان بها معجبًا، ولها محبًّا، فماتت فوجد عليها وجدًا شديدًا، وتأسف عليها تأسفًا شديدًا، حتى خلا فى بيت، وأغلق على نفسه واحتجب، وإن امرأة سمعت به فجاءته، فقالت: إنَّ لى إليه حاجة، ليس يجزينى إلا مشافهته، فذهب الناس، ولزمت بابه، وقالت: مالى منه بدٌّ، فقال له قائل: إنَّ ها هنا امرأة أرادت أن تستفتيك. قال: ائذنوا لها فدخلت، فقالت: إنى استعرت من جارية لى حليًّا -أى ذهبًا- وكنت ألبسه وأعيره، فلبث عندى زمانًا، ثم إنهم أرسلوا إلىَّ فيه، أفأرده إليهم؟ قال: نعم، قالت: إنه مكث عندى زمانًا، قال: فذاك أحق لرده إياه إليهم، قالت: أفتأسف على ما أعارك الله ثم أخذه منك، وهو أحق به منك؟... فأبصر ما هو فيه، ونفعه الله تعالى بقولها[٤]

---

(١) الحديث رواه الحاكم فى المستدرك ٣/ ٣٨٣ وهو صحيح بشواهده.

(٢) أسد الغابة ٥/ ٣١٤ والسيرة النبوية لابن هشام ١/ ٢٠٥

(٣) مدارج السالكين لابن القيم ٢/ ١٧٥ والإحياء ٤/ ٩٢ وصفة الصفوة ٤/ ١٢٩ ط/ دار الفكر.

(٤) نقلاً من (مواقف من حياة الأنبياء والصحابة والتابعين جـ١/ ٤١٤ لمحمود المصرى وقد أشار أنه نقله من مختصر تسلية أهل المصائب للمصنف ص٥٠.

• مواعظ غالية في الصبر •

يقول العلامة الفيروز آبادى:

«اختبار الله تعالى لعباده تارة بالمسار ليشكروا، وتارة بالمضار ليصبروا، فصارت المحنة والمنحة جميعًا بلاء، فالمحنة مقتضية للصبر، والمنحة مقتضية للشكر، والقيام بحقوق الصبر، أيسر من القيام بحقوق الشكر، فصارت المنحة أعظم البلاءين، ولهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: من وسع عليه في الدنيا فلم يعلم أنه قد مكر به فهو مخدوع عن عقله، قال تعالى[1] ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

ويقول ابن الجوزى -رحمه الله-:

كان بعض النجارين يبيع الخشب، وكان عنده قطعة أبنوس ملقاة تحت الخشب، فاشتريت منه، فدخل دار الملك بعد مدة، فإذا بها قد جعلت سريرًا للملك، فوقف متعجبًا، وقال: لقد كنت لا أعبأ لهذه، فكيف وصلت إلى هذا المقام؟ فهتف به لسان المفهم نائبًا عنها: «كم صبرت على ضرب الفؤوس، ونشر المناشير حتى بلغت هذا المقام»[2]

وقال سفيان بن عيينة -رحمه الله تعالى-: «إني قرأت القرآن، فوجدت صفة سليمان عليه السلام مع العافية التي كان فيها: ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٣٠] ووجدت صفة أيوب عليه السلام مع البلاء الذي كان فيه: ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٤٤] فاستوت الصفتان، وهذا معافى، وهذا مبتلى، فوجدت الشكر قد قام مقام الصبر، فلما اعتدلا، كانت العافية مع الشكر أحب إليّ من البلاء مع الصبر»[3]

ولقد سئل الحارث المحاسبي -رحمه الله-: البلاء للمؤمنين كيف سببه؟

قال: البلاء على ثلاث حجات: على المخلطين نقم وعقوبات، وعلى المستأنفين تمحيص الجنايات، وعلى العارفين من طريق الاختيارات.

فقيل له: صف تفاوتهم فيما تعبدوا به. أي الفرق بين الثلاثة؟

قال: أما المخلطون فذهب الجزع بقلوبهم، وأسرتهم الغفلة، فوقعوا في السخط.

---

(١) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ٢/ ٢٧٤

(٢) المدهش لابن الجوزى ص٥٣١.

(٣) حلية الأولياء ٢/ ٢١٢، ٢١٣

وأما المستأنفون فـأقاموا لله بالصبر فى مواطن البلاء، حتى تـخلصوا، ونجوا منه بعد مكايدة ومؤنة.

وأما العارفـون، فتلقوا البلاء بالرضـا عن الله عز وجل فيما قـضى، وعلموا أن الله عدل فى القضاء، فسروا بحلول المكروه لمعرفة عواقب اختيار الله لهم[١].

ذكر القشيرى فى الرسالة:

أن الصبر لله عناء، والصـبر بالله بقاء، والصبر فى الله تعـالى بلاء، والصبر مع الله وفاء، والصبر عن الله جفاء وأنشدوا:

والصبر عنك فمذموم عواقبه والصبر فى سائر الأشياء محمود[٢]

وقال وهب بن منبه -رحمه الله-

وجدت فى التوراة أربعة أسطر متوالة: **أحدها**: من قرأ كتاب الله تعالى فظن أنه لم يغفر له فهو من المستهزئين بآيات الله تعالى.

والثانى: من شكا من مصيبة نزلت به، فإنما يشكو ربه.

والثالث: من حزن على ما فاته فقد سخط على قضاء ربه.

والرابع: من تضعضع لغنى ذهب ثلث دينه[٣]

ويقال: إنَّ الله تعالى يحتج يوم القيامة بأربـعة أنبياء على أربعة أجناس: يحتج على الأغنياء بسليمان عليه السلام، فإذا قال الغنى: الغنى شغلنى عن عبـادتك، يحتج عليه بسليمان عليه السلام، فيقـال له: لم تكن أغنى من سليمان، فـلم يمنعه غناه من عبـادة الله ويحتج على العبيد بيوسف عليه السلام، فيقول العـبد: كنت عبدًا والرق منعنى عن عبـادتك، فيقال له: إن يوسف عليه السلام لم يمنعه رقه عن عبادة الله.

ويحتج على الفقراء بعيسى عليه السلام، فيقول الفقير: إن حـاجتى منعتنى عن عبادتك، فيقال: أنت كنت أحوج أم عيسى؟ وعيسى لم يمنعه فقره عن عبادة الله.

وعلى المرضى بأيوب عليه السلام، فيقـول المريض: منعنى المرض عن العبادة، فـيقال له: مرضك كان أشد أم مرض أيوب؟ فلم يمنعه مرضه عن عبادة الله[٤]

(١) الحلية ١٠/ ٩٢ لأبى نعيم.
(٢) الرسالة القشيرية ص٢٥٧ ط/ المكتبة التوفيقية.
(٣) تنبيه الغافلين للسمرقندى ص١٩٧، ١٩٨ ط/ مكتبة التقوى.
(٤) المرجع السابق ص١٩٣

الوصية رقم (٤٨)
استوصوا بالنساء

عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«استوصوا بالنساء خيراً فإنهن خلقن من ضلع، وإن أعوج شىء فى الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيراً»**(١)

صدق رسول الله ﷺ

• فى رحاب هذه الوصية •

فى هذه الوصية المباركة يوصينا حبيبنا محمد ﷺ بالنساء، فيقول لنا: أوصيكم بالنساء خيراً، فاقبلوا وصيتى فيهن، وقد صدر النبى ﷺ الأمر بالسين والتاء اللتين تفيدان الطلب الموجه منه ﷺ إلى المكلفين على العموم، والمعنى: ليطلب الوصية بعضكم من بعض فى حق النساء، ويلزم من ذلك المحافظة والمبادرة إلى الامتثال، لأن من وصى بشىء كان أحرص منه عليه.

ثم يعلل النبى ﷺ على هذه الوصية فيقول: **«فإنهن»** أى أن الفاء للتعليل فكأنهن خلقن من ضلع أعوج، قيل: الضلع على حقيقته، فقد خلقها الله سبحانه وتعالى من ضلع آدم عليه السلام، قال سبحانه: **﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾** [الأعراف: ١٨٩] وقال سبحانه: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً﴾** [النساء: ١].

وقد روى ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم حديثًا جاء فيه:

«أنزل الله آدم فى دار ضيافته، وهى الجنة وحيداً فريداً، لا أنيس له، فكان يمشى فيها مستوحشاً ليس له فيها زوج يسكن إليها، فنام نومة، فاستيقظ وعند رأسه امرأة قاعدة خلقها الله من ضلعه، فسألها: ما أنت؟ قالت: امرأة. قال: ولم خلقت؟ قالت: لتسكن إلىَّ فقالت له الملائكة ينظرون ما بلغ من علمه: ما اسمها يا آدم؟ قال: حواء قالوا: ولم كانت حواء؟ قال: لأنها خلقت من شىء حى».

ولما كانت المرأة كالضلع الأعوج، فعلى من يريد أن ينتفع بهن أن يصبر عليهن، ويحتمل ضعف عقولهن، وسياستهن، ثم يكرر النبى ﷺ الوصية ويؤكدها وذلك لضعفهن، واحتياجهن إلى من يقوم بأمرهن.

---

(١) رواه البخارى.

فالإسلام قد كرم المرأة لذلك أوصانا بها ﷺ في وصايا أخرى، فقال في حجة الوداع، وكان آخر ما أوصى: «...**ألا واستوصوا بالنساء خيراً، فإنما هن عوان عندكم، ليس تملكون منهن شيئًا غير ذلك إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع..**»[١]

• حالة المرأة في العصر الجاهلي •

إن المرأة في العصر الجاهلي -أي ما قبل الإسلام- لم تلق التكريم اللائق بها، فقد ظلمت كثيرًا، لأنها كانت أحقر شيء عندهم، ولذلك كانوا يبغضونها، ومن مظاهر هذا البغض:

١- وأد البنات:

ومعنى وأد البنات أي قتلهن أحياءً، ولقد سجل القرآن الكريم هذا في أكثر من موضع فقال سبحانه: ﴿**وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ**﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩] وأخبرنا أن الموءودة سوف تُسأل يوم القيامة عن سبب وأدها، فقال: ﴿**وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ**﴾ [التكوير: ٨، ٩] وقد كان الرجل يهجر زوجته التي لا تنجب البنين، ويقرر أن يتزوج بامرأة أخرى من بنات جيرانه، فتغني زوجته لابنتها وهي تقول:

مالأبي حمزة لا يأتينا ... يظل في البيت الذي يلينا
غضبان ألا نلد البنينا ... تالله ما ذلك في أيدينا
ونحن كالأرض لزارعينا ... ننبت ما قد زرعوه فينا

وعن النعمان بن بشير قال: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقد سئل عن هذه الآية: ﴿**وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ**﴾ فقال: جاء قيس بن عاصم إلى رسول الله ﷺ، فقال: إني وأدت -ثمان بنات- وفي رواية -اثنتي عشرة بنتا- في الجاهلية، فقال له رسول الله ﷺ: «**أعتق عن كل واحدة منهن رقبة**»[٢].

وقيس بن عاصم كان مشهورًا بحلمه وحكمته، ولذلك قيل للأحنف بن قيس: ممن تعلمت الحلم؟ فقال: من قيس بن عاصم[٣] ومع ذلك يئد بناته.

---

(١) رواه الترمذي وقال: حسن صحيح

(٢) رواه الطبراني في الكبير والهيثمي في المجمع ٧/ ١٣٤ وابن حجر في الإصابة ٥/ ٤٨٥.

(٣) أسد الغابة ٣/ ٥٠٣.

والذى حسن لهم قتل أولادهم هم الشياطين، وهم شركاؤهم فى الشرك والضلال كما قال سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٧].

قال مجاهد: زينت لهم قتل البنات مخافة العيلة والفقر.

لذلك وصفهم المولى عز وجل بالخسران المحقق، فقال سبحانه: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠] وقد كانوا يئدون البنات تارة لخوف الفضيحة والعار، وتارة للفقر، وتارة تأخذهم حمية الجاهلية، فقد روى أن رجلاً من أصحاب النبى ﷺ كان لا يزال مغتمًّا بين يدى رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: **«مالك تكون محزونًا؟»** فقال: يا رسول الله، إنى أذنبت ذنبًا فى الجاهلية، فأخاف أن لايغفره الله وإن أسلمت، فقال له رسول الله ﷺ: **«أخبرنى عن ذلك»** فقال: يا رسول الله، إنى كنت من الذين يقتلون بناتهم، فولدت لى بنتًا، فتشفعت لى امرأتى أن أتركها، فتركتها حتى كبرت وصارت من أجمل النساء، فخطبوها، فدخلتنى الحمية، ولم يحتمل قلبى أن أزوجها أو أتركها فى البيت بغير زوج، فقلت لامرأتى: إنى أريد أن أذهب إلى قبيلة كذا وكذا فى زيارة أقربائى، فابعثيها معى، فسرت بذلك وزينتها بالحلى والثياب، وأخذت علىَّ المواثيق بألا أخونها، فذهبت بها إلى رأس بئر، فنظرت فى البئر، ففطنت ابنتى أنى أريد أن ألقيها فى البئر، فالتزمتنى وجعلت تبكى، وتقول: يا أبت، أى شىء تريد أن تفعل بى؟ فرحمتها، ثم نظرت فى البئر، فدخلت علىَّ الحمية، ثم التزمتنى، وجعلت تقول: ياأبت لا تضيع أمانة أمى، فجعلت مرة أنظر فى البئر، ومرة أنظر إليها فأرحمها، حتى غلبنى الشيطان، فأخذتها فألقيتها فى البئر منكوسة، وهى تنادى فى البئر: يا أبتِ قتلتنى! فمكثت هناك حتى انقطع صوتها فرجعت.

فبكى رسول الله ﷺ وأصحابه، ثم قال: **«لو أمرت أن أعاقب أحدًا بما فعل فى الجاهلية لعاقبتك»**.

وتأمل أخى الحبيب: كيف كان يتم الوأد؟ لقد كان يتم بطريقة بشعة غبراء كلها عنف وغلظ. كان الرجل يخرج بوليدته، وقد حفر لها بئرًا فى الصحراء، فيدسها هناك ويهيل عليها التراب حتى تستوى البئر.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «كانت المرأة الحامل فى الجاهلية إذا أوشكت على الوضع حُفرت لها حفرة، ونقلت قريبًا منها، عندما يجيئها المخاض، فإذا ولدت بنتًا رموا بها فى الحفرة، وردموا عليها التراب، وإن ولدت له ذكرًا أمسكوه وعادوا به» فجاء الإسلام الحنيف

فوضع حدًا لهذه المأساة البشرية والتى جاوزت فى بشاعتها أقصى المدى، وأصبحت الحياة فى ظل الإسلام حقًا مصونًا لكل فرد من أفراد المجتمع، صغيرًا كان أو كبيرًا، ذكرًا أم أنثى جاء الإسلام الحنيف لكى يقرر أن الإنسان بجنسيه كريم على الله، والأنثى من حيث إنسانيتها صنو الرجل وشطر نفسه.

٢- بغض ولادة الأنثى من قديم:

ولقد قص علينا القرآن الكريم أنهم كانوا يزهدون فى إنجاب البنات منذ عهد قديم والأمثلة على ذلك كثيرة منها:

١- نبى الله نوح عَلَيْتِكِلاِ:

وبينما يعدد نوح عَلَيْتِكِلاِ نعمه على قومه، إذ به يعد نعمة البنين ويخصها بالذكر، فيقول: ﴿ **فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا** ﴾ [نوح: ١٠:١٢].

٢- امرأة عمران ونذرها الولد:

فهذه امرأة عمران أم السيدة مريم البتول تتجه إلى الله تعالى ضارعة إليه حين شعرت أنها قد حملت، فتقول: اللهم إن رزقتنى ولدًا فلك علىّ أن أتصدق به على بيت المقدس ويذكر القرآن ذلك، فيقول: ﴿ **إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾ [آل عمران: ٣٥] وتقصد بـ«محررًا» أى معتق من أن يكون عبدًا للدنيا، ولما جاءت ساعة الوضع، فوجئت مفاجأة لم تتوقعها، لأن المولود جاء أنثى، فقالت وكأنها تعتذر لله عز وجل: ﴿ **رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ** ﴾ [آل عمران: ٣٦].

إذن نزعة حب الولد الذكر كانت نزعة قديمة متأصلة منذ عهد قديم، حتى جاء الإسلام فرد لها حقوقها، ورد لها اعتبارها.

● صور أخرى من امتهان المرأة فى الجاهلية ●

فلم تكن المرأة فى الجاهلية ممتهنة فقط عند وأدها، بل كانت الامتهانة تشمل جوانب حياتها الاجتماعية، فكانت تحرم من الميراث، وكان تتزوج بلا مهر، وكان الرجل يعدد الزوجات حسب مشيئته، فهيا بنا لنعرض لمحات سريعة من هذه الصور التى منها:

أولاً: صور من نكاح الجاهلية ويشمل:

١- **السفاح**. وهو أن يجتمع الرهط -وهم ما دون العشرة- فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها، فإذا حملت ووضعت، أرسلت إليهم حتى يجتمعوا عندها، فتقول لهم: «قد عرفتم ما كان من أمركم، وقد ولدت، فهو ابنك يا فلان» وتسمى أحدهم، فيلحق به ولدها، لا يستطيع أن يمتنع منها

٢- **الشِّغار**: وهو أن يزوج الرجل ابنته لآخر على أن يزوجه الآخر ابنته أو أخته، لكن الإسلام نهى عن ذلك، فقال النبى ﷺ: «**لا شغار فى الإسلام**».

وقد فسره أبو هريرة ﷺ بقوله: «هو أن يقول الرجل زوجنى ابنتك، وأزوجك ابنتى، أو زوجنى أختك وأزوجك أختى، ولا يكون بينهما مهر سوى هذه المبادلة».

٣- **نكاح المقت:**

وهو أن يتزوج الابن امرأة أبيه بعد وفاته، فقد شاع بين العرب فى الجاهلية أنه إذا توفى الرجل عن زوجته وكان له ابن من غيرها، فإن هذا الابن يرثها، وله الحق فى الاستمتاع بها بلا مهر، ولا يتوقف هذا على رضاها، كما أن له الحق فى أن يزوجها ممن يشاء، ويأخذ مهرها، أو يمتنع عن تزويجها حتى تموت، ولقد حرم الإسلام هذا النوع، فقال سبحانه: ﴿**وَلا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلاً**﴾ [النساء: ٢٢] وقال تعالى فى آية أخرى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ**﴾ [النساء: ١٩].

قال ابن جريج: قال عكرمة: نزلت هذه الآية الكريمة فى كبيشة بن معن بن عاصم ابن الأوس، توفى عنها أبو قيس بن الأسلت، فجنح عليها ابنه -أى ضمها إلى نفسه- فجاءت رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، لا أنا ورثت زوجى، ولا أنا تركت فأنكح. فأنزل الله هذه الآية وقال زيد بن أسلم: كانوا إذا مات الرجل منهم فى الجاهلية ورث امرأته من يرث ماله، وكان يعضلها حتى يزوجها من أراد أو يرثها، وكان أهل تهامة يسيئ الرجل صحبة المرأة حتى يطلقها، ويشترط عليها ألا تنكح إلا من أراد، حتى تفتدى منه ببعض ما أعطاها الله، فنهى الله المؤمنين عن ذلك.

٤- **نكاح المتعة**: وهو أن يتزوج الرجل المرأة لمدة محددة ويتمتع بها طيلة المدة المتفق عليها ثم بعد ذلك تنتهى العلاقة بينهما، وقد حرمت الشريعة الإسلامية هذا النكاح، لأن الهدف من النكاح تكوين الأسرة، ولابد أن يكون العقد مؤبدًا، وليس مؤقتًا، وقد ورد النهى على لسان رسول الله ﷺ فقد روى على بن أبى طالب أن النبى ﷺ **نهى عن متعة** النساء، وعن لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر.

وعن محمد بن كعب، عن ابن عباس قال: «إنما كانت المتعة فى أول الإسلام. كان الرجل يقدم البلدة ليس له بها معرفة، فيتزوج المرأة بقدر ما يرى أنه مقيم، فتحفظ له متاعه، وتصلح شأنه حتى نزلت هذه الآية: ﴿**وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ**﴾ [المؤمنون: ٥، ٦] وقال ابن عباس: كل فرج سواهما حرام.

وعن سبرة الجهنى أنه كان مع النبى ﷺ، فقال: «**يا أيها الناس، إنى كنت قد أذنت لكم فى الاستمتاع من النساء، وأن الله قد حرم ذلك إلى يوم القيامة، فمن كان عنده منهن شىء فليخل سبيله، ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئًا**».

٥- نكاح البدل:

وهو أن يتفق رجلان على أن يتنازل كل واحد منهما عن زوجته للآخر، بدون طلاق ولا عقد جديد، وهي عملية سفاح بالتراضي.

٦- نكاح الاستبضاع:

وهو أن يأمر الرجل زوجته بعد طهرها من حيضها بأن تدعو فلانًا وتستبضع منه، أي يستمتع بها هذا الرجل الأجنبي، ولا يقربها زوجها حتى يظهر حملها من الأول، وقد انتشر هذا النوع للحصول على ولد يحمل من الشجاعة والإقدام ما هو من متوافر لدى من استبضعت منه.

وهذان النوعان قد حرمهما الإسلام، لأن ذلك يعتبر زنا حرمه الله تعالى ووضع له عقوبه محددة.

٧- نكاح المخادنة:

وهو ارتباط رجل بامرأة مخادنة، ومعاشرتها معاشرة الأزواج بدون عقد، وإلى هذين النوعين من النكاح كانت الإشارة بقوله تعالى: ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ [النساء: ٢٥] وقوله تعالى عن الرجال: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ [المائدة: ٥].

• الإسلام والمرأة •

وأما بعد أن جاء الإسلام الحنيف فقد كفل للمرأة جميع حقوقها، ورفع قدرها، وسوى بينها وبين الرجل في عدة أمور منها:

١- سوى بينهما في العقيدة:

فجعل المرأة والرجل في العقيدة سواء وأتاح لهما حرية الاختيار، ولم يجعل للزوج سلطانًا على دين زوجته فليس له أن يكرهها على أن تغير دينها -يهودية كانت أو نصرانية- بل تبقى معه كما هي، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ [المائدة: ٥].

فلا تغير الزوجة دينها من اليهودية أو النصرانية إلى الإسلام إلا بمحض إرادتها، قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦] لأن الدين عقيدة وشريعة، إيمان وسلوك، قلب وقالب فتبدأ العقيدة ومكانها القلب، فلو أجبرها ربما استطاع أن يؤثر على القالب لا على القلب، لأن القلب هو أساس الحساب على العمل، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، لأجل ذلك لم يجعل الله تعالى لأحد في هذه الدنيا أن يكره القلب على ما لا يريد، ولا حتى رسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢٢].

ولقد ذكر الله تعالى فى القرآن الكريم نساءً كافرات لرجال مؤمنين، ونساءً مؤمنات، لرجال كافرين، وضرب المثل بذلك فى آخر سورة التحريم فقال: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠] فخيانة امرأة نوح خيانة عقائدية فى الإيمان، وخيانة امرأة لوط أنها كان تدل القوم على ضيوفه، مع أنها تعلم خبث طويتهم.

وبعد ذلك يعرض قضية تقابل الكفر بقضية إيمان امرأة فرعون الذى ادعى الألوهية، فيقول: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [التحريم: ١١].

٢- سوى الإسلام بينهما فى التكاليف:

فقد سوى الإسلام بين المرأة والرجل فى التكاليف الشرعية، مثل: الإيمان، والصلاة، والصوم وإن كان قد عذرها لضعفها أثناء الحيض فأعفاها من الصلاة مطلقًا حتى ينتهى حيضها ومن الصيام فقد أخره عنها، والزكاة، والحج، وسائر العبادات، ولكنه وضع لها معيارًا فى الأفضلية والخيرية، وهى التقوى، قال سبحانه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

٣- سوى بينها وبين الرجل فى الأجر والجزاء:

فقد بشر سبحانه وتعالى كلا من الرجل والمرأة إذا عملا أعمالا صالحة بحياة سعيدة هانئة فى الآخرة، قال سبحانه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧] وقال سبحانه: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٤٠] وفى سورة النساء: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤].

٤- سوى بينهما فى الحدود:

فإذا ارتكب كلٌّ منهما مخالفة شرعية توجب حدًا، فإنه يطبق على كل منهما، فالزانى والزانية الحران غير المحصنين يجلد كل واحد منهما مائة جلدة، قال تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢] وفى حالة الإحصان يرجم كل منهما.

وفى حد السرقة: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٣٨].

٥- سوى بينهما فى أعمال الخير والبر:

وإلى ذلك كانت الإشارة بقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ**﴾ [الأحزاب: ٣٥]. ولذلك قيل فى سبب نزول هذه الآية: إن أم عمارة الأنصارية أتت النبى ﷺ فقالت: يا رسول الله، ما أرى كل شىء إلا للرجال، وما أرى النساء يذكرن بشىء، فنزلت هذه الآية[١] ثم يعقب مولانا تبارك وتعالى بعدها بقوله: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ**﴾ [الأحزاب: ٣٦] للدلالة على استمرارية مكانتها الكريمة، ومنزلتها الرفيعة فى الإسلام.

ولأن الله سبحانه وتعالى لما ذكر التكريم لم يذكره فقط للرجال، وإنما لجنس بنى آدم كما قال سبحانه: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ**﴾ [الإسراء: ٧٠].

وقد سوى بينهما فى سوء العاقبة نتيجة أعمال الشر، كما سوى بينهما فى حسنها فى أعمال البر والخير، قال سبحانه ﴿**لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ**﴾ [الأحزاب: ٧٣].

• صور من تكريم الإسلام للمرأة •

ومن صور تكريم الإسلام للمرأة، أنه جعل لها الحق فى المبايعة على السمع والطاعة والقيام بحدود الشريعة وأحكامها، واحترم لها رأيها وكيانها ما دام ذلك فى الحق ومن ذلك ما يأتى:

١- مبايعة النبى ﷺ لنساء قريش[٢]:

بعد أن فتح الرسول الأعظم مكة المكرمة، وأسلم أبو سفيان وأعلن إسلامه، أراد النبى ﷺ أن يبايع نساء قريش على الإسلام، وكان من بين هؤلاء المبايعات «هند بنت

---

(١) رواه الترمذى فى كتاب التفسير (٣٢١١) وذكر الواحدى نحوه فى أسباب النزول ص٣٠٠ لكن عن أسماء بنت عميس.

(٢) وهى تلك المبايعة التى ذكرها مولانا تبارك وتعالى فى آخر سورة الممتحنة آية رقم ١٢ وقد ذكرها ابن كثير فى تفسيره ٤٥/ ٣٥٤,

عتبة» آكلة كبد حمزة ﷺ وكانت متخفية، لقد أخذت هند مجلسها فى حضرة الرسول الأكرم ﷺ على جبل الصفا مع النساء المبايعات، وتروى لنا أمية بنت رقية ذلك الحديث الذى دار بين الرسول ﷺ، وبين هند بنت عتبة وقت مبايعة النبى للنساء.

يقول ﷺ: **«أبايعكن على ألا تشركن بالله شيئًا»**.

فقالت هند: وكيف نطمع أن يقبل منا ما لم يقبله فى الرجال؟ قد علمنا أنه لو كان مع الله غيره لأغنى شيئًا. فقال ﷺ: **«ولا تسرقن»**.

فقالت هند: وهل تسرق الحرة؟ ونسيت هند أنها متنكرة. ثم قالت: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل شحيح، وربما أخذت من ماله بغير علمه ما يصلح ولده أتحل لى؟

فقال لها النبى ﷺ: **«خذى ما يكفيك وولدك بالمعروف»**(١) فكشفت بذلك عن شخصيتها، ثم استطرد الرسول الله ﷺ قائلاً: **«وإنك لهند بنت عتبة؟!»**.

قالت هند: نعم يا رسول الله: فاعف عما سلف منى، عفا الله عنك.

ثم قال النبى ﷺ: **«ولا تزنين»**.

فقالت: أو تزنى الحرة؟ فقال النبى: **«ولاتعصينني فى معروف»**.

فأجابت هند: بأبى أنت وأمى! ما أكرمك وأحسن ما دعوت إليه! والله ما جلسنا هذا المجلس وفى أنفسنا أن نعصيك فى شيء.

فقال: **«ولا تقتلن أولادكن»** فلم تملك هند إلا أن قالت: والله لقد ربيناهم صغارًا وقتلتهم أنت وأصحابك كبارًا، فأنت وهم أعلم.

فتبسم الرسول ﷺ وقال: **«ولا تأتين ببهتان تفترينه بين أيدكن وأرجلكن»**.

فقالت: إن البهتان لأمر قبيح، وما تأمرنا إلا بالرشد، ومكارم الأخلاق.

وتمت بيعة النساء للنبى ﷺ لهن عند الصفا، وكن سبعًا وخمسين وأربعمائة امرأة، ولم يصافح النبى ﷺ امرأة منهن.

قالت السيدة عائشة: كان رسول الله يبايع النساء بالكلام بهذه الآية: ﴿**أَلاَّ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا**﴾ [الممتحنة: ١٢] والله ما مست يده يد امرأة قط لا يملكها، غير أنه بايعهن بالكلام(٢) فلو تأملت هذا الحوار لرأيت فيه حرية الرأى فى نقاشها للنبى ﷺ وحوارها

(١) رواه البخارى.

(٢) رواه البخارى.

إياه، حرية لا يحلم بها حتى الرجال فى العصر الحاضر، فى أكبر دول الحضارة والمدنية والتى ترفع شعار الحرية والديمقراطية.

٢- امرأة تجادل النبى ﷺ:

واقرأ معى قوله تعالى فى مفتتح سورة المجادلة: ﴿**قَدْ سمِعِ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ**﴾ [المجادلة: ١].

إنها خولة بنت ثعلبة زوجة أوس بن الصامت رضي الله عنه، عندما قال لها: **أنت علىَّ كظهر أمى**، وقد جادلت الرسول ﷺ مراراً، وقالت له: **إن لى صبية صغاراً، إن ضممتهم إليه ضاعوا**، وإن ضممتهم إلىَّ ضاعوا، وجعلت ترفع رأسها إلى السماء، وهى تقول: «**إنى أشكو إليك، اللهم فأنزل على لسان نبيك**» وما برحت حتى نزل فى حقها آيات أربع، تعاقب المظاهرين، وتضع طريقًا للخلاص من الظهار.

إن السماء تدخلت فى هذا الحادث مع أنها امرأة مغمورة فقيرة، وما ذلك إلا لتكريم الله تعالى للمرأة، وإظهاراً لفضلها.

٣- احترام عمر لرأى المرأة:

وهذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، تنقده امرأة وتحاوره، حين كان يخطب الناس ويحذرهم من التغالى فى المهور وقد حدده ولم يلبث أن رجع إلى رأيها وعاد على نفسه باللائمة، وهى تذكره بقوله تعالى: ﴿**وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا**﴾ [النساء: ٢٠].

فقال عمر كلمته المشهورة: «أصابت امرأة وأخطأ عمر» وقد كان الوحى ينزل من السماء مؤيداً لرأيه، فلله درك يا عمر[(١)]

٤- عمر وخولة بيت ثعلبة:

وفى أيام خلافته، وقف عمر رضي الله عنه، وأصغى إليها، وقد أطالت الوقوف، وأغلظت القول وقالت: «هيه، يا عمر، عهدتك وأنت تسمى عميراً حتى صرت عمر، ثم لم تذهب الأيام إلا وسميت أمير المؤمنين، فاتق الله فى الرعية، واعلم أن من خالف الوعيد قرب عليه البعيد، ومن خاف الموت خشى الفوت».

فقيل لها: قد أكثرت أيتها المرأة على أمير المؤمنين، فقال: دعها أفلا يسمعها ابن الخطاب وقد سمع الله مجادلتها للرسول من فوق سبع سموات[(٢)]

---

(١) الأنيس الصالح بتصرف.

(٢) تفسير القرطبى جـ١٠ بتصرف.

الوصية رقم (٤٩)
لا تحاسدوا

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تقاطعوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا**»(١)

صدق رسول الله ﷺ

• في رحاب هذه الوصية •

أخي الحبيب:

إننا حين نتأمل هذا الهدى النبوى، والقبس المحمدى، وتلك الوصية الموجزة، ونتفكر في معانيها، ثم ندقق النظر فيها نجد أن الرسول الأعظم، والنبى الأكرم صلوات ربى وتسليماته عليه كعادته يريد بناء مجتمع خالٍ من الأحقاد، مجتمع متماسك اللبنات، فقد نهى في هذه الوصية عن عدة أمور: أولها: «**لا تحاسدوا**» والحسد ليس من أخلاق الكرام بل هو من أخلاق اللئام، لأن قائدهم في هذا الخلق الذميم، إبليس اللعين، ولأنه أول ذنب عصى الله به في السماء، وأول ذنب عصى الله به في الأرض، فأما في السماء، فقد حسد إبليس اللعين أبانا آدم عليه السلام.

أما في الأرض فقد حسد قابيل أخاه هابيل، فقام بقتله.

فهو داء اجتماعى خطير، ووباء خلقى كبير، ما فشا في أمة إلا كان نذير هلاكها، ولا دبَّ في أسرة إلا كان سبيل فنائها، فهو مصدر كل عداء، وهو ينبوع كل شقاء، وهو أمضى سلاح يضرب الشيطان به قلوب البشرية فيمزقها، ويفرق بينها بالبغض والعدوان إذن فما هو تعريف الحسد؟ الحسد هو أن يتمنى الشخص زوال نعمة أخيه يقول الحسن البصرى رحمه الله:

يابن آدم لم تحسد أخاك؟! إن كان الذى أعطاه الله لكرامته عليه فلمَ تحسد من أكرمه الله؟ وإن كان غير ذلك فلمَ تحسد من مصيره إلى النار؟!

لذلك فإن المؤمن الصادق لا يحسد مسلمًا على نعمة أنعم الله بها عليه، لأنه يعلم علم اليقين أن الله الذى أعطاه إنما هو ملك الملوك ومالك الملك سبحانه وتعالى، فإذا ما حسد أخاه فكأنه اعترض على رب العالمين، لأنه هو المعطى: ﴿**قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي**

---

(١) رواه البخارى (٦٠٦٥) ومسلم (٢٥٥٩) وأحمد في مسنده (١٢ ١٢) وأبو داود وصححه الألبانى برقم (٤٩١٠) ٣/ ٢٠٤

الْمُلْكَ من تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ ممَّن تشاءُ وَتُعِزُّ من تَشَاءُ وَتُذِلُّ من تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

ألا قل لمن كان لى حاسداً ... أتدرى على من أسأت الأدب
أسأت على الله فى فعله ... إذا أنت لم ترض لى ما وهب

ثم ينهى النبى نهيًا آخر فيقول: «**ولا تناجشوا**» أى لا ينجش بعضكم على بعض بأن يزيد فى السلعة لا لرغبة فيها بل ليخدع غيره. وهو حرام إجماعًا على العالم بالنهى سواء كان بمواطأة البائع أم لا، لأنه غش وخداع وهما محرمان، ولأنه ترك للنصح الواجب وقيل: هو أعم من ذلك، لأن النجش لغة: إثارة الشىء بالمكر والحيلة والخداع والمعنى: لا تتخادعوا ولا يعامل بعضكم بعضًا بالمكر والاحتيال، وإيصال الأذى إليه قال تعالى: **﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ﴾** [فاطر: ٤٣] فيدخل فيه على هذا جميع أنواع المعاملات بالغش ونحوه كتدليس عيب وكتمه وخلط جيد بردىء.

ثم ينهى النبى ﷺ نهيًا آخر «**ولا تباغضوا**» أى لا تفعلوا إلى ما يؤدى إلى البغض بالقلوب: ونهى آخر: «**ولا تقاطعوا**» المقاطعة هى ترك التواصل الذى يؤدى إلى التنافر.

فالوصية النبوية فيها نهى صريح عن الحسد، لأنه من الأمور التى تجلب الحقد والبغضاء فى القلوب، فيجعل القلوب متنافرة، وأصحابها مشتتين مفرقين، والإسلام الحنيف قد دعا إلى الأخوة والترابط والتماسك: **﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾** [آل عمران: ١٠٣].

• حديث القرآن عن الحسد والحاسدين •

إن القرآن الكريم هو الدستور الإلهى، وهو المنهج الربانى، الذى لو تدبره المسلمون لفازوا فى دنياهم وأخراهم، وهذا المنهج الربانى قد تحدث عن الحسد والحاسدين، فاسمع إليه وهو يتحدث عن هؤلاء اليهود الذين يحسدون أهل الإيمان على إيمانهم، فيقول: **﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾** [البقرة: ١٠٩] فتأمل كيف كشف القرآن عن خبث نفوسهم، ولؤم طباعهم، فقد نزلت الآية كما يقول الإمام فخر الدين الرازى فى حيي [illegible] فنحاص بن عازوراء وزيد بن قيس، ونفرًا من اليهود، قالوا لحذيفة بن اليمان وعمار [illegible] ياسر بعد معركة أحد: ألم تروا ما أصابكم، لو كنتم على الحق ما هزمتم، [illegible] فهو خير لكم وأفضل، ونحن أهدى منكم سبيلاً، فقال عمار: كيف نقض العهد [illegible] شديد. [illegible] فإنى قد عاهدت أنى لا

أكفر بمحمد ﷺ ما عشت، فقال اليهود: أما هذا فقد صبأ، وقال حذيفة: وأما أنا فقد رضيت بالله تعالى ربًا، وبالإسلام دينًا، وبالقرآن إمامًا، وبالكعبة قبلة، وبالمؤمنين إخوانًا، ثم أتيا رسول الله ﷺ، وأخبراه، فقال: أصبتما خيراً وأفلحتما، فنزلت هذه الآية[١] فهؤلاء اليهود قد تمنوا زوال نعمة الإيمان الذى وقر فى قلوب أصحاب رسول الله ﷺ من بعد ما تبين لهم أن الإيمان صواب وحق.

وهذا موقف آخر يتحدث فيه القرآن عن أولئك الذين أصيبوا بأخبث الأمراض وشرها وهو الحسد، فيقول سبحانه: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٣، ٥٤].

فالآية تصف اليهود بأنهم أصحاب أثرة شديدة، وشح مطاع، يشق عليهم أن ينتفع منهم أحد من غير أنفسهم، فإذا صار لهم ملك، حرصوا على منع الناس أدنى النفع وأحقره، فكيف لا يشق عليهم أن يظهر نبى من العرب، ويكون لأصحابه ملك يخضع لهم فيه بنو إسرائيل؟!

يقول الإمام الرازى:

اعلم أنه تعالى وصف اليهود فى الآية المتقدمة بالجهل الشديد، وهو اعتقادهم أن عبادة الأوثان أفضل من عبادة الله تعالى، ووصفهم فى هذه الآية بالبخل والحسد فالبخل والحسد يشتركان فى أن صاحبه يريد منع النعمة من الغير، فأما البخيل فيمنع نعمة نفسه عن الغير، وأما الحاسد فيريد أن يمنع نعمة الله من عباده. انتهى ملخصاً[٢]

والحاصل: أن حال اليهود يومئذ كان لا يعدو أموراً ثلاثة:

١- إما غرور خادع يظنون أن فضل الله محصور فيهم، ورحمته تضيق عن غير شعب بنى إسرائيل من خلقه.

٢- وإما حسبان أن ملك الكون فى أيديهم، فهم لا يسمحون لأحد بشىء منه، ولو كان حقيراً.

٣- وإما حسد العرب على ما أعطاهم الله من الكتاب والحكمة والملك الذى ظهرت مبادئ عظمته.

ويكشف القرآن الكريم عن خبثهم، وسوء معاملتهم، وشدة حسدهم لأهل الإيمان

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازى ٣/ ٣٢٢ ط/ دار الغد.

(٢) المرجع السابق ٩/ ٢٤٨

فيقول سبحانه: ﴿إن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ [آل عمران: ١٢٠] وهذا الفرح شماتة، والحسد والشماتة متلازمان.

ويبين القرآن الكريم شدة حسدهم، الذى تعدى الأخوة، فليس حسدهم فقط لنبى هذا الزمان، خاتم الأنبياء محمد ﷺ فحسب، لكنهم حسدوا أخاهم يوسف عليه السلام، ولذلك كان قد حذره أبوه أن يفشى رؤيته التى رآها، لكنهم لما علموا بها حسدوا، وقالوا: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ [يوسف: ٨، ٩].

وفى آخر آيات من القرآن، والتى ختم بها المصحف الكريم، وهى من أشد الآيات القرآنية ذمًّا للحسد، حين يأمر رب العالمين نبيه محمدًا ﷺ وأمته أن يتعوذا من: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ٥].

يقول ابن القيم فى بدائع الفوائد:[١]

قوله: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ يعم الحاسد من الجن والإنس، فإن الشيطان وحزبه يحسدون المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله، كما حسد إبليس أبانا آدم عليه السلام، وهو عدو لذريته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦] ولكن الوسواس أخص بالشيطان الجنى، والحسد أخص بشياطين الإنس، والوسواس يعمهما، والحسد يعمهما أيضًا فكلا الشيطانين حاسد موسوس، وقد اشتملت السورة على الاستعاذة من كل شر فى العالم، وتتضمن شرورًا أربعة يستعاذ منها: شرًّا عامًّا وهو شر ما خلق، وشر الغاسق إذا وقب، فهذان نوعان، ثم ذكر شر الساحر والحاسد وهو نوعان أيضًا لأنهما من شر النفس الشريرة.

ثم قال: وتأمل تقييده سبحانه شر الحاسد بقوله: ﴿إِذَا حَسَدَ﴾ لأن الرجل قد يكون عنده حسد لكنه يخفيه، ولا يرتب عليه أذى بوجه ما، لا بقلبه، ولا بلسانه، ولا بيده، بل يجد فى قلبه شيئًا من ذلك، ولا يعاجل أخاه إلا بما يحب الله، فهذا لا يكاد يخلو منه أحد إلا من عصمه الله. قيل للحسن البصرى -رحمه الله-: أيحسد المؤمن؟ قال: ما أنساك إخوة يوسف.

---

(١) بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية جـ٢/ ٢٣٥، ٢٣٦ بتصرف ط/ دار الفكر.

• السنة المطهرة تذم الحسد وأهله •

لقد ذم الرسول ﷺ الحسد فى كثير من أحاديثه فمنها ما روى عن:

١- أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: **«شيئان لا يجتمعان فى قلب عبد: الإيمان والحسد»**(١) وهذا يدل على خطر الحسد، لأنه إذا وجد فى القلب خلا وذهب منه الإيمان وارتفع عن صاحبه، وإذا ارتفع الإيمان فقد خاب العبد وخسر، وإذا حل الإيمان بقلب صاحبه ارتفع الحسد فهما نقيضان لا يجتمعان لأن الحاسد معترض على قضاء الله وقدره، والاعتراض على القضاء والقدر مناف للإيمان.

٢- وعن ضمرة بن ثعلبة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«لا يزال الناس بخير ما لم يتحاسدوا»**(٢)

فقد نبه الحديث على أن الخير بين الناس طالما أن الحسد بعيد عن قلوبهم، طالما أن الحقد والغل بعيد عن صدورهم، فإذا ما تحاسد الناس ذهب الخير، وحل مكانه البغض والشر أبعد هذا الذم ذم للحسد؟ إنه منبع كل شر، وأصل كل بغض وحقد.

٣- ما روى عن عبد الله بن الزبير أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أصابته مصيبة فأتى رسول الله ﷺ فشكا إليه، فسأله أن يأمر له بوسق من تمر، فقال له: **«إن شئت أمرت لك بوسق من تمر، وإن شئت علمتك كلمات هن خير لك منه»** قال: علمنيهن، ومر لى بوسق، فإنى ذو حاجة. قال: **«أفعل»** قل: **«اللهم احفظنى بالإسلام قاعداً، واحفظنى بالإسلام راقداً ولا تطع فىَّ عدواً حاسداً»**(٢)

فلو لم يكن للحسد خطر شديد لما علم الرسول ﷺ عمر أن يستعيذ من الحاسد، بل وسمى الحاسد عدواً، لتمنيه زوال النعمة عن صاحبها، فهو شر الأعداء.

٤- ولقد أخبرنا سيد البشر أن الحسد سيكون فينا كما كان فى الأمم من قبلنا فقال ﷺ: **«دب إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد والبغضاء»**(٤) فقد أهلكهم وأبادهم.

---

(١) رواه أحمد فى مسنده والحاكم وصححه ٢/ ٧٢ وابن حبان فى صحيحه.

(٢) رواه الطبرانى ورواته ثقات قاله المنذرى فى الترغيب ٣/ ٥٤٧.

(٣) رواه الخرائطى فى مساوئ الأخلاق (٧٦٢) ص٢٦٤ وإسناده حسن ورواه الحاكم ١/ ٥٢٥ بنحوه وصححه لكن فى سنده يحيى بن أيوب العلاف -صدوق.

(٤) رواه أحمد فى مسنده (١٤١٢) ورواه الترمذى وصححه الألبانى فى صحيح سنن الترمذى (٣٨٥٧) وقال المنذرى فى الترغيب رواه البزار بإسناد جيد.

• السلف الصالح يذمون الحسد والحاسدين •

وقد وردت أقوال كثيرة جدًا من السلف الصالح -رضوان الله عليهم- تذم الحسد والحاسدين فمنها:

قال وهب بن منبه -رحمه الله-: إن الله عز وجل قال لموسى عليه السلام: **«الحاسد عدو نعمتي، راد لقضائي، ساخط لرزقي الذي قسمت لعبادي، غير ناصح لهم»**[(١)].

وقال بعض الحكماء: ما رأيت ظالمًا أشبه بالمظلوم من الحاسد[(٢)] نفس دائم، وحزن لازم، وعقل هائم.

وروى عن الأحنف بن قيس، أنه قال: «لا راحة لحسود، ولا وفاء لبخيل، ولا صديق لملول، ولا مروءة لكذوب، ولا رأى لخائن، ولا سؤددًا لسيئ الخلق»[(٣)]

وقال محمد بن سيرين رحمه الله:

ما حسدت أحدًا قط على شيء من الدنيا، وإن كان من أهل الجنة، فكيف أحسده وهو صائر إلى الجنة، وإن كان من أهل النار، فكيف أحسده وهو صائر إلى النار؟![(٤)].

وقال بعض الحكماء:

إياكم والحسد، فإن الحسد أول ذنب عصى الله تعالى به في السماء، وأول ذنب عصى الله تعالى به في الأرض[(٥)]

وروى عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه أنه قال لابنه:

يا بني . إياك والحسد، فإنه يتبين فيك قبل أن يتبين في عدوك[(٦)].

يقول الجاحظ في وصف وذم الحسد:

الحسد داء ينهك الجسد، علاجه عسير، وصاحبه ضجر، وهو باب غامض، وما ظهر منه فلا يداوى، وما بطن منه فمداويه في عناء.

الحسد عقيد الكفر، وحليف الباطل، وضد الحق، منه تتولد العداوة وهو سبب كل قطيعة ومفرق كل جماعة، وقاطع كل رحم من الأقرباء، ومحدث التفرق بين القرناء، وملقح الشر بين الخلفاء[(٧)]

---

(١) المستطرف في كل فن مستظرف ص٢٣٧ ومختصر منهاج القاصدين ص٢٨٩ والرعاية للمحاسبي ص٤٢٧.

(٢): (٥) كل هذه الأقوال أوردها الإمام السمرقندي في كتابه تنبيه الغافلين انظر ص١٣٣، ١٣٤

(٦) روضة العقلاء لابن حبان ص١٢١ ط/ دار المغني - السعودية.

(٧) هامش الترغيب والترهيب ٣/ ٥٥٦ للمنذري.

قال عبد الله بن المعتز: الحاسد مغتاظ على من لا ذنب له، بخيل بما لا يملكه، طالب ما لا يجده[١]

وقال عبد الحميد الكاتب:

أسد تقاربه خير من حسود تراقبه[٢]

وقال معاوية أيضًا:

ليس في خصال الشر أعدل من الحسد، يقتل الحاسد قبل أن يصل إلى المحسود[٣]

وقال سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:

«لا تعادوا نعم الله عز وجل، قيل: ومن يعادى نعم الله تعالى؟ قال: الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله»[٤]

وقال الحسن البصري -رحمه الله-:

أصول الشر وفروعه ستة:

فالأصول ثلاثة: الحسد، والحرص، وحب الدنيا.

والفروع ثلاثة: حب الرياسة، وحب الثناء، وحب الفخر[٥]

• سوء عاقبة الحاسدين •

إن للحاسد عاقبة وخيمة أليمة، لأن قلبه مظلم، وعقله ضال، ونفسه مظلمة من ضياء اليقين، ونور الإيمان، ولأن الحسد أعمى بصره وبصيرته، فصاحبه لا يعرف إلا الشر، ولا يميل إلا للكيد والإضرار بالآخرين، فهو يعمل جاهدًا في الكيد لأصحاب النعم، والانتقام من أصحاب المواهب والمنن، فكل همه أن ينغص عليهم عيشهم، ويكدر عليهم صفوهم، ويحاول أن يسلبهم كل سعادة وهناء، ناسيًا أن الملك كله لله، وأنه سبحانه يفعل ما يشاء كما يشاء، لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه، فالأمر أمره، والملك ملكه، لذلك فإن هذا كله مردود على الحاسد، فلم ينله من حسده إلا الضرر الوخيم، والجزاء الأليم من وراء كيده وحسده.

قال الفقيه أبو الليث السمرقندي -رحمه الله-:

ليس شيء من الشر أضر من الحسد، لأنه يصل إلى الحاسد خمس عقوبات قبل أن يصل إلى المحسود مكروه:

أولها: غم لا ينقطع.

---

(١): (٣) أدب الدين والدنيا.

(٤) المستطرف للأبشيهي ص٢٣٧ ط/ التوفيقية.

(٥) العقد الفريد ٢/ ٨٧ لابن عبد ربه الأندلسي ط/ دار الأندلس - بيروت.

والثاني: مصيبة لا يؤجر عليها. **والثالث:** مذمة لا يحمد بها.
والرابع: يسخط عليه الرب. **والخامس:** تغلق عليه أبواب التوفيق(١).

وقال بعض السلف:

الحاسد لا ينال في المجالس إلا مذمة، ومن الملائكة إلا لعنة وبغضًا، ولا ينال في الخلوة إلا جزعًا، وغمًا، ولا ينال عند النزاع إلا شدة وهولاً، ولا ينال في الموقف إلا فضيحة ونكالاً، ولا ينال في النار إلا حرًا واحتراقًا(٢)

ومن عقوبة الحسد الوخيمة أنه سبب لخراب الديار. «فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه مر على ديار خربة خاوية، فقال: هذه أهلكها ، وأهلك أهلها البغي والحسد، إن الحسد ليطفئ نور الحسنات، والبغي يصدق ذلك، أو يكذبه، فإذا حسدتم فلا تبغوا»(٣).

ويقول أبو الحسن الماوردي في أدب الدنيا والدين(٤):

وإن صدته -أي الحاسد- الشهوة عن مراشده، وأضله الحرمان عن مقاصده، فانقاد للطبع اللئيم، وغلب عليه الخلق الذميم -أي الحسد- حتى ظهر حسده، واشتد كمده، فقد باء بأربع مذام:

إحداهن: حسرات الحسد، وسقام الحسد، ثم لا يجد لحسرته انتهاء، ولا يؤمل لسقامه شفاء.

والثانية: مقت الناس له، حتى لا يجد فيهم محبًا، وعداوتهم له حتى لا يرى فيهم وليًا، فيصير بالعداوة مأثورًا، وبالمقت مزجورًا.

والثالثة: انخفاض المنزلة، وانحطاط المرتبة، لانحراف الناس عنه، ونفورهم منه.

وقد قيل في منثور الحكم: الحسود لا يسود.

والرابعة: إسخاط الله تعالى في معارضته، واجتناء الأوزار في مخالفته، إذ ليس يرى قضاء الله تعالى عدلا، ولا لنعمه من الناس أهلا.

نعم إنه معارض لمولاه، ساخط على حكمه، مبارز لربه من عدة أوجه:

أولها: أنه قد أبغض كل نعمة ظهرت على غيره.

الثاني: سخط لقسمته، يعني يقول لربه: لمَ قسمت هكذا؟.

الثالث: أنه ضن بفضله، يعني أنه يبخل بفضل الله تعالى.

الرابع: أنه أعان عدو الله إبليس اللعين.

---

(١) تنبيه الغافلين ص١٣٣ ط/ مكتبة التقوى تحقيق السيد العربي والمستطرف للأبشيهي ص٢٣٦.
(٢) المرجع السابق ص١٣٧ (٣) بهجة المجالس لابن عبد البر الأندلسي ١/ ٤٠٧.
الدنيا والدين للماوردي ص ٣٢٨ ط/ الريان.

وقال ابن حبان في روضة العقلاء:

بئس الشعار للمرء الحسد، لأنه يورث الكمد، ويورث الحزن، وهو داء لا شفاء له.

والحاسد إذا رأى بأخيه نعمة بهت، وإن رأى به عثرة شمت، ودليل ما في قلبه كمين على وجهه مبين، وما رأيت حاسدًا سالم أحدًا.

والحسد داعية إلى النكد، ألا ترى إبليس حسد آدم، فكان حسده نكدًا على نفسه فصار لعينًا؟!.

ويسهل على المرء ترضى كل ساخط في الدنيا حتى يرضى، إلا الحسود، فإنه لا يرضيه إلا زوال النعمة التي حسد من أجلها[(١)]

وقال الليث بن سعد -رحمه الله-:

بلغني أن إبليس لقي نوحًا عليه السلام، فقال له إبليس: اتق الحسد والشح، فإني حسدت آدم فخرجت من الجنة، وشح آدم عليه السلام على شجرة واحدة منع بها حتى خرج من الجنة»[(٢)]

وقال سليمان التيمي -رحمه الله-:

«الحسد يضعف اليقين، ويسهر العين، ويكثر الهم»[(٣)]

• الجنة والسعادة لمن بات لا يحسد •

نعم إن الجنة والسعادة في الدنيا والآخرة لمن طهر قلبه من أدناس الحسد، وخلا فؤاده من أرجاس الحقد، ولذلك فإن طبيب القلوب والنبي المحبوب ﷺ كان يعمل جهده، ويبذل وسعه في نزع الأحقاد والأضغان من صدور أصحابه رضوان الله عليهم، فها هو يرغبهم في الجنة ونعيمها، برجل من أهلها، فلنستمع إلى خادمه، وإلى صاحب هذه الوصية التي نعيش في ظلالها، لنستمع إلى أنس بن مالك يروى لنا هذا المشهد، وذلك الموقف الذي حدث بحضرة الحبيب المصطفى فيقول: كنا جلوسًا يومًا عند رسول الله ﷺ، فقال: «**يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة**» قال فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه، علق نعليه في يده الشمال، فسلم، فلما كان الغد قال النبي ﷺ مثل ذلك، فطلع ذلك الرجل على مثل مرته الأولى، فلما كان اليوم الثالث، قال النبي ﷺ مثل مقالته أيضًا، فطلع الرجل على حالته الأولى.

فلما قام النبي ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما فقال: إني لاحيت أبي - أي تنازعت معه- فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثًا. فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي الثلاث، فعلت؟ قال: نعم.

---

(١) روضة العقلاء لابن حبان ص١٢٤ ط/ دار المغنى - السعودية.

(٢)، (٣) العقد الفريد ٢/ ٨٦، ٨٧.

قال أنس: فكان عبد الله يحدث أنه بات عنده ثلاث ليال، لم يره يقوم من الليل شيئًا غير أنه إذا تعار من الليل لايقول إلا خيرًا.

فلما مضت الليالى الثلاث، وكدت أحتقر عمله، قلت له: يا عبد الله، لم يكن بينى وبين والدى غضب، ولا هُجرة، ولكنى سمعت رسول الله يقول لك ثلاث مرات: «**يطلع عليكم رجل من أهل الجنة**» فطلعت أنت الثلاث مرات، فأردت أن آوى إليك لأنظر عملك، فلم أرك تعمل كثير عمل، فما الذى بلغ بك الذى قال رسول الله ﷺ؟.

قال: «ما هو إلا ما رأيت غير أنى لا أجد فى نفسى على أحد من المسلمين، ولا أحسده على خير أعطاه الله إياه»[١] فقال عبد الله: هذه التى بلغت بك وزاد النسائى: «**وهى التى لا نطيق**».

قال الأصمعى: رأيت أعرابيًا قد بلغ عمره مائة وعشرين سنة، فقلت له: ما أطول عمرك؟ فقال: تركت الحسد، فبقيت[٢]

فهذا هو طريق الجنة، أن تطهر قلبك من الغل والحقد والحسد.

طريق الجنة هو طريق الفلاح، هو طريق الفوز والنجاة، ومن أراد الفلاح فليعمل بكلام الرسول المصطفى الذى يقول.

«**قد أفلح من أخلص قلبه للإيمان، وجعل قلبه سليمًا، ولسانه صادقًا، ونفسه مطمئنة وخليقته مستقيمة، وجعل أذنه مستمعة، وعينه ناظرة، فأما الأذن فقمع، والعين بمقرة لما يوعى القلب، وقد أفلح من جعل قلبه واعيًا**»[٣]

نعم صدقت يا إمام المرسلين؛ فإن الفلاح فيمن جعل قلبه واعيًا، مطمئنًا بالإيمان مليئًا بالحب والخير، وهو صاحب اللسان الصدوق الذى أشرت إليه فى حديثك الذى رواه عنك المحدث الجليل، والصحابى الزاهد الورع، سيدنا أبو هريرة ﷺ: حين سألك أحد أصحابك الأجلاء قائلاً:

يا رسول الله، أى الناس أفضل؟ فقلت له: «**كل مخموم القلب، صدوق اللسان**».

قالوا: صدوق اللسان نعرفه، فما مخموم القلب؟.

---

(١) رواه أحمد (١٢٦٣٣) بإسناد صحيح ١٠/ ٥٣٦، ٥٣٧ ورواه ابن المبارك فى الزهد رقم ٦٩٤ والترمذى (٣٦٩٤) والطبرانى فى الكبير (٣٤٢ ١) وصححه الحاكم ٣/ ٧٣ ووافقه الذهبى وذكره المنذرى فى الترغيب ٣/ ٥٤٩ والخرائطى فى مساوئ الأخلاق رقم (٧٦٤) ص٢٦٦،٢٦٧

(٢) المستطرف ص٢٣٧

(٣) رواه البيهقى فى الشعب وحسنه (١٠٨) ورواه أحمد فى مسنده (٢١٢٠٧) ١٥/ ٤٨٦،٤٨٧ وذكره المنذرى فى الترغيب ٣/ ٥٥١.

فقلت لهم: هو: «التقي النقي، لا إثم فيه، ولا بغي، ولا حسد»[1]

أخي الحبيب:

هلم إلى الفوز في الدنيا والآخرة، أمامك الطريق واضحة، اجعل لسانك نقيًا وقلبك تقيًا، اجعل عينيك تحرص على مرضاة ربك تكن من الفائزين.

• أخبار عن عاقبة الحسد والحاسدين •

١- ورد أن رجلا ترك ولدين بعد مماته، وخلف لهما مالاً لابأس به، فاقتسماه وتصرف كل منهما في حقه، فاشتغل الابن الأصغر في التجارة وأخلص لله في عمله، وكان كثير التصدق لا يبخل عن عباد الله بنعمة، فنمت تجارته وازدادت أمواله، وأصبح ذا ثروة طائلة، ولم يكن له أعداء، لذلك كانت أمواله محصنة لا يؤثر فيها حسد، أما الابن الآخر، فقد سلك طريق الغواية، حتى أهلك ثروته في الخمر والميسر والزنا، فنفدت أمواله عن آخرها، وأصبح فقيراً لا يجد ما يقتات به، ومع ذلك كان أخوه كثير العطف عليه، فكان يقدم له من المأكل والملبس ما يكفيه، ولم يقتنع بعطف أخيه بل راح يحسده، حتى تمكن الحسد من قلبه، وفكر في حيلة يقضي بها على أخيه وثروته حتى يكون مثله في الفقر، فيطمئن قلبه فلا يعايره الناس بفقره، واهتدى بوحي من إبليس إلى رجل حسود اشتهر بحسده، وقليل من ينجو من حسده، وكان الحاسد ضعيف البصر لا يكاد يرى إلا عن قرب، فذهب الأخ الأكبر إلى هذا الرجل المشهور بحسده، وطلب منه أن يحسد له أموال أخيه مقابل أجر يدفعه عند هلاك ثروته، وأخذه إلى طريق كانت تمر منه تجارة أخيه، فنبه الأخ الأكبر الرجل الحسود إليها -أي التجارة- قائلاً له: استعد، فقد قربت تجارة أخي وصارت على بعد ميل واحد منا، فقال الرجل الحسود: يا لقوة بصرك أتراها على هذا البعد، يا ليت لي بصراً قويًا مثل بصرك، وفي الحال شعر هذا الأخ بألم شديد في رأسه، وأظلمت عيناه، وعمي بصره في الحال، ومرت تجارة أخيه سالمة لم يمسسها سوء.

أرأيت رحمك الله إلى أن عاقبة الحسد وخيمة، وهو مردود على صاحبه بالخيبة والنكال، ثم تأمل هذه القصة أيضًا:

٢- حكي أن رجلاً من العرب دخل على المعتصم، فقربه وأدناه، وجعله نديمه، وصار يدخل على حريمه من غير استئذان، وكان له وزير حاسد، فغار من البدوي وحسده، وقال في نفسه: إن لم أحتل على هذا البدوي في قتله أخذ بقلب الأمير، وأبعدني عنه، فصار يتطلف بالبدوي حتى أتى به إلى منزله، فطبخ له طعامًا، وأكثر فيه من

---

(١) رواه ابن ماجه بإسناد صحيح والبيهقي وذكره المنذري في الترغيب ٣/ ٥٥١ والبيهقي في الشعب (٤٨٠) والخرائطي في المساوئ (٧٦٦) ص٢٦٧

الثوم، فلما أكل البدوى منه قال له الوزير: احذر أن تقترب من أمير المؤمنين، فيشم منك رائحة الثوم، فيتأذى من ذلك فإنه يكره رائحته ثم ذهب الوزير إلى أمير المؤمنين (المعتصم) وقال: يا أمير المؤمنين إن البدوى يقول عنك للناس: إن أمير المؤمنين أبخر، فلما دخل البدوى على الأمير جعل كمه على فمه مخافة أن يشم منه رائحة الثوم، فلما رآه أمير المؤمنين وهو يستر فمه بكمه قال: إنّ الذى قاله الوزير عن البدوى صحيح، فكتب أمير المؤمنين كتابًا إلى بعض عماله يقول فيه: إذا وصل إليك كتابى هذا، فاضرب رقبة حامله، ثم دعا البدوى، ودفع إليه الكتاب، وقال له: امض به إلى فلان، وائتنى بالجواب، فامتثل البدوى ما رسم به الأمير، وأخذ الكتاب وخرج به من عنده، فبينما هو بالباب، إذ لقيه الوزير، فقال: أين تريد؟ قال: أتوجه بكتاب أمير المؤمنين إلى عامله فلان، فقال الوزير فى نفسه: إن هذا البدوى يحصل له من هذا التقليد مال جزيل، فقال له: يا بدوى ما تقول فيمن يريحك من هذا التعب الذى يلحقك فى سفرك، ويعطيك ألفى دينار؟ فقال: أنت الكبير، وأنت الحاكم، ومهما رأيته من الرأى فافعل. قال: أعطنى الكتاب، فدفعه إليه، فأعطاه الوزير ألفى دينار، وسار بالكتاب إلى المكان الذى هو قاصده، فلما قرأ العامل الكتاب، أمر بضرب رقبة الوزير، فبعد أيام تفكر الخليفة فى أمر البدوى، وسأل عن الوزير، فأخبر بأن له أيامًا ما ظهر، وأن البدوى بالمدينة مقيم، فتعجب من ذلك، وأمر بإحضار البدوى، فسأله عن حاله، فأخبره بالقصة التى اتفقت له مع الوزير من أولها إلى آخرها، فقال له: أنت قلت للناس عنى: أننى أبخر؟ فقال: معاذ الله يا أمير المؤمنين أن أتحدث بما ليس لى به علم، وأعلمه كيف دخل به إلى بيته، وأطعمه الثوم، وما جرى له معه، فقال أمير المؤمنين: قاتل الله الحسد ما أعدله بدأ بصاحبه فقتله، ثم خلع على البدوى، واتخذه وزيرًا، وراح الوزير بحسده[1] ومن هنا قالوا: الحسود لا يسود.

٣- وإليك هذا الخبر العجيب عن الحساد:

اجتمع ثلاثة من كبار الحاسدين، وجعل يذكر كل منهم مقدار مابلغه من الحسد، وما يضمر فى نفسه من الحقد لغيره.

فقال الأول: لقد بلغ الحسد فى نفسى أنى ما اشتهيت أن أفعل لأحد خيرًا قط حسدًا منى لهم.

فقال الثانى: إن شأنك ليسير، وإنى لأكثر حسدًا منك، إنى ما اشتهيت أن يفعل لى أحد خيرًا لى قط حسدًا منى له.

فقال الثالث: إنى شر منكما، إنى ما اشتهيت أن تبقى نعمة عند أحد قط، حسدًا منى لجميع الناس!!.

---

(١) المستطرف ص٢٣٦، ٢٣٧

فأجمعوا على أن هذا الأخير هو أشر الثلاثة حسداً.

٤- قيل: إن الأحنف بن قيس كان له مجلس يجتمع حوله كبار الناس، وذات يوم تذاكروا الحسد والحاسدين، وشرورهم العظيمة.

فقال الأحنف لمن حوله: إن الناس ربما تحاسدوا حتى على الموت!

فأنكروا عليه ذلك، وقالوا: كيف يحسد الناس على الموت؟!.

فسكت عنهم، ولم يجادلهم، ثم جاءوا إليه بعد أيام، فجلسوا حوله، فقال لهم: أو ما بلغكم ما حدث؟ قالوا له: وما ذاك؟

فقال لهم الأحنف: إن الخليفة أمر بقتل الفرزدق، مع حمدون الحجام، وإبراهيم الحلاق، فارتعدت فرائصهم، وقالوا:

بالله كيف يقتل هذان الخبيثان مع هذا العظيم، يقصدون الفرزدق؟!

فضحك الأحنف بن قيس، وقال لهم:

ألم أقل لكم إن الناس تحاسدوا حتى على الموت؟!

• أنواع الحسد •

أخا الإسلام:

والحسد ثلاثة أنواع، اثنان مذمومان، وواحد فقط محمود فما هما النوعان المذمومان؟.

النوع الأول: هو أن يتمنى الحاسد زوال نعمة الغير، ويكون هذا النوع بالقلب الذى سيطر عليه الشيطان، وبالنفس الأمارة بالسوء.

والنوع الثانى: وهو أخطر الأنواع وأشدها ضرراً وهو الحسد بالعين، وهذا النوع ثابت بالقرآن والسنة، فأما من القرآن فقوله تعالى: ﴿**وَقَالَ يَا بَنِي لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ**﴾ [يوسف: ٦٧].

جاء فى تفسير ابن كثير(١):

قال ابن عباس ومحمد بن كعب ومجاهد والضحاك وقتادة والسدى وغير واحد، إنه خشى عليهم العين، وذلك أنهم كانوا ذوى جمال وهيئة حسنة ومنظر وبهاء، فخشى عليهم أن يصيبهم الناس بعيونهم، فإن العين حق تستنزل الفارس عن فرسه.

وقال تعالى: ﴿**وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ**﴾ [القلم: ٥١].

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٤٨٥.

يقول الحافظ ابن كثير أيضًا[١]:

قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: (ليزلقونك) لينفذونك (بأبصارهم) أي يعينونك بأبصارهم بمعنى يحسدونك لبغضهم إياك لولا وقاية الله لك، وحمايته إياك منهم:

وفي هذه الآية دليل على أن العين إصابتها وتأثيرها حق بأمر الله عز وجل كما وردت بذلك الأحاديث المروية من طرق متعددة كثيرة.

وأما من السنة فأحاديث منها:

١- ما رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«العين تدخل الرجل القبر، وتدخل الجمل القدر»**[٢]

٢- وعنه أيضًا قال: قال رسول الله ﷺ: **«أكثر من يموت من أمتي بعد قضاء الله وقدره بالعين»**[٣]

٣- وعن أبي ذر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«إن العين لتولع بالرجل -أي تصيبه- بإذن الله حتى يصعد حالقًا فيتردى منه»**[٤]

٤- وعن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال لجارية في بيتها رأى في وجهها سفعة: **«بها نظرة، استرقوا لها»**[٥]

والسفعة هي العلامة من الشيطان، وقيل: ضربة واحدة، أي بقعة سوداء أو صفراء في وجهه.

فما الفرق بين النوعين؟

الفرق بين حسد العين، وحسد القلب (تمني الزوال للنعمة).

يقول ابن الجوزي رحمه الله:

١- إن العائن حاسد خاص وهو أضر من الحاسد، ولهذا -**والله أعلم**- جاء في السورة ذكر الحاسد دون العائن، لأنه أعم، فكل عائن حاسد ولابد، وليس كل حاسد عائنًا، فإذا استعاذ من شر الحسد دخل فيه العين، وهذا من شمول القرآن وإعجازه وبلاغته[٦]

٢- الحسد يتأتى عن الحقد والبغض وتمني زوال النعمة، وأما العين فيكون سببها الإعجاب والاستعظام والاستحسان.

---

(١) المرجع السابق ٤/٤٠٩.

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية، وحسنه الألباني في ص.ج (٤٠٢٣).

(٣) حسنه الألباني في ص.ج (١٢١٧).

(٤) رواه أحمد (٢٤٧٧) بإسناد صحيح وصححه الألباني في ص.ج (١٦٧٧).

(٥) رواه البخاري ومسلم.

(٦) بدائع الفوائد لابن القيم جـ٢/ ٢٣٣ ط/ دار الفكر.

٣- الحسد والعين يشتركان فى الأثر حيث يسببان ضررًا للمعين والمحسود، ويختلفان فى المصدر، فمصدر الحسد تحرق القلب، واستكثار النعمة على المحسود، وتمنى زوالها عنه، وأما العائن فمصدره انقداح نظرة العين، لذل فقد يصيب من لا يحسده من جماد أو حيوان أو زرع أو مال، وربما أصابت عينه نفسه.

٤- الحاسد يمكن أن يحسد فى الأمر المتوقع قبل وقوعه، بينما العائن لا يعين إلا الموجود.

٥- لا يحسد الإنسان نفسه ولا ماله، ولكنه قد يعينهما.

٦- لا يقع الحسد إلا من نفس خبيثة حاقدة، لكن العين قد تقع من رجل صالح. كما حدث مع عامر بن ربيعة عندما أصاب سهل بن حنيف بعين رغم أنه من السابقين إلى الإسلام، ومن أهل بدر[١]، والحديث فى مسند الإمام أحمد، وموطأ الإمام مالك يرويه لنا أبو أمامة بن سهل بن حنيف، فيقول: «رأى عامر بن ربيعة سهل بن حنيف، وهو يغتسل، فتعجب منه، فقال: والله ما رأيت كاليوم مخبأة فى خدرها، أو قال: فتاة فى خدرها، قال: فلبط سهل بن حنيف حتى والله ما يرفع رأسه، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «**هل تتهمون فيه من أحد**»؟.

قالوا: نتهم عامر بن ربيعة. فدعا رسول الله ﷺ عامرًا فتغيظ عليه وقال: «**علام يقتل أحدكم أخاه؟ هلا إذا رأيت ما يعجبك برّكت**» -أى: دعوت له بالبركة- ثم قال: «**اغتسل له**» فغسل وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه وأطراف رجليه، وداخلة إزاره فى قدح، ثم صب ذلك الماء عليه، يصبه رجل على رأسه وظهره من خلفه ثم يكفى القدح وراءه، ففعل به ذلك، فراح سهل مع الناس ليس به بأس[٢] ومعنى: فلبط: أى سقط فى الماء.

وفى رواية أن الرسول ﷺ دعا له، وضرب على صدره وقال: «**اللهم أذهب عنه حرها وبردها ووصبها**».

فقد تبين فى هذه القصة أشياء مهمة منها: أن العين قد تقع من صالح، ومنها: معرفة كيفية علاج العين بعد وقوعها، وهو الاغتسال.

• الحسد المحمود •

والحسد المحمود، هو أن يتمنى المرء أن يكون له مثل حال المحسود من غير أن تزول النعمة عنه، وهذا ما يسمى بحسد الغبطة، وإليه كانت الإشارة بقول معلم الإنسانية،

---

(١) نقلت من رقم ٢ إلى رقم ٦ من كتاب شيخنا المبارك الشيخ وحيد عبد السلام «الصارم البتار» ص١٣١

(٢). رواه أحمد فى مسنده (١٥٩٢٢) بإسناد صحيح وابن ماجه (٣٥٠٩) والأمام مالك فى الموطأ وغيرهم وصححه الألبانى فى ص.ج.

ورسول البشرية ﷺ: «**لا حسد إلا فى اثنتين: رجل آتاه الله مالاً، فسلطه على هلكته فى الحق، ورجل آتاه الله الحكمة، فهو يقضى بها ويعلمها الناس**»(١) وهذا النوع جائز، بل هو من المستحبات فى تمنى ما هو قربة إلى الله تعالى. فالمؤمن يتنافس مع أمثاله وأقرانه من أهل الإيمان فى فعل الخيرات فالغبطة تحمل صاحبها على أن يقتدى بأصحاب الهمم العليا فى مجاهدة النفس وحملها على الطاعة والانقياد، قال سبحانه: ﴿**وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ**﴾ [المطففين: ٢٦] والتنافس بهذا المعنى هو مجاهدة النفس للتشبه بالأفاضل واللحوق بهم من غير إدخال ضرر على آخر فضيلة من فضائل الإسلام العظيم، وجزء من هدى النبى عليه الصلاة والتسليم.

يقول الإمام القشيرى:

وتنافسهم فيه يكون بالمبادرة إلى الأعمال الصالحة، والمسابقة إلى القربات، وتعليق القلب الطهور بالله تبارك وتعالى، والتنزه عن الأخلاق الدنيَّة والصفات الذميمة، وجولان همة المؤمن بالتفكير فى ملكوت السماوات والأرض، ودوام المناجاة لرحمن الدنيا والآخرة.

وإذا كان التنافس فى الخير، والغبطة، فضيلة من الفضائل التى حثنا عليها رسول الإسلام، وخير ما فى هذا التنافس، رجل حفظ القرآن وتعلمه، وهو يعلمه الناس ويعمل بما فيه، ثم بعد ذلك رجل معه مال فهو يعطيه لمن يستحقه ويحتاج إليه آناء الليل والنهار، فإنه بعد ذلك حذرنا من لون خبيث وسيئ من ألوان التنافس وهو التنافس على حطام الدنيا الزائلة، ولذلك يقول ﷺ: «**والله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتتنافسوها كما تنافسوها، وتلهيكم كما ألهتهم**»(٢)

• ما كيفية الوقاية من شر الحسد؟ •

يقول ابن القيم -رحمه الله-:

ويندفع شر الحاسد عن المحسود بعشرة أسباب:

أحدها: التعوذ بالله من شره، والتحصن به، واللجوء إليه.

الثانى: تقوى الله وحفظه عند أمره ونهيه، فمن اتقى الله تولى الله حفظه، ولم يكله إلى غيره، قال تعالى: ﴿**وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا**﴾ [آل عمران: ١٢٠] فمن حفظ الله حفظه الله، ووجده أمامه أينما توجه، ومن كان أمامه وحافظه فمن يخاف؟! ومن يحذر؟!.

---

(١) رواه أحمد فى مسنده (٣٥٦١) بإسناد صحيح والبخارى ومسلم والترمذى وصححه الألبانى (٣٩٠٨).

(٢) رواه البخارى

الثالث: الصبر على عدوه، وأن لا يقاتله، ولا يشكوه، ولا يحدث نفسه بأذاه أصلاً، فما نصره على حاسده، وعدوه بمثل الصبر عليه، والتوكل عليه سبحانه جل شأنه.

الرابع: التوكل على الله، فمن يتوكل على الله فهو حسبه، وهو من أقوى الأسباب التى يدفع بها العبد ما لا يطيق من أذى الخلق، وظلمهم، وعدوانهم، وهو من أقوى الأسباب فى ذلك.

قال بعض السلف:

جعل الله لكل عمل جزاء من جنسه، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته لعبده، فقال: ﴿**وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**﴾ [الطلاق: ٣].

والخامس: فراغ القلب من الاشتغال به، والفكر فيه، وأن يقصد أن يمحو من باله كلما خطر له، فلا يلتفت إليه، ولا يخافه، ولا يملأ قلبه بالفكر فيه، وهذا من أنفع الأدوية، وأقوى الأسباب المعينة على اندفاع شره.

فإذا صان نفسه عن الفكر فيه، والتعلق به، وعدم تعلقه بخاطره، فإذا تعلق بخاطره بادر إلى محو ذلك الخاطر، واشتغل بما هو أنفع له، وأولى به، ساعتها يبقى الباغى الحاسد يأكل بعضه بعضًا، فإن الحسد كالنار إن لم تجد ما تأكله أكل بعضها بعضًا.

السادس: الإقبال على الله، والإخلاص له، وجعل محبته وترضيه، والإنابة إليه فى محل خواطر نفسه وأمانيها تدب فيها دبيب تلك الخواطر شيئًا فشيئًا حتى يقهرها ويغمرها ويذهبها بالكلية، فلايجول بخاطره الفكر فى حاسده، والبغى عليه، والانتقام منه، والتدبير عليه، فإذا مسه طيف من ذلك، واجتاز ببابه، فخرج ناداه حرس قلبه، إياك وحمى الملك.

فما أعظم سعادة من دخل هذا الحصن، لقد آوى إلى حصن لا خوف على من تحصن به، ولا ضيعة لمن آوى إليه، ولا مطمع للعدو فى الدنو إليه منه: ﴿**ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**﴾ [الجمعة: ٤].

السبب السابع: تجريد التوبة إلى الله من الذنوب التى سلط الله أعداءه بها عليك فإنه سبحانه يقول: ﴿**وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ**﴾ [الشورى: ٣٠].

وقال لخير الخلق وهم أصحاب نبيه دونه ﷺ: ﴿**أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ**﴾ [آل عمران: ١٦٥].

فما سلط على العبد من يؤذيه إلا بذنب يعلمه أو لا يعلمه، وما لا يعلمه العبد من ذنوبه أضعاف ما يعلمه منها. لقى بعض السلف رجل فأغلظ له ونال منه، فقال له: قف حتى أدخل البيت ثم أخرج إليك، فدخل فسجد لله وتضرع إليه وتاب، وأناب إلى ربه، ثم خرج إليه، فقال له: ما صنعت؟ فقال: تبت إلى الله من الذنب الذى سلطك به علىَّ.

الثامن: الصدقة والإحسان ما أمكنه، فإن لذلك تأثرًا عجيبًا في دفع البلاء، ودفع العين وشر الحاسد، فالصدقة جنة من الله واقية، وحصن حصين، وبالجملة فالشكر حارس النعمة من كل ما يكون سببًا لزوالها، فالمحسن المتصدق يستخدم جندًا وعسكرًا يقاتلون عنه، وهو نائم على فراشه، ومن لم يكن له جند ولا عسكر، وله عدو فيوشك أن يظفر به عدوه.

التاسع: وهو من أصعب الأسباب على النفس، وأشقها عليها، ولا يوفق له إلا من عظم حظه من الله وهو طفى نار الحاسد والباغى والمؤذى بالإحسان إليه، فكلما ازداد أذى وشرًا وبغيًا وحسدًا، فازدد له إحسانًا ونصيحة، وعليه شفقة، وما أظنك تصدق بأن هذا يكون فضلاً عن أن تتعاطاه، فاسمع الآن إلى قوله عز وجل: ﴿**وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ**﴾ [فصلت: ٣٤: ٣٦].

وقال في وصف أهل الإيمان: ﴿**أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ**﴾ [القصص: ٥٤].

وتأمل حال نبينا محمد ﷺ حين رماه قومه بالحجارة حتى أدموا قدميه، فجعل يمسح الدم عنه وهو يقول: «**اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون**»[1] تأمل كيف جمع فى هذه الكلمات أربع مقامات من مقامات الإحسان التى قابل بها إساءتهم العظيمة إليه:

أحدها: عفوه عنهم. **والثانى**. استغفاره لهم.

والثالث: اعتذاره عنهم بأنهم لايعلمون.

والرابع. استعطافه لهم بإضافتهم إليه، فقال: اغفر لقومى.

العاشر: وهو الجامع لذلك كله، وعليه مدار هذه الأسباب، وهو تجريد التوحيد والترحل بالفكر فى الأسباب إلى المسبب العزيز الحكيم، فهو الضار، وهو النافع، وهوالمصرف لكل شيء، من خير وشر، وسعادة وشقاوة، قال سبحانه: ﴿**وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾ [يونس: ١٠٧].

وقد قال نبينا محمد ﷺ لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «**واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك**»[2] فإذا تمسك العبد بالتوحيد الكامل، فقد أخرج من قلبه خوف ما سواه، وكان عدوه أهون عليه من أن يخافه مع الله.

---

(١) رواه البخارى وأحمد وغيرهما

(٢) رواه أحمد والترمذى وقد خُرِّج فى موضع آخر.

قال بعض السلف: من أقبل على الله بكليته أقبل الله عليه جملة، ومن أعرض عن الله بكليته، أعرض الله عنه جملة، ومن كان مرة ومرة، فالله له مرة ومرة.

فالتوحيد حصن الله الأعظم الذى من دخله كان من الآمنين.

قال بعض السلف: من خاف الله خافه كل شيء، ومن لم يخف الله أخافه من كل شيء. .وبعد، فهذه عشرة أسباب يندفع بها شر الحاسد والعائن والساحر(١)

الوصية رقم (٥٠)
استوصوا بأصحابى خيرًا

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خطب، فقال. قام فينا رسول الله ﷺ مقامى فيكم، فقال:

«استوصوا بأصحابى خيرًا، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يفشو الكذب، حتى إن الرجل ليبتدئ بالشهادة قبل أن يسئلها، فمن أراد منكم بحبحة الجنة فليلزم الجماعة، فإن الشيطان مع الواحد، وهو مع الاثنين أبعد، ولا يخلون أحدكم بامرأة، فإن الشيطان ثالثهما، ومن سرته حسنته، وساءته سيئته فهو مؤمن»(٢)

صدق رسول الله ﷺ

• فى رحاب هذه الوصية •

أخى الحبيب:

ينقل لنا الصحابى الجليل عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما أن أباه عمر خطب يومًا فى أصحابه، ثم نقل لنا هذه الوصية العظيمة، التى اشتملت على أمرين ونهى، وخبرين وهذا من عظيم بلاغته وفصاحته ﷺ.

فالأمر الأول: **«استوصوا بأصحابى خيرًا..»** فيأمرنا بأن نستوصى بهم، لأنهم مشعل الهداية، وأفضل الناس بعد رسول الله ﷺ، ولأن رب العالمين تبارك وتعالى اختارهم لصحبة حبيبه محمد ﷺ، كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه «إن الله نظر فى قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، وابتعثه برسالته، ثم نظر فى قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ فوجد قلوب أصحابه خير القلوب، فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون على دينه»(٣)

---

(١) هذه الأسباب العشرة ذكرها ابن القيم فى كتابه القيم: بدائع الفوائد» جـ٢/ ٢٣٨: ٢٤٦ / دار الفكر وقد ذكرتها لك باختصار وتصرف ونرجو الله أن ينفع بها.

(٢) رواه أحمد فى مسنده برقم (١١٤) ١/ ٢١٥ بإسناد صححه الشيخ أحمد شاكر وقال: علقه البخارى فى التاريخ ١/ ٢/ ١ وذكره الشافعى فى الرسالة برقم (١٣١٥).

(٣) رواه أحمد فى مسنده (٣٦٠٠) بإسناد حسن وأبو نعيم فى حلية الأولياء ١/ ٣٧٥

وعطف هذا الأمر على من يليهم من السلف الصالح -رضوان الله عليهم- والتابعين، ومن نهج نهجهم، وسار على دربهم، فهم أفضل القرون كما قال ﷺ فيما رواه عنه أيضًا الصحابى الجليل عبد الله بن مسعود: «**خير الناس قرنى، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم**»(١)

وعن عائشة ﵂ قالت: سأل رجل النبى ﷺ قال: «**أى الناس خير؟ قال: القرن الذى أنا فيه، ثم الثانى، ثم الثالث**»(٢)

وأما الأمر الثانى، فهو: «**فليلزم الجماعة**» والجماعة هم جماعة المسلمين الذين عرفوا الإسلام من مصادره الأصلية، وعملوا بما جاء فى الكتاب والسنة.

وأما النهى فقوله: «**لا يخلون أحدكم بامرأة، فإن الشيطان ثالثهما**» وهو نهى مؤكد بنون التوكيد الثقيلة، ولام الأمر، فلا يجوز أن يلتقى الرجل مع امرأة فى مكان يتمكن فيه منها لو أراد ذلك، إلا أن يكون معها محرم كما سوف نبين.

وأما الخبر الأول وهو دليل على صدق نبوته حيث أخبر بالمغيب فوقع كما أخبر، وهو قوله ﷺ: «**ثم يفشو الكذب، حتى إن الرجل ليبتدئ بالشهادة قبل أن يسئلها**» فقد وقع هذا فى عصرنا وكثر نسأل الله السلامة والنجاة.

والخبر الثانى: «**من سرته حسنته، وساءته سيئته فهو مؤمن**» أى من حصل له سرور بعمله الصالح، ليس على سبيل الإعجاب، ولكن على سبيل شكر الله على توفيقه له فهذا عمل محبوب، ويحزن بعمله السيئ ويعاتب نفسه ويحاسبها على ذلك فهو من أهل الإيمان.

• بعض فضائل الصحابة •

١ - من القرآن الكريم:

لقد امتدح الله أصحاب رسولنا محمد ﷺ فى كتابه، وضرب لهم مثلاً فى التوراة والإنجيل، فقال سبحانه فى ختام سورة الفتح: ﴿ **مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ [الفتح: ٢٩] وهؤلاء الأصحاب الطاهرون قسمان: مهاجرون، وأنصار، فقد وصف الله المهاجرين بأنهم هم الصادقون، والأنصار بأنهم هم المفلحون قال

(١) رواه أحمد فى مسنده (٣٥٩٤) والبخارى (٢٦٥٢) ومسلم والترمذى.

(٢) رواه الترمذى.

سبحانه: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر:٨] فقراء، وأخرجوا من ديارهم، فأصبحوا بلا مسكن حسى، وأخرجوا من أموالهم، فأصبحوا فقراء لا مال لهم، ومع ذلك يبتغون رضوان الله تعالى، وينصرون الله ورسوله. وأما الأنصار، فيقول عنهم: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:٩] وبين الله فضلهم وجزاءهم الذى أعده لهم فى آية واحدة، فقال سبحانه: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠) وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة: ١٠٠، ١٠١] وفى آيتين قبلها وضح هذا الفلاح، وذلكم الفوز العظيم، وأكده فقال سبحانه: ﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨٨) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٨٨، ٨٩].

وقد بين سبحانه وتعالى عاقبة من خالفهم، واتبع طريقًا غير طريقهم، ونهج نهجًا غير نهجهم، فقال تعالي: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء:١١٥].

والآيات فى ذلك كثيرة، فهيا بنا لنرى فضلهم من هدى نبيهم ﷺ

٢- فضائل الصحابة من سنة النبى ﷺ:

أخا الإسلام:

هيا بنا إلى حبيب قلوبنا محمد ﷺ لنسمعه وهو يأمرنا بحبهم، ويوضح أن من أحبهم فقد أحبه، ومن أحبه، فقد أحب مولاه، والجزاء من جنس العمل، يقول ﷺ: **«الله الله فى أصحابى لا تتخذوهم غرضًا بعدى، فمن أحبهم فبحبى لهم أحبهم، ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذانى، ومن آذانى فقد آذى الله، ومن آذى الله أوشك أن يأخذه»**(١)

وعن أبى بردة عن أبيه قال: صلينا المغرب مع رسول الله ﷺ ثم قلنا: لو جلسنا حتى نصلى معه العشاء، قال: فجلسنا فخرج علينا، فقال: «**ما زلتم ها هنا؟**» قلنا: يا رسول الله، صلينا معك المغرب، ثم قلنا: نجلس حتى نصلى معك العشاء.

---

(١) رواه أحمد فى مسنده (٢٠٤٢٨) جـ١٥/٢٤٦ بإسناد حسن والترمذى (٣٨٦٢).

قال: «**أحسنتم أو أصبتم**» قال: فرفع رأسه إلى السماء، وكان كثيرًا ما يرفع رأسه إلى السماء، فقال: «**النجوم أمنة للسماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد، وأنا أمنة لأصحابي، فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون**»[١]

والمقصود بقوله: «**أتى أمتي ما يوعدون**» إشارة إلى ما سوف يقع من الفتن، وحلول الشر عند ذهاب أهل الخير والبر، فهم خير أهل الأرض، لذلك فإن الرسول ﷺ يؤكد على ظهور الفتن والحروب، والبدع والحوادث، فيقول في الحديث الذي رواه عنه واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال: «**لا تزال أمتي بخير ما دام فيكم من رآني وصاحبني، والله لا تزالون بخير ما دام فيكم من رأى من رآني، وصاحب من صاحبني**»[٢] وهذا الحديث يؤكد الحديث الذي ذكرناه وعن عمران بن حصين أن النبي ﷺ قال: «**خير القرون قرني ثم الذين يلونهم**» **قال عمران**: فما أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة، ثم إن بعدهم قومًا يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السمن[٣].

ولذلك حكى أن:

إبليس عليه اللعنة بث جنوده في وقت الصحابة رضوان الله عليهم، فرجعوا إليه محسورين، فقال: ما بالكم؟ فقالوا: ما رأينا مثل هؤلاء، ما نصيب منهم شيئًا، وقد أتعبونا فيقول: إنكم لا تقدرون عليهم، اصطحبوا نبيهم، وأشهدوا بتنزيل ربهم، ولكن سيأتي بعدهم قوم تنالون منهم حاجتكم، فلما جاء التابعون، بث جنوده، فرجعوا إليه منكسرين، فقالوا: ما رأينا أعجب من هؤلاء نصيب منهم الشيء بعد الشيء من الذنوب، فإذا كان النهار أخذوا في الاستغفار، فتبدل سيئاتهم حسنات، فقال: لن تنالوا من هؤلاء شيئًا لصحة توحيدهم، واتباعهم سنة نبيهم، ولكن سيأتي بعد هؤلاء قوم تقر بهم عيونكم، تلعبون بهم لعبًا، قال: فجاء قوم بعد القوم الأول والثاني والثالث فبث فيهم الأهواء، وزين لهم البدع فاستحلوها، فسلط الله عليهم عدوهم فآذوهم[٤].

قال النووي في شرح مسلم:

اتفق العلماء على أن خير القرون قرنه ﷺ والمراد أصحابه. ثم قال: ورواية «**خير الناس**» على عمومها، والمراد منها جملة القرن، ولا يلزم منه تفضيل الصحابي على الأنبياء، ولا أفراد النساء على مريم وآسية وغيرهما، بل المراد جملة القرن بالنسبة إلى كل قرن بجملته.

(١) رواه مسلم (٢٥٣١) وابن حبان وروضة المحبين للعدوى ص٩

(٢) رواه ابن أبي شيبة بإسناد حسن ذكره العدوى في روضة المحبين ص٩

(٣) رواه الترمذي (٢٢٢٢) وأبو داود (٤٦٥٧) ومسلم وأحمد في مسنده.

(٤) النيل الحثيث ص١٧٤ تحقيق أحمد فريد ط/ دار الفجر.

قال القاضي: واختلفوا في المراد بالقرن هنا، فقال المغيرة: قرنه أصحابه والذين يلونهم أبناؤهم، والثالث: أبناء أبنائهم. وقال شهر: قرنه ما بقيت عين رأته، والثاني: ما بقيت عين رأت من رآه، ثم كذلك. وقال غير واحد: القرن كل طبقة مقترنين في وقت، وقيل: هو لأهل مدة بعث فيها نبي طالت مدته أم قصرت ثم قال رحمه الله: الصحيح أن قرنه ﷺ الصحابة. والثاني: التابعون والثالث: تابعوهم. أهـ.

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«يأتي على الناس زمان، فيغزوا فئام من الناس، فيقولون: فيكم من صاحب رسول الله ﷺ؟ فيقولون لهم: نعم، فيفتح لهم.**

ثم يأتي على الناس زمان فيغزوا فئام من الناس، فيقال لهم: هل فيكم من صاحب أصحاب رسول الله ﷺ؟ فيقولون: نعم فيفتح لهم»(١)

ولقد نهى رسولنا ﷺ عن سب أصحابه الأجلاء رضوان الله عليهم فقال: **«لا تسبوا أحدًا من أصحابي، فلو أن أحدًا أنفق مثل أحد ذهبًا ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نصيفه»**(٢)

قال الإمام النووي: قال أهل اللغة: النصيف: النصف، والمعنى لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبًا، فبلغ ثوابه في ذلك الثواب نفقة أحد أصحابي مُدًّا ولانصف مد، قال القاضي: ويؤيد هذا ما قدمناه في أول باب فضائل الصحابة عند الجمهور، من تفضيل الصحابة كلهم على جميع من بعدهم، وسبب تفضيل نفقتهم أنها كانت في وقت الضرورة، وضيق الحال، بخلاف غيرهم، ولأن إنفاقهم كان في نصرته ﷺ وحمايته، وذلك معدوم بعده، وكذا جهادهم، وسائر طاعتهم، وقد قال الله تعالى: ﴿**لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى**﴾ [الحديد: ١٠] هذا كله مع ما كان في أنفسهم من الشفقة والتودد والخشوع والتواضع، والإيثار والجهاد في الله حق جهاده، وفضيلة الصحبة ولو لحظة لا يوازيها عمل، ولا تنال درجتها بشيء، والفضائل لا تؤخذ بقياس، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، قال القاضي: ومن أصحاب الحديث من يقول: هذه الفضيلة مختصة بمن طالت صحبته، وقاتل معه، وأنفق وهاجر، ونصر، إلا لمن رآه مرة كوفود الأعراب أو صحبة آخرًا بعد الفتح بعد إعزاز الدين ممن لم يجد له هجرة ولا أثر في الدين، ومنفعة المسلمين، قال: والصحيح هو الأول، وعليه الأكثرون.

• تفاوت الصحابة في الفضل •

أجمع العلماء -كما يقول الفخر الرازي- أن بعض الأنبياء أفضل من بعض، وأن سيدنا محمدًا ﷺ أفضل من الكل. قال تعالى: ﴿**تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ**

(١) رواه البخاري (٣٦٤٩) ومسلم (٢٥٣٢).

(٢) رواه البخاري (٣٦٧٣) ومسلم (٢٥٤٢) وأبو داود (٤٦٥٨) والترمذي (٣٨٦).

مِنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ درجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَات وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وكذلك أصحاب رسول الله ﷺ فمنهم متفاوتون فى الأفضلية، فمذهب أهل السنة يرى أن أفضل الصحابة هو سيدنا أبو بكر الصديق ثم عمر بن الخطاب ثم عثمان بن عفان، ثم على بن أبى طالب ﷺ، وهذا ما ذهب إليه كثير من العلماء كابن كثير[١]، والألوسى، وإمام الحرمين، وأبو الحسن الأشعرى وغيرهم من علماء السنة الذين صرحوا بذلك.

وهو مذهب جمهور الصحابة والتابعين، فقد روى البيهقى عن الشافعى أنه قال: أجمع الصحابة وأتباعهم على أفضلية أبى بكر ثم عمر ثم عثمان، ثم على، كما ذكره ابن حجر فى فتح البارى[٢]

ويرى البعض: أن أفضلهم الخلفاء الأربعة، ثم الستة الباقون بعدهم إلى تمام العشرة وهم: طلحة والزبير، وسعد بن أبى وقاص، وسعيد بن زيد، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة عامر بن الجراح ﷺ، ثم البدريون، ثم أصحاب أحد، ثم أهل بيعة الرضوان بالحديبية.

روى البيهقى أن الشافعى -رحمه الله- قال: قد أثنى الله على أصحاب رسول الله ﷺ فى القرآن والتوراة والإنجيل، وسبق لهم على لسان رسول الله ﷺ من الفضل ما ليس لأحد بعدهم، فرحمهم الله، وهناهم بما آتاهم من ذلك، ببلوغ أعلى منازل الصديقين والشهداء والصالحين[٣]

• عدالة الصحابة رضوان الله عليهم •

والعدالة لغة: هى الاستقامة فى الدين.

أما فى الاصطلاح: فقد ذكر العلماء عدة تعريفات منها:

تعريف ابن الحاجب: العدالة هى محافظة دينية تحمل على ملازمة التقوى والمروءة ليس معها بدعة، وتتحقق باجتناب الكبائر، وترك الإصرار على الصغائر.

يقول ابن تيمية رحمه الله[٤]:

هذا وقد اتفق على أن الصحابة كلهم عدول، واتفقوا أيضًا على تفضيل الصحابة على من بعدهم، لكنهم تنازعوا هل هذه الأفضلية بالنسبة إلى المجموع أم الأفراد؟.

---

(١) الباعث الحثيث ص١٨٣
(٢) فتح البارى ٧/ ١٧
(٣) مناقب الشافعى ١/ ٤٤٢.
(٤) منهاج السنة لابن تيمية بتصرف.

والأول: قول ابن عبد البر ومقتضى كلامه: أنه يأتي بعد الصحابة من يكون أفضل من بعض الصحابة باستثناء أهل بدر و الحديبية.

والثاني: رفض أي تفضيل وهو رأي الجمهور من الفقهاء والمحدثين.

وقد ذهب أهل السنة والجماعة ومن وافقهم من الزيدية والمعتزلة يرون العدالة لجميع الصحابة رضوان الله عليهم، فإن الله تعالى اختار هؤلاء القوم لصحبة نبيه ونصرته، وتبليغ شرعه، وإعلاء كلمته، ومن صدر منه ما يخالف ذلك كالوقوع في معصية مثلاً، فإنما هي لمرة واحدة، أو لأفراد قلائل، ثم لم يلبث من وقع منه ذلك أن يتوب إلى الله توبة نصوحًا.

فالإمام ابن حجر يقول: اتفق أهل السنة على أن الجميع عدول، ولم يخالف في ذلك إلا شذوذًا في المبتدعة[١]

وابن عبد البر: قد نقل إجماع أهل الحق من المسلمين وهم أهل السنة والجماعة على أنهم كلهم عدول[٢].

وقد استدلوا على عدالتهم بالمنقول والمعقول.

قال تعالى: ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وسطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً** ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقد ورد في صحيح البخاري من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**يدعى نوح يوم القيامة، فيقول: لبيك وسعديك يا رب، فيقول: هل بلَّغت؟ فيقول: نعم فيقال لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فيشهدون أنه قد بلغ، ويكون الرسول عليكم شهيدًا، فذلك قوله: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وسطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾**»[٣]

قال ابن حجر[٤]:

أخرج ابن أبي حاتم بسند جيد عن أبي العالية عن أبي بن كعب في هذه الآية قال: ﴿ **لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ...** ﴾ وكانوا شهداء على الناس يوم القيامة، كانوا شهداء على قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم شعيب، وغيرهم أن رسلهم بلغتهم، وأنهم كذبوا رسلهم.

قال أبو العالية: وهي قراءة أبي «لتكونوا شهداء على الناس يوم القيامة».

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ١/ ٩

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر ١/ ١٩

(٣) رواه البخاري.

(٤) فتح الباري ٨/ ٢١٨

ومن حديث جابر ﷺ عن النبي ﷺ: «**ما من رجل من الأمم إلا ودَّ أنه منا أيتها الأمة، ما من نبي كذبه قومه إلا ونحن شهداؤه يوم القيامة، أن قد بلغ رسالة الله ونصح لهم**».

واستدلوا أيضًا على عدالة الصحب الكرام بما رواه البخاري ومسلم من حديث أنس ﷺ قال: مُرَّ بجنازة فأثنى عليها خيرًا، فقال النبي ﷺ: «**وجبت، وجبت، وَجبت**» ومُرَّ بجنازة أخرى، فأثنى عليها شرًّا، فقال النبي ﷺ «**وجبت، وجبت، وجبت**» قال عمر: فداء أبي وأمي يا رسول الله، ما وجبت؟ قال: «**الأولى أثنيتم عليها خيرًا فوجبت لها الجنة، والثانية أثنيتم عليها شرًا فوجبت لها النار، أنتم شهداء الله في الأرض**»[1].

واستدلوا أيضًا بما رواه مسلم عن عائذ بن عمرو: أن أبا سفيان أتى على سلمان وصهيب وبلال في نفر، فقالوا: والله ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها قال أبو بكر: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم؟ فأتى النبي ﷺ فأخبره، فقال ﷺ: «**يا أبا بكر لعلك أغضبتهم لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك**» فأتاهم أبو بكر، فقال: يا إخوتاه! أغضبتكم؟ قالوا: لا، يغفر الله لك يا أخي»[2]

• عقيدة أهل السنة فيما وقع بين الصحابة •

لقد ثبت بالأدلة السابقة عدالة الصحابة الكرام، وفضلهم العظيم، وما حدث بينهم كان عن اجتهاد، والمجتهد إما أن يصيب، وإما أن يخطئ، ومع ثبوت عدالتهم فهم بشر، فيجوز صدور الذنوب عنهم، والصحيح ما ذهب إليه أهل السنة والجماعة إلى وجوب الإمساك عما وقع بين الصحابة من تشاجر وخلاف.

قال صاحب تحفة المريد في جوهرة التوحيد:

وأول التشاجر الذي ورد إذا خضت فيه واجتنب داء الحسد[3]

لما ذكر أن صحبه ﷺ خير القرون احتاج للجواب عما وقع بينهم من المنازعات الموهمة قدحا في حقهم، مع أنهم لا يصرون على عمدة المعاصي، وإن لم يكونوا معصومين، وقد وقع تشاجر بين علي ومعاوية ﷺ وقد افترقت الصحابة ثلاث فرق:

١- فرقة اجتهدت، فظهر لها أن الحق مع معاوية، فقاتلت معه.

٢- وأخرى رأته مع علي.

٣ - وفرقة توقفت وقد قال العلماء: المصيب بأجرين، والمخطئ بأجر.

والمراد أن يحمل ذلك إلى محمل حسن لتحسين الظن بهم، فلم يخرج واحد منهم عن العدالة بما وقع بينهم، لأنهم مجتهدون.

---

(١) رواه البخاري ومسلم. (٢) رواه مسلم (٢٥٠٤).

(٣) شرح البيجوري على الجوهرة ص٢٨٧

والبحث عـما جرى بين الصحـابة من الموافقة والمخالـفة ليس من العقائـد الدينية، وليس مما ينتـفع به فى الدين، بل ربما ضر فى اليـقين، فلا يباح الخوض فـيه إلا للرد على المتعصبين، أو للتعليم، كتدريس كتـب تشتمل على تلك الآثار المتعلقة بذلك. وأما العوام فلا يجوز لهم الخوض فيه، لشدة جهلهم، وعدم معرفتهم بالتأويل(١)

وعندما سئل عمـر بن عبد العزيز -خامس الخلفاء الـراشدين- عن ذلك قال: «تلك دماء طهر الله يدى منها، أفلا أطهر منها لسانى؟ مَثَلُ أصحاب رسول الله ﷺ مثلُ العيون، ودواء العيون ترك منها»(٢)

وقال الإمـام القسطلانى فى المواهب اللـدنية: «ويجب الإمسـاك عما شجـر بينهم، والإضراب عن أخبار المؤرخين، وجهلة الرواة، وضلال الشيعة، والمبتدعين القادمة فى أحد منهم»(٣)

وقال الإمـام الباقـلانى فى الإنصـاف: «ويجب الكف عـن ذكر ما شـجر بـينهم، والسكوت عنه».

وقال الذهبـى -رحمه الله-: إن كثـيراً مما حدث بين الصـحابة من شجـار وخلاف ينبغى طيه وإخفاؤه بل إعدامه، وإن كتمـان ذلك متعين على العامة بل أحاد العلماء لأنه لا مصلحـة شرعية ولا علمـية من وراء هذا النشـر وهذا الزمان الذى نعيش فـيه هو الذى أخبر عنه النبى ﷺ فى قوله: «**سيأتى على الناس سنوات خدَّاعـات يُصدق فيها الكاذب، ويُكذب فيها الصادق، ويؤتمن فـيها الخائن، ويخون فيها الأمين وينطق فـيه الرويبضة، قيل: من الرويبضة؟ قال: الرجل التافه يتكلم فى أمر العامة**»(٤)

• العنصر الثانى: «لزوم الجماعة» •

وها هو رسولنا وحبيـبنا محمد ﷺ كعادته يرشد أمته إلى مـا فيه صلاحها فى أمر دينها ودنياهـا، فيقول: «**فمن أراد منـكم بحبحـة الجنة فليلزم الجمـاعة**» وقد أمر الإسلام الحنيف أتبـاعه بالوحدة وعدم الـتفرقة، ونهى عن الـتنازع، فقال سبـحانه: ﴿**وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ واصبِروا**﴾ [الأنفال: ٤٦] وأمرنا بالاعـتصام وعدم التفـرق فقال سبحانه: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جميعًا وَلَا تَفَرَّقُوا**﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وتأمل هذا الهـدى النبوى الـشريف الذى يحـثك فيه نـبى الإسلام ﷺ على لزوم جماعة المسلمين وإمامهم، فيقول: «**ثلاث لا يغل عليهن قلب امرئ مؤمن، إخلاص العمل لله، والمناصحة لأئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم، فإن دعاءهم يحيط من ورائهم**»(٥)

---

(١) المختار من شرح البيجورى على الجوهرة ص٢٨٧، ٢٨٨ بتصرف وتحفة المريد ص١٤٩، ١٥٠.

(٢) الإنصاف ص٦٩ (٣) المواهب اللدنية للقسطلانى ٧/ ٤٤، ٤٥.

(٤) رواه الحاكم فى المستدرك وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (١٨٨٨).

(٥) رواه البزار.

ولكى يمتزج المسلم بمجتمعه الذى يعيش فيه شرع الله تعالى الجماعة فى الصلوات الخمس والجمعات والأعياد، ورغب فى حضورها، وألزم أهل القرية الصغيرة أن يلتقوا فى الأعياد والمناسبات، ثم حث على الاجتماع الأعظم الذى يجمع بين المسلمين من شتى بقاع الأرض، مشرقًا ومغربًا ففرض الحج، وجعله فى وقت معلوم، ومكان معروف، حتى يجعل اللقاء بين أصناف المسلمين وأجناسهم لقاء محتومًا.

وكان رسولنا ﷺ يحذر كل التحذير من عاقبة الفرقة والتفكك، وكان فى معظم أحواله يوصى بالاتحاد، فعن سعيد بن المسيب رحمه الله عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله قال: **«الشيطان يهم بالواحد والاثنين؛ فإن كانوا ثلاثة لم يهم بهم»**(١)

وفى يوم من الأيام وقد كان ﷺ فى سفر، وقد جلسوا للراحة من مشقة الطريق، ووعثاء السفر، فرأى أنهم فى حالة استراحتهم متفرقين هنا وهناك وكأنه ليس بينهم رباط فكره ذلك، ونفرهم منه، فقال ﷺ: **«إن تفرقكم هذا من الشيطان، فلم ينزلوا بعد إلا انضم بعضهم إلى بعض، حتى يقال: لو بسط عليهم ثوب لعمهم»**(٢)

إن الناس إن لم يجمعهم الحق شعبهم الباطل، وإن لم توحدهم عبادة الرحمن مزقتهم عبادة الشيطان، وإن لم يستهوهم نعيم الآخرة تخاصموا على متاع الدنيا، ولذلك كان التطاحن المر من خصائص الجاهلية المظلمة، وديدن من لا إيمان لهم.

قال رسول الله ﷺ: **«لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»**(٣).

يعنى أن هذا العراك الدامى شأن الكافرين المنقسمين على أنفسهم أحزابًا متناحرة وقد لان الإسلام لاختلاف العقول فى الفهم، ومنح المخطئ أجرًا، والمصيب أجرين، ثم وسع الجميع فى كنفه الرحب، ما داموا مخلصين فى طلب الحق، حرصًا على معرفته والعمل به، قال ﷺ: **«إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجرن، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر»**(٤).

ولذلك فأنت ترى رحمة الله ترتبط بنتائج الفكر قدر ارتباطها بصلاح القصد فلم يضيق ذرع البشر بما وسعه دين الله؟ ولم القسوة بينهم والجفاء؟

فعندما أمر الرسول ﷺ المجاهدين الخارجين من المدينة ألا يصلوا العصر إلا فى بنى قريظة، فقال: **«لا تصلوا العصر إلا فى بنى قريظة»**(٥) فتأول بعضهم الأمر على ظاهره فصلوا العصر فى العتمة، وصلى بعضهم فى الطريق وتأولوا ذلك بأنه محمول على ما إذا لم يضع الوقت، ومع ذلك فقد قبل الرسول ﷺ رأى الفريقين، ثم صفهم بعد ذلك فى صف واحد من الجيش.

---

(١) رواه مالك فى الموطأ ٢/ ٣٧٠ باب فى الوحدة فى السفر للرجال والنساء رقم ٣٦.

(٢) رواه أبو داود.

(٣) رواه الترمذى.

(٤) رواه البخارى.

(٥) رواه البخارى.

تلك روح الإسلام فى الخلاف العلمى، وذلك ما لا محيص عنه عندما تستقيم الضمائر والعقول. . أما يوم أن يجعل الخلاف مصيدة للدنيا يناصبها العناد والبغض فقد ضاعت الدنيا، وضاع قبلها الدين.

قيل لأحد الشيوخ: أدرك المصلين فى المسجد، يوشك أن يتقاتلوا، قال: علام؟ قيل: بعضهم يريد أن يصلى التراويح ثمانى ركعات، والبعض يريد صلاتها عشرين.

قال: ثم ماذا؟ قيل: هم فى انتظار فتواك.

قال: الفتوى أن يغلق المسجد فلا تُصلى فيه تراويح ألبتة، لأنها لا تعدو أن تكون نافلة، ووحدة المسلمين فريضة[(١)]

إن الشقاق والنزاع يضعف الأمم القوية، ويميت الأمم الضعيفة، فالعدو لا يتمكن منا ما دمنا متحدين، ما دمنا مجتمعين يدًا واحدة.

واعلم أخى الحبيب: أن أعداءك لاينامون ولا يغفلون، وأن سياسة الغرب فى احتلال الشرق تقوم على قاعدة «فرق تسد».

ولنختم هذا العنصر بهذا الحوار الذى دار بين رسول الأمة سيدنا محمد ﷺ وبين الصحابى الجليل؛ حذيفة بن اليمان رضي الله عنه ووصية سيد الخلق له ﷺ؛ فعن أبى إدريس الخولانى أنه سمع حذيفة رضي الله عنه قال: «كان الناس يسألون رسول الله عن الخير، وكنت أسأله عن الشر، مخافة أن يدركنى، فقلت: يا رسول إنا كنا فى جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: **نعم**، قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: **نعم، وفيه دخن**، قلت: وما دخنه؟ قال: **قوم يستنون بغير سنتى، ويهدون بغير هديى، تعرف منهم وتنكر**، فقلت: فهل بعد الخير من شر؟ قال: **نعم. دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها**، فقلت: يا رسول الله، صفهم لنا، قال: **هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا**، فقلت: يا رسول الله وما ترى؟ وفى رواية: فما تأمرنى إنْ أدركنى ذلك؟ قال: **تلزم جماعة المسلمين وإمامهم**. قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: **فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك**»[(٢)]

(١) خلق المسلم للشيخ محمد الغزالى ص١٢٥، ١٢٦ بتصرف.

(٢) رواه البخارى فى كتاب الفتن ومسلم فى كتاب الإمارة.

• العنصر الثالث •

«لا يخلون أحدكم بامرأة، فإن الشيطان ثالثهما...» وفى رواية:

عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبى ﷺ قال: «**لا يخلون رجل بامرأة إلا ومعها ذو محرم، ولا تسافر المرأة إلا مع ذى محرم**».

فقام رجل، فقال: يا رسول الله، إنّ امرأتى خرجت حاجّة وإنى اكتتبت فى غزوة كذا وكذا. قال: **انطلق فحج مع امرأتك**[(١)]

فتأمل أخى الحبيب هذا الأسلوب الذى يفيد التشديد فى هذا الأمر لدرجة أن الرسول ﷺ قرن نهى هذا الفعل باللام والنون اللذين يفيدان التوكيد، وذلك لأن الخلوة بالمرأة الأجنبية فتنة وريبة، وربما توقع فى إثم عظيم، أو مذمة كبرى، وهذا التحذير وإن كان موجهًا للرجال، فذلك لأن القوامة بيد الرجل، والرجل الغيور المسلم هو الذى لا يترك زوجته أو ابنته تسافر سفرًا طويلاً أو قصيرًا ولو كان فى طاعة وعبادة إلا أن يكون معها هو بنفسه، أو مع محرم من أهلها.

ففى الحديث: «**إن الله يغار، وإن المؤمن يغار، وغيرة الله أن يأتى المؤمن ما حرم عليه**»[(٢)]

ولذلك فإن رسول الله ﷺ أمر الرجل الذى اكتتب معه فى إحدى الغزوات أن يرجع ليسافر إلى زوجته، فربما يتبادر سؤال إلى بعض الأذهان، فيقول: كيف أمره الرسول ﷺ بترك الجهاد فى سبيل الله لكى يذهب مع امرأته مع أنه قد استعد للحرب ولقاء العدو، وقد روى فى الأحاديث أن الجهاد من أفضل الأعمال؟ والإجابة على ذلك واضحة، لأن الذى أمره هو سيد البشر، وفقيه الأمة، وأستاذها سيدنا محمد ﷺ، فربما رأى كثرة الجند حينئذ والحاجة غير ماسة إليه، وربما فكر الرجل فى شأن امرأته وهى فى سفرها، فأثر ذلك على فكره وعقله، فيعوقه هذا التفكير عن مواصلة القتال والدفاع، لأن روحه المعنوية مشغولة بشىء آخر، وفوق ذلك كله فإن الجهاد فى سبيل الله قد يكون فى بعض الأحيان واجبًا على الكفاية، لكن صيانة الأعراض من أوجب الواجبات العينية على المسلم.

فمتى توفر المحرم، أو الرفقة المأمونة كوجود مجموعة من النساء، أو نساء ورجال فلا مانع حينئذ وإلا فلا.

---

(١) رواه مسلم (١٣٤١).

(٢) رواه مسلم (٢٧٦١) ورواه البخارى بنحوه والترمذى (١١٦٨) وأحمد فى مسنده (١٠٦٨٣).

الوصية رقم (٥١)
من ذكرت عنده فليصل عليَّ

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«من ذكرت عنده فليصل عليَّ، فإنه من صلى عليَّ مرة صلى الله عليه عشرًا»**(١)

صدق رسول الله ﷺ

• في رحاب الوصية •

قال الإمام ابن القيم:

هذا -أي الحديث- موافق للقاعدة المستقرة في الشريعة أن الجزاء من جنس العمل، فصلاة الله على المصلي على رسوله جزاء لصلاته هو عليه، ومعلوم أن صلاة العبد على رسول الله ﷺ ليست هي رحمة من العبد، لتكون صلاة الله عليه من جنسها، وإنما هي ثناء على الرسول ﷺ، وإرادة من الله أن يعلي ذكره، ويزيده تعظيمًا وتشريفًا، والجزاء من جنس العمل.

فمن أثنى على رسول الله ﷺ جزاه الله من جنس عمله، بأن يثني عليه ويزيد تشريفه وتكريمه، فصح ارتباط الجزاء بالعمل، ومشاكلته له، ومناسبته له(٢) كقول الرسول ﷺ: **«من يسر على معسر يسر الله عليه حسابه، ومن ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة، ومن نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»** (٣)

فصلاة وسلامًا عليك يا خاتم النبيين، ويا سيد المرسلين.

صلاة وسلامًا عليك يا قائد الغر المحجلين، ويا صاحب الشفاعة العظمى يوم الدين يا صاحب اللواء المعقود، ويا صاحب الحوض المورود.

صلاة وسلامًا عليك يا من زكى الله عقلك، فقال، ﴿**ما ضلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ**﴾ [النجم: ٢].

صلاة وسلامًا عليك يا من زكى الله بصرك، فقال، ﴿**ما زَاغَ الْبَصر وَمَا طَغَىٰ**﴾ [النجم: ١٧].

صلاة وسلامًا عليك يا من زكى الله لسانك، فقال، ﴿**وما ينطقُ عنِ الْهَوىٰ**﴾ [النجم: ٣].

---

(١) رواه الترمذي وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦١٢٢).

(٢) جلاء الأفهام لابن القيم الجوزية ص٧٩ ط/ دار الكتب العلمية.

(٣) رواه أحمد في مسنده وهو ضعيف.

صلاة وسلامًا عليك يا من زكى الله صدرك، فقال، ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١].

يا من زكاك الله في طهرك، فقال ﴿ووضعنا عنك وزرك﴾ [الشرح: ٢].

صلاة وسلامًا عليك يا من رفع الله ذكرك، فقال: ﴿ورفعنا لك ذكرك﴾ [الشرح: ٤].

صلاة وسلامًا عليك يا من زكاك ربك في حلمك فقال: ﴿بالمؤمنين رءوف رحيم﴾ [التوبة: ١٢٨].

وزكاك ربك في علمك فقال: ﴿علمه شديد القوى﴾ [النجم: ٥].

صلاة وسلامًا عليك يا سيدي يا رسول الله، يا من زكاك ربك في كل شيء، فقال: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ [القلم: ٤].

ومما زادني فخرًا وتيها … وكدت بأخمصي أن أطأ الثريا

دخولي تحت قولك يا عبادي … وأن أرسلت أحمد لي نبيًا

كيف لا نصلي عليك يا رسول الله، وقد أخذ الله الميثاق والعهد على الأنبياء أن يؤمنوا بك ويصدقوا بنبوتك، فقال سبحانه: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين﴾ [آل عمران: ٨١].

قال ابن كثير -رحمه الله-:

قال علي ابن أبي طالب، وابن عمه عبد الله بن عباس رضي الله عنهم: ما بعث الله نبيًا من الأنبياء إلا أخذ الله عليه الميثاق لئن بعث محمدًا وهو حيٌّ ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه(١)

وقال طاووس والحسن -رحمهم الله-:

أخذ الله ميثاق النبيين أن يصدق بعضهم بعضًا. وهذا لا يضاد ما قاله علي وابن عباس، ولا ينفيه، بل يستلزمه ويقتضيه.

ثم قال -رحمه الله-: فالرسول محمد خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين، وهو الإمام الأعظم الذي لو وجد في أي عصر وجد، لكان هو الواجب الطاعة، المقدم على الأنبياء كلهم، ولهذا كان إمامهم ليلة الإسراء لما اجتمعوا ببيت المقدس(٢)

كيف لا نصلي عليك وأنت سيد الأولين والآخرين، وبيدك الشفاعة العظمى يوم الدين؟!.

(١)، (٢) تفسير ابن كثير ١/ ٣٧٨

فعن أبي سعيد الخدرى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدى لواء الحمد ولا فخر، وما من نبى يومئذ -آدم فمن سواه- إلا تحت لوائى، وأنا أول شافع وأول مشفع**»(١)

كيف لا نصلى عليك يا رسول الله وأنت أول من تنشق عنه الأرض، وأول من يكسى الحلل فى يوم يكون الناس فيه غرلاً بهماً؟!

فعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا أول من تنشق عنه الأرض، فأكسى الحلة من حلل الجنة، ثم أقوم عن يمين العرش، فليس أحد من الخلائق يقوم ذلك المقام غيرى**»(٢)

كيف لا نصلى عليك يا سيدى يا رسول الله، وأنت الذى تحرك حلق الجنة، ولا يدخلها أحد من الخلق قبلك؟!.

فعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**آتى باب الجنة يوم القيامة فأستفتح، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد، فيقول: بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك**»(٣)

كيف لا نثنى عليك بالصلاة والتسليم فى كل وقت وحين، وأنت الذى تخاف علينا من عذاب النار، وتخشى علينا غضب الواحد القهار؟!

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: تلا رسول الله ﷺ قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿**رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [إبراهيم: ٣٦] وقوله تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿**إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [المائدة: ١١٨] ثم رفع يديه وقال: «**اللهم أمتى أمتى**» وبكى، فأمر الله جبريل أن ينزل إليه، ويقول له: ما يبكيك؟ فأتاه جبريل فسأله؟ فقال له: يا جبريل، أمتى أمتى، فصعد جبريل، ثم نزل وقال له: إن ربك يقرؤك السلام ويقول لك: إنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوؤك(٤) ﴿**وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ**﴾ [الضحى: ٥].

---

(١) رواه الترمذى (٣٦١٨) وصححه الألبانى فى ص.ج (١٤٦٨).

(٢) رواه الترمذى (٣٦١٥) ومسلم (٢٢٧٨) وأبو داود (٤٧٦٣).

(٣) رواه مسلم (١٩٧) فى الإيمان.

(٤) رواه مسلم (٢٠٢) فى الإيمان أيضًا.

• معنى الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم •

يقول ابن القيم[(١)]:

وأصل هذه اللفظة يرجع إلى معنيين:

أحدهما: الدعاء، ومنه قوله تعالى: ﴿**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِم صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ**﴾ [التوبة: ١٠٣] وقوله تعالى فى حق المنافقين: ﴿**وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ**﴾ [التوبة: ٨٤].

والثانى: العبادة -أى المعروفة من أركان الإسلام-.

وقيل: إن الصلاة فى اللغة معناها الدعاء، وهو نوعان:

١- دعاء عبادة. ٢- دعاء مسألة.

والعابد داع، كما أن السائل داع، وبهما فسر قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾ [غافر: ٦٠] أى أطيعونى أثبكم، وقيل: سلونى أعطكم.

والصواب أن الدعاء يعم النوعين.

وأما صلاة الله تعالى فنوعان: عامة، وخاصة.

أما العامة، فهى صلاته على عباده المؤمنين، قال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ**﴾ [الأحزاب: ٤٣].

وأما الخاصة، فهى صلاته الخاصة على أنبيائه ورسله خصوصًا على خاتمهم وخيرهم سيدنا محمد ﷺ.

فاختلف الناس فى معنى الصلاة منه سبحانه وتعالى على أقوال منها:-

١- أنها رحمته، فعن الضحاك قال: صلاة الله رحمته، وصلاة الملائكة الدعاء وقال المبرد: أصل الصلاة الرحمة. فهى من الله رحمة، ومن الملائكة رحمة واستدعاء الرحمة من الله تعالى. وهذا القول هو المعروف عند كثير من المتأخرين.

٢- أنها مغفرته سبحانه وتعالى، فعن الضحاك فى قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ**﴾ قال: صلاة الله مغفرته، وصلاة الملائكة الدعاء، ثم قال: وهذان الوجهان ضعيفان لوجوه ذكرها ابن القيم فى جلاء الأفهام.

٣- قال أبو العالية: صلاة الله تعالى ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة الدعاء.

وقال ابن عباس: يصلون. يباركون.

---

(١) جلاء الأفهام ص٧٢: ٨٣ بتصرف.

• وجوب الصلاة والسلام على النبى صلى الله عليه وسلم •

لقد أمرنا الله تبارك وتعالى بها في سورة الأحزاب، يقول سبحانه: ﴿**إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾ [الأحزاب: ٥٦] فهذا نداء الله تعالى لعباده المؤمنين، ناداهم بعنوان الإيمان، وإذا نادى الله عليهم، فإنما ينادى عليهم ليأمرهم بما فيه سعادتهم وكمالهم، أو ليعلمهم ما ينفعهم ولذلك يقول ابن مسعود: إذا سمعت الله يقول: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ فأعرها سمعك، فإنه خير يأمرك به، أو شر ينهاك عنه. أو بشرى يزفها إليك، ونداء الله تعالى لعباده المؤمنين شرف لهم، وأى شرف!! وإلا فمن أنت حتى يناديك رب العالمين !!، وهنا النداء بالأمر بالصلاة على رسولك وحبيبك محمد ﷺ بعد ما بين لك أنه سبحانه وتعالى كرم حبيبه بالثناء عليه منه ومن ملائكته الأطهار.

يقول القرطبي:

هذه الآية شرف الله بها رسوله محمداً ﷺ حياته وموته، وذكر منزلته منه، وطهر بها سوء فعل من استصحب فى جهته فكرة سوء، أو فى أمر زوجاته ونحو ذلك. والصلاة من الله، رحمته ورضوانه، ومن الملائكة الدعاء والاستغفار، ومن الأمة الدعاء والتعظيم لأمره.(١)

وقال ابن كثير:

المقصود من هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه ﷺ عنده فى الملأ الأعلى، بأنه يثنى عليه عند الملائكة المقربين، وأن الملائكة تصلى عليه، ثم أمر العالم السفلى بالصلاة والتسليم عليه، ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين: العلوى والسفلى جميعًا(٢)

وقد يقول قائل: إذا صلى الله وملائكته عليه ﷺ ، فأى حاجة إلى صلاتنا عليه؟ فالجواب: أن الصلاة والسلام عليه ليس لحاجته إليها، وإلا فلا حاجة إلى صلاة الملائكة مع صلاة الله تعالى عليه، وإنما هو لإظهار تعظيمه عليه الصلاة والسلام لكى يثيبنا الله عليه، ولهذا قال ﷺ : «**من صلى علىَّ مرة صلى الله عليه بها عشراً**».

وتأمل أخى الحبيب:

كان يمكن عندما أمرنا الله تعالى بالصلاة عليه أن نقول: صلينا عليه، أو يقول كل مسلم صليت على النبى، لكن هذا لم يصح، وإنما نقول: اللهم صلِّ على محمد، أتدرى لماذا؟ لأن

---

(١) تفسير القرطبى ٨/ ٥٥٠ ط/ دار الغد. (٢) تفسير ابن كثير

الله تعالى لما أمرنا بالصلاة والسلام عليه، ونحن لا نستطيع أن نبلغ قدره، ومكانته أحلنا على الله تعالى، وقلنا: اللهم صل أنت على محمد، لأنك أنت الذى خلقته وأنت أعلم بما يليق به، وبمكانته، ونحن عاجزون عن أن نوفيه حقه، وقاصرون عن معرفة الثناء الذى يليق بقدره، وقد أوكلنا الأمر إليك، فعظمه فى الدنيا بإعلاء ذكره، وإظهار دعوته، وإبقاء شريعته، وفى الآخرة بتشفيعه فى أمته، وإعطائه المقام المحمود، وغير ذلك.

• فضائل الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم •

أخى الحبيب:

لقد وردت أحاديث متعددة فى فضائل الصلاة والسلام على خير الخلق سيدنا محمد ﷺ تذكر بعضًا منها:

١- عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من صلى علىَّ واحدة، صلى الله عليه عشر صلوات، وحط عنه عشر خطيئات، ورفع له عشر درجات**»(١).

فقد تبين من هذا الحديث أن الصلاة على رسول الله ﷺ تكون سببًا فى أمور ثلاثة: -

١- أن الله يصلى على العبد أى يرحمه، ويريد به الخير العظيم.

٢- أنه سبحانه يحط عنه الخطايا والذنوب.

٣- أنه سبحانه وتعالى يرفع بها درجات صاحبها.

وفى رواية عن أبى هريرة: «**من صلى علىَّ واحدة صلى الله عليه بها عشرًا**»(٢).

وفى رواية: عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبى ﷺ قال: «**من صلى على رسول الله ﷺ صلاة صلى الله عليه وملائكته سبعين صلاة، فلْيُقِلَّ عبد من ذلك أو ليكثر**»(٣).

ولا عجب ففضل الله وكرمه عظيم، وخيره عميم، وكل حسب إخلاص المصلى، وإذا أخلص المصلى على رسول الله ﷺ انتقل فى ثواب الله بالمرة الواحدة سبعين من الله وملائكته، وشتان ثم شتان بين صلاة الله وملائكته على العبد، وصلاة العبد.

٢- وقد خص الرسول ﷺ ليلة الجمعة ويومها، وأمرنا أن نصلى عليه فى تلك الليلة فقال فيما يرويه عنه أنس: «**أكثروا الصلاة علىَّ يوم الجمعة وليلة الجمعة، فمن صلى علىَّ صلاة، صلى الله عليه عشرًا**»(٤)

---

(١) رواه البخارى وأحمد (٨٨٤٠) والحاكم وصححه الألبانى فى ص.ج (٦٢٣٥).

(٢) رواه مسلم وأحمد وصححه الألبانى فى ص.ج (٦٢٣٤).

(٣) رواه أحمد فى مسنده (٦٦٠٥) جـ٦/ ١٧٦، ١٧٧ وحسنه الشيخ أحمد شاكر وذكره الهيثمى فى المجمع ١٠/ ١٦٠ وقال: رواه أحمد وإسناده حسن، وذكره المنذرى فى الترغيب ٢/ ٢٧٩.

(٤) رواه البيهقى وحسنه الألبانى فى ص.ج (١٢٢).

وخص يوم الجمعة وليلتها لمزيد فضله، وعظم شأنه.

٣- وقد بين لنا الرسول الكريم ﷺ أن الله سبحانه وتعالى خلق ملكًا مخصصًا ليبلغ الرسول من يصلى عليه من أمته، فعن عمار بن ياسر رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «**إن لله تعالى ملكًا، أعطاه سمع العباد، فليس من أحد يصلى علىّ إلا أبلغنيها، وإنى سألت ربى أن لا يصلى علىّ عبد صلاة إلا صلى عليه عشر أمثالها**»(١)

فأكثر أخى الحبيب من الصلاة والسلام على حبيبك محمد فى جميع الأيام والأوقات، والأحايين والساعات، عسى الله أن يخلصك من الأهوال والآفات، والعذاب والعقوبات، ويدخلك الجنات العاليات، يوم تبدل الأرض والسموات.

صلوا على المصطفى زلفى تقربكم ... إن الصلاة عليه خير ما اكتسبا

أعلى الأنام علا فى جلالته ... وأشرف الخلق منسوبًا إذا انتسبا

وأسرع الناس يوم العرض مغفرة ... إذ العقاب بدا للخلق وانتصبا

٤- وعن أبى طلحة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إنّ ملكًا أتانى فقال: إن ربك يقول لك: أما ترضى أن يصلى عليك أحد من أمتك، إلا صليت عليه عشرًا، ولا يسلم عليك إلا سلمت عليه عشرًا؟ قلت: بلى**»(٢)

فقد بين لنا هذا الحديث أن للصلاة على رسول الله ﷺ جزاء من الله تعالى والسلام عليه يكون له جزاء آخر.

٥- أن خير المجالس ما عطر بالصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، وشرها من لم يصل فيه على رسول الله ﷺ.

فعن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «**ما جلس قوم مجلسًا لم يذكروا الله، ولم يصلوا على نبيهم إلا كان مجلسهم عليهم ترة -أى حسرة- يوم القيامة، إن شاء عفا عنهم، وإن شاء أخذهم**»(٣)

٦- أن أبخل الناس من سمع اسم الرسول ﷺ ولم يصلِّ عليه فعن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «**بحسب امرئ فى البخل أن أذكر عنده فلا يصلى علىّ**»(٤)

٧- أن الله سبحانه وتعالى يكفى من صلى على النبى ﷺ هم الدنيا والآخرة فعن يعقوب بن طلحة أن الرسول ﷺ لما قال: «**أتانى آت من ربى، فقال: ما من عبد يصلى عليك صلاة إلا صلى الله عليه بها عشرًا**».

---

(١) رواه الطبرانى وحسنه الألبانى فى ص.ج (٢١٧٢).

(٢) رواه النسائى وحسنه الألبانى فى ص.ج برقم (٢١٩٤).

(٣) رواه الترمذى (٣٤٤٠) وحسنه، وذكره الألبانى فى السلسلة الصحيحة.

(٤) رواه الترمذى (٣٦١٤) وهو حسن بشواهده.

فقام رجل، فقال: يا رسول الله، أجعل نصف دعائى لك؟ قال: إن شئت.

قال: ألا أجعل ثلثى دعائى؟ قال: إن شئت.

قال: ألا أجعل دعائى كله؟ قال: إذن يكفيك الله هم الدنيا، وهم الآخرة»[1].

صلوا على هذا النبى الكريم تحظوا من الله بأجر عظيم
وتظفروا بالفوز من ربكم وجنة فيها نعيم مقيم
طوبى لعبد مخلص فى الورى صلى على ذاك الجناب الكريم

٨- أنَّ من ترك الصلاة والسلام على رسولنا محمد ﷺ فقد أخطأ طريق جنة الله رب العالمين، حيث يقول النبى الأمين ﷺ: **«من ذكرت عنده فخطئ الصلاة علىَّ -أى غفل عنها- خطئ طريق الجنة»[2]**

صلوا على خير الأنام ومن به تنجو العباد بموقف الأهوال
إن الصلاة على النبى حبيبنا من أفضل الأفعال والأعمال
فهو النبى المصطفى علم الهدى الطيب الأقوال والأفعال

٩- أن من أكثر من الصلاة والسلام على النبى ﷺ، وسأل الله له الوسيلة حلت له شفاعة الحبيب المصطفى يوم القيامة، ولذلك يقول الحبيب ﷺ: **«إذا سمعتم النداء فقولوا كما يقول، ثم صلوا علىَّ، فإنه من صلى علىَّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا الله لى الوسيلة، فإنها منزلة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لى الوسيلة حلت له شفاعتى»[3]**

يقول الفقيه أبو الليث السمرقندى:

فلو لم يكن للصلاة على النبى ﷺ ثواب سوى أنه يرجى بذلك شفاعته لكان الواجب على العاقل أن لا يغفل عنها، فكيف وفيها مغفرة الذنوب، وفيها الصلاة من الله تعالى[4]

صلى الإله على خير الأنام ومن نرجو النجاة به فى موضع العطب
فهو الشفيع لمن يرجو شفاعته عند الحساب وعند اللهو والكرب

فيا إخوانى:

صلوا على شجرة غرسها الملك الجليل، وجعل أصلها إبراهيم الخليل، وجعل خلالها التفضيل، وزينها بالتنزيل، وجعل رفيقها جبريل، وخضع لها كل كبير وكل عزيز

---

(١) رواه النسائى وهو حديث حسن.

(٢) رواه ابن ماجه عن ابن عباس رضي الله عنهما، وذكره الألبانى فى ص.ج (٦١٢١).

(٣) رواه أحمد (٦٥٦٨) وصححه الألبانى فى ص.ج (٦١٣).

(٤) تنبيه الغافلين للسمرقندى ص١٩٢ ط/ دار إحياء الكتب العربية.

وذليل، أصولها عربية، وأغصانها، مضرية، وأوراقها قرشية، وثمرتها تهامية، وغرسها الملك الديان، وأخضع لها جميع الإنس والجان، فصلوا عليه يا معشر الإخوان، وسلوا الله أن يجعله شفيعكم من النار، وقائدكم إلى دار الراحة والقرار، إلى جنة عدن تجرى من تحتها الأنهار.

إن الله سبحانه وتعالى حين قال: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢] لم يقل: أذكركم عشر مرات، وقال سبحانه: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧] وقال ﷺ: **«من صلى علىَّ مرة صلى الله عليه بها عشراً»** فكأنه سبحانه وتعالى يقول: **(عبدى إذا أثنيت علىَّ مرة أثنيت عليك مرة، وإذا أثنيت على حبيبى مرة، أثنيت عليك عشراً، لأنه أكرم الخلق علىَّ، وأجلهم عندى).**

١٠- أنَّ كثرة الصلاة والسلام على نبينا وحبيبنا محمد ﷺ تنور لصاحبها حياته الدنيوية والأخروية، وتنور القلوب، فالعبد إذا أذنب صار فى قلبه نكتة سوداء، فإذا تمادى فى الذنوب اتسعت حتى يسود بها قلبه كله، فإذا رطب العبد لسانه بالصلاة والتسليم على نبيه محمد ﷺ غفر الله له ذنوبه، فإذا غفر الله للعبد ذنوبه زال السواد عن قلبه، وبدا فيه النور، لأن الإسلام لا يتم إلا بالصلاة على النبى ﷺ، وذلك لأنه لو قال عبد: لا أرى الصلاة على النبى واجبة لكان كافراً، وزال نور الهدى عن قلبه، قال سبحانه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢].

وتأمل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦] ثم يقول مبيناً الهدف من الصلاة عليك كما صليت عليه: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الأحزاب: ٤٣] فتلك عشرة كاملة.

يقول ابن الجوزى رحمه الله:

واعلموا رحمكم الله أنَّ فى الصلاة على سيدنا محمد ﷺ عشر كرامات:

إحداهن: صلاة الملك الجبار، والثانية: شفاعة النبى المختار، والثالثة الاقتداء بالملائكة الأبرار، والرابعة: مخالفة المنافقين والكفار، والخامسة: محو الخطايا والأوزار، والسادسة: قضاء الحوائج والأوطار، والسابعة: تنوير الظواهر والأسرار، والثامنة: النجاة من عذاب دار البوار، والتاسعة: دخول دار الراحة والقرار، والعاشرة: سلام الملك الغفار[1].

• كيف نصلى على رسول الله ﷺ؟ •

أخى الحبيب:

الرسول ﷺ لم يترك خيراً إلا وأمرنا به، وحثنا عليه، وما وجد شراً إلا ونهانا عنه، وحذرنا منه، وكان صحابته الأجلاء رضوان الله عليهم يستفتونه فى أمورهم، ففى الحديث

(١) بستان الواعظين ص٣٢٢ لابن الجوزى ط/ دار المنار.

الذى يرويه لنا الصحابى الجليل أبو مسعود الأنصارى قال: أتا رسول الله ﷺ ونحن فى مجلس سعد بن عبادة، فقال له بشر بن سعد: يا رسول الله، أمرنا الله أن نصلى عليك، فكيف نصلى عليك؟ قال: فسكت رسول الله ﷺ حتى تمنينا أنه لم يسأله، ثم قال رسول الله ﷺ: **«قولوا: اللهم صلِّ على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم فى العالمين، إنك حميد مجيد، والسلام كما علمتم»**(١)

ولو كانت هناك صيغة أفضل من هذه الصيغة وأحب إلى رسول الله ﷺ منها لأخبرنا بها ولعلمنا إياها، وقد وردت صيغة أخرى صحيحة.

فعن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: **«من سره أن يكتال بالمكيال الأوفى، إذا صلى علينا أهل البيت، فليقل: اللهم صلِّ على محمد النبى الأمى، وأزواجه أمهات المؤمنين، وذريته وأهل بيته كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد»**(٢)
وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: «إذا صليتم على رسول الله ﷺ فأحسنوا الصلاة، فإنكم لا تدرون لعل ذلك يعرض عليه، قال: فقالوا له: فعلمنا، قال: قولوا: «اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على سيد المرسلين، وإمام المتقين، وخاتم النبيين محمد عبدك ورسولك، إمام الخير، وقائد الخير، ورسول الرحمة، اللهم ابعثه مقامًا محمودًا، يغبطه به الأولون والآخرون. اللهم صلِّ على محمد، وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد»(٣)

وهذه صيغة جامعة، وقد قال الإمام النووى فى الأذكار: إذا صُلى على النبى ﷺ فليجمع بين الصلاة والتسليم، ولا يقتصر على أحدهما(٤).

وقال أبو بكر العربى المالكى فى شرح الترمذى: إن النبى ﷺ علمنا كيفية الصلاة عليه ﷺ، فالزيادة على ذلك استقصار لقوله، واستدراك عليه ﷺ.

فاجتهدوا فى الصلاة على خير العباد، وفخر البلاد، وزين الحشر والمعاد، فعسى الله أن يجيرنا من العذاب، ولا تغفلوا عن الثواب الجزيل، بالصلاة على النبى الأصيل، الذى نعته ربه فى التوراة والإنجيل.

---

(١) صحيح أبى داود للألبانى برقم (٩٨٠) جـ١/ ٢٧٣ وقد رواه بألفاظ متقاربة عن كل من: كعب بن عجرة وحميد الساعدى.

(٢) رواه مسلم وأبو داود وذكره الشوكانى فى تحفة الذاكرين ص٣٥.

(٣) رواه ابن ماجه موقوفًا بإسناد حسن قاله المنذرى فى الترغيب ٢/ ٥٠٥.

(٤) الأذكار للنووى ص١٦٤

يـا من تمـرد فـى الأيام مـنـهـمكًا صلوا عـلى المصطفى يا أكـرم الأمم
صلـوا عليـه لـعل الله يـرحـمـكم يوم الحـسـاب ويوم الكرب والـزحم
إن الصـلاة على المختـار قـارئة لقـلب صـاحـبـهـا جـزءًا من الحـكم
فـهو الشـهـيد لأهـل الجمع كـلهم وهو الدليـل إلى الفردوس والـنعم[1]

لكن ما سبب التشبيه فى قوله كما صليت على إبراهيم؟

قال الحليمي: سبب هذا التشبيه أن الملائكة قالت فى بيت إبراهيم عليه السلام: ﴿**رحْمَتُ اللَّه وبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حميدٌ مَّجيد**﴾ [هود: ٧٣]، وقد علم أن مـحمدًا وآل محمد من أهل بـيت إبراهيم، فكأنه قال: أجب دعاء الملائكة الذين قالـوا ذلك فى محمد وآل محمـد كما أجبـتها عندمـا قالوها فى آل إبراهيم الموجـودين حينئذ، ولـذلك ختم بما ختمت به الآية[2]

ولماذا اختص اسم (الحميد، المجيد) بختم الصلاة على النبى وآله؟

قال ابن القيم:

لما كانت الصلاة على النبى ﷺ هى ثناء الله تعالى عليه وتكريمه، والتنويه به ورفع ذكره، وزيادة حبه وتقريبه، كانت مشتملة على الحمد والمجد، فكأن المصلى طلب من الله تعالى أن يزيد فى حمده ومجده، فإن الصلاة عليه هى نوع حمد له وتمجيد، هذا حقيقتها، فذكر فى هذا المطلوب الاسمين المناسبين له وهما أسماء «الحميد والمجيد»[3]

• خصائص أهل بيت النبوة •

يقول ابن القيم:

ولما كان هـذا البيت المبـارك المطهر أشـرف بيوت العـالم على الإطلاق خـصهم الله سبحانه وتعالى منه بخصائص:

منها: أنه جعل فيه النبوة والكتاب، فلم يأت بعد إبراهيم نبى إلا من أهل بيته.

ومنها: أنه سبحانه جـعلهم أئمة يهدون بأمره إلى يوم القيـامة، فكل من دخل الجنة من أولياء الله بعدهم، فإنما دخل من طريقهم وبدعوتهم.

ومنها: أنه سبـحانه اتخـذ منهم الخليلـين: إبراهيم عليه السلام، ومحـمـد ﷺ قال الله تعالى: ﴿**وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيم خَلِيلاً**﴾ [النساء: ١٢٥] وقال النبى ﷺ: «**إن الله اتخذنى خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً**».

(١) بستان الواعظين لابن الجوزى ص٣٢٧.
(٢) هامش الترغيب للمنذرى ٢/ ٥١٩.
(٣) جلاء الأفهام لابن القيم ص١٧٥، ١٧٦

ومنها: أنه سبحانه جعل صاحب هـذا البيت، كما قال تعالى: ﴿**وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا**﴾ [البقرة: ١٢٤].

ومنها: أنه أجرى على يديه بناء بـيته الذى جعله قيامًـا للناس، وقبلة لهم وحجًّا، فكان ظهور هذا البيت من أهل هذا البيت الأكرمين.

ومنها: أنه أمر عبـاده بأن يصلوا على أهل هذا البـيت، كما صلى على أهل بيـتهم وسلفهم وهم إبراهيم وآله، وهذه خاصية لهم.

ومنها: أنه أخرج منهم الأمتين المعظمتين التى لم تخرج من أهل بيت غيرهم، وهم أمة موسى، وأمة محمد، وأمة محمد ﷺ تمام سبعين أمة هم خيرها وأكرمها على الله.

ومنها: أن الله سبحانه أبقى عليهم لسان صـدق وثناء حسنا فى العالم، فلا يذكرون إلا بالثناء عليهم، والصلاة والسلام عليهم، قال تعالى: ﴿**وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ**﴾ [الصافات: ١٠٨-١١٠].

ومنها: جعل أهل هذا البيت فـرقانًا بين الناس، فالسعداء أتباعـهم ومحبوهم، ومن تولاهم، والأشقياء من أبغضهم من أعرض عـنهم وعاداهم، فالجنة لهم ولأتباعهم، والنار لأعدائهم ومخالفيهم.

ومنها: أنه سبحانه جـعل ذكرهم مقرونًا بذكره، فيقـال: إبراهيم خليل الله ورسوله ونبيه، ومـحمد رسول الله، وخليـله ونبيه، وموسى كلـيم الله ورسوله، قال تعالى لـنبيه يذكره بنعمته عليه: ﴿**وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ**﴾ [الانشراح: ٤]

قال ابن عـباس ﷺ: إذا ذكرت ذكرت مـعى، فيقال: لا إله إلا الله محـمد رسول الله، فى كلمة الإسلام، وفى الأذان، والخطب، وفى التشهدات، وغير ذلك.

ومنها: أنه سبحانه جعل خلاص خلقـه من شقاء الدنيا والآخرة على أيدى أهل هذا البيت، فلهم على الـناس من النعم ما لا يمكن إحصاؤها ولا جـزاؤها، ولهم المنن الجسام فى رقاب الأولين والآخرين من أهل السعادة.

ومنها: أن كل ضرر ونفـع وعمل صالح، وطاعـة لله تعالى، حصلت فـى العالم، فلهم من الأجر مثل أجور عامليها، فسبحان من يختص بفضله من يشاء من عباده.

ومنها: أنه سبحانه سد جميع الطرق بينه وبين العالمين، وأغلق دونهم الأبواب، فلم يفتح لأحد قط إلا من طريقهم وبابهم.

قال الجـنيد -رحـمه الله-: يقول الله عـز وجل لرسوله ﷺ: **«وعزتى وجـلالى لو أتونى من كل طريق، أو استفتحوا من كل باب لما فتحت لهم حتى يأتوا خلفك يا محمد».**

ومنها: أنه سبحانه خصهم من العلم بما لم يخص به أهل بيت سواهم من العالمين.

ومنها: أنه سبحانه خصهم من توحيده ومحبته وقربه والاختصاص به بما لم يخص به أهل بيت سواهم.

ومنها: أنه سبحانه مكن لهم فى الأرض، واستخلفهم فيها، وأطاع لهم أهل الأرض ما لم يحصل لغيرهم.

ومنها: أنه سبحانه أيدهم ونصرهم وأظفرهم بأعدائه، وأعدائهم بما لم يؤيد غيرهم.

ومنها: أنه سبحانه محا بهم من آثار أهل الضلال والشرك، ومن الآثار التى يبغضها ويمقتها، ما لم يمحه بسواهم.

ومنها: أنه سبحانه غرس لهم من المحبة والإجلال والتعظيم فى قلوب العالمين ما لم يغرسه لغيرهم.

ومنها: أنه سبحانه رفع العذاب العام عن أهل الأرض بهم، وببعثهم[(١)]

• المواطن التى يتأكد فيها الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم •

١ - الموطن الأول[(٢)]:

وهو أهمها وآكدها فى الصلاة فى آخر التشهد، وقد أجمع الفقهاء على مشروعيته لكنهم اختلفوا فى وجوبه:

فقالت طائفة: ليس بواجب فيها، ونسبوا إلى من أوجبه الشذوذ، ومخالفة الإجماع، منهم: الطحاوى، والقاضى عياض، والخطابى، فإنه قال: ليست واجبة فى الصلاة، وهو قول جمهور الفقهاء إلا الشافعى.

وقالت طائفة أخرى: إن الصلاة على رسول الله ﷺ بعد التشهد ركن وواجبة، وهم الشافعى وإسحاق، ورواية عن أحمد، واختاره ابن العربى المالكى.

أدلة الرأى الأول:

استدلوا بأدلة منها:

١- عن جابر وابن عباس ﵃ (كان النبى ﷺ يعلمنا التشهد كما يعلمنا السورة من القرآن)[(٣)]

٢- وعن ابن عمر ﵄ قال: «كان أبو بكر يعلمنا التشهد على المنبر كما تعلمون الصبيان فى الكتاب، وكان عمر بن الخطاب ﵁ يعلمه أيضًا على المنبر».

---

(١) جلاء الأفهام فى الصلاة والسلام على خير الأنام من ص١٦٩: ص١٧٣ ط/ دار الكتب العلمية بتصرف.

(٢) لو وضحت فى هذا الموضع وطولت فيه لأهميته.

(٣) رواه أحمد فى مسنده (٢٨٩٤) ٣/ ٢٧٥ بإسناد صححه الشيخ أحمد شاكر

قالوا: لو كانت الصلاة على رسول الله ﷺ، بعد التشهد واجبة لعلمها لنا أبو بكر وعمر، وغيرهم من الصحابة، لكنهم لم يعلموا أصحابهم غير التشهد، فدل ذلك على عدم وجوبه.

٣- **قال ابن عبد البر فى التمهيد:** ومن حجة من قال بعدم فرضيتها حديث الحسن ابن الحر، عن القاسم بن مخيمرة أخذ علقمة بيدى، كما أخذت بيدك، فقال: إن عبد الله أخذ بيدى، وقال: إنَّ رسول الله ﷺ أخذ بيدى، كما أخذت بيدك، فعلمنى التشهد إلى قوله: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، قال: فإن قلت ذلك فقد قُضيت الصلاة، فإن شئت أن تقوم فقم، وإن شئت أن تقعد فاقعد».

٤- ولو كانت واجبة لعلمها الرسول ﷺ للمسيئ صلاته كما علمه القراءة والركوع وغيره.

أدلة الشافعية ومن تبعهم:

استدلوا بأدلة منها:

١- عن فضالة بن عبيد أن النبى ﷺ قال: «**إذا صلى أحدكم فليبدأ بتحميد ربه والثناء عليه، ثم يصلى على النبى ﷺ، ثم يدعو بما شاء**»[1]

٢- عن أبى مسعود الأنصارى رضي الله عنه أن بشير بن سعد، قال للنبى ﷺ: أمرنا الله أن نصلى عليك، فكيف نصلى عليك؟ قال: «**قولوا: اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد**»[2]

وقال ابن قدامة: وظاهر مذهب أحمد وجوبها، فإن أبا زرعة الدمشقى نقل عنه أنه قال: كنت أتهيب ذلك، ثم تبينت، فإذا الصلاة واجبة[3]

ويقول ابن القيم: قالوا: وأما نسبتكم الشافعى ومن قال بقوله فى هذه المسألة إلا الشذوذ ومخالفة الإجماع، فليس بصحيح، فقد قال جماعة بقوله من الصحابة ومن بعدهم.

فمنهم: عبد الله، فإنه كان يراها واجبة فى الصلاة، ويقول: «لا صلاة لمن لم يصل فيها على النبى ﷺ».

ومنهم أبو مسعود البدرى رضي الله عنه كان يقول: «ما أرى أن صلاة لى تمت حتى أصلى على محمد وعلى آل محمد».

(١) رواه أحمد وأبو داود والبيهقى والحاكم وصححه والترمذى وقال: حديث حسن صحيح.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) المغنى لابن قدامة ١/ ٥٧٤.

ومنهم عبد الله بن عمر، فعن عقبة بن نافع، أن ابن عمر رضي الله عنهما كان يقول: «لا تكون صلاة إلا بقراءة وتشهد وصلاة على النبي ﷺ، فإن نسيت شيئًا من ذلك فاسجد سجدتين بعد السلام» ومن التابعين: أبو جعفر محمد بن علي، والشعبي، ومقاتل بن حيان ومن أرباب المذاهب المتبوعين: «إسحاق بن راهويه» قال: «إن تركها عمدًا لم تصح صلاته، وإن تركها سهوًا رجوت أن تجزيه».

وقد أيد الإمام ابن القيم مذهب الشافعية، ورد على من قال: شنع الناس المسألة على الشافعي، فقال: يا سبحان الله، أي شناعة عليه في هذه المسألة؟ وهل هي إلا من محاسن مذهبه؟! ثم يقول: فأي كتاب خالف الشافعي في هذه المسألة؟ أم أي سنة؟ أم أي إجماع؟ ولأجل أن قال قولاً اقتضته الأدلة، وقامت على صحته، وهو من تمام الصلاة بلا خلاف. فمن أي وجه يشنع عليه؟! وهل الشناعة إلا بمن شنع عليه أليق وبه ألحق؟[1]

الموطن الثاني: الصلاة على النبي ﷺ آخر القنوت:

فقد استحبه الشافعي ومن وافقه، واحتج لذلك بما رواه النسائي عن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال: علمني رسول الله ﷺ هؤلاء الكلمات في الوتر، قال: «**اللهم اهدني فيمن هديت، وبارك لي فيما أعطيت، وتولني فيمن توليت، وقني شر ما قضيت فإنك تقضي ولا يقضى عليك، إنه لا يذل من واليت، تباركت ربنا وتعاليت، وصلى الله على النبي**»[2]

وعن قتادة، عن عبد الله بن الحارث: أن معاذًا كان يصلي على النبي ﷺ في القنوت.

الموطن الثالث: في صلاة الجنازة بعد التكبيرة الثانية:

فلا خلاف في مشروعيتها في صلاة الجنازة، ودليل مشروعيتها:

عن الزهري قال: أخبرني أبو أمامة بن سهل أنه أخبره رجل من أصحاب النبي ﷺ «أن السنة في الصلاة على الجنازة أن يكبر الإمام، ثم يقرأ بفاتحة الكتاب بعد التكبيرة الأولى سرًا في نفسه، ثم يصلي على النبي ﷺ، ثم يخلص الدعاء للميت حتى يفرغ، ثم يسلم سرًا في نفسه»[3]

وقد اختلف في توقف صحة الصلاة على الصلاة على رسول الله ﷺ:

١- الشافعي وأحمد في المشهور من مذهبهما: أنها واجبة في الصلاة فلا تصح إلا بها.

---

(١) جلاء الأفهام لابن القيم ص١٨٢، ١٨٤ بتصرف.

(٢) رواه أحمد في مسنده (١٧١٨) ٢/ ٣٤٣ بإسناد صحيح بدون (وصلى الله على النبي) ورواه النسائي.

(٣) رواه عبد الله بن أحمد.

٢- مالك وأبو حنيفة رحمهما الله: تستحب وليست واجبة، وهو وجه لأصحاب الشافعي.

الموطن الرابع: الخطب كخطبة الجمعة والعيدين والاستسقاء وغيرهما:

وقد اختلف في حكمها:

١- الشافعية والحنابلة: أن أركان الخطبة: الحمد لله والصلاة على رسول الله ﷺ والوصية بالتقوى في كل الخطبتين. فلا تصح الخطبة إلا بالصلاة عليه.

٢- وقال أبو حنيفة ومالك: تصح بدونها، وهي سنة.

والصلاة على النبي ﷺ وإن لم تثبت في خطبه ﷺ إلا أنها ثبتت من عمل الصحابة. قال أبو جحيفة: صعد عليٌّ رضي الله عنه المنبر، وحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي ﷺ، وكان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما يصليان على رسول الله في خطبهما.

الموطن الخامس: بعد إجابة المؤذن، وعند الإقامة:

فتصلي على رسول الله ﷺ عقيب الأذان لقوله ﷺ: **«إذا سمعتم النداء فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا عليَّ، فإنه من صلى عليَّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة، لا تنبغي لعبد من عباد الله تعالى، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت له شفاعتي»**.

الموطن السادس: عند دخول المسجد، وعند الخروج منه:

فعن فاطمة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«إذا دخلت المسجد فقولي: «بسم الله والسلام على رسول الله، اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، واغفر لنا، وسهل لنا أبواب رحمتك، فإذا فرغت فقولي مثل ذلك، غير أن قولي: وسهل لنا أبواب فضلك»**.

الموطن السابع: عند الدعاء، والدليل عليه حديث فضالة السابق.

الموطن الثامن: عند اجتماع القوم قبل تفرقهم، لقوله ﷺ: **«ما جلس قوم مجلسًا، ثم تفرقوا، ولم يذكروا الله، ولم يصلوا على النبي ﷺ إلا كان عليهم من الله ترة، إن شاء عذبهم، وإن شاء غفر لهم»**.

الموطن التاسع: الصلاة عليه يوم الجمعة، لحديث أوس بن أوس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة فيه خلق آدم، وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا عليَّ من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة عليَّ»** قالوا: يا رسول الله، كيف تعرض عليك صلاتنا وقد أرمت؟ أي: بليت، قال: **«إنَّ الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء»**.

الموطن العاشر: في كل موطن يُجتمع فيه لذكر الله تعالى.

فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«إنّ لله ملائكة سياحين يبلغوننى من أمتى السلام»** وفى رواية لمسلم:

عن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«إن لله سيارة من الملائكة إذا مروا بحلق الذكر قال بعضهم لبعض: اقعدوا، فإذا دعا القوم أمنوا على دعائهم، فإذا صلوا على النبى صلوا معهم، حتى يفرغوا، ثم يقول بعضهم لبعض: طوبى لهؤلاء يرجعون مغفوراً لهم»**(١)

الموطن الحادى عشر: عند الذبيحة.

وقد اختلف فى هذه المسألة، فاستحبها الشافعى قال: والتسمية على الذبيحة بسم الله، فإن زاد بعد ذلك شيئًا من ذكر الله تعالى، فالزيادة خير، ولا أكره مع تسميته على الذبيحة أن يقول: صلى الله على رسول الله، بل أحبه له، وأحب أن يكثر الصلاة عليه على كل الحالات. لأن ذكر الله بالصلاة عليه، إيمان بالله، وعبادة له يؤجر عليها إن شاء الله تعالى.

ونازعه فى ذلك آخرون، منهم أصحاب الإمام أبى حنيفة رحمه الله، فإنهم كرهوا الصلاة فى هذا الموضع، وعللوا ذلك: لأن فيه إيهام الإهلال لغير الله.

واختلف أصحاب الإمام أحمد رحمه الله تعالى، فكرهها القاضى، وأصحابه، واستحبها كالشافعى ابن شاقلا.

الموطن الثانى عشر: عقب الذنب يفعله العبد، لقوله تعالى: ﴿**إن الحسنات يذهبن السيئات**﴾ ولا شك أن فى الصلاة على رسول الله ﷺ كثيرٍ من الحسنات لما مر، ولحديث أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«صلوا علىّ فإن الصلاة علىّ كفارة لكم، فمن صلى علىّ صلى الله عليه عشراً»**(٢)

الموطن الثالث عشر: عند خطبة الرجل المرأة فى النكاح

الموطن الرابع عشر: عند الهم، والشدائد، وطلب المغفرة من الله تعالى.

لحديث: قام النبي ﷺ فى ليلة، فقال: **«يا أيها الناس، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه، قال: إنى قلت: يا رسول الله، إنى أكثر الصلاة عليك فكم أجعل لك من صلاتى؟ فقال: ما شئت، قال: قلت: الربع؟ قال: ما شئت وإن زدت فهو خير لك. قلت: النصف. قال: ما شئت، فإن زدت فهو خير لك. قلت: فالثلثين؟ قال: ما شئت، فإن زدت فهو خير لك، قال: أجعل لك صلاتى كلها؟ قال: إذًا تكفى همك، ويغفر لك ذنبك»**(٣)

---

(١) رواه مسلم بنحوه.
(٢) رواه ابن أبى عاصم وغيره وسنده حسن.
(٣) رواه الترمذى وقال: حديث حسن وقد سبق.

الموطن الخامس عشر: عند ذكره ﷺ، وإليه كانت الإشارة فى الوصية التى بين أيدينا.

• الفوائد والثمرات الحاصلة بالصلاة عليه صلى الله عليه وسلم •

إن للصلاة والسلام على رسول الله ﷺ ثمرات عظيمة منها:

١- امتثال أمر الله تبارك وتعالى حيث أمرنا أن نصلى عليه ﷺ.

٢- موافقته سبحانه وتعالى، وموافقة ملائكته الكرام الذين يصلون عليه.

٣- حصول عشر صلوات من الله تعالى على المصلى مرة، ورفع الدرجات، ومحو السيئات.

٤- أنه يرجى إجابة دعائه.

٥- أنها سبب قوى من أسباب شفاعة الرسول الأعظم ﷺ إذا قرنها بسؤال الوسيلة له، أو أفردها.

٦- سبب لقرب العبد منه ﷺ يوم القيامة، فالمرء مع من أحب.

٧- أنها تنفى عن العبد اسم البخل، إذا صلى عليه عند ذكره.

٨- أنها ترمى بصاحبها على طريق الجنة، وتخطئ بتاركها عند ذكره ﷺ.

٩- أن العبد يخرج بها عن الجفاء الحاصل بعدم الصلاة على رسول الله ﷺ.

١٠- أنها سبب لإبقاء الله سبحانه الثناء الحسن للمصلى عليه بين أهل السماء والأرض، لأن المصلى طالب من الله أن يثنى على رسوله ويكرمه ويشرفه، والجزاء من جنس العمل.

١١- أنها سبب من أسباب رحمة الله تعالى للمصلى.

١٢- أنها سبب لدوام محبته للرسول ﷺ وزيادتها وتضاعفها.

١٣- أنها سبب لتثبت القدم على الصراط، والجواز عليه، لحديث عبد الرحمن بن سمرة الذى رواه عنه سعيد بن المسيب فى رؤيا النبى ﷺ: **«ورأيت رجلاً من أمتى يزحف على الصراط، ويحبو أحيانًا، ويتعلق أحيانًا، فجاءته صلاته علىَّ فأقامته على قدميه وأنقذته»**(١)

١٤- أن الصلاة عليه ﷺ أداء لأقل القليل من حقه، وشكر له على نعمته التى أنعم الله بها علينا، مع أن الذى يستحقه من ذلك لا يحصى علمًا ولا قدرة، ولا إرادة، ولكن الله سبحانه وتعالى لكرمه رضى من عباده باليسير من شكره، وأداء حقه.

١٥- أنها سبب للبركة الحاصلة من الله تعالى لصاحبها فى عمله، وعمره، ومصالحه.

---

(١) رواه أبو موسى المدينى فى كتابه الترغيب والترهيب، وقال: هذا حديث حسن جدًّا.

• موعظة •

أخا الإسلام:

اعلم أن رب العالمين تبارك وتعالى فضل حبيبه محمدًا ﷺ وكرمه على سائر الأنبياء والمرسلين، وخاطبه خطابًا خاصًا، فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦] ولم يخاطب الله تبارك وتعالى به أحدًا من الأنبياء ولا المرسلين إلا سيد الخلق محمد ﷺ، فإنه سبحانه نادى على أبى البشر، فقال: ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥] ونادى على أطول الناس عمرًا، فقال: ﴿يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ﴾ [هود: ٤٨] ونادى على الخليل إبراهيم عليه السلام: ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ [الصافات: ١٠٤] وعلى يوسف بقوله: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ [يوسف: ٢٩] وداود عليه السلام: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً﴾ [ص: ٢٦] وعيسى عليه السلام: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾ [المائدة: ١١٠] لكنه لم يخاطب حبيبه محمدًا ﷺ إلا بقوله: ﴿يا أيها النبى.. يا أيها الرسول﴾ فقال جل شأنه مخاطبًا إياه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١] ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم: ١] ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤] ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧] ولم يناده باسمه مجردًا «محمد» كغيره إلا فى أربعة مواضع، اقتضت الحكمة أن يذكر هناك باسمه، لأنهم ما كانوا ينكرون اسمه، وها هى:

١- الموضع الأول: قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤] لأن سبب نزولها: أن الرماة لما تركوا أماكنهم فى غزوة أحد، ونزلوا لأخذ الغنائم، فرجع خالد بن الوليد وضرب المسلمين، حتى كادوا أن يهزموا، وأشيع أن رسول الله قد قتل، صرخ صارخ وكان هو الشيطان -إبليس- أن محمدًا قتل، فأنزل الله هذه الآية، ولو قال: رسولى، لقالوا: رسول غير محمد[1]

٢- وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤] فقد أراد سبحانه وتعالى هنا أن يبطل عادة التبنى، ويقول لهم: إن محمدًا إن كان قد زُوج زينب فهو لم يكن أبًا لأحد منكم حتى يُقال إنه تزوج زوجة ابنه.

---

(١) تفسير الفخر الرازى ٨/ ٤٧٣.

٣- وأما الثالث فهو قوله تعالى في مفتتح سورة محمد -القتال- ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد: ٢] فلو قال: وآمنوا بما نزل على رسولي، لقال الأعداء ليس هو، فعرفه باسمه محمد ﷺ.

٤- وأما الموضع الأخير، فقوله تعالى في ختام سورة الفتح: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ [الفتح ٢٩] فخاطبه هنا باسمه، لأنه الآية قبلها تقول: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [الفتح: ٢٨] فربما يظن الأعداء ويقولون هو عيسى أو موسى وليس محمدا، وقد كان معروفًا في التوراة بأحمد، فأراد أن يذكره باسمه المعروف لدى أهل مكة لكي لا يظنوا أنه ليس هو رسول الله ﷺ.

فعليك أيها المسلم ألا تخاطب رسول الله ﷺ باسمه المجرد «محمد» لأنك قد نهيت عن ذلك في سورة النور يقول لك مولاك: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣] بل عظمه وأثنِ عليه بما هو أهله، لأن الله تعالى أكمل به البناء، وجعله خاتم الأنبياء، لذلك يقول ﷺ: **«إن مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى بيتًا فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين»**(١)

داوم أخي الحبيب على الصلاة والسلام عليه تحظَ بسعادة الدارين. سيدي يا رسول الله:

لهجت بذكرك مهجتي ولساني	**وحللت من قلبي بكل مكان**
فأنا بذكرك في البرية كلها	**علم وحبك آخذ بعناني**
سلطان حبك في الهوى عين الهوى	**وبه تعزز في الهوى سلطاني**
أنت النبي الهاشمي محمد	**صلى الإله عليك في القرآن**
أنت الحبيب لأهل دينك كلهم	**يوم المعاد وموقف الخسران**
أنت الشفيع لمن عصى رب العلا	**أنت الدليل لجنة الرضوان**
فلأذكرنك ما بقيت معمرا	**حتى الممات ولا يمل لساني**
فصلاة ربي ما جد ومهيمن	**تترى عليك تعاقب الملوان**

اللهم صل على حبيبنا محمد ما اتصلت عين بنظر، وتزخرفت أرض بمطر، اللهم صلِّ عليه وعلى آله صلاة لا نفاد لها ولا انقطاع، صلِّ عليه عدد الذاكرين، وغفلة الغافلين إلى يوم الدين، واحشرنا في زمرته يوم الدين، واسقنا من يده الشريفة شربة هنيئة لا نظمأ بعدها أبدًا حتى ندخل جنة الله رب العالمين.

(١) رواه البخاري (٣٥٣٥) ومسلم (٢٢٨٦)

الوصية رقم (٥٢)
استعيذوا بالله من عذاب القبر

عن أم مبشر الأنصارية ﵂ قالت: دخل على رسول الله ﷺ، وأنا فى حائط من حوائط بنى النجار، فيه قبور منهم قد ماتوا فى الجاهلية، قالت: فخرج فسمعته يقول: «**استعيذوا بالله من عذاب القبر**» قلت: يا رسول الله، وللقبر عذاب؟!

قال: «**إنهم ليعذبون عذابًا فى قبورهم تسمعه البهائم**»[١]

صدق رسول الله ﷺ

• فى رحاب هذه الوصية •

أخى الحبيب:

وبعد ما زودنا الصحابى الجليل «البراء بن عازب» ﵁ بوصية النبى ﷺ عن ذلك اليوم الرهيب، يوم دخول القبر، وجعلنا نستعد لدخول بيت الظلمة، بيت الوحدة، وبيت الغربة والدود، فى قول النبى المصطفى «**لمثل هذا اليوم فأعدوا**» أو: «**لمثل هذا فأعدوا**» ها هى أم مبشر الأنصارية ﵂، تروى لنا وصية لرسول الله ﷺ، والوصية من الرسول لأم مبشر كان لها موقف، حيث إنها كانت فى بستان فيه نخل لأناس من بنى النجار، وإذ برسول الله ﷺ يمر عليها، وكان فى البستان بين النخل قبور أناس، ماتوا فى الجاهلية، ولما رأى الرسول ﷺ هذه القبور، وأعلمه رب العالمين أنهم يعذبون، إذ به يسارع إلى الخروج من هذا المكان، ويقول: «**استعيذوا بالله من عذاب القبر**» فاندهشت أم مبشر وقالت: يا رسول الله أيكون فى القبر عذاب؟ فقال لها النبى ﷺ «**نعم، حتى أن البهائم تسمعه**» والوصية عامة للأمة المحمدية، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فهيا بنا نتدبر هذه الوصية، لعل الله أن ينجينا من عذاب القبر، إنه ولى ذلك والقادر عليه.

• عذاب القبر ونعيمه فى القرآن الكريم •

يقول ابن القيم(٢):

إن نعيم البرزخ وعذابه مذكور فى القرآن الكريم فى غير موضع، قال تعالى: ﴿ **وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ** ﴾[الأنعام: ٩٣] فهذا خطاب لهم

---

(١) رواه الإمام مسلم فى صحيحه وأحمد فى مسنده (٢٦٩٢٣) بإسناد صحيح جـ١٨/ ٥٠٤ وصحح نحوه الألبانى فى ص.ج (١٩٢).

(٢) الروح لابن القيم ص١١٨ ط/ مكتبة نصير.

عند الموت، وقد أخبرت الملائكة وهم صادقون. وقال تعالى: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥، ٤٦] فهذه الآية حجة واضحة لأهل السنة الذين أثبتوا عذاب القبر، فإن الحق تبارك وتعالى قرر أن آل فرعون يعرضون على النار غدواً وعشياً، وهذا قبل يوم القيامة.

ويقول سبحانه: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة: ١٠١].

فالآية تدل على أنهم سيعذبون مرتين، وهم المنافقون، وذلك قبل حلول يوم القيامة.

العذاب الأول: مايصيبهم الله به في الدنيا، إما بعقاب من عند الله، وإما بأيدي المؤمنين.

والعذاب الثاني: عذاب القبر.

قال الحسن البصري: «سنعذبهم مرتين: عذاب الدنيا، وعذاب القبر»(١)

وقال الطبري: والأغلب أن إحدى المرتين عذاب القبر، والأخرى تحتمل أحد ما تقدم ذكره من الجوع أو السبي، أو القتل، أو الإذلال، أو غير ذلك(٢)

قال ابن عباس: العذاب الثاني في القبر.

وقال سبحانه: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١] وقد احتج بهذه الآية جماعة من العلماء والفقهاء منهم عبد الله بن عباس رضي الله عنهما على عذاب القبر.

يقول ابن القيم: وفي الاحتجاج بها شيء، لأن هذا عذاب في الدنيا يستدعي به رجوعهم من الكفر، ولم يكن هذا يخفى على حبر الأمة، وترجمان القرآن، لكن من فقه في القرآن، ودقق فيه فهم منها عذاب القبر، فإنه سبحانه أخبر أن له فيهم عذابين: أدنى، وأكبر، فأخبر أنه يذيقهم بعض الأدنى ليرجعوا، فدل على أنه بقي لهم من الأدنى بقية، يعذبون بها بعد عذاب الدنيا، ولهذا قال: من العذاب الأدنى، ولم يقل: ولنذيقنهم العذاب الأدنى فتأمله وهذا نظير قول النبي ﷺ «**فيفتح له طاقة إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها**» ولم يقل: يأتيه حرها وسمومها، فإن الذي وصل إليه بعض «جزء» من ذلك، وبقي له أكثره، والذي ذاقه أعداء الله في الدنيا بعض العذاب الأدنى، وبقي لهم ما هو أعظم منه (٣)

(١)، (٢) فتح الباري لابن حجر ٣/ ٢٣٣

(٣) الروح ص ١٢٠

ومنها قوله سبحانه: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الواقعة: ٨٣: ٩٤]. فذكر ها هنا أحكام الأرواح عند الموت، وذكر في أول السورة «أى الواقعة» أحكامها يوم المعاد الأكبر، وقدم ذلك على هذا تقديم الغاية للعناية، إذ هى أهم وأولى بالذكر، وجعلهم عند الموت ثلاثة أقسام، كما جعلهم فى الآخرة ثلاثة أقسام(١)

ومنها قوله تعالى عن قوم نوح عليه السلام لما عصوا الجبار جل وعلا: ﴿أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ [نوح:٢٥] يقول الإمام الرازى:

تمسك أصحابنا فى إثبات عذاب القبر بقوله: ﴿أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ وذلك من وجهين:

الأول: أن الفاء فى قوله تعالى: (فأُدخلوا) تدل على أنه حصلت تلك الحالة عقيب الإغراق فلا يمكن حملها على عذاب الآخرة، وإلا بطلت دلالة هذه الفاء.

الثانى: أنه قال: (فأُدخلوا) على سبيل الإخبار عن الماضى. وهذا يصدق لو وقع ذلك(٢)

ومنها قوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر ٢٩].

• عذاب القبر ونعيمه فى السنة المطهرة •

اعلم أخى الحبيب: أنه كما دلت الآيات القرآنية المباركة على ثبوت عذاب القبر، فقد دلت السنة المطهرة على ثبوت عذاب القبر ونعيمه حتى بلغت الأحاديث حد التواتر يقول الشيخ حافظ حكمى:

«وأما نصوص السنة فى إثبات عذاب القبر، فقد بلغت الأحاديث فى ذلك مبلغ التواتر، إذ رواها أئمة السنة، وحملة الحديث ونقاده، عن الجم الغفير، والجمع الكثير من أصحاب رسول الله ﷺ، منهم أنس بن مالك، وعبد الله بن عباس، والبراء بن عازب، وعمر بن الخطاب، وابنه عبد الله، وعائشة أم المؤمنين. وغيرهم(٣) ومنها:

١- عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: مرَّ النبى ﷺ على قبرين، فقال «إنهما ليعذبان

---

(١) الروح لابن القيم ص١٢٠

(٢) مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) للرازى جـ٣٠/ ٧٥١ ط/ دار الغد.

(٣) شرح الطحاوية.

وما يعذبان فى كبير» ثم قال: «**بلى. أما أحدهما: فكان يمشى بـالنميمة، وأما الآخر، فكان لا يستتر من بوله»** ثم دعا بجريـدة رطبة. فكسرها كسـرتين، فوضع على كل قبر مـنهما كسرة، فقيل: يا رسول الله، لمَ فعلت هذا؟ فقال: «**لعله أن يخفف عنهما ما لم تيبسا**»(١) فقـد دل الحديث علـى أن هناك أناس فى قبـورهم يعـذبون، ولهذا كـان النبى ﷺ يعلم أصحابه والأمة أجمع كيف يستعيـذون من عذاب القبر، فعن ابن عباس أيضا أن رسول الله ﷺ كان يعلمـهم هذا الدعاء، كما يعلمـهم السورة من القرآن فيـقول: **قولوا: «اللهم إنا نعوذ بك من عذاب جهنم، وأعوذ بك من عذاب القـبر، وأعوذ بك من فتنة المسيخ الدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات»**(٢)

وكان يقولـها بعد التشـهد الأخير، وقبل الـسلام، فلو لم يكن فى القبـر عذاب لما استعاذ رسول الله ﷺ، ولما علم أمته أن يستعيذوا منه.

٢- وهذا هو حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه وفيه يأمرنا بالاستعاذة من ثلاث:

أ- عذاب القبر. ب- الفتن ما ظهر منها وما بطن. جـ- فتنة المسيخ الدجال. فيقول:

«شهدت رسول الله ﷺ فى حائط لبنى النجار، وكان على بغلة له، ونحن معه، إذ حادت به، فكـادت تلقيه، وإذ بأقـبر خمـسة أو ستة، فـقال: «**من يعرف أصحاب هذه الأقبر؟** فقال رجل: أنا، قال: «**فمتى مات هؤلاء؟**» قال: ماتوا فى الإشراك. فقال: «**إنَّ هذه الأمة تبـتلى فى قبورهـا، فلولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسـمعكم من عذاب القـبر الذى أسمع منه، ثم أقبل علينا بوجهه فقال: «تعوذوا بالله من عذاب القبر» قالوا: نعوذ بالله** من عذاب القبر، قال: «**تعوذوا بالله من الفتن ما ظهـر منها وما بطن» قالوا: نعوذ بالله من** الفتن ما ظهر منها وما بطن. قال: «**تعوذوا بالله من فتنة الدجال» قالوا: نعوذ بالله من فتنة** الدجال»(٣)

٣- ومنها حديث أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**الميت يعذب ببكـاء الحى، إذا قالت الـنائحة: واعـضداه، وانـاصراه، واكـاسبـاه، جبـذ الميت وقـيل: أنت عضدهـا؟ أنت ناصرها؟ أنت كاسـبها؟** وفى رواية للترمذى: «**ما من مـيت يموت فيـقوم باكيه، فيقول: واجبلاه، واسنداه، أو نحو ذلك إلا وُكِّل به ملكان يلهزانه: أهكذا كنت؟**»(٤).

٤- ومنها حديث عائشة رضي الله عنها قالت: دخلت علىَّ عـجوزان من يهود المدينة فقالتا: إنَّ أهل القبور يعـذبون فى قبورهم. قالت: فكذبتهـما، ولم أنعم أن أصدقهما، فـخرجتا

---

(١) رواه البخارى ومسلم وغيرهما.

(٢) رواه مسلم والترمذى ومالك فى الموطأ. (٣) رواه مسلم وأحمد فى مسنده.

(٤) رواه الترمـذى (٣ ١) وابن ماجه (١٥٩٤) والحاكم ٢/ ٤٧١ وصـححه، وورواه أحمـد فى مسنده (١٩٦٠٤) بإسناد صحيح ١٥/ ١٣

ودخل عليَّ رسول الله ﷺ، فقلت له: يا رسول الله، إنّ عجوزين من عجز يهود المدينة دخلتا على فزعمتا أن أهل القبور يعذبون في قبورهم، فقال: «**صدقتا إنهم يعذبون عذابًا تسمعه البهائم**» ثم قالت: فما رأيته بعد في صلاة إلا يتعوذ من عذاب القبر[(١)]

والأحاديث في هذا كثيرة متواترة، وقد دلت الأخبار بأن القبر يكون فيه نعيم للمؤمنين الصالحين، فقد روى البيهقي وغيره عن هانئ مولى عثمان، قال: كان عثمان إذا وقف على قبر بكى حتى تبتل لحيته، فيقال له: تذكر الجنة والنار فلا تبكي، وتبكي من هذا؟ فيقول: إن رسول الله ﷺ قال: «**إن القبر أول منازل الآخرة، فإن نجا منه، فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج منه، فما بعده أشد منه**»[(٢)]

وعن وهب بن منبه قال: كان عيسى عليه السلام واقفًا على قبر، ومعه الحواريون، فذكروا القبر ووحشته وظلمته وضيقه، فقال عيسى عليه السلام: كنتم في أضيق منه في أرحام أمهاتكم، فإذا أحب الله تعالى أن يوسع وسع[(٣)].

وعن المغيرة بن حبيب، أن عبد الله بن غالب الحداني قتل في المعركة شهيدًا، فلما دفن أصابوا من قبره رائحة المسك، فرآه رجل من إخوانه في منامه، قال: ما صنعت؟ قال: خير الصنيع، قال: إلامَ صرت؟ قال: إلى الجنة، قال: بم؟ قال. بحسن اليقين، وطول التهجد، وظمأ الهواجر، قال: فما هذه الرائحة الطيبة التي توجد من قبرك؟ قال: تلك رائحة التلاوة والظمأ[(٤)]

وعن مالك بن دينار قال: نزلت في قبر عبد الله بن غالب، فأخذت من ترابه، فإذا هو مسك، وفتن الناس به، فبعث إلى قبره فسوى[(٥)]

• سؤال الملكين في القبر •

يقول ابن القيم:

«وأما أحاديث عذاب القبر، ومساءلة منكر ونكير، فكثيرة متواترة عن النبي ﷺ»

ويقول شارح الطحاوية:

«وقد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ في ثبوت عذاب القبر ونعيمه، لمن كان أهلاً لذلك، وسؤال الملكين، فيجب اعتقاد ثبوت ذلك، والإيمان به، ولا تتكلم في كيفيته، إذ ليس للعقل وقوف على كيفيته، لكونه لا عهد له به في هذه الدار، والشرع لا

(١) رواه مسلم باب استحباب التعوذ من عذاب القبر.

(٢) رواه البيهقي في السنن ٤/ ٥٦ وابن ماجه وحسنه الألباني في ص.ج (١٦٨٤).

(٣) رواه أحمد في الزهد وابن أبي الدنيا في كتاب القبور والسيوطي في شرح الصدور ص١٩٥

(٤) ذكره أبو نعيم في الحلية ٢/ ٢٥٨ وابن الجوزي في صفة الصفوة ٣/ ١٩٧

(٥) ذكره أحمد في الزهد والسيوطي في شرح الصدور ص١٣٨

يأتى بما تحيله العقول، ولكنه قد يأتى بما تحار به العقول، فإن عود الروح إلى الجسد ليس على الوجه المعهود فى الدنيا، بل تعاد الروح إليه إعادة غير الإعادة المألوفة فى الدنيا» ثم يقول:

«وليس السؤال فى القبر للروح وحدها، كما قال ابن حزم وغيره، وأفسد منه قول من قال: إنه للبدن بلا روح! والأحاديث الصحيحة ترد القولين، وكذلك عذاب القبر يكون للنفس والبدن جميعًا، باتفاق أهل السنة والجماعة، تنعم النفس، وتعذب مفردة عن البدن ومتصلة به».

والعبد فى قبره يسأل عن الله عز وجل -أى عقيدته- وعن الإسلام، وعن رسول الله ﷺ، ويسأل عن عمله، وعن القرآن الكريم.

فأما المؤمن، فيثبته الله تعالى بالقول الثابت كما قال سبحانه: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧] وأما الكافر أو المنافق فيقول لا أدرى هاه هاه! كما قال سبحانه: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

ولقد دل على ذلك حديث البراء بن عازب الطويل، وغيره من الأحاديث المتواترة ومنها حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «**إن العبد إذا وضع فى قبره وتولى، وذهب أصحابه حتى أنه ليسمع قرع نعالهم، أتاه ملكان فأقعداه، فيقولان له: ما كنت تقول فى هذا الرجل -محمد ﷺ- فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقال: انظر إلى مقعدك من النار أبدلك الله به مقعداً من الجنة. قال النبى ﷺ: فيراهما جميعًا. وأما الكافر أو المنافق، فيقول: لا أدرى، كنت أقول ما يقول الناس، فيقال: لا دريت ولا تليت، ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعه من يليه إلا الثقلين**»(١).

وحديث سيدنا أبى هريرة رضي الله عنه: «**إذا قبر الميت أو قال: أحدكم- أتاه ملكان أسودان أزرقان، يقال لأحدهما: المنكر والآخر النكير، فيقولان: ما كنت تقول فى هذا الرجل؟ فيقول ما كان يقول: هو عبد الله ورسوله أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، فيقولان: قد كنا نعلم أنك كنت تقول هذا، ثم يفسح له فى قبره سبعون ذراعًا فى سبعين، ثم ينور له فيه، ثم يقال له: نم، فيقول: أرجع إلى أهلى فأخبرهم، فيقولان: نم كنومة العروس الذى لا يوقظه إلا أحب أهله إليه حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك. وإن كان منافقًا قال: سمعت الناس يقولون، فقلت مثله، لا أدرى، فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول ذلك، فيقال للأرض التئمى عليه، فتلتئم عليه، فتختلف أضلاعه، فلا يزال فيها معذبًا حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك**»(٢)

(١) رواه البخارى (١٣٣٨) وأبو داود (٣٢٣١) وأحمد فى مسنده.

(٢) رواه الترمذى وقال الأرنؤط: إسناده قوى.

وفى حديث البراء بن عازب رضي الله عنه: «...**وتعاد روحه، فيأتيه ملكان شديدا الانتهار، فينهرانه ويجلسانه، فيقولان: من ربك؟ وما دينك؟ فيقول: ربى الله، ودينى الإسلام، فيقولان: ما تقول فى الرجل الذى بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله. فيقولان: ما يديه؟ فيقول: جاء بالبينات من ربنا، فآمنت به وصدقت**»(١)

• الأسباب المنجية من عذاب القبر •

أخى الحبيب:

كل منا يتمنى بعد ما عرف أن فى القبر ألوانًا متعددة من العذاب والفتن، يتمنى النجاة من عذاب القبر، ويرجو الله تعالى أن يجعله له روضة من رياض الجنة، لكن ما السبيل إلى ذلك؟ هيا بنا لنتعرف على ذلك:

١- الموت يوم الجمعة أو ليلة الجمعة:

لأنه يوم مبارك، تغلق فيه أبواب جهنم، فعن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من مسلم يموت يوم الجمعة أو ليلة الجمعة إلا وقاه الله فتنة القبر**»(٢)

قال السيوطى: ومن مات يوم الجمعة، فقد انكشف الغطاء عما له عند الله تعالى، لأن يوم الجمعة لا تسجر فيه نار جهنم، وتغلق أبوابها، ولا يعمل سلطان النار ما يعمل سائر الأيام، فإذا قبض الله عبداً من عبيده، فوافق فى هذا اليوم العظيم إلا من كتب الله له السعادة عنده، فلذلك يقيه فتنة القبر، لأن سببها إنما هو تميز المنافق من المؤمن(٣)

٢- قراءة سورة الكهف وحفظها وسورة تبارك (الملك):

روى عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**هى المانعة، هى المنجية، تنجيه من عذاب القبر**»(٤)

ويحدثنا المحدث الكبير أبو هريرة رضي الله عنه أنه سمع من رسول الله ﷺ أنه قال: «**فى القرآن سورة ثلاثون آية شفعت لصاحبها حتى غفر له**(٥) ﴿تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾» [الملك: ١].

٣- الجهاد فى سبيل الله والشهادة من أجل إعلاء كلمته:

فعن المقداد بن معد يكرب أن النبى ﷺ قال: «**للشهيد عند الله ست خصال: يغفر له فى أول دفقة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من العذاب**

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأحمد وأبو داود وغيرهم.

(٢) رواه أحمد (٦٥٨٢) جـ٦/١٥٣، ١٥٤ وضعفه أحمد شاكر ورواه الترمذى (١٠٧٤) وقال: حسن غريب وحسنه الألبانى بمجموع طرقه فى أحكام الجنائز ص٥٠.

(٣) شرح الصدور للسيوطى ص١٩٠

(٤) أبو نعيم فى الحلية ٣/ ٨١ والترمذى (٢٨٩٠) والطبرانى فى الكبير وإسناده صحيح.

(٥) رواه أبو داود (١٤٠٠) وصححه الألبانى ورواه الترمذى (٢٨٩١) وابن ماجه (٣٧٨٦).

الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين»(١)

ويأتي رجل إلى النبي ﷺ يقول: يا رسول الله، ما بال المؤمنين يفتنون في قبورهم إلا الشهيد؟!

فقال ﷺ: **«كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة»**(٢)

٤- من مات مبطونًا:

قال عبد الله بن يسار: كنت جالسًا عند سليمان بن صرد، وخالد بن عرفطة، فذكرا أن رجلاً مات ببطنه، فإذا هما يشتهيان أن يشهدا جنازته، فقال أحدهما للآخر: ألم يقل رسول الله ﷺ: **«من يقتله بطنه لم يعذب في قبره»**(٣)

٥- الرباط في سبيل الله:

وهو ملازمة ثغور المسلمين خشية هجوم الأعداء، فعن فضالة بن عبيد ؓ عن رسول الله ﷺ قال: **«كل ميت يختم على عمله إلا الذي مات مرابطًا في سبيل الله، فإنه ينمو له عمله إلى يوم القيامة، ويأمن من فتنة القبر»**(٤)

وعن سلمان الفارسي ؓ أن رسول الله ﷺ قال: **«رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله وأجرى عليه رزقه، وأمن من الفتان»**(٥) أي فتنة القبر.

٦- الأعمال الصالحة:

قال تعالى: ﴿**وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ**﴾ [الروم: ٤٤] أي في القبر.

فعن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الميت إذا وضع في قبره إنه ليسمع خفق نعالهم حين يولوا عنه، فإن كان مؤمنًا كانت الصلاة عند رأسه، وكان الصيام عن يمينه، وكانت الزكاة عن يساره، وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجليه، فيؤتى من رأسه، فتقول الصلاة: ما قبلي مدخل، ثم يؤتى عن يمينه، فتقول كالصيام: ما قبلي مدخل، ثم يؤتى عن يساره، فتقول الزكاة: ما قبلي**

---

(١) رواه أحمد في مسنده والترمذي (١٧١٢) وابن ماجه (٢٧٩٩) بإسناد صحيح.

(٢) رواه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول والنسائي ٤/ ٩٩ بإسناد صحيح.

(٣) رواه أحمد في مسنده (١٨٢٢٦) بإسناد صحيح والترمذي (١٠٧٠) والنسائي ٤/ ٩٧ والطبراني في الكبير

(٤) رواه البخاري في الأدب المفرد (٩٩٦) وأبو داود وصححه الألباني برقم (٢٥٠٠) وابن حبان.

(٥) رواه مسلم وأحمد والترمذي وابن حبان.

مدخل، ثم يؤتى من قبل رجليه، فيقول فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف.. ما قبلي مدخل»[١]

• أسباب عذاب القبر •

إن العبد المؤمن ينعم فى قبره على حسب أعماله، ويعذب الفاجر فيه على حسب أعماله، ويختص كل عضو بعذاب يليق بجنايته:

فتقرض شفاه المغتابين الذين يمزقون لحوم الناس، ويقعون فى أعراضهم بمقاريض من نار.

وتسجر بطون أكلة الربا بالحجارة، ويسبحون فى أنهار من الدم، كما يسبحون فى الكسب الخبيث وتُرض رءوس النائمين عن الصلاة المكتوبة بالحجر العظيم.

ويشق شدق الكذاب الكذبة العظيمة بكلاليب الحديد إلى قفاه، ومنخره إلى قفاه.

وتعلق النساء الزوانى بثديهن.

وتحبس الزناة والزوانى فى التنور المحمى عليه، فيعذب محل المعصية منهم، وما هو إلا سافل وتسلط الهموم والغموم والأحزان والآلام النفسانية على النفوس البطالة التى كانت مشغوفة باللهو واللعب والبطالة، فتصنع الآلام فى نفوسهم كما تصنع الهوام والديدان فى لحومهم، حتى يأذن الله بانقضاء أجل العالم وطى الدنيا [٢]

ولذلك يتبين لنا أن من أسباب عذاب القبر ما يأتى:

١- الشرك بالله تعالى:

ففى حديث جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ دخل نخلاً لبنى النجار، فسمع أصوات رجال من بنى النجار، ماتوا فى الجاهلية يعذبون فى قبورهم، فخرج رسول الله ﷺ فزعًا، فأمر أصحابه أن يتعوذوا من عذاب القبر[١]

وفى قوله تعالى عن فرعون وقومه: ﴿**النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ**﴾ [غافر: ٤٦] فعرضهم على النار فى القبر، والعذاب الشديد فى الآخرة لكفرهم.

٢- المشى بالنميمة، وعدم الاستبراء من البول:

للحديث الذى سبق عن ابن عباس: «**إنهما ليعذبان، وما يعذبان فى كبير.. كان أحدهما لا يستتر من بوله، وكان الآخر يمشى بالنميمة**»[٤]

---

(١) رواه ابن حبان (٧٨١) والحاكم ١/ ٣٧٩ وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبى.

(٢) تحفة المودود بأحكام المولود لابن قيم الجوزية تحقيق مصطفى العدوى ص٣٦٤

(٣) رواه أحمد، وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ٣/ ٥٥ وقال رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

(٤) رواه البخارى وتقدم ذكره.

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «**أكثر عذاب القبر من البول**»(١).

٣- الإعراض عن ذكر الله:

قال سبحانه: ﴿**ومنْ أعْرَض عن ذكْرِي فَإِنَّ لَهُ معِيشَةً ضَنكًا**﴾ [طه: ١٢٤] قال ابن كثير: إنه «عذاب القبر»(٢)

وقال ابن القيم: «وفسرت المعيشة الضنك بعذاب القبر، ولا ريب أنه من المعيشة الضنك، والآية تتناول ما هو أعم منه»(٣)

٤- جر الإزار كبراً وخيلاء:

ودل عليه حديث ابن عمر رضي الله عنه قال: «**بينما رجل يجر إزاره إذ خسف به فهو يتجلجل إلى يوم القيامة**»(٤) ومعنى يتجلجل: أى يهوى فى الأرض ويسوخ فى أسفلها.

٥- النياحة على الميت:

إلا إذا أوصى بعدم النواح عليه -أى الصراخ والعويل- ففى حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «**إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه**»(٥)

٦- أمر الناس بالبر، وعدم الالتزام به:

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «**رأيت ليلة أسرى بى رجالاً تقرض شفاههم بمقاريض من نار، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: خطباء أمتك، يأمرون الناس بالبر، وينسون أنفسهم**»(٦)

٧:١١- الكذابون والزناة وأكلة الربا، والنوم عن الصلاة المكتوبة، والامتناع عن إرضاع الأولاد بغير عذر والإفطار فى رمضان من غير عذر:

كل هذا يجمعه حديث أبى أمامة الباهلى رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**بينما أنا نائم إذ أتانى رجلان فأخذا بضبعى، وأتيا بى جبلاً، فقالا لى: اصعد. فقلت: إنى لا أطيقه. فقالا: إنا سنسهله لك. قال: فصعدت حتى إذا كنت فى سواء الجبل، إذا أنا بأصوات شديدة، فقلت: ما هذه الأصوات؟. قال: هذا عواء أهل النار. ثم انطلق بى فإذا بقوم معلقين بعراقيبهم مشققة أشداقهم، تسيل أشداقهم دمًا، قال: قلت: من هؤلاء؟. قال: هم الذين يفطرون قبل تحلة صومهم. ثم انطلق بى، فإذا أنا بقوم أشد شىء انتفاخًا، وأنتنه ريحًا، وأسوءه منظرًا قلت: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء قتلى الكفار. ثم انطلق بى، فإذا أنا بقوم**

---

(١) رواه أحمد فى مسنده (٨٣١٣) بإسناد صحيح ورواه الحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين ولا أعلم له علة.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ١٦٩ وقال: رواه البزار بإسناد جيد.

(٣) الداء والدواء لابن القيم ص١٥٥ ط/ دار الخلفاء تحقيق السيد العربى.

(٤) رواه البخارى.

(٥) رواه أحمد والبخارى.

(٦) رواه أحمد بإسناد صحيح وذكره الألبانى فى السلسلة الصحيحة برقم (٢٩١).

أشد انتفاخًا، وأنتنه ريحًا، وأسوءه منظرًا، كأن ريحهم المراحيض. قلت: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الزانون والزواني.

ثم انطلق بي، فإذا بنساء ينهشن ثديهن الحيات، قلت: من هؤلاء؟.

قال: هؤلاء الذين يمنعن أولادهن ألبانهن.

ثم انطلق بي، فإذا بغلمان يلعبون بين نهرين، قلت: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذراري المؤمنين(١) نسأل الله أن يعفينا من عذاب القبر.

• موعظة •

إخواني:

إنكم تغدون وتروحون في آجال قد غيبت عنكم، وإن أجل المرء ليس بيده.

ويحك أنت في القبر محصور إلى أن ينفخ إسرافيل في الصور، ثم راكب أو مجرور، حزين أو مسرور، مطلق أو مأسور، فما هذا اللهو والغرور، الحازم من تزود لما به قبل أن يصير لمآبه.

تذكروا الصرعة بين الأهل وهم لا يقدرون على ضر ولا نفع، والله ما بات عاقل قط إلا على فراش حذر، إنما هو دبيب من سقم ثم تؤخذون بالكظم، فإن زلت القدم لم ينفع ندم، لا توبة تنال، ولا عثرة تقال، ولا فداء بمال.

يا عجبًا كيف آنس بالدنيا مفارقها، وآمن النار واردها، كيف يغفل من لا يغفل عنه، كيف يفرح بالدنيا من يومه يهدم شهره، وشهره يهدم سنته، وسنته تهدم عمره؟!.

أخي الحبيب:

أما تعلم أن الموت يسعى في تبديد شملك؟ أما تخاف أن تؤخذ على قبيح فعلك؟ واعجبًا لك من راحل تركت الزاد في غير رحلك!

يا واقفًا تسأل القبر أفق ... فأهلها اليوم عنك قد شغلوا
قد هالهم منكر وصاحبه ... وخوف ما قدموا وما عملوا
رهائن للثرى على مدر ... يسمع للدود بينهم زجلُ
سرى البلى في جسومهم فجرت ... دمًا وقيحًا وسالت المقلُ
سكرى ولم يشربوا الفقار ومن ... كئوس المنون ما نهلوا

أين من لعب ولها؟ أين من غفل وسها؟ دهاه أفظع ما دهى، وحط ركنه فوهى، ذهبت لذة ذنوبه وحبس بها، نظر في عاجله، ونسي المنتهى.

---

(١) رواه النسائي في السنن وابن حبان في صحيحه والحاكم وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

اللهم خفف عنا سكرات الموت، وخفف عنا عذاب القبر، وثبتنا عند السؤال، واحشرنا يا ربنا مع حبيب قلوبنا، واسقنا من حوضه شربة هنيئة لا نظمأ بعدها حتى ندخل الجنة.

انتهى الجزء الأول

من كتاب «الوصايا المنبرية من وصايا الرسول ﷺ»

ويليه الجزء الثاني

ويبدأ بالوصية رقم (٥٣)

فهرس الجزء الأول من الوصايا المنبرية

الموضـــــــــوع	الصفحة
المقدمة	٣
الوصيـة رقم (١) تعلموا الفاتحة	٧
الوصيـة رقم (٢) حافظوا على الصلوات الخمس	٢١
الوصيـة رقم (٣) اجعلوا لبيوتكم نصيبًا من صلاتكم	٣٤
الوصيـة رقم (٤) عليكم بالصدق	٣٨
الوصيـة رقم (٥) عليكم بالسواك	٥٤
الوصيـة رقم (٦) اتقوا الظلم	٦٢
الوصيـة رقم (٧) إن الله فرض عليكم الحج فحجوا	٨٠
الوصيـة رقم (٨) تابعوا بين الحج والعمرة	٩٩
الوصيـة رقم (٩) صومى عنها. حجى عنها	١٠٧
الوصية رقم (١) ضحوا فإنها سنة أبيكم إبراهيم	١١٦
الوصية رقم (١١) أحسنوا فى كل شىء	١٢٢
الوصية رقم (١٢) اتق المحارم	١٢٨
الوصية رقم (١٣) استعيذوا بالله من الشيطان الرجيم	١٣٦
الوصية رقم (١٤) ارحموا من فى الأرض	١٤٣
الوصية رقم (١٥) احضروا الجمعة	١٥٠
الوصية رقم (١٦) لا تغضب	١٦٠
الوصية رقم (١٧) إياكم ومحقرات الذنوب	١٦٩

الموضـــــوع	الصفحة
الوصية رقم (١٨) تعاهدوا جيرانكم	١٧٥
الوصية رقم (١٩) إذا أحب أحدكم صاحبه فليخبره	١٩٣
الوصية رقم (٢) من رأى منكـم منكراً	٢٠٤
الوصية رقم (٢١) إياك والالتفات فى الصلاة	٢٢٤
الوصية رقم (٢٢) بروا آباءكم وصلوا أرحـامكم	٢٣٤
الوصية رقم (٢٣) عودوا المريض واتبـعوا الجنائز	٢٥٠
الوصية رقم (٢٤) اتقوا الشح	٢٥٩
الوصية رقم (٢٥) إذا رأيت رؤيا تحبها فاحمد الله	٢٦٨
الوصية رقم (٢٦) لا تشربن الخمر	٢٧٥
الوصية رقم (٢٧) اعقلهـا وتوكل	٢٨٢
الوصية رقم (٢٨) أمسك عليك هذا	٢٩٣
الوصية رقم (٢٩) أكثروا من ذكر هاذم اللذات	٣٠٤
الوصية رقم (٣) حاسبوا أنفسكم	٣١٧
الوصية رقم (٣١) من استطاع منكم البـاءة فليتزوج	٣٢٢
الوصية رقم (٣٢) أدِّ الأمانة لمن ائتمنك	٣٤٠
الوصية رقم (٣٣) أمروا أحدكم	٣٥٩
الوصية رقم (٣٤) دع ما يريبك إلى ما لا يريبك	٣٦٥
الوصية رقم (٣٥) سلوا الله وأنتم موقـنون بالإجابة	٣٧١
الوصية رقم (٣٦) آثروا ما يبقـى على ما يفنى	٣٧٧
الوصية رقم (٣٧) انظروا إلى من هو أسفل منكم	٣٨٤

الموضــــــوع	الصفحة
الوصية رقم (٣٨) عليكم بسنتى	٣٩٢
الوصية رقم (٣٩) قل خيرًا أو اصمت	٤٠٣
الوصية رقم (٤) سلوا الله العافية وإياكم والكذب	٤١٢
الوصية رقم (٤١) خذوا العلم بحظ وافر	٤٣١
الوصية رقم (٤٢) استحيــوا من الله حق الحياء	٤٤٢
الوصية رقم (٤٣) إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث	٤٥٩
الوصية رقم (٤٤) صومــوا لرؤيته	٤٧٩
الوصية رقم (٤٥) من عمل عمل قــوم لوط فاقتلوه	٤٩٩
الوصية رقم (٤٦) لمثل هذا فأعدوا	٥١١
الوصية رقم (٤٧) اتقى الله واصبرى	٥١٩
الوصية رقم (٤٨) استوصوا بالنساء	٥٣٣
الوصية رقم (٤٩) لا تحاسدوا	٥٤٣
الوصية رقم (٥٠) استوصوا بأصحابى خيرًا	٥٦١
الوصية رقم (٥١) من ذكرت عنده فلـيصل على	٥٧٣
الوصية رقم (٥٢) استعيذوا بالله من عذاب القبر	٥٩٣
فهرس الجزء الأول من الوصايا المنبرية	٦٠٥